Arab_Books

رواية

ليف تولستوي

آنا كارينينا

-الكتاب الثاني-

ترجمة: صياح الجهيم

آنا کارینینا

رواية

Author: Лев Никола́евич Толсто́й
Title: Анна Каренина - 2 -
Translator: Sayah Al jhayem
cover designed by: Majed Al Majedy
P.C.: Al - Mada
First Edition: 1984
Second Edition: 1998
Third Edition: 2016

المؤلف: ليف تولستوي
عنوان الكتاب: آنا كارينينا – 2 –
ترجمة: صياح الجهيم
تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: 1984
الطبعة الثانية: 1998
الطبعة الثالثة: 2016

Copyright © Al - Mada

جميع الحقوق محفوظة

للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي ابو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
info@daralmada.com
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@nel.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recoding or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدّماً.

Tele: @Arab_Books

ليف تولستوي

آنا كارينينا

« ٢ »

ترجمة : صياح الجهيم

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

الجزء الرابع

Tele: @Arab_Books

-١-

ظلّ الـزوج والزوجة من آل كارينينا، يسكنان البيت نفسه، ويتلاقيان كل يوم، لكنهما بقيا غريبين تماماً كليهما عن الآخر. وألزم ألكسي ألكسندروفتش نفسه برؤية زوجته كل يوم، حتى لا يبيح للخدم أن يُداخلهم الظن، لكنه كان يتحاشى العشاء في بيته. و لم يكن فرونسكي يتردد على منزل آلا كارينينا، لكن آنا كانت تلاقيه خارج المنزل، وكان زوجها يعلم ذلك.

كان هذا الوضع معذّباً. و لم يكن بطاقة أي منهم احتماله لو لم يعتقد أن ذلك سيتغير؛ وأن ذلك ما هو إلا صعوبة عارضة ستُذلل. كان ألكسي ألكسندروفتش يترجى أن ينتهي هذا الحب، ككل شيء من الأشياء، وأن ينسوه جميعاً، وأن يظل اسمه بغير دنس. أما آنا التي كان الوضع متوقفاً عليها والتي كانت تتألم منه أكثر من سواها، فكانت تحتمل ذلك الوضع لاقتناعها بأن ذلك كله سيُحل وسيتوضَح ذات يوم. لم تكن تدري ما الذي سيحل هذا الوضع، لكنها كانت مقتنعة بأن ذلك الحل سيأتي الآن وبسرعة. أما فرونسكي الذي كان يخضع لها خضوعاً غير إرادي، فكان هو أيضاً ينتظر حدثاً مستقلاً عنه، قادراً على الإطاحة بالعقبات.

Tele: @Arab_Books

في أواسط الشتاء، قضى فرونسكي أسبوعاً مُضجراً جداً. فقد كُلِّف مرافقة أمير أجنبي[1] وصل، منذ وقت قريب، ليريه طرائف بطرسبرج. كان فرونسكي ذا هيبة ووقار؛ وفوق ذلك، فقد كان يملك فن الظهور بمظهر كريم، جدير بالاحترام، وكان من دأبه مخالطة الكبار؛ ولذلك اختير لهذه المهمة. لكن هذا الواجب شق عليه. كان الأمير يريد أن يتمكّن من الإجابة عن جميع الأسئلة التي ستُطرح عليه بعد عودته، ويريد أن ينتهب الملذات، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً: لذلك اضطُر فرونسكي على أن يصطحبه إلى كل مكان. ففي الصباح كانا يذهبان لزيارة طرائف بطرسبرج؛ وفي المساء، كانا يغشيان أماكن اللهو الوطنية. كان الأمير يتمتع بصحة فذّة حتى بالنسبة إلى أمير؛ واكتسب، بالرياضة وبما يبذلُه من عناية بجسمه، قوة عظيمة ظل معها نضراً مثل خيارة هولندية خضراء ولامعة، بالرغم من إفراطه في اللهو. ولقد سافر كثيراً ووجد أن إحدى الميزات الأساسية لسهولة المواصلات الحديثة هي إمكان الوصول إلى الملذات الوطنية. ففي أسبانيا غنّى تحت شباك المحبوبة وغازل إسبانية تعزف على المندولينة، وفي سويسرا اصطاد غزالاً، وفي إنكلترا وثب فوق السياجات وهو يرتدي لباساً أحمر وراهن على قتل مائتي تُدرج، وفي تركيا، دخل قصر الحريم، وفي الهند ركب فيلاً، وهو الآن في روسيا، يريد أن يتذوّق الملذات الروسية الخالصة.

ولقد بذل فرونسكي، وكان يقوم بدور رئيس التشريفات عنده،

١- أمير أجنبي: ربما كان واحداً من الأمراء المالكين الألمان المصاهرين للأسرة الروسية المالكة.

Tele: @Arab_Books

إن صح القول، كثيراً من الجهد ليُدخل في برنامجه مختلف صنوف اللهو التي قدّمتها للأمير شخصيات شتى. فكان هناك سباق الخيل، والفطائر السميكة، وصيد الدب، وسباق العربات، والغجر، وحفلات السكْر التي تُحطّم فيها الآنية. وكان الأمير يتمثل الروح الروسية بسهولة مدهشة، فيكسر أطباقاً كاملة من الآنية ويُجلس غجرية على ركبتيه، ويبدو كمن يتساءل: إن كان هذا هو كل شيء وإن كانت الروح الروسية تقتصر على هذه المظاهر.

الحقيقة أن ما فتنه قبل غيره هو الممثلات الفرنسيات، وراقصة من فرقة الباليه، والشمبانيا ذات الدمغة البيضاء. وكان لفرونسكي عادات الأمراء؛ أكان ذلك لأنه تغير في هذه الآونة الأخيرة أم لأنه يعيش بصحبة هذا الأمير؟ لقد بدا له هذا الأسبوع شاقاً أشد المشقة. كان يُعاني أبداً شعور ذلك الإنسان الذي عُهد إليه بحراسة مجنون خطر، فهو يخشى هذا المجنون ويخاف على عقله من رفقته. وكان فرونسكي يحس، في كل لحظة، بضرورة المحافظة على لهجة المجاملة الرسمية لكي لا يُعرّض نفسه للإهانة. وكان الأمير يُعامل بتعال أولئك الأشخاص الذين كانوا يبذلون قصارى جهدهم –مما أثار دهشة فرونسكي– لكي يُظهروه على المسرات الروسية. أما آراؤه في النساء الروسيات اللائي كان يودّ دراستهن فقد أسخطت فرونسكي غير مرة. لكن إذا كان الأمير حملاً ثقيلاً على فرونسكي، فذلك لأنه كان يرى نفسه حين يراه. وما كان يراه في هذه المرآة لم يكن يُرضي غروره: لقد كان رجلاً شديد الغباء، شديد الرضى عن نفسه، شديد القوة، شديد النظافة، ولا شيء غير ذلك.

Tele: @Arab_Books

صحيح أنه كان سيداً رفيع التهذيب، وفرونسكي لم يكن ينكر ذلك: كان وقوراً، معتدل المزاج مع رؤسائه، مُنفتحاً وبسيطاً مع أنداده، متودداً ومتعالياً مع مرؤوسيه. وفرونسكي كان كذلك، وكان شديد الاعتزاز بهذه الصفات؛ لكنه كان أدنى مرتبة منه، ولذلك فقد كان يثور على تصرفاته المتوددة والمزدرية.

وخاطب نفسه: «إنه لشقة من اللحم الغبي! أمن الممكن أن أكون مثله؟».

ومهما يكن من أمر، فقد كان سعيداً، عندما ودّعه في اليوم السابع قبل سفره إلى موسكو وبُلِّغ شكره، لأنه تخلّص من هذا الوضع المزعج وتلك المرآة الفاضحة للأسرار. واستأذن الأمير في المحطة بعد العودة من صيد الدب الذي دام طوال الليل وكان ذريعة لإظهار البسالة الروسية.

Tele: @Arab_Books

- ٢ -

عندما عاد فرونسكي إلى بيته، وجد بطاقة من آنا كتبت فيها: «أنا مريضة وتعسة. لا أستطيع الخروج، لكني لا أستطيع أن أظل زمناً طويلاً دون أن أراك. تعال هذا المساء. ألكسي ألكسندروفتش يذهب إلى الجلسة في الساعة السابعة ويبقى هناك إلى الساعة العاشرة». فكّر لحظة في غرابة هذه الدعوة، ذلك أن كارينينا قد أوجب ألا يلتقيا تحت سقفه، لكنه قرر الذهاب.

كان فرونسكي قد ترفّع إلى رتبة عقيد، في هذا الشتاء، فترك الثكنة وسكن وحده. وبعد أن تناول غداءه، استلقى على أريكة. فاختلطت ذكريات تلك المشاهد الداعرة التي شاهدها، في هذه الأيام الأخيرة، بعضها ببعض، وامتزجت بذكرى آنا وذكرى فلاح لعب دوراً عظيماً في صيد الدب. وما لبث فرونسكي أن أغفى. لكنه استيقظ في الظلمة وهو يرتجف من الفزع، وأسرع فأضاء شمعة. وقال في نفسه: «ماذا؟ ما هذا؟ ما الشيء المرعب الذي رأيته في الحلم؟ آه! نعم! كان الفلاح القصير الوسخ، المشعّث اللحية، يصنع شيئاً وهو منحن، وفجأة لفظ كلمات غريبة بالفرنسية. لا، لم أحلم بغير هذا، لكن لماذا كان ذلك مرعباً إلى هذا الحد؟». وتذكّر من جديد الفلاح والكلمات غير المفهومة التي ألقاها بالفرنسية، فسَرَت في ظهره رعشة باردة.

Tele: @Arab_Books

وفكر فرونسكي وهو ينظر إلى ساعته: «يا للحماقة!».

كانت الساعة قد بلغت الثامنة والنصف. دعا خادمه وارتدى ثيابه على عجل وخرج. لقد نسي حلمه كلياً و لم يُقلقه سوى تأخره. وعندما دنا من منزل آل كارينينا، ألقى نظرة على ساعته فرأى أن الساعة هي التاسعة إلا عشر دقائق. كانت تقف أمام الدرج عربة عالية وضيقة، يقودها جوادان أشهبان، فتعرّف إلى عربة آنا. وفكر في نفسه: «كانت ستأتي إلى منزلي، وذلك أفضل... إني أكره دخول هذا البيت، لكن، سيّان عندي، ولا أريد أن أبدو كمن يختبئ». ونزل من عربته بيسر اكتسبه منذ الطفولة، كما ينزل رجل لا يخجل من شيء، وصعد درجات المدخل. انفتح الباب ودعا العربة حاجب كان يحمل غطاء بين يديه، ومع أن فرونسكي لا يلاحظ التفاصيل عادة، فقد فاجأ النظرة الدهشة التي حدجه بها الحاجب. وعند العتبة، أوشك أن يصطدم بألكسي ألكسندروفتش. كان قنديل غازي يضيء وجهه الشاحب والنحيل، بقبّعته السوداء وربطة عنقه البيضاء المتميزة عن قبة الفرو في معطفه. حطّت عينا ألكسي ألكسندروفتش الكابيتان والجامدتان على وجه فرونسكي. انحنى فرونسكي ورفع ألكسي ألكسندروفتش يده إلى قبعته، وهو منقبض الفم، وتابع طريقه.

وفكر في نفسه: «ما أعجب هذا الموقف! ولو قاتل ودافع عن شرفه لأمكنني أن أتصرف وأعبّر عن عواطفي، لكن هذا الضعف، أو هذا الجبن... إني أبدو، من جرّاء ذلك، كمن يريد أن يخدعه، مع أن ذلك أبعد ما يكون عني».

Tele: @Arab_Books

تغيّرت أفكار فرونسكي بعد الاستفسار الذي جرى بينه وبين آنا في حديقة «فريد». فهو، حين استسلم لضعف آنا التي وهبته نفسها كاملة و لم تكن تنتظر تغييراً لمصيرها إلا منه، وحين خضع مسبقاً لكل شيء، قد كفّ عن التفكير؛ منذ زمن طويل، في أن هذه العلاقة يمكن أن تنتهي، كما كان يعتقد آنذاك. وتراجعت مشاريعه الطموحة مرة أخرى إلى المحل الثاني، وأحس أنه قد خرج من دائرة النشاط التي يتقرر فيها كل شيء، فانهمك بدون تحفّظ في هذا الهوى الذي كان يربطه بآنا ربطاً يشتدّ أكثر فأكثر.

من البهو، سمع وقع خطوات تنأى. فأدرك أنها كانت تنتظره. وأنها كانت تترقّب، وأنها تعود الآن إلى قاعة الاستقبال.

– لا، إذا استمرت الحال على هذا النحو فسيقع ما قُدّر له أن يقع، في وقت قريب!...

– وماذا دهاك، يا صديقتي؟

– ما الذي دهاني؟ إني أنتظر، إني أتعذب منذ ساعتين... لكن لندع ذلك!... لا أريد أن أخاصمك. لا شك أنك لم تستطع أن تبكّر أكثر من ذلك؟ لن أقول لك شيئاً...

ووضعت يديها على كتفيه وألقت عليه نظرة عميقة، مولّهة ومتفحّصة في آن واحد. كانت تتأمل هذا الوجه عن الوقت كله الذي لم تره فيه، وتقابل، شأنها في كل مرة تلقاه فيها، بين الواقع والصورة التي تصوّرتها عنه (وهي صورة أجمل بما لا يُقاس، بما يتعذر قياسه، من الواقع).

Tele: @Arab_Books

-٣-

سألته، بينما كانا يجلسان قرب الطاولة تحت المصباح:

– هل التقيتَه؟ هذا جزاؤك بسبب تأخّرك.

– نعم، كيف جرى ذلك؟ كان ينبغي أن يكون في الجلسة.

– لقد ذهب إليها، ثم عاد ورجع، ولا أدري إلى أين. لكن ذلك لا أهمية له. لا تكلمني في ذلك بعد. أين كنت؟ مع الأمير دائماً؟

كانت تعرف تفاصيل حياته كلها. أراد أن يقول لها إنه لم ينم طوال الليل، فأغفى، لكنه عندما نظر إلى وجهها المنفعل والسعيد، ندم وقال لها: إنه اضطر إلى الذهاب للإبلاغ عن سفر الأمير.

– لكن كل شيء انتهى الآن؟ لقد سافر؟

– نعم، الحمد لله. لا تستطيعين أن تعلمي كم كان ذلك ثقيلاً علي.

قالت وهي تقطّب بين حاجبيها، وتتناول عن الطاولة شغلَها، وتسحب الصنّارة منه دون أن تنظر إلى فرونسكي:

– ولِمَ ذاك؟ هذه حياتكم، أنتم الشباب.

Tele: @Arab_Books

قال وقد دهش من التغير الذي طرأ على أساريرها محاولاً أن يفهم معناه:

– لقد تخليت عن هذه الحياة، منذ أمد بعيد.

واستأنف بابتسامة كشفت عن أسنانه البيضاء المنتظمة:

– وأضيف أنني تأملت حياتي طوال هذا الأسبوع، كما يتأمل المرء مرآة. كان ذلك ثقيلاً على نفسي.

كانت تمسك شغلها بيد دون أن تعمل وتحدق فيه بنظرة بارقة، غريبة وعدائية. ولمحت:

– مرّت «ليز» علي هذا الصباح... إنهن لا يخفن من المجيء إلي بالرغم من الكونتيسة ليديا إيفانوفنا. وقد حدثتني عن ليلتكم الحمراء. يا للفظاعة!

– كنت أنوي أن أقول لك...

فقاطعته:

– أهي «تيريز» التي عرفتها قديماً؟

– كنت أنوي أن أقول لك...

قالت وهي تمعن في حدتها وتكشف عن سبب اغتياظها:

– ما أكرهكم، أنتم الرجال! كيف لا تفهمون أن المرأة لا يمكن أن

Tele: @Arab_Books

تنسى ذلك، ولا سيما المرأة التي لا تعرف شيئاً عن حياتك... وماذا أعلم عن حياتك، غير الذي قلت لي؟ وكيف أعرف إن كنت تقول الحقيقة؟...

–آنا! أنتِ تجرحينني! ألا تثقين بي؟ ألم أقل لكِ إنني لا أُخفي عنك فكرة من أفكاري؟

قالت وقد بدا عليها أنها تحمل نفسها حملاً على إبعاد هواجس الغيرة:

– بلى، بلى. لكن ليتك تعلم كم يؤلمني ذلـك!... صدقتُك، صدقتُكَ... ماذا كنت تقول؟

لكنه لم يستطع تذكّر ما أراد أن يقوله. ذلك أن عوارض الغيرة التي تزايدت لدى آنا، منذ بعض الوقت، أخذت تُرعبه، وتُخمد حبه، بالرغم من حرصه على إخفاء ذلك، مع أنه كان يعلم أن غيرتها دليل على حبها له. وكم من مرة ناجى نفسه قائلاً إن السعادة لا توجد بالنسبة إليه إلا في هذا الحب؛ وهي الآن تحبه كما يمكن أن تحب امرأة تضع الحب فوق جميع خيرات هذا العالم...

وهو الآن أبعد عن السعادة منه عندما غادر موسكو ليتبعها. كان يعتقد آنذاك أنه تعس، لكن السعادة كانت أمامه، أما الآن فهو يحس بأن أهنأ لحظاته غدت وراءه. لم تعد آنا كما رآها في الأوقات الأولى. ولقد تغيرت جسدياً ونفسياً تغيراً أضر بجمالها. فها هي تعْرض في جميع أجزاء جسدها، وعندما تحدثت عن الممثلة شوَّه وجهها تعبير

Tele: @Arab_Books

حاقد. كان ينظر إليها كما ينظر الرجل إلى زهرة ذابلة قطفها ثم إذا به لا يكاد يعثر على الجمال الذي دفعه إلى قطفها. ومع ذلك فقد أحس أنه عندما كان حبه أعنف ما يكون، كان بإمكانه، لو عزم على ذلك، أن يقتلع ذلك الحب من قلبه؛ أما الآن وقد بدا له أن حبه لها قد تلاشى، فقد كان يعلم أن علاقتهما لا يمكن أن تنفصم.

وأضافت:

– حسناً! ماذا كنت تريد أن تقول عن الأمير؟ لقد طردت الشيطان. (هكذا كانا يسمّيان الغيرة بينهما). ماذا بدأت تقول؟ لم شق ذلك عليك؟

قال وهو يجهد ليمسك بسلك أفكاره، بشيء من الغيظ الذي أثار انتباه آنا:

– آه، إنه لا يطاق! منظره خير من مخبره. وهو أشبه ما يكون بحيوان معلّف من تلك التي تنال أوسمة في المعارض، لا أكثر.

فأجابت:

– بيد أنه رأى كثيراً من الأشياء، وهو مثقف؟

– نعم، لكن تعليمهم مختلف عن تعليمنا. فكأنه ما تعلم إلا لكي يكون له الحق في احتقار التعليم، كما يحتقرون كل شيء، ما عدا الشهوات البهيمية.

قالت:

Tele: @Arab_Books

- لكنكم تحبّونها جميعاً، هذه الشهوات البهيمية.

ولاحظ أن نظرتها اكفهرت مرة أخرى وأنها تحاشت عينيه.

قال لها وهو يبتسم:

- و لِمَ تدافعين عنه هكذا.

- لست أدافع عنه، سيان عندي؛ لكنني أعتقد أنك لو لم تكن تحب أنت نفسك ضروب اللهو هذه، لكان بإمكانك أن ترفض. لكن من دواعي سرورك أن تتأمل «تيريز» وهي عارية...

قال فرونسكي وهو يمسك بيد آنا التي كانت ملقاة على الطاولة، ويلثمها:

- ها هو الشيطان يعود!

- نعم، إن ذلك أقوى مني! لا تستطيع أن تتصور كم تعذّبت وأنا أنتظرك! لا أريد أن أكون غيري، ولست غيري: إني أصدقك عندما تكون هنا، معي؛ لكن عندما تعيش وحدك، في أمكنة أخرى، تلك الحياة التي لا أصل إلى فهمها...

ابتعدتْ عنه، وسحبت الصنارة المغروزة في شغلها وأخذت تَسْرد عقد الصوف الأبيض اللماع تحت ضوء المصباح، الواحدة بجنب الأخرى، بسرعة، مستعينة بسبّابتها. وكان معصمها النحيف يتحرك بعصبية تحت كمّها المطرز.

سألته فجأة بنبرة حادة:

Tele: @Arab_Books

- كيف جرى ذلك إذن؟ أين التقيت ألكسي ألكسندروفتش؟

- اصطدمنا على عتبة الباب.

- وهل حيّاك هكذا؟

ومطّت وجهها، وأغمضت عينيها نصف إغماضة، وغيّرت بسرعة تعبير وجهها، وضمّت يديها. وعلى وجهها الجميل، رأى فرونسكي بغتة تعبير وجه ألكسي ألكسندروفتش عندما حيّاه. فابتسم، وأخذت تضحك بفرح ذلك الضحك الرنان الذي كان أحد مفاتنها.

قال فرونسكي:

- لست أفهمه على الإطلاق. فلو أنه انفصل عنك على الأقل بعد الاستفسار بينكما، أو لو أنه دعاني إلى المبارزة... أما أن يكون كذلك فلست أفهمه: كيف يستطيع أن يتحمّل مثل هذا الوضع؟ من الواضح أنه يتألم.

قالت آنا بضحكة قصيرة:

- هو؟ إنه راضٍ كل الرضا.

- لماذا نتألم جميعاً، عندما يمكن أن يكون كل شيء جميلاً؟

- أما هو فإنه لا يتألم. إني أعرفه أعرف ذلك الكذب الذي يغتذي به... وهل في وسع أحد، إذا كان يملك أدنى قدر من الإحساس، أن يعيش كما يعيش هو معي؟ إنه لا يفقه شيئاً، ولا يحس بشيء. أيستطيع

Tele: @Arab_Books

رجل يملك أدنى قدر من الإحساس أن يعيش هو وزوجته المذنبة تحت سقف واحد، وأن يخاطبها بضمير المفرد.

وقلّدته مرة أخرى: «أنتِ، يا عزيزتي، أنتِ، آنا!...»

وأضافت:

– إنه ليس رجلاً، وإنما هو لعبة. لا يعلم أحد بذلك سواي. أوه! لو كنت مكانه لكنت قد قتلت امرأة مثلي منذ أمد بعيد، لكنت قد مزقتها إرباً إرباً، ولما قلت لها: «آنا، يا عزيزتي». إنه ليس رجلاً، وإنما هو آلة وزارية. إنه لا يفهم أنني امرأتك وأنه غريب غير مرغوب به... لندع الكلام عليه، لندع الكلام عليه!....

قال لها فرونسكي محاولاً تهدئتها:

– أنتِ ظالمة، يا صديقتي. طيب، لن نتكلم عليه. حدثيني عما فعلتِ. ماذا أصابكِ؟ ماهذا المرض الذي ذكره الطبيب؟

نظرت إليه بمرح ساخر. كان واضحاً أنها اكتشفت في زوجها أيضاً سمة مضحكة وأنها تنتظر اللحظة المناسبة لتطلع فرونسكي عليها.

لكنه تابع كلامه:

– أعتقد أن ما بكِ ليس مرضاً وإنما هو الحمل. متى سيتم الوضع؟

انطفأ البريق الساخر من عيني آنا؛ وطافت بشفتيها ابتسامة تكشف عن انشغال وكآبة دفينتين، وغيّرت تعبير وجهها.

Tele: @Arab_Books

– قريباً. قلتَ إن وضعنا معذّب، وأنه ينبغي الخروج منه. لو كنت تعلم كم يرهقني، وكم أدفع لأحبك بجسارة وحرية! إذن لما تعذّبت ولما عذّبتك بغيرتي... سيقع ذلك قريباً، لكن لا كما نعتقد.

وعندما خطر ببالها ما سوف يقع، بدت كمن تأخذها الشفقة على نفسها، واستبقت الدموع إلى عينيها حتى إنها عجزت عن متابعة كلامها. فوضعت يدها البيضاء التي تلألأت خواتيمها على ضوء المصباح، على كم فرونسكي:

– سيقع ذلك على نحو مختلف عما نتصور. لم أكن أشأ أن أحدّثك عن ذلك، لكنك أجبرتني على ذلك. عما قريب، عما قريب، سيُحل كل شيء، وستهدأ نفوسنا، ولن نتألم بعد.

قال:

– لم أفهم.

هذا مع أنه فهم جيداً.

– سألتني: متى؟ وأنا أجيبك: عما قريب. ولن أبقى حية بعد ذلك. لا تقاطعني.

وتابعت بسرعة:

– إني أعلم ذلك؛ هذا يقين. سأموت؛ وهكذا سأتخلص وسأخلّصك وأنا سعيدة بذلك.

سالت الدموع من عينيها؛ انحنى على يدها وغطّاها بالقبل محاولاً إخفاء انفعاله الذي لم يكن له من مسوّغ، لكنه لم يستطع التغلّب عليه.

Tele: @Arab_Books

واستأنفت كلامها وهي تشد على يده بقوة:

– نعم، الأمر أفضل كذلك. لم يبق لنا سوى ذلك.

تمالك نفسه ورفع رأسه:

– يا للغباء! يا لحماقة ما تقولين!

– بلى، هذا صحيح.

– ما الصحيح؟

– سوف أموت. حلمتُ حلماً.

ردد فرونسكي:

– حلمتِ حلماً؟

وفي الحال، تذكّر الفلاح الذي رآه في حلمه.

قالت:

– نعم، كان ذلك منذ وقت طويل. دخلت غرفة النوم راكضة لآخذ شيئاً، أو لأسأل عن شيء.

واتسعت عيناها من الرعب، وأضافت:

– أنت تعلم كيف تجري الأمور في الحلم. كان في ركن الغرفة إنسان...

– آه! يا للحماقة! كيف يمكن أن نصدق...

Tele: @Arab_Books

لم تتح له أن يقاطعها. فما كانت تقوله عظيم الأهمية عندها:

- واستدار، فرأيت فلاحاً قصيراً، مشعّث اللحية ومخيف الهيئة. وأردت أن أهرب لكنه انحنى فوق كيس وأخذ يحرّك شيئاً...

قلّدت الفلاح وهو يفتش في الكيس. وبدا الرعب على وجهها. وأحس فرونسكي أيضاً بالرعب يجتاح نفسه، إذ تذكّر حلمه.

- كان يفتش في الكيس ويدمدم بكلمات فرنسية، بسرعة شديدة، بسرعة شديدة، وهو يلثغ بالراء: «يجب أن نُطرّق الحديد، أن نسحقه، أن نعجنه...» فارتعبت وأردت أن أستيقظ، واستيقظت... لكن في الحلم. وتساءلت عما يعنيه ذلك الحلم. عند ذاك قال لي «كورني»: «عند الولادة، ستموتين عند الولادة، يا عزيزتي...». واستيقظت حقيقة.

قال فرونسكي، وقد أحس أن ليس في صوته قناعة بما يقول:

- يا للغباء، يا للغباء!

- دعنا من الكلام على ذلك. ادع الخدم، سأطلب أن يقدّموا الشاي. لا، انتظر، لم يبق لدينا متّسع من الوقت. وأنا...

وفجأة، توقفت. وتغير تعبير وجهها رأساً.

وحل التأمل الرصين والمتحنن محل الخوف والتأثر. ولم يستطع أن يُدرك علة هذا التغير. لقد أحست بحياة جديدة تختلج في أحشائها.

Tele: @Arab_Books

-٤-

بعد أن التقى فرونسكي على درج المدخل، قصد ألكسي ألكسندروفتش كما كان ينوي، إلى دار الأوبرا الإيطالية. وبقي فيها أثناء الفصلين الأولين، ورأى فيها الأشخاص الذين كان يحتاج إلى رؤيتهم. ولما عاد إلى بيته تطلّع بانتباه إلى المشجب، و لم يجد معطفاً عسكرياً عليه، فمضى إلى غرفته. وخلافاً لعادته، لم ينم، وذرع غرفته حتى الساعة الثالثة صباحاً. إن الغضب الذي ساوره إزاء امرأته التي رفضت مراعاة اللياقة والتقيد بالشرط الوحيد الذي وضعه لها: وهو ألا تستقبل عشيقها في بيته، إن هذا الغضب انتزع منه هدوءه. لقد خالفت الاتفاق فينبغي إذن أن يعاقبها وأن ينفّذ تهديده: سوف يطلب الطلاق وسيحرمها ابنها. كان يعرف جميع الصعوبات التي يثيرها مثل هذا المشروع، لكنه كان قد قال بأنه سيفعل ذلك، وعليه الآن أن ينفّذ ما قاله.. وقد بينت له الكونتيسة ليديا إيفانوفنا أن الطلاق هو المخرج الوحيد، وأن إجراءات الطلاق بُسِّطت كثيراً، في الآونة الأخيرة، حتى أن ألكسي ألكسندروفتش رأى إمكانية التغلب على الصعوبات الشكلية. وفضلاً عن ذلك (المصائب تأتي تباعاً) فإن توطين الوافدين وري مقاطعة «زاريسك» سببا له كثيراً من الإزعاج،

Tele: @Arab_Books

في هذه الأوقات الأخيرة، حتى أن ألكسي ألكسندروفتش ألقى نفسه في أقصى حالات التهيج.

لم ينم طوال الليل، وكان غضبه يتصاعد بسرعة عظيمة حتى بلغ أشده في الصباح. فارتدى ثيابه على عجل وتوجه إلى غرفة آنا حين علم أنها نهضت من نومها، وكأنه كان يحمل كأساً يخشى أن تطفح ويخشى، في الوقت نفسه، أن يبدد الطاقة التي يحتاج إليها لمحاسبة امرأته.

عندما دخل غرفة آنا التي كانت تعتقد أنها تعرف زوجها حق المعرفة، ذهلت من منظره. كان مقطّب الحاجبين، محدّقاً أمامه بنظرة مستقيمة، متجهّمة، متحاشياً نظرتها، زاماً شفتيه بازدراء. وقد عبّرت مشيته وحركاته ونبرات صوته عن عزم وتصميم لم ترهما عليه من قبل. وبعد أن اجتاز عتبة الغرفة، مضى رأساً، ودون أن يُحييها، إلى مكتب آنا، وأخذ المفتاح منه وفتح درجها. فهتفت:

– ماذا تريد؟

قال:

– رسائل عشيقك.

فاستأنفت وهي تغلق الدرج:

– إنها ليست هنا.

لكنه أدرك من حركتها، أن ظنّه لم يخطئ، فدفع يدها بشدة،

Tele: @Arab_Books

وقبض بسرعة على المغلف الذي يعلم أنها تُودع فيه أهم أوراقها. أرادت أن تنتزع منه المغلف لكنه ردها.

قال لها وهو يضع المغلف تحت ذراعه ويشد عليه شداً ارتفع كتفه من جرّائه.

– اجلسي! فعليّ أن أكلمك.

نظرت إليه دون أن تفوه بكلمة، مدهوشة وخائفة:

– لقد منعتكِ أن تستقبلي عشيقك في بيتي.

– كنتُ بحاجة إلى رؤيته من أجل...

وتوقفت عاجزة عن إيجاد الذريعة.

– لا تهمّني الأسباب التي من أجلها تحتاج المرأة إلى رؤية عشيقها.

قالت وهي تحمر، وقد غاظتها فظاظته وأكسبتها جرأة:

– أردتُ فقط... كيف لا تشعر إلى أي حدٍّ يسهل عليك أن تهينني؟

– يمكن أن نُهين رجلاً شريفاً وامرأة شريفة، أما أن نقول للسارق إنه سارق، فهذا ليس سوى تقرير للواقع.

– وهذه سمة جديدة من القسوة التي ما كنت أعرفها فيك.

– أتجدين من القسوة أن يمنح الزوج الحرية لامرأته، وأن يجعل

Tele: @Arab_Books

من اسمه ملجأً شريفاً لها، على شرط أن تراعي اللياقة؟ أهذه هي القسوة؟

– إنها أسوأ من القسوة، إنها دناءة، إذا شئتَ أن تعلم!

قالت آنا ذلك في سَوْرة من حقدها. ونهضت وأرادت أن تخرج. صرخ بصوته الثاقب الذي ارتفع جرسه فوق العادة:

– لا!

وضغط على ذراع آنا ضغطاً شديداً بأصابعه الطويلة حتى لقد ترك سوارها آثاراً حمراء على يده، وأجبرها على الجلوس ثانية. وأضاف:

– دناءة؟ إن كنتِ ترومين استخدام هذه الكلمة، فالأصح أن الدناءة هي أن تترك الزوجة زوجها وابنها من أجل عشيقها وتظل تأكل من خبز زوجها.

أطرقت رأسها. ولم تقل له ما قالته لفرونسكي البارحة: إنه «هو» زوجها، وإن كارينينا فَضلة لا لزوم له، بل إن ذلك لم يخطر ببالها. لقد أحسّت بصدق كلامه واكتفت بأن قالت له همساً:

– لا تستطيع أن تحكم على وضعي بأقسى مما أحكم عليه أنا نفسي؛ لكن لم تقول ذلك كله؟

قال باللهجة الغاضبة نفسها:

– لِمَ أقُلْ ذلك؟ لِمَ؟ لكي تعلمي أنك ما دمتِ لم ترضخي لإرادتي فيما يتعلّق بمراعاة اللياقة، فسوف أتّخذ التدابير التي تنهي هذا الوضع. فأجابت، والدموع تستبق إلى عينيها عندما تذكّرت الموت القريب، الذي صارت تتمناه الآن:

Tele: @Arab_Books

– سينتهي من ذاته.

– سينتهي بأسرع مما تتصوران أنتِ وعشيقك! أنتما تبحثان عن إشباع الشهوات الجسدية...

– ألكسي ألكسندروفتش! إنه لعمل غير كريم، بل إنه لعمل غير لائق أن تضرب إنساناً وهو صريع.

– نعم، أنتِ لا تفكرين أبداً إلا في نفسكِ! وآلام الرجل الذي كان زوجك لا تعنيك في شيء. لا فرق عندك إن تحطمت حياته، إن تألم من الموت والهوى.

كان ألكسي ألكسندروفتش يتكلم بسرعة كبيرة تلجلج معها. وبدا ذلك مضحكاً لآنا، لكنها ما لبثت أن خجلت من أن تجد ما يُضحك، في هذه اللحظة. ولأول مرة شاركته مشاعره، وتصورت نفسها مكانه، وأشفقت عليه. لكن ماذا بوسعها أن تقول أو تفعل؟ فأطرقت رأسها وأخلدت إلى الصمت. وسكتَ هو أيضاً بعض الوقت، ثم عاد إلى الكلام بصوت أقل حدّة مشدداً عن قصد على بعض الكلمات التي لم تكن لها أهمية خاصة.

بدأ كلامه قائلاً:

– جئت لأقول لك.

رفعتْ عينيها إليه. وفكّرت في نفسها وهي تتذكر تعبير وجهه عندما تلجلج: «لا، لم يكن ذلك سوى ظاهر خادع. لا، إن رجلاً بمثل هاتين العينين الكابيتين وذلك الهدوء الراضي لهو عاجز عن الإحساس بشيء أياً كان».

Tele: @Arab_Books

همست:

– ليس بوسعي أن أغير شيئاً.

قال ألكسي ألكسندروفتش وهو يتذكر بجهد ما أراد أن يقوله بصدد ابنه:

– جئتُ لأقول لك أنني مسافر غداً إلى موسكو وأنني لن أعود أبداً إلى هذا البيت. وسأعلمك بقراراتي على يد المحامي الذي سأوكل إليه قضية الطلاق. أما ابني فسيذهب ليعيش عند أختي.

قالت وهي تختلس النظر إليه:

– أنت تستخدم سيريوجا لتعذّبني. أنت لا تحبه... فدعه لي!

– صحيح، فلم يبق في قلبي من محبة لابني. الكره الذي ابتعثتِه فيّ انعكس عليه. ومع ذلك فسوف آخذه منك. وداعاً!

فهمست من جديد:

– ألكسي ألكسندروفتش، اترك لي سيريوجا! هذا كل ما أطلبه منك. اتركه لي حتى... سأصبح أماً عما قريب، اتركه لي!

احمر ألكسي ألكسندروفتش. وسحب يدها بسرعة، ثم غادر الغرفة دون أن ينطق بكلمة.

Tele: @Arab_Books

-٥-

كانت قاعة انتظار محامي بطرسبرج الشهير ملأى عندما دخلها ألكسي ألكسندروفتش. ثلاث سيدات: شابة وعجوز وامرأة تاجر، وثلاثة رجال: مصرفي ألماني يضع خاتماً في إصبعه، وتاجر ملح، وموظف في بزته، وفي صدره وسام، وهو بادي الضيق، كانوا جميعاً ينتظرون منذ وقت طويل، على ما يظهر. وكان في الغرفة أمينان للسر يكتبان بريشتين يُسمع صريرهما. أما أدوات المكتب التي كان ألكسي ألكسندروفتش هاوياً لها فكانت من الصنف الأول. و لم يفت ألكسي ألكسندروفتش أن يلاحظ ذلك. التفت إليه أحد أميني السر بخشونة، دون أن ينهض، وهو يغمض عينيه نصف إغماضة:

– فيمَ ترغب؟

– في أن أكلم المحامي.

أجاب بجفاف وهو يشير بريشته إلى الحاضرين:

– إنه مشغول.

Tele: @Arab_Books

وتابع كتابته.

قال ألكسي ألكسندروفتش:

– ألا يمكنه أن يجد لحظة ليستقبلني؟

– ليس لديه أبداً لحظة فارغة، فهو مشغول دائماً. تفضل وانتظر.

قال ألكسي ألكسندروفتش بوقار، حين رأى نفسه مضطراً إلى الكشف عن هويته:

– اعمل معروفاً واعطه هذه البطاقة.

تناول أمين السر بطاقة الزيارة التي بدا عليه أنه لا يوافق على محتواها.

كان ألكسي ألكسندروفتش يعترف من حيث المبدأ بصحة الإصلاح القضائي، لكنه لم يكن يستطيع أن يوافق كلياً على بعض أنماط تطبيقه، لأسباب إدارية عليا يعرفها، وكان ينتقد هذه الأنماط بمقدار ما يستطيع أن ينتقد مؤسسة تؤيدها السلطة العليا. كانت حياته بأسرها مكرّسة للنشاط الإداري، ولذلك، فعندما كان ينتقد جزئية ما، كان يعترف، في الوقت نفسه، بأنه لا مناص من الأخطاء لكننا يمكن أن نصححها في كل حالة خاصة. وكان لا يوافق على الامتيازات الممنوحة للقضاة في المؤسسات القضائية الجديدة.

لم تكن له، حتى اللحظة الحاضرة، صلة بهم، ولذلك كان ينتقدهم نظرياً؛ أما الآن فإن موقفه النقدي يرتكز على الأثر السيّئ الذي تركته فيه قاعة الانتظار.

Tele: @Arab_Books

قال أمين السر:

– سيأتي حالاً، والواقع أنه ظهر، بعد دقيقتين، عند الباب، شخص فقيه عجوز طويل كان يتشاور مع المحامي، ثم ظهر المحامي نفسه.

كان المحامي رجلاً قصيراً، سميناً وأصلع، له لحية سوداء تميل إلى الشقرة، وجبهة محدّبة، وحاجبان طويلان رقيقان. وكان متبرّجاً مثل طالب للزواج، من ربطة عنقه وسلسلة الساعة المضاعفة إلى حذائه الملمّع. لقد عكس وجهه الذكاء والقوة، لكن تأنقه دل على فساد ذوقه.

قال المحامي وهو يلتفت إلى ألكسي ألكسندروفتش:

– أرجوك.

وتركه يمر أمامه وهو متجهم، وأغلق الباب. وقال له وهو يشير إلى مقعد قرب المكتب المغطى بالأوراق:

تفضل بالجلوس.

وجلس قربه وهو يفرك يديه الصغيرتين، القصيرتين، بشعرهما الأبيض، إحداهما بالأخرى، ويحني رأسه جانبياً. و لم يكد يتجمد في هذا الوضع حتى أخذت عثة تحوم فوق المكتب. فهب المحامي بسرعة لا تُتوقع منه، وباعد بين يديه، وقبض على العثة، وعاد إلى وضعه.

قال ألكسي ألكسندروفتش الذي تابعت عيناه بدهشة حركات المحامي:

Tele: @Arab_Books

- قبل أن أبدأ بالكلام عن قضيتي، لا بدَّ لي من التنويه بأن غرض زيارتي ينبغي أن يظل مكتوماً.

افترّت شفتا المحامي اللتان علاهما شارب ضارب إلى الشقرة، عن ابتسامة خفية:

- لو لم أكن أحسن صون الأسرار التي يودعها أصحابها عندي لما صرت محامياً. لكن إذا كنت ترغب في ضمانة...

ألقى ألكسي ألكسندروفتش نظرة عجلى على وجهه فرأى أن عينيه الرماديتين والذكيتين تضحكان، وكأنهما تعلمان كل شيء.

قال ألكسي ألكسندروفتش:

- أتعرف اسمي؟

قال المحامي وهو ينحني:

- أعرفُك وأعلم، ككل الروس، (وهنا التقط عثة أيضاً)، مدى الخدمات التي تؤديها لبلدك.

تنهد ألكسي ألكسندروفتش، واستنجد بشجاعته، ثم حزم أمره، وبدأ الكلام بصوته الحاد، دون تردد، ومشدداً على بعض الكلمات:

- مصيبتي أنني زوج مخدوع، وأنا أرغب في فسخ الزواج شرعياً، وبعبارة أخرى إنني أرغب في الطلاق، لكن بحيث ينفصل ابني عن أمه.

Tele: @Arab_Books

كانت عينا المحامي الرماديتان تحاولان جهدهما ألا تضحكا، لكنهما كانتا تتلألآن بفرح عات، ورأى ألكسي ألكسندروفتش أن ذلك لم يكن فقط فرح رجل أوكلت إليه قضية مُربحة: بل كان نصراً، وحماسة، وبريقاً شبيهاً بذلك البريق المشؤوم الذي رآه في عيني زوجته.

– أنت تطلب مساعدتي لتحصل على الطلاق؟

– بالضبط. لعلي أوشك أن أستغل حسن إصغائك: لقد جئت، بادئ ذي بدء، أسألك المشورة، إنني أرغب في الطلاق، لكن إجراءات الطلاق مهمة بالنسبة إلي. وإذا لم تتطابق هذه الإجراءات وشروطي فسأعدل عن الدعوى القانونية.

قال المحامي:

– أوه! الأمر كذلك دائماً، ستبقى حراً في أن تتصرف كما تشاء.

ظل المحامي محدّقاً في قدمي ألكسي ألكسندروفتش، لأنه خشي أن يجرح زبونه مشهد الفرح الذي لم يستطع أن يكبته ونظر إلى عثة تطير أمام أنفه، لكنه امتنع عن القبض عليها احتراماً لوضع ألكسي ألكسندروفتش.

وتابع ألكسي ألكسندروفتش:

– مع أنني أعرف تشريعنا بهذا الصدد، في خطوطه الكبرى، إلا أنني أحب أن أعرف أشكال تطبيقه العملي.

Tele: @Arab_Books

أجاب المحامي دون أن يرفع عينيه، مصطنعاً لهجة زبونه بشيء من السرور:

– تريد مني أن أعرض عليك الطرق التي يمكنك بها أن تصل إلى تحقيق مشروعك؟

وتابع كلامه، بعد إيماءة الموافقة من كارينينا، وهو يلقي، بين الفينة والفينة، نظرة خاطفة على وجه ألكسي ألكسندروفتش الذي وشّته الحمرة:

– الطلاق، تبعاً لقوانيننا (واصطبغت نبرة صوته بشيء من الازدراء وهو يقول: قوانيننا) ممكن، كما تعلم، في الحالات التالية...

وقال لأمين سره الذي أطل برأسه من الباب: «لينتظروا».

ومع ذلك نهض، وذهب إليه وأسرّ إليه ببعض كلمات ثم عاد وجلس وتابع:

– في الحالات التالية: سوء التركيب الجسدي، غياب أكثر من خمس سنوات (وطوى إصبعه القصيرة المغطاة بالشعر)، وأخيراً الزنى (ولفظ هذه الكلمة برضاً ظاهر). أما التفريعات فهي (وظل يطوي أصابعه الضخمة مع أن الحالات وتفريعاتها لا يجوز بطبيعة الحال أن تُصنّف معاً): سوء التركيب الجسدي في الزوج أو الزوجة، زنى الزوج أو الزوجة. (وبما أن جميع أصابعه كانت مطوية، فقد فتح يده وتابع): هذه لمحة نظرية، لكنني أعتقد أنك تفضّلت بالسؤال لمعرفة التطبيق العملي. وإذن، فأنا أسترشد بالسوابق وأقول لك: عن حالات

Tele: @Arab_Books

الطلاق ترجع جميعها إلى ما يلي... – وإذا كنت قد أحسنت الفهم، فليس في حالتك سوء تركيب جسدي أو غياب.–؟

هزّ ألكسي ألكسندروفتش رأسه موافقاً.

قال المحامي.

– ترجع إلى ما يلي: زنى أحد الزوجين، وفي هذه الحالة يجب إثبات جرم أحد الطرفين بالتراضي، أو، في حال عدم التراضي... بالجرم المشهود. ولا بدَّ من القول إن الحالة الأخيرة نادرة الوجود عملياً.

وبعد أن ألقى نظرة سريعة على ألكسي ألكسندروفتش سكت، كما يسكت تاجر الأسلحة بعد أن يمدح محاسن هذا السلاح أو ذاك، وينتظر انتقاء المشتري. لكن ألكسي ألكسندروفتش لاذ بالصمت، فاستأنف المحامي:

– وفي رأيي أن أبسط السبل وأكثرها استخداماً وأقربها إلى العقل هو الزنى بالتراضي. وما كنت أجيز لنفسي هذا التعبير لو لم أعلم أنني أخاطب رجلاً متطوراً، لكنني أعتقد أننا متفاهمان.

كان ألكسي ألكسندروفتش مبلبل الفكر إلى حدٍّ لم يدرك معه على الفور مزية الزنى بالتراضي، وكشفت نظرته عن هذه الحيرة؛ لكن المحامي ما لبث أن هب لنجدته:

– قد يغدو الزوجان عاجزين عن التعايش: هذا أمر واقع. فإذا

Tele: @Arab_Books

وافق الاثنان كلاهما على الطلاق أصبحت التفاصيل والشكليات عديمة الأهمية. وهذه، في الوقت نفسه، أبسط وسيلة وأوثقها.

فهم ألكسي ألكسندروفتش القضية فهماً كاملاً، هذه المرة. لكن قناعاته الدينية كانت تمنعه من اللجوء إلى هذه الوسيلة.

قال:

– هذا غير وارد في الحالة الحاضرة: ولست أرى سوى حلٍّ واحد: وهو إثبات الزنى بواسطة رسائل في حوزتي.

بَرْطَم المحامي، عند سماعه كلمة «رسائل»، وندّ عنه ما يُعبّر عن الرأفة والازدراء، وقال:

– لا تنسَ أن القضايا التي من هذا النوع هي من اختصاص المحكمة الروحية العليا. ورؤساء الكهنة يشتهون كثيراً بعض التفاصيل.. قال ذلك وهو يبتسم ابتسامة على أذواق رؤساء الكهنة، وتابع:

– لا شك أن الرسائل قد تكون مفيدة، لكن الأدلة يجب أن تقام مباشرة، أي بالشهود. وإذا تكرّمت بمنحي ثقتك، فاترك لي حرية اختيار الوسائل التي يجب أن تتخذ. من رام الغايات هانت عليه الوسائل.

قال ألكسي ألكسندروفتش الذي امتقع لونه:

– إذا كان الأمر كذلك...

Tele: @Arab_Books

في هذه اللحظة، نهض المحامي وجرى إلى الباب ليرد على أمين سره، مرة أخرى، وقال له:

– قل لهذه السيدة أننا لا نُساوم هنا!

رجع نحو ألكسي ألكسندروفتش. وفي طريقه التقط عثة دون أن يُلحظ. وفكر في نفسه وهو يقطب بين حاجبيه: «ما أقل راحتي في هذا الصيف!»، وقال:

– ماذا كنتَ تقول؟

قال ألكسي ألكسندروفتش وهو ينهض ويتكئ على الطاولة:

– سأبلغك قراري، في رسالة.

وأضاف، بعد أن صمت لحظة:

– إن كلامك يسمح لي إذن بأن أعتبر الطلاق ممكناً. سأكون ممتناً لو عرفتني بشروطك.

قال المحامي دون أن يجيب على سؤاله:

– كل شيء ممكن، إذا تركت لي حرية العمل.

وسأله المحامي وهو يقترب من الباب، وعيناه تبرقان كحذائه الملمّع:

– متى يمكنني الاعتماد على وصول أخبارك؟

Tele: @Arab_Books

– في ظرف أسبوع. لكن، ليتك تتكرم بإعلامي إن كنتَ تقبل أن تتولى هذه القضية وبأية شروط.

– اتفقنا.

انحنى المحامي باحترام، وأخرج زبونه، واستسلم لفرحه، لقد كان يحسّ بانشراح شديد خفّض معه الأجرة للسيدة التي كانت تساوم، خلافاً لمبادئه، وكفّ عن التقاط العث، وقرر أنه ينبغي له، في الشتاء القادم، أن يغطي الفرش بوجه من المخمل، مثل سيغونين.

Tele: @Arab_Books

-٦-

انتصر ألكسي ألكسندروفتش انتصاراً رائعاً في جلسة لجنة ١٧ آب، لكن هذا الانتصار ارتد عليه. فقد تشكّلت، بفضل ألكسي ألكسندروفتش اللجنة الرامية إلى التحقيق في وضع الوافدين من جميع النواحي، وأُرسلت إلى المكان نفسه، بسرعة عظيمة. وبعد ثلاثة أشهر قدَّمت تقريرها الذي دُرس فيه وضع الوافدين من النواحي السياسية والإدارية والاقتصادية والعنصرية والمادية والدينية. كانت الأسئلة مُتبعة بأجوبة دُونت بدقة عجيبة لا تدع مجالاً للشك، لأنها لم تكن نتاج الفكر، وهو عُرضة للخطأ دائماً، لكنها كانت نتاج عمل الدواوين. كانت كلها مستندة إلى معطيات رسمية، إلى تقارير الحكام والمطارنة، إلى روايات سلطات المناطق والعمداء، وهي معطيات مستندة بدورها إلى تقارير إدارات النواحي وكهنة القرى. ولذلك كانت جميع هذه الأجوبة جديرة بالثقة. فجميع الأسئلة من نوع: لماذا كانت المحاصيل رديئة؟ ولماذا يتمسك السكان بمعتقداتهم؟ الخ...، وهي أسئلة ما كان يمكن لقرون أن تحلها لولا مساعدة الآلة الإدارية، جميع الأسئلة لقيت الحل الواضح والحاسم. وهذا الحل كان مطابقاً لمقاصد ألكسي ألكسندروفتش.

Tele: @Arab_Books

لكن ستريموف الذي شعر بأنه فرض أثناء الجلسة الأخيرة، استخدم، لدى تلقّيه تقرير اللجنة، خطة لم يكن يتوقّعها ألكسي ألكسندروفتش. فقد جرّ ستريموف عدداً من أعضاء اللجنة، وانتقل فجأة إلى صف ألكسي ألكسندروفتش، ولم يدافع فقط بحرارة عن التدابير التي طالب بها كارينينا، بل أنه اقترح تدابير أخرى أشد غلواً في الاتجاه نفسه. وقد أقرّت، وفي الوقت نفسه، انكشفت خطة ستريموف. ذلك أن هذه التدابير المبالغ بها بدت مستحيلة إلى حدٍّ انهال عليها فيه بالتجريح رجال الحكومة والرأي العام والسيدات الذكيات والجرائد، معبّرين عن سخطهم على التدابير نفسها وعلى صانعها المظنون: ألكسي ألكسندروفتش. وتنحّى ستريموف جانباً، متظاهراً بأنه اقتصر على الاقتفاء بكارينينا اقتفاء أعمى، وبأنه أول من يُدهش لما حدث. وأصيبت هيبة ألكسي ألكسندروفتش بضربة قاضية. لكن ألكسي ألكسندروفتش لم يُقر بالهزيمة، رغم صحته المتداعية وخيبته الزوجية. فقد انشقّت اللجنة، وذهب بعضهم، وعلى رأسهم ستريموف، إلى تفسير خطئهم بثقتهم المفرطة في لجنة التحقيق، وإلى أن تقرير اللجنة ليس سوى نفاية من السخافات. ورأى آخرون، مع كارينينا، خطر مثل هذا الموقف الثوري إزاء الأعمال الرسمية، فساندوا أعمال اللجنة. وتعقّدت القضية كثيراً حتى أن المجتمع والأوساط العليا التي كانت تتابع النزاع بشغف، عجزت عن معرفة ما إذا كان وضع الوافدين بائساً أو مزدهراً. وتزعزع وضع ألكسي ألكسندروفتش، وهو وضع كان قد تعرّض من قبل للاحتقار الذي جرته عليه مصيبته الزوجية. حينئذ، اتخذ قراراً خطيراً أدهش اللجنة، فأعلن أنه يطلب الإذن بالذهاب شخصياً للتحقيق في المكان نفسه. ولما حصل ألكسي ألكسندروفتش على الإذن سافر إلى مقاطعة نائية.

Tele: @Arab_Books

ولقد أثار سفر ألكسي ألكسندروفتش ضجة كبيرة ولا سيما أنه رفض رسمياً، قبل مسيره، نفقات الانتقال التي قُدّرت باثني عشر جواداً بريدياً.

قالت بيتسي، بهذه المناسبة، للأميرة مياغكوي:

– إني أستلطف كثيراً هذه البادرة. فلماذا تُمنح نفقات الانتقال هذه في حين يعلم جميع الناس أن الطرق الحديدية توصل إلى كل مكان؟

لكن الأميرة مياغكوي لم تكن من هذا الرأي وبدت مغتاظة من وجهة النظر هذه. وقالت لها:

– يحلو لكِ أن تقولي ذلك وأنت تملكين الملايين! أما أنا فأسعد عندما يذهب زوجي في جولة تفتيشية. فهذا نافع لصحته، ويتيح له القيام برحلة ممتعة، ويؤمّن لي نفقة العربة والحوذي.

مر ألكسي ألكسندروفتش بموسكو ومكث فيها ثلاثة أيام.

في صباح اليوم التالي لوصوله، ذهب لزيارة الحاكم. وفي مفرق شارع «الغازيت» الذي غصّ بالعربات والمركبات، سمع بغتة اسمه يهتف به صوت مرح ورنان إلى حدٍّ كبير حتى إنه لم يستطع أن يمتنع عن الالتفات. كان ستيفان أركاديفتش يقف في زاوية الرصيف، فرحاً، شاباً، متألقاً، وقد ارتدى معطفاً قصيراً حديث الزي، ووضع على رأسه قبعة ضيقة الحواشي مائلة على جانب رأسه، وافترّت شفتاه الحمراوان عن ابتسامة كشفت عن أسنانه البيضاء، المتلألئة. كان يصرخ ويلوّح بيده كي يوقفه، ويستند بيده الأخرى إلى باب عربة

Tele: @Arab_Books

واقفة في ركن الشارع، وقد بدا فيها رأس امرأة بقبعة من المخمل، ورأسا طفلين. كان ستيفان أركادييفتش يبتسم ويلوّح له كي يقترب. وكانت المرأة تبتسم أيضاً وتحرّك يدها باتجاه ألكسي ألكسندروفتش. كانت دولي والأولاد.

لم يكن ألكسي ألكسندروفتش يريد أن يرى أحداً في موسكو، ولا سيما أخا زوجته. رفع قبعته وأراد أن يمضي في سبيله لكن ستيفان أركادييفتش أمر حوذيه بالوقوف وركض في الثلج حتى عربته.

قال ستيفان أركادييفتش وهو يُمرّر رأسه من باب العربة:

– ألا تستحي من أنك لم تُخبرنا؟ أأنت هنا منذ زمن بعيد؟ كنت البارحة عند «دوسو» ورأيت اسمك على القائمة، لكن لم يخطر ببالي أنك أنت! ولولا ذلك لمررت عليك.

وضرب إحدى رجليه بالأخرى لإسقاط الثلج، وأضاف:

– أنا سعيد برؤيتك!

وردد قائلاً:

– عيب عليك، ألا تخبرنا!

أجاب ألكسي ألكسندروفتش بجفاف:

– لم يكن لدي وقت، أنا مشغول جداً.

– تعال وسلّم على امرأتي، فهي بشوق إلى رؤيتك.

Tele: @Arab_Books

رفع ألكسي ألكسندروفتش الغطاء الذي لف به ساقيه الباردتين، وهبط من العربة، وشق طريقاً في الثلج لنفسه حتى داريا ألكسندروفتش.

قالت دولي وهي تبتسم:

– ماذا جرى، يا ألكسي ألكسندروفتش؟ لماذا تتحاشانا هكذا؟

قال بلهجة من يقول بوضوح عكس ما يُبطن:

– كنت مشغولاً جداً. أنا سعيد برؤيتك. وكيف صحتك؟

– كيف حال آنا العزيزة؟

همهم ألكسي ألكسندروفتش ببعض الكلمات وأراد أن يستأذن. لكن ستيفان أركادييفتش أوقفه، وقال:

– انظر ماذا سنفعله غداً. دولي، ادعيه للعشاء مع كونيتشيف وبيستوف، لكي نمتّعه بالذكاء الموسكوفي!

قالت دولي:

– بكل تأكيد، تعال إذن، ستسرّنا. نحن ننتظرك في الساعة الخامسة أو السادسة، كما تحب. والعزيزة آنا؟ منذ زمن وأنا...

همهم ألكسي ألكسندروفتش وهو يقطّب بين حاجبيه:

– إنها بخير. سعدتُ بلقائك.

Tele: @Arab_Books

ومضى إلى عربته. فصرخت دولي به:

– سوف تأتي؟

قال ألكسي ألكسندروفتش شيئاً لم تتمكن دولي من سماعه في ضوضاء العربة التي كانت تنأى.

وصرخ به ستيفان أركادييفتش:

– سأمرّ عليك غداً!

جلس ألكسي ألكسندروفتش، وغاص في عربته بحيث لا يرى ولا يُرى.

قال ستيفان أركادييفتش لامرأته:

– يا له من رجل غريب الأطوار.

وبعد أن أشار إشارة تحبّبٍ لامرأته وأولاده، مضى على الرصيف بخطوات سريعة.

صرخت به دولي وهي تحمر:

– ستيفان! ستيفان!

فالتفت.

– أنت تعلم أني أنوي أن أشتري معطفاً لغريشا ولتانيا.

Tele: @Arab_Books

أعطني المال اللازم.

- طيب، قولي إني سأسدد الحساب.

وتوارى، بعد أن حيا بفرح أحد أصدقائه الذي كان يمر بعربته.

Tele: @Arab_Books

-٧-

كان اليوم التالي يوم أحد ذهب فيه ستيفان أركادييفتش إلى المسرح الكبير أثناء تجربة «الباليه»، وسلّم ماشا تشيبيسوف، وهي راقصة جميلة استهلت عملها بحمايته، عقد المرجان الذي وعدها به البارحة. وفي عتمة مؤخّرة المسرح، استطاع أن يقبّل وجهها الجميل الذي يشع من الفرح. وكان عليه أن يتّفق معها أيضاً على لقائهما المقبل. وبما أنه لم يكن يستطيع أن يحضر في بداية «الباليه»، فقد وعدها أن يصل في الفصل الأخير وأن يصطحبها للعشاء. ومن المسرح، اتجه ستيفان أركادييفتش إلى سوق الهال، حيث اختار بنفسه السمك والهليون للعشاء، وعند الظهر، قصد إلى فندق «دوسو» ليقوم بزيارة ثلاثة أشخاص نزلوا في الفندق نفسه، وكأنهم أرادوا أن يسهّلوا عليه مهمّته وهم: ليفين الذي وصل حديثاً من الخارج، ورئيسه الجديد الذي باشر عمله منذ وقت قريب والذي كان يقوم بجولة تفتيشية في موسكو، وزوج أخته كارينينا الذي أراد أن يرافقه إلى العشاء. كان ستيفان أركادييفتش يحب المآكل الفاخرة، لكنه كان يؤثر على كل شيء أن يُقدِّم عشاء صغيراً أنيقاً بالمُنتقى من المأكل والمشرب مثلما هو أنيق بالنُّخبة من المدعويين. كانت وجبة هذا اليوم تُعجبه كثيراً: سمك الفرخ الذي أخرج للتو من الماء، والهليون، وشواء

Tele: @Arab_Books

البقر البسيط والبديع وهو الصحن الرئيسي، مع الخمور التي تصلح لهذه الألوان من الطعام: هذا بالنسبة للطعام والشراب. أما المدعوون فسيكونون كيتي وليفين، وابنة عم لها والشاب تشرباتزكي (لكي لا يلحظ أحد ذلك اللقاء)، أما «الصحن الرئيسي» هنا فيتألف من: سيرج كوزبتشيف وألكسي ألكسندروفتش، سيرج كوزنيتشيف الفيلسوف الموسكوفي، وألكسي ألكسندروفتش رجل العمل في بطرسبرج وسيدعو أيضاً بيستوف، ذلك الرجل الغريب الأطوار، والمتحمّس، والمتحرر، والثرثار، والموسيقي، والمؤرخ، وأروع الشباب بين أبناء الخمسين، وهو يصلح لأن يكون مرقاً أو تابلاً لكوزيتشيف وكارينينا. سوف يحرّضهما ويثير الخصام بينهما.

قبض ستيفان أركاديفتش القسط الثاني من ثمن الغابة و لم ينفقه بعد. وأصبحت دولي، منذ بعض الوقت، فاتنة وملاطفة، وكانت فكرة هذا العشاء تبهج ستيفان أركاديفتش من كل النواحي. فأحس بالفرح يغمر نفسه. كانت هناك مناسبتان تعكّران صفوه، لكنهما كانتا غارقتين في بحر الابتهاج الذي كان يحرّك نفسه. الأولى هي الاستقبال البارد والجاف الذي واجهه به أمس، في الشارع، ألكسي ألكسندروفتش. وحين قابل بين موقفه هذا وكونه لم يأت ليراهم و لم يُنبئهم بمروره، إلى جانب الإشاعات التي راجت عن آنا وفرونسكي، استنتج ستيفان أركاديفتش من ذلك أن خلافاً قد نشأ بين الزوج والزوجة.

الإزعاج الثاني هو وصول رئيسه الجديد: وكان مشهوراً، ككل الرؤساء الجدد، بأنه رجل رهيب ينهض في السادسة صباحاً، ويعمل

Tele: @Arab_Books

كالحصان، ويطلب من مرؤوسيه العمل نفسه. وفضلاً عن ذلك، فقد كان يُعد انعزالياً، وكان، كما يبدو، ذا اتجاه مناقض تماماً لاتجاه الرئيس السابق، ولاتجاه ستيفان أركادييفتش نفسه. وقد قدّم ستيفان أركادييفتش نفسه له البارحة، وهو في بزته، وبدا الرئيس الجديد في غاية اللطف، وتحادث مع بلونسكي وكأنه يتحادث مع أحد معارفه القدماء؛ فرأى ستيفان أركادييفتش من واجبه أن يزوره زيارة خاصة. كان يتخوّف من استقباله له، لكنه كان يحس بغريزته أن كل شيء «سيُسوى» أحسن تسوية. وقال في نفسه وهو يدخل الفندق: «ألسنا جميعاً خطائين، ما دمنا موجودين؟ فلمَ يغضب و لمَ يخاصمنا»؟

قال للخادم وهو يذرع الممر، وقد أمال قبعته:

– مرحباً، بازيل، تركت سالفيك ينموان؟ ليفين، في الرقم «٧» أليس كذلك؟ خُذني إليه، أرجوك. أتريد أن تسأل إن كان الكونت أنيتشكين (رئيسه الجديد) يستطيع أن يستقبلني؟

أجاب بازيل وهو يبتسم:

– حاضر، يا سيدي. لم تشرّفنا بالمجيء، منذ أمد بعيد.

– جئتُ البارحة، لكني دخلت من الباب الآخر. أنحن في الرقم «٧»؟

عندما دخل ستيفان أركادييفتش، كان ليفين واقفاً في وسط الغرفة مع فلاح من «تقير» يقيس جلد دب.

Tele: @Arab_Books

هتف ستيفان أركاديفتش:

– آه! أأنت قتلته؟ قطعة جميلة! أهي أنثى؟ مرحباً، «أرشيب».

وشد على يد الفلاح وجلس على كرسي دون أن يخلع معطفه أو يرفع قبعته.

قال له ليفين وهو يرفع له قبعته:

– انزع معطفك، وخذ راحتك.

فأجاب ستيفان أركاديفتش:

– لا، ليس لدي متسع من الوقت. دخلت لثانية فقط.

وحل أزرار معطفه، وخلعه بعد لحظة، وبقي ساعة كاملة يتحدث مع ليفين عن الصيد وعن أخص الموضوعات. وقال له بعد أن خرج الفلاح:

– قل لي ماذا كنت تفعل في الخارج؟ وأين كنت؟

– ذهبت إلى ألمانيا وبروسيا وفرنسا وإنكلترا، لكن إلى المراكز الصناعية لا إلى العواصم، ورأيت كثيراً من الأشياء الجديدة. وأنا مسرور بذهابي إلى هناك.

– نعم، أعرف أفكارك في المسألة العمالية.

– أبداً: لا يمكن أن يكون في روسيا مسألة عمالية. المسألة

Tele: @Arab_Books

المطروحة عندنا هي مسألة علاقات الشغيلة بالأرض: وهي مسألة موجودة هناك، لكنهم هناك يقتصرون على الترقيعات بينما عندنا...

كان ستيفان أركاديفتش يصغي إلى ليفين بانتباه، فقال:

– نعم، نعم. من المحتمل جداً أن يكون الحق معك. لكني مسرور بأن أراك في حال حسنة: فأنت تصيد الدببة، وتشتغل، وتتحمس لأفكارك. كيف روى لي تشرباتزكي أنك كنت يائساً، وأنت لم تكن تتكلم إلا على الموت...

قال ليفين:

– صحيح، إني لا أكف عن التفكير في الموت. لا بدَّ من الموت. كل شيء باطل. الواقع إني أقدر كثيراً أفكاري وعملي، أما في الحقيقة، فإن هذا العالم الذي نعيش فيه، إذا ما فكّرنا فيه، ليس سوى لطخة من العفونة على سطح كوكب صغير. ونحن نتصوّر أن أفكارنا وأعمالنا يمكن أن يكون لها بعض العِظَم! ما هي إلا ذرات رمل.

– لكن هذا قديم قدم العالم، يا أخ.

– قديم، نعم، لكن عندما تفهمه بوضوح، يبدو لك كل شيء تافهاً. عندما تفهم أنك يمكن أن تموت اليوم أو غداً وأنه لن يبقى شيء، يبدو لك شيئاً عدماً! إني أعلّق أهمية عظيمة على فكرتي، بيد أني إذا شئت تطبيقها بدت لي ضئيلة القيمة مثل قياسك جلد الدب هذا. وهكذا نقضي حياتنا. إننا نصيد ونعمل لنتشاغل عن الموت فقط، لكي لا نفكر في الموت.

Tele: @Arab_Books

كان ستيفان أركاديفتش يبتسم ابتسامة رقيقة، مُلاطِفة، وهو يصغي إلى ليفين.

– بالطبع، صحيح! وأنت تعود إلى فكرتي؛ أتذكر يوم هاجمتني بعنف، لأنني كنت أفتّش عن اللذة؟ فلا تكن متشدداً بعد الآن، أيها الواعظ الأخلاقي!

– لكن ما هو جميل في هذه الحياة... (وتشوّش عند هذه الجملة). لست أدري. كل ما أعلمه هو أننا سنموت عما قريب.

– ولماذا «عما قريب»؟

– أو تعلم أننا نجد الحياة أقل فتنة عندما نفكر في الموت، لكننا نغدو أكثر طمأنينة.

قال ستيفان أركاديفتش وهو ينهض للمرة العاشرة.

– على العكس، الناس يُمعنون في اللهو، إذا اقتربت النهاية. لكن قد آن الأوان لأنصرف.

قال ليفين وهو يمسكه:

– لا، ابق قليلاً أيضاً! متى سنلتقي الآن؟ إني مسافر غداً.

– آه! أين رأسي؟ جئتُ لكي... تعال إلى العشاء عندي، هذا المساء، بكل تأكيد. سيأتي أخوك وكارينينا.

قال ليفين:

Tele: @Arab_Books

– أهو هنا؟

وأراد أن يسأله عن أخبار كيتي. فقد سمع أنها ذهبت إلى بطرسبرج، في مطلع الشتاء، إلى منزل أختها، زوجة الدبلوماسي، وكان يجهل إن كانت قد رجعت أم لا، لكنه لم يطرح السؤال. «سيان عندي إن كانت هنا أم لا».

– إذن، ستأتي؟

– نعم، بالتأكيد.

– في الساعة الخامسة، بالسترة الرسمية.

نهض ستيفان أركاديفتش ومضى إلى رئيسه الجديد. لم تخدعه غريزته. كان هذا الرئيس الرهيب رجلاً عظيم اللطف. تغدّى أوبلونسكي معه، ولبث طويلاً معه حتى إنه لم يذهب لزيارة ألكسي ألكسندروفتش إلا بعد الساعة الثالثة.

Tele: @Arab_Books

-٨-

بعد أن حضر ألكسي ألكسندروفتش الصلاة، قضى الصباح كله في غرفته. وكان عليه أن ينجز مسألتين: استقبال وفد من «الوافدين» الذاهبين إلى بطرسبرج، وكتابة الرسالة التي وعد بها المحامي.

ومع أن الوفد تكوّن بناء على مبادرة من ألكسي ألكسندروفتش، إلا أنه كان ينطوي على بعض المساوئ بل والمخاطر. ولذلك سُرَّ ألكسي ألكسندروفتش بأن يلقاه في موسكو. فلم تكن لدى أعضاء الوفد أدنى فكرة عن الدور الذي ينبغي أن يلعبوه. كانوا يعتقدون أنهم يمكن أن يقتصروا على عَرْض حاجاتهم ووضعهم الواقعي، وعلى طلب مساعدة الحكومة، ويأبون أن يفهموا أن بعضاً من مطاليبهم تقوّي الخصم وتعرّض قضيتهم للخطر. ناقشهم ألكسي ألكسندروفتش طويلاً، ووضع لهم برنامجاً لا ينبغي أن يحيدوا عنه، وكتب، بعد انصرافهم، عدة رسائل إلى بطرسبرج للعناية بأمرهم. أما مساعده الأساسي، في هذه الحالة، فكانت الكونتيسة ليديا. لقد كانت اختصاصية في هذا الموضوع وكانت تحسن، أكثر من غيرها، الانتفاع من الوفد وتوجيهه الوجهة الصحيحة. وكتب ألكسي ألكسندروفتش إلى المحامي. لقد منحه حرية التصرف، دون أدنى

Tele: @Arab_Books

تردد. وضمّن الرسالة ثلاث بطاقات من فرونسكي إلى آنا، وجدها في المغلّف الذي انتزعه.

منذ أن ترك ألكسي ألكسندروفتش بيته، وبنِيّته ألا يعود إلى أسرته، ومنذ أن زار المحامي وفاتحه بمشاريعه، وخصوصاً منذ أن عهد بهذه القضية الخاصة إلى رُكام الأوراق، أخذ يألف مشروعه شيئاً فشيئاً ويرى إمكانية تنفيذه.

كان يلصق مغلّفه عندما سمع صيحات ستيفان أركادييفتش الصاخبة الذي كان يجادل خادم ألكسي ألكسندروفتش لكي يُعلن وصوله.

فكّر ألكسي ألكسندروفتش: «لا بأس، بل إن ذلك حسن: سأنبئه، في الحال، بموقفي تجاه أخته، وسأفهمه لماذا لا أستطيع العشاء عنده».

صاح بالخادم وهو يجمع أوراقه ويرتّبها في المحفظة أمامه:

- أدخلْه.

فرد صوت ستيفان أركادييفتش على الخادم الذي أبى أن يدعه يدخل:

- أرأيت أنك تكذب، إنه في غرفته!

وخلع معطفه، في طريقه، ودخل الغرفة، وقال بفرح:

- آه! أنا سعيد بلقائك. هذا ما كنت أرجوه.

Tele: @Arab_Books

قال ألكسي ألكسندروفتش ببرودة، وهو واقف، ودون أن يدعو ضيفه إلى الجلوس.

– لا أستطيع المجيء.

لقد قرر ألكسي ألكسندروفتش قبل هنيهة أنه سيستمر في موقفه البارد تجاه أخي زوجته لأنه أقام عليها دعوى طلاق. لكنه قرر ذلك متجاهلاً هذا الفيض من الطيبة التي تدفّقت من نفس ستيفان أركادييفتش.

حملق فيه أوبلونسكي بعينين صافيتين وملتمعتين، وقال له بالفرنسية وقد تولّته الحيرة:

– لماذا؟ ماذا تعني؟ هيا، عِدني، إننا نعتمد جميعاً عليك.

– أعني أنني لا أستطيع الذهاب إلى بيتك لأن علاقات المصاهرة بيننا ستنتهي.

سأله ستيفان أركادييفتش وهو يبتسم:

– كيف؟ لماذا؟

– لأنني أقمت دعوى طلاق على أختك، زوجتي. كان لا بدَّ لي...

لكن قبل أن ينتهي ألكسي ألكسندروفتش من جملته، أطلق ستيفان أركادييفتش صرخة أسيانة، خلافاً لتوقع كارينينا، وتهالك على مقعد، وهتف قائلاً وقد ارتسم الألم على قسماته:

Tele: @Arab_Books

- لا، ألكسي ألكسندروفتش، ماذا تقول؟

- الأمر كما قلت.

- اعذرني، لكني لا أستطيع، على الإطلاق، أن أصدّق ذلك...

جلس ألكسي ألكسندروفتش، وهو يحسّ أن كلماته لم تُحدث الأثر الذي كان ينتظره، وأن عليه أن يفسر سبب تصرّفه، وأنه مهما تكن تفسيراته، فإن علاقاته بأخي زوجته ستظل كما كانت في الماضي. وقال:

- نعم، لقد أُلْجِئتُ إلى هذه الضرورة المؤلمة بطلب الطلاق.

- لن أقول لك، يا ألكسي ألكسندروفتش، إلا الشيء التالي: إني أعدّك رجلاً مُنصفاً وممتازاً، وأعدّ آنا -واعذرني إذا لم أغير رأيي بها- امرأة فاتنة ومرموقة؛ ولذلك فإني لا أستطيع أن أصدق ذلك. هناك سوء تفاهم.

- آه! ليت الأمر كذلك!

فقاطعه ستيفان أركادييفتش:

- اسمح لي، إني أفهم. لا شك... أرجوك، لا تستعجل!

أجاب ألكسي ألكسندروفتش ببرودة:

- لكني لا أستعجل، وليس لي أن أطلب المشورة من أحد. ولقد اتخذت قراري.

Tele: @Arab_Books

قال ستيفان أركاديفتش الذي تنهّد تنهداً عميقاً:

– هذا رهيب! أحب أن أطلب إليك هذا الشيء، يا ألكسي ألكسندروفتش، فاقبله، أرجوك! إن الدعوى لم تُقم بعد، إن كنت قد أحسنت الفهم. فاذهب، قبل أن تباشرها، والقَ امرأتي وتحدّث معها. إنها تحب آنا كأختها، وتحبك، وهي امرأة مدهشة. بالله عليك، تحدث معها! تكرم علي بذلك أرجوك!

استغرق ألكسي ألكسندروفتش في أفكاره؛ كان ستيفان أركاديفتش ينظر إليه بعطف ويحترم صمته.

– ستذهب لرؤيتها؟

– لا أدري. إنما لم أذهب إليكم من أجل هذا. أعتقد أن علاقاتنا يجب أن تتبدل.

– ولَمَ ذاك؟ لا أرى داعياً لذلك. اسمح لي أن أعتقد بأنك تضمر لي، ولو جزئياً، مشاعر الصداقة التي أضمرُها لك، إلى جانب علاقات المصاهرة... وتقديراً حقيقياً.

قال ستيفان أركاديفتش ذلك وهو يشد على يده وأضاف:

– وحتى لو كانت أسوأ افتراضاتك صحيحة، فلن أتحمل تبعة الحكم على أحد الطرفين، ولا أفهم ما السبب الذي من أجله ينبغي أن تتغير علاقاتنا. لكن اذهب الآن والقَ امرأتي، أرجوك.

قال ألكسي ألكسندروفتش ببرود:

Tele: @Arab_Books

- إننا ننظر إلى القضية من وجهتي نظر مختلفتين. على كل حال، لندع الكلام على ذلك.

- لكن لماذا لا تأتي اليوم للعشاء؟ امرأتي تنتظرك. تعال، أرجوك. وتحدث معها. إنها امرأة مدهشة. بالله عليك، أتوسل إليك، جاثياً.

قال ألكسي ألكسندروفتش وهو يتنهد:

- إن كنت ترغب في ذلك إلى هذا الحد، فسوف آتي.

ورغبة منه في تغيير الحديث، انتقل إلى موضوع آخر يعنيهما كليهما وهو: الرئيس الجديد لستيفان أركاديفتش الذي رُفع فجأة إلى أعلى الدرجات، مع أنه ما يزال شاباً.

لم يكن ألكسي ألكسندروفتش يحب الكونت آنيتشكين: ذلك أن آراءهما كانت متناقضة، أما الآن فإنه لم يستطع أن يتمالك نفسه عن الشعور بالحقد على هذا المنافس السعيد، وهو شعور جد مفهوم في دنيا الموظفين.

قال ألكسي ألكسندروفتش بضحكة ساخرة:

- إذن، لقد رأيته؟

- بدون شك، جاء أمس إلى المكتب. يبدو أنه يُتقن عمله، وأنه عظيم النشاط.

قال ألكسي ألكسندروفتش:

Tele: @Arab_Books

– نعم، لكن إلى أية وجهة يتجه نشاطه؟ هل يفعل شيئاً من عند نفسه، أم يعيد ما فعله الآخرون؟ إن مصيبة بلادنا هي هذه الديوانية الورقية، وهو ممثل عظيم لها.

فأجاب ستيفان أركادييفتش:

– في الحقيقة، لا أرى فيه ما يمكن أن ننتقده. لست أعرف اتجاهاته، كل ما أعلمه هو أنه فتى ممتاز. لقد خرجت من عنده قبل قليل وهو، بدون شك، فتى ممتاز. تغدّينا معاً؛ وعلّمته أن يصنع هذا الشراب: النبيذ مع البرتقال. إنه شراب منعش. والغريب أنه لم يكن يعرفه. وقد استحسنه كثيراً. لا، إنه فتى رائع.

نظر ستيفان أركادييفتش إلى ساعته، وقال:

– آه! يا إلهي! لقد تجاوزت الساعة الرابعة. ويجب أن أمر أيضاً على دولغوفوشين! ستأتي للعشاء، أليس كذلك؟ لا تستطيع أن تتصور مدى اغتمامنا أنا وامرأتي، إن لم تأتِ.

شيّع ألكسي ألكسندروفتش أخا زوجته على نحو مختلف عن استقباله له. وأجاب وقد بدت عليه الكآبة:

– سوف آتي، إذ وعدتك بذلك.

أجابه ستيفان أركادييفتش وهو يبتسم:

– كن على يقين أنني أقدّر ذلك، وأرجو ألا تندم على مجيئك.

Tele: @Arab_Books

وبينما كان يرتدي معطفه وهو يتجه إلى الباب، لامست إحدى يديه رأس الخادم؛ فأخذ يضحك وخرج.

وصرخ مرة أخرى وهو يلتفت عند عتبة الباب:

– في الساعة الخامسة، بالسترة الرسمية!

Tele: @Arab_Books

-٩-

كانت الساعة تقارب السادسة وكان بعض المدعوين حاضرين عندما وصل رب البيت. دخل مع سيرج إيفانوفتش كوزنيتشيف وبيستوف اللذين اصطدما عند درج المدخل. كان هذان الرجلان أكبر ممثلين لأهل الفكر الموسكوفيين. وكان الناس يقدّرونهما لخلقهما وفكرهما، كما كان كل منهما يقدر الآخر، وإن كانا متعارضين تعارضاً مطلقاً في جميع الميادين، لا لأن لهما اتجاهات مختلفة، بل لأنهما من معسكر احد (خصومُهما وحّدوا بينهما)، يمثّل كل واحد منهما فيه فروقاً خاصة. وبما أنه لا شيء يحمل على اختلاف النظر مثل أنصاف المجرّدات، فلم يكونا مختلفين بالرأي فقط، بل تعوّد كل منهما، منذ زمن بعيد، أن يسخر سخرية هادئة من ضلالات الآخر التي لا سبيل إلى إصلاحها.

كانا يجتازان عتبة المنزل وهما يتحدثان عن الطقس، عندما أدركهما ستيفان أركاديفتش. وفي قاعة الاستقبال اجتمع الأمير ألكسندر دميتريفتش، والد زوجة أوبلونسكي، والشاب تشرباتزكي، وتوفورتسين وكيتي، وكارنينا.

رأى ستيفان أركاديفتش، في الحال، أنهم بحاجة إليه في

Tele: @Arab_Books

قاعة الاستقبال. فلم تستطع داريا ألكسندروفنا التي ارتدت ثوب الاستقبال الحريري، الرمادي، والتي كانت بادية الانهماك بغياب زوجها وبالأولاد الذين كان ينبغي لهم أن يتعشوا وحدهم في غرفتهم، لم تستطع أن تُسبغ البشاشة على هذا الاجتماع. كانوا جميعاً متيبسين، مشدودين، مثل بنات الكهنة أثناء زيارتهن (بحسب تعبير الأمير العجوز) وكأنهم كانوا يتساءلون عما جاؤوا يفعلونه هنا. فقد فَتَر الحديث، وبدا توروفتسين الطيب كالغريب، وقالت ابتسامة شفتيه السميكتين بوضوح: قل لي، أيها الأخ، دعوتني مع هؤلاء القوم الرصينين! إن شرب كأس من الخمر والذهاب «إلى قصر الزهور، خير لي». وظل الأمير العجوز صامتاً، يرمي كارينينا بنظرات زوراء من عينيه الصغيرتين اللامعتين، وأدرك ستيفان أركاديفتش أنه قد عثر على نكتة لاذعة تنطبق على رجل الدولة هذا الذي قُدم إليه، بمثابة «الصحن الرئيسي»، كما يقدم سمك الحفَش. وكانت كيتي تنظر إلى الباب، مستجمعة قواها كي لا تحمر عندما يدخل ليفين. وكان الشاب تشرباتزكي الذي نسيتْ ربة البيت أن تُعرف به كارينينا. يتظاهر بأنه لم يتضايق من ذلك أبداً. أما كارينينا فقد ارتدى لباساً أسود وربطة بيضاء، على طريقة أهل بطرسبرج، وأدرك ستيفان أركادييفتش من وجهه أنه لم يأت إلا ليفيَ بوعده، وأنه يعتبر وجوده وسط هذه الجماعة فرضاً شاقاً. وكان وجوده يُجمّد الآخرين.

اعتذر ستيفان عن تأخره قائلاً: إن الأمير قد استبقاه، وكان يتخذ هذا الأمير كبش فداء، في مثل هذه الحالات. وفي لحظة، حمّى الجو ودفع ألكسي ألكسندروفتش وسيرج كوزنيتشيف في حديث عن

Tele: @Arab_Books

«ترويس» بولونيا[٢]، ما لبث أن انضم إليه بيستسوف ثم طبطب بود على كتف توروفتسين، وأسرّ في أذنه ملاحظة فكهة، وأجلسه قرب زوجته وزوج أخته. وقال لكيتي إنها تبدو أجمل من أي وقت مضى، وقدّم تشرباتزكي لكارينينا. وفي مدى دقيقة، حرَّك المتجمعين حتى عجّت القاعة بالأصوات المنتعشة. و لم يكن ينقصهم سوى قسطنطين ليفين. لكن ذلك كان أفضل، لأن ستيفان أركاديفتش شاهد بذعر، عندما طاف بقاعة الطعام، أن خمر البورتو والجريز قد جيء بهما من عند «دوبريه» لا من عند «ليفي»[٣]. فأرسل الحوذي على الفور إلى مخزن ليفي وعاد إلى قاعة الاستقبال. فاصطدم بليفين في قاعة الطعام:

– هل تأخرت؟

قال ستيفان أركاديفتش وهو يمسك بذراعه:

– وهل اتفق لك قط أن جئت في الوقت المحدد؟

سأل ليفين وهو يحمر بالرغم منه ويضرب قبعة الفرو بقفازه ليُسقط الثلج منها:

– عندك ناس كثيرون؟ مَنْ عندك؟

٢– ترويس بولونيا: بعد أن أخمدت الحكومة الروسية الثورة البولونية سنة ١٨٦٢، أدخلت إلى بولونيا اللغة الروسية، وعينت في كل مكان موظفين روساً، باذلة جهوداً غير مجدية لترويس هذه البلاد.

٣– دوبريه وليفي: مخزنان عظيمان للخمور الفرنسية في موسكو.

Tele: @Arab_Books

- لا أحد سوى الأسرة. كيتي هنا. تعال سأقدمك إلى كارينينا.

كان ستيفان أركاديفتش يعلم، بالرغم من تحرره، أن التعرف إلى كارينينا لا يمكن إلا أن يُرضي الغرور، لذلك كان يحتفظ بهذا الطعام الفاخر لأفضل أصدقائه. لكن ليفين لم يكن، في هذه اللحظة، قادراً على الإعجاب بمثل هذا الشرف. فهو لم ير كيتي منذ ذلك اليوم المشهود الذي لمحها فيه على الطريق العامة. وكان مقتنعاً، في قرارة نفسه، بأنه سيراها هذا المساء. لكنه كان يبذل وسعه، لكي يحافظ على حريته الفكرية، في إقناع نفسه بأنه يجهل ذلك. وعندما علم بأنها هنا، أحس بفرح غامر ممتزج برهبة عظيمة حتى ضاق صدره وعجز عن الجواب كما كان يريد.

فكر في نفسه: «كيف، كيف هي؟ أكما كانت قديماً أم كما كانت في العربة؟ لعل داريا ألكسندروفنا قد قالت الحقيقة؟ لَمَ لا؟».

ونطق بصعوبة:

- آه! نعم، أرجوك، قدّمني إلى كارينينا. اجتاز عتبة قاعة الاستقبال بقوة اليأس، وشاهدها.

لم تكن كما كانت قديماً ولا كما كانت في العربة، كانت مختلفة.

كانت مُروَّعة، وَجلة، مرتبكة، فزاد ذلك من سحرها. رأته في اللحظة التي دخل فيها إلى القاعة. كانت تنتظره. وكان الفرح والاضطراب اللذان غشياها من العنف بحيث أنها خشيت للحظة، بينما كان يقترب من ربة الدار ويدير طرفه فيها مرة أخرى، ألا تتمالك

Tele: @Arab_Books

نفسها وأن تنفجر باكية. تبين ذلك ليفين ودولي اللذان كانا يريان كل شيء. لقد احمرّت، وشحبت، ثم احمرت من جديد وهي تنتظره خائرة القوى، مرتعشة الشفتين. دنا منها وانحنى ومد يده دون أن يفوه بكلمة. ولولا اختلاج شفتيها وبريق عينيها المخضوضلتين، لبدت بسمتها وادعة، عندما قالت له:

– مضى زمن طويل و لم نتلاقَ!

وشدّت على يده بأصابعها الباردة، تحدوها قوة يائسة.

فرد عليها ليفين بابتسامة مشرقة.

– أنتِ لم تريني، أما أنا فرأيتكِ. شاهدتكِ وأنت ذاهبة من المحطة إلى أرغوشوفو:

فسألته بدهشة:

– متى؟

– كنتِ متجهة إلى أرغوشوفو.

قال ليفين ذلك وأحس أن السعادة التي طفحت بها نفسه تكاد تخنقه. وفكر في نفسه: «كيف تجرأت على الاعتقاد بأنه يمكن أن يكون في هذا الكائن الرقيق شعور غير بريء؟ نعم، لا شك أن داريا ألكسندروفنا قالت الحقيقة».

أمسكه ستيفان أركاديفتش من ذراعه وقاده إلى كارينينا، وقال:

Tele: @Arab_Books

– اسمح لي أن أقدمك.

قال ألكسي ألكسندروفتش ببرودة، وهو يشد يد ليفين:

– أنا سعيد بلقائك.

سأل ستيفان أركادييفتش بدهشة:

– أأنتما متعارفان؟

قال ليفين مبتسماً:

– قضينا ثلاث ساعات معاً في القطار. وافترقنا ونحن في شوق إلى التعارف كأننا في حفل تنكّري... أنا على الأقل.

قال ستيفان أركادييفتش وهو يتجه إلى قاعة الطعام:

– عجباً!... أرجوكما.

اتجه الرجال إلى قاعة الطعام قرب مائدة المقبلات التي غُطيت بستة أنواع من «ماء الحياة»، وبستة أنواع من الجبن، وبالكافيار، وبسمك الرنك المدخن، وبالمحفوظات، وبالصحون المغطاة، وبقطع صغيرة من الخبز الفرنسي المغطى بالزبدة.

تريّث المدعوون قرب المشروبات والمقبلات التي فاح طيبها، وامتد الحديث عن «ترويس» بولونيا بين سيرج إيفانوفتش كوزنيتشيف وكارنينا وبيسستسوف، في انتظار العشاء.

Tele: @Arab_Books

كان سيرج إيفانوفتش يعرف أكثر من أي إنسان آخر كيف يلوّن فجأة بملحه الطريقة خاتمة أشد الأحاديث تجريداً ورصانة، ويُغيّر بذلك استعداد محدّثيه، وقد برهن هذه المرة أيضاً على فتّه.

لقد زعم ألكسي ألكسندروفتش أن «ترويس» بولونيا لا يمكن أن يتم إلا بالمبادئ العليا التي ينبغي أن تُدخلها الإدارة الروسية فيها.

وألح بيستسوف على أن الأمة لا تستطيع أن تدمج فيها أمة أخرى إلا إذا كانت كثافة السكان أشد.

وقَبِل كوزنينشيف بكلا الرأيين مع بعض التحفّظات. وعندما غادروا القاعة قال وهو يبتسم، ختاماً للنقاش:

- ليس هناك سوى وسيلة واحدة لترويس الوافدين: إنجاب أكبر عدد ممكن من الأطفال. وأخي وأنا عاجزان عن القيام بهذه المهمة. أما أنتم، أيها السادة المتزوجون، وبخاصة أنت، يا ستيفان أركادييفتش، فإنكم تتصرفون تصرف المواطنين الحقيقيين.

وقال وهو يلتفت إلى رب المنزل مبتسماً ابتسامة متوددة ومادّاً إليه كأساً صغيرة:

- وأنت، كم عدد أولادك؟

أخذ الجميع يضحكون بمزح، ولا سيما ستيفان أركاديفتش. وقال وهو يمضغ قطعة من الجبن، ويملأ القدح الذي مُدَّ إليه بالفودكا الطيبة الشذا:

Tele: @Arab_Books

– نعم، هذه حقاً أفضل وسيلة!

وضعت هذه الدعابة حداً للنقاش.

قال رب المنزل:

– هذا الجبن ليس رديئاً. أتريد قطعة منه أيضاً؟

وسأل وهو يجس بيده اليسرى ذراع صديقه ليفين:

– أما تزال تمارس الرياضة؟

ابتسم ليفين وحرّك عضلاته فأحس ستيفان أركاديفتش تحت أصابعه، عبر قماش السترة الناعم، بكتلة مكوّرة وقاسية كالفولاذ.

– يا لها من عضلة! أنت شمشون حقيقي!

قال ألكسي ألكسندروفتش وهو يحاول أن يغطي بالجبن قطعة من الخبز رقيقة كبيت العنكبوت:

– أعتقد أن المرء ينبغي أن يكون ذا قوة عظيمة إذا شاء أن يصيد الدب.

لم يكن يملك عن الصيد إلا أفكاراً مبهمة. فابتسم ليفين وقال:

– أبداً. بل إن الطفل يستطيع أن يقتل دباً.

وتنحّى أمام النساء اللواتي كن يقتربن مع ربة المنزل من مائدة المقبّلات. بعد أن حيّاهن تحية خفيفة.

Tele: @Arab_Books

قالت كيتي وهي تحاول عبثاً أن تغرز شوكتها في فطرٍ أبى أن يعلق بالشوكة التي كانت تنزلق عنه، وترد التخريمة التي كانت تسقط على يدها البيضاء.

– قيل لي أنك قتلت دباً؟

أضافت وقد أدارت إليه نصفياً رأسها الساحر وهي تبتسم:

– أعندكم حقاً دببة؟

لم تَحْوِ كلماتها، في الظاهر، شيئاً خارقاً للعادة، لكن كم اكتست من معان كل نبرة من نبرات صوتها، وكل حركة من حركات شفتيها وعينيها ويديها! كان يرى فيها دعاء، ودليلاً على الثقة، ومداعبة رقيقة ووجلة، ووعداً، وأملاً، وحباً لا يجوز الشك فيه، ويكاد يخنقه من السعادة.

قال وهو يبتسم:

– لا، وإنما ذهبنا للصيد في مقاطعة «تفير». ولدى عودتي، لقيت في القطار صهرك، أو على الأصح، صهر صهرك. وكان لقاء مضحكاً.

وروى بمرح كيف لم تغمض له عين طوال الليل، وكيف دخل بغتة، بسترته المبطّنة بالفرو، مقصورة ألكسي ألكسندروفتش:

– وأراد المراقب أن يطردني بسبب لباسي، خلافاً للمثل المشهور، لكنني خاطبته بكلام قوي التعبير.

Tele: @Arab_Books

وأضاف وهو يلتفت إلى كارينينا الذي نسي اسمه:

– وأنت أيضاً أردتَ، في مطلع الأمر، أن تصرفني عندما رأيت سترتي، ثم تدخّلتَ من أجلي، وكنت ممتناً لك.

قال ألكسي ألكسندروفتش الذي كان يمسح أنامله بمنديله:

– إن حقوق المسافرين في اختيار أمكنتهم غير محددة تحديداً حسناً.

قال ليفين وهو يبتسم ابتسامة وادعة:

– كنت أرى أنك تتردد بشأني، فبادرت إلى الشروع في حديث ذكي معك لأُنسيك سترتي.

وكان سيرج إيفانوفتش يتحدث مع ربة المنزل ويصغي بإحدى إذنيه على ما كان يقوله أخوه، فنظر إليه بمؤق عينه، وفكّر في نفسه: «ما له اليوم؟ إنه يبدو كالمنتصر». وكان يجهل أن ليفين كان يحس أن قد طلع له جناحان، ويعلم أنها تصغي إليه وتجد متعة في سماع حديثه. كان هذا هو كل ما يشغله، لا في هذه الغرفة وحدها، بل في العالم أجمع. لم يكن هناك سواهما هو وهي. لقد كبر شأنه كثيراً في نظر نفسه؛ كان جاثماً على علو شاهق، بينما كانت تضطرب في الأسفل، بعيداً عنه، تلك الشخصيات الطيبة الممتازة من مثل كارينينا وأوبلونسكي، وبقية الإنسانية.

ولقد عمد ستيفان أركاديفتش، بكثير من الفطنة، إلى إجلاس

Tele: @Arab_Books

ليفين بجنب كيتي، دون أن ينظر إليهما، وكأنه لم تبقَ لهما محلات أخرى. قال لليفين:

– أهذا أنت، اجلس هنا.

كان العشاء أنيقاً مثل آنية المائدة (كان ستيفان أركادييفتش شديد الانتباه إلى هذه الناحية). وكان الحساء فاخراً وكانت المعجنات الصغيرة التي تذوب في الفم لا غبار عليها. وكان هناك خادمان مع ماتفي، بالربطة البيضاء، يناولون الصحون والخمور بلباقة وبدون ضوضاء. نجح العشاء إذن من الناحية المادية؛ و لم يكن أقل نجاحاً من النواحي الأخرى. و لم يفتر الحديث، العام حيناً والخاص حيناً آخر، ونشط كثيراً عند أواخر العشاء حتى أن الرجال نهضوا عن المائدة وهم يتناقشون؛ وخرج ألكسي ألكسندروفتش نفسه عن تحفّظه.

Tele: @Arab_Books

-١٠-

كان بيستسوف يستقصي الموضوع الذي يعالجه، وكان قليل الرضا عن النتيجة التي اختتم بها سيرج كوزنيتشيف الحديث ولا سيما أنه أحس بضعف وجهة نظره الخاصة. فقال بعد الحساء وهو يلتفت نحو ألكسي ألكسندروفتش:

– عندما ذكرت كثافة السكان فقد كنت أقصد أن نحسب حساباً للأسس لا للمبادئ وحدها.

أجاب ألكسي ألكسندروفتش ببطء:

– يبدو لي الأمر واحداً. وفي رأيي أن شعباً لا يستطيع أن يؤثر في شعب آخر إلا إذا كانت حضارته متفوّقة، وإذا...

فقاطعه بيستسوف بصوته الخفيض (كان يتكلم دائماً بسرعة وكأنه يُباشر النقاش بكيانه كله):

– لكن المسألة تكمن هنا، فما الحضارة المتفوقة؟ مَنْ مِن الإنكليز والفرنسيين والألمان أكثر تقدماً في المرحلة الحضارية؟ الذي يُؤمم الآخر؟ لقد أصبح «الرين» فرنسياً فلم يخفض ذلك من شأن الألمان. إن هنا قانوناً آخر.

Tele: @Arab_Books

قال ألكسي ألكسندروفتش وهو يقطّب بين حاجبيه قليلاً:

– أظن أن الكفة الراجحة هي كفة الثقافة الحقيقية.

قال بيستسوف:

– لكن ما دلائل الثقافة الحقيقية؟

قال ألكسي ألكسندروفتش:

– يلوح لي أن الجميع يعرفونها.

فتدخّل سيرج إيفانوفتش وعلى فمه ابتسامة ناعمة:

– أهي معروفة إلى هذا الحد؟ الناس اليوم يسلّمون بأنها ترتكز على الدراسات الكلاسيكية، بيد أننا نشهد مناقشات محتدمة بهذا الصدد، ولا يمكننا أن ننكر أن الخصم يستخدم حججاً قوية.

قال ستيفان أركادييفتش:

– أأنت مع الكلاسيكيين، سيرج إيفانوفتش؟ أأسكب لك شيئاً من خمر «بورغوني»؟

قال سيرج إيفانوفتش وهو يبتسم بتعال، وكأنه يخاطب طفلاً، ويمد كأسه:

– لست أعبّر، في هذه اللحظة، عن رأيي الشخصي.

وتابع كلامه مخاطباً ألكسي ألكسندروفتش:

Tele: @Arab_Books

– أن أقول فقط: إن كلاًّ من الطرفين يملك حججاً قوية. أنا كلاسيكي بثقافتي، لكني لا أجد موضعاً لي في هذا النزاع. ولست أرى بوضوح لماذا تُقدَّم الدراسات الكلاسيكية على التعليم التقني.

قال بيستسوف بسرعة:

– العلوم الطبيعية تفسح المجال كذلك لنمو الفكر البشري. خذوا علم الفلك، وعلم النبات، وعلم الحيوان بنظام قوانينه العامة.

فرد ألكسي ألكسندروفتش:

– لا يمكنني أن أوافق على هذا الرأي تماماً. ولا نستطيع أن ننكر، كما يلوح لي، إن لدراسة اللغات القديمة أحسن الأثر في تطوير الفكر. وفضلاً عن ذلك، فإن تأثير الكتّاب الكلاسيكيين تأثير أخلاقي إلى أقصى الحدود، بينما نضمّ، مع الأسف، إلى تدريس العلوم الطبيعية مذاهب ضارة وكاذبة هي آفة عصرنا.

أراد سيرج إيفانوفتش أن يجيب، لكن بيستسوف قاطعه بصوته الخفيض، وبرهن بحدة على ما في هذا الزعم من ظلم. وانتظر سيرج إيفانوفتش دوره بهدوء، وكأنه جوابه كان مُعداً. ثم قال بابتسامة رفيقة وهو يلتفت إلى كارينينا:

– لكنك تعترف بصعوبة الموازنة بين محاسن كل من التربيتين ومساوئهما والمسألة ما كانت لتُحل حلاً حاسماً لو لم تكن الدراسات الكلاسيكية تمتاز بأنها... –ولنقلها–: لا عدمية.

Tele: @Arab_Books

– بدون شك.

– ولولا هذا الامتياز لأمعنا في التفكير، ولوازنا بين الحسنات والسيئات، ولتركنا الاتجاهين يتفتّحان. لكننا نعلم الآن أن أقراص الثقافة الكلاسيكية تحتوي على العلاج الشافي من العدمية، ونحن نصف هذه الأقراص لمرضانا...

وختم كلامه بإحدى مزحه المعهودة:

– وإذا لم يكن لها تلك القدرة العلاجية؟

أضحكت هذه الكلمة جميع الحاضرين، ولا سيما تورفستين الذي كان ينتظر عبثاً أن يُبهج هذا النقاش حديث هزلي من هذا النوع.

لم يخطئ ستيفان أركادييفتش حين دعا بيستسوف ذلك أن الحديث بحضوره، لا يَفتر دقيقة واحدة. فما إن وضع سيرج إيفانوفتش حداً للنقاش بهذه الدعابة، حتى انطلق بيستسوف في موضوع آخر.

قال:

– لا نستطيع حتى أن نؤكد أن الحكومة ترمي إلى هذا الهدف. إن الحكومة تقودها، على ما يظهر، اعتبارات عامة ولا تبالي بالأثر الذي يمكن أن تتركه التدابير المتّخذة. مثلاً، إن مسألة تعليم النساء يجب أن تُعتبر تخريبية. ومع ذلك فالحكومة تفتح الصفوف والجامعات النسوية.

Tele: @Arab_Books

وما لبث أن دار الحديث على هذا الموضوع الجديد.

أعرب ألكسي ألكسندروفتش عن الفكرة التالية وهي: أننا نخلط عادة مسألة تعليم النساء بمسألة تحريرهن، وأن المسألة بهذه المعنى الأخير يمكن أن تُعتبر ضارة.

قال بيستسوف:

– أنا ذاهب، على العكس، إلى أن هاتين المسألتين مرتبطتان ارتباطاً وثيقاً، إنهما حلقة مفرغة. فالمرأة تُحرَم حقوقها لأنها لم تتعلم تعلّما كافياً، ونقص التعلّم هذا يأتي من حرمانها حقوقها. ويجب ألا ننسى أن استعباد المرأة كلي وقديم جداً حتى إننا نؤثر، في معظم الأحيان، أن نتجاهل الهوة التي تفصلها عنا.

قال سيرج إيفانوفتش الذي كان ينتظر سكوت بيستسوف:

– إنـك تتحدث عن الحقوق: أتقصد الحق في القيام بوظيفة المحلّف، وعضو المجلس البلدي، ورئيس المحكمة، والمستخدم، وعضو البرلمان؟

– بدون أدنى شك.

– لكن إذا كانت النساء يستطعن، استثنائياً، أن يشغلن هذه الوظائف، فيلوح لي أنك مخطئ في استخدام كلمة «حقوق». والأصح أن تقول: «واجبات». وكلّكم متفقّون على أننا حين نؤدي وظيفة ما، سواء أكانت وظيفة محلّف أو مستخدم بريد أو عضو مجلس بلدي،

Tele: @Arab_Books

فنحن نشعر أننا نؤدي واجباً. ولذلك، فالأصح أن يُقال: إن النساء يَبْحن عن الواجبات: وهذا مشروع تماماً. ولا نملك إلا أن نعطف على تَوْقهن إلى المساعدة في أعمال الرجال.

وافق ألكسي ألكسندروفتش:

– هذا صحيح كل الصحة. المسألة، فيما أظن، تنحصر في أن نعلم إن كن قادرات على أداء هذه الواجبات.

فقال ستيفان أركاديفتش:

– لا شك، عندما ينتشر التعليم بينهن. ونحن نرى ذلك...

قال الأمير العجوز الذي كان يصيخ السمع منذ لحظة بعينيه الصغيرتين، الملتمعتين والهازئتين:

– والمثل؟ أستطيع أن أذكره أمام بناتنا: «المرأة شعرها طويل[٤]....».

قال بيستسوف مستاء:

– هذا ما كان يعتقده الناس عن الزنوج قبل تحررهم.

قال سيرج إيفانوفتش:

– ما أستغربه هو أن تبحث النساء عن التزامات جديدة، في حين نلاحظ بأسف أن الرجال يهربون، في الغالب، من هذه الالتزامات.

قال بيستسوف:

٤– المرأة شعرها طويل: يقول مثل روسي قديم: المرأة شعرها طويل وعقلها قصير.

Tele: @Arab_Books

– هذه الواجبات مرتبطة بحقوق هي: السلطة، والمال، والمجد: هذا ما تسعى إليه النساء.

قال الأمير العجوز:

– تماماً كما لو كنت أطالب بالحق في أن أكون مرضعاً وكما لو كنتُ أستنكر أن أمنع هذا الحق، في حين تُدفع للنساء أجورهن من أجل ذلك.

انفجر توروفتسين ضاحكاً وأسف سيرج إيفانوفتش ألا يكون هو قائل هذه النكتة. وابتسم ألكسي ألكسندروفتش نفسه.

قال بيستسوف:

– نعم، لكن الرجل لا يمكن أن يُرضع، بينما المرأة...

قال الأمير العجوز الذي يبيح لنفسه شيئاً من الصراحة أمام بناته:

– بلى، يُقال إن إنكليزياً في سفينة توصل إلى إرضاع ابنه.

هذه المرة، قال سيرج إيفانوفتش:

– في هذه الحالة، يجب أن يكون المرضعون الإنكليز بقدر النساء الموظفات.

فتدخل ستيفان أركاديفتش وقد تذكر الراقصة الصغيرة تشيبسوف التي لم تغب عن نظره لحظة وهو يؤيد بيستسوف:

Tele: @Arab_Books

– لكن ماذا تستطيع أن تفعل الفتاة التي لا أهل لها؟

قالت داريا ألكسندروفنا فجأة بغيظ، ولعلها تنبأت في أي نوع من الفتيات يفكر ستيفان أركادييفتش:

– إذا فحصتَ بعناية حياة فتاة من هذا النوع، فسوف تجد أنها هجرت عائلة ما: عائلتها أو عائلة أختها، حيث كان يمكن لها أن تقوم بدورها كامرأة.

فأجاب بيستسوف بصوت جهوري:

– لكننا ندافع عن مبدأ، عن مثل أعلى! المرأة حقها في أن تكون مستقلة ومتعلمة. إن شعورها بعجزها ليُزعجها، ليسحقها.

فردد الأمير العجوز:

– أما أنا فالذي يرهقني هو أنهم لا يقبلونني مرضعاً للقّطاء.

وهذا الجواب استخف توروفتسين من الفرح حتى لقد سقط رأس هليونته فيما أمامه من مرق.

Tele: @Arab_Books

-١١-

شارك الجميع في الحديث العام، ما عدا كيتي وليفين. وفي البدء، عندما تحدّث الحاضرون عن الأثر الذي يمكن أن يُحدثه شعب في شعب آخر، فكّر ليفين، على نحو غير إرادي، فيما كان يمكن أن يقوله بهذا الصدد؛ لكن تلك الأفكار التي كانت عظيمة الأهمية عنده، من قبل، كانت تمر الآن بذهنه كما تمر في الحلم، ولا تُثير فيه أدنى اهتمام. وبدا له مُستغرباً أن يكلّف الناس أنفسهم الحديث في مثل هذه الموضوعات التافهة. وما قيل عن حقوق التعليم والنساء كان ينبغي أن يثير اهتمام كيتي أيضاً. فكم من مرة فكّرتْ، وقد خطرت ببالها صديقتها فارنكا، في العبودية المؤلمة التي تعيش فيها، وكم من مرة تساءلت: ماذا سيحل بها إذا لم تتزوج؟ وكم من مرة ناقشت ذلك مع أختها؟! أما الآن، فلم يعد ذلك يعنيها في شيء. لقد قام بينها وبين ليفين حديث آخر؛ بل إنه لم يكن حديثاً وإنما كان ضرباً من الاتحاد السري الذي أخذ يقرّب ما بينهما شيئاً فشيئاً، من دقيقة إلى أخرى، ويوقظ فيهما مشاعر الرُّعب الفَرِح أمام المجهول الذي دَلَفا إليه.

سألت كيتي، في أول الأمر، ليفين كيف استطاع أن يراها في السنة السابقة فروى لها قصة هذا اللقاء على الطريق العامة، بينما كان عائداً من الحقول:

Tele: @Arab_Books

قال وهو يبتسم:

– كان الوقت مبكراً. ولا شك أنك كنت مستيقظة قبل هنيهة. كانت أمكِ نائمة في ركنها. كان النهار بديعاً. كنتُ سائراً فتساءلت لم كانت تجرّ هذه العربة أربعة جياد، وتلك العدة الرائعة والجلاجل. وفي اللحظة نفسها: تجلّيتِ لي: كنتِ جالسة هكذا، عند الباب، وأنت تمسكين بشرائط قبعتك في يديك. لا بدَّ أنك كنتِ تفكّرين في شيء رهيب.

كم كنت أود أن أعلم فيم كنتِ تفكّرين! أكان شيئاً مهماً؟

فكّرت في نفسها: «آمل ألا أكون حاسرة آنذاك!» لكنها عندما رأت الابتسامة النشوى التي بعثتها تلك الذكريات على شفتي ليفين، أحسّت، على العكس، أنها قد تركت في نفسه أثراً حسناً.

فاحمرّت وأخذت تضحك بفرح:

– في الحقيقة، إني لا أذكر ذلك.

قال ليفين وهو ينظر بود إلى عيني توروفتسين المخضوضلتين، وإلى جسمه الذي كان يهتز من الضحك:

– ما أبرأ ضحك توروفتسين!

سألته كيتي:

– أتعرفه منذ وقت بعيد؟

Tele: @Arab_Books

– ومَنْ الذي لا يعرفه؟

– وأرى أنك تعدّه رجلاً سيئاً.

– لا أعدّه سيئاً. بل تافهاً.

قالت كيتي:

– أنت مخطئ! وأرجوك أن تغيّر رأيك بسرعة. وأنا أيضاً، لم يكن رأيي فيه حسناً، لكنه فتى ممتاز، رائع، طيب القلب.

– كيف أمكنكِ أن تعرفي ذلك؟

– إن بيننا وبينه صداقة كبيرة. ففي الشتاء الفائت، بعد زيارتك بقليل... (قالت ذلك وابتسمت ابتسامة مذنبة وواثقة به في آن واحد)، أصيب أولاد دولي بالحمى القرمزية، فجاء ذات يوم لزيارتهم.

وتابعت بصوت خافت:

تصوّر أنه أشفق عليها إلى الحد الذي بقي معه ليساعدها على العناية بالأولاد. وسكن معنا طوال ثلاثة أسابيع واعتنى بالأولاد كأنه مربيّتهم.

قالت وهي تنحني على أختها:

– إنني أروي لقسطنطين دميتريفتش كيف تصرّف توروفتسين عندما أصيب الأولاد بالحمى القرمزية.

Tele: @Arab_Books

قالت دولي وهي تلقي نظرة على توروفتسين الذي أحس أنهم يتحدّثون عنه، وتبتسم له بعطف:

- نعم، كان رائعاً!

نظر ليفين مرة أخرى إلى توروفتسين، وتعجّب من أنه أساء حتى الآن تقدير سحر هذا الرجل. وقال بفرح:

- أنا مخطئ، ولن أسيء الظن بالناس بعد الآن.

كان يعبّر بصدق عما يختلج في نفسه.

Tele: @Arab_Books

-١٢-

إن النقاش حول حقوق النساء ينطوي على مسألة شائكة تصعب معالجتها أمام السيدات وهي: المساواة بين الزوجين في الحقوق. ولقد حاول بيستسوف أن يخوض فيها مرة أو مرتين، أثناء العشاء، لكن سيرج إيفانوفتش وستيفان أركادييفتش غيّرا وجهة الحديث بفطنة.

وعندما نهض المدعوون عن المائدة، ومضت السيدات إلى قاعة الاستقبال، أبى بيستسوف أن يتبعهن، وتوجّه إلى ألكسي ألكسندروفتش، وشرع في عرض مسألة: عدم المساواة بين الزوجين في الحقوق، وهي مسألة تكمن أساساً، برأيه، في أن جزاء خيانة المرأة وجزاء خيانة الرجل متفاوتان في نظر القانون وفي نظر الرأي العام.

تقدّم ستيفان أركادييفتش نحو ألكسي ألكسندروفتش بعجلة وسأله إن كان يحب أن يدخّن.

أجاب ألكسي ألكسندروفتش بهدوء:

– لا، إني لا أدخن.

Tele: @Arab_Books

والتفت إلى بيستسوف، وعلى وجهه ابتسامة باردة، وكأنه أراد أن يُظهر أنه لا يخشى هذا الحديث، وقال:

- أعتقد أن هذا التفريق يستند إلى طبيعة الأشياء ذاتها.

وأرادا أن ينتقل إلى قاعة الاستقبال، لكن توروفتسين أخذ يتكلّم فجأة، واختار ألكسي ألكسندروفتش محدّثاً له، وقال، وقد حرّكته الشمبانيا، وكان حريصاً على أن يكسر الصمت الذي ثقل عليه:

- هل سمعت عن برياتشنيكوف؟

وأضاف، وعلى شفتيه الحمراوين والرطبتين، ابتسامة ساذجة، مخاطباً المدعو الرئيسي ألكسي ألكسندروفتش:

- رُوي لي اليوم أن نازل «كفيتسكي» في «تفير»، وأنه قتله في المبارزة.

وكما يُخيل إلى المرء دائماً أن الضربات إنما تأتيه عن قصد في المواقع الحساسة، كذلك أحس ستيفان أركادييفتش أن الحديث، لسوء الحظ يُنذر، في كل لحظة، بَجْرح ألكسي ألكسندروفتش. وهمّ أن يجرّ صهره، لكن ألكسي ألكسندروفتش سأله بفضول:

- ولماذا نازله برياتشنيكوف؟

- بسبب امرأته. لقد تصرف تصرُّف الرجل الباسل: تحدّى خصمه وقتله!

Tele: @Arab_Books

قال ألكسي ألكسندروفتش بلهجة غير مبالية، رافعاً حاجبيه:

– آه!

وانتقل إلى قاعة الاستقبال.

قالت له دولي، وهي مُقبلة عليه، في القاعة الصغرى، وعلى شفتيها ابتسامة متخوّفة:

– ما أعظم سروري بمجيئك. أحب أن أكلّمك. لنجلس هنا.

جلس ألكسي ألكسندروفتش بجنب داريا ألكسندروفنا، وقد عبّرت أساريره عن لا مبالاة أسبْغها حاجباه اللذان ارتفعا قليلاً، وابتسم ابتسامة متكلّفة، وقال:

– بكل سرور، ولا سيما أني كنت أنوي أن أرجوك المعذرة وأن أنصرف. لا بدَّ لي من أن أسافر غداً.

كانت داريا ألكسندروفنا مقتنعة اقتناعاً ثابتاً ببراءة آنا وأحست أنها أخذت تشحب وأن شفتيها أخذتا ترتجفان من الغضب على هذا الرجل البليد والبارد الذي يعتزم بهدوء بالغ أن يفقد آنا.

قالت له وهي تنظر في عينيه بتصميم يائس:

– ألكسي ألكسندروفتش، سألتكَ عن أخبار آنا فلم تُجبني. كيف حالها؟

Tele: @Arab_Books

أجابها ألكسي ألكسندروفتش، دون أن ينظر إليها:

– أظن أنها بخير.

– ألكسي ألكسندروفتش، عفوَكَ، ليس لي الحق... لكنني أحب وأحترم آنا كالأخت؛ أرجوك، أتوسل إليك، أن تخبرني عما بينك وبينها. بم تتهمها؟

قطّب ألكسي ألكسندروفتش بين حاجبيه وخفض رأسه وهو يكاد يُغمض عينيه، وقال دون أن ينظر إلى وجهها، وهو يتفرّس باستياء في تشرباتزكي الذي كان يعبر قاعة الاستقبال:

– أعتقد أن زوجك أطْلعكِ على الأسباب التي من أجلها رأيت من المفيد أن أغير علاقاتي مع آنا أركادييفنا.

فقالت دولي وقد ضمت يديها الناحلتين في حركة قوية:

– لا أصدق ذلك، لا أصدق ذلك، لا أستطيع أن أصدقه!

ونهضت بسرعة، ووضعت يدها على كمّ ألكسي ألكسندروفتش وقالت:

– لن نرتاح هنا. تعال من هنا. أرجوك.

أثر انفعال دولي في ألكسي ألكسندروفتش. فنهض وتبعها منصاعاً إلى غرفة دراسة الأطفال. وجلسا أمام طاولة مغطاة بغطاء ملطّخ، مجرّح بضربات سكين.

Tele: @Arab_Books

فرددت دولي وهي تجهد في أن تلتقط نظرته التي كانت تهرب من نظرتها:

– لا أصدق ذلك، لا أصدق ذلك.

– داريا ألكسندروفنا، لا يمكننا أن نشك في «الوقائع».

قال ذلك وشدد على كلمة «الوقائع».

قالت داريا ألكسندروفنا:

– لكن ماذا فعلتْ؟ ماذا فعلتْ بالضبط؟

قال:

– لقد تنكّرت لواجباتها وخدعت زوجها. هذا ما فعلته.

قالت دولي وهي تضغط على صدغيها وتغمض عينيها:

– لا، لا هذا مستحيل! لا، بالله عليك، لقد أخطأت.

ابتسم ألكسي ألكسندروفتش ببرودة من طرف شفتيه، وابتغى من ذلك أن يظهر لها ولنفسه صلابة اقتناعه. لكن دفاعها الحار، إن لم يُزعزعه، فقد نكأ جراحه. فاستأنف كلامه بحمية أعظم، وقال وهو ينخر، وقد بدا عليه الغضب:

– من الصعب أن يخطئ الزوج عندما تخبره امرأته نفسها بزلّتها، عندما تقول له: إن ثماني سنوات من الحياة المشتركة إضافة إلى ابنها ليست سوى خطأ، وأنها تريد أن تبدأ حياتها من جديد.

Tele: @Arab_Books

- آنا والرذيلة... لا أستطيع أن أجمع بين هاتين الفكرتين، لا أستطيع أن أصدّق ذلك.

قال، وهو ينظر، هذه المرة، إلى وجه دولي الوادع، المتأثر، ويحسّ أن عُقدة لسانه قد حُلّت:

- داريا ألكسندروفنا! إني أبذل الكثير لكي يكون الشك ممكناً. كنت أتألم وأنا أشك، لكن أقل مما أتألم الآن. كان لي أمل وأنا أشك، أما الآن فلم يبق لي أمل، وصرت أشك في كل شيء، حتى صرتُ أكره ابني وأتساءل أحياناً إن كان ابني حقاً. أنا تَعِس جداً.

ما كان بحاجة ليقول ذلك. لقد أدركت داريا ألكسندروفنا ما به منذ أن نظر إلى وجهها. فأخذتها الشفقة عليه، وتزعزع إيمانها ببراءة صديقتها.

- آه! هذا فظيع، فظيع! أمن الممكن أنك عزمتَ على الطلاق؟

- لقد اتخذت هذا التدبير الأخير، ولم يبق لي ما أفعله غير ذلك.

قالت وعيناها مغرورقتان بالدموع:

- لم يبق غير ذلك... بلى، هناك شيء آخر تفعله!

قال وكأنه يقرأ أفكارها.

- الرهيب في مثل هذا المصاب أنه لا يمكن الاكتفاء بالتألم كما هي الحال في المصائب الأخرى مثل الخسارة والموت، بل لا بدَّ من العمل،

Tele: @Arab_Books

لا بدَّ من الخروج من الوضع المُذل الذي دُفعنا إليه: من المستحيل أن يعيش الثلاثة في بيت واحد.

قالت دولي وقد خفضت رأسها:

– فهمت، فهمت جيداً.

وصمتت، وفكّرت في نفسها، في خيبتها الزوجية، وفجأة رفعت رأسها بحركة قوية، وضمّت يديها متوسلة:

– انتظر! أنت مسيحي، فكّر فيها! ماذا سيحل بها لو تركتها!

قال ألكسي ألكسندروفتش:

– لقد فكّرت في ذلك، فكرتُ طويلاً.

وشّت وجهه بقع حمراء وحدّقت عيناه الكئيبتان فيها. وقد رثت له داريا ألكسندروفنا، هذه المرة، من كل قلبها. وتابع:

– وهذا ما فعلته بالذات، عندما أنبأتني هي نفسها بعاري، تركتُ كل شيء كما كان من قبل أعطيتها إمكانية تغيير ما في نفسها، حاولت إنقاذها.

وقال محتداً:

– فماذا نَتج عن ذلك؟ لم تشأ أن ترضخ للشرط المتواضع الذي وضعته لها وهو: مراعاة اللياقة. يمكننا إنقاذ إنسان لا يريد أن يهلك،

Tele: @Arab_Books

لكن إذا كانت طبيعته كلها قد بلغت حداً من الفساد خُيِّل إليه معه أن خلاصه في هلاكه، فما العمل؟

أجابت داريا ألكسندروفنا.

– كل شيء، إلا الطلاق!

– ماذا تعنين بقولك «كل شيء»؟

– آه! هذا فظيع! لن تكون زوجة لأحد، ستضيع!

قال ألكسي ألكسندروفتش وهو يهز كتفيه وحاجبيه:

– لكن، ما حيلتي؟

إن ذكرى غلطة امرأته الأخيرة غاظته كثيراً حتى عادت إليه برودة أول الحديث، فقال وهو ينهض:

– أنا ممتن من مشاركتك الوجدانية، لكن، قد آن الأوان لأنصرف.

– لا، ابقَ! لا ينبغي أن تقودها إلى هلاكها. اسمع. سأحدّثك عن نفسي. أنا متزوجة أيضاً، وقد خدعني زوجي: وفي غمرة حقدي وفورة غيرتي، أردت أن أترك كل شيء، ورغبت في... لكني تمالكت نفسي... ومن الذي أنقذني؟ آنا. والآن، أنا أحيا. فأولادي يكبرون، وزوجي يعود إلى أسرته، ويُدرك أخطاءه، ويغدو أفضل، إني أحيا... لقد صفحت، وينبغي لك أن تصفح أيضاً! كان ألكسي ألكسندروفتش يصغي، لكن الكلام لم يعد له من سلطان عليه. لقد ثار، في نفسه من

Tele: @Arab_Books

جديد، ذلك السخط الذي عاناه يوم أن قرر الطلاق. فانتفض وقال بصوت ثاقب:

- لا أستطيع ولا أريد أن أصفح، وأقدّر أن الصفح غير عادل. لقد فعلت كل شيء من أجل هذه المرأة، فداست كل شيء في الوحل. والوحل من جنسها. لستُ شريراً: فأنا لم أكره أحداً قط، لكني أكرهها بكل ما أوتيت من قوة. لا يمكنني أن أصفح عنها، لأنني أكرهها بسبب الأذى الذي ألحقته بي.

وعندما أنهى كلامه كانت دموع الغضب تمتزج بصوته.

همست داريا ألكسندروفنا بوجل:

- أحبّوا مُبغضيكم...

ابتسم ألكسي ألكسندروفتش ابتسامة ازدراء. كان يعلم ذلك منذ زمن طويل، لكن هذا القول لا ينطبق على حالته.

- يمكن أن نحب الذين يبغضوننا، أما أن نحب الذي الذين نُبغضهم فذلك غير ممكن. اعذريني لما سببته لكِ من اضطراب. يكفي كل إنسان همه!

وتمالك نفسه فاستأذنها بهدوء وانصرف.

Tele: @Arab_Books

-١٣-

عندما نهض المدعوون عن المائدة، أراد ليفين أن يتبع كيتي إلى قاعة الاستقبال؛ لكنه خشي ألا ترتاح إليه حين يُبادر إلى التلطّف المكشوف. فظل في حلقة الرجال وشارك في الحديث العام، لكنه كان يحسّ، دون أن ينظر إليها، بكل حركة من حركاتها، وبكل نظرة من نظراتها، ويعلم أين جلست في قاعة الاستقبال.

وفى ليفين، على الفور، ودون أدنى جهد، بالوعد الذي قطعه لها على نفسه وهو: أن يُحسن الظن بالناس جميعاً وأن يُحب الناس جميعاً. لقد استقر الحديث على الوحدة الريفية التي رأى فيها بيستسوف مبدأ أصيلاً سماه «مبدأ الجوقة». و لم يأخذ ليفين لا برأي بيستسوف ولا برأي أخيه الذي كان يعترف بأهمية الوحدة الريفية الروسية ويشكك فيها، في الوقت نفسه. لكنه ناقش معهم محاولاً فقط أن يوفّق بينهم وأن يلطّف من أجوبتهم. و لم يكن يُعنى في شيء بما كان يقوله هو نفسه، ولا بما كان يقوله الآخرون. لم يكن ينبغي سوى شيء واحد: أن يغدو الجميع سعداء، مبتهجين. كان يعلم الآن ما الشيء الذي يملك أهمية، لا يملكها غيره من الأشياء. هذا الشيء الوحيد ظل في صدر قاعة الاستقبال، ثم أخذ يتحرك ووقف قرب الباب.

Tele: @Arab_Books

وأحس. من غير أن يتلفت، بالنظرة الباسمة المحدقة فيه، فلم يسعه إلا أن يلتفت. كانت واقفة عند عتبة الباب مع تشرباتزكي تنظر إليه.

قال لها وهو يدنو منها:

– ظننت أنك ستعمدين إلى العزف على البيانو. فما ينقصني في الريف إنما هو الموسيقا.

قالت له وهي ترد عليه بابتسامة:

– لا، جئنا نطلبك؛ أشكرك على أنك انضممت إلينا. ما جدوى النقاش؟ لن يُقنع أحد منكم أحداً.

قال ليفين:

– نعم، صحيح؛ فنحن ندافع عن أنفسنا بحرارة، في معظم الوقت، لأن من المستحيل أن نفهم فهماً صحيحاً ما يريد أن يبرهن عليه الخصم.

غالباً ما لاحظ ليفين أثناء المناقشات بين الناس الشديدي الذكاء أن المتحادثين ينتهون، بعد أن يبذلوا جهوداً جبارة ويكدّسوا ضروب الحجج المنطقية والبارعة، إلى الاعتراف بأنهم كانوا على علم.بما حاول الآخر أن يبرهن عليه، منذ بدء النقاش، لكنهم كانوا يحبّون التنوع ولم يشاؤوا أن يسمّوا ما يحبونه لكي لا يُفنّده الخصم. ولاحظ أن الخصم يُدرك أحياناً، في غمرة النقاش، ما يحبّه خصمه، وسرعان ما يُشغف به، فإذا بجميع الحجج التي غدت بلا جدوى، تسقط من ذاتها؛ وفي

Tele: @Arab_Books

أحيان أخرى، كان العكس هو الذي يحدث: فنحن ننجح أخيراً في التعبير عما نرغب فيه، وإذا ما استطعنا التعبير بفن وصدق فإن الخصم هو الذي يسارع إلى تبني رأينا ويكف عن النقاش. هذا هو بالتحديد ما أراد أن يقوله:

قطّبت بين حاجبيها باذلة جهدها لتفهم. وعندما أراد أن يشرح لها فكرته، أدركت المعنى فقالت:

– فهمتُ: يجب أن يعلم لماذا يناقش، وماذا يحب، حينذاك يمكن أن...

لقد حزرت المعنى وجسّدت بهذا الشكل ما حاول أن يُعبّر عنه. وابتسم من الغبطة: فشد ما بهره هذا الانتقال من ذلك النقاش المشوش والمعقّد والمطنب مع بيستسوف وأخيه، إلى هذا البديل الموجز والواضح، والذي يكاد يكون بلا كلام، لأشد الأفكار تعقيداً.

تركهما تشرباتزكي، فدنت كيتي من مائدة اللعب وأخذت ترسم بقطعة من الحوار دوائر على الغطاء الأخضر الجديد.

استأنفا الحديث الذي بُدئ به أثناء العشاء: عن حرية المرأة وعملها. كان ليفين من رأي داريا ألكسندروفنا: وهو أن الفتاة التي لا تتزوج يمكن أن تسعى إلى العمل في أسرة ما. ولكي يؤيد أقواله، ذهب إلى أنه لا يمكن الاستغناء عن النساء المساعدات في أية أسرة؛ وأن كل أسرة، غنية كانت أم فقيرة، لا تستغني عن مربية للأولاد، قريبة أو مستخدمة بالأجرة.

Tele: @Arab_Books

قالت كيتي وهي تحمر، وتنظر إليه بجرأة أكبر، من جراء ذلك، بعينيها النبيلتين:

– لا، هناك حالات لا يمكن أن تدخل فيها الفتاة أسرة دون إذلال، لكنها هي نفسها...

فهمها من الإشارة، وقال:

– أوه! نعم، نعم، نعم، الحق معك، الحق معك.

كل ما حاول بيستسوف أن يُبرهن عليه أثناء العشاء، قد فهمه ليفين حين اكتشف في قلب كيتي تلك الخشية البريئة من الإذلال. وقد تأثّر بذلك، واستشعر هذه الخشية وذلك الإذلال، وأقلع في الحال عن حججه.

خيّم الصمت عليهما. وظلت ترسم على المائدة بإصبع الحوّار. والتمعت عيناها ببريق وادع. واستسلم لحالته النفسية، فأحس بكيانه كله مُتْرعاً بالسعادة:

قالت وهي تضع قطعة الحوّار:

– آه! ملأت المائدة بالخربشات!

وبدَرت منها حركة، وكأنها تهمّ بالنهوض.

وفكر في نفسه برعب: «كيف يمكنني البقاء وحيداً بدونها؟».

وأخذ الحوّارة. وقال، وهو يجلس:

Tele: @Arab_Books

– انظري. هناك سؤال كنت أحب أن أطرحه عليك منذ زمن بعيد.

نظرت إليه في عينيه: كان تعبير وجهها ينم عن الحنان والخشية في آن واحد.

– اسألني، أرجوك.

قال:

– انظري.

ورسم الحروف التالية: ع أ غ م ف ك ذ يـ أ أ ح؟ وهي الأحرف الأولى من الكلمات التالية[٥]: «عندما أجَبتِني «غير ممكن»، فهل كان ذلك يعني: أبداً أو حينئذ؟» كان من المستبعد أن تفهم هذه الجملة المعقدة؛ لكنه كان ينظر إليها وكأن حياته كلها تتعلق بفطنتها.

رمقته بنظرة رصينة، وأسندت جبهتها إلى يدها وأخذت تحل الرموز. وكانت ترفع عينيها إليه، بين الحين والحين، كأنها تسأله: «هل حزرت»؟

وقالت وهي تحمر:

– فهمت.

قال لها وهو يشير إلى حرف «أ» التي يمثل «أبداً»:

– ما هذه الكلمة؟

٥– ورسم الحروف التالية: هذا هو بالذات مشهد المكاشفة بين تولستوي وصوفيا بيرس في آب ١٨٦٢، في أملاك جد الفتاة.

Tele: @Arab_Books

قالت:

- «أبداً». لكن هذا غير صحيح.

ومحا تماماً ما كتبه، وناولها الحوّارة ونهض. فكتبت: «ح، ل، ي، ب، أ، أ، ب. ذ».

تعزّت دولي كليّاً من الغم الذي سببه لها حديثها مع ألكسي ألكسندروفتش، عندما رأتهما كليهما: كيتي والحوّارة بين أصابعها، وعيناها مرفوعتان إليه، وعلى شفتيها ابتسامة وجلة سعيدة، وشخص ليفين الجميل، منحنياً عليها بعينيه الملتمعتين اللتين كان ينقّلهما من المائدة إلى كيتي. وفجأة استضاء وجهه: لقد فهم ما كتبته. كانت الأحرف تعني: «حينئذ لم يكن بوسعي أن أجيب بغير ذلك».

نظر إليها نظرة وجلة ومتسائلة:

- حينئذ فقط؟

أجابت ابتسامتها:

- نعم.

وسألها:

- و«ا»... و«الآن».

- خذ. اقرأ. سأقول لك ما أبتغيه، ما أبتغيه من كل قلبي!

وكتبت: «ل، ت، أ، ت، ا، و، ع» أي، ليتك تستطيع أن تنسى الماضي وتصفح عني.

تناول الحوّارة بإصابعه المرتجفة والمتشنجة. وبعد أن قسمها قسمين

Tele: @Arab_Books

كتب حروف أوائل الكلمات التالية: «ليس لدي ما أنساه أو أصفح عنه، فأنا ما انفككت أحبك».

نظرت إليه، و لم تكف عن الابتسام.

فهمست:

– فهمت.

وجلس، فكتب جملة طويلة، وفهمت كل شيء، فأخذت الحوّارة وأجابته رأساً، دون أن تسأله إن كان فهمها صحيحاً.

ظل طويلاً دون أن يفهم جملتها، وسألها بنظرته عدة مرات. خُيّل إليه أنه سيُجنّ من السعادة. لم يستطع تركيب الكلمات التي استخدمتها، لكنه رأى في عينيها المشعّتين كل ما كان يحتاج إلى معرفته. وكتب ثلاثة أحرف، لكن قبل أن ينتهي من الكتابة، سبقته وأنهت الجملة وكتبت: نعم.

قال الأمير العجوز الذي أقبل عليهما:

– بم تلعبان، بلعبة أمين السر؟ تعلمين، إذا شئتِ أن تَصلي إلى المسرح، في الوقت المعين، فيجب أن ننصرف.

نهض ليفين، وشيّع كيتي إلى الباب.

تكاشفا بكل شيء: كانت تحبه. وستنبئ أهلها بذلك، وسيزورها غداً صباحاً.

Tele: @Arab_Books

-١٤-

عندما ذهبت كيتي وبقي ليفين وحده، تولاّه قلق شديد بسبب غيابها وشوق عاتٍ للوصول إلى نهار الغد كي يلقاها ويتحد بها إلى الأبد، حتى أنه خشي هذه الساعات الأربع عشرة التي سيقضيها بعيداً عنها كما يخشى الموت. وأحس بالحاجة الماسة إلى إنسان يحادثه حتى لا يبقى وحده وحتى يتلهى عن الانتظار. وكان ستيفان أركاديفتش أقرب المحدثين إلى نفسه. لكنه قال له: إنه ذاهب إلى السهرة (إلى الباليه، في الواقع). وأُتيح لليفين القليل من الوقت ليقول له فيه: إنه سعيد، وإنه يحبه، وإنه لن ينسى أبداً ما فعله من أجله.

أظهرت نظرة ستيفان أركاديفتش وابتسامته لليفين أنه يفهم هذا الشعور حق الفهم.

قال ستيفان أركاديفتش وهو يشد على ليفين شداً ينم على الدفق العاطفي:

– وإذن، فالموت لم يعد وارداً.

قال ليفين بقوة:

Tele: @Arab_Books

– لا!

وعندما استأذن، هنّأته داريا ألكسندروفنا وقالت له:

– كم أنا سعيدة بلقائك لكيتي. لا ينبغي للمرة أن ينسى أصدقاءه القدماء.

لم ترقْ هذه الكلمات لليفين. و لم يكن بوسع دولي أن تُدرك إلى أي حدّ كان ذلك رفيعاً، لا سبيل إلى بلوغه، وما كان ينبغي لها أن تسمح لنفسها بهذا التلميح. ودّعهم ليفين. لكنه عرّج على أخيه، خوفاً من أن يظل وحده.

– إلى أين ستذهب؟

– إلى الاجتماع.

– أأستطيع مرافقتك؟

قال سيرج إيفانوفتش وهو يبتسم:

– بدون شك، تعال. ماذا دهاك اليوم؟

قال ليفين وهو يخفض زجاج العربة التي صعدا إليها:

– ماذا دهاني؟ السعادة! ألا يضايقك هذا؟ إن المرء ليختنق هنا! نعم، السعادة! لِم لم تتزوج؟

ابتسم سيرج إيفانوفتش وشرع يقول:

Tele: @Arab_Books

– أنا سعيد بذلك، إنها فتاة سا...

فهتف ليفين وهو يمسك بطوق معطف أخيه ويصعّد فيه نظره:

– اسكت، اسكتْ، اسكتْ! «فتاة ساحرة»...

هذه الكلمات المبتذلة والغثة لم تكن تليق بعاطفته.

أخذ سيرج إيفانوفتش يضحك من كل قلبه، وذلك قلما كان يقع له، وقال:

– أستطيع، رغم كل شيء، أن أقول لك، إنني سعيد بذلك.

قال ليفين:

– غداً، غداً، غداً بالذات! لا تقل شيئاً، لا تقل شيئاً، اسكتْ!

وأضاف وهو يشد عليه معطفه من جديد:

– إذن، أستطيع أن أذهب إلى اجتماعك؟

– طبعاً، بالتأكيد.

سأل ليفين دون أن يتوقف عن الابتسام.

– عم ستتحدثون اليوم؟

ووصلا. سمع ليفين أمين السر يتلعثم في قراءة محضر بدا أنه لا يفهم شيئاً عنه؛ لكنه رأى من وجهه أنه رجل طيب وممتاز. تبين

Tele: @Arab_Books

ذلك من هيئته المضطربة وهو يقرأ المحضر. وبعد ذلك بدأ الكلام. ونوقشت قضية حسم بعض المبالغ وإنشاء بعض المجاري؛ صعق سيرج إيفانوفتش اثنين من أعضاء اللجنة وألقى خطبة طويلة وقد بدت عليه أمارات النصر. وعمد شخص آخر كان يكتب شيئاً على ورقة أمامه، فتغلّب على بوادر الخجل وأجابه جواباً رشيقاً ولاذعاً. وبعد ذلك تكلم سفياجسكي (وكان هو هنا أيضاً) بنبل. كان ليفين يصغي إليهم ويرى بوضوح أن هذه المبالغ المحسومة وتلك المجاري لا أهمية لها. وأنهم لم يكونوا غاضبين، بل إنهم كانوا رجالاً فضلاء وممتازين يُحسنون التعامل فيما بينهم، لا يضايقون أحداً ولا يتضايقون. وأكثر ما لفت نظر ليفين هو أن هؤلاء الرجال غَدوا الآن شفافين: ذلك أنه أخذ يكتشف نفس كل واحد فيهم، بناء على دلائل ضعيفة لم ينتبه إليها حتى الآن، ويرى أنهم جميعاً فضلاء، ولا سيما أنهم كانوا يحبّونه جميعاً. وذلك واضح من الطريقة التي يكلمونه بها، ومن النظرات المتودّدة التي كانوا يلقونها عليه حتى أولئك الذين لا يعرفهم.

سأله سيرج إيفانوفتش:

– ما رأيك؟ هل أنت مسرور؟

– مسرور جداً. ما كنت أظن ذلك شائقاً، مثيراً إلى هذا الحد.

دنا سفياجسكي من ليفين ودعاه إلى تناول الشاي عنده. فتّش ليفين عبثاً عن مآخذه عليه. لقد وجده رجلاً ذكياً، كريم النفس إلى حدٍّ عجيب.

Tele: @Arab_Books

قال له:

– بكل سرور.

وسأله عن أخبار زوجته وأختها. وبما أن أخت زوجة سفياجسكي كانت مرتبطة في ذهن ليفين بفكرة الزواج، فقد ظنّ، بضرب من التوالد الغريب للأفكار، أن خير من يُطلعه على سعادته هما زوجة سفياجسكي وأختها، فاغتبط بزيارتهما.

سأله سفياجسكي عن أعماله؛ كان مقتنعاً دائماً بأن من المستحيل العثور على شيء لم يُكتشف في أوروبا من قبل، لكن ليفين لم يَسْتأ هذه المرة. بل لقد شعر أن سفياجسكي محق، وأن هذه المسألة كلها لا أهمية لها، وأكبر لباقة سفياجسكي إذ تجنّب البرهنة على ما قدّم. وكانت المرأة والفتاة في غاية اللطف والإيناس. وخُيل إلى ليفين أنهما تعرفان كل شيء، وأنهما تشاركانه سعادته، وأنهما تمسكان عن الكلام تحفّظاً منهما. ومكث عند سفياجسكي ساعتين أو ثلاثاً، وتطرّق إلى موضوعات شتّى كانت تتصل دائماً بما يملأ نفسه، ولم يلاحظ أنهم ضاقوا به صدراً وأن الوسن راود أجفانهم. وقد شيّعه سفياجسكي حتى غرفة الانتظار وهو يتثاءب، مدهوشاً من حالة صديقه الغريبة. وبعد أن جاوزت الساعة الواحدة، عاد إلى الفندق وروّعته فكرة الساعات العشر التي كان عليه أن يقضيها وحده، وقد عيل صبره. أشعل له الخادم الليلي شمعته وأراد أن ينسحب، لكن ليفين استبقاه. كان اسمه «أيغور» ولم ينتبه إليه ليفين حتى الآن، وبدا له ذكياً وطيب القلب خصوصاً.

– قل لي، يا «أيغور» هل السهر صعب؟

Tele: @Arab_Books

- ما الحيلة؟ هذه هي المهنة. الحياة، في بيوت السادة، أهنأ، لكن الريح هنا أوفر.

وتبين أن لأيغور أسرة من ثلاثة أولاد وبنت خياطة ينوي أن يزوّجها لبائع برادع.

وبهذه المناسبة، أنبأه ليفين أن الجوهري في الزواج هو الحب، وأننا سعداء حين نحب لأننا نحمل سعادتنا فينا.

أصغى إليه «أيغور» بانتباه، وبدا عليه أن فهم تماماً فكرة ليفين، وأيّدها بملاحظة غير متوقعة: فقال إنه عندما عمل عند سادة فضلاء، كان مسروراً منهم دائماً، وأنه الآن راض عن سيده، مع أنه فرنسي.

فكر ليفيك: «يا له من رجل ممتاز».

- وأنت، يا أيغور، أكنت تحب امرأتك، عندما تزوجت.

- طبعاً!

ورأى ليفين أن أيغور كان في حالة من الحماسة مثله، وأنه يهمّ بإطلاعه على أخص عواطفه الصميمة.

بدأ أيغور يقول، وقد التمعت عيناه، وكأن حماسة ليفين قد عَدَته كما نتثاءب بالعدوى:

- كانت حياتي مُدهشة أيضاً، فمنذ طفولتي...

لكن الجرس رن في هذه اللحظة؛ فذهب أيغور وظل ليفين وحده. لم يكد يأكل شيئاً في العشاء، ورفض أن يتناول الشاي وأن يتعشى عند سفياجسكي، لكنه لم يكن يستطيع أن يفكر في العشاء. و لم تغمض له

Tele: @Arab_Books

عين في الليلة السابقة، لكنه لم يكن يستطع أن يفكّر في النوم. وكانت غرفته باردة، بيد أنه كاد يختنق من الحرارة، ففتح مصراعي النافذة، وجلس أمامها إلى طاولة. وخلف سطح مغطىً بالثلج، ارتفع صليب مخرّم وبه سلاسل[٦]؛ ومن فوقه طلع في السماء مثل كوكبة الحوذي التي التمع فيها بريق «العنز» المائل إلى الصفرة. كان ينظر إلى النجم تارة، وإلى الصليب تارة أخرى، ممتصاً الهواء المتجمّد الذي كان يلج الغرفة بانتظام، ومتابعاً الصور والذكريات التي تنبعث في خياله، وكأنه في حلم. وبعد الساعة الثالثة، سمع وقع خطوات في الممر فألقى نظرة خاطفة من الباب. كان المقامر «مياكين» الذي يعرفه، عائداً من النادي.

كان يسير وهو يسعل، مقطّب الحاجبين. وفكّر ليفين في نفسه: «التعس!. وأراد أن يحدثه، أن يشد من عزيمته؛ لكنه تذكّر أنه لا يلبس إلا قميصه، فغير رأيه وعاد إلى الجلوس أمام النافذة، لينغمس، من جديد، في الهواء البارد، وليتأمل الصليب الأنيق، والنجمة الصفراء الفاقعة التي طلعت في السماء، وإذا بدموع والرأفة تستبق على عينيه. في حوالي السابعة، جاء الماسحون وأحدثوا ضجة، وأخذت الأجراس تُقرع، وشعر أنه بدأ يرتعش. فأغلق النافذة، ونهض، وارتدى ثيابه وخرج.

٦- صليب مخرم وبه سلاسل: كانت الصلبان المذهبة في الكنائس الروسية مربوطة، على الأغلب، بالقبة، بسلاسل مذهبة أيضاً.

Tele: @Arab_Books

-١٥-

كانت الشوارع مقفرة. توجّه ليفين إلى منزل آل تشرباتزكي. كانت البوابة مغلقة وكان الناس نياماً. فعاد أدراجه، وصعد غرفته، وطلب قهوة. والذي حمل إليه القهوة لم يكن «أيغور»، وإنما كان الخادم النهاري. وأحب ليفين أن يبدأ الحديث معه، لكنه استُدعي وخرج. وحاول أن يشرب فنجان القهوة وأن يضع قطعة من الخبز في فمه، لكن فمه أبى أن يستجيب له. فلفظ اللقمة من فمه، وارتدى معطفه وخرج ثانية. كانت الساعة التاسعة عندما اقترب للمرة الثانية من درج مدخل منزل آل تشرباتزكي. لقد نهض أهل البيت من نومهم قبل هنيهة، وذهب الطاهي يتموّن. كان لا بدَّ من الانتظار ساعتين على الأقل.

عاش ليفين، طوال هذه الليلة وهذه الصبيحة، في لا شعور كلي، وأحس أنه خارج عن شروط الحياة المادية. فهو لم يأكل شيئاً البارحة، وقضى ليلتين مسهداً، وظل عدة ساعات عارياً في الهواء المتجمد. بيد أنه كان يحس بالنشاط والعافية أكثر من أي وقت مضى، إحساساً مستقلاً كل الاستقلال عن جسده: كان ينتقل بلا جهد ويحس أنه قادر على فعل كل شيء. وكان واثقاً من أنه يستطيع أن يطير في الفضاء

Tele: @Arab_Books

أو يزيح جدران البيوت إن لزم الأمر. وقضى سائر وقته في الشوارع ينظر إلى ساعته، في كل لحظة، منقّلاً بصره في كل الأرجاء.

ما رآه حينئذ لم يره أبداً فيما بعد. تأثر، على وجه الخصوص، بمرأى الأطفال الذاهبين إلى المدرسة، والحمائم الرمادية الهابطة من السطوح إلى الرصيف، وقطع الحلوى التي رُشت بالطحين والتي وضعتها يد خفية في الواجهة. فهذه الحلوى وتلك الحمائم وذانك الصبيّان الصغيران كائنات سماوية. جرى كل شيء في آن واحد. ركض الصبي نحو الحمامة ونظر إلى ليفين مبتسماً؛ صفّقت الحمامة بجناحيها وحلّقت، ملتمعة في الشمس، بين ذرات الثلج المرتعشة في الفضاء، وانبعثت من إحدى النوافذ رائحة الخبز الساخن. كل ذلك مجتمعاً كان جميلاً إلى أقصى حدود الجمال حتى إن ليفين أخذ يضحك ويبكي من الفرح. ودار دورة من شارعي «الغازيت» والـ«كيسلوفكا»[٧]، ورجع إلى الفندق مرة أخرى، وبعد أن وضع الساعة أمامه، جلس منتظراً الظهيرة. وكان في الغرفة المجاورة نزلاء يتحدثون عن الآلة والغش، ويسعلون سعالاً صباحياً. لم يكن هؤلاء الناس يعلمون أن عقرب الساعة يقترب من الثانية عشرة. وأخيراً بلغت الساعة الثانية عشرة، فخرج ليفين إلى درج المدخل. كان الحوذيون يعلمون بالطبع كل شيء، وأحاطوا بليفين، بوجوه سعيدة، وهم يتجادلون ويَعْرضون عليه خدماتهم. اختار ليفين واحداً منهم، محاولاً ألا يكدّر الآخرين، واعداً بأنه سيستأجر عرباتهم مرة أخرى؛ وأمر الحوذي أن يمضي به إلى منزل آل تشرباتزكي. كان الحوذي رائعاً بقبّة قميصه الأبيض الذي برز من قفطانه وغطّى رقبته الحمراء القوية. كانت

---

٧ - من شارعي الغازيت والكيسلوفكا: شارعان في وسط موسكو.

Tele: @Arab_Books

عربته مرتفعة ومريحة (لم يركب ليفين أبدا عربة مثلها فيما بعد) وكان الجواد مطهّماً، يبذل أقصى جهده وهو يخبّ، لكنه لم يكن يتقدم. كان الحوذي يعرف منزل آل تشرباتزكي وقد أوقف جواده، أمام درج المدخل، ليدل على احترامه الخاص لزبونه، وكوّر ذراعيه وهو يصيح: «هووو!».

كان الحاجب يعلم، بالتأكيد، كل شيء. وقد ظهر ذلك من ابتسامة عينيه ومن العبارة التي استقبله بها:

– مضى زمن طويل و لم نَرَك، قسطنطين دميتريتش!

لم يكن يعرف كل شيء فحسب، بل كان يتهلل فرحاً ويسعى جهده إلى إخفاء هذا الفرح. وعندما التقى ليفين نظرة الشيخ أدرك أنه لم ير بعد كل مظاهر سعادته.

– هل نهضوا من نومهم؟

– ادخل، أرجوك، ودع هذه.

قال ذلك وهو يبتسم عندما أراد ليفين أن يعود ليأخذ قبّعته. إن لذلك معناه.

سأل الخادم.

– لمن أعلن وصولك؟

مع أن هذا الخادم الشاب كان يدّعي الأناقة إلا أنه كان فتى طيباً ممتازاً: كان يفهم كل شيء هو أيضاً.

Tele: @Arab_Books

قال ليفين:

– للأميرة... والأمير... والآنسة.

كانت الآنسة «لينون» أول شخص رآه. كانت تعبر قاعة الاستقبال، وكانت جدائلها المُلولبة متوهجة وكان وجهها مشرقاً. لم يكد يخاطبها حتى سمع خلف الباب حفيف ثوب: غابت الآنسة «لينون» من عيني ليفين وتولاه هلع فَرِحٌ أمام السعادة التي كانت تدنو. وبادرت الآنسة لينون إلى تركه والاتجاه نحو الباب الآخر. و لم تكد تخرج حتى تناهى إليه وقع خطوات على أرض الغرفة، ودنت منه سعادته، حياته ذاته، دنا منه ما هو أفضل من نفسه، ما فتّش عنه واشتاق إليه منذ زمن بعيد. و لم تكن تمشي، وإنما كانت تحملها إليه قوة خفية.

لم يكن يرى سوى عينيها المضيئتين والنبيلتين، المرتعبتين والمشرقتين بذلك الفرح الذي كان يملأ قلبه. كانت هاتان العينان تدنوان منه شيئاً فشيئاً، وقد بهرتاه بضيائهما. وقفت بالقرب منه، حتى لاصقته. ورفعت يديها ووضعتهما على كتفي ليفين.

لقد فعلت كل ما في استطاعتها: هرعت إليه وأعطته نفسها كاملة، وجلة، سعيدة. فطوّقها بذراعيه وأطبق شفتيه على فمها الذي كان يبحث عن قبلته.

لم تنم هي أيضاً طوال الليل، وقد انتظرته طوال الصباح.

كان والداها موافقين كل الموافقة وسعيدين لسعادتها، كانت تنتظره. أرادت أن تكون أول من يبشّره بسعادته وسعادتها. وقد

Tele: @Arab_Books

أعدّت نفسها لاستقباله وحدها، فرحة وو جلة ومرتبكة في آن واحد، وهي لا تعلم ما الذي ستفعله. سمعتْ صوته وخطواته، وانتظرت خلف الباب حتى تخرج الآنسة «لينون». وتخرج الآنسة لينون، فتدنو منه، من غير أن تفكر أو تسأل عن شيء، وتفعل ما فعلت.

قالت له وهي تمسك بيده:

– تعال لنلقَ أمي!

لم يستطع أن يقول شيئاً، خلال فترة طويلة، لا لأنه كان يخشى أن يُسيء بما يقوله إلى سمو عاطفته، بل لأنه كان كلما حاول أن يقول شيئاً أحس بدموع السعادة تخنقه.

فتناول يدها ولثمها.

قال لها أخيراً بصوت بهيم:

– أمن الممكن أن يكون هذا حقيقياً. لا أستطيع أن أصدق أنك تحبينني!

ابتسمت من ضمير المفرد الذي خاطبها به. ومن الوَجَل الذي امتزج بنظرته إليها، وقالت ببطء ورصانة:

– نعم، أنا سعيدة جداً...

دخلت قاعة الاستقبال، دون أن ترخي يده. وعندما رأتهما الأميرة، كادت تختنق، وما لبثت أن انفجرت باكية، ثم ما لبثت أن أخذت تضحك. وركضت نحو ليفين، بخطوات أقوى مما تصوّر ليفين، وأمسكت رأسه بين يديها وقبّلته وبللت خدّيه بدموعها:

Tele: @Arab_Books

- وهكذا، انتهى كل شيء! أنا مسرورة. أحبها. أنا مسرورة... كيتي.

قال الأمير العجوز الذي حاول أن يظهر عدم اكتراثه:

- ما أسرع ما دبّرا الأمر!

لكن ليفين لاحظ أن عينيه مبللتان عندما التفت إليه.

قال الأمير وهو يمسك بيد ليفين ويجذبه إليه:

- كنت أتوق إلى ذلك منذ زمن بعيد... وكل يوم.

حتى عندما عزمتْ هذه الرعناء...

فهتفت كيتي وهي تسد فمه بيديها:

- بابا!

قال:

- طيب، سأسكت، أنا جدّ، جدّ مـــ... آه! ما أغباني...

وضمّ كيتي بين ذراعيه، وقبّل خدها، ثم يدها، ثم خدها مرة أخرى ورسم عليها إشارة الصليب.

وامتلأ ليفين بحب جديد للأمير العجوز الذي ظل غريباً عنه حتى هذه اللحظة، عندما رأى كيتي تلثم يده الربلة، طويلاً وبحنان.

Tele: @Arab_Books

-١٦-

جلست الأميرة في مقعدها، مبتسمة، لا تقول شيئاً؛ وجلس الأمير بقربها؛ ووقفت كيتي بقرب مقعد أبيها وظلّت ممسكة بيده في يديها. وأخلد الجميع إلى الصمت.

كانت الأميرة أول من سمّى الأشياء بأسمائها، وردّت عواطفهم وأفكارهم إلى الحياة الواقعية. وقد بدا ذلك لهم جميعاً، في اللحظة الأولى، شاقاً وغريباً:

– إذن، متى نحتفل بالخطبة ونُعلن ذلك في الكنيسة؟ ومتى يكون الإكليل؟ ما رأيك يا ألكسندر؟

قال الأمير العجوز وهو يشير إلى ليفين:

ينبغي أن تسأليه هو. فهو صاحب العلاقة الأساسي.

قال ليفين وهو يحمر:

– متى؟ غداً، إذا طلبتم رأيي. أعتقد أننا يمكن أن نُجري الخطبة اليوم والزواج غداً.

Tele: @Arab_Books

– دعك من الحماقة، يا عزيزي...

– بشرفي، إنه مجنون!

– إذن، في ظرف ثمانية أيام.

– لا، لماذا؟

قالت الأم وهي تبتسم بفرح من هذا الاستعجال:

– والجهاز؟

فكّر ليفين بذعر: «إذن سيكون هناك جهاز وأشياء أخرى. لكن هل يستطيع الجهاز أو المباركة أو غير ذلك أن يُفسد سعادتي؟ لا، لا شيء يمكن أن يعكّرها»! نظر إلى كيتي فرأى أن فكرة الجهاز لم تجرحها في شيء.

فقال في نفسه: «معنى ذلك أن الجهاز ضروري».

واستأنف ليفين كلامه:

– تعلمين أنني لا أفهم شيئاً من ذلك، وإنما أعْربتُ فقط عن رغبتي.

– سنفكّر في ذلك. أما الآن فسنعقد الخطبة ونُعلنها.

اقتربت الأميرة من زوجها وعانقته وهمّت بالذهاب لكنه استبقاها. وضمها بين ذراعيه بحنان، وعانقها عدة مرات، وهو يبتسم، عناق الشاب المحب. وكأن هذين الزوجين العجوزين لم يكونا يعلمان

Tele: @Arab_Books

بالضبط في هذه اللحظة إن كانا هما العاشقان أو ابنتهما. وعندما انصرفا، دنا ليفين من خطيبته وأمسك بيدها. لقد عاد إليه روعُه وأصبح قادراً على الكلام. وكان في نفسه أشياء كثيرة يريد أن يقولها لها. لكنه قال شيئاً مختلفاً عما كان يجب أن يقوله. قال:

- كنت أعلم أن ذلك سيتم! لم أكن أجرؤ على الأمل لكنني كنت مقتنعاً في أعماقي به. أعتقد أن ذلك مكتوب.

قالت:

- وأنا؟ حتى عندما...

توقّفت، ثم استأنفت كلامها وهي تنظر بعزم في وجهه بعينيها النبيلتين:

- حتى عندما دفعتُ بيدي سعادتي بعيداً عني. لم أحب أحداً غيرك قط. وقد انسقتُ وراء الطيش. من واجبي أن أطلب إليك... هل تستطيع أن تنسى ذلك؟

- لعل الأمور أفضل هكذا. وأنتِ أيضاً يجب أن تغفري كثيراً لي... ينبغي أن أقول لكِ...

كان ذلك أحد الاعترافات التي عقد العزم على أن يبوح بها إليها. لقد صمم على أن يعترف لها، منذ الأيام الأولى، بأنه لم يكن نقياً مثلها، وأنه غير مؤمن. كان يُقدّر أنه يحب الاعتراف لها بكلا الأمرين. وقال:

Tele: @Arab_Books

- لا، ليس الآن، فيما بعد!

- صحيح، فيما بعد. لكن، قل لي كل ما عندك، بكل تأكيد. إني لا أَخشى شيئاً. أنا بحاجة أن أعرف كل شيء. لقد تمّت القضية الآن.

- الذي تم هو أنك تقبلينني على علاّتي... لن تتخلي عني؟ أليس كذلك؟

- لا، لا.

انقطع حديثهما بدخول الآنسة لينون التي جاءت تهنّئ طالبتها المفضلة بابتسامة تنم عن الود والتكلّف. و لم تكد تنصرف حتى جاء الخدم يهنوئها. ثم وصل أفراد العائلة وبدأت تلك الفترة السعيدة وغير المعقولة التي لم يخلص منها ليفين إلا في اليوم التالي لزواجه. وكان ليفين يشعر دائماً بالضيق وبالضجر، لكن سعادته لم تكن تني تعظُم. كان يحس أن الناس يطلبون منه أن يُقْدِم على أشياء لم تخطر بباله من قبل، فيفعل كل ما يُطلب إليه، ويسبّب له ذلك مزيداً من السعادة. كان يعتقد أن خطبته لن تشبه خطب الآخرين، وأنها إن تمّتْ كما يتم غيرها فإن سعادته ستتكدّر، لكنه كان، في الواقع، يفعل بدقة ما يفعله الآخرون، وكانت سعادته تكبر، مع ذلك، لتظل تلك الغبطة الشخصية التي لا يمكن أن يُشبّه غيرها بها.

قالت الآنسة لينون:

- سنأكل، الآن، مُلبّساً.

ويهرع ليفين إلى شراء الملبّس.

Tele: @Arab_Books

قال له فياجسكي:

– تهاني. أنصحك بشراء باقاتك من عند فومين.

– آه! نعم، هذا ضروري؟

ويُسرع إلى مخزن فومين[٨].

كان يرى الناس، عند بائع الحلوى، وعند فومين، وعند فولدا، ينتظرونه، ويُسرّون بمرآه، وتبدو عليهم أمارات الظفر، كما كانت تبدو على كل من لهم صلة به. ومن الغريب أن جميع الناس لم يكونوا يحبونه فحسب، بل إن الذين أظهروا الفتور واللامبالاة إزاءه حتى الآن، أخذوا يظهرون الحماسة لحضوره، ويلبّون جميع رغباته، ويُبدون كثيراً من الرقة والمداراة إزاء عاطفته، ويسلّمون بأنه أسعد إنسان وأن خطيبته هي الكمال بعينه. كذلك كان الأمر بالنسبة إلى كيتي. فعندما سمحت لنفسها الكونتيسة نوردستون بالتلميح إلى أنها كانت تؤمل لها زواجاً أعظم تألّقاً، غضبت كيتي وبرهنت لها بكثير من قوة الحجة أن ليس في الدنيا خطيب أعظم تألقاً من ليفين، حتى إن الكونتيسة نوردستون اضطرت إلى موافقتها. ومنذ هذه اللحظة، لم تستقبل الكونتيسة «نوردستون» ليفين بحضور كيتي إلا بابتسامة معجبة.

كانت المكاشفة الموعودة هي العارض المؤلم، الوحيد في هذه الفترة. ذلك أن ليفين سلّم كيتي، بناء على رأي الأمير الذي سأله

٨– فومين وفولدا: بائعا مجوهرات في موسكو.

Tele: @Arab_Books

المشورة، المذكّرات[٩] التي دوّن فيها كل ما كان يُزعجه. وقد كتب هذه اليوميات من أجل خطيبته المقبلة. وكان فيها نقطتان تشغلان باله: براءته المفقودة وكفره. وكانت هي تقيّة، لم تشك قط في حقائق الدين؛ لكن كفر ليفين الخارجي لم يقلقها أبداً. لقد نفذت إلى نفسه. بفضل حبها، ورأت فيها ما تشتهيه؛ أما أن يُسمّى ذلك كفراً فذلك ما لا تبالي به أبداً. بيد أن اعترافه الآخر أبكاها بكاءً مراً.

لم يسلّمها ليفين مذكّراته دون صراع داخلي. وكان على يقين من أنه لا ينبغي أن تكون بينه وبينها أسرار، لذلك قرر أن يسلّمها إياها، لكنه لم يكن يقدّر الأثر الذي ستتركه فيها. ولم يتبين الألم الفادح الذي ألحقه بها ولا الهوة التي تفصل ماضيه المخزي عن هذه الطهارة الخالصة. إلا عندما جاء، هذا المساء، إلى منزل آل تشرباتزكي قبل الذهاب إلى المسرح، ودخل غرفتها فلمح وجهها الساحر متألماً ومغطّى بالدموع. فارتعب لفعلته.

قالت له وهي تدفع الأوراق الموضوعة أمامها على الطاولة: استَعِدْ هذه الدفاتر الفظيعة! لِمَ أعطيتني إياها!...

واستدركتْ وقد رثت لوجهه اليائس:

- لا، كان ذلك أفضل، لكنه فظيع، فظيع!

طرق رأسه وأخلد إلى الصمت. لم يكن بوسعه أن يقول شيئاً. وهمس:

٩- المذكرات: هذا ما فعله تولستوي بالضبط غداة زواجه.

Tele: @Arab_Books

– لن تغفري لي؟

– بلى، لكن ذلك فظيع!

كانت سعادة ليفين عظيمة جداً حتى أن هذا الاعتراف أضاف إلى تلك السعادة ظلالاً جديدة بدلاً من أن ينال منها. لقد صفحت عنه. لكنه صار يرى نفسه، بدءاً من هذا اليوم، أقل جدارة بها، وانحنى معنوياً انحناء أشد أمامها، وأكبر إكباراً أعظم السعادة التي لم يكن يستحقها.

Tele: @Arab_Books

-١٧-

عاد ألكسي ألكسندروفتش إلى غرفته المنعزلة في الفندق، وهو يستعيد آلياً في ذاكرته انطباعات أحاديث الصباح. إن أحاديث داريا الكسندروفنا عن الصفح لم تُثر فيه سوى التبرذم. فتطبيق المبادئ المسيحية أو عدم تطبيقها على حالته مسألة بالغة الدقة، ولا يمكن الكلام عليها بلا تروٍّ. ولقد حلّها، من جهته، بالنفي، منذ زمن بعيد. ومن بين جميع الأقوال التي قيلت، في هذا المساء، كانت كلمات توروفتسين الطيب والغبي هي التي انطبعت في خياله أعمق انطباع: «لقد تصرف كما يتصرف الرجل الباسل، فتحدّى خصمه، وقتله!». كان الجميع يوافقون، بوضوح، على هذا السلوك، وإذا لم يُظهروا هذه الموافقة، فذلك على سبيل التأدّب.

وقال ألكسي ألكسندروفتش في نفسه: على كل حال، لقد حُسمت المسألة، ومن العبث الرجوع إليها. ودخل الغرفة وهو لا يفكّر إلا في سفره المقبل وفي جولته التفتيشية. وسأل البواب الذي رافقه عن خادمه، فأنبأه البوّاب بأنه خرج قبل حين. فطلب ألكسي ألكسندروفتش شاياً، وجلس أمام طاولته واستغرق في دراسة الدليل.

قال له الخادم الذي عاد وهو يدخل الغرفة:

Tele: @Arab_Books

– هناك برقيتان. لتعذرني سيادتك. فقد خرجت للحظة.

تناول ألكسي ألكسندروفتش البرقيتين وفتحهما. كانت الأولى تنبئه بتعيين ستريموف في المنصب الذي كان يطمع فيه. فرمى البرقية، واحمر ونهض وأخذ يذرع الغرفة وقال: «إذا شاء أن يهلكهم أفقدهم رشدهم»[١٠]. وهو يعني بضمير النصب أولئك الذين شاركوا في التعيين. ليس ما غاظه أنه كان ضحية واضحة لترقية غير قانونية، لكن الذي أذهله هو أنهم لم يَرَوا أن هذا الثرثار، هذا المتشدّق كان أقل الناس جدارة لشغل هذا المنصب. كيف لم يروا أنهم يدمّرون هيبتهم حين يعهدون إليه بهذه المهمة؟

وقال بحرارة وهو يفتح البرقية الثانية: «لا بدَّ أن تكون هذه أيضاً شيئاً من هذا القبيل». كانت هذه البرقية من آنا. وكان توقيع «آنا» بالقلم الأزرق، أول ما لفت نظره. وقرأ البرقية: «إنني أموت؛ أتوسل إليك أن تأتي. سأموت وأنا أكثر طمأنينة لو غفرت لي». فابتسم بازدراء ورمى بالبرقية. وفكّر تفكيراً غريزياً: «تلك حيلة، تمثيلية. ليس في ذلك أدنى شك. إنها لا تتورع عن أية خدعة. لا شك أنها على وشك الوضع. ولعل هذا هو موضوع البرقية. لكن ما هدفهما؟ الإقرار بنسبة الولد؟ تلويث سمعتي؟ الحيلولة دون الطلاق؟ بيد أنها كتبت: «إنني أموت» وأعاد قراءة البرقية، وفجأة أذهله ما في محتوى البرقية من معنى واقعي. وفكر: «وإذا كان ذلك صحيحاً؟ وإذا كان صحيحاً أن الألم والإشراف على الموت قاداها إلى التوبة وأنني رفضت

١٠– «إذا شاء... رشدهم»: الفكرة لأوروبيدوس وقد استشهد بها تولستوي في الحرب والسلم، المجلد السادس.

Tele: @Arab_Books

الذهاب لأنني ظننت ذلك خدعة؟ لن يكون ذلك قاسياً فحسب ولن يستنكر الناس جميعاً فعلتي فحسب، بل إن ذلك سيكون دليلاً على الغباء، من جانبي». وقال لخادمه:

– بطرس، استدعِ لي عربة. سأذهب إلى بطرسبرج.

لقد عزم ألكسي ألكسندروفتش أن يعود إلى بطرسبرج وأن يرى امرأته. فإذا كان مرضها خدعة لزم الصمت وعاد، أما إذا كانت، في الحقيقة، مشرفة على الموت وأحبّت أن تراه قبل أن تموت فسوف يغفر لها، إن وجدها حية، وسوف يقوم بالفرائض الأخيرة إن وجدها ميتة.

وبعد أن اتخذ هذا القرار، كف عن التفكير في هذا الموضوع، أثناء السفر.

صعد ألكسي ألكسندروفتش جادة نيفسكي، في ضباب الصباح، دون أن يفكر فيما ينتظره، وبه ذلك الشعور بالتعب والوسخ، ذلك الشعور الذي يتلو ليلة قضاها في القطار. لم يكن يستطيع أن يفكّر فيما ينتظره، لأنه عندما كان يتصوّر ما سيقع، لم يكن بوسعه أن يُبعد فكرة موت آنا الذي سيحل جميع الصعوبات دفعة واحدة. ومرّ أمام عينيه الخبّازون، والدكاكين المغلقة، والعربات المتأخرة، والبوابون الذين كانوا يكنسون الأرصفة: كان يُلاحظ كل شيء ويبذل وسعه كي يخنق تفكيره فيما ينتظره، وفيما لم يكن يجرؤ على أن يتمنّاه وهو يتمناه. وصل إلى منزله.

كانت تقف أمام درج المدخل عربة ومركبة فخمة نام حوذيها. وعندما دخل غرفة الانتظار، انتزع من أقصى زوايا دماغه القرار التالي

Tele: @Arab_Books

ورضي به: «إن كان الأمر حيلة فينبغي أن أُظهر لها الازدراء الهادئ وأنصرف؛ أما إذا كان حقيقياً، فينبغي مراعاة أصول اللياقة».

فتح له البواب بيتروف أو كابيتونيتش، الباب قبل أن يدق: كان منظر هذا البواب غريباً بسترته الرسمية البالية، وبخفّيه.

– كيف حال السيدة؟

– لقد ولدت السيدة بسلامة أمس.

توقّف الكسي وشحب. أدرك الآن بوضوح مدى القوة التي تمنّى بها موتها.

– وصحتها؟

نزل «كورني» الدرج على عجل، وهو في لباس الصباح وأجاب:

– السيدة في حالة سيئة. جاء الأطباء أمس للتشاور، والطبيب هنا.

قال له ألكسي ألكسندروفتش الذي شعر بشيء من العزاء عندما علم أن أمله بموتها ما يزال قائماً:

– خذ المتاع.

ودخل غرفة الانتظار. وشاهد معطفاً عسكرياً معلقاً على المشجب. فسأل:

– مَن هنا؟

– الطبيب، والقابلة، والكونت فرونسكي.

Tele: @Arab_Books

دخل ألكسي ألكسندروفتش الشقة. لم يكن في قاعة الاستقبال أحد؛ وعند سماع خطواته، خرجت القابلة من القاعة الصغرى، وعلى رأسها قبعة ذات شرائط ليلكية:

أقبلتْ على ألكسي ألكسندروفتش، وأمسكت يده بالدالة التي تسمح بها مجاورة الموت، وقادته إلى غرفة النوم. وقالت:

– الحمد لله، ها أنت قد جئت! إنها لا تتحدث إلا عنك.

قال صوت الطبيب الآمر من غرفة النوم.

– أعطوني شيئاً من الثلج حالاً.

اتجه ألكسي ألكسندروفتش إلى القاعة الصغرى. كان فرونسكي جالساً. قرب الطاولة، على كرسي صغيرة منخفضة، يبكي، ورأسه في يديه. وعندما سمع صوت الطبيب، انتفض، وكشف عن وجهه، وإذا به أمام ألكسي ألكسندروفتش، فاضطرب اضطراباً شديداً، حين رأى الزوج، بحيث عاد إلى الجلوس مُدخلاً رأسه في كتفيه كأنه يروم الاختفاء. لكنه تحامل على نفسه وقال:

– إنها تموت. قال الأطباء: إنه لم يبق أمل منها. أنا تحت تصرفك، لكن اسمح لي بالبقاء هنا... أنا بين يديك. أنا...

عندما شاهد ألكسي ألكسندروفتش دموع فرونسكي، تولاه الاضطراب الذي يُثيره فيه مرأى آلام الآخرين. فأشاح بوجهه، ومضى بسرعة إلى الباب، دون أن يسمعه حتى النهاية. وسُمع في

Tele: @Arab_Books

الغرفة صوت آنا وهو يقول شيئاً. كان صوتها مبتهجاً، مليئاً بالحياة، واضح النبرات.

دخل ألكسي ألكسندروفتش الغرفة، ودنا من السرير. كان وجهها متجهاً إليه. وكان خدّاها أحمرين؛ وعيناها تلمعان؛ ويداها الصغيرتان، البيضاوان خارجتين من كم قميصها، تعبثان بلي أحد أطراف الغطاء. لم تكن تبدو صحيحة، معافاة فحسب، ولكن في أحسن مزاج أيضاً. كانت تتكلم بسرعة، وبصوت شديد، وبنبرات غريبة الدقة والقوة:

- ... لأن ألكسي، قصدتُ ألكسي ألكسندروفتش (ما أغرب وأقسى أن يتسمّيا كلاهما ألكسي، أليس كذلك؟)، ألكسي لن يرفضني. قد أنسى فيغفر لي... لكن لماذا لا يأتي؟ إنه طيب، وهو نفسه يجهل، إلى أي حدٍّ هو طيب. آه! يا إلهي! ما هذا القلق! أعطوني بسرعة ماء! آه! نعم، لكن هذا ليس حسناً بالنسبة إليها، بالنسبة إلى الطفلة الصغيرة! ليكن، هاتوا لها مرضعاً، إذن. نعم، أوافق على ذلك، بل إن ذلك أفضل. إن جاء فسوف يتألم لمرآها. خذوها!

قالت القابلة، وهي تحاول أن تلفت انتباهها إلى ألكسي ألكسندروفتش:

- آنا أركادييفتش، لقد وصل. ها هو ذا.

تابعت آنا دون أن ترى زوجها:

- آه! يا للحماقة! نعم، أعطوني إياها، طفلتي الصغيرة! إنه لم يأتِ

Tele: @Arab_Books

بعد. تقولين إنه لن يغفر لي لأنك لا تعرفينه. لم يكن يعرفه أحد سواي. ولذلك آلمني الأمر كثيراً. يجب أن تعلموا أن عيني سيريوجا كعينيه تماماً، ولذلك لا أستطيع رؤيتهما. هل عشيّتم سيريوجا؟ أنا واثقة أن الجميع ينسونه. أما هو فما كان لينساه. يجب أن نضع سيريوجا في الغرفة الركنية ونطلب إلى «مارييت» أن تنام بجنبه.

وفجأة، تجمّعت على نفسها، وصمتت، ورفعت ذراعيها إلى مستوى وجهها، وقد بدا عليها الرعب، وكأنها تريد أن تتّقي ضربة. لقد شاهدت زوجها.

واستأنفت:

– لا! لا! إني لا أخافه، وإنما أخاف الموت. تعال إلي، يا ألكسي ألكسندروفتش. إني مستعجلة، لأن الوقت ضيق، ولم يبق لدي الكثير منه. ستعود الحمّى، ولن أفهم بعدها شيئاً. وأنا أفهم الآن، أفهم كل شيء وأرى كل شيء.

عبّر وجه ألكسي ألكسندروفتش المغضّن عن ألم شديد؛ فأخذ يدها وأراد أن يتكلّم، لكنه لم يستطع أن ينطق بشيء؛ كانت شفته السفلى ترتجف، وكان يُصارع انفعاله، وينظر إليها بين الحين والآخر. وكان كلما نظر إليها رأى عينيها محدقتين فيه، معبرتين عن حنان وحماسة لم يرهما فيها من قبل.

توقّفت كأنها تستجمع أفكارها:

– انتظر، أنت لا تعلم... انتظر، انتظر...

Tele: @Arab_Books

ثم بدأت كلامها:

– نعم، نعم، نعم. اسمع ما كنت أريد أن أقوله لك. لا تدهشْ. فما زلت أنا نفسي... لكن في امرأة أخرى وأنا أخاف منها. هي التي هامت به. أردت أن أكرهك، لكني لم أستطع أن أنسى المرأة التي كنتُها من قبل. أما المرأة الأخرى فكانت غيري. والآن، هأنذا بكليّتي. إنني أموت، وأرى أنني سأموت، ما عليك إلا أن تسأله. إني أحس مجدداً بهذه الأثقال في يدي، في رجلي، في أصابعي. انظر إلى أصابعي ما أضخمها! لكن ذلك كله سينتهي عما قريب... كل ما أحتاج إليه هو أن تغفر لي، كلياً! إني امرأة فظيعة، لكن مربية سيرج حدّثتني عن قديسة شهيدة، ما اسمها؟ يبدو أنها كانت أسوأ مني. سأذهب إلى روما، فهناك صحراء، ولن أزعج أحداً فيها، وسآخذ معي سيريوجا والطفلة الصغيرة... لا، لا تستطيع أن تصفح عني! أعلم، لا يمكن الصفح عن مثل ذلك! لا، لا، اذهب، أنت مُفرط الكمال!

أمسكت يده بإحدى يديها الملتهبتين، وأخذت تدفعه بالأخرى.

ما انفك اضطرابه يـزداد، وقد تعاظم إلى حد بعيد كف معه عن المقاومة؛ وأحس فجأة أن ما كان يعدّه اضطراباً، إنما هو، على العكس، حالة نفسية مُفرحة تبعث فيه فجأة ضرباً من السعادة التي لم يلقها من قبل. لم يخطر بباله أن ذلك القانون المسيحي الذي لم يشأ أن يتّبعه كان يأمره بالصفح عن أعدائه وبمحبتهم؛ لكن شعوراً مشرقاً من المحبة والصفح قد ملأ قلبه. كان جاثياً قرب سريرها، مسنداً رأسه إلى ثني ذراعها التي كانت تحرقه عبر قميص النوم، ينتحب كالطفل،

Tele: @Arab_Books

طوقت بذراعيها رأس زوجها الذي تساقط شعره، وتقرّبت منه، ورفعت عينيها بكبرياء متحدية.

– ها هو ذا، كنت على يقين من ذلك! الآن، الـوداع، لكم جميعاً، الوداع!... لقد عادوا، لماذا لا يذهبون؟... ارفعوا عني هذا الفرو...

رفع الطبيب ذراعها، ووضعها برفق فوق وسادتها، وغطى كتفيها. فانصاعت وظلت مستلقية على ظهرها، محدقة بعينيها الملتمعتين أمامها:

-- تذكّر أنني بحاجة فقط إلى صفحك، ولست أبغي شيئاً آخر... لماذا لا يأتي، يا ترى؟

قالت ذلك وهي تلتفت إلى باب الغرفة حيث وقف فرونسكي:

– تعال، تعال! أعطه يدك.

تقدّم فرونسكي إلى رأس السرير، وعندما شاهد آنا غطّى وجهه بيديه، مرة أخرى.

قالت:

– اكشف عن وجهك، انظر إليه. إنه قديس.

واستأنفت بلهجة مغتاظة:

– ألكسي ألكسندروفتش، اكشف عن وجهه. أريد أن أراه.

Tele: @Arab_Books

أمسك ألكسي ألكسندروفتش بيدي فرونسكي وكشف عن وجهه الذي شوّهه الألم والمذلّة.

– أعطِه يدك، اصفح عنه.

مدّ ألكسي ألكسندروفتش إليه يده، دون أن يحبس الدموع التي ترقرقت من عينيه.

قالت:

– الحمد لله، الحمد لله! كل شيء جاهز، الآن. لم يبق لي إلا أن أمد رجلي قليلاً. هكذا، نعم، حسن هكذا.

وقالت وهي تشير إلى الطنافس:

– ما أبشع هذه الأزهار، إنها لا تشبه البنفسج في شيء.

يا إلهي، يا إلهي! متى سينتهي ذلك؟ أعطني شيئاً من المورفين، يا دكتور. أعطني شيئاً من المورفين. أوه! يا إلهي، يا إلهي!

وأخذت تضطرب في فراشها.

لقد شخّص الأطباء مرضها وهو حمّى النفاس التي لا تكاد تنجو منها سوى امرأة واحدة من مائة. وقضت نهارها في الهذيان واللاشعور. وحوالي منتصف الليل، كانت المريضة ترقد فاقدة حسها، وكان نبضها لا يُسمع.

وأخذوا ينتظرون النهاية بين دقيقة وأخرى.

ذهب فرونسكي إلى منزله لكنه عاد في صباح اليوم التالي يسأل عن أخبارها. أقبل عليه، في البهو، ألكسي ألكسندروفتش وقال له:

Tele: @Arab_Books

«ابق، ربما طلبتْكَ» وأخذه بنفسه إلى القاعة الصغرى. عند الصباح، بدأت تتحرك وتتكلم بحيوية قافزة من موضوع إلى آخر، ثم ما لبثت أن غرقت في اللاشعور.

وفي اليوم الثالث، ظلت الأعراض نفسها وقال الأطباء: إن هناك أملاً. في هذا اليوم، قصد ألكسي ألكسندروفتش إلى القاعة الصغرى حيث كان فرونسكي، وبعد أن أغلق الباب بالمفتاح، جلس قبالته.

قال فرونسكي، وقد أحس أن ساعة الاستفسار قد دنت:

– ألكسي ألكسندروفتش، ليس في مقدوري الكلام: ولا الفهم. فدعني! ومهما يكن الأمر مؤلماً لك، فهو أفظع، بالنسبة إلي.

وأراد أن ينهض، لكن ألكسي ألكسندروفتش أمسك بيده، وقال له:

– أرجوك أن تصغي إلي حتى النهاية، فهذا ضروري. يجب أن أشرح لك العواطف التي قادتني حتى الآن والتي ستحدد سلوكي، حتى لا ترتكب خطأً بصددي. أنت تعلم أني عزمت على الطلاق وأني قمت بالخطوات الأولى. ولا أخفي عليك أنني حين سرت في هذه الطريق، كنت متردداً ومتألماً، فأنا أعترف لك بأن الرغبة في الانتقام منك ومنها قد لاحقتني. وعندما تلقيت البرقية، وصلت وأنا أحمل العواطف نفسها. بل أني كنت أتمنى موتها. لكن... (وصمت، متردداً في كشف فكرته لفرونسكي). لكنني رأيتها وصفحت عنها. وقد كشفت لي سعادة المغفرة عن واجبي. لقد صفحت عنها بدون تحفّظ. أريد أن أُدير الخد الآخر، وأعطي قميصي حين يُؤخذ معطفي أرجو الله فقط ألا يسلبني الغبطة التي تحتوي عليها المغفرة!

Tele: @Arab_Books

اغرورقت عيناه بالدموع وأدهشت فرونسكي نظرته المضيئة والهادئة. وتابع ألكسي ألكسندروفتش:

- وهذا هو موقفي. تستطيع أن تدوسني في الوحل، وأن تجعل مني ضحكة أمام الناس، لكني لن أتخلى عنها ولن ألومك بكلمة. لقد تحدد واجبي بوضوح: ينبغي لي أن أبقى معها. فإذا شاءت أن تراك أخبرتك بذلك، لكني أعتقد أن من الأفضل أن تبتعد، في هذه الآونة.

نهض وقد غص بالعبرات. ونهض فرونسكي أيضاً، دون أن ينتصب انتصاباً كاملاً، ونظر إليه من تحت، وهو منحن. لم يفهم مشاعر ألكسي ألكسندروفتش. لكنه أحس أن ها هنا شيئاً عالياً لا يتّفق ومفهومه للحياة.

Tele: @Arab_Books

-١٨-

خرج فرونسكي، بعد حديثه مع ألكسي ألكسندروفتش، إلى درج المدخل في منزل آل كارينينا، ووقف وهو يعاني صعوبة التذكر: أين كان وإلى أين ينبغي أن يذهب. أحس بالضَعة وبالذل وبالذنب، وبالعجز عن غسل ذلّه، وبأنه قد قُذف به خارج الدرب الذي سار عليه حتى الآن بيسر وكبرياء شديدين. وتبين فجأة أن جميع عادات حياته وقواعدها التي كانت تبدو له صلبة، متينة، إنما هي كاذبة وغير صالحة للتطبيق. فالزوج المخدوع الذي بدا له إنساناً تافهاً حتى هذا اليوم، وعقبة عارضة بل مضحكة، في وجه سعادته، ارتفع بغتة، على يدها، إلى علو يبعث على الاحترام، بدا من ذلك العلو طيباً، بسيطاً، كريماً وليس انتقامياً ولا منافقاً ولا مضحكاً. لم يكن بوسع فرونسكي ألا يُحس بذلك. لقد تغيرت الأدوار فجأة. أخذ فرونسكي يحس بسمو كارينينا وضعته هو نفسه، باستقامة كارينينا وحقارته هو نفسه. أحس أن هذا الزوج كان شهماً في تعاسته، في حين كان هو حقيراً، تافهاً. لكن هذا الشعور بحقارته أمام الرجل الذي ازدراه بغير حق، لم يكن يؤلّف سوى الجزء الأقل من ألمه. لقد أخذ يحس الآن بأن تعاسته لا حدٍّ لها ذلك لأن حبه لآنا الذي ظن أنه فتر، في الآونة الأخيرة، انبعث كأعنف ما يكون، الآن وهو يعلم أنه سيفقدها إلى الأبد. لقد

Tele: @Arab_Books

رآها أثناء مرضها، واكتشف نفسها، ولاح له أنه لم يحبها بعد. وها هو ذا يكتسي ثوب الذل، ويفقدها إلى الأبد، ولا يترك في نفسها سوى ذكرى مخزية، الآن وقد أخذ يعرفها ويحبها كما ينبغي أن يكون الحب. تذكّر برعب موقفه المضحك والشائن عندما أزاح ألكسي ألكسندروفتش يديه عن وجهه الذليل. ظل جامداً على درج المدخل، مضطرب النفس، لا يدري ما يفعل.

سأله البواب:

- أأدعو عربة؟

- نعم، هو كذلك.

عندما عاد فرونسكي إلى منزله بعد ثلاث ليال من السهاد، اضطجع منبطحاً على أريكة، دون أن يخلع ثيابه، وأسند رأسه إلى يديه المتصالبتين. كان رأسه ثقيلاً. وتوالت أغرب التصورات والذكريات والأفكار بوضوح وسرعة خارقتين: فهو تارة يصب الدواء للمريضة في ملعقة، فيقبض الدواء عن الملعقة، وهو تارة أخرى أمام يدي القابلة البيضاوين، وقد يتجلى له الوضع الغريب لألكسي ألكسندروفتش على أرض الغرفة، بجنب السرير.

وخاطب نفسه بالثقة الهادئة التي يخاطب بها الرجل الصحيح الجسم نفسه حين يعتقد أنه لن يلبث أن ينام لأنه متعب ولأنه يشتهي النوم: «يجب أن أنام! وأن أنسى!» وبالفعل، فقد اختلط كل شيء في رأسه على الفور، وغرق في هوّة النسيان. وتلاقت فوق رأسه أمواج الحياة اللاشعورية عندما تلقى فجأة، ما يشبه الصدمة الكهربائية

Tele: @Arab_Books

العنيفة. فارتعد بشدة حتى إن جسده كله انتفض على نوابض الأريكة، ونهض مستنداً على يديه، وجثا فجأة على ركبتيه، وقد استولى عليه شعور بالرعب. كانت عيناه محملقتين كأنه لم ينم قط. واختفى ثقل رأسه وتعب أعضائه.

سمع ألكسي ألكسندروفتش يقول: «تستطيع أن تدوسني في الوحل»، ورآه؛ رأى أيضاً وجه آنا الملتهب المتوهج، وعينيها الملتمعتين المحدّقتين بحنان وحب في ألكسي ألكسندروفتش، لا فيه؛ وخُيل إليه أنه رأى تعبير وجهه ذاته، الأحمق والمضحك، عندما أمسك ألكسي ألكسندروفتش بيديه وكشَف عن وجهه.

وردد في نفسه: «يجب أن أنام! يجب أن أنام!». لكنه كان يرى، وعيناه مغمضتان، بوضوح أشد، وجه آنا في ذلك المساء المشهود مساء يوم السباق. وقال بصوت مرتفع: «انتهى الأمر، إنها تريد أن تمحو ذلك من ذاكرتها. أما أنا فلا أستطيع أن أحيا بدونه. فكيف يمكننا أن نتصالح؟ كيف يمكننا أن نتصالح؟» وردد هذه الكلمات لا شعورياً. وساعد ترديد هذه الكلمات على تشكّل صور جديدة وذكريات جديدة أحس أنها أخذت تزدحم في رأسه. لكن ذلك لم يدم طويلاً. وأخذت تتوالى أجمل لحظات حبه ولحظات مذلّته، بسرعة خارقة. كان صوت آنا يقول: «ارفع يديك» فيرفع يديه ويحس بتعبير وجهه الأحمق، الذليل.

ظل مضطجعاً، يحاول أن يغفو، وإن أحس أنه لم يبق له أدنى أمل في النوم، وأخذ يكرر بصوت خفيض كلمات أتته عرضاً، رغبة منه في تشكيل صور جديدة. ويصيخ السمع... فيفاجئ همساً غريباً،

Tele: @Arab_Books

متنافراً: «لم تستطع أن تقدّر، لم تستطع أن تستفيد؛ لم تستطع أن تقدّر، لم تستطع أن تستفيد...».

قال في نفسه: «ماذا يجري؟ أأشرفت على الجنون؟ ربما. لماذا يجنّ الإنسان ولماذا ينتحر؟» قال هذه الجملة رداً على سؤاله، وفتح عينيه فشاهد بدهشة وسادة، قرب رأسه، طرّزتها زوجة أخيه «فاريا». ولمس شرّاباتها باذلاً جهده كي يتذكّر زوجة أخيه كما رآها في آخر مرة. لكن التفكير بما هو غريب عن همومه كان عذاباً. «لا، يجب أن أنام!» وقرّب الوسادة وأسند إليها رأسه، لكن كان لا بدَّ له من بذل الجهد ليحافظ على عينيه مغمضتين. فانتفض وجلس. وفكّر: «انتهى كل شيء، بالنسبة إلي. يجب أن أفكر فيما سأفعله. ماذا بقي لي؟» واستعرض حياته خارج حبه لآنا.

«الطموح؟ سيربو كوفسكوي؟ الناس؟ البلاط؟ لم يكن بوسعه أن يقف عند شيء من ذلك. كان لذلك كله معنى فيما مضى، أما الآن فلم يبق له شيء من ذلك. ونهض، فنزع سترته، وحل زناره، وعرّى صدره الذي غطّاه الشعر ليتنفس بحرية أكبر، وتمشى في الغرفة، وكرر. «هكذا يجن الإنسان»، وأضاف ببطء: «وهكذا ينتحر... فراراً من العار».

دنا من الباب وأغلقه؛ ومضى إلى الطاولة، ثابت النظرة، متشنّج الفكين، وتناول المسدس، وفحصه، وأخذ يفكر. وظل، على هذه الحال، نحو دقيقتين ساكناً، مطرق الرأس، مستغرقاً في التأمل، والمسدس في يده. وقال في نفسه: «طبعاً»، وكأن السير المنطقي والمتصل والواضح لفكرته قد أفضى به إلى هذه النتيجة القاطعة:

Tele: @Arab_Books

«طبعاً». إن «طبعاً» هذه لم تكن سوى النهاية التي بلغتها تلك الحلقة الأبدية، حلقة التصورات والذكريات التي استعرضها مرات منذ ساعة.

كانت الذكريات هي نفسها، ذكريات السعادة التي ضاعت إلى الأبد، وكان التصور هو نفسه، تصور استحالة المستقبل، وكان الشعور هو نفسه: الشعور بالمذلة. وكان توالي هذه التصورات والعواطف هو نفسه.

وردد للمرة الثالثة «طبعاً». فانطلقت أفكاره وذكرياته في هذه الحلقة المسحورة. وضغط المسدس على جانب صدره الأيسر، وشنّج عليه يده، وشد على الزناد. لم يسمع صوت الانفجار، لكن صدمة عنيفة في صدره رمته أرضاً. أراد أن يتشبّث بحافة الطاولة، وترك مسدسه يسقط، وترنّح، وجلس على الأرض، منقّلاً عينيه حوله، وقد بدت عليه الدهشة. ولم يستطع أن يتعرف الغرفة حين نظر من تحت إلى قوائم الطاولة الملتوية، وإلى سلة الأوراق، وإلى جلد النمر. وأجبرته خطوات خادمه السريعة التي كانت تصر على أرض الغرفة الخشبية، وكان قد هُرع من قاعة الاستقبال، أن يتمالك نفسه. وتحامل على نفسه وأدرك أنه على الأرض؛ وعندما رأى الدم على جلد النمر وعلى يده أدرك أنه قد أطلق النار على نفسه من المسدس.

قال وهو يتحسس بيده الأرض بحثاً عن مسدسه: «يا للغباء! لقد أخطأت نفسي»... كان السلاح بجنبه... وبحث عنه بعيداً عن مكانه. وفيما هو يبحث عنه، فقد توازنه وسقط على جنبه، مخضّباً بدمه.

Tele: @Arab_Books

أما الخادم، وكان فتى أنيقاً، طويل السالفين، كثيراً ما شكا إلى أصدقائه ضعف أعصابه فقد ذُعر عندما رأى معلمه ممدداً على الأرض إلى الحد الذي تركه يفقد دمه وركض يطلب النجدة. وفي ظرف ساعة، وصلت فاريا زوجة أخي فرونسكي، واستطاعت بمساعدة ثلاثة أطباء دعتهم من أقاصي المدينة وجاؤوا جميعاً في وقت واحد، أن تُمدده على السرير. وبقيت للعناية به.

Tele: @Arab_Books

-١٩-

ارتكب ألكسي ألكسندروفتش خطأً حين هيأ نفسه للقاء امرأته دون أن يتصور احتمال توبتها الصادقة وصفحه عنها وشفائها. وبعد شهرين من رجوعه من موسكو، انكشفت له جسامة هذا الخطأ. ولم يأت هذا الخطأ فقط من أنه لم يتصوّر ذلك الاحتمال، بل وأيضاً من أنه كان يجهل حقيقة قلبه، حتى لقائه مع امرأته المحتضرة. ولأول مرة في حياته، استسلم، وهو عند سرير امرأته، لذلك الشعور بالرأفة المتحنّنة التي كانت تولّدها فيه آلام الآخرين والتي كان يقاومها، حتى اللحظة الحاضرة، باعتبارها ضعفاً مؤذياً؛ ولقد وفّرت له رأفته بآنا، وندامته على تمنّيه الموت لها، وفرحته بالصفح، تهدئة لآلامه، بل وسكينة داخلية لم يشعر بها من قبل. لقد أحس فجأة أن ما كان مصدراً لآلامه أصبح هو نفسه مصدراً لفرحه الروحي، وما كان يبدو له مستعصياً على الحل، عندما كان يلوم وينتقد ويكره غدا بسيطاً وواضحاً الآن وهو يحب ويصفح.

صفح عن زوجته، ورثى لآلامها وندامتها، وصفح عن فرونسكي ورثى له، ولا سيما بعد أن علم بفعلته البائسة. ورثى لابنه أكثر من ذي قبل. ولام نفسه على إهماله له. وشعر نحو المولودة الجديدة بشعور

Tele: @Arab_Books

خاص تمتزج فيه الرحمة بالحنان. ولقد اهتم، في البداية، بهذه المخلوقة الصغيرة والضعيفة التي لم تكن ابنته والتي أهملت أثناء مرض أمها، وكانت حرية بأن تموت لولا عنايته بها، بدافع الشفقة الخالصة... وتعلّق بها دون أن يفطن لذلك. كان يذهب، عدة مرات في اليوم، إلى غرفة الأطفال ويمكث فيها فترة طويلة. وتعوّدت المرضع والمربية حضوره، بعد أن ارتعبتا في بداية الأمر. وكان يتأمل أحياناً بصمت خلال نصف ساعة كاملة وجه الطفلة المجعد، الأحمر الزعفراني، الذي غشيه زغب دقيق، وحركات جبينها المغضّن، وينظر إليها وهي تفرك أنفها بيديها السمينتين اللتين انكمشت أصابعهما. في هذه اللحظات، كان ألكسي ألكسندروفتش يحس بالهدوء الكامل، وبالوفاق مع نفسه، ولا يرى في وضعه شيئاً خارقاً للعادة، شيئاً يلزمه التغيير.

لكنه كان كلما مر الزمن رأى بوضوح أن هذا الوضع، مهما يكن طبيعياً، فلن يُتاح له أن يبقى فيه. فإلى جانب القوة الروحية السامية التي كانت توجّه نفسه، كان هناك قوة أخرى، بدائية، قوية مثل تلك إن لم تكن أقوى، تقود حياته وتأبى أن تمنحه الطمأنينة المتواضعة التي يتوق إليها. كان يحس أن جميع الناس ينظرون إليه بدهشة، ولا يفهمونه، وينتظرون منه شيئاً. وكان يشعر، على الخصوص، بما في علاقاته مع امرأته من هشاشة وتصنّع.

وعندما ذهب ذلك التحنن الذي أثارته في ألكسي ألكسندروفتش مجاورة الموت، لاحظ أن آنا تخشاه وتتحمل بعناء حضوره، ولا تجرؤ على مواجهته بنظرها، وكأنها كانت تبغي أن تقول له شيئاً دون أن

Tele: @Arab_Books

تعقد العزم، حادسة، كغيرها، أن علاقاتهما لا يمكن أن تستمر، منتظرة منه شيئاً.

في أواخر شباط، مرضت الطفلة التي سُميت آنا أيضاً. فقضى ألكسي ألكسندروفتش الصباح في غرفة الأطفال، وبعد أن أرسل مَن يأتي بالطبيب، ذهب إلى الوزارة. وعاد إلى المنزل نحو الرابعة، عندما انتهى من عمله. وحين دخل البهو شاهد خادماً حسن الهيئة في بزة مزيّنة بشرائط وعليه وشاح من جلد الدب، وهو يحمل بيده معطفاً مبطناً بفرو أبيض.

سأل ألكسي ألكسندروفتش:

– من هنا؟

أجاب الرجل:

– الأميرة إليزابيت فيدوروفنا تفيرسكوي.

وخُيّل إلى ألكسي ألكسندروفتش أنه رآه يبتسم.

لاحظ ألكسي ألكسندروفتش، أثناء هذه الفترة المؤلمة، أن معارفه، ولا سيما النساء، أظهروا اهتماماً خاصاً به وبزوجته. ولقد كشف لدى هؤلاء الأشخاص عن فرح لا يكاد يخفى، وهو نفس الفرح الذي لمحه في عيني المحامي والذي يلمحه الآن في عيني الخادم. كانوا جميعاً يبدون مغتبطين كأنهم يُزوّجون أحد الناس، فإذا لقوه استخبروا عن صحته بمرح يكاد يكون ظاهراً.

Tele: @Arab_Books

كان يستثقل حضور الأميرة تفيرسكوي من جراء الذكريات المرتبطة بها، ولأنه لم يكن يحبّها على الإجمال، ولذلك مضى رأساً إلى شقّة الأطفال. في الغرفة الأولى، كان سيريوجا مضطجعاً على عرض الطاولة ورجلاه على الكرسي، يرسم وهو يُثرثر بفرح. وكانت المربية الإنكليزية التي حلّت محل الفرنسية أثناء مرض آنا، جالسة قرب الصبي ومعها شغلُها. نهضت بسرعة، وحيّته، وأجلست سيريوجا.

داعب ألكسي ألكسندروفتش شعر ابنه، وأجاب عن أسئلة المربية حول صحة امرأته وسألها عما قاله الطبيب بشأن الطفلة.

– قال الطبيب: إن حالتها لا تدعو إلى القلق وأوصى بالمغاطس، يا سيدي.

قال ألكسي ألكسندروفتش وهو يصغي إلى بكاء الطفلة في الغرفة المجاورة:

– لكنها ما تزال تتألم.

قالت الإنكليزية بلهجة حازمة:

– أظن أن المرضع غير صالحة، يا سيدي.

قال وقد وقف:

– ما الذي يحملك على هذا الظن؟

– رأيت ذلك عند الكونتيسة «بوهل»، يا سيدي. لقد كانوا

Tele: @Arab_Books

يعالجون الطفل بالأدوية ثم اكتشفوا أنه جائع لا غير: لم يكن في المرضع حليب.

أخذ ألكسي ألكسندروفتش يفكر، وبعد أن مكث بضع ثوان، دخل الغرفة الأخرى. كانت الطفلة، منكمشة على نفسها بين يدي المرضع، رامية برأسها إلى الخلف، ترفض الثدي الممتلئ الذي يُقدَّم إليها، وتمضي في صراخها بالرغم من جهود المربية والمرضع المنحنيتين معاً عليها.

قال ألكسي ألكسندروفتش:

– ألم تتحسن؟

أجابت المربية بصوت خفيض:

– إنها مضطربة جداً.

فقال:

– تقول الآنسة ادوارد: إن المرضع ربما كان قد انقطع حليبها.

– وهذا ما أعتقده أيضاً، ألكسي ألكسندروفتش.

– ولَم لم تقولي ذلك؟

فأجابت المربية باستياء:

– ولمن أقول؟ فآنا أركاديفتش ما تزال مريضة.

Tele: @Arab_Books

كانت هذه المرأة في خدمتهم، منذ زمن طويل. وخُيّل إلى ألكسي ألكسندروفتش أنه يرى في هذه الكلمات تلميحاً إلى وضعه.

ازداد صراخ الطفلة وقد شرعت تتخبط وتُبحّ. فنّدت عن المربية حركة تنمّ على اليأس، ودنت من المرضع، وتناولت منها الطفلة وأخذت تهدهدها وهي تمشي.

قال ألكسي ألكسندروفتش:

- يجب أن نطلب إلى الطبيب فحص المرضع.

خشيت المرضع، وهي امرأة قوية المظهر، مزدانة بأحلى حلاها، أن تفقد مكانها، فهمهمت بشيء في وجهه، وغطت صدرها العريض، وابتسمت ابتسامة ازدراء لكل الذين يشكّون في قدراتها. وخُيّل إلى ألكسي ألكسندروفتش أنه يرى أيضاً في هذه الابتسامة نية السخرية.

قالت المربية وهي تروح وتجيء محاولة إسكات الطفلة.

- مسكينة.

جلس ألكسي ألكسندروفتش على كرسي، ونظر بوجه متألم، مهدود، إلى المربية العجوز وهي تتمشى.

وبعد أن وضعت الطفلة التي هدأت، آخر الأمر، في مهدها، وبعد أن سوّت المرضع الوسادة وانصرفت، نهض ألكسي ألكسندروفتش ودنا بخُرقٍ من المهد الصغير، على رؤوس أصابعه وتأمل الطفلة، خلال دقيقة، دون أن يفوه بكلمة، بوجهه الذي ارتسم عليه القلق؛

Tele: @Arab_Books

لكن ابتسامة ما لبثت أن محت ما في جبينه من تغضّن، وخرج من الغرفة، دون ضوضاء.

في قاعة الطعام، استدعى الخادم وأمره أن يذهب لطلب الطبيب. لقد حقد على زوجته لإهمالها هذه الطفلة الساحرة، ونزع منه الرغبة في لقائها وفي رؤية الأميرة بيتسي؛ لكن امرأته قد تدهش لعدم مجيئه إليها، كعادتها، لذلك بذل جهداً وقصد إلى غرفة النوم. وعندما اتجه إلى الباب، على السجادة الناعمة، فاجأ، عن غير عمد، حديثاً ما كان بوده أن يسمعه.

كانت بيتسي تقول:

– لو لم يكن سيسافر، لفهمت رفضك ورفضه. لكن زوجك ينبغي أن يكون فوق ذلك.

أجاب صوت آنا المنفعل:

– ليس الموضوع موضوع زوجي، وإنما موضوعي أنا. فلا تخاطبيني في ذلك بعد!

– لا يجوز لكِ ألا تودّعي الرجل الذي أراد أن يقتل نفسه بسببك...

– من أجل ذلك بالذات لا أريد أن أراه.

توقف ألكسي ألكسندروفتش مرتعباً، كالمذنب، وأراد أن يعود أدراجه دون أن يلحظَه أحد. لكنه قدّر أن ذلك غير لائق، وتابع سيره إلى غرفة النوم وهو يسعل.

Tele: @Arab_Books

..... الصوتان ودخل.

كانت آنا جالسة على كرسي طويل، في مبذل رمادي، وشعرها الأسود القصير قد نما على رأسها المدور.

ولدى مرأى زوجها غاضت الحيوية من وجهها فجأة، كما هو شأنها دائماً؛ وأطرقت رأسها ورمت بيتسي بنظرة قلقة. كانت بيتسي ترتدي ثياباً من آخر زي: فقد وضعت في أعلى رأسها قبعة صغيرة مثل كمة المصباح فوق المصباح، ولبست ثوباً أزرق رمادياً تزينه خطوط مائلة عند الصدر وعند ظهر التنورة. وكانت جالسة بجنب آنا، وقد اعتدل نصفها الأعلى، الرقيق في هذه الجلسة. استقبلت ألكسي ألكسندروفتش بإيماءة من رأسها وبابتسامة ساخرة. قالت كالمدهوشة:

– آه! أنا مغتبطة بأن ألقاك في بيتك. أنت لا تظهر في أي مكان؛ ولم أرك منذ مرض آنا. لكني على علم بما بذلتَ من عناية. أنت زوج مُدهش!

قالت ذلك بلهجة ملاطفة لها دلالتها، كأنها كانت تمنحه وسام الشهامة على سلوكه إزاء امرأته.

انحنى ألكسي ألكسندروفتش ببرودة، وبعد أن قبّل يد امرأته، استفسر عن صحتها.

قالت وهي تتحاشى نظرته:

– يلوح لي أنني أتحسن!

قال وهو يشدد على الكلمة الأخيرة:

– بيد أن وجهك محموم.

Tele: @Arab_Books

قالت بيتسي:

– لقد تحدثنا كثيراً. أحس أن ذلك كان أنانية من جانبي، وسأنصرف.

ونهضت لكن آنا احمرت فجأة وأمسكت يدها بشدة، وقالت:

– لا، ابقي، أرجوك. يجب أن أقول لكِ...

والتفتت إلى ألكسي ألكسندروفتش، وقد اكتسى عنقها وجبهتها بالحمرة:

– لا، بل لكَ...

وأضافت:

– لا أريد ولا أستطيع أن أكتم شيئاً عنك.

فرفع ألكسي ألكسندروفتش أصابعه وخفض رأسه:

– قالت لي بيتسي: إن الكونت فرونسكي يرغب في المجيء إلينا، لكي يودّعني قبل سفره إلى طاشقند. فقلت لها: إنني لا أستطيع أن أستقبله.

لم تكن تنظر إلى زوجها، وكان واضحاً أنها تستعجل لتنتهي مما ستقوله، وإن شق عليها ذلك.

صححت لها بيتسي:

– عفواً، يا عزيزتي، لقد قلتِ إن ذلك يتعلّق بألكسي ألكسندروفتش.

Tele: @Arab_Books

- نعم، لكني لا أستطيع أن أستقبله، فذلك لا يؤدي...

وتوقفت فجأة وألقت على زوجها نظرة مستفهمة، (لم يكن ينظر إليها)، وأضافت:

- وبكلمة واحدة، لا أريد...

تقدم ألكسي ألكسندروفتش خطوة إلى الأمام وأراد أن يُمسك بيدها.

كانت حركتها الأولى رفض هذه اليد الرطبة ذات العروق الضخمة، المنتفخة، هذه اليد التي كانت تبحث عن يدها؛ لكنها تحاملت، كما يبدو، على نفسها، وشدت على يده.

قال لها وهو مضطرب:

- أشكر لك ثقتك، لكن...

وأحس حانقاً أن ما يمكن أن يحله بيسر بينه وبين نفسه، كان عاجزاً عن التفكير فيه بحضور تفير سكوي التي تجسد، في نظره، تلك القوة الغاشمة التي ينبغي أن تُدير حياته في نظر الناس وأن تمنعه من الاستسلام للحب والمغفرة. توقف، وعيناه محدقتان في الأميرة تفير سكوي».

قالت بيتسي وهي تنهض:

- وداعاً، يا ملاكي!

وعانقت آنا وخرجت. فشيّعها ألكسي ألكسندروفتش. قالت بيتسي، وهي تقف في القاعة الصغرى وتشد على يده بقوة خاصة:

Tele: @Arab_Books

– أنا بعيدة عن ذلك كله، لكني أحب آنا كثيراً وأقدرك تقديراً عظيماً بحيث أسمح لنفسي بأن أسوق إليك هذه النصيحة:

استقبلْه. فألكسي فرونسكي هو الشرف متجسّداً، وهو مسافر إلى طاشقند.

– أشكر لك مودّتك ونصائحك. لكن امرأتي وحدها هي التي تقرر إن كانت تستطيع أو لا تستطيع استقبال أحد من الناس.

قال ذلك وهو يرفع حاجبيه بوقار حسب عادته، وما لبث أن فكّر أنه لا يستطيع أن يُبدي شيئاً من الوقار في وضعه، مهما تكن كلماته. تبين ذلك في الابتسامة المتحفّظة، الهازئة، الساخرة والخبيثة التي واجهته بها بيتسي بعد أن قال جملته تلك.

Tele: @Arab_Books

-٢٠-

ودّع ألكسي ألكسندروفتش بيتسي في القاعة الكبرى وعاد إلى زوجته. كانت مُستلقية، لكنها عندما سمعت خطواته جلست على عجل، واتخذت وضعها السابق، ونظرت إليه برعب. رأى أنها بكت.

قال بهدوء، وبالروسية (لقد قال هذه الجملة بالفرنسية، أمام بيتسي):

- أنا شاكر لك ثقتك.

وجلس بجنبها. وكان يستخدم ضمير المفرد عندما يكلّمها بالروسية، وقد أحنق ذلك آنا. وأضاف:

- وشاكر أيضاً لك قرارك. وأظن أنه ليس من الضروري على الإطلاق أن يأتي الكونت فرونسكي إلى هنا، حين يسافر.

فقاطعته آنا فجأة بغيظ:

- لكن بما أنني قلت ذلك، فلا جدوى من إعادته!

وفكرت «ليس من الضروري على الإطلاق. ليس من الضروري

Tele: @Arab_Books

أن يعمد رجل إلى وداع المرأة التي أحبها، والتي أراد أن يموت من أجلها والتي تستطيع أن تعيش بدونه!». وزمّت شفتيها وخفضت عينيها الملتمعتين إلى يدي زوجها بعروقهما المنتفخة، وكان يفركهما ببطء إحداهما بالأخرى.

وأضافت بهدوء أكبر:

- فلندع الكلام على ذلك.

وبدأ يقول:

- تركت لك حرية حل هذه المسألة وأنا سعيد إذ أرى...

فأكملت جملته بحدة، وقد غاظها أن تسمعه يتكلم ببطء مع أنها كانت تعلم مسبقاً كل ما سيقوله:

- إن رغبتي وافقت رغبتكِ.

وشدد:

- نعم، والأميرة تفيرسكوي تتدخل، بغير داع، في أدق شؤون الآخرين. ولا سيما أنها...

قالت آنا بسرعة:

- لا أصدق أبداً ما يقال عنها. وأنا واثقة من أنها تضمر لي مودّة صادقة.

تنهد ألكسي ألكسندروفتش وصمت. كانت تعبث بشرّابات

Tele: @Arab_Books

مبذلها، بعصبية، ناظرة إليه بين الحين والحين وقد راودها ذلك الشعور الجارف بالاشمئزاز الجسدي الذي كانت تلوم نفسها عليه، وإن لم تستطع التغلب عليه. لقد استبدّت بها رغبة واحدة وهي أن تتخلّص من حضوره الكريه.

قال ألكسي ألكسندروفتش:

– لقد أرسلت أستدعي الطبيب.

– لماذا؟ لست مريضة.

– لكن الصغيرة تصرخ، وقد قيل إن المرضع ليس فيها ما يكفي من الحليب.

– ولماذا لم تسمح لي بإرضاعها حين كنت أتوسّل إليك من أجل ذلك؟ وبالرغم من كل شيء، (لقد فهم ألكسي ألكسندروفتش ما معنى «بالرغم من كل شيء»)، فإنها طفلة وقد نُموِّتُها. واستدعت الخادمة أمرتها أن تحمل إليها الطفلة. وأضافت:

– طلبت إرضاعها فمنُعتُ من ذلك، وهأنذا أُلام الآن.

– إني لا ألومُكِ.

– بلى! يا إلهي! لماذا لم أمتْ؟

وأخذت تنتحب، وقالت وهي تتمالك نفسها:

– اغفر لي، أنا عصبية، أنا ظالمة. لكن، اتركني...

Tele: @Arab_Books

قال ألكسي ألكسندروفتش في نفسه بحزم وهو يغادر غرفة امرأته: «لا، لا يمكن أن تستمر الأمور هكذا».

إن تعذّر استمرار هذا الوضع في أعين الناس، وحقد امرأته، وطغيان هذه القوة الغاشمة والدفينة التي كانت تقود حياته وتفرض عليه تغيير موقفه إزاء امرأته، بالرغم من استعداداته الداخلية، إن ذلك كله لم يبدُ له قط بمثل هذا الوضوح. كان يرى بجلاء أن العالم بأسره وامرأته يتطلّبان منه شيئاً ما، أما ما ذلك الشيء بالضبط فهو ما لم يكن يدركه. وكان يحس بشعور من الحقد ينبعث في نفسه ويدمّر سكينته الروحية ومزيّة صنيعه. وكان يقدر أن من الخير لآنا أن تقطع علاقتها بفرونسكي، لكن إذا كان الجميع يجدون ذلك مستحيلاً، فهو مستعد لأن يغتفر هذه العلاقة من جديد، على شرط ألا يتأذى الطفلان من ذلك، وألا يفقدهما، وأن يظل وضعه على حاله. ومهما يكن ذلك مؤسفاً فهو خير من الانفصال الذي سيضع آنا في وضع مُخزٍ، لاإخلاص منه، ويحرمه هو نفسه من كل ما يحب. لكنه كان يشعر بأنه عاجز، ويعلم مسبقاً بأن الجميع ضده، وأنهم لن يدعوه يفعل ما بدا له الآن في غاية البساطة والجمال، وأنهم سيحملونه على أن يُسيء التصرف، لأن ذلك كان يبدو ضرورياً.

Tele: @Arab_Books

-٢١-

لم تكد بيتسي تترك قاعة الاستقبال حتى اصطدم بها، عند عتبة الباب، ستيفان أركاديفتش، وكان عائداً من مخزن أليسيف حيث وصل المحار الطازج.

قال:

– آه! أميرة! ما أطلف هذا اللقاء! أنا عائد من عندك.

قالت بيتسي وهي تبتسم وتلبس قفازها:

– لكنه لقاء سريع، لأنني ذاهبة.

– قبل أن تضعي قفازك، اسمحي لي أن أقبّل يدك. فلا شيء ألطف وقعاً في نفسي،عند العودة إلى العادات القديمة، من عادة تقبيل يد المرأة. (وقبّل يدها). متى سنلتقي؟

قالت بيتسي وهي تبتسم:

– أنت لا تستحق ذلك.

– على العكس تماماً، لأنني أصبحتُ أكثر الناس رصانة، فلست

Tele: @Arab_Books

أُسوّي مشكلاتي العائلية فحسب، لكني أسوّي أيضاً مشكلات الآخرين.

وعبّرت قسمات وجهه تعبيراً له معناه، ففهمت بيتسي على الفور، أنه يقصد آنا، فأجابته:

– آه! أنا سعيدة بذلك!

ودخلت قاعة الاستقبال وجرّت أوبلونسكي إلى ركن منه، وقالت له بصوت خفيض وبلهجة رزينة:

– سوف يموّتها. هذا لا يُطاق، لا يُطاق...

قال ستيفان أركاديفتش وهو يهز رأسه وقد بدت عليه أمارات الرأفة:

– يسرّني أن تفكّري هذا التفكير. من أجل ذلك جئت من بطرسبرج.

قالت:

– المدينة كلها تلغط بذلك. إن وضعها لا يُطاق. وهي تَذبل. و لم يفهم هو بعد أنها من هؤلاء النساء اللواتي لا يمزحن مع عواطفهن أحد أمرين: إما أن يأخذها بيده ويتصرّف بحزم، وإما أن يطلّق. لكن الطلاق يقتلها.

قال أوبلونسكي وهو يتنهد:

Tele: @Arab_Books

- نعم... نعم... بالضبط... من أجل ذلك جئت. يعني... أنني لم أجئ من أجل هذا فقط... فقد عُيّنت حاجباً امبراطورياً، ويجب أن أشكر مَن يعنيه الأمر. لكن الجوهري هو أن نسوّي هذه المشكلة.

قالت بيتسي:

- ليكن الله في عونك.

بعد أن شيّع ستيفان أركادييفتش الأميرة بيتسي في البهو، وبعد أن قبّل يدها من فوق القفاز، في موضع النبض، وألقى عدداً من العبارات المفرطة البذاءة حتى إنها لم تدر إن كان ينبغي أن تضحك أو تغضب، اتجه إلى غرفة أخته، فوجدها مستغرقة في البكاء.

انتقل ستيفان أركاديفتش، بصورة طبيعية، من المرح الفائض إلى لهجة مؤاسية، متهوّسة تهوساً شاعرياً، وهي لهجة أقرب ما تكون إلى حالة أخته النفسية، فاستفسر عن صحتها وكيف قضت صباحها. فقالت:

- كأسوأ ما يكون. نهاري، وصباحي، وجميع الأيام الماضية والآتية.

- يلوح لي أنكِ تستسلمين للكآبة. يجب أن تنفضي هذه الكآبة عنك وتواجهي الحَياة. أعلم أن ذلك شاق، لكن...

وطفقت آنا تقول فجأة:

- يقال إن بعض النساء يُحببن الرجال حتى الرذيلة. أما هو فأنا

Tele: @Arab_Books

أكرهه بسبب فضيلته. إني لا أستطيع أن أحيا معه. منظره وحده يؤثّر فيّ جسدياً، يُخرجني عن طوري. لا أستطيع، لا أستطيع أن أحيا وإياه تحت سقف واحد. فماذا أفعل؟ كنتُ تعسة وكنت أظن أن من المستحيل أن أصبح أتعس مما كنتُ، لكن لم أكن أستطيع أن أتصوّر الوضع الفظيع الذي أقاسيه الآن. أتصدّقني: إني لا أستطيع أن أمنع نفسي من كرهه لعلمي أنه رجل فاضل، ممتاز، وأنني لا أساوي إصبعاً من أصابعه. أكرهه من أجل كرم نفسه. ولم يبق لي إلا...

أرادت أن تقول: إلا الموت، لكن ستيفان أركاديفتش لم يدعها تتم جملتها، وقال لها:

– أنتِ مريضة وعصبية؛ وأنت تبالغين كثيراً. فليس في ذلك ما يروّع إلى هذا الحد.

وابتسم ستيفان أركاديفتش. ما كان لأحد غيره أن يسمح لنفسه بالابتسام أمام مثل هذا اليأس (كان ذلك سيبدو فظّاً)، لكن ابتسامته كشفتْ عن كثير من الطيبة والحنان (حنان يكاد يكون أنثوياً) حتى إنها لم تكن تجرح بل إنها كانت تُسكِّن وتُهدّئ. لقد كانت أحاديثه المتّزنة والمُطمئنة، وابتساماته تفعل فعل زيت اللوز، فعل المسكن. وسُرعان ما أحست آنا نفسها بآثارها.

قالت:

– لا، يا ستيفان. لقد هلكتُ، هلكتُ! بل أنا أسوأ من ذلك! فلم أهلكْ بعد، لا أستطيع أن أقول: عن كل شيء قد انتهى؛ على العكس،

Tele: @Arab_Books

أُحس أن كل شيء لم ينته بعد. أنا... مثل حبل مشدود لا بدَّ أن ينقطع. لكن ذلك لم ينته بعد... وسينتهي ذلك نهاية فاجعة!

- يمكننا أن نُرخي الحبل شيئاً فشيئاً. كل حالة ولها مخرج.

- لقد فكرت في ذلك طويلاً. وليس هناك سوى مخرج واحد...

وأدرك مرة أخرى، من نظرتها المذعورة، أن هذا المخرج الوحيد، في ذهنها، هو الموت، فلم يدعها تتّم، وقال:

- أبداً، اسمحي لي، أنتِ لا تستطيعين أن تري حالتك، كما أراها. اسمحي لي أن أقول لك رأيي بصدق.

وابتسم مرة أخرى بحذرٍ ابتسامته المسكّنة:

- سأبدأ من البداية: لقد تزوّجتِ رجلاً أكبر منك بعشرين سنة، تزوجتِ بدون حب، أو بدون أن تعرفي الحب. ولنقل إن ذلك كان خطأً.

قالت آنا:

- كان خطأً رهيباً!

- لكنني أكرر لكِ، إن ذلك أمر واقع. وبعد ذلك، ابتُليت فعشقتِ رجلاً آخر. وتلك بليّة؛ لكنها أمر واقع. وقبل زوجك بذلك وغفر لك.

كان يقف بعد كل جملة، ينتظر ردّها، لكنها لم تكن ترد. وتابع:

Tele: @Arab_Books

– هذه هي القضية. والمسألة الآن هي التالية: هل تستطيعين أن تستمري في العيش مع زوجك؟ هل ترغبين في ذلك؟ وهل يرغب هو فيه؟

– لا أدري شيئاً.

– قلتِ قبل هنيهة إنك لا تستطيعين احتماله.

– لا، لم أقل ذلك. وأتراجع عما قلت. لا أدري شيئاً ولا أفهم شيئاً من ذلك.

– مهلاً، اسمحي...

– ليس بوسعك أن تفهم. أحس أنني أسقط على رأسي في هوّة سحيقة، لكني أحس أن ليس من واجبي ولا في مقدوري أن أنجو بنفسي.

– لا أهمية لذلك، فسوف تخفف من تسارع السقوط ونتلقفّك. وأنا أقدّر أنك لا تجسرين على التعبير عن مشاعرك ورغباتك.

– لست أرغب في شيء... إلا أن ينتهي ذلك كله.

قال ستيفان أركاديفتش بشيء من الجهد:

– لكنه يرى ذلك ويعلمه. أتظنين أنه يتألم أقل منك؟

أنت تتعذّبين وهو يتعذّب، فإلام سيُفضي ذلك؟ الطلاق، على الأقل، سيحلّ كل شيء.

Tele: @Arab_Books

كانت هذه هي فكرته الأساسية؛ ونظر إلى أخته نظرة العارف بالأمور.

لم تجب شيئاً وهزّت بالنفي رأسها المقصوص الشعر. لكنه رأى على وجهها الذي استضاء فجأة بجمالها القديم، أنها إن كانت ترفض هذا الحل فلأنها لا ترى فيه سوى سعادة غير ممكنة.

قال ستيفان أركادييفتش وهو يبتسم هذه المرة بجرأة أكبر:

– أنتِ تسببين لي كثيراً من العناء! كنتُ سأكون سعيداً لو سوّيت هذه المشكلة! لا تقولي شيئاً. عسى أن يوفّقني الله إلى التعبير عما أحسه. وسأعثر على ذلك التعبير.

نظرت إليه آنا بعينيها الملتمعتين والساهمتين دون أن تتفوه بكلمة.

Tele: @Arab_Books

-٢٢-

دخل ستيفان أركادييفتش مكتب ألكسي ألكسندروفتش، وعلى وجهه مسحة من الوقار الرسمي كالتي يتخذها عندما يجلس في مقعده، مقعد رئيس المحكمة. كان ألكسي ألكسندروفتش يروح ويجيء في غرفته، ويداه خلف ظهره، وهو يفكر فيما كان بالذات موضوعاً للحديث بين الأخ والأخت.

ارتبك ستيفان أركادييفتش فجأة، لدى مرأى صهره، ارتباكاً لم يعهده من قبل، ولكي يُخفي اضطرابه، أخرج من جيبه علبة سجائر من نمط جديد، اشتراها حديثاً، وبعد أن اشتم غطاءها الجلدي، تناول منها سيجارة، وقال:

– ألست أزعجك؟

أجاب ألكسي ألكسندروفتش على مضض:

– لا. أأنت بحاجة إلى شيء.

قال ستيفان أركاديفتش وهو مدهوش مما يشعر به من وجل لم يعهده من قبل:

Tele: @Arab_Books

- نعم، كنت أريد... أنا أرغب... أرغب في محادثتك.

كان هذا الشعور مفاجئاً وغريباً إلى حدٍّ بعيد حتى إن ستيفان أركادييفتش لم يتعرف فيه صوت ضميره الذي كان ينبهه على أن ما ينوي فعله كان شراً. بذل ستيفان أركادييفتش شيئاً من الجهد وتغلّب على وجله، وقال وهو يحمرّ:

- آمل ألا تشك بحبي لأختي ولا بتعلّقي الصادق بك، وبتقديري لك.

وقف ألكسي ألكسندروفتش و لم يجب بشيء، لكن تعبير وجهه عن كونه ضحية مذعنة، أذهل ستيفان أركادييفتش.

قال ستيفان أركادييفتش الذي لم تعد إليه رباطة جأشه بعد:

- أود مباحثتك بشأن شقيقتي ووضعكما كليكما.

ابتسم ألكسي ألكسندروفتش بحزن، ونظر إلى أخي زوجته، ودنا من مكتبه دون أن يجيب، وتناول منه رسالة بدأها ومدّها إلى ستيفان أركادييفتش، وقال له:

- إني لا أكف عن التفكير في ذلك. وأنظر فيما بدأت كتابته، ظناً مني أنني أقدر على التعبير كتابة وأن حضوري يغيظها.

تناول ستيفان أركادييفتش الرسالة، ونظر بدهشة حائرة إلى العينين الكئيبتين المحدّقتين فيه وأخذ يقرأ:

Tele: @Arab_Books

«أرى أن حضوري يثقل عليك. ومهما تكن هذه الحقيقة مؤلمة لي فأنا أرى أن الأمر كذلك، ولا يمكن أن يكون غير ذلك. لست أتهمك ويشهد الله أنني عزمت من أعماق قلبي، بعد أن شاهدتُكِ أثناء مرضك، على أن أنسى ما جرى بيننا وأن أبدأ حياة جديدة. لست نادماً، ولن أندم أبداً على ما فعلتُ؛ لكنني كنت أبغي خيرك وخير نفسك، وأنا أرى الآن أني لم أفلح في ذلك. فقولي لي أنتِ نفسك عما يمنحكِ السعادة الحقيقية وسكينة النفس. وأنا أترك الأمر لإرادتك ولشعورك بالعدل».

رد ستيفان أركادييفتش الرسالة إليه وظل ينظر إليه بالحيرة نفسها، وهو لا يدري ما يقول. وقد ثقل عليهما هذا الصمت كثيراً حتى إن شفتي ستيفان أركادييفتش أُصيبتا برعشة مرضية بينما هو صامت، لا يرفع عينيه عن وجه كارينينا.

قال ألكسي ألكسندروفتش وهو يشيح بوجهه:

– هذا ما أردت أن أقوله لها.

وتمتم ستيفان أركاديفتش الذي لم يَقوَ على الجواب، بينما غصّ بالعبرات:

– نعم، نعم، فهمتُك.

قال ألكسي ألكسندروفتش:

– أود أن أعرف ما الذي تريده هي؟

Tele: @Arab_Books

قال ستيفان أركاديفتش بعد أن تمالك نفسه:

– أخشى ألا تكون هي مدركة لوضعها. إنها مسحوقة، مسحوقة تماماً بكرم نفسك. وإذا قرأتْ هذه الرسالة فلن تقوَ على الجواب، ولن يسعها إلا أن تحني رأسها أكثر من ذي قبل.

– نعم، لكن ما العمل، في هذه الحالة؟... كيف نفسّر... كيف نعرف رغباتها؟

– إذا سمحتَ لي أن أبدي رأيي فأنا أعتقد أن من حقك أنت وحدك أن تعيّن بوضوح التدابير التي تراها ضرورية لإنهاء هذا الوضع.

فقاطعه ألكسي ألكسندروفتش:

– وهكذا، فأنت تقدّر أنه ينبغي الانتهاء من هذا الوضع.

وأضاف وهو يحرّك يده أمام عينيه بحركة غير اعتيادية:

– لكن كيف؟ لست أرى مخرجاً ممكناً.

قال ستيفان أركاديفتش وهو ينهض ويَنشط:

– لكل وضع مخرج. لقد جاء وقت كنت تريد فيه الطلاق... فإذا كنت مقتنعاً الآنَ أنكما لا تستطيعان أن تسعدا باجتماعكما...

– يمكن أن نفهم السعادة بطرائق شتى. لكن لنسلّم بأنني أقبل بكل شيء ولا أطلب شيئاً. فما المخرج الذي تراه لوضعنا؟

Tele: @Arab_Books

ابتسم ستيفان أركادييفتش تلك الابتسامة المسكينة التي اصطنعها وهو يخاطب آنا، ولقد بلغت هذه الابتسامة اللطيفة جداً من الإقناع حتى إن ألكسي ألكسندروفتش الشاعر بضعفه والخاضع لهذا الضعف، كان مستعداً، على نحو غير إرادي، أن يصدق كل ما سيقوله ستيفان أركادييفتش.

قال ستيفان أركادييفتش:

– أتريد رأيي؟ إنها لن تصارحك بلبّ فكرتها. لكن ما يمكن أن ترغب فيه هو إنهاء علاقاتكما وجميع الذكريات المتّصلة بها. برأيي أن من الضروري إقامة علاقات جديدة بينكما. ولا يمكن أن يتم ذلك إلا إذا استرد كل منكما حريته.

فقاطعه ألكسي ألكسندروفتش باشمئزاز:

– الطلاق...

أجاب ستيفان أركادييفتش وهو يحمر:

– نعم، أعتقد أن الطلاق... نعم، هو كذلك، الطلاق. فهو، من جميع الجوانب، أفضل حل بالنسبة إلى زوجين في مثل وضعكما. وما العمل، إذا كان الزوجان قد اكتشفا أن الحياة المشتركة مستحيلة؟ إن ذلك يمكن أن يقع دائماً.

زفر ألكسي ألكسندروفتش زفرة عميقة وأغمض عينيه.

قال ستيفان أركادييفتش الذي أخذ يتخلّص شيئاً فشيئاً من ارتباكه:

Tele: @Arab_Books

– ليس ها هنا سوى نقطة واحدة جديرة بالاعتبار: أيرغب أحد الزوجين في الزواج ثانية؟ وإلا فالأمر بسيط.

همهم ألكسي ألكسندروفتش بشيء بينه وبين نفسه، وقد تشنّجت قسماته من جراء الانفعال، ولم يجب. فكل ما كان يبدو لستيفان أركادييفتش بالغ السهولة قد فكّر فيه هو آلاف المرات. ولم يبد له ذلك كله بالغ السهولة بل بدا مستحيلاً على الإطلاق. إن الطلاق الذي غدا يعرف شروطه بدا له غير مقبول لأن شعوره بكرامته واحترامه للدين يمنعانه من اللجوء إلى الزنى الصوري، وبالأحرى، من قبوله إذلال امرأته التي أحبّها وغفر لها، بعار الجرم المشهود. وأخيراً استبعد الطلاق لأسباب أخرى أوْجه مما سبق.

فماذا سيحل بابنه؟ لا مجال لتركه لأمه. ذلك أن هذه الأم المطلّقة ستنشئ أسرة غير شرعية يكون فيها وضع الولد حرجاً وتتعرض تربيته، على الأكثر، للخطر. أيحتفظ به؟ كان واثقاً من أن في ذلك انتقاماً من قبله، وهو يأبى ذلك. ولكن، فضلاً عن ذلك، كان الطلاق يبدو له مستحيلاً، على الخصوص، لأنه إن وافق عليه فهو يوافق بذلك نفسه على ضياع آنا. وما تزال حجة داريا ألكسندروفنا منطبعة في نفسه: إنه حين ينظر في الطلاق فهو يفكّر في نفسه ولا يخطر بباله أنه يقود آنا إلى الضياع. هذه الكلمات اتّحدت بصفحه، وبتعلّقه بالولدين، وهو يفهمها الآن بطريقته الخاصة. إن القبول بالطلاق، وردّ الحرية لآنا، إن ذلك يعني، في ذهنه، حرمان نفسه من آخر رابط يربطه بالحياة: من الولدين اللذين كان يحبهما، كما كان يعني سَحْب آخر سند تستند إليه آنا على طريق الخير، وقذفها على طريق الهلاك. وهي عندما تُطلَق

Tele: @Arab_Books

ستتحد بفرونسكي، وستظل هذه العلاقة مجرمة وغير شرعية، لأن الكنيسة لا تعترف لامرأة بالزواج مادام الزوج حياً. وفكر في نفسه: «ستتحد به، وفي مدى سنة أو سنتين، إما أن تتركه وإما أن تُنشئ علاقة جديدة. فإذا وافقت على الطلاق فسوف أكون المسؤول عن ضياعها». لقد فكّر في ذلك مئات المرات وكان مقتنعاً بأن الطلاق ليس بسيطاً كما يزعم أخو زوجته بل إنه غير مقبول. ولذلك لم يكن يؤمن بكلمة واحدة مما كان يقول ستيفان أركادييفتش، وكان في جعبته ألف حجة ليدحض بها كل كلمة من كلماته، لكنه كان يصغي إليه، وهو يحس أن تلك القوة الغاشمة والجبارة التي كانت تقود حياته والتي سيخضع لها إنما تعبّر عن نفسها على لسان أخي زوجته.

– المسألة الوحيدة هي أن نعلم: بأي شروط ستوافق أنتَ على الطلاق. إنها لا ترغب في شيء، ولا تجرؤ على أن تسألك شيئاً، وهي تترك الأمر بكامله لكرمك.

قال ألكسي ألكسندروفتش في نفسه وهو يفكر بتفاصيل الزنى الصوري: «يا إلهي! يا إلهي! لمَ ذلك كله؟» وغطّى وجهه بيديه بمثل حركة فرونسكي عند سرير آنا.

– أنت متأثّر، وأنا أفهم ذلك. لكنك لو فكرت...

وفكر ألكسي ألكسندروفتش في نفسه: «من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر، من أخذ رداءك فاعطه قميصك»[١١]

١١– «من ضربك... قميصك»: كلمات يسوع في موعظة الجبل (متى٥، ٣٩ –٤٠؛ لوقا٦، ٢٩).

Tele: @Arab_Books

وهتف بصوت حاد:

- نعم، نعم! إني أرضى العار لنفسي، وأتخلّى عن ابني، لكن... أليس من الأفضل ترك ذلك؟ ومع ذلك، افعلْ كما تشاء...

وأشاح بوجهه بحيث لا يرى أخو زوجته هذا الوجه، وجلس على كرسي قرب النافذة. كان يتألم، ويعاني الخجل، لكن ذلك الألم وهذا الخجل امتزجا بالفرح والحنان أمام عظمة تواضعه.

تأثّر ستيفان أركادييفتش ولزم الصمت. ثم قال:

- ألكسي ألكسندروفتش، صدقني، إنها ستُكبر كرم نفسك. ولعل تلك هي مشيئة الله.

وبعد أن قال ذلك أحس أن ما قاله سخيف و لم يتمالك من الابتسام على حماقته ذاتها.

أراد ألكسي ألكسندروفتش أن يجيب لكن الدموع منعته من الكلام.

قال ستيفان أركادييفتش:

- هذه المصيبة قدر محتوم، ينبغي الاعتراف بذلك. وأنا أعد هذه المصيبة أمراً واقعاً، وأسعى جهدي لمساعدتكما كليكما.

عندما خرج ستيفان أركادييفتش من مكتب زوج أخته، كان متأثراً، لكن ذلك لم يمنعه من الشعور بالرضى عن أنه أنهى مشروعه

Tele: @Arab_Books

بنجاح، لأنه كان مقتنعاً أن ألكسي ألكسندروفتش سيقف عند كلامه. وإلى هذا الرضى انضافت فكرة التورية التي سيعرضها على زوجته وأصدقائه الخُلّص، وهي: «ما الفرق بيني وبين المارشال؟ المارشال يستعرض جنده فلا يُريح أحداً، وأنا استعرضت القضية فأَرَحت ثلاثة أشخاص».[١٢]

١٢- المارشال يستعرض: هذه التورية مبنية على جناس لفظي لا يكاد يترجم: ذلك أن كلمة «رازفود» تعني الاستعراض والطلاق. فهي تستخدم بمعنى الاستعراض بالنسبة إلى المارشال، وبمعنى الطلاق بالنسبة إلى كارينينا.

Tele: @Arab_Books

-٢٣-

كان جرح فرونسكي خطراً مع أنه لم يُصب القلب. وظل عدة أيام بين الحياة والموت. وعندما أصبح قادراً على الكلام لأول مرة، كانت فاريا زوجة أخيه وحدها في الغرفة. فقال لها وهو ينظر إليها نظرة جادة:

- فاريا، لقد جُرحتُ مصادفة. أرجوك، لا تتحدثي أبداً عن ذلك، واروي هذه الرواية للناس جميعاً. فالأمر مضحك جداً.

انحنت فاريا فوقه، دون أن تجيب، وتأمّلته بابتسامتها المشرقة. لم تكن عينا فرونسكي محمومتين، لكنهما كانتا تتلألأان، وكان تعبيرهما قاسياً.

قالت:

- الحمد لله! أنتَ لا تتألم؟

- قليلاً هنا.

وأشار إلى صدره.

- دَعْني إذن أغير ضمادك.

Tele: @Arab_Books

لم يفه بكلمة ونظر إليها، وهو يُقلّص وجنتيه العريضتين، بينما كانت تغيّر الضماد. وعندما انتهت، قال:

– إني لا أهذي؛ تصرّفي بحيث لا يلغط الناس بذلك وبحيث لا يقولون: إنني أردت أن أقتل نفسي.

قالت له بابتسامة مستفهمة:

– لا أحد يقول هذا. لكنني أرجو ألا تُجرح مصادفة بعد الآن.

– لا، على الأرجح، لكن، كان الأفضل أن...

وابتسم وقد بدا عليه التجهّم.

وبالرغم من هذه الكلمات وتلك الابتسامة التي أرعبتْ فاريا، فقد أحس، عندما زال الالتهاب وبدأ يتعافى، أنه تخلّص كلياً من شطرٍ من ألمه. ذلك أنه غسل بفعلته تلك عاره وذله، إن صح القول. وبوسعه الآن أن يفكر في ألكسي بهدوء. كان يقرّ بنبل نفسه من غير أن يُشعره ذلك بالحقارة. ثم إنه عاد إلى نهجه القديم، فرأى إمكان مواجهة الناس دون خجل، واستطاع أن يحيا، وأن يستأنف عاداته القديمة. أما الشعور الذي لم يستطع أن ينتزعه من قلبه، مع أنه قاومه باستمرار، فهو الندم الذي يبلغ حدَّ اليأس، على فقدانه آنا إلى الأبد. لقد صمم بحزم، الآن بعد أن كفّر عن خطيئته في نظر الزوج، أن يتخلّى عنها وألا يقف حائلاً بين آنا النائية وزوجها؛ لكنه لم يستطع أن ينتزع من نفسه الندم على فقدانه حبّه، لم يستطع أن يمحو من خياله لحظات السعادة التي عرفها معها، والتي لم يقدّرها حق قدرها آنذاك والتي غدت تلاحقه بكل ما فيها من عذوبة.

Tele: @Arab_Books

عرض عليه سيربو كوفوسكوي مهمة في طاشقند، فقبلها فرونسكي دون تردد. لكنه كان كلما اقترب موعد السفر اشتدت عليه وطأة التضحية التي كان يبذلها لما خُيِّل إليه أنه الواجب.

اندمل الجرح وبدأ يخرج استعداداً للسفر.

وفكّر في نفسه: «ليتني أراها مرة واحدة أيضاً، ثم أدفن نفسي وأموت!». وأثناء زيارته لوداع بيتسي أطلعها على رغبته هذه. وسرعان ما ذهبت بيتسي رسولة إلى آنا وحملت إليه جواباً سلبياً.

فكّر فرونسكي وهو يطّلع على النبأ. «أحسن. كان ذلك ضعفاً سيسلبني آخر قواي».

وفي صباح اليوم التالي، حضرت بيتسي بذاتها إلى منزله وأنبأته بأنها تلقّت من أوبلونسكي تأكيداً صريحاً بأن ألكسي ألكسندروفتش وافق على الطلاق، ومن ثم، فإن فرونسكي يستطيع أن يرى آنا.

نسي فرونسكي قراراته كلها، وذهب إلى منزل آل كارينينا، دون أن يهتم بتوديع بيتسي، ودون أن يسأل متى يمكن ذلك وأين الزوج. وصعد الدرج أربعاً فأربعاً، دون أن يرى شيئاً، ودخل غرفة آنا، بخطوات حثيثة، وهو لا يكاد يمنع نفسه من العدو. وأخذها بين ذراعيه، من غير أن يفكر أو ينظر إن كانت وحدها أم لا في الغرفة، وغطّى بالقبلات وجهها ويديها وعنقها.

كانت آنا قد هيأت نفسها للقائه، وفكّرت فيما ستقوله له، لكن لم يتسن لها أن تقول شيئاً: ذلك أن احتدام فرونسكي غلبها على أمرها.

Tele: @Arab_Books

أرادت أن تهدئه وتهدّئ نفسها، لكن، كان الأوان قد فات. إذ إن هذه العاطفة المضطرمة استبدّت بها، وأخذت شفتاها ترتجفان زمناً طويلاً لم تستطع أن تقول فيه كلمة واحدة.

قالت، آخر الأمر، وهي تضغط بيدي صديقها على صدرها:

– نعم، لقد غلبْتَني، أنا لك.

قال:

– لا بدَّ أن يكون الأمر كذلك. وسيكون كذلك ما عشنا. أنا على يقين من ذلك الآن.

قالت وقد أخذت تشحب، وهي تطوّق بذراعيها رأس فرونسكي:

– صحيح. ومع ذلك فإن في ذلك كله شيئاً مروّعاً، بعد أن وقع ما وقع.

فأجاب وهو يرفع رأسه ويكشف من خلال ابتسامته عن أسنانه المنتظمة:

– كل ذلك لن يدوم، كل ذلك لن يدوم، وسنكون سعيدين جداً! وسيكبرُ حبُّنا –إن أمكنه أن يكبر– لأنه يحتوي على شيء مروّع.

فلم يسعها إلا أن ترد بابتسامة... على عينيه المولّهتين لا على كلماته. وأخذت يده فمررتها على خديها الباردين وعلى شعرها القصير:

Tele: @Arab_Books

– لست أعرفك. بهذا الشعر القصير! لكم صرتِ أجمل! مثل فتى صغير. لكنك شاحبة جداً!

قالت وهي تبتسم:

– نعم، أنا ضعيفة.

وأخذت شفتاها ترتجفان.

قال لها:

– سنذهب إلى إيطاليا وسوف تتعافين.

قالت وهي تنظر إليه في عينيه:

– أيمكن أن نغدو زوجين، وحدنا.

– ما يدهشني هو أن الأمر لم يكن كذلك.

قالت وهي تنظر في الفراغ ساهمة:

– قال ستيفان: إنه وافق على كل شيء. لكن لا أستطيع أن أقبل كرمه. لا أريد الطلاق، ولست أبالي بشيء الآن. بيد أني أجهل ما الذي قرره بشأن سيرج.

لم يفهم كيف أنها لم تستطع، في أول لحظة من اجتماعهما، إلا أن تفكّر في ابنها وفي الطلاق. أليست تُبالي بذلك كله؟

قال لها وهو يدير يده في يدها، ويحاول أن يجتذب انتباهها، من غير أن يفلح في انتزاعها من شرودها.

Tele: @Arab_Books

- دعي الكلام على ذلك الآن، ودعي التفكير فيه.

قالت وهد همت الدموع من عينيها بصمت على طول خديها:

- آه! لماذا لم أمت؟ كان ذلك أفضل.

بيد أنها حاولت أن تبتسم لكي لا تُحزنه.

كان فرونسكي قديماً سيجد من الشائن وغير المقبول أن يتنصّل من مهمة طاشقند، وهي مهمة مُرضية للغرور، محفوفة بالمخاطر. أما الآن فقد رفضها، دون أن يفكر دقيقة واحدة في ذلك، وعندما لاحظ أن الجهات العليا استاءت من هذا الرفض تقاعد في الحال.

بعد شهر من ذلك، بقي ألكسي ألكسندروفتش وحده مع ابنه في شقته، بينما سافرت آنا إلى الخارج مع فرونسكي رافضة الطلاق.

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

الجزء الخامس

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

-١-

كانت الأميرة تشرباتزكي تجد أن من المستحيل الاحتفال بالزواج قبل الصوم الكبير لأن نصف الجهاز لا يمكن أن ينتهي قبل خمسة أسابيع.

لكنها اضطُرّت إلى الأخْذ برأي ليفين الذي كان يؤكد أن الانتظار إلى آخر الصيام تأخرٌ مفرط. لأن إحدى العجائز من عمات الأمير تشرباتزكي مُدَنفة، وقد تموت بين لحظة وأخرى. ولأن الحداد سيؤخّر موعد الزواج أيضاً. فقررت إذن أن تأمر بإعداد جزء ضئيل من الجهاز، في الوقت الحاضر، على أن ترسل الجزء الباقي فيما بعد؛ وغضبت على ليفين الذي لم يستطع قط أن يجيبها جواباً جاداً وهي تسأله رأيه. وكان هذا الترتيب ملائماً ولا سيما أن العروسين سيذهبان بعد الاحتفال مباشرة إلى الريف حيث لا يحتاجان إلى معظم الجهاز.

كان ليفين يُلفي نفسه دائماً في حالة الجنون ذاتها: كان يلوح له أنه هو وسعادته يكوّنان الغاية الوحيدة والأساسية لكل ما هو موجود، وأنه ليس من الضروري أن يشغل باله بشيء، وأن كل شيء تم وسيتم دون أن يمد إليه يداً. بل لم يكن له غاية ولا هدف. كان يكِلُ أمره إلى

Tele: @Arab_Books

الآخرين، لعلمه أن كل شيء سيكون تاماً. وكان أخوه سيرج إيفانوفتش وستيفان أركادييفتش والأميرة يُملون عليه ما ينبغي فعله. وكان يوافق على كل ما يُعرَض عليه. لقد اقترض أخوه مالاً له، ونصحته الأميرة أن يغادر موسكو بعد الزواج، واقترح عليه ستيفان أركادييفتش السفر إلى الخارج. فوافق على ذلك كله. وكان يفكّر في نفسه: «افعلوا ما تشاؤون، إن سرّكم ذلك. أنا سعيد، ومهما تفعلوا فلن تزيد سعادتي ولن تنقص من جراء ذلك». وعندما أُطْلع كيتي على اقتراح ستيفان أركادييفتش، دهش دهشة عظيمة حين رأى أنها لا توافق على السفر إلى الخارج، وأنها تملك أفكاراً محددة عن تنظيم حياتها المقبلة. كانت تعلم أن لليفين في الريف عملاً يحبه. ولم تكن تفقه شيئاً منه (لاحظ ليفين ذلك)، بل إنها لم تكن ترغب في أن تعرف شيئاً عنه. بيد أن ذلك لم يمنعها من أن تولي مشاغل زوجها اهتماماً عظيماً. ثم علمت أن مسكنها سيكون في الريف. فأحبّت أن تذهب إلى حيث سيكون منزلهما، لا إلى الخارج الذي لن يعيشا فيه. وهذا القصد الذي عبّرتْ عنه بوضوح أدهش ليفين. لكن بما أن جميع الأشياء استوت عنده، فقد رجا ستيفان أركادييفتش على الفور، أن يقصد إلى البيت الريفي، وأن يُجري فيه الترتيبات التي يراها مناسبة، بما عُرف عنه من ذوق رفيع، وكان هذا الأمر من اختصاصه وحده دون منازع.

قال له ستيفان أركادييفتش بعد عودته من أملاك ليفين حيث هيّأ كل شيء لاستقبال العروسين:

– قل لي، أمعك وثيقة الاعتراف؟

– لا. لماذا؟

Tele: @Arab_Books

- لا بدَّ منها للزواج؟

فهتف ليفين:

- آخ! آخ! آخ! أعتقد أنني لم أعترف منذ تسع سنوات. بل إني لم أفكر في ذلك.

قال ستيفان أركاديفتش وهو يضحك:

- هذا سيّئ! وأنت تصفني بأنني عدمي! لا بدَّ لك من ذلك. يجب أن تعترف وتتناول.

- متى ذلك؟ لم يبقَ لنا سوى أربعة أيام.

توسّط ستيفان أركاديفتش هذه المرة أيضاً. وبدأ ليفين بالاعتراف والتناول. لقد كان حضور الاحتفالات الدينية والمشاركة في الشعائر الدينية شاقّين على ليفين، كما هما شاقان على كل إنسان غير مؤمن وإن احترم، في الوقت نفسه، قناعات الآخرين. بل إن فَرْضَ التصنّع بدا له، في غمرة حنانه ورقته، شيئاً لا يُطاق وليس شاقاً فحسب. كان لا بدَّ له، وهو في أوج مجده، في عنفوان تفتّحه، إما أن يكذب وإما أن يسخر من الأشياء المقدسة. وكان يحس بعجزه عن الكذب والسخرية. وعبثاً ألحّ على ستيفان أركاديفتش بالسؤال إن كان من الممكن الحصول على تلك الوثيقة دون أن يُضطر إلى الاعتراف، فلم يَنْثنِ عديله عن رأيه:

- لن يكلّفك ذلك كثيراً: يومين، ليسا شيئاً! ستكون صلتك بشيخ قصير، رائع، ماهر جداً. وسوف يقتلع هذه السن دون أن تحسّ بذلك.

Tele: @Arab_Books

عندما حضّر ليفين القدّاس الأول. حاول وسعه أن يتعث في نفسه ذكرى ذلك الشعور الديني القوي الذي خالجه بين السادسة عشرة والسابعة عشرة. لكنه ما لبث أن اقتنع بأن جهده غير مجد. وحاول وسعه أن ينظر إلى ذلك كله على أنه طقس ديني خالٍ من الدلالة، مثله كمثل عادة الزيارة؛ لكنه أحس أنه لا يُفلح في ذلك أيضاً. كان موقفه من الدين مبهماً، مُلتبساً. كموقف معظم معاصريه. لم يكن يستطيع أن يؤمن، لكنه لم يكن، في الوقت نفسه، مقتنعاً اقتناعاً وطيداً بأن ذلك كله خطأ. ولذلك أحس في هذه الفترة، وهو العاجز عن الإيمان بدلالة ما كان يفعله وعن النظر إليه، في الوقت نفسه، بلا مبالاة، أحس بشعور من الضيق والخجل. لقد رضخ لأفعال لم يكن يفهمها وهتف به صوت داخلي قائلاً: إن موقفه كاذب. وجدير باللوم.

وأثناء القداس. كان يصغي حيناً إلى الصلوات وهو يجهد في أن ينسب إليها معنى لا يتعارض وأفكاره، ويحاول حيناً آخر. إذ يحسّ بأنه لا يفهم منها شيئاً وأنه لا يستطيع أن يتخلى عن فكره النقدي، ألا يُصغي إليها، فيستسلم للأفكار والملاحظات والذكريات التي تتوافد عليه بوضوح خارق، أثناء هذه الوقفات البطالة في الكنيسة.

وهكذا حضر القداس وصلاة العصر وتعاليم المساء. وفي اليوم التالي نهض أبكر من عادته ووصل إلى الكنيسة قبل الثامنة، ودون أن يتناول شايه، لتعاليم الصباح وللاعتراف.

لم يكن في الكنيسة سوى جندي متسوّل وامرأتين عجوزين وخُدّام الكنيسة:

أقبل عليه شماس شاب رسم ظهره نتوءين بارزين تحت جبّته

Tele: @Arab_Books

الرقيقة، و لم يلبث أن اقترب من طاولة صغيرة قرب الجدار وبدأ قراءة التعاليم. أحس ليفين حين أصغى إليه وهو يكرر في كل لحظة، وبعجلة شديدة خلط معها الكلمات بعضها ببعض: «يا رب، ارحم!»، أن فكره مغلق وكأنه قد ختم عليه، وأنه لا ينبغي مسّه، في هذه اللحظة. كان واقفاً خلف الشماس، لا يسمع ولا يحاول أن يفهم، متابعاً سلسلة أفكاره. قال في نفسه وهو يتذكّر سهرة البارحة: «ما أعظم تعبير يديها». كانا جالسين قرب طاولة في ركن من القاعة، لا يجدان ما يقولانه. كما كان يقع لهما، على الأغلب، في هذه الآونة الأخيرة. لقد وضعت يدها على الطاولة وأخذت تفتحها حيناً، وتغلقها حيناً آخر. وهي تضحك من هذه اللعبة. وتذكّر أنه قبّل هذه اليد وفحص الخطوط المتداخلة على راحتها الوردية. وقال في نفسه، وهو يرسم إشارة الصليب وينحني وينظر إلى حركة ظهر الشماس المرنة وينحني في الوقت نفسه: «وأيضاً، يا رب ارحم». ثم أمسكت بيدي وتأمّلت خطوطها، وقالت لي: «إن لك يداً رائعة». ونظر إلى يده ثم إلى يد الشماس القصيرة. وقال في نفسه وهو يصغي إلى الأدعية: «نعم، أوشك ذلك أن ينتهي. آه! كأنه يبدأ من جديد. لا، هذه هي النهاية. وها هو ينحني إلى الأرض، لا شك أنها النهاية».

بعد أن دسّ الشماس خفية في كمّه، عند قفا المخمل، ورقة بثلاث روبلات، قال له: إنه سيسجّل اسمه للاعتراف. ومضى إلى خلف فاصل المذبح، وهو يُرن جزمته الجديدة بجسارة على بلاط الكنيسة المقفرة، وغاب دقيقة، ثم أطلّ برأسه وأشار إلى ليفين بأن يلحق به.

أخذ تفكير ليفين يضطرب في رأسه، لكنه حاول دفعَه. وقال في

Tele: @Arab_Books

نفسه: «سينتهي ذلك كله بشكل أو بآخر»، واتجه إلى المنبر، وصعد درجاته، واستدار إلى اليمين، فشاهد الكاهن. كان شيخاً قصيراً ذا لحية رمادية، قليلة الشعر، وعينين وادعتين، متعبتين: كان واقفاً قرب مُقْرأ الترتيل، يتصفّح كتاب القداس. حيّا ليفين تحية سريعة. وبدأ من فوره يقرأ الأدعية بصوت رتيب، وعندما انتهى والتفت إلى ليفين، وقال له وهو يريه الصليب:

– إن المسيح يحضر اعترافك، وهو غير مرئي.

وأضاف وهو يرفع عينيه عن وجه ليفين ويُصلّب يديه تحت صدرته الكهنوتية:

– أتؤمن بكل ما تعلّمنا إياه الكنيسة الرسولية المقدسة؟

أجاب ليفين بصوت صَدمَ أذنه صدماً كريهاً:

– شككت وما زلت أشك في كل شيء.

وصمت.

انتظره الكاهن بضع ثوان ليضيف شيئاً، ثم أغمض عينيه وأخذ يقول بسرعة مشدداً على «الضم» مثل أهالي فلاديمير:

– الشك هو خاصة الضعف البشري. لكن يجب أن ندعو الله الرحيم لكي يثبّتنا.

وأضاف دون أن يتوقف. وكأنه لا يريد أن يضيع دقيقة واحدة:

Tele: @Arab_Books

- وما الخطايا الخاصة التي اقترفتها؟

- خطيئتي الأساسية هي الشك. إنني أشك في كل شيء. شكاً دائماً، في الأغلب.

وكرر الكاهن:

- الشك هو خاصة الضعف البشري. لكن في أي شيء. على وجه الخصوص. تشك؟

قال ليفين على مضض. وقد رُوِّع من فظاظة أجوبته. وإن بدا أن هذه الأجوبة لم تترك أثراً في الكاهن:

- أشك في كل شيء حتى إني أشك أحياناً في وجود الله.

قال الكاهن بسرعة وعلى شفتيه ابتسامة لا تكاد تُلحظ:

- كيف يجوز أن نشك في وجود الله؟

صمت ليفين.

تابع الكاهن كلامه بلهجة رتيبة:

- كيف يجوز لك أن تشك في الخالق وأنت تتأمل خليقته؟

وأضاف وهو يُلقي على ليفين نظرة مستفهمة:

- مَنْ زيَّن القبة السماوية بالأفلاك؟ من وشى الأرض بالجمال؟ منْ، إن لم يكن الخالق؟

Tele: @Arab_Books

أحس ليفي أن من غير اللائق الدخول في مناقشة فلسفية مع هذا الكاهن، واكتفى بجوابٍ متصل مباشرة بالسؤال:

– لا أدري.

فقال له الكاهن بلهجة تنم على الحيرة والبهجة:

– لا تدري؟ فكيف تشكّ إذن في أن الله قد خلق كل شيء؟

قال ليفين وقد علته الحمرة وشعر أن كلماته كانت غبية في مثل هذه المناسبة:

– لست أفقه شيئاً من ذلك..

فردد الكاهن بعجلة:

– صلِّ إلى الله ليكون في عونك. الآباء القديسون شكّوا وصلّوا كي يثبّت إيمانهم. الشيطان قوي ويجب ألا تستسلم له. صلِّ. صلِّ.

سكت الكاهن بضع لحظات، وكأنه يخلد إلى التفكير. وأضاف وعلى فمه ابتسامة:

– أعتقد أنك تنوي عند الزواج بابنة أحد أفراد رعيتي وابني الروحي الأمير تشرباتزكي؟ إنها فتاة رائعة.

أجاب ليفين وهو يحمر عن الكاهن:

– نعم.

Tele: @Arab_Books

وفكر في نفسه: «ما حاجته إلى طرح مثل هذه الأسئلة في الاعتراف؟»

قال الكاهن وكأنه يجيب عن فكرته:

– إنك تستعد لعقد الزواج، ولعل الله سيمنحك الذرية.

وأضاف بلهجة الملامة الملأى بالرفق.

– فما التربية التي تريد أن تربي أولادك عليها إذا كنتَ لا تُفلح في التغلّب على إغواء الشيطان الذي يريد أن يجرّك إلى الشك؟ إذا أحببت أولادك. حب الأب الشفيق، فلن تطلب لهم فقط الثروة والترف والمجد، بل ستطلب خلاصهم. وتعليمهم الروحي على ضوء الحقيقة، أليس كذلك؟ بماذا تجيب ابنك البريء عندما يسألك: «مَنْ خلق، يا أبي. كل ما يسحر في هذا العالم: الأرض والمياه والشمس والأزهار والعشب؟» لن تجيبه: «لا أدري!». لن تستطيع أن تتجاهل ما كشفه الرب، في رحمته اللانهائية. وماذا ستقول لابنك إذا سألك: «ماذا ينتظرني بعد الموت»؟ أتتركه فريسة لسحر هذا العالم ولحبائل الشيطان؟ ليس هذا حسناً!

قال ذلك وتوقف، وحنى رأسه جانبياً وهو ينظر إلى ليفين بعينيه الوادعتين.

لم يُجِب ليفين هذه المرة، لا لأنه يرفض النقاش، بل لأن أحداً لم يطرح عليه من قبل مثل هذه الأسئلة. وسيكون لديه متّسع من الوقت للتفكير فيما سيجيب به أولاده عندما يطرحون عليه بدورهم هذه الأسئلة.

Tele: @Arab_Books

تابع الكاهن:

– إنك تدخل مرحلة من الحياة ينبغي أن يختار المرء فيها طريقه وأن يَثْبت فيه. صلّ إلى الله ليمدّ إليك يد العون وليمنحك مغفرته.

ثم حلّه من خطاياه:

– يغفر لك ربنا، يسوع المسيح، بعظيم رحمته...

وبعد أن أنهى عبارات الحل، باركه وصرفه.

عاد ليفين إلى بيته، وهو مغتبط لأن هذا الوضع المُزعج قد انتهى دون أن يُضطر إلى الكذب. وفوق ذلك، فقد أحسّ إحساساً مبهماً أن ما قاله هذا الشيخ القصير، الطيب، لم يكن سخيفاً كما لاح له في أول الأمر، وأن فيه شيئاً يستحق التعمق.

وفكّر ليفين: «لا شك أن هذا التعمق سيكون فيما بعد، لا الآن». لقد أخذ ليفين يحس أكثر من ذي قبل أن في نفسه مناطق مظلمة، غامضة، وأن موقفه من الدين هو نفس الموقف الذي اكتشفه لدى الآخرين واستنكره ولا سيما لدى صديقه فياجسكي. كان ليفين كثير المرح، أثناء هذه السهرة التي قضاها مع خطيبته عند دولي، ولكي يشرح لستيفان أركاديفتش حالة التهيّج الذي كان فيه، قال له: إنه كان يلهو كما يلهو الكلب الذي يُدرّب على القَفز في الطوق، وبعد أن يتعلّم ذلك يُنفّذ هذه الحركة البارعة التي تُطلب منه، ويُطلق أصوات الفرح، ويقفز على الطاولات وعلى مُتّكأ النافذة وهو يحرّك ذيله.

Tele: @Arab_Books

-٢-

لم يَرَ ليفين خطيبته، في يوم الزواج، جرياً على التقاليد (كانت الأميرة وداريا ألكسندروفنا مع المراعاة الدقيقة للتقاليد) وتناول عشاءَه في الفندق مع ثلاثة عزّاب اجتمعوا عَرَضاً عنده وهم: سيرج إيفانوفتش، وكاتافاسوف، وكان رفيقاً له في الجامعة، وهو اليوم أستاذ للعلوم الطبيعية، وقد لقيه ليفين في الطريق، وتشيريكوف شاهد الزواج، وهو قاضي صلح ورفيق في صيد الدب.

كان العشاء بهيجاً جداً. كان سيرج إيفانوفتش في أحسن مزاج وقد استمتع بطرافة كاتاسوف. وحين أحس كاتاسوف أن الحاضرين يقدّرونه ويفهمونه استفاض في الحديث. وبادلهم تشيريكوف الحديث بمرح.

قال كاتافاسوف ماداً كلماته، وهي عادة تعوّدها في التعليم:

– نعم، إن صديقنا الشاب قسطنطين دميتريتش كان فتى موهوباً. إني أتحدث عنه بصيغة الماضي الغائب، لأنه لم يعد موجوداً. كان يحب العلوم عندما ترك الجامعة، وكانت له اهتمامات إنسانية، بينما هو يستخدم الآن نصف مواهبه ليخدع نفسه، ويستخدم النصف الآخر ليبرر هذا الوهم.

Tele: @Arab_Books

قال سيرج إيفانوفتش.

– لم ألقَ قط عدواً لدوداً للزواج مثلك.

– لا، وإنما أنا من أنصار... تقسيم العمل. فالذين لا يُحسنون شيئاً يتوالدون، والآخرون يُسهمون في النمو الفكري وفي إسعاد أمثالهم من البشر. هذه هي وجهة نظري. وهناك طائفة من الناس مُهيأة للمزج بين هاتين الفعاليتين؛ ولستَ في عداد هؤلاء.

قال ليفين:

– كم سأكون سعيداً عندما أعلم أنك عاشق! أرجوك، ادعُني إلى زواجك.

– لكنني عاشق.

قال ليفين:

– نعم، عاشق للعلوم.

وأضاف وهو يلتفت إلى أخيه:

– أتعلم أن ميشيل سيمينيتش يؤلف كتاباً عن الغذاء و...

– دعكَ من هذا، ولا تخلط الأشياء بعضها ببعض! فما أكتبه قليل الأهمية. لكن الصحيح أنني عاشق للعلم.

– ذلك لا يمنعك من أن تعشق امرأة.

– العلم لا يعوقني عن ذلك، لكن المرأة هي التي تعوق حبي للعلم.

Tele: @Arab_Books

- ولِمَ ذاك؟

- سوف ترى. إنك تحبّ استغلال أراضيك، والصيد؛ سترى!

قال تشيريكوف:

- جاءني «آرشيب» اليوم، وقال لي: إن في «برودنوي» دبّين وعدداً من الظباء.

- تستطيع أن تصيدها بدوني.

قال سيرج إيفانوفتش.

- أرأيت، تستطيع أن تودّع منذ اليوم صيد الدب: ستمنعك امرأتك من ذلك!

ابتسم ليفين. لقد سرّته كثيراً هذه الفكرة وهي أن امرأته ستمنعه من صيد الدب حتى إنه كان مستعداً لأن يتخلى عن فرحته برؤية هذا الحيوان.

قال تشيريكوف:

- من المؤسف، مع ذلك، أن نصيد هذين الدّبين بدونك. أتذكر المرة الأخيرة في كابيلوفو؟ سيكون صيدهما ممتعاً!

لم يشأ ليفين أن يبدد له أوهامه وهي أن المتعة، أينما تكن، ممكنة بدون كيتي. ولذلك لزم الصمت.

Tele: @Arab_Books

قال سيرج إيفانوفتش:

- لم تنشأ عبثاً تلك العادة التي بموجبها يودّع المرء حياة العزوبة. إننا نأسف على حريتنا مهما نكن سعداء.

- بل قل إننا نشتهي أن نُلقي بأنفسنا من النافذة، مثل خطيب «غوغول»[١٣].

قال كاتافاسوف:

- بالتأكيد، لكنه لا يُقرّ بذلك.

وأخذ يقهقه بصخب.

قال تشيريكوف وهو يبتسم:

- حسناً! النافذة مفتوحة... فلْنمضِ على الفور إلى «تفير»! ويمكننا أن نجد الدب في وجاره. فلنركَب، حقاً، قطار الخامسة؟ سيتدبرون أمرهم هنا.

قال ليفين وهو يبتسم:

- لا، يشهد الله، إني لا أجد في نفسي شيئاً من الأسف على حريتي.

قال كاتافاسوف:

١٣- «خطيب غوغول»: شخصية -يملؤها التردد- في ملهاة «الخطبة» لنيقولا غوغول (١٨٥٣)؛ وهذه الشخصية تقفز من النافذة إلى الطابق الأرضي لتتفادى الزواج.

Tele: @Arab_Books

– لكن في نفسك من الفوضى، في هذه اللحظة ما يمنعك من وجدان شيء فيها. انتظر حتى تصفو نفسك قليلاً، وسترى.

– لا، يلوح لي أنني أشعر بالأسف على حريتي، إلى جنب عاطفتي (كان يأبى أن يستخدم كلمة: حب)... وسعادتي، مهما يكن ذلك الأسف طفيفاً على العكس، إن فقداني حريتي هو ذاته الذي يوفّر لي هذا الفرح.

قال كاتافاسوف:

– هذه حالة ميئوس منها! لنشرب على أمل شفائه أو لنتمن له أن يتحقق جزء بالمئة من أحلامه. ولسوف يبلغ سعادة لم يُر مثلها على الأرض.

انصرف المدعوون رأساً بعد العشاء ليتسنّى لهم تغيير ملابسهم قبل الاحتفال.

تساءل ليفين مرة أخرى، وقد بقي وحده وأخذ يسترجع في ذاكرته أحاديث هؤلاء العزّاب، إن كان في نفسه أدنى أسف على حريته.

وابتسم وهو يطرح هذا السؤال على نفسه. «الحرية؟ لمَ الحرية؟ السعادة عندي هي في أن أحب وأن أرغب في ألا يكون لي من أفكار ورغبات إلا أفكارها ورغباتها، وإذن فهي نفي الحرية... هذه هي السعادة!».

وهمس به صوت: «لكن هل أعرف أفكارها ورغباتها وعواطفها؟» وغابت الابتسامة عن شفتيه واستغرق في تأمل عميق.

Tele: @Arab_Books

وفجأة، انتابه شعور غريب. تملّكه الرعب، والشكوك... شك في كل شيء.

وتساءل: «وإذا كانت لا تحبّني؟ وإذا كانت تقترن بي لتتزوج فقط؟ وإذا كانت لا تعلم هي نفسها ماذا تفعل؟ فقد تثوب إلى رشدها بعد الزواج فقط لتدرك أنها لم تحبني ولا يمكن أن تحبني». وتقاطرت عليه أشد الأفكار جَرْحاً لكيتي. وأخذت غيرته من فرونسكي تنهشه كما نهشته قبل سنة، وكأن السهرة التي رآها فيها مع فرونسكي قد وقعت البارحة. ارتاب في أنها لم تصارحه بكل شيء.

نهض فجأة، وقال بيأس: «لا، الأمر غير ممكن هكذا! سأذهب إليها وسأسألها، وسأقول لها للمرة الأخيرة:

ما زلنا حرّين، أو ليس الأجدر بنا أن نظل حيث نحن؟ كل شيء أفضل من الشقاء الأبدي، من العار، من الخيانة!» وخرج من فندقه وتوجه إلى منزل آل تشرباتزكي، وفي قلبه أسى، وقد امتلأ بالحقد على البشرية بأسرها، وعلى نفسه، وعلى كيتي.

وجدها في الغرفة التي في الصدر. كانت جالسة على صندوق تُصنّف مع خادمتها أثواباً مختلفة الألوان، على الأرض وعلى ظهور الكراسي.

هتفت، عندما شاهدته، وهي مشرقة من الفرح:

– آه! هذا أنت، هذا أنت؟ (ظلت تخاطبه حتى آخر يوم بضمير المفرد تارة، وبضمير الجمع تارة أخرى). ما كنتُ أتوقّع مجيئك! إني أصنّف أثوابي لأوزّعها...

Tele: @Arab_Books

قال وهو ينظر إلى الخادمة بتجهّم:

– آه! هذا رائع!

قالت كيتي:

– اذهبي، دونياشا، وسوف أدعوك.

سألته وقد صممت أن تناديه بضمير المفرد:

– ما بك؟

لقد تملّكها الرعب عندما رأت وجهه الغريب، المتجهّم، المنقلب.

قال بلهجة يائسة، وهو يقف أمامها وينظر إليها بعينين ضارعتين. لقد رأى سَلَفاً من وجهها الشريف والمحب أنه لا يمكن أن ينتج شيء مما ينوي أن يقوله لها، بيد أنه كان بحاجة إلى أن تبدد له مخاوفه:

– كيتي، إني أتعذّب. لم يعد في طاقتي أن أتألم وحدي. جئت لأقول لك أن الأوان لم يفتْ بعد. وكل شيء يمكن تداركه.

– كيف؟ لم أفهم. ما بك؟

قال دون النظر إليها:

– ما بي... هو ما قلتُه لك مائة مرة. وما لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير فيه... لستُ جديرا بك، لا يمكنك أن توافقي على الزواج بي. فكّري. لقد أخطأت. فكّري مليّاً لا يمكنك أن تحبّيني...

Tele: @Arab_Books

بلى... الأفضل أن تصارحيني بذلك. سأكون تعساً... وليقل الناس ما شاؤوا... كل شيء أفضل من الشقاء... الآن وما زال في الوقت متّسع...

أجابته مرتعبة:

- لم أفهم. أتريد أن ترجع عن كلامك؟

- نعم، إذا كنتِ لا تحبينني.

فهتفت وقد علتها الحمرة من الحنق:

- أصبحتَ مجنوناً!

لكن وجه ليفين كان يستدرّ الشفقة إلى الحد الذي احتوى فيه فورتها وأوقف غضبها. فأضافت وقد خلّصت مقعداً من الثياب التي تغطّيه وجلست مقتربة منه:

- فيم تفكر؟ قل لي كل شيء.

- أفكر في أنك لا يمكن أن تحبينني. و لم تحبّينني؟

قالت وقد انفجرت باكية:

- يا إلهي، ما حيلتي في ذلك؟

قال وهو يجثو أمامها ويغطي يديها بالقبل:

Tele: @Arab_Books

– آه! ماذا فعلتُ؟

عندما دخلت الأميرة الغرفة بعد ذلك بخمس دقائق، وجدتهما متصالحين. لم تؤكد له كيتي فقط أنها تحبه، بل إنها بيّنت له لماذا تحبه عندما سألها عن ذلك. قالت له: إنها تحبه لأنها تفهمه فهماً تاماً، لأنها تعلم ماذا يمكن أن يحب ولأن كل ما يحبه حسن. وبدا له ذلك واضحاً كل الوضوح. وعندما دخلت الأميرة كانا جالسين على الصندوق جنباً إلى جنب، يفحصان الأثواب ويتناقشان، لأن كيتي كانت تريد أن تُعطي دونياشا الثوب الأسمر الذي كانت تلبسه عندما خطبَها ليفين، بينما كان يصرّ عليها لكي لا تعطي هذا الثوب أحداً، وأن تهدي دونياشا الثوب الأزرق الفاتح.

– كيف لا تفهم؟ إنها سمراء وهذا لا يناسبها... فكّرت في كل شيء.

عندما علمت الأميرة لماذا جاء ليفين غضبت وهي تمزج بين الضحك والجد، وصرفته ليرتدي ثيابه، ولكي لا يزعج كيتي باعتبار أن «شارل» سيأتي بين لحظة وأخرى ليرتب لها شعرها. وقالت له:

– إنها لم تعد تأكل، وهي تفقد جمالها من يوم إلى يوم، وجئت تهزها فوق ذلك بحماقاتك. انصرف، انصرف، يا عزيزي.

عاد ليفين إلى فندقه خجلاً، لكن مطمئناً. وفي الفندق كان ينتظره أخوه وداريا ألكسندروفنا وستيفان أركاديفتش وهم بلباسهم

Tele: @Arab_Books

الرسمي، وذلك لكي يباركوه بالأيقونة[١٤]. لم يبقَ لهم من وقت يضيعونه. كان لا بدَّ لداريا ألكسندروفنا من أن تمر على البيت لتأخذ ابنها الذي امتشط وتطيّب لكي يحمل الأيقونة أمام العروس[١٥]. ثم لا بدَّ بعد أن يوصل سيرج إيفانوفتش إلى الكنيسة... كانت هناك إذن مشاغل جمة في رأسها. والشيء الأكيد هو أنه ينبغي ألا يتأخروا. لأن الساعة تجاوزت السادسة والنصف.

خلت حفلة المباركة من الجد. لقد اتخذ ستيفان أركادييفتش وضعاً مضحكاً وارتسامياً إلى جانب زوجته، وأمسك بالأيقونة. وبعد أن أمر ليفين بالسجود، باركه وعلى شفتيه ابتسامة هازئة، وقبّله ثلاث مرات. وفعلت داريا ألكسندروفنا مثله، وهي تتعجل الذهاب، وقد تاهت بين حركات العربات التي رتبتها.

– هذا ما سنفعله: تذهب أنت لتأتي بشاهد الزواج في عربتنا وسوف يتكرّم سيرج إيفانوفتش بإرسال عربته بعد أن يصل إلى الكنيسة.

– بدون شك، وبكل سرور.

١٤– لكي يباركوه بالأيقونة: إن الزوجين أوبلونسكي يقومان مقام الأهل. وتقضي التقاليد الروسية أن يكون للعروسين، «أبوا شرف» يباركانهما إذا كان الأبوان الحقيقيان ميتين. وقد قام نائب حاكم موسكو بهذا الدور أثناء زواج تولستوي في ١٨٦٢، وهو ما يقربه من شخصية ستيفان أوبلونسكي.

١٥– لكي يحمل الأيقونة أمام العروس: كانت التقاليد الروسية تقضي أنه ينبغي للعروس التي تدخل الكنيسة أن يسبقها صبي يحمل أيقونة.

Tele: @Arab_Books

قال ستيفان أركاديفتش.

– وسآتي أنا مع «كوستيا» على الفور. هل أُرسِلت الأمتعة؟

أجاب ليفين:

– نعم.

ونادى «كوزما» كي يرتدي ثيابه.

Tele: @Arab_Books

-٣-

كان يحيط بالكنيسة المضاءة جمهور يتألف معظمه من النساء. فالذين لم يستطيعوا أن يلجوا إلى الداخل ازدحموا على النوافذ وهم يتدافعون ويتنازعون، ويُلقون بين الحين والآخر نظرات خاطفة من خلال القضبان.

اصطفّت على طول الرصيف أكثر من عشرين عربة بحراسة الشرطة. ووقف قرب المدخل ضابط شرطة متألق في بزته، غير مبالٍ بالبرد. وفي كل لحظة، كانت تصل العربات الجديدة حاملة السيدات المزدانات بالزهور، الرافعات ذيول أثوابهن، والرجال الذين كانوا يرفعون قبعاتهم وهم يدخلون الكنيسة. وفي الكنيسة كانت الثريات مضاءة، وكذلك جميع الشموع أمام أيقونات الكنيسة. كان كل شيء مغموراً بالنور، فاصل المذبح المذهب على أرضية حمراء، ترصيعات الأيقونات المذهّبة، فضة القناديل والشمعدانات، بلاط الأرض، السجاد، الأعلام التي تعلو الجوقات، درجات المنبر، الكتب القديمة المسودة، صدرات الكهنة، الحلل الكهنوتية. وإلى اليمين، في زحمة الملابس والعقد البيضاء والبزات والحرير والجوخ والساتان، والشعور العالية والأزهار والأكتاف والأذرع العارية والقفازات الطويلة، سرى

Tele: @Arab_Books

همس مخنوق ومحتدم كان يدوّي تحت القبة العالية، على نحو غريب. وكان هذا الهمس يقف كلما فُتح الباب وصرّ صريراً شاكياً، ويلتفت الجميع على أمل أن يروا العروسين. داخلين. لكن الباب فُتح ما يقرب من عشر مرات وكان الداخل، في كل مرة، إما مدعواً أو مدعوة تأخرا وانضمّا إلى جمهور الأصدقاء، في الجهة اليمنى، أو متفرّجة استطاعت أن تخدع ضابط الشرطة أو أن تستعطفه واختلطت بالجمهور، في الجهة اليسرى. لقد مر الأهل والمتفرجون بجميع مراحل الانتظار.

لقد قدّروا، في مبتدأ الأمر، أن العروسين سيصلان بين لحظة وأخرى، دون أو يولوا تأخّرهما أهمية. ثم أخذوا يلقون نحو الباب، بنظرات عجلى متواترة شيئاً فشيئاً، وهم يتساءلون إن كان قد وقع لهما حادث طارئ. وأخيراً، بدا التأخر مزعجاً، فتظاهر الأهل والأصدقاء بالاستغراق في أحاديثهم.

كان رئيس الشمامسة يسعل بنفاد صبره فيهز زجاج النوافذ، وكأنه يذكّر بأن وقته ثمين. وفي الجوقة. كان المرتّلون الذين آذاهم البرد والضجر يجرّبون أصواتهم ويمتخطون. أما الكاهن فكان لا يني يرسل الشماس تارة ليستطلع له، وخادم الكنيسة تارة أخرى، وأخذ يطل من الباب الجانبي، في أوقات أشد تقارباً، بجبته البنفسجية وزناره المذهب. وأخيراً نظرت سيدة إلى ساعتها وقالت: «الأمر، مع ذلك، غريب!» واستولى القلق على الجميع وأخذوا يُعربون بصوت مرتفع عن دهشتهم واستيائهم. وفي الحين الذي كانت كيتي فيه مستعدة منذ زمن طويل، واقفة في قاعة الاستقبال، بثوبها الأبيض وخمارها الطويل وإكليل زهور البرتقال، تنتظر عبثاً منذ أكثر من نصف ساعة،

Tele: @Arab_Books

برفقة شبينتها وأختها السيدة «لفوف»، جاء شاهده ليعلن أن العريس اتجه إلى الكنيسة[١٦].

في هذه الأثناء كان ليفين، ببنطاله ودون صدرته وسترته، يذرع غرفته في الفندق ذهاباً وإياباً، مطلاً برأسه، في كل لحظة، من الباب ليتفقد الممر. لكن الذي ينتظره ليفين لا يُطل، فيدخل غرفته ويحرك يديه ويلوم ستيفان أركاديفتش الذي كان يدخّن بهدوء، قائلاً:

– هل مر امرؤ بأسخف من هذا الموقف!

فيؤيده ستيفان أركاديفتش بابتسامة مُهدئة:

– نعم، هذا سخيف. لكن اهدأ، فسيأتيك بقميص في الحال.

قال ليفين وهو يكظم غيظه:

– تستطيع أن تتكل عليه!

وأضاف وهو يتأمل صدر قميصه المجعّد:

– وتلك الصدارات السخيفة المفتوحة! لا خير يُرجى من هذه!
وهتف بيأس:

– وإذا كانت حقائبي قد أصبحت في القطار؟

– سترتدي قميصي.

١٦– العريس اتجه إلى الكنيسة: يجب أن يكون العريس قبل العروسة لكي ينتظر وصولها.

Tele: @Arab_Books

– هذا ما كان ينبغي أن أفعله منذ زمن طويل.

– نعم، لكن لا يحسُن بالمرء أن يغدو مضحكاً... انتظر: «ستُسوّى» الأمور.

هذا ما جرى عندما طلب ليفين ثيابه من «كوزما»، وجاءه كوزما بسترته وصدرته وكل ما هو ضروري. فصاح به ليفين:

– والقميص!

فأجاب كوزما بابتسامة هادئة:

– القميص، إنه عليك.

لم يخطر ببال كوزما أن يحتفظ له جانباً بقميص نظيف، وبعد أن تلقّى الأمر بحزم كل شيء وبإرساله إلى منزل آل تشرباتزكي الذي سيسافر منه العروسان في المساء نفسه، حزم كل شيء ما عدا الثياب التي سيلبسها ليفين. وكان القميص الذي لبسه منذ الصباح قد تجعد وغدا لا يُلبس مع الصدرة المقوّرة على آخر زي. وكان منزل آل تشرباتزكي بعيداً. فأرسل خادم ليشتري قميصاً. لكن الخادم عاد: كانت المتاجر مغلقة لأن اليوم يوم أحد وجيء بأحد قمصان ستيفان أركاديفتش لكنه كان واسعاً جداً وقصيراً جداً. وحين استُنْفدت جميع الوسائل أُرسل الخادم ليفك الأمتعة في منزل آل تشرباتزكي. كان الناس ينتظرون الخطيب في الكنيسة، وهو كالوحش الهائج في قفصه، يروح ويجيء في غرفته ملتقياً بين الحين والآخر نظرات خاطفة على الممر، ومتسائلاً برهبة عمّا يمكن أن تتصوّره كيتي في هذه اللحظة، بعد ذلك الهراء الذي ألقاه عليها.

Tele: @Arab_Books

وأخيراً اقتحم الغرفة كوزما المذنب وهو يلهث ومعه القميص. وقال:

-- وصلتُ في الوقت المناسب. كانت الحقائب تُحمّل.

وبعد ثلاث دقائق مرّت دون أن ينظر ليفين إلى الساعة حتى لا ينكأ جراحه، كان ليفين يجري في الممر.

قال له ستيفان أركاديفتش مبتسماً وهو يتبعه دون أن يستعجل:

– ليس كذلك تُسوّى الأشياء. لقد قلت لك أن كل شيء سيُسوّى.

Tele: @Arab_Books

- ٤ -

عندما استقبل ليفين العروس في فناء الكنيسة ودخل الكنيسة معها، سُمعت في الجمهور أصوات تقول: – «لقد وصلوا» – «ها هو ذا» – «أيهم هو؟» – «الأصغر؟» – «وهي، المسكينة، ميتة أكثر منها حية!».

أسرّ ستيفان أركادييفتش إلى زوجته بسبب التأخّر، وتناقل المدعوون النبأ بصوت خفيض وهم يتبسمون. ولم يكن ليفين يلاحظ شيئاً ولا إنساناً، ولم يكن يرفع بصره عن العروس.

كان الجميع يقولون: إنها فقدت الكثير من جمالها في هذه الأيام الأخيرة، وأنها بالإكليل أقل جمالاً بكثير من العادة. ولم يكن كذلك رأي ليفين. كان يتأمل زينة شعرها العالي مع الخمار الأبيض الطويل والأزهار البيضاء، والكشكش المرتفع الذي كان يحيط بجانب من عنقها الطويل، كما يليق بالعذارى، ويكشف عن مقدمة هذا العنق، وقامتها النحيفة إلى حدٍّ غير عادي، كان يتأمل ذلك كله فتبدو له أجمل منها في أي وقت مضى، لا لأن هذه الأزهار، وذلك الخمار وذلك الثوب الذي أوصيَ عليه من باريس، قد أضافت شيئاً إلى جمالها، بل لأن وجهها الفاتن ونظرتها وشفتيها احتفظت، بالرغم من البذخ المتكلّف في زينتها، بمظهر الصدق البريء الذي كان خاصاً بها.

Tele: @Arab_Books

قالت له وهي تبتسم:

– ظننتك ستهرب.

فأجابها والحمرة تعلوه:

– ما وقع لي مضحك للغاية، وأنا أخجل من الكلام عليه!

واضطر إلى أن يلتفت نحو سيرج إيفانوفتش الذي اقترب منه، وقال وهو يهزّ رأسه ويبتسم:

– قصة القميص هذه مسلية حقاً!

فرد ليفين دون أن يعلم ماذا يُقال له:

– نعم، نعم.

قال ستيفان أركاديفتش وهو يتظاهر بالقلق الكاذب:

– كوستيا، لقد آن الأوان لحل هذه المسألة الخطيرة. وسوف تقدّر أهميتها، في الحال. إنهم يسألوني إن كان ينبغي أن نضيء شموعاً جديدة أو مستعملة.

وأضاف وهو يغلق شفتيه في ابتسامة:

– والفرق هو عشرة روبلات. اتخذت قراراً، لكنني أخشى ألا توافق عليه.

أدرك ليفين أنها مزحة لكنه لم يستطع أن يضحك.

Tele: @Arab_Books

– ما رأيك! جديدة أم مستعملة؟ هذه هي المسألة.

– جديدة، جديدة!

قال ستيفان أركاديفتش وهو يبتسم:

– آه! أثلجت صدري! حُلّت المشكلة.

وقال لتشيريكوف عندما عاد ليفين إلى جانب عروسه بعد أن ألقى عليها نظرة ولهى:

– عجيب كم يغدو الناس بُلهاً في مثل المناسبة!

قالت الكونتيسة نوردستون وهي تلحق بالعروسين:

– كيتي، انتبهي، ضعي قدمكِ على البساط قبله[17].

وأضافت وهي تلتفت إلى ليفين:

– إنك ترتكب حماقات!

وقالت ماريا دميتريفنا وهي عمة عجوز:

– لست خائفاً؟

وقالت السيدة «لفوف»:

---

١٧ - ضعي قدمك على البساط قبله: هناك خرافة روسية تقول: إن الذي يضع قدمه –من العروسين– قبل الآخر على البساط الصغير أمام المقرأ الذي يجري عنده الاحتفال بالزواج سيكون سيد الأسرة المقبلة.

Tele: @Arab_Books

– أتشعرين بالبرد!؟ أنتِ شاحبة. انتظري، اخفضي رأسك.

وأدارت ذراعيها الجميلتين فأصلحت إكليل أختها.

دنت دولي، وأرادت أن تقول شيئاً، لكنها لم تستطع أن تلفظ حرفاً، فانفجرت باكية، ثم ما لبثت أن أخذت تضحك بعصبية.

في هذه الأثناء لبس المحتفلون زينتهم ووقف الكاهن والشماس بجنب المِقرأ الذي وُضع في صحن الكنيسة. التفت الكاهن إلى ليفين وقال له بضع كلمات. فلم يفهم ليفين.

فهمس إليه شاهده:

– خُذ عروسك بيدها وقفا أمام المِقْرأ.

خلال برهة غير قصيرة، لم يفهم ليفين ما يُطلب منه. وقد هب الذين حوله لنجدته غير مرة، وكادوا يعدلون عن التدخل؛ لأنه كان يخطئ في استخدام يديه، وعندما أدرك أخيراً أنه ينبغي أن يضع يد العروس اليمنى في يده اليمنى، دون أن يغير وضعه، وبعد أن قام بالحركة المطلوبة، تقدّم الكاهن بضع خطوات ووقف أمام المقرأ.

تبعه جمهور الأهل والأصدقاء في همس الأصوات وحفيف ذيول الأثـواب. وانحنى أحدهم ليصلح ذيل ثوب العروس. وران على الكنيسة صمت عظيم حتى لقد كانت تُسمع قطرات الشمع وهي تسقط.

أخرج الكاهن –وهو شيخ قصير، يلبس قلنسوة، وقد فصل شعره

Tele: @Arab_Books

الفضي إلى خصلتين خلف أذنيه- يديه المغضّنتين الصغيرتين من حلته الثقيلة، وهي من الجوخ الفضي وعلى ظهرها صليب مذهب، وقلب صفحات كتاب القداس على المقرأ.

اقترب منه ستيفان أركاديفتش بهدوء وهمس إليه بكلمتين، وبعد أن غمز بعينه ليفين، تراجع.

أشعل الكاهن شمعتين مزدانتين بالورود، وأمسك بهما في يده اليسرى وهما مائلتان حتى إن الشمع كان يتساقط منهما قطرة قطرة ببطء، واستدار نحو العروسين. كان الكاهن هو نفسه الذي عرّف ليفين. حط على العروسين عينيه الحزينتين المتعبتين، وتنهّد، وأخرج يده اليمنى من تحت حلته، وبارك العروس، ثم وضع، بشيء من الحنان، أصابعه المضمومة على رأس كيتي المنحني. ثم مد إليهما الشمعتين. وبعد أن تناول المبخرة، ابتعد عنهما بخطوات بطيئة.

فكر ليفين: «أحقيقي هذا؟» والتفت إلى عروسه. كان يرى جانباً من وجهها: لقد أحس من حركة شفتيها التي لا تكاد تُرى ومن أهدابها أنها شعرت بنظرته. فلم تتحرك، لكن الكشكش العالي اضطرب وارتفع حتى أذنها الوردية الصغيرة. ورأى أن زفرة استقرت في صدرها، وأن يدها الصغيرة المغطاة بقفاز طويل والتي كانت تحمل الشمعة أخذت ترتجف.

حينئذ توارى ذلك الاضطراب: القميص، وتأخّره، وأحاديث الحاضرين، واستياؤهم، ووضعه المضحك، اختفى كل ذلك فوراً، وشعر بفرح ممزوج بالرهبة.

Tele: @Arab_Books

تقدم رئيس الشمامسة، وهو رجل وسيم في حلة من الجوخ الفضي، رد شعره المجعد إلى جانبي رأسه، بخطوات ثابتة، ووقف أمام الكاهن، رافعاً الصدرة الكهنوتية بحركة معهودة:

– باركني، يا سيدي!

ودوت الأصوات المهيبة ببطء، واحداً بعد الآخر، فارتعش الفضاء بها.

وردد الكاهن العجوز بصوت رخيم ومُذعن، وهو لا يني يبحث عن شيء في كتاب القداس:

– تبارك الله الآن وإلى دهر الداهرين!

وارتفع من الجوقة غير المرئية ترتيل عريض، منسجم، ملأ الكنيسة كلها من النوافذ إلى القبة، وتعاظم، وتذبذب، ثم تلاشى بهدوء. وصلوا كالعادة، من أجل الراحة الأبدية، خلاص النفوس، والمجمع المقدّس، والامبراطور؛ وأيضاً من أجل خادمي الرب قسطنطين وكاترين اللذين كانا يتحدثان في هذا اليوم.

رتّل صوت الشماس الذي كان كأنما يبعث الحياة في الكنيسة بنفسه:

– لنُصلّ للرب كي يمنحهما الحب الكامل والسلام بعونه.

أصغى ليفين إلى هذه الكلمات فأذهلته. وقال في نفسه، وقد خطر بباله قلقه وشكوكه الحديثة: «لكأنهم حزروا أنني بحاجة إلى العون

Tele: @Arab_Books

بالذات». ما نفع علمي، وما نفع مقدرتي، في هذه القضية الرهيبة، بدون عون. إنما أنا بحاجة إلى العون بالذات في هذه اللحظة.

عندما انهى الشماس صلواته، استدار الكاهن نحو العروسين بكتابه:

– أيها الرب الأزلي، يا من جمع برباط الحب الذي لا ينفصم من كانا مفترقين، يا من باركت اسحق ورفقه اللذين جعلتهما وارثين لعهدك، بارك أيضاً عبديك قسطنطين وكاترين وثبتهما في طريق الصلاح لأنك إله المحبة والرحمة ونحن نسبّح: المجد للآب والابن والروح القدس الآن وإلى دهر الدهور.

ورتلت الجوقة التي لا تُرى، من جديد: آمين.

عندما التفت إليها، لاقى نظرتها. فاستنتج من تعبير تلك النظرة أنها كنت تحس بما يحس به. لكنه كان مخطئاً: ذلك أنها لم تكد تفهم الصلوات، بل لم تعرها انتباهاً أثناء تبادل الخاتمين. لم يكن بوسعها أن تفهمها أو تصغي إليها لفرط ما كان قوياً ذلك الشعور الوحيد الذي ملأ نفسها بقوة متعاظمة. أما هذا الشعور فكان الفرح بإتمام ما طرأ على أعماق كيانها منذ شهر ونصف، ما عذّبها حيناً وما ملأها نشوة حيناً آخر، طوال ستة أسابيع. في ذلك اليوم الذي فيه دنت منه، دون أن تقول شيئاً، وأعطته نفسها، وهي في قاعة الاستقبال، وفي ثوبها الأسمر، في ذلك اليوم، وفي تلك الساعة حدث في نفسها انفصام تام عن حياتها الماضية بأسرها، وبدأت حياة جديدة ومجهولة تماماً، بينما استمرت الحياة القديمة في الظاهر. كانت هذه الأسابيع الستة أسعد

Tele: @Arab_Books

فترات حياتها وأكثرها تعذيباً لها. كانت حياتها كلها، ورغباتها كلها، وآمالها كلها منصبة على هذا الرجل الغامض الذي كان يجذبها تارة وينبذها تارة أخرى، بيد أنها ظلت تعيش كما كانت تعيش في الماضي. وكانت، وهي تعيش حياتها القديمة، مروِّعة من ذاتها، من عدم اكتراثها التام بماضيها: بالأشياء، والعادات، والناس الذين أحبّوها والذين ما زالوا يحبّونها، بأمها التي أحزنها عدم الاكتراث هذا، بأبيها اللطيف والرقيق الذي أحبّته أكثر من أي شيء في العالم. كانت حيناً مرتعبة من عدم الاكتراث هذا، وحيناً آخر مغتبطة مما ساقها إلى هذه الحالة. لم يكن بوسعها أن تفكر أو ترغب في شيء ما عدا الحياة مع هذا الرجل؛ لكن هذه الحياة الجديدة لم تبدأ بعد، ولم تكن تستطيع أن تتصورها تصوّراً واضحاً. فلم يبق سوى الانتظار... الرهبة والفرح من الجديد ومن المجهول. أما الآن فسوف ينتهي كل شيء. بين لحظة وأخرى، سينتهي الانتظار، والغموض والالتباس، والندم على تنكّرها لحياتها الماضية.

وكيف لا يكون ذلك مرعباً بشكوكه؛ لكن التغير، سواء أكان مرعباً أم لا. ابتدأ فيها قبل ستة أشهر؛ وهذه اللحظة ليست سوى تكريس لما تم في أعماقها منذ زمن بعيد.

أخذ الكاهن بصعوبة خاتم كيتي الصغير، بعد أن عاد إلى جانب المقرأ، وأدخله في سلامي بنصر ليفين.

– يُكلل خادم الرب قسطنطين على أمة الرب كاترين.

وبعد أن وضع الكاهن خاتم ليفين في بنصر كيتي الوردي، المثير للعطف بنحافته، كرر الكلمات نفسها.

Tele: @Arab_Books

حاول العروسان، غير مرة، أن يعرفا ما ينبغي فعله، لكنهما كانا يخطئان في كل مرة، وكان الكاهن يدّلهما بصوت خفيض. وأخيراً باركهما بالخاتمين، بعد أن فعلا ما يجب فعله، وأعاد الخاتم الكبير إلى كيتي والصغير إلى ليفين. فتخبّطا مرة أخرى، وتبادلا خاتميهما، مرتين متواليتين، دون أن يتوصلا مع ذلك إلى النتيجة المتوخّاة.

خرج تشيربكوف وستيفان أركاديفتش ودولي من جمهور الحضور ليساعدوهما. ونجم عن ذلك شيء من الفوضى والهمس والابتسامات، لكن العروسين حافظا على تعبيرهما الرقيق والارتسامي. بل إن هيئتهما، وهما يخطئان في اليد التي ينبغي استعمالها، كانت أكثر رصانة وإغراقاً في الجد، حتى إن الابتسامة غابت عن شفتي ستيفان تلقائياً عندما همس إليهما أن كل واحد منهما ينبغي أن يضع خاتمه في يده. لقد أحس أن كل مظهر من مظاهر السخرية جدير بأن يجرحهما.

وقرأ الكاهن بعد تبادل الخاتمين:

- أنت، يا من خلق منذ البدء، الذكر والأنثى، ومن تلقّى منه الرجل المرأة لتكون عوناً له وليدوم الجنس البشري. أنت، يا من أظهرت الحقيقة لآبائنا خدامك الذين اخترتهم من جيل إلى جيل، انظر بعين الرضا إلى خادمك قسطنطين وأمتك كاترين، وثبّت اتحادهما في الإيمان والوفاق والحقيقة والمحبة...

كان ليفين يحسّ أكثر فأكثر أن جميع أفكاره عن الزواج، وجميع أحلام المستقبل، لم تكن سوى صبيانيات، وأن ها هنا شيئاً لم يفهمه

Tele: @Arab_Books

حتى الآن، وأن فهمه له أقل من ذي قبل، الآن بعد أن غدا هو مدار الأمر؛ وهزت صدره الزفرات، واغرورقت عيناه بدموع أبت إلا أن تنهمر.

Tele: @Arab_Books

ـ ٥ ـ

موسكو بأسرها، أهلاً وأصدقاء، حضرت الزفاف. وأثناء تبادل الخاتمين، في الكنيسة المتألقة الأنوار، استمرت الأحاديث المتكتمة بصوت خفيض بين النساء، والفتيات المتبرّجات، والرجال بعقدهم البيضاء ولباسهم الرسمي الأسود وبزّاتهم، ولا سيما بين الرجال، لأن النساء كن مستغرقات في تأمل جميع تفاصيل الاحتفال المثير دائماً لهن.

في طائفة الخلصاء الذين يحيطون بالعروس، كان هناك الأختان دولي الكبرى، والسيدة لفوف التي وصلت من الخارج.

قالت السيدة كورسونسكي.

– لَم يا ترى تلبس ماري ثوباً خبّازياً؟ إن هذا أقرب إلى الحداد.

وقالت السيدة دروبتسكوي:

– اللون الخبازي هو ملاذها الوحيد، مع تلك السحنة التي لها. لكني أتساءل لَم اختاروا المساء للزفاف. إن في ذلك رائحة التجارة...

أجابت السيدة كورسونسكي:

Tele: @Arab_Books

- في المساء أجمل. وأنا أيضاً تزوجت، في المساء.

وتنهّدت وهي تتذكر كم كانت فاتنة في ذلك اليوم، وكم كان زوجها مضحكاً في عنقه. وأضافت:

- لكن الأشياء تغيرت كثيراً اليوم!

قال الكونت سينيافين للأميرة الجميلة تشارسكي التي كانت تطمع في الزواج منه:

- يقال إن من كان شاهد زواج في حياته أكثر من عشر مرات فلن يتزوج؛ لقد أردت أن أحصّن نفسي ضد الزواج، لكنني وجدت المكان مشغولاً.

فلم تجب الأميرة بغير الابتسام. كانت تنظر إلى كيتي وتفكر أنها عندما تصبح مع الكونت سينيافين في مثل هذا الوقف، فسوف تذكّره بهذه الدُعابة.

وكان الشاب تشرباتزكي يقول للوصيفة العانس نيكولاييف: إنه سيضع الإكليل[١٨] على عقيصة كيتي ليحمل السعد إليها.

- لا، إنه يُعجبني كثيراً، لا كصهر فقط. وما أحسن هيئته! من الصعب جداً أن يكون المرء حسن الهيئة وألا يكون مضحكاً في هذا الموقف. وهو ليس مضحكاً ولا متصنعاً، بل إنه متأثر، كما ترين.

١٨- سيضع الإكليل: كان الإشبينان: يمسكان بإكليلين مذهبين فوق رأسي العروسين أثناء الاحتفال؛ وأحياناً يضعانهما بكل بساطة على رأسي العروسين.

Tele: @Arab_Books

– كنتِ تتوقعين هذا الزواج، على ما أظن؟

– تقريباً. لقد أحببته دائماً.

– أوه! لنرَ من سيضع قدمه قبل الآخر، على البساط. لقد نبّهت كيتي.

أجابت السيدة لفوف:

– لا أهمية لذلك. نحن جميعاً نساء خاضعات لأزواجنا، هذا شيء في أسرتنا.

– أنا، وضعت قدمي قصداً قبل «بازيل»، وأنتِ يا دولي؟

كانت دولي بجنبهما تصغي إليهما، لكنها لم تجب. كانت منفعلة جداً. كانت عيناها مبللتين، ولم يكن بوسعها أن تقول شيئاً دون أن تنفجر باكية. كانت سعيدة لكيتي وليفين؛ وحين انتقلت بفكرها إلى زواجها، أخذت تنظر إلى ستيفان أركادييفتش المتألق، ونسيت الحاضر فلم تتذكر سوى حبها الأول البريء. لم تكن تفكر في نفسها فحسب، بل في جميع النساء اللواتي عرفتهن عن كثب؛ تذكّرتهن في تلك اللحظة الوحيدة والمهيبة حيث بقين واقفات، مثل كيتي، وفوق رؤوسهن الإكليل والحب والأمل، وفي قلوبهن حسرة القلق، بعد أن قطعن صلاتهن بماضيهن ودَلَفن إلى مستقبل غامض. وفي عداد هؤلاء النساء اللواتي مررن بذاكرتها الحبيبة «آنا»، وقد علمت، منذ وقت قريب، بمشروع طلاقها. لقد رأتها آنذاك، نقية مثل كيتي، يغطيها خمار أبيض، ويكللها إكليل من زهور البرتقال. والآن؟ قالت في نفسها «ما أغرب ذلك!».

Tele: @Arab_Books

لم يكن الأهل والأختان والصديقات هم الذين يلاحظون وحدهم تفاصيل الاحتفال، بل كان هناك متفرّجات غريبات، متأثّرات، يَحْبسن أنفاسهن خوفاً من أن يُضعن حركة من حركات العروسين أو تعبيراً من تعابير وجهيهما، ولا يرددن إلا مكرهاتٍ على الدعابات والملاحظات النابية التي يبديها رجال غير مبالين والتي لم يكن يصغين إليها، في معظم الأحيان.

– لَم كانت عيناها محمرّتين؟ هل زُوِّجت بالرغم منها؟

– بالرغم منها؟ مثل هذا الرجل الوسيم! إنه أمير، أليس كذلك؟

– أختها هذه التي هي هناك بالساتان الأبيض؟ اصغي إلى الشماس كيف يزعق: «لِتَخفْ زوجها!».

– والمرتلون هل جاؤوا من تشودوفو[١٩]؟

– لا من المجمع الكنسي.

– سألتُ الخادم فقال لي: إنه سيأخذها على الفور إلى أملاكه. وهو عجيب الثراء، على ما يبدو. ولذلك زوّجوها.

– آه! إنهما زوجان متكافئان.

– وأنتِ، يا ماري فاسيلييفنا، كنت تزعمين أن النساء لم يعدن

١٩– تشودوفو: (دير المعجزة)، دير قديم في وسط الكرملين، مقر البطاركة حتى سنة ١٧٠٠. وهو غير موجود اليوم.

Tele: @Arab_Books

يلبسن التنانير المنتفخة. انظري إلى ذات الثوب الأكلف، كم تنورة تلبس... أترين!

- ما ألطفها، العروس، إنها مزينة مثل حمل صغير! مهما يُقل فإننا، نحن النساء، جديرات بالرثاء.

هذه هي الأحاديث التي تبادلتها المتفرجات اللواتي نجحن في الانسلال إلى داخل الكنيسة.

Tele: @Arab_Books

-٦-

بعد تبادل الخاتمين، مد أحد المحتفلين أمام المقرأ، وسط الكنيسة، بساطاً من الحرير الوردي. وأنشدت الجوقة أحد المزامير إنشاداً لطيفاً تجاوب فيه الصوت الصادح والصوت الجهير، وأشار الكاهن، وهو يستدير، للعروسين إلى البساط الوردي الممدود على الأرض. ومع أنهما سمعا كلاهما عدة مرات بالخرافة التي تقضي أن يكون مَنْ يضع قدمه قبل الآخر على البساط سيد الأسرة، إلا أنهما لم يتذكّرا ذلك عند ما خطوا هذه الخطوات على البساط، ولم يسمعا أيضاً الملاحظات التي قيلت حولهما بصوت عال: لقد زَعَمَ بعضهم أنه هو الذي وضع قدمه أولاً، وزعم آخرون أنهما وضعا قدميهما معاً.

وبعد الأسئلة الطقسية عن رغبتهما في عقد الزواج وتأكيدهما بأنهما لم يقطعا عهداً لآخرين، وبعد الأجوبة التي وقعتْ على مسمعيهما نفسيهما موقعاً غريباً، بدأ قدّاس جديد. كانت كيتي تصغي إلى كلمات الصلوات محاولة التقاط المعنى دون أن تُفلح في ذلك. لقد استولى على نفسها إحساس من الظفر والحبور بقوة متعاظمة مع تقدّيم القداس، وجعلها عاجزة عن تركيز انتباهها.

لقد صُلّي لكي «يمنح الله العروسين العفة والخصب» ولكي «يغتبطا

Tele: @Arab_Books

بمرأى بنيهما وبناتهما». وأشير إلى أن الله قد خلق المرأة من ضلع آدم «ولذلك يترك الرجل أباه وأمه ويتعلق بامرأته فيصيران اثنين في جسد واحد»: «وهذا سر كبير»، وصُلّي لكي يباركهما الله كما بارك إسحق ورفقة... ولكي يريا أولادهما. وفكّرت كيتي وهي تصغي إلى هذا الكلام: «هذا رائع، ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك» وأضاءت وجهها ابتسامة مشرقة كانت تُعدي كل الذين ينظرون إليها بالرغم منها.

وعندما رفع الكاهن الإكليلين فوق رأسيهما، وأخذ تشرباتزكي واحداً منهما وثبّته فوق رأس كيتي ويده ترتجف في قفازها ذي الأزرار الثلاثة همس إليه الحاضرون:

- ضَعْه على رأسها كلياً.

وهمست إليه كيتي وهي تبتسم:

- ضَعْهُ على رأسي.

التفت ليفين إليها وراعته إشراقة الحبور التي بدت على وجهها؛ وانتقل إليه هذا الإحساس تلقائياً، فأحس مثلها أنه سعيد مبتهج.

سُرّا بسماع الرسائل وبصوت رئيس الشمامسة المُجلجل في الآية الأخيرة التي انتظرها الحاضرون بفارغ الصبر. وشربا أيضاً من الكأس خمراً أحمر ممزوجاً بالماء، وازداد فرحهما عندما أزاح الكاهن ... رته الكهنوتية عنه، وأخذ يديهما في يديه ودار بهما دورة حول المنبر في حين كان الشماس يرتّل: «اشعيا، ابتهج!» وكان تشرباتزكي

Tele: @Arab_Books

وتشيريكوف يبتسمان أيضا، وهما يثبتان الإكليلين، ويبدوان مسحورين وهما يتعثران بذيل ثوب العروس ويتباعدان حيناً، ويصطدمان حيناً آخر بالعروسين عندما يقف الكاهن. وكانت شرارة الفرح التي أشعلتها كيتي تطوف بالجميع. وخُيّل إلى ليفين أن الكاهن والشماس كانا يشتهيان أن يبتسما مثلها.

بعد أن رفع الكاهن الإكليلين عن رأسيهما، قرأ الصلاة الأخيرة وهنّأ العروسين. تطلّع ليفين إلى كيتي: لم يرها قط بمثل هذا الجمال. كانت مزدانة بإشراقة السعادة الجديدة الظاهرة على وجهها. أراد ليفين أن يقول شيئاً، لكنه لم يكن يعلم إن كانت الصلاة قد انتهت. فخلّصه الكاهن من ورطته. إذ ابتسم له ابتسامة رقيقة وقال له بصوت عذب:

– قَبِّلْ زوجتك، وأنتِ قبّلي زوجك.

واستردّ الشمعتين منهما. فقبّل ليفين شفتي كيتي بحذر، وقدّم إليها ذراعه، وخرج من الكنيسة، وهو يُحسّ بتقارب غريب بينهما. ولم يستطع أن يُصدّق إلا عندما تلاقت نظرتاهما المدهوشتان والمرتعبتان، لأنه أحس أنهما قد صارا كائناً واحداً منذ هذا اليوم.

بعد العشاء، سافر العروسان في المساء نفسه إلى الريف.

Tele: @Arab_Books

-٧-

مرّت ثلاثة أشهر وآنا وفرونسكي ما يزالان مسافرين في أوروبا. لقد زارا البندقية وروما ونابولي ووصلا إلى مدينة إيطالية صغيرة كانا ينويان أن يقيما فيها بعض الوقت.

كان مدير الفندق -وهو رجل وقور ذو شعر كثيف، مدّهن، يفصله مفرق يبدأ من عنقه، في ثياب وقميص من القطن الرقيق، وقد ازدان بطنُه المدوّر بالسلاسل- يجيب عن الأسئلة التي يطرحها عليه رجل هناك وهو يغمز بعينيه غمزاً ينم على الاحتقار، ويداه في جيبيه. وعندما سمع خطوات على درج المدخل، استدار وشاهد الكونت الروسي الذي يشغل أفضل شقة في الفندق. فأخرج حينئذ يديه باحترام، وانحنى وأبلغه أن له رسائل وأن وكيل «القصر» الذي تجري المحادثات بشأنه، وافق على التوقيع على عقد الإيجار.

قال فرونسكي:

- آه! هذا حسن. هل السيدة في البيت؟

أجاب المدير:

- السيدة ذهبت إلى النزهة، وقد عادت قبل هنيهة.

Tele: @Arab_Books

رفع فرونسكي قبعته الرخوة، العريضة الحافة، ومسح بمنديله جبهته التي بللها العرق، وشعره المتوسط الطول، المردود إلى الوراء ليغطي صلعته. وألقى نظرة شاردة على الرجل الذي ظل واقفاً يلاحظه، وأراد أن يتابع طريقه. فقال له مدير الفندق:

- هذا السيد روسي وقد سأل عنك.

التفت فرونسكي مرة أخرى نحو هذا الرجل، وقد تملّكه شعور مركّب من الحنق لأنه لا يستطيع أن يتخلّص من علاقاته، ومن الرغبة في أن يجد له سلوى تنقذه من رتابة حياته، وفي اللحظة نفسها استضاءت عيونهما:

- غولينيتشيف!

- فرونسكي!

كان الرجل هو غولينيتشيف بعينه، وهو زميل فرونسكي في المدرسة العسكرية: كان من الزمرة المتحررة فيها وقد تخرج برتبة مدنية ولم يسعَ إلى متابعة الخدمة. ومنذ تخرّجهما من المدرسة لم يلتقيا سوى مرة واحدة.

في تلك المرة التي التقيا فيها، أدرك فرونسكي أن غولينيتشيف قد اختار نشاطاً متحرراً واسع الآفاق ساقه إلى ازدراء حالة فرونسكي. ولذلك واجهه فرونسكي بتلك التصرفات الباردة والمتعالية التي يُحسن إظهارها والتي كان معناها: «إن نمط حياتي قد يعجبك أو لا يعجبك، لا فرق عندي؛ ينبغي لك أن تُبدي لي بوادر الاحترام إذا

Tele: @Arab_Books

شئت أن نظل على صلة أحدنا بالآخر». وهذا الأسلوب لم يترك في غولينيتشيف سوى الاستخفاف واللامبالاة. هذا اللقاء كان قميناً أن يبعدهما أحدهما عن الآخر إلى الأبد. بيد أن وجهيهما استضاءا وندت عنهما صرخة الفرح عندما تعرف أحدهما بالآخر. لم يكن فرونسكي يتوقع أن يشعر بمثل هذا الفرح عند لقاء غولينيتشيف، ولعل ذلك لأنه لم يتبين إلى أي حدٍّ انتابه الضجر. لقد نسي الأثر المؤلم الذي تركه لقاؤهما الأخير، فمدّ يده إلى زميله القديم، بوجه منبسط وسعيد. ونفس التعبير الفَرِح بسط أسارير غولينيتشيف.

قال فرونسكي وهو يبتسم ابتسامة كشفت عن أسنانه البيضاء، الجميلة:

– كما أنا سعيد بلقائك!

– سمعت الناس هنا يتحدثون عن فرونسكي، لكني ما كنتُ أعلم أنك أنت. أنا سعيد بلقائك.

– هيا، ادخل. ماذا تفعل هنا؟

– أنا هنا منذ أكثر من سنة. إنني أعمل.

قال فرونسكي باهتمام:

– آه! هيا ادخل.

واستأنف الحديث بالفرنسية، على عادة الروس، لكي لا يفهمه الخدم، فقال له بالفرنسية وهو يلاحظ بانتباه وجه غولينيتشيف:

Tele: @Arab_Books

- أتعرف السيدة كارينينا؟ نحن مسافران معاً. أنا ذاهب إليها.

أجاب غولينيتشيف بلهجة غير مبالية:

- آه! إنني أجهل ذلك (لم يكن يجهل ذلك إطلاقاً).

وأضاف:

- أمن زمن بعيد وصلت؟

قال فرونسكي وهو ما يزال يلاحظ وجه صديقه:

- أنا؟ منذ ثلاثة أيام.

قال فرونسكي في نفسه وقد استحسن طريقة غولينيتشيف في تغيير الحديث: «نعم، إنه رجل حسن التهذيب يرى الأشياء بمظهرها الحقيقي. إنه يفهم الأشياء، ونستطيع أن نقدّمه إلى آنا».

كان فرونسكي دائم التساؤل، أثناء هذه الأشهر الثلاثة التي قضاها مع آنا في الخارج، كيف ينظر الناس الجدد الذين يلقاهم إلى علاقته بآنا، وكان يعثر، في معظم الوقت، لدى هؤلاء الناس على الفهم «اللازم». لكنه لو سئل هو أو هؤلاء الناس: علام يقوم ذلك الفهم، لأعياهم الجواب.

والحقيقة أن الذين كانوا، في رأي فرونسكي، يفهمون الأشياء كما «يلزم»، لم يكونوا يفهمونها على الإطلاق، لكنهم كانوا يتصرفون على العموم، كما يتصرف الناس الحسنو التهذيب إزاء القضايا المعقّدة، التي لا تُحَلّ، والتي يصطدم بها الإنسان لدى كل خطوة في

Tele: @Arab_Books

حياته؛ كانوا يلتزمون التحفظ الفطن، ويتحاشون التلميحات والأسئلة المُستثقلة، ويتظاهرون بأنهم يفهمون الموقف كل الفهم، ويقبلون به، بل ويوافقون عليه، وإن قدّروا أنه لا طائل من شرحهم لرأيهم ولا محل له.

لقد استشف فرونسكي، على الفور، أن غولينيتشيف في عداد هؤلاء، ولذلك سُرّ سروراً مضاعفاً بلقائه. والواقع أنه تصرف مع السيدة كارينينا، عندما دخل لمقابلتها، التصرف الذي كان يتمنّاه فرونسكي. كان يتحاشى دون مشقة الموضوعات المزعجة.

لم يكن يعرف آنا فراعه جمالها. وراعته فوق ذلك تلك البساطة التي تتحمل بها وضعها. لقد علتها الحمرة عندما قدم فرونسكي إليها غولينيتشيف، وهذه الحمرة الطفولية التي اجتاحت وجهها الجميل، الصريح، خلبتْ لبّه. لكنه فُتن، على وجه الخصوص، عندما سمعها من فورها، تنادي فرونسكي باسمه، وكأنها تتفادى سوء الفهم بحضوره وتروي له أنهما سيقيمان في البيت الذي استأجراه. فهذا الموقف البسيط والمباشر أسر قلبه. ولقد أحس غولينيتشيف الذي كان يعرف ألكسي ألكسندروفتش وفرونسكي، أمام هذه المرأة القوية واللطيفة والمرحة، أحس أنه يعطيها الحق فيما فعلت وبدا له أنه يفهم ما لم تفهمه هي نفسها قط: وهو أنه يحق لها أن تشعر بالسعادة والقوة والمرح وإن سببت شقاء زوجها، وهجرته هو وابنها، وفقدت سمعتها.

قال غولينيتشيف عندما أعلمه فرونسكي باسم «القصر».

– إنه في الدليل. وفيه لوحة بديعة «لتنتوريه»، بآخر أسلوب له.

Tele: @Arab_Books

قال فرونسكي وهو يلتفت إلى آنا.

– اصغي: الجو رائع، فليتنا نذهب لنلقي نظرة سريعة عليه؟

قالت وهي تقف عند عتبة الباب وترمي فرونسكي بنظرة مستفهمة:

– بكل سرور، سأضع قبعتي، في الحال. قلتَ: إن الطقس حار؟

واجتاحت وجهها من جديد حمرة قانية.

أدرك فرونسكي من نظرتها أنها تجهل ما العلاقات التي يرغب في إقامتها مع غولينيتشيف، وأنها تخشى ألا تكون قد تصرفت كما ينبغي.

فأجابها بنظرة طويلة ورقيقة، وقال:

– لا، ليس شديد الحرارة.

وخُيِّل إلى آنا أنها استشفت سروره منها؛ فابتسمت له وخرجت بخطوات سريعة.

نظر الصديقان أحدهما إلى الآخر وعبّر وجهاهما عن الارتباك؛ فغولينيتشيف الذي فتنته آنا لم يجد الكلمات ليُفصح عن إعجابه، أما فرونسكي فكان يرغب أن يتحدث صديقه عن آنا ويخشى في الوقت نفسه هذا الحديث.

واستأنف فرونسكي كلامه بادئاً موضوعاً جديداً:

Tele: @Arab_Books

– وإذن، فقد أقمتَ هنا؟

وأضاف وهو يتذكر ما قيل له من أن صديقه يكتب شيئاً ما:

– وأنت تكرّس نفسك دائماً للأعمال ذاتها؟

أجاب غولينيتشيف الذي علتْه حمرة الفرح بهذا السؤال:

– نعم، إنني أكتب الجزء الثاني من «المبدآن»، أو بالأحرى، على وجه الدقة، إنني لا أكتبه وإنما أحضّره، وأجمّع مواده. وسيكون أوسع من الجزء الأول بكثير وسيتناول جميع المشكلات تقريباً. الناس عندنا في روسيا لا يريدون أن يفهموا أننا وارثو بيزنطة.

قال ذلك وبدأ برهاناً طويلاً، نارياً.

أحس فرونسكي، في مبتدأ الأمر، بالضيق لأنه كان يجهل المقالة الأولى التي تعالج «المبدآن» والتي كان مؤلفها يحدثه عنها كنص مشهور. ولكن عندما عرض غولينيتشيف عليه أفكاره واستطاع فرونسكي أن يفهمه، دون معرفة «المبدآن»، أصغى إليه باهتمام لأن غولينيتشيف كان يجيد الكلام. لكنه دهش واغتمّ، بالمقابل، من الاندفاع الذي أبداه صديقه وهو يعرض أفكاره. كانت عيناه تبرقان، وكان كلامه يتسارع وهو يرد على خصومه الخياليين، وكان وجهه يكتسي تعبيراً عن القلق والمهانة. ولم يستطع فرونسكي الذي أخذ يتذكر غولينيتشيف إذ كان صبياً، حَرِكاً، هزيلاً، ممتلئاً بالنية الحسنة والمشاعر النبيلة، أولاً في صفه دائماً، لم يستطع أن يفهم أسباب هذا الاندفاع. واستنكره. وما صدمه بخاصة هو أن ينزل غولينيتشيف،

Tele: @Arab_Books

وهو رجل من المجتمع الراقي، إلى مستوى هؤلاء الكتّاب الفاشلين الذين أحنقوه، وأن يصبّ غضبه عليهم. وهل يستحقّون ذلك؟ ساءه ذلك، لكنه أحس أن غولينيتشيف كان تعساً، وأخذته الشفقة عليه. إن ذلك الضَّنْك الشديد القريب من الجنون كان يُقرأ على وجهه المتقلّب والجميل حتى إنه ظل يعرض أفكاره بسرعة فائقة، دون أن يلحظ دخول آنا.

وعندما وقفت آنا بجنب فرونسكي، بقبعتها ووشاحها، ويدها الجميلة تداعب مظلتها بحركة حادة، تملّص فرونسكي، وهو يحس بالانفراج، من النظرة القلقة التي حدجه بها غولينيتشيف بإلحاح، ونقل بصره بحب إلى صاحبته المليحة، التي كانت تشع بالحياة والسعادة. وتمالك غولينيتشيف نفسه بمشقة، وغدا في الدقائق الأولى متجهّماً وكئيباً؛ لكن آنا التي بشّت للجميع، (على عادتها في هذه الفترة). سرعان ما بعثت فيه الحياة بأساليبها البسيطة والمرحة. فبعد أن طرقت موضوعات شتى، ساقته إلى الرسم الذي أحسن الكلام عليه وأصغت إليه بانتباه. ذهبوا مشياً إلى البيت وداروا حوله.

قالت آنا لغولينيتشيف وهم على طريق العودة:

– ما يسرّني هو أن ألكسي ألكسندروفتش سيجد مشغلاً جميلاً.

وقالت لفرونسكي بالروسية مخاطبة إياه بضمير المفرد لأنها أدركت أن غولينيتشيف سيكون أحد خلصائهما في وحدتهما وأنه لا حاجة إلى التستر عليه.

– يجب حتماً أن تأخذ تلك الغرفة.

Tele: @Arab_Books

قال غولينيتشيف وهو يلتفت بشدة إلى فرونسكي:

- أترسم؟

قال فرونسكي وقد علته الحمرة:

- نعم، رسمتُ قديماً، وأنا أمارس ذلك قليلاً، في هذه الأيام. قالت آنا وهي تبتسم ابتسامة مشرقة:

- إنه ذو موهبة. بالطبع، إنني لست حكماً. لكن هذا هو رأي العارفين.

Tele: @Arab_Books

-٨-

أحست آنا، في هذه الفترة من خلاصها وشفائها، إحساساً لا يُغتفر بأنها سعيدة وملأى بحب الحياة. و لم تكن ذكرى شقاء زوجها لتكدّر سعادتها. فمن جهة أولى، بلغت هذه الذكرى حداً من الفظاعة لا يسمح بالتفكير في ذلك الشقاء، ومن جهة ثانية. لقد منحها شقاء زوجها فيضاً من السعادة لا يسمح بمعاناة الندم. إن ذكرى كل ما وقع لها بعد مرضها: مصالحتها لزوجها، وانفصالها عنه، نبأ انتحار فرونسكي، وظهوره من جديد، والاستعداد للطلاق، وهجران بيت الزوجية، ووداع ابنها، إن ذلك كله بدا لها شيئاً من الهذيان لم تخرج منه إلا عندما غدت وحيدة مع فرونسكي في الخارج. إن ذكرى إساءتها إلى زوجها أيقظ فيها شعوراً قريباً من القرف وشبيهاً بالشعور الذي يعانيه إنسان أشرف على الغرق وقد تخلّص من رفيقه الذي كان يتشبّث به. لقد غرق هذا الرفيق. ولا شك أن ذلك شر، لكنه شر لا بدّ منه لأنه الخلاص الوحيد، ومن الأفضل ألا تستحضر ذكرى هذه التفاصيل المرعبة.

جاءتها السكينة منذ الدقيقة الأولى من انفصالهما. وعندما كانت تستعيد الماضي في ذاكرتها، كانت ترجع إلى تلك اللحظة. لقد قالت

Tele: @Arab_Books

فيها لنفسها حينئذ: «كان لا بدَّ من أن أسبب شقاء هذا الرجل، لكنني لا أريد أستغل شقاءه؛ إنني أتألم أنا أيضاً، وسأظل أتألم: لقد حُرمتُ أعز ما أملك في هذه الدنيا: سمعة المرأة الشريفة، وابني. لكنها لم تكن تتألم وإن رغبت رغبة صادقة في التألم. ولم يداخلها الخجل. ولقد كانا يتفاديان، بما أوتيا من ذوق، جميع اللقاءات في الخارج التي قد تضعهما في موقف مزيف. وكانا يريان أينما ذهبا أناساً يتظاهرون بأنهم يفهمون وضعهما أكثر مما يفهمانه هما نفساهما. ولم يؤلمها حرمانها ابنها الذي كانت تحبه، في الآونـة الأولى. ذلك أن ابنة فرونسكي كانت لطيفة جداً، وقد تعلّقت بها آنا تعلّقاً شديداً حتى أنها لم تفكر بابنها إلا نادراً.

كانت متطلبات الحياة قوية بعد أن نمّتها عودتها إلى صحتها، وكانت الظروف التي تعيش فيها جديدة وجذابة إلى الحد الذي أحست فيه آنا بأنها سعيدة إحساساً لا يُغتفر. وكانت كلما عرفت فرونسكي ازدادت حباً له. لقد أحبته من أجل ذاته، ومن أجل الحب الذي يحمله لها. كان الامتلاك الكامل لهذا الرجل يوفّر لها فرحاً متّصلاً. وكان حضوره محبباً دائماً. وسحرتها سمات طبعه التي أخذت تألفها أكثر فأكثر، وفتنَها تغييره للباسه (لقد هجر البزة العسكرية) كما تُفْتَن العاشقة الجديدة، ورأت طابع الأصالة والنبل والعظمة في كل ما كان يقول أو يفكر أو يفعل. وكثيراً ما روّعتها حماستها نفسها: كانت تبحث عما لا يُعجب فيه فلا تستطيع أن تعثر عليه، وكانت تخشى أن تُظهر له تفاهتها إزاءه. ولاح لها أنه لو عرف ذلك لانفصل عنها بسرعة؛ وهي لم تكن تخشى شيئاً خشيتها من أن تفقد حبه، مع أنه لم يكن هناك ما يخوّفها من ذلك. لكن لم يكن بوسعها إلا أن تحمد له سلوكه نحوها

Tele: @Arab_Books

وتظهر له أنها تقدّره حق قدره. إذ لم يُبد قط أدنى أسف على أنه ضحى من أجلها بمنصب سياسي كان جديراً أن يلعب فيه، برأيها، دوراً عظيم الأهمية هيأته له مؤهلاته المتميزة، ولم يبد قط ما أبداه لها في هذه الفترة من الحب والاحترام والحرص المستمر على أن يجنبها ما في وضعها من مزعجات. إن هذا الرجل الممتلئ بالرجولة لم يكن يمتنع عن مناوأتها فحسب، بل إنه كان يتنازل أمامها وكأن همه الوحيد هو تلبية رغباتها قبل أن تُفصح عنها. ولم يكن يسعها إلا أن تتأثر بذلك، وإن كانت الرعاية والعناية المستمرتان تثقلان عليها أحياناً.

بيد أن فرونسكي لم يكن سعيداً سعادة كاملة، بالرغم من تحقيق ما تاق إليه زمناً طويلاً. فسرعان ما أحس أن تحقيق رغباته لم يمنحه سوى ذرة من بحر السعادة التي حَلم بها. وأدرك ذلك الخطأ الأبدي الذي يقترفه الناس عندما يعتقدون أن السعادة هي تحقيق رغباتهم. لقد تذوّق، أثناء الفترة الأولى من حياتهما المشتركة التي تلت استقالته، سحر الحرية التي لم يعرفها قط واستساغها، لكن ذلك لم يدم طويلاً. إذ أحس بعد قليل أن قد برزت في قرارة نفسه رغبة الرغبات: السأم. وأخذ يتشبث تشبثاً مستقلاً عن إرادته بكل نزوة عابرة معتقداً أن فيها رغبة وهدفاً. كان ينبغي له أن يستخدم ست عشرة ساعة من ساعات النهار، وكان حرين تماماً في الخارج، بعيداً عن شروط الحياة الاجتماعية التي كانت تشغل وقته في بطرسبرج. وكان عليه أن يُقلع عن التفكير في مسرات حياة العزوبة التي كان يستسيغها قديماً، في رحلاته السابقة، لأن تجربة من هذا النوع (عشاء مع أصدقائه) أثارت في آنا يأساً غير متوقع وغير متناسب مع الحادث. ولم يكن يستطيع،

Tele: @Arab_Books

نظراً لزيف وضعهما، أن ينشئ علاقات لا مع المجتمع المحلي ولا مع الروس. أما الطرائف ففضلاً عن أنه رآها كلها من قبل، إلا أنه لم يكن يوليها، كرجل روسي عظيم الذكاء، ذلك الاهتمام المتطرف الذي اعتاد الإنكليز أن يولوها إياها.

وكما يرتمي الحيوان الجائع على كل ما يقع تحت يده آملاً أن يجد فيه ما يأكله، كذلك ارتمى فرونسكي على السياسة أو القراءة حيناً، وعلى الرسم حيناً آخر.

وبما أنه أبدى استعداداً للرسم في طفولته، فقد أخذ يكوّن مجموعة من الصور، وكأنه لا يدري كيف يُنفق ماله، وتوقف عند الرسم مكرساً له جزءاً من وقته ومحوّلاً إليه جملة مطامحه التي لم تُروَ والتي كانت تتطلب الإشباع.

كان يملك موهبة الفهم والمحاكاة، فظن أنه يملك الموهبة التي تجعل من الفنان فناناً. وبعد أن تساءل حيناً ما نوع الرسم الذي سيختاره؛ الديني أو التاريخي أو الشعبي أو الواقعي، عكف على العمل. كان يعرف جميع الأنواع وكان قادراً على استلهام هذا النوع أو ذاك. لكن لم يخطر بباله أن الفنان يمكنه أن يتجاهل كلياً جميع أنواع الرسم ويستلهم ما في نفسه مباشرة دون أن يهتم بمعرفة ما إذا كان ما يرسمه تابعاً لهذه المدرسة المعروفة أم لا. وبما أنه كان يجهل ذلك ولا يستلهم الحياة ذاتها وإنما يستلهم تجسّداتها في الفن، فقد كان يعثر على موضوعاته بسرعة وبيسر ويُفلح بسرعة في رسم لوحة مشابهة جداً للنوع الذي يريد محاكاته.

Tele: @Arab_Books

كانت تعجبه المدرِّسة الفرنسية الرشيقة التي تهدف إلى إثارة الإعجاب، أكثر من غيرها، فبدأ على هذا النمط لوحة لآنا باللباس الإيطالي، وبدت هذه الصورة له ولجميع الذين كانوا يشاهدونها جد موفقة.

Tele: @Arab_Books

-٩-

استطاع «القصر» القديم الخرب، بسقوفه العالية ذات النواتئ، وبلوحاته الجدارية، وبأرضية الفسيفساء، وبستائر الديباج الثقيلة، الصفراء أمام النوافذ المرتفعة، وبأوعيته الثمينة على الأفاريز والمدافئ، وبأبوابه المنقوشة، وبأبهائه المظلمة والمزينة باللوحات، استطاع، عندما استقرّ فيه، أن يغذّي في فرونسكي ذلك الوهم اللذيذ وهو أنه ليس نبيلاً روسياً، وعقيداً متقاعداً، بقدر ما هو هاوٍ متنوّر، وحامٍ للفنون، ورسّام متواضع، تخلى عن العالم، وعن علاقاته، وعن طموحه من أجل حب امرأة.

هذا الدور الذي اختاره فرونسكي، بعد استقراره في «القصر» أرضاه كل الرضى، وعندما تعرّف ببعض الشخصيات المرموقة، بواسطة غولينيتشيف، اطمأنت نفسه، في الآونة الأولى. كان يرسم بإشراف أستاذ إيطالي وفقاً لنموذج طبيعي ويدرس العصر الوسيط الإيطالي. ولقد فتنه هذا العصر إلى حدّ أنه أخذ يلبس، على نمط العصر الوسيط، قبعة ودثاراً ملقىً من فوق الكتف لاءمه كثيراً.

قال فرونسكي ذات صباح لغولينيتشيف الذي جاء لزيارته:

- إننا لا نعلم شيئاً عما يجري. هل رأيتَ لوحة ميخايلوف؟

Tele: @Arab_Books

قال ذلك ومد إليه جريدة روسية وصلتْه حديثاً ودلّه على مقالة عن رسام روسي يسكن المدينة نفسها قد انتهى من رسم لوحة تحدث الناس عنها منذ وقت طويل واشتُريت سلفاً. وتلوم المقالة الحكومة والأكاديمية على ترك هذا الفنان البارز دون عَوْن.

أجاب غولينيتشيف:

– نعم، لقد رأيتها. بالطبع إنها لا تخلو من الموهبة، لكن اتجاهاتها خاطئة أصلاً. لأن تصور المسيح والحياة الدينية فيها هو التصور الذي نجده لدى إيفانوف وشتراوس ورينان[٢٠].

سألت آنا:

– وماذا تمثل هذه اللوحة؟

– المسيح أمام بيلاطس[٢١]. وللمسيح فيها هيئة يهودي، وقد رُسم بحسب تعاليم المدرسة الواقعية الجديدة.

٢٠– التصور الذي نجده لدى إيفانوف وشتراوس ورنيان: وبموجب هذا التصور يبدو المسيح شخصاً إنسانياً يملك صفات فذة، إلهية؛ ونحن نجده في اللوحة الكبرى للرسام ألكسندر إيفانوف (١٨٠٦ –١٨٥٨)، وفي «المسيح يظهر للشعب» في «حياة يسوع» اللاهوتي الألماني دافيد شتراوس (١٨٠٨ –١٨٧٤)، وفي «أصول المسيحية» للكاتب الفرنسي «أرنست رينان» (١٨٣٣ –١٨٩٢).

٢١– المسيح أمام بيلاطس: تجدر الإشارة إلى أن الرسام الروسي «نيقولا غي» الذي غدا صديق تولستوي، عرض بعد ذلك بكثير –في ١٨٩٠– لوحة هي «المسيح أمام بيلاطس» وقد أثارت واقعيتها الواضحة الكثير من الاستنكار آنذاك.

Tele: @Arab_Books

وتابع غولينيتشيف كلامه بعد أن ساقته هذه المسألة إلى أحد موضوعاته المفضلة:

- لا أفهم كيف يمكنهم أن يغلطوا هذا الغلط الفادح. فللمسيح نموذج محدد جداً في فن المعلمين القدامى. وإذا شاؤوا أن يرسموا ثورياً أو حكيماً، لا الله، فليرسموا سقراط، أو فرانكلين، أو شارلوت كورداي، لا المسيح. إنهم يتناولون الشخصية الوحيدة التي لا يجوز للفن أن يمسها، ثم إن...

سأل فرونسكي، وقد خطر بباله أن عليه، باعتباره حامياً روسياً للفن، أن يهبَّ إلى نجدة ميخايلوف، سواء أكانت لوحته جيدة أم رديئة:

- أصحيح أن ميخايلوف قد وصل إلى هذا الحد من الفاقة؟

- أخشى ذلك. إنه رسام صور مرموق. هل رأيت صورة السيدة فاسيلتشيخوف؟ لكن يبدو أنه أقلع عن رسم صور الأشخاص؛ ولعله إنما بلغ الفاقة بسبب ذلك. قلت...

قال فرونسكي:

- ألا نستطيع أن نطلب إليه رسم صورة آنا أركادييفنا؟

قالت آنا:

- ولِمَ صورتي؟ لا أريد صورة أخرى بعد الصورة التي رسمتها لي. ليرسَم بالأحرى صورة آني (هكذا كانت تدعو ابنتهما).

Tele: @Arab_Books

وأضافت وهي تشاهدها من النافذة مع المربية الإيطالية الحسناء التي أنزلت الطفلة إلى الحديقة وأخذت تختلس النظر إلى فرونسكي:

– ها هي ذي.

كانت هذه الحسناء التي رسم فرونسكي رأسها للوحته، الغم الوحيد في حياة آنا. وكان فرونسكي معجباً بجمالها وبنموذج شخصها الذي هو من نماذج العصر الوسيط، ولم تكن آنا تجرؤ على الإقرار أمام نفسها بأنها تخشى أن تكون غيرى من هذه المربية وأنها من أجل هذا السبب إنما تغمرها بالرعاية والتدليل لها ولطفلها الصغير.

ألقى فرونسكي أيضاً نظرة من النافذة، وما لبث أن استدار نحو غولينيتشيف، عندما لاقت نظرتُه نظرة آنا:

– أتعرف ميخايلوف هذا؟

– لقد لقيته مرة. إنه رجل غريب الأطوار، بدون أية تربية. وهو أحد هؤلاء المتوحشين الذين كثروا في هذه الأيام؛ أحد هؤلاء المفكرين الأحرار الذين يغتذون «دفعة واحدة» بمبادئ الإلحاد والمادية ورفض كل مُعتقد.

وتابع غولينيتشيف دون أن يتيح لآنا فرونسكي أن يتفوّها بكلمة:

– كان المفكر الحر قديماً، رجلاً تربّى على احترام الدين والقانون والأخلاق، وكان يصل إلى التفكير الحر من خلال النضال والعمل؛ أما اليوم فقد ظهر، بتولد ذاتي، نموذج جديد للمفكرين الأحرار

Tele: @Arab_Books

الذين توصلوا من ذاتهم إلى نفي كل شيء، دون أن يسمعوا بالقوانين الأخلاقية والدينية، وبالسلطة؛ وهم، بكلمة واحدة، متوحشون. وميخايلوف من هؤلاء. وهو ابن قهرمان من موسكو، إن كنت أتذكر جيداً، لم يتلق أي تعليم وما أن دخل الأكاديمية حتى ذاع صيته؛ وأراد أن يتعلّم، لأنه ليس بأحمق، فلجأ إلى ما بدا له أنه مصدر للثقافة: إلى المجلاّت. في الزمن الغابر، كان الإنسان إذا أراد أن يتعلم –كالإنسان الفرنسي مثلاً– بدأ بدراسة الكلاسيكيين جميعاً: اللاهوتيين، وكتّاب المأساة، والمؤرخين والفلاسفة؛ أنت ترى العمل الضخم الذي كان ينتظره. لكن الإنسان عندنا يقع على الأدب السلبي، ويستوعب بسرعة شيئاً مختاراً من هذا العلم السلبي، وهذا كل شيء. كان بإمكانه أن يجد في هذا الأدب، منذ عشرين عاماً، آثار النضال ضد السلطة، ضد التقاليد الموغلة في القدم، وأن يفهم أنه قد كان هناك شيء آخر؛ أما اليوم فهو لا يكلّف نفسه حتى النقاش في مفاهيم الماضي. إنه يقول بكل بساطة: ليس هناك شيء؛ فالتطور، والاصطفاء، والصراع من أجل الحياة، حلّت محل كل شيء. وفي مقالتي...

لكن آنا التي كانت تبادل فرونسكي منذ برهة نظرات خفية وتعلم أن فرونسكي لم يكن يهتم بتكوّن هذا الرسام، وإنما كان مشغولاً بفكرة مساعدته وطلب صورة لآنا، قاطعت غولينيتشيف ومنعته، عن قصد، من اختتام كلامه، فقالت:

– أتدري، ليتنا نذهب لزيارته؟

فتمالك غولينيتشيف نفسه وقبل راضياً. وبما أن الفنان كان يسكن حياً بعيداً، فقد قرروا أن يستقلوا عربة.

Tele: @Arab_Books

بعد ساعة ونصف، وصل الثلاثة في العربة إلى منزل جديد، بشع المنظر، في حي ناء. وإذ علموا من زوجة البواب أن ميخايلوف يستقبل الزوار في مشغله، لكنه الآن موجود في شقّته على خطوتين من هنا، أرسلوا المرأة لتحمل إليه بطاقاتهم ولتستأذنه برؤية لوحاته.

Tele: @Arab_Books

-١٠-

كان ميخايلوف كعادته في عمله عندما حُملت إليه بطاقات الزيارة. لقد عكف في مشغله صباحاً، على لوحته الكبرى. وعندما وصل إلى البيت غضب على امرأته لأنها لم تستطع أن تُصبِّر المؤجّرة التي كانت تطلب أجرتها. وقال لها بعد مشادّة طويلة:

– لقد قلت لك عشرين مرة ألا تسترسلي في النقاش معها. أنت في الأصل غبية، لكنك عندما تبدئين بإيضاح رأيك تصيرين أغبى بثلاث مرات.

– لا تضع اللوم علي، فالغلطة ليست غلطتي. ولو كان معي المال...

فصاح ميخايلوف وقد غص صوته بالدمع:

– دعيني وشأني، بحق الله!

وسد أذنيه وفرّ إلى الغرفة المجاورة وأغلق الباب بالمفتاح وقال:

– يا لها من غبية!

وجلس إلى طاولته، وما لبث أن أكبّ بحرارة على رسم بدأه.

Tele: @Arab_Books

لم يكن يجيد العمل مثلما كان يجيده عندما تسوء أحواله المعاشية، ولا سيما عندما يتخاصم هو وامرأته.

كان يقول في نفسه وهو يتابع عمله: «آه! ليتني أستطيع أن أدفن نفسي في مكان ما!». كان يرسم رأس رجل استولت عليه سورة الغضب. ثم الرسم، لكنه لم يكن راضياً عنه. «لا، الرسم الآخر كان أفضل... أين هو» ومضى إلى غرفة زوجته، كالح الوجه، ودون أن ينظر إليها سأل ابنته الكبرى عن الرسم الذي أعطاهم إياه. وعُثر على الرسم، لكنه كان وسخاً ومغطى ببقع دهنية. فأخذه مع ذلك. ووضعه على الطاولة، وأخذ يتأمله، وهو يبتعد عنه ويطرف بعينيه. وهمس:

- وهو كذلك، وهو كذلك!

وسرعان ما تناول قلمه وبدأ يرسم كالمحموم. إذ إن إحدى البقع الدهنية أسبغت على اللوحة المرسومة وضعاً جديداً.

فرسم هذا الوضع الجديد، وتذكر فجأة ذلك الوجه القوي والذقن البارزة للتاجر الذي يشتري سيجاراته من عنده، وجعل لموضوعه هذا الوجه وتلك الذقن. وغدا المخطط الإجمالي حياً، نهائياً، بعد أن كان مصوراً في الخيال، عديم الحياة. لقد دبت فيه الحياة، واتضحت حدوده. لقد أمكنه أن يصحح الرسم وفقاً لمقتضيات الشخصية، وأمكنه بل وجب عليه أن يباعد بين الساقين على نحو آخر، وأن يغير كلياً وضع الذراع اليسرى. وكان، وهو يُدخل على لوحته هذه اللمسات، لا يغير الشخصية، وإنما يخلصها مما يغطيها. كان ينزع عنها، إن صح التعبير، الأغشية التي تسترها جزئياً؛ وكانت كل لمسة تُسهم في إعطاء

Tele: @Arab_Books

هذه الصورة التعبير القوي الذي أوصت به فجأة البقعة الدهنية. كان يستكمل رسمه بعناية عندما حُملت إليه البطاقات.

– على الفور، على الفور!

ومضى إلى غرفة امرأته، وقال لها وهو يبتسم ابتسامة رقيقة وجلة:

– هيا، ساشا، لا تغضبي. لقد أخطأ كلانا. سأسوّي ذلك.

وبعد أن تصالح هو وامرأته ارتدى معطفه الأخضر الزيتي، ذا القبة المخملية، وقبعته، وذهب إلى مشغله. لقد نسي رسمه. وهو الآن لا يفكّر إلا في زيارة هؤلاء الضيوف الروس الرفيعي المقام الآتين في عربة.

كان يرى، في أعماقه أن أحداً لم يرسم قط لوحة تضاهي اللوحة التي تشغل الحمالة الآن. لم يكن يرى أن لوحته أعلى شأناً من جميع لوحات رفائيل، لكنه كان يعلم أن أحداً لم يؤد ما أراد أداءه في هذه اللوحة. كان على يقين من ذلك. كان يعلم ذلك منذ أمد بعيد، منذ أن بدأ يرسمها؛ لكن أحكام الناس، أياً كانوا، كانت عظيمة الأهمية عنده، وكانت تحرك نفسه حتى قراراتها. كانت تهزه أتفه الملاحظات الدالة على فهم ما كان يراه في لوحته، ولو كان ضئيلاً ذلك الفهم. كان ينسب دائماً إلى حكّامه فهماً أعمق من فهمه، وينتظر دائماً أن يكشفوا له عن جانب من اللوحة لم يخطر بباله. وكثيراً ما كانت أحاديث المشاهدين تكشف له، كما كان يعتقد، عن رسمه.

أدرك باب مشغله بخطوات سريعة. وبالرغم من اضطرابه، فإن الإنارة الخفيفة التي لفّت شخص آنا وهي تُحدّث غولينيتشيف في

Tele: @Arab_Books

الظل، وتنظر إلى الرسام وهو مقبل، قد أذهلته. فالتقط هذا الانطباع والتهمه وهو يمشي، دون أن يدرك ذلك، وخبّأه في زاوية من نفسه، كما فعل بذقن بائع التبغ، على أن يستخرجه منها عندما يحتاج إليه.

أما الأثر الذي تركه منظر الرسام في الزوار فكان مزعجاً، وقد هيّأهم غولينيتشيف لمثل ذلك. كان ميخايلوف ربعة، سميناً، يُنطنط في مشيته، بقبعته السمراء، ومعطفه الأخضر المائل إلى السمرة، وبنطاله الضيق (كان الناس يلبسون البنطال الواسع منذ زمن بعيد)، وخشونة وجهه العريض مع الوجل المرتسم عليه والممتزج بالحرص على الاحتفاظ بوقاره؛ وهو بذلك كله ترك أثراً سيئاً فيهم.

قال وهو يحاول أن يصطنع اللامبالاة:

– ادخلوا أرجوكم.

وأخرج مفتاحه من جيبه، وهو يدلف إلى البهو، وفتح الباب.

Tele: @Arab_Books

-١١-

عندما بلغ ميخايلوف مشغله، ألقى نظرة عاجلة، جديدة على ضيوفه، وسجّل أيضاً في خياله تعبير وجه فرونسكي، ولا سيما وجنتيه. وبينما كان حسه الفني يعمل بلا كلل، جامعاً المواد، أخذ يكوّن فكرة عن هؤلاء الاشخاص الثلاثة بفضل أمارات لا تكاد تُلحظ، وهو فريسة لاضطراب كان يتعاظم كلما اقتربت اللحظة التي سيصدرون فيها حكمهم على عمله الفني. هذا (غولينيتشيف) روسي من هنا. لكن ميخايلوف لم يتذكر اسمه ولا أين لقيه ولا عمّا تحدّثا. تذكّر فقط وجهه كما يتذكّر جميع الوجوه التي رآها مرة واحدة، لكنه تذكّر أيضاً أنه دفعه إلى خياله ليكون في تلك الفئة الواسعة؛ فئة الوجوه الفقيرة التعبير التي تشوُبها أصالة زائفة. فالشعر الطويل والجبهة المكشوفة أسبغا طابعاً سطحياً على هذا الوجه الذي لم يكن يعبر إلا عن قلق صبياني متركّز في هذه المسافة الضيّقة التي تفصل بين العينين. أما فرونسكي والسيدة كارينينا فلا بدَّ أنهما كانا، في ذهن الفنان، روسيين بارزين وغنيين، لا يفقهان شيئاً في الفن، شأنهما شأن جميع الروس الأغنياء الذين يتظاهرون بأنهم عارفون. وقال في نفسه: «لا شك أنهم طافوا بمتاحف الرسم القديم، وأخذوا الآن يزورون مشاغل الرسامين الجدد، مثل هذا المشعوذ الألماني وذاك

Tele: @Arab_Books

الغبي الإنكليزي، وهم لا يجيئون إليّ إلا ليكمّلوا جولتهم». كان يعرف أساليب الهُواة (وأسْوؤُهم أذكاهم)؛ كانوا يزورون المشاغل المعاصرة وهدفُهم الوحيد أن يكون لهم الحق في القول: إن الفن آخذ بالانحطاط، وأننا كلما نظرنا إلى الرسّامين الحديثين تبيّنا أن القدماء متفوقون، لا يُشق غبارهم.

كان يتوقع ذلك كله، ويقرؤه على وجوههم، في هذا الفتور اللامبالي الذي به كانوا يتحدّثون فيما بينهم، وينظرون إلى الشواخص والتماثيل النصفية، ويتجوّلون بلا حرج في المشغل، ريثما يكشف عن لوحته. لكنه كان يشعر مع ذلك، وهو يتصفّح مخططاته، ويرفع الستائر، وينزع غطاء الجوخ الذي يغطي لوحته، بانفعال عنيف، وهو انفعال اشتد عنفه لأن فرونسكي وآنا على الخصوص أعجباه، مع أنه طالما ردد على نفسه أن هؤلاء الروس الأغنياء، اللجوجين ما هم سوى وحوش وأغبياء.

قال وهو يحيد اللوحة بمشيته المُنطنطة ويشير إليها:

– ها هي ذي. إنها مشهد المسيح أمام بيلاطس. متى، الإصحاح السابع والعشرون.

وأحس أن شفتيه أخذتا ترتجفان من التأثر، فابتعد ووقف خلفهم.

أثناء الثواني القليلة التي تأمّل فيها الزوار اللوحة بصمت، تأمّلها هو أيضاً بعين غريبة، غير مبالية. وأثناء هذه الثواني القليلة انتظر من هؤلاء الزوار الذين كان يحتقرهم من كل قلبه قبل دقيقة، حُكماً رفيعاً

Tele: @Arab_Books

لا يخطئ. لقد نسي كل ما رآه في اللوحة أثناء السنوات الثلاث التي قضاها في رسمها، نسي مزاياها جميعاً، وهي مزايا لا شك فيها بنظره، وأخذ ينظر إليها بعين باردة، غير مبالية، مثلهم، فلم يجد فيها أية مزية. في المستوى الأمامي، وجه بيلاطس الكالح، ووجه المسيح الهادئ، وفي المستوى الثاني، جنود بيلاطس ووجه يوحنا الذي كان يُلاحظ ما يجري. كل هذه الوجوه، وهي ثمرة أبحاث لا تُحصى، وتنقيحات وأخطاء، كانت قد وُلدت فيه ولادة جديدة بسماتها الخاصة، مسببة له جميع صنوف الفرح والعذاب، بعد أن صُححت ألف مرة لتنسجم مع المجموع، كل تلك الظلال في ألق الألوان، وفي الفوارق اللونية التي حصل عليها بمشقة كبيرة، كل ذلك لاح له الآن، عندما كان يتطلّع بعيون زُوّاره إلى وجه المسيح ذاته، النقطة المركزية في اللوحة التي كان يعزها أكثر من غيرها والتي ابتعثت فيه حماسة عظيمة عندما اكتشفها، كل ذلك لاح له أنه الفشل بعينه. لم يكن وجه المسيح سوى نسخة حسنة (بل إنها لم تكن حسنة لأنه أخذ يكتشف فيها الآن عدداً من الأخطاء) لصور المسيح عند تيتيان وروبنس ورفائيل. وجنود بيلاطس أنفسهم لم يكونوا سوى نسخ. كل ذلك كان مسطّحاً، سقيماً، قديماً، سيّئ الرسم هشّاً، مبرقشاً. ولسوف يقولون له عبارات منافقة بأدب، وسيكون من حقهم أن يرثو لحاله وأن يهزؤوا منه عندما يصيرون وحدهم.

بدا له هذا الصمت لا يطاق، (مع أنه لم يدم سوى دقيقة)، ولكي يقطعه ويُظهر أنه لم ينفعل، بذل جهداً والتفت إلى غولينيتشيف، وقال له وهو يُلقي نظرات قلقة على آنا تارة وعلى فرونسكي تارة أخرى لكي لا يضيع شيئاً من تبدّل ملامح وجهيهما:

Tele: @Arab_Books

– أعتقد أنني قد حظيتُ بلقائك.

فرد غولينيتشيف بيسر محوّلاً نظره عن اللوحة دون أدنى أسف لينقله إلى الرسام:

– بالتأكيد! التقينا عند روسي، أتذكر، في المساء الذي ألقت فيه تلك الآنسة الإيطالية، راشيل الجديدة[٢٢]، شعراً.

وحين لاحظ أن ميخايلوف كان ينتظر حكمه على لوحته قال له:

– لقد تقدّمت لوحتُك منذ آخر مرة رأيتها فيها. ووجه بيلاطس هو الذي يروعني اليوم كما راعني بالأمس. ومن السهل فهم هذا الرجل الطيب، الفاضل، الموظف حتى أعماق نفسه، الذي لا يعلم ما يفعل. ويبدو لي...

استنار وجه ميخايلوف المتحرّك فجأة؛ وأخذت عيناه تبرقان. أراد أن يقول شيئاً، لكنه عجز عن ذلك في غمرة اضطرابه، فتظاهر بالسعال. ومهما يكن ضحلاً فهم غولينيتشيف للفن، في رأيه، ومهما تكن تافهة تلك الملاحظة عن وجه بيلاطس، ومهما تبدُ جارحة تلك الملاحظة التي كانت تُهمِل الجوهري، فإنه قد فُتن بها. كان رأيه هو نفسه في وجه بيلاطس كرأي غولينيتشيف. وكون هذه الملاحظة واحدة من آلاف الملاحظات الصحيحة التي يُمكن أن تُقال في هذه اللوحة، لم يقلل من شأن ملاحظة غولينيتشيف. وإذا به يكْلَفُ بزائره،

٢٢– راشيل الجديدة: أليز راشيل (١٨٢٠ –١٨٥٨) ولدت في سويسرا، ممثلة فرنسية مشهورة.

Tele: @Arab_Books

وينتقل فجأة من الوهن إلى الحماسة، وإذا بلوحته تزخر بالحياة أمامه، وتستعيد تعقُّد كل ما هو حي. ولقد حاول ميخايلوف أيضاً أن يقول: إنه هو أيضاً يفهم بيلاطس على هذا النحو، لكن شفتيه أخذتا ترتجفان. ولم يستطع أن يتلفّظ بشيء. وكان فرونسكي وآنا يتكلمان بصوت بهيم كالذي يتكلم به الناس عادة في المعارض، لكي لا يجرحا الرسام من جهة، ومن جهة أخرى لكي لا يجهرا بحماقة من تلك الحماقات التي تندّ بسهولة عن المرء وهو يتحدث عن الفن. وخُيل إلى ميخايلوف أنه استشف تأثرهما هما أيضاً بلوحته، فدنا منهما.

قالت آنا:

– تعبير المسيح مثير للإعجاب! فمن الواضح أن يشفق على بيلاطس.

كان هذا التعبير بخاصة هو الذي أثار اهتمامها، من كل ما رأته. أحسّتْ أنه هو مركز اللوحة، وأن هذا الثناء يسرّ الرسام.

كانت هذه الملاحظة واحدة من الملاحظات الصحيحة والعديدة التي يمكن أن تُقال في اللوحة وفي وجه المسيح. قالت: إنه يشفق على بيلاطس. لكن وجه المسيح، كما كان يعبّر عن الشفقة، كان يعبّر أيضاً عن المحبة، وعن السكينة التي تفوق الطبيعة، وعن قبول الموت، وعن الشعور ببطلان الكلام. لا شك أن بيلاطس كان يبدو موظفاً، والمسيح كان يعبّر عن الشفقة لأن أحدهما كان تجسيداً لحياة الجسد، والآخر كان تجسيداً لحياة الروح. كل ذلك مرّ بخاطر ميخايلوف ممتزجاً بطائفة من الأحاسيس المتداعية، فاستنار وجهه بالحماسة من جديد.

Tele: @Arab_Books

قال غولينيتشيف:

- نعم، وما أروع الرسم! وما أكثر الفضاء حول هذه الصورة! يمكن الدوران حولها!

وأراد أن يُظهر بهذه الملاحظة أنه ينتقد سمة الشخصية.

قال فرونسكي:

- إن ها هنا مهارة مدهشة! وما أوضح بروز هذه الشخوص في المستوى الخلفي!

وأضاف وهو يلتفت إلى غولينيتشيف:

- هذه هي التقنية!

مشيراً بهذه العبارة إلى حديث اعترف فيه بأنه يائس من الحصول على هذه التقنية.

فأيده غولينيتشيف وآنا:

- نعم، نعم، هذا رائع!

وبالرغم من حالة المرح التي كان فيها، فقد أصابته كلمة «تقنية» في قلبه، ونظر إلى فرونسكي نظرة الغضب، وقطّب بين حاجبيه. ذلك أنه طالما سمع بكلمة «تقنية» فلم يفهم حتماً المقصود بها. كان يعلم أن هذه الكلمة قد تُعبّر عن الموهبة الآلية في التصوير والرسم، بمعزل عن الموضوع. وقد لاحظ كثيراً أن الناس يعارضون المهارة التقنية بالمزية الجوهرية في العمل الفني، كما هي الحال في الثناء الذي وُجِّه

Tele: @Arab_Books

إليه قبل هنيهة، وكأن الرسام يمكن أن يرسم جيداً ما تصوّره تصوراً سيئاً. كان يعلم أنه لا بدَّ من كثير من الانتباه والمهارة لرفع الحجب دون الإضرار بالعمل نفسه، ولرفع جميع الحجب؛ لكن فن الرسم لا علاقة له بالتقنية. ولو أتيح لولد صغير أو لطاهية أن يريا ما كان يراه لأمكنهما تجسيد حواشي رؤيتهما. لكن أكثر تقنيي الرسم تجربة ومهارة لا يمكنه أن يصوّر شيئاً بموهبته الآلية وحدها إذا لم ير قبل ذلك محيط عمله. وأكثر من ذلك، لقد كان يحسّ -بما أن التقنية موجودة- أنه لا يمكن الثناء على تقنيته بالذات. ففي جميع أعماله الفنية، كان يشاهد عيوباً بارزة للعيان، جاءته من إغفاله رفع الحجب: وما كان بوسعه تصحيحها دون أن يُعرِّض للخطر العمل الفني كله. وعلى جميع الشخوص، وجميع الوجوه، كان لا يني يُشاهد بقايا الحجب التي لم تُرفع رفعاً تاماً والتي كانت تضرّ بالمجموع.

لاحظ غولينيتشيف:

– كل ما يمكن قوله، إذا سمحت بإبداء هذه الملاحظة...

قال ميخايلوف بابتسامة متكلّفة:

– آه! سيسعدني ذلك... أرجوك.

– إن المسيح عندك هو الإنسان -الإله، وليس الإله الذي صار إنساناً. على كل حال، أنا أعلم أن هذا هو قصدك.

قال ميخايلوف وقد بدا عليه التجهّم:

– لا أستطيع أن أصوّر المسيح إلا كما أحسه في أعماقي.

Tele: @Arab_Books

– صحيح، لكن في هذه الحالة، إذا سمحت لي بالإعراب عن فكرتي... إن لوحتك قد بلغت حدا من الجمال بحيث إن ملاحظتي لا يمكن أن تُسيء إليها، وهي على كل حال ملاحظة شخصية خالصة. الأمر عندك مختلف. الموضوع ذاته مختلف. ولنأخذ إيفانوف مثلاً، فأنا أزعم أنه كان ينبغي له، باعتباره رد المسيح إلى مستوى الشخصية البشرية، أن يختار موضوعاً جديداً، أو غير مطروق حتى الآن.

– وإذا كان الموضوع هو أرفع موضوع يفرض نفسه على الفن؟

– لو فتّشنا لوجدنا غيره. لكن الواقع أن الفن لا يحتمل النقاش. وأمام لوحة إيفانوف تجد السؤال نفسه يطرح ذاته على المؤمن وعلى غير المؤمن: أهذا هو الله أم ليس الله؟ وهكذا تُدمّر وحدة الأثر.

– ولِمَ ذاك؟ يلوح لي أنه لا مجال للنقاش في ذلك، بالنسبة إلى المثقفين.

لم يقبل غولينيتشيف بهذا الرأي. وأصر على فكرته الأولى عن وحدة الأثر الضرورية للفن، فأفحم ميخايلوف. وعبثاً حاول ميخايلوف أن يتململ، إذ لم يستطع أن يقول شيئاً ليدافع عن نفسه.

Tele: @Arab_Books

-١٢-

كان فرونسكي وآنا يتبادلان النظرات منذ لحظة غير قصيرة، وقد ذُعرا من هذا الهذر المتحذلق الذي استفاض فيه صديقهما؛ وأخيراً عَبَر فرونسكي، من غير أن ينتظر مضيفه، إلى غرفة صغيرة مجاورة للمشغل.

قالا بصوت واحد:

– آه! ما أروع هذا العمل! هذا عجيب! هذا بديع!...

وفكّر ميخايلوف في نفسه: ما الذي يعجبهما إلى هذا الحدّ. لقد نسي هذه اللوحة التي رسمها قبل ثلاث سنوات. نسي الآلام والأفراح التي ابتعثتها فيه هذه اللوحة حين قضى عدة أشهر وهو يعمل فيها ليلاً ونهاراً بلا انقطاع. ونسي أنه كان ينسى دائماً اللوحات المُنجزة. ولم يكن يطيب له النظر إليها، ولم يعلّقها هنا إلا لأنه كان ينتظر إنكليزياً يرغب في شرائها. فقال:

– آه! ليست هذه شيئاً، إنها دراسة قديمة.

قال غولينيتشيف بدوره، وقد سحرته اللوحة، فيما يبدو:

– ما أجملها!

صبيّان يصيدان السمك في ظل دغل. أكبرهما يرمي صنارته

Tele: @Arab_Books

ويخلّص بعناية العوّامة التي علقت بالدغل؛ إنه يبدو مستغرقاً استغراقاً تاماً فيما يشغله؛ أما الأصغر فهو مضطجع على العشب، ورأسه الأشقر المشعّث مستند إلى يده، يتأمل الماء بعينيه الزرقاوين الساهمتين. فيم يفكر؟

لقد بعثت الحماسة التي أثارتها هذه اللوحة الانفعال القديم في نفس ميخايلوف، لكنه كان يخشى هذا الشعور الفارغ تجاه الماضي، ولذلك أراد أن يصرف انتباه الزوار إلى لوحة ثالثة، مع أن مدحهم أدخل السرور على نفسه.

سأله فرونسكي إن كانت اللوحة للبيع. فشق على ميخايلوف هذا التلميح إلى المال في لحظات الاضطراب الداخلي، وأجاب بوجه مكفهر وهو يقطّب بين حاجبيه:

– إنها معروضة للبيع.

عندما انصرف الزوّار، جلس ميخايلوف قبالة لوحة يسوع وبيلاطس واستعرض في ذهنه ما قاله، أو على الأقل ما أضمره الزوار. والغريب أن ما كان له وزنه عندما كانوا هنا وعندما نظر من الزاوية التي كانوا ينظرون منها، قد فقَد فجأة كل أهميته عنده. فأخذ يتأمل من جديد لوحته بنظرة الفنان، وعاد إليه اليقين بكمالها، منطلقاً من قيمة عمله الفني، وهو يقين لا بدَّ له منه ليحافظ على هذا التوتر الذي يمتص كل اهتماماته الأخرى والذي بدونه لا يستطيع أن يعمل.

بيد أنه كان في ساق المسيح المصغّرة عيب. فأخذ ريشته وبدأ العمل. وكان، وهو يصحح الساق، لا يني ينقل إلى وجه القديس

Tele: @Arab_Books

يوحنا في المستوى الخلفي، التي لم يلاحظها الزوار والتي بلغت، كما كان يعلم، كمال الإتقان. وعندما انتهى من الساق، أراد أن يتصدى للوجه، لكنه أحس بالتأثر الشديد. ولم يكن يستطيع العمل، لا وهو مفرط اللامبالاة، ولا وهو شديد الرقة، قابل للتأثر بكل شيء. وإنما كان العمل ممكناً في الحالة المتوسطة بين البرودة والحماسة. لقد كان في هذه اللحظة، منفعلاً أشد انفعال، وأراد أن يغطّي اللوحة، لكنه توقف وهو يمسك بيده ستارة الجوخ، وتأمل طويلاً وجه يوحنا بابتسامة الغبطة. وأخيراً، ابتعد على مضض، بعد أن أسدل ستارة الجوخ، وعاد إلى بيته متعباً لكن سعيداً.

كان فرونسكي وآنا وصديقهما على درجة عظيمة من الابتهاج والحيوية عندما عادوا إلى المنزل. فتحدثوا عن ميخايلوف ولوحاته. وكانت كلمة «موهبة» التي يستخدمونها للتعبير عن هبة فطرية، جسدية تقريباً، مستقلة عن القلب والفكر، والتي تُتيح لهم أن يجدوا اسماً لكل ما يحسّ به الفنان تتردد كثيراً في حديثهم: كان لا بدَّ من هذه الكلمة لتحديد ما يريدون الكلام عليه، مع أنهم لا يملكون أية فكرة عنها. كانوا يقولون: إننا لا نستطيع أن ننفي عنه «الموهبة»، لكن هذه الموهبة لم تكن تستطيع أن تنمو بسبب انعدام الثقافة، وهي مصيبة مشتركة بين جميع الفنانين الروس. لكن لوحة الصبيين انطبعت في ذاكرتهم، وأوشكوا أن يعودوا ليروها.

قال فرونسكي:

– ما أروعها! وما أنجحها، وأبسطها! إنه لا يرى هو نفسه مقدار جمالها! يجلا أن نترك الفرصة تمر، وسوف أشتريها.

Tele: @Arab_Books

-١٣-

باع ميخايلوف اللوحة لفرونسكي، وقَبِلَ أن يرسم صورة آنا. وفي اليوم المحدد، جاء وبدأ العمل.

ومنذ الجلسة الخامسة، أذهلتْ الصورة الجميع ولا سيما فرونسكي، لا بشَبَهها بل بجمالها الخاص. لقد كان غريباً أن يلتقط ميخايلوف كل ما في جمال نموذجه من خصوصية. ودار بخلد فرونسكي: «ينبغي أن يعرفها كما أعرفها وأن يحبها كما أحبها حتى يكتشف هذه الملاحة الفاتنة التي هي صورة نفسها». والواقع أن الصورة هي التي أظهرت هذه الملاحة الفاتنة التي هي صورة نفسها. لكن هذا التعبير كان صحيحاً إلى حدٍّ كبير خَيّل إلى الناس أنهم يعرفونه منذ أمد بعيد.

قال فرونسكي وهو يتحدث عن الصورة التي رسمها هو نفسه:

– إني أكافح منذ زمن بعيد دون أن أتوصل إلى شيء. وقد اكتفى هو بالنظر ليعثر على السر. هذه هي التقنية.

قال غولينيتشيف معزّياً:

– سوف تتوصل.

Tele: @Arab_Books

وكان يقدّر أن فرونسكي يملك الموهبة كما يملك، بخاصة، ثقافة تمنحه نظرات عليا في الفن. وكان هذا اليقين مُدَّعماً بحاجته إلى عطف فرونسكي وثنائه على أعماله الخاصة، وكان يحس أن العطف والثناء يجب أن يكونا متبادلين.

كان ميخايلوف، عند الآخرين، ولا سيما في «قصر» فرونسكي، رجلاً آخر يختلف عما هو عليه في مشغله. كان يبدو شديد الاحترام للآخرين، متحفظاً، وكأنه يخشى أن يدخل في خصوصية الناس الذين لا يقدّرهم. وكان يدعو فرونسكي: «سيادتك» ولم يمكث قط للعشاء بالرغم من دعوات آنا وفرونسكي، ولم يزرهم إلا في أوقات جلسات التصوير. وكانت آنا عظيمة اللطف معه وممتنة للصورة التي رسمها. وكان فرونسكي يعامله برقة متناهية. ويرغب في أن يعرف رأي الفنان في رسمه ذاته. أما غولينيتشيف فلم يفوّت فرصة يرسّخ فيها، في ذهنه، الأفكار الصحيحة عن الفن. لكن ميخايلوف كان يظهر الفتور إزاء الجميع على حدٍّ سواء. وكانت آنا تشعر أنه يحب أن يتأملها لكنه يتحاشى الحديث معها. وعندما حدّثه فرونسكي عن رسمه، صمت بعناد وأصر على هذا الصمت عندما اطلع على لوحة فرونسكي. وظهر عليه العناء من حديث غولينيتشيف، ولم يكن يرد عليه الجواب.

والخلاصة أن ميخايلوف لم يُعجبهم بموقفه المتحفّظ وغير الودّي بل والعدائي، عندما عرفوه عن كثب. وسُرّوا عندما انتهت الجلسات؛ لقد حصلوا على لوحة جميلة وكف ميخايلوف عن المجيء.

Tele: @Arab_Books

وكان غولينيتشيف أول من عبّر عن رأي يشاطرانه إياه، وهو أن ميخايلوف كان، بكل بساطة، يحسد فرونسكي:

- يجب ألا نستعمل كلمة «حسد» لأن له «موهبة»، لكنه يشعر بالتبرّم من أن يستطيع رجل غني، رفيع المنزلة، وكونتٌ فوق ذلك، (إنهم يكرهون ذلك كله، كما تعلم) بدون عمل مفرط أن يجيد الرسم مثله، بل أكثر منه. في حين أنه يَقف عليه كل حياته. الشيء الجوهري هو الثقافة، وميخايلوف عديم الثقافة.

دافع فرونسكي عن ميخايلوف، لكنه كان، في قرارة نفسه، من هذا الرأي، لأن ابن الطبقة الدنيا، في رأيه، لا بدَّ أن يكون حسوداً.

إن صورتي آنا، الصورة التي رسمها هو نفسه والصورة التي رسمها الفنان كانتا حريتين أن تُرياه الفرق بينه وبين ميخايلوف، لكنه لم يكن يرى. بيد أن توقف عن صورته، بعد ميخايلوف، مصرحاً بأنها غير ضرورية. وظل يعمل في لوحته حتى استلهمها العصر الوسيط. وكان يجد هذه اللوحة، كما كان يجدها غولينيتشيف وآنا، بالغة الجمال لأنها تشبه اللوحات الشهيرة أكثر مما تشبهها لوحات ميخايلوف.

أما ميخايلوف فقد كان أعظم سروراً منهم عندما انتهت الجلسات، وعندما استغنى عن سماع تعليقات غولينيتشيف على الفن، وعندما استطاع أن ينسى رسم فرونسكي، هذا مع أن صورة آنا قد أثارت اهتمامه كثيراً. كان يعلم أنه لا يستطيع منع فرونسكي من التسلي، وكان يعلم أيضاً أن لفرونسكي الحق، شأنه شأن جميع الهواة، أن يرسم ما يحلو له، لكن ذلك كان يسوءه. فنحن لا نستطيع أن نمنع

Tele: @Arab_Books

إنساناً من جَبْلَ لعبة كبيرة من الشمع ومن تقبيلها. لكن هذا الرجل لو جاء بلعبته وجلس أمام العاشقين وأخذ يداعبها كما يداعب العاشقون معشوقاتهم، لساء العاشقين ذلك. كان ميخايلوف يحسّ بمثل هذا الإحساس أمام رسم فرونسكي: كان يجد ذلك مُضحكاً، مثيراً، جديراً بالرثاء، ومهيناً.

لم يدم طويلاً ولعْ فرونسكي بالرسم وبالعصر الوسيط. كان يملك ما يكفي من الحس الفني لكي لا يُتمّ لوحته. فظلت اللوحة إذن ناقصة. وأحس فرونسكي أن عيوبها، وهي قليلة الظهور في البداية، ستكون مذهلة لو استمر فيها. كان شأنه كشأن غولينيتشيف الذي أحس أن ليس لديه ما يقوله فأخذ يخدع نفسه قائلاً لها: إن فكره لم يبلغ بعد درجة كافية من النضج، وأنه ينبغي أن يسعى إلى استكماله وهو يجمع موادّه. لكن ذلك كان يغيظ غولينيتشيف ويعذّبه، بينما كان فرونسكي عاجزاً عن خداع نفسه وتعذيبها والشعور بالحنق عليها. وكف عن الرسم، بما في طبعه من حزم، دون تعليل، ولا تبرير لنفسه.

لكن حياته وحياة آنا التي أدهشها انصرافه عما افتتن به بدت لهما، بعد أن خلتْ من هذا الشاغل، تافهة في هذه المدينة الإيطالية الصغيرة؛ وفجأة بدا له «القصر» وسخاً، خرباً؛ واتخذت بقع الستائر، وشقوق الأرضية الخشبية، والأفاريز المقشّرة، مظهراً منفّراً؛ وأصبح غولينيتشيف الملازم لهما، والأستاذ الإيطالي، والمسافر الألماني مضجرين، على نحو لا يُطاق: كان لا بدَّ لهما من تغيير حياتهم. فقررا العودة إلى روسيا للسكن هناك، في الريف.

Tele: @Arab_Books

وفي بطرسبرج، كان فرونسكي ينوي أن يشرع هو وأخوه في تقسيم أملاكهما، وكانت آنا مشتاقة إلى ابنها. وأزمعا أن يقضيا الصيف في أرض واسعة لفرونسكي.

Tele: @Arab_Books

-١٤-

مضت ثلاثة أشهر على زواج ليفين. كان سعيداً، لكن على نحو مختلف عما تصور. ولدى كل خطوة، كان يُصاب بانحسار السحر، لكنه كان يلقى أيضاً فنوناً من السحر لم يتوقعها. كان سعيداً لكنه كان كلما أوغل في الحياة الزوجية رأى أن سعادته لم تكن كما تصور. كان يُعاني ما يعانيه امرؤ أعجب بمسيرة الزورق السهلة، الرخية، في بحيرة؛ فلما استقر فيه بدوره رأى أنه لا يكفي أن يظل جالساً وممتنعاً عن الحركات الخاطئة: ولا بدَّ له من ملاحظة القيادة دون أن يغفلها لحظة واحدة، ومن التفكير في الماء تحت قدميه، ومن التجديف، وهذا موئ لم لأيدٍ غير مجرّبة. إن تأمّل هذه الملاحة شيء سهل؛ أما قيادتها فربما كانت ممتعة، لكنها صعبة جداً.

عندما كان عزباً، كان يكتفي بابتسامة الازدراء، في أعماقه، من مشهد حياة الآخرين الزوجية، من همومهم السخيفة، وخصوماتهم وحسدهم. وكان مقتنعاً أنه لا يمكن أن يحدث شيء مشابه، في بيته، بل إن المظاهر نفسها ستكون مختلفة. وها هي ذي حياته مع زوجته لا تخلو فقط مما هو طريف، بل إنها، على العكس، كانت مصنوعة من هذه الصغائر التي طالما احتقرها والتي اتخذت الآن، بالرغم من

Tele: @Arab_Books

إرادته، أهمية محققة، لم يعهدها من قبل، ورأى ليفين أن التغلب على هذه الصغائر ليس بالسهولة التي اعتقدها أول الأمر. ومع أنه كان يعتقد أنه كوّن فكرة دقيقة عن الزواج، فقد كان يأمل، شأنه شأن جميع الرجال، ألا يجد فيه سوى متع الحب دون أية عقبة، ودون أية تفاصيل مثيرة. كان ينبغي له، في رأيه، أن يتابع عمله وأن يستريح بجنبها، في سعادة الحب. وكان ينبغي لها أن تقنع بحبه لها. لكنه نسي، شأنه شأن جميع الرجال، أن عليها أيضاً مهمة يجب أن تقوم بها. لقد أدهشه أن تُفكرّ كيتي، هذه الرقيقة والساحرة، منذ الأيام الأولى في حياتهما الزوجية، بالأغطية والأثاث والفرش والطاهي والطاولة، الخ... ومنذ خطوبتهما أذهلته بالوضوح الذي رفضتْ به السفر إلى الخارج، وقررت به الذهاب إلى الريف، كأنها كانت تعلم ما يناسبهما، وكأنما كان يمكنها أن تفكّر في شيء آخر غير الحب. لقد جرحه ذلك من قبل، وهو الآن يحس بالإهانة من جرّاء هذا النشاط الحقير الذي تبذله. لكنه كان يرى أنها لا تستطيع أن تفعل غير ذلك. وبما أنه كان يحبّها فلم يكن بوسعه الامتناع عن الإعجاب بها مع السخرية منها كلما لاحت المناسبة، ودون أن يفهم أسباب سلوكها. كان يضحك حين يراها توزّع الأثاث المجلوب من موسكو، وتغير تأثيث غرفتيهما، وتعلّق الستائر وتهيئ غرفاً لأصدقائهما ولدولي، وتوجه خادمتها الجديدة والطاهي العجوز، وتدخل في نقاش مع آغات ميخايلوفنا، وتسحب منها مهمة الإشراف على المؤن. كان يرى الطاهي العجوز يبتسم وهو يتلقّى أوامر حكمتْ بها نزوتها ولا سبيل إلى تنفيذها؛ كان يرى آغات ميخايلوفنا تهز رأسها بوجه ينم على الحب والتفكير أمام الترتيبات الجديدة التي تفعلها سيدتها الشابة؛

Tele: @Arab_Books

وكان يجد كيتي فائقة الروعة عندما تأتي نصف ضاحكة، ونصف باكية لأن «ماشا» ما زالت تعتبرها فتاة صغيرة، ولأن أحداً لا يحملها على محمل الجد. كان كل ذلك ساحراً وغريباً وكان يفكر أنه كان في غنى عن ذلك.

لم يتنبأ بالتغير الذي تعانيه: كانت إذا اشتهت، عند أهلها، الملفوف بالخمر، أو الملبّس، عجزت عن الحصول عليهما، أما الآن فهي حرة أن تأمر بما تشاء، وأن تشتري جبالاً من الملبس والحلوى، وأن تنفق المال على هواها.

كانت تحلم الآن، وهي فرحة، بوصول دولي والأولاد: سوف تصنع لكل واحد من الأولاد الحلوى التي يفضّلها، وستعجب دولي بمسكنها الجديد. لم تكن هي نفسها تعلم لماذا، لكن مفردات المنزل كانت تشدها شداً لا يُقهر. وإذ أحست إحساساً غريزياً بمقدم الربيع، وعلمت أن أياماً عابسة ستأتي أيضاً، أخذت تبني عشها كما تستطيع، وتستعجل في البناء وفي تعلّم طريقة العمل.

هذه الاهتمامات المسكينة من جانب كيتي، المناقضة جداً للمثل الأعلى من السعادة السامية التي يحلم بها ليفين، كانت انحساراً لفتنة السحر: وهذا النشاط نفسه الذي غاب عنه معناه والذي لم يكن يستطيع أن يراه دون استمتاع، كان سحراً جديداً.

الخصام بينهما كان أيضاً انقشاعاً للأوهام وسحراً. فلم يتصور ليفين قط أنه يمكن أن تقوم بينه وبين امرأته علاقات غير علاقات الحنان والاحترام والمودة، بيد أنهما تخاصما منذ الأيام الأولى. فقد

Tele: @Arab_Books

أعلنت له أنه لم يكن يُحبها، و لم يكن يُحب غير نفسه، وانفجرت باكية وندّت عنها حركات دالة على اليأس.

وقع أول شجار بينهما على إثر جولة قام بها ليفين في مزرعة جديدة: فقد تأخر نصف ساعة لأنه أراد أن يسلك طريقاً مختصراً فضلَّ سبيله. وعاد إلى بيته، وهو لا يفكّر إلا فيها وفي حبه، وسعادته؛ وكان كلما اقترب زاد التهاب شوقه إليها. وصعد إلى غرفتها وهو يركض، يحدوه شعوراً أعنف من الشعور الذي حركه عندما ذهب إلى منزل آل تشرباتزكي ليطلب يدها. وإذا بها تلقاه بوجه كالح لم يرها بمثله قط. وأراد أن يعانقها فدفعته عنها.

– ما بكِ؟

فبدأت تقول وهي ترغب في أن تظهر سخريتها الباردة:

– هذا يسرّك...

لكنها ما إن فتحت فمها حتى انفجرت تلك الغيرة الرعناء باللوم، وهي غيرة عذّبتها طوال نصف ساعة قضتها جالسة تنتظره على حافة النافذة. حينئذ فقط أدرك ما لم يستشفه إلا استشفافاً عندما خرجا معاً من الكنيسة بعد الاحتفال. لقد أدرك أنها لم تكن قريبة منه فحسب، بل إنه لم يكن يعلم أين تنتهي وأين يبدأ. أدرك ذلك من الشعور بالازدواج الذي عاناه في هذه الدقيقة. لقد جُرح في أول الأمر لكنه أحس في اللحظة نفسها أنه لا يجوز له أن يُجرح من جرّائها لأنها غدت جزءاً منه. لقد كابد، في الدقيقة الأولى، شعوراً شبيهاً بالشعور

Tele: @Arab_Books

الذي يكابده امرؤ أصابته ضربة قوية في ظهره، فالتفت بغضب وهو يتهيأ للانتقام، فإذا به يشاهد أنه اصطدم سهواً، وأنه لا يحق له أن يلوم أحداً، وأن عليه أن يتحمّل ألمه.

لم يحس ذلك فيما بعد بمثل هذه القوة، لكنه، في هذه المرة الأولى، تأخّر حتى تمالك نفسه. وكان الشعور الطبيعي يأمره أن يُبرّئ نفسه، أن يظهر لها خطأها، لكن ذلك كان قميناً بأن يزيد من غبطها وأن يُفاقم خلافهما. وهو سبب الشقاء كله. كان الشعور الطبيعي يأمره أن يتبرأ من الخطأ وأن ينسبه إليها؛ لكن شعوراً أقوى كان يأمره أن يُهدّئ الخلاف بأسرع وقت ممكن لكي لا يتيح له فرصة يتفاقم فيها. كان بقاؤه مُثقلاً بمثل هذه التهمة شيئاً معذباً، لكن إيذاءها بتبرئته لنفسه كان أسوأ.

كان كرجل نَهشه الألم، وهو بين اليقظة والنوم، فأراد أن ينتزع الشطر المريض، لكنه عندما صحا أبصر أن الشطر المريض هو نفسه. كان لا بدَّ له من أن يحاول وسعه الصبر على الألم، وهذا ما فعله.

تصالحا. وشعرت بغلطتها وإن لم تشأ الإقرار بها. فبدت أكثر حناناً إزاءه، تضاعف حبهما. لكن ذلك لم يمنع هذه الاصطدامات من أن تتكرر كثيراً، بأوهى الحجج وأتفه الذرائع. كانت هذه الاصطدامات تحدث في الغالب لأنهما لم يكونا يعلمان بعد ما المهم عند كل منهما، ولأنهما كانا، في هذه الفترة الأولى، متكدّري المزاج باستمرار. فإذا كان أحدهما مبسوطاً والآخر متكدّراً، لم يتعرض الصلح للخطر، أما إذا كانا كلاهما متكدرين حدثت الاصطدامات بذرائع واهية

Tele: @Arab_Books

وتافهة إلى حدٍّ لا يمكنهما بعده أن يتذكّرا سبب خلافهما. والحقيقة أن فرحهما كان يتضاعف وهما مبسوطان. لكن هذه الفترة الأولى كانت شاقة عليهما بالرغم من كل شيء.

أثناء هذه الحقبة، كان بينهما شدٌّ، وكأن كلاًّ منهما يسحب إلى جهته السلسلة التي تربطهما. إن شهر العسل هذا الذي كان ينتظر منه ليفين الكثير، كما هو متعارف، لم يكن شهراً من العسل وإنما ظل في ذاكرتهما كليهما باعتباره أشق فترات حياتهما وأشدها هواناً. ولقد بذلا وسعهما، فيما بعد، أن يطرحا من ذاكرتهما الحوادث المخجلة والمضحكة من هذه الفترة غير الصحية التي قلّما وجدا نفسيهما فيها في حالة عادية.

وإنما صارت حياتهما أقل تعثراً في الشهر الثالث من حياتهما المشتركة، بعد عودتهما من موسكو حيث ذهبا ليقضيا شهراً فيها.

Tele: @Arab_Books

-١٥-

وصلا من موسكو قبل فترة وجيزة، وكانا سعيدين بوحدتهما. كان أمام مكتبه يكتب، وقد ارتدت كيتي ثوباً ليلكياً قاتماً كان زوجها يحبه لأنها لبسته في الأيام الأولى التي تلت زواجهما، وجلست على مقعد، نفس المقعد الجلدي العتيق الذي كان في مكتب جد ليفين وأبيه، وأخذت تشتغل «بالتطريز الإنكليزي». كان يفكّر ويكتب، وهو سعيد إذا يحس بحضورها. لم يترك لا أملاكه ولا الكتاب الذي ستُعرض فيه أسس اقتصاد ريفي جديد. وكما بدت له هذه المشاغل قديماً هزيلة بالقياس إلى الظلمات التي كانت تغطي حياته، بدت له الآن هزيلة وتافهة بالقياس إلى النور الباهر الذي غمر وجوده. سوف يتابع أعماله لكنه أخذ يحس الآن أن مركز ثقل انتباهه قد انتقل، وأنه، من ثم، سينظر إلى نشاطه بطريقة أخرى، وبوضوح أكبر. كان هذا النشاط عنده قديماً دفّة النجاة الوحيدة، أما اليوم فكان لا بدَّ له منه لكي لا تكون حياته مفرطة الإشعاع وعلى نحو متشابه. وعندما رجع إلى أوراقه وأعاد قراءة ما كتب من قبل، اكتشف بسرور أن هذا العمل يستحق أن يُتابع وبدا له الكثير من أفكاره القديمة لغواً ومبالغاً فيه، لكن الكثير من الثغرات، بالمقابل، سُدَّت عندما راجع المسألة في ذاكرته.

Tele: @Arab_Books

كان يكتب الآن فصلاً جديدا عن أسباب وضع الزراعة المؤقت في روسيا، وكان يدلل على أن الفقر في روسيا لا يعود فقط إلى توزيع الملكيات الظالم وإلى الإدارة الخاطئة، بل وأيضاً إلى الإدخال الاصطناعي للحضارة الأوروبية، ولا سيما طرق المواصلات، والطرق الحديدية التي أدت إلى التمركز في المدن، وإلى نمو الترف، ومن ثم، إلى نمو الصناعة، والقرض ومعه المضاربة، على حساب الزراعة، وبرأيه أن النمو الطبيعي للثروة في بلد ما لا يترافق وهذه الأحداث إلا عندما تبلغ الزراعة نمواً نسبياً.

وبينما كان يكتب، كانت كيتي تفكر فيما أبداه زوجها من اهتمام غير عادي بالأمير الشاب «تشارسكي» الذي غازلها بغير تحفّظ عشية سفرهما. قالت في نفسها: «إنه يغار. يا إلهي! ما ألطفه وما أغباه! إنه يغار! ليته يعلم أن جميع الرجال لا يقعون من نفسي موقعاً أفضل من موقع الطاهي «بطرس» فكّرت في ذلك وهي تنظر إلى قذاله وعنقه الحمراء، بشعور من الملكية غريب عليها. وقالت في نفسها «مع أن المؤسف أن أقطع عليه مشاغله (وفي الوقت مهلة!) إلا أنني يجب أن أرى وجهه. أحس أنني أتطلع إليه؛ أريد أن يلتفت... أريد ذلك الآن!» وفتحت عينيها محملقة فيه، آملة بذلك أن تزيد من قدرتهما. همهم وهو يتوقف عن الكتابة وقد شعر أنها كانت تنظر إليه:

– نعم، إنها تستأثر بالنسغ كله، وتبعث ببريق كاذب.

والتفت وهو يبتسم، وسألها وهو يبتسم وينهض:

– ما بكِ؟

Tele: @Arab_Books

وفكّرت في نفسها: «لقد التفت»، وقالت وهي تنظر إليه وتحاول أن تكشف إن كان قد استاء حين قطعته عن عمله:

– لاشيء، كنت أريد أن تلتفت.

قال وهو يدنو منها ويشعّ سعادة:

– ما أسعدنا هكذا، نحن الاثنين! أنا على الأقل.

– وأنا! لا أريد أن أذهب إلى أي مكان آخر، ولا إلى موسكو، على وجه الخصوص.

– فيمَ كنتِ تفكرين؟

– أنا؟ كنت أفكر في...

وقالت وهي مبرطمة:

– لا، لا، عد إلى الكتابة، ولا تَلْتهِ عنها. يجب أن أقص هذه الثقوب الصغيرة، أترى؟

وتناولت مقصها وأخذت تقص القماش.

قال لها وهو يجلس بجنبها ويتأمل الحركة الدائرية بمقصّها الصغير:

– لا، قولي لي فيمَ كنت تفكّرين؟

– آه! نعم. كنتُ أفكر في موسكو، في قذالك.

Tele: @Arab_Books

فقال وهو يلثم يدها:

– لَمَ أنا سعيد إلى هذا الحد؟ ليس هذا طبيعياً. ذلك مُفرط الجمال.

– أنا، على العكس، أجد أن الأمور كلما ازدادت حسناً غدت طبيعية أكثر.

قال وهو يدير رأسها بحذر:

– إن لكِ خصلة صغيرة، هنا.

– دعْ ذلك، إننا نهتم بأشياء جدية.

لكن الأشياء الجدية تُركت، وافترقا فجأة كالمذنبين عندما دخل «كوزما» ليعلن أن الشاي جاهز. فسأله ليفين:

– هل جاء أحد من المدينة!؟

– جاء حامل البريد، في هذه اللحظة، وهو يصنف البريد.

قالت له وهي تترك المكتب:

– أسرعْ، وإلا قرأتُ الرسائل بدونك.

عندما ظلّ ليفين وحده، رتّب أوراقه في نشافة جديدة اشترتها له امرأته، ثم غسل يديه في مغسلة جديدة، مجهّزة بجميع لوازمها، وهي أيضاً من عند كيتي. كان يتبسم لأفكاره ويهزّ رأسه هزّة الاستنكار؛ لقد أخذ يعذّبه شعور قريب من الندم. ففي حياته الحاضرة شيء من الرخاوة (التي أخذ يستحي منها. وخطر بباله انهماك جنود «هانيبال» في

Tele: @Arab_Books

ملذات «كابو»). وقال في نفسه: «ليس حسناً أن يعيش المرء كذلك». ها قد مضت ثلاثة أشهر و لم أفعل شيئاً. هذه أول مرة تقريباً أستأنف العمل، وقد أقلعتُ عنه على الفور بعد أن بدأتُه. بل إني هجرت تقريباً جميع مشاغلي المعتادة. لقد تركتُ الإشراف على أملاكي. فأنا آسف على فراق زوجتي تارة، وتارة أخرى أخاف أن ينتابها الضجر. وأنا الذي كان يفكر أن الحياة لا تُعدُّ حياة حتى الزواج، وأنها لا تبدأ حقاً إلا بعده! ها قد مضت ثلاثة أشهر، و لم أقضِ قط وقتي في مثل هذا الفراغ. لا، هذا مستحيل، ويجب أن أبدأ. بالطبع، ليست الغلطة غلطتها. ولا نستطيع أن نلومها على شيء. أنا الذي ينبغي لي أن أكون صلباً، وأن أدافع عن استقلالي... بالطبع، ليست الغلطة غلطتها».

لكن من الصعب على رجل مستاء ألا يلوم غيره، ولا سيما أقرباءه، على ما هو مستاء منه. ولذلك أخذ ليفين يفكر تفكيراً مشوشاً بأنها ليست هي المذنبة (لا يمكن أن تكون هي مذنبة في شيء)، وإنما تربيتها المفرطة السطحية والتفاهة هي المذنبة (هذا الأحمق تشارسكي، أعلم أنها أرادت أن توقفه عند حده، لكنها لم تحسن). «نعم، ليس لها اهتمامات جدية وراء المنزل، وزينتها، «والتطريز الإنكليزي». فليس يعنيها لا عملي، ولا الأملاك، ولا الفلاحين، ولا الموسيقا مع أنها مارستها كثيراً، ولا القراءة. إنها لا تفعل شيئاً وهي راضية كل الرضا». وليفين، بحكمه هذا، لم يفهم بعد أن كيتي تتهيأ لمرحلة من النشاط ستكون فيها زوجة وربة بيت وأماً ومرضعاً ومربية، في آن واحد. لم يكن يفهم أنها تعلم ذلك بغريزتها، وأنها كانت تمنح نفسها، وهي تتهيأ لهذه المهمة الرهيبة، بضع دقائق من اللامبالاة والسعادة تبني فيها بفرح عشها المقبل.

Tele: @Arab_Books

-١٦-

صعد ليفين إلى الطابق الأول. حيث وجد زوجته جالسة قرب السماور وطقم الشاي المتوهج، الجديد. لقد أجلست العجوز آغات ميخايلوفنا عند المنضدة مع كأس من الشاي، وأخذت تقرأ رسالة من دولي التي كانت تراسلها باستمرار.

قالت آغات ميخايلوفنا لليفين بابتسامة ودّية:

– أترى، لقد أجلستني زوجتك بقربها.

في هذه الكلمات قرأ ليفين حلاً للقصة التي طرأت في هذه الآونة الأخيرة بين آغات ميخايلوفنا وكيتي. رأى أن كيتي المنتصرة، بالرغم من الغم الذي سببته للخادمة العجوز حين سحبت منها شوؤن الإدارة، استطاعت أن تحببها بذاتها.

قالت كيتي وهي تمد إليه رسالة رديئة الخط:

– فتحت هذه الرسالة الموجهة إليك. إنها من امرأة أخيك، فيما أعتقد... ولم أقرأها. وأنا تلقيت رسالة من أهلي، وأخرى من دولي. تصور أن دولي اصطحبت «غريشا» و«تانيا» إلى حفلة راقصة للأطفال عند آل سارماتسكي! وكانت تانيا بثياب المركيزة.

Tele: @Arab_Books

لكن ليفين لم يكن يصغي إليها: لقد تناول وهو يحمر رسالة ماري نيكولايفنا، عشيقة أخيه القديمة، وأخذ يقرؤها. كانت هذه هي الرسالة الثانية التي يتلقاها منها. في الرسالة الأولى، كتبت ماري نيكولاييفنا تقول: إن أخاه طردها مع أنها بريئة، وأضافت، بسذاجة مؤثّرة، أنها لا تطلب شيئاً، وإن كانت في فاقة، لكنها تتألم لكون نيقولا دميتريفتش ستُضنيه العلة، نظراً إلى ضعفه، وتطلب من أخيه ألا يغفل عنه. وكتبت اليوم تقول: إنها لقيت نيقولا دميتريفتش، وأنهما استأنفا حياتهما المشتركة في موسكو، وأنهما كانا قد سافرا إلى مدينة من مدن المقاطعة حيث عُين في وظيفة إدارية. وهناك تخاصم مع رئيسه فعاد إلى موسكو. لكنه مرض في الطريق مرضاً شديداً حتى إنها تشك في شفائه منه. «وهو دائم الحديث عنك و لم يبق معه مال».

استأنفت كيتي كلامها وهي تبتسم:

– انظر، إن دولي تتحدث عنك.

لكنها توقّفت فجأة عندما لاحظت تبدّل ملامح زوجها:

– ما الأمر؟ ماذا جرى لك؟

– إنها تكتب أن أخي مشرف على الموت. وسأسافر لأكون بجنبه.

تغير وجه كيتي رأساً. واختفت من ذهنها تانيا بثياب المركيزة ودولي، وقالت:

– متى؟

Tele: @Arab_Books

- غداً.

- أأستطيع الذهاب معك؟

قال لها بلهجة الملامة:

- كيتي، قولي لي، فيمَ تفكرين؟

فأجابت، وقد جَرحها أن ترى عَرْضَها يُقابَل بالتبرم والضيق:

- فيمَ أفكر؟ ولِمَ لا أذهب؟ لن أضايقك في شيء. وأنا...

قال ليفين:

- إنني ذاهب إلى موسكو لأن أخي يحتضر. وأنتِ لماذا...

- لماذا؟ للسبب نفسه الذي حملك على الذهاب.

فكّر في نفسه: «حتى في مثل هذه اللحظة الحرجة، إنها لا تفكر إلا في الضجر الذي سيصيبها وهي وحدها». وغاظه أن تختلق الأعذار في مثل هذه المناسبة الحرجة، وقال بقسوة:

- هذا مستحيل.

وعندما رأت آغات ميخايلوفنا أنهما سيتخاصمان وضعت كأسها برفق وخرجت. ولم تفطن كيتي إلى ذلك. فاللهجة التي قال بها زوجها هذه الكلمات الأخيرة قد جرحتها جرحاً شديداً ولا سيما لأنه لم يصدق، كما يبدو، ما قالته له.

Tele: @Arab_Books

فردت عليه بعجلة وبغضب:

– وأنا أقول لك: إنك إن ذهبتَ ذهبتُ معك لا محالة. ولِمَ يكون ذلك مستحيلاً؟ لِمَ تقول إنه مستحيل؟

قال ليفين وهو يحاول أن يحتفظ بهدوئه:

– لأننا سنسافر على طرقٍ رديئة، لا يعلمها إلا الله، وسننزل في فنادق... ستضايقينني.

– أبداً. لست بحاجة إلى شيء. فحيث تستطيع أن تذهب. أستطيع أن أذهب أيضاً...

– على الأقل، بسبب المرأة التي لا يجوز لك أن تخالطيها.

– لا أعلم شيئاً ولا أريد أن أعلم شيئاً. ما أعلمه هو أن أخا زوجي يموت وأن زوجي ذاهب إليه، وسأصحبه لكي...

– كيتي! لا تغضبي. لكن فكّري. الوضع حرج إلى الحد الذي يؤلمني فيه أن أراك تمزجينه بشعور من الضعف، بالخوف من أن تظلّي وحدك. اذهبي إلى موسكو إن كنت تضجرين.

فردّت عليه، ودموع الغضب تهمي:

– كذلك أنت، تنسب إلي دائماً أفكاراً رديئة وسوقية. ليس ما بي ضعفاً. أحس أن من واجبي أن أكون قرب زوجي في الضرّاء، لكنك تؤذيني عن قصد، وتتعمد ألا تفهمني...

Tele: @Arab_Books

فصاح ليفين وهو ينهض وقد عجز عن كبح نفسه أطول من ذلك:

– آه! إنه لشيء فظيع أن يصير المرء عبداً إلى هذا الحد!

لكنه أحس، في اللحظة نفسها، أن هذه الطعنة موجهة إليه نفسه.

فقالت:

– لمَ تزوّجت إذن؟ كنتَ ستبقى حراً. لمَ تزوجت، إذا كنتَ نادماً منذ الآن على الزواج؟

ونهضتْ فجأة وفرّت إلى قاعة الاستقبال.

وعندما لحق بها كان النحيب قد خنقها.

وبدأ يتكلم، وهو يسعى إلى العثور على الكلمات التي يمكن أن تهدئها على الأقل، إن لم تثنها عما هي فيه. لكنها لم تُصغ إليه ولم توافق على شيء. فانحنى عليها وأمسك بإحدى يديها فأبت أن تعطيه إياها وقبّل يدها وشعرها، ثم قبّل يدها أيضاً... وأخلدت إلى الصمت. لكنه عندما أمسك بوجهها بين يديه وقال لها: «كيتي»، تمالكت نفسها فجأة، وبكت قليلاً وتصالحا.

قررا الذهاب معاً، في اليوم التالي. وقال ليفين لزوجته: إنه يعتقد أنها ترغب في مرافقته من أجل تقديم خدماتها، ووافق على أن وجود ماري نيكولاييفنا قرب أخيه ليس فيه ما لا يليق؛ لكنه سافر، وهو في أعماق قلبه، غير راض عنها وعن نفسه. كان غير راض عنها لأنها لم تستطع أن تدع له حرية الذهاب في حين كان ذلك ضرورياً (وبدا له

Tele: @Arab_Books

غريباً أنه ما كان يجرؤ على الاعتقاد، قبل وقت قريب، بأنها يمكن أن تحبه، وهو الآن يحسّ بالشقاء لأنها تحبّه حباً مفرطاً!)؛ وكان غير راضٍ عن نفسه لأنه لم يُبدِ الحزم الكافي. لكنه كان يخشى، على الخصوص، ذلك التقارب بين كيتي وهذه المرأة التي تعيش مع أخيه، وكان يفكر برعب في جميع الاصطدامات التي قد تحدث، كان يرتعش من الهول والاشمئزاز لهذه الفكرة وحدها وهي: أن امرأته، أن كيتي، ستُوجد في غرفة واحدة هي وإحدى بنات الهوى.

Tele: @Arab_Books

-١٧-

كان فندق مركز القضاء، الفندق الذي يحتضر فيه نيقولا ليفين، أحد فنادق المقاطعات المزوّدة بالتجهيزات المتقنة والحديثة، مع تطلّعات إلى النظافة والراحة، بل وإلى الأناقة، لكن روّاده سرعان ما يحوّلونه إلى حانات قذرة ومدّعية، وهذا الادعاء يجعلها أسوأ عشر مرات من الفنادق القديمة والبسيطة التي نرضى بأن تكون وسخة فقط. وصل هذا الفندق إذن إلى هذه الحالة: فالجندي الذي يرتدي بزة بالية ويدخّن سيجارة في البهو باعتباره يقوم بوظيفة البوّاب، والدرج المعدني المخرّم والمعتم، والخادم الرث الهيئة الذي تغطّت ثيابه بالبقع، والقاعة المشتركة، بباقات زهورها الشمعية، المكسوّة بالغبار، التي تزيّن الموائد، والوسخ، والقذارة، وهذا النوع من الادعـاء الذي شاع منذ تطوّر الخطوط الحديدية، كل ذلك ترك في ليفين، بعد حياته الزوجية الحديثة العهد، أثراً مؤلماً، ولا سيما أن هذا الانطباع الزائف لا يتّفق مع ما كان ينتظرهما.

وكما هي القاعدة في مثل هذه الحالة، فإنهما لم يجدا غرفة حسنة، خالية، مناسبة لطلبهما: فهذه الغرفة يشغلها مفتش الخطوط الحديدية، وتلك يشغلها محام من موسكو، وثالثة تشغلها الأميرة آستافييف الآتية من الريف. ولم يُعطيا سوى غرفة وسخة، مع وعد بأن تُخلى الغرفة

Tele: @Arab_Books

المجاورة في هذا المساء. قاد ليفين زوجته إلى الغرفة المخصصة لهما، وهو حانق لأنه رأى توقعاته تتحقق، ولأن عليه أن يشغل باله بامرأته منذ وصولها، في حين كان قلبه ينقبض عند التفكير بأخيه الذي ودّ لو يطير في الحال إليه.

قالت له وهي ترميه بنظرة وجلةٍ ومذنبة:

– امض! امضِ!

خرج دون أن يفوه بكلمة، وسرعان ما اصطدم بماري نيكولايفنا التي علمت بوصوله و لم تجرؤ على الدخول. كانت تماماً كما رآها في موسكو: نفس الثوب الصوفي الذي يكشف عن ذراعيها وعنقها، نفس الوجه المجدور، البليد، الساذج، والمنتفخ قليلاً.

– ماذا؟ كيف حاله؟

– سيئة جداً. إنه لا يغادر فراشه. وهو ينتظرك بفارغ الصبر. وهو... أنتَ... أنت مع زوجتك؟

لم يُدركْ ليفين رأساً ما الذي جعلها تضطرب، لكنها سرعان ما بيّنت السبب. قالت:

– سأنصرف، سأذهب إلى المطبخ. إنه يعرفها. وهو يتذكّر أنه رآها في الخارج.

أدرك ليفين أنها تتحدث عن امرأته لكنه لم يدرِ كيف يجيب. وقال:

Tele: @Arab_Books

- هيا، هيا!

لكنه ما كاد يخطو خطوة حتى فُتح باب غرفته وظهرتْ كيتي. وعلتْ الحمرة ليفين من الارتباك والحنق عندما رأى امرأته تلجئهما إلى مثل هذا الوضع المحرج. لكن ماري نيكولاييفنا كانت أشد حمرة منه. انكمشت على نفسها، وهمت الدموع من عينيها، وقد أمسكت بيديها طرفي خمارها وأخذت تفتلها بأصابعها الحمراء وهي لا تدري ماذا تقول وماذا تفعل.

وفي مدى طرفة عين، رأى ليفين تعبيراً عن الفضول المتعطّش في النظرة التي ألقتها كيتي على هذه المرأة، تعبيراً لم يفهمه، لكنه لم يدم سوى طرفة عين.

قالت وهي تلتفت إلى زوجها، ثم إلى المرأة:

- وكيف حاله؟

قال ليفين وهو يلقي نظرة غضبى على سيد قلق المشية، كان يمر في هذه اللحظة:

- لا يمكننا الكلام في الممر!

قالت كيتي لماري نيكولاييفنا التي تخلّصت من انفعالها:

- طيب! ادخلي.

واستدركت وهي ترى وجه زوجها المروَّع:

Tele: @Arab_Books

– أو بالأحرى، اذهبي ثم ابعثي في طلبي.

ودخلت غرفتها، واتجه ليفين إلى غرفة أخيه.

ما كان يتوقّع البتة مثل هذا المشهد الذي ينتظره. تصوّر أنه سيجد أخاه في هذه الحالة من الشعور بالخفّة الذي يلاحظ غالباً – كما سمع– لدى المسلولين والذي أدهشه كثيراً أثناء زيارة أخيه له في الخريف. وقدّر أن دنو الموت يظهر في أعراض أشد وضوحاً، ضعف أشد وهزال أعظم، وأنه سيلقى أخاه في الوضع نفسه. توقّع أن يخالجه الأسف على فقد أخيه الحبيب، بدرجة أقوى، وأن يكابد أمام الموت تلك الرهبة التي أحسّ بها قديماً. لقد هيّأ نفسه لذلك؛ لكن ما وجده كان مختلفاً أشد اختلاف.

في غرفة صغيرة قذرة توسختْ جدرانها المدهونة بالبصاق، ولم يستطع حاجزها الرقيق أن يخنق ضجيج المناقشات، وقد نتّنت هواءها الأقذار، وعلى سرير أبعد عن الجدار، تمدد جسد مغطّى بغطاء. وعلى الغطاء حطّت يد عريضة كالممشاط، معلّقة على نحو غريب، بمغزل طويل، ودقيق في أوله مثلما هو دقيق في وسطه. أما الرأس فقد استند إلى الوسادة بجانب منه. ورأى ليفين شعراً نادراً، ألصقه العرق بالصدغين، وجبهة مرتفعة، وشفافة تقريباً.

فكّر ليفين: «أمن الممكن أن تكون هذه الجثة هي أخي نيقولا؟» لكنه دنا وشاهد الوجه، ولم يبق من مجال للشك. وبالرغم من تبدّل ملامحه المرعب، فقد كان يكفي ليفين أن ينظر إلى هاتين العينين المتوقّدتين المرفوعتين نحو القادم، وأن يلتقط حركة خفية من شفتيه

Tele: @Arab_Books

تحت شاربه المبلل بالعرق ليدرك الحقيقة المرعبة: هذه الجثة كانت حقاً أخاه.

عندما أمسك ليفين بيد أخيه، ابتسم له أخوه. كانت ابتسامة ضعيفة، لا تكاد تُلمَح، وظل تعبير العينين قاسياً، ونطق بمشقة:

– ما كنت تتوقع أن تراني هكذا.

قال ليفين وقد تلبّك في جملته:

– بلى... لا، لم تخبرني قبل الآن، عند زواجي؟ لقد فتشتُ عنك في كل مكان.

كان لا بدَّ من الكلام، من تفادي الصمت، ولم يكن يدري ماذا يقول، ولا سيما أن أخاه لم يكن يجيب، وكان يكتفي بالنظر إليه، دون أن يغضّ بصره: كان من الواضح أنه ينفذ إلى معنى كل كلمة. وأعلن ليفين لأخيه أن زوجته جاءت معه. فأبدى نيقولا رضاه لكنه قال: إنه يخشى أن يخيفها. وخيم الصمت. وفجأة أخذ نيقولا يضطرب وبدأ يتكلّم. وخيّل إلى ليفين، من تعبير وجهه، أنه سيُسرّ إليه بنبأ مهم جداً. لكن نيقولا تحدّث عن صحته. وشكا له طبيبه، وأسف لغياب شخصية طبية شهيرة من موسكو، فأدرك ليفين أن أخاه ما يزال يأمل بالشفاء.

استغل ليفين أول دقيقة من الصمت، فنهض وهو يحرص أن يتخلص، ولو للحظة، من شعور معذّب وقال إنه ذاهب ليأتي بامرأته.

قال المريض بصعوبة:

Tele: @Arab_Books

– طيب. سأطلب إلى ماشا أن تُنظّف الغرفة قليلاً. فهي وسخة ورائحتها غير حسنة، على ما أتصور. تعالي يا ماشا ورتّبيها.

وأضاف وهو ينظر إلى أخيه نظرة مستفهمة:

– واخرجي عندما تنتهين.

لم يجب ليفين بشيء. وحين بلغ الممر، توقف. لقد قال له إنه سيأتي بامرأته، لكنه عزم الآن، بعد أن انكشف له الشعور الذي يعانيه، أن يحاول ثنيها عن زيارة المريض. وفكّر: «ولماذا تتألم مثلي؟».

سألته كيتي بوجه مرتعب:

– ماذا؟ كيف حاله؟

قال ليفين:

– آه! هذا فظيع، فظيع! لماذا جئتِ؟

سكتت كيتي بضع لحظات. وهي تتأمل زوجها بنظرة وجلة، تعسة، ثم دنت منه وتعلّقت بعنقه، بكلتا يديها.

– كوستيا، خُذني إليه، سيكون ذلك أقل إيلاماً لنا نحن الاثنين.

وأضافت:

– خذني إلى هناك، أرجوك، ودَعنا. واعلم أن أسوأ من كل شيء عندي أن أراك ولا أراه.

Tele: @Arab_Books

وقالت بلهجة ضارعة، وكأن سعادتها تتوقف على هذا الطلب:

– اقبل، أرجوك.

اضطر ليفين إلى القبول، وعندما هدأ روُعه، رجع إلى أخيه مع كيتي؛ لقد نسي كلياً ماري نيكولاييفنا.

دخلت غرفة أخيه بخطوات خفيفة، ناظرة، في كل لحظة، إلى زوجها، مُبدية له وجهاً شجاعاً ومتفهّماً، وأغلقت الباب برفق، وهي تستدير ببطء. ثم دنت بسرعة وبلا ضجيج من فراش المريض، ووقفت بحيث لا تكلّفه إدارة رأسه، وأمسكت تحدّثه بحيوية، تحدوها تلك الموهبة الخاصة بالنساء في أن يُبدين عطفهن دون أن يجرحن.

قالت له:

– التقينا في «سورن»، لكننا لم نتعارف. ما كنتَ تتصوّر أنني سأكون زوجة أخيك.

فقال:

– ما كنتِ لتعرفيني؟

وكان وجهه قد استنار بابتسامة عند دخولها.

– أوه! بلى. أحسنتَ جداً حين دعوتنا! كان كوستيا قلقاً، وكان يحدثني عنك كل يوم.

لكن حيوية المريض لم تدمْ طويلاً. وقبل أن تنتهي من كلامها،

Tele: @Arab_Books

عاد إلى وجهه تعبيره الصارم الذي ينطق باللوم وبحسد المحتضر للحي.

قالت وهي تتخلص من نظرته الثابتة وتُجيل بصرها في الغرفة:

– أخشى ألا تكون مرتاحاً هنا.

وقالت لزوجها:

– يجب أن نطلب له غرفة أخرى بحيث يكون قريباً منا.

Tele: @Arab_Books

-١٨-

لم يكن بوسع ليفين أن ينظر إلى أخيه بهدوء، لم يكن بوسعه أن يظل طبيعياً وهادئاً بحضوره. وعندما كان يدخل على المريض كانت عيناه وانتباهه تتغشّى بغشاوة تمنعه من رؤية وضع أخيه. كان يتنشق رائحة كريهة، ويرى الوسخ والفوضى، ويسمع الأنين، ويحسّ أن ليس بوسعه أن يفعل شيئاً لتدارك هذا الوضع الفظيع. و لم يخطر بباله أن يفكر في تحليل تفاصيل هذا الوضع. أن يتساءل كيف يرقد هذا الجسم هنا، تحت هذا الغطاء، وما وضعُ هاتين الساقين الناحلتين، وتينك الكليتين، وهذا الظهر، وهل من الممكن العثور على حل أفضل. وكان يَسْري في ظهره إحساس من البرد إذا بدأ يفكر فيه. وكان مقتنعاً اقتناعاً ثابتاً أنه لا سبيل إلى إطالة عمر أخيه أو تخفيف آلامه. لكن شعوره بالعجز الكلّي كان يؤلمه ويحنقه. فيشتد ضيقه من جرّاء ذلك. وكان البقاء في غرفة المريض عذاباً بالنسبة إليه، لكن الامتناع عن الذهاب كان عذاباً أكبر. ولذلك كان يدخل ويخرج في كل لحظة، بأعذارٍ شتى، من غير أن يَقوى على البقاء وحده.

لكن كيتي كانت تفكّر وتحسّ وتعمل على نحو مختلف. لقد أيقظ منظر المريض شفقتها. و لم تولَد الشفقة في نفسها، في نفس المرأة ذلك

Tele: @Arab_Books

الإحساس بالهول والنفور الذي بعثته في نفس زوجها، وإنما ولَدت الحاجة إلى العمل، وإلى معرفة حالة المريض بكل تفاصيلها، ومحاولة نجدته. وبما أنها لم تشكّ لحظة واحدة بأن من واجبها أن تمد له يد المساعدة، فإنها لم تشك أيضاً بأن ذلك ممكن. ولذلك فسرعان ما عكفتْ على العمل. وهذه التفاصيل نفسها التي كان التفكير وحده بها يُغرق زوجها في الرعب، ما لبثت أن استرعت انتباهه. أرسلت تطلب طبيباً وتشتري دواء، وأمرت خادمتها التي رافقتها بأن تنفّض الغبار وأن تغسل، وغسلت هي نفسها، ومهّدت سرير المريض، وجلبت أشياء شتى. وقصدت إلى غرفته عدة مرات، دون أن تهتم بالناس الذين تصادفهم، وحملت الأغطية منها، ووجوه الوسائد والمناشف والقمصان.

وجاء الخادم الذي يقدّم للمهندسين عشاءهم، في القاعة العامة، عدة مرات، وهو بادي الغضب، بناء على دعوتها، ولم يستطع أن يتملّص من أوامرها لأنها كانت تلقيها بإصرار محبب إلى الحد الذي كان من المستحيل معه أن يُرفض لها طلب. وكان ليفين يستنكر ذلك كله. لم يكن يستطع أن يؤمن بأن ذلك كله قد يخرج منه ما يخفف أوجاع المريض. وكان يخشى بخاصة غضب أخيه. لكن المريض لم يغضب، وإن بدا غير مبال بهذه الأحداث الصغيرة. وكان يُظهر الارتباك فقط، ويبدو وكأنه يهتم بما تغمره به من عناية. وعندما عاد ليفين من عند الطبيب، وقد أرسلته كيتي ليأتي به، رأى، وهو يفتح الباب، ماري نيكولاييفنا والخادم يغيّران ثياب المريض، وكان ظهره الأبيض، الطويل عارياً بألواحه العريضة وأضلاعه وفقراته الناتئة، وقد تلبّكا بكمّي القميص ولم يستطيعا أن يدخلا فيهما ذراعي المريض

Tele: @Arab_Books

الطويلتين، الهامدتين. أغلقت كيتي الباب بسرعة وراء ليفين دون أن تنظر إلى الجهة الأخرى؛ لكن المريض أخذ يئن فاتجهت على الفور إليه، وقالت:

- عجّلا.

قال لها المريض بحنق:

- لا تقتربي. سأتدبّر الأمر بنفسي.

قالت ماري نيكولاييفنا:

- ماذا يقول؟

لكن كيتي سمعت وفهمت أنه يخجل من الظهور عارياً أمامها.

وقالت وهي توجّه يده:

- لن أنظر، لن أنظر.

وأضافت:

- ساعديه من الجهة الأخرى، يا ماري نيكولاييفنا.

واستأنفت مخاطبة زوجها:

- اذهبْ، أرجوك، وأخرج القمقم من حقيبتي، في الجيب الجانبي الصغير، وأْتني به؛ وفي هذه الأثناء، سننتهي من ترتيب الغرفة.

Tele: @Arab_Books

عندما عاد ليفين ومعه القمقم، وجدَ المريض ممدداً، وقد تغير كل شيء من حوله كلياً. فالرائحة الخانقة أخلتْ مكانها لرائحة الخل المعطّر التي نشرتها كيتي وهي تنفخ في أنبوب صغير، مادة شفتيها ونافخة خديها الورديين. وأزيل الغبار، وفُرِشت سجادة قرب السرير. وعلى الطاولة، صُفّت بعناية القماقم والدوارق ورزمة الغسيل وشغل كيتي من «التطريز الإنكليزي». وعلى طاولة أخرى كان، قرب سرير المريض، شراب وشمعة ومسحوق. وغُسل المريض نفسه ومُشط شعره، وبرز عنقه النحيل، على نحو غير معهود، من قبْة قميصه البيضاء، وتجلّى في عينيه اللتين لم يحوّلهما عن كيتي تعبير جديد من الأمل.

إن الطبيب الذي وجده ليفين في ناديه وجاء به لم يكن هو الذي يُعالج نيقولا، في العادة، والذي كان ليفين مستاء منه. لقد جسّ المريض، وهزّ رأسه، ووصف دواء، وشرح بالتفصيل كيف ينبغي أن يؤخذ الدواء، وما الحمية التي يجب التقيد بها. ونصح بتناول البيض النيء أو الذي لم ينضج، وبالماء المعدني مع الحليب الساخن بحرارة معينة. وعندما انصرف الطبيب، قال المريض شيئاً لأخيه، بيد أن ليفين لم يميّز سوى الكلمات الأخيرة: «زوجتك كاتيا»، لكن ليفين أدرك من النظرة التي ألقاها على زوجته، أنه أثنى عليها. ثم دعا كاتيا، وهكذا كان يدعوها.

وقال:

- إني أشعر بتحسن كبير. كنتُ سأشفى معك، منذ زمن بعيد. ما أحسن حالتي!

Tele: @Arab_Books

وأمسك بيدها، ورفعها إلى شفتيه، لكنه خشي أن يفعل ما تكرهه فغير رأيه، وخفض تلك اليد واكتفى بمداعبتها. وشدّت كيتي على يده بين يديها.

قال:

– الآن، أديروني على الجهة اليسرى، واذهبوا لتناموا.

كيتي وحدها فهمت ما قال. فهمت لأنها كانت لا تني تتساءل عما يحتاج إليه.

قالت لزوجها:

– على الجهة الأخرى. إنه ينام على هذه الجهة دائماً؛ أدرْه أنت نفسك. فمن المزعج أن ندعو الخادم. أنا لا أقدر.

وسألت ماري نيكولاييفنا:

– وأنتِ؟

أجابت هذه:

– أنا خائفة.

أياً كانت الرهبة التي خالجت ليفين من أن يمسك بين ذراعيه هذا الجسد المرعب، وأن يلمس، تحت الغطاء، أجزاء جسده التي أراد أن يتجاهلها، فقد انصاع لمشيئة زوجته. أمسك أخاه من وسطه، وقد اصطبغ وجهه بالعزم الذي عهدته فيه، وعلى الرغم من قوله فقد دهش

Tele: @Arab_Books

من الثقل الغريب لهذه الأعضاء المنهكة. وبينما كان يديره، شاعراً أن عنقه تحيط بها ذراع طويلة هزيلة، أدارت كيتي الوسادة على عجل، ومهّدتها، وصفّت له شعره القليل الذي لصق من جديد بصدغيه.

استبقى المريض إحدى يدي أخيه في يده، وأحسّ ليفين أنه يريد أن يفعل شيئاً بهذه اليد وأنه يشدّها. فتركه يفعل وهو منخوب الفؤاد. وأخيراً، قرّبها من شفتيه ولثمها. فترك ليفين الغرفة، والنحيب يهزّه، دون أن يقوى على التفوه بكلمة.

Tele: @Arab_Books

-١٩-

«أعلنَ للصغار ما أخفاه عن الحكماء والفهماء»[٢٣]. إذا كانت هذه الآية قد خطرت ببال ليفين فليس لأنه كان يحسب نفسه حكيماً. لم يكن يحسب نفسه حكيماً، لكنه لم يكن يستطيع أن يتجاهل أنه أذكى من زوجته ومن آغات ميخايلوفنا، وكان يعلم، من جهة أخرى، أنه حين يفكّر في الموت فإنما يفكّر فيه بكل قوى نفسه. وكان يعلم أيضاً أن كثيراً من العقول الواسعة التي قرأ تفكيرها فيه، كانت تفكّر فيه دون أن تكشف واحداً بالمئة مما كانت تعلمه بهذا الصدد زوجته وآغات ميخايلوفنا. فهاتان المرأتان المختلفتان اختلافاً شديداً، آغات ميخايلوفنا وكاتيا، كما سمّاها أخوه نيقولا وكما صار ليفين يحب أن يُسمّيها، كانتا متشابهتين تماماً بهذا الصدد. كانتا تعلمان، دون أن يخاطبهما أدنى شك، ما الحياة وما الموت، ومع أنهما لم تكونا تستطيعان الجواب عن الأسئلة المطروحة على ليفين ولا حتى أن تفهماها، فإنهما لم تكونا تشكان في معنى هذه الظاهرة، وكانتا تشاركان في هذا الاقتناع ملايين البشر. كانتا تدلّلان على نفاذهما إلى معنى الموت: كانتا تعلمان، دون أن تترددا لحظة واحدة، كيف

٢٣- «أعلن للصغار ما أخفاه عن الحكماء والفهماء»: استشهاد غير دقيق، مأخوذ من: متى ١١-٢٥ (انظر أيضاً لوقا ١٠ -٢١).

Tele: @Arab_Books

تتصرفان مع المشرفين على الموت لا تخافانهم. أما ليفي وأضرابه فكانوا يجهلون جهلاً واضحاً لماذا يخافون الموت –وإن عنّوا أنفسهم بالتفكير فيه– ولا يدرون ما الذي ينبغي أن يفعلوه عندما يموت الناس. ولو كان ليفين، في هذه اللحظة، وحده مع أخيه نيقولا لتأمّل أخاه بذعر، ولا نتظر بذعر أكبر، ولما استطاع أن يفعل شيئاً غير ذلك.

وأكثر من ذلك أنه لم يكن يدري ما يقوله، ولا أي موقف يتّخذه، ولا كيف يمشي. فالكلام على الأشياء التافهة بدا له مهيناً؛ والكلام على الموت، وعلى الأشياء المحزنة، غير وارد؛ أما الصمت فكان مستحيلاً أيضاً. «لو نظرت إليه لظنّ أنني ألاحظه وأنني خائف؛ ولو لم أنظر إليه لظن أنني افكر في شيء آخر؛ ولو مشيت على رؤوس أصابعي –ولا أستطيع أن أمشي بدون احتراس– لاستاء. بيد أن كيتي لم تكن تفكر و لم يكن يتسنى لها التفكير في نفسها؛ كانت تفكر في مريضها لأنها كانت تعلم ما يجب فعله، وتؤديه على أكمل وجه. كانت تحدثه عن نفسها، عن زواجها، وتبتسم، وترثي له، وتغمره بعنايتها، وتذكر له حالات شفي فيها المرضى، وكان كل شيء على ما يُرام؛ وإذن فقد كانت تعلم. و لم يكن نشاطها، شأنه شأن نشاط آغات ميخايلوفنا، نشاطاً غريزياً، حيوانياً، غير خاضع للعقل، إذ كانتا تطلبان للمحتضر، فضلاً عن العناية الجسدية وتخفيف الآلام، شيئاً أعظم أهمية من هذه العناية، شيئاً ليس بينه وبين حياة الجسد جامع مشترك. كانت آغات ميخايلوفنا تقول وهي تتحدث عن شيخ مات منذ هنيهة: «الحمد لله، لقد اعترف وتمم واجباته، ليُعطِ الله كل إنسان أن يموت هكذا!». وكذلك كيتا، فوراء اهتمامها بالغسيل والشراب والضماد، أفلحت، منذ اليوم الأول، في إقناع المريض بضرورة الاعتراف وتلقي المسحة الأخيرة.

Tele: @Arab_Books

وعندما عاد ليفين في المساء إلى شقته، ظل جالساً، خافض الرأس، دون أن يعلم ماذا يفعل. كان غير قادر على العشاء، وعلى الاستقرار في الليل، وعلى التفكير فيما سيفعلانه، بل إنه كان غير قادر على محادثة امرأته: لقد كان يشعر بالندم. أما كيتي فكانت أشد نشاطاً من عادتها. وأمرت أن يُقدَّم العشاء إليهما، وحلّت أمتعتها، وأسهمت بترتيب السريرين و لم تنسَ أن ترشهما بمسحوق قاتل للحشرات. وكانت تظهر التحفّز، وسرعة الإدراك التي تبدو عند الناس قبل المعركة، والنضال، في الخطر أو في الدقائق الحاسمة من وجودهم، هذه الدقائق التي يكشف فيها الإنسان دفعة واحدة عن كل ما هو قادر عليه، أو يكشف عن أن ماضيه لم يضع بل إنه كان تحضيراً لمثل هذه اللحظة.

لم يأتِ منتصف الليل حتى كان قد رُتِّب كل شيء؛ نُظِّم متاعهما بكثير من الذوق الشخصي، وغدت شقتهما شبيهة ببيتهما، وسُوِّي السريران، وُصِّفت الفراشي والأمشاط والمرآة على الطاولة، ونُشرت المناشف.

كان ليفين يجد أن الأكل والنوم بل والكلام أمر لا يُغتفر، ويحس أن كل حركة من حركاته غير لائق. أما هي فكانت ترتّب فراشيها دون أن يبدو عليها أنها ترى في ذلك ما يجرح.

بيد أنهما لم يستطيعا أن يأكلا شيئاً، و لم يناما إلا بعد زمن طويل؛ بل إنهما لم يستطيعا أن يعزما على النوم.

قالت وهي تجلس بقميص النوم أمام مرآة السفر وتمشط شعرها الناعم المعطّر بمشط دقيق:

Tele: @Arab_Books

– أنا مسرورة لأنني جعلته يقبل التقرّب غداً. لم أرَ أحداً يُمنح الأسرار، لكن أمي قالت لي إن الصلوات تُتلى من أجل شفاء المريض.

قال لها ليفين وهو ينظر إلى مفرق ضيّق خلف رأسها الصغير المدوّر يختفي كلما حرّكت المشط إلى الأمام:

– أرجو ألا تظني أنه قد يشفى.

قالت وهي تختلس النظر إليه من مؤخر عينها، ومن خلال شعرها:

– سألتُ الطبيب، فقال لي إنه لن يعيش أكثر من ثلاثة أيام. لكن هل يمكنهم حقاً أن يعلموا. أنا مع ذلك جدّ سعيدة لأنني أقنعته.

وأضافت بتعبير خاص، ماكرٍ قليلاً، وهو تعبير تتخذه كلما تحدثت عن الدين:

– كل شيء ممكن.

بعد الحديث الذي دار بينهما عندما كانا خطيبين، لم يتطرّقا إلى هذا الموضوع قط، لكنها كانت تؤدي واجباتها الدينية وهي مقتنعة اقتناعاً هادئاً بأنها تؤدي واجباً. كانت مقتنعة اقتناعاً راسخاً –وإن أكّد العكس– أنه مسيحي صالح مثلها أو أحسن منها وأن كل ما يقوله بهذا الصدد ما هو إلا مزحة من مزحاته، كما كان يقول لها وهو يحدّثها عن تطريزها الإنكليزي: إن الشرفاء يرتقون ثقوبهم، أما أنتِ فتلتذين بعمل الثقوب الخ...

قال ليفين:

Tele: @Arab_Books

– نعم، إن هذه المرأة، ماري نيكولا ييفنا لا تحسن شيئاً من ذلك كله. و.... يجب أن أعترف أنني مسرور جداً بمجيئك. إنك نقية إلى حدٍّ كبير حتى...

أخذ يدها، ودون أن يقبّلها (تقبيل يدها وهو في جوار الموت جدير بأن يبدو غير لائق) شدّ عليها وهو ينظر إلى عينيها الملتمعتين بوجه منسحق:

قالت له:

– كان سيكون شيئاً بشعاً فوق الحد عليك لو كنتَ وحدك.

ورفعت ذراعيها لتخفي خدّيها اللذين علتهما حمرة الفرح، ولفتْ ضفائرها على قذالها وثبتتها بدبابيس.

واستأنفت:

– نعم، إنها لا تُحسن ذلك... وأنا، لحسن الحظ، تعلّمتُ الكثير في «سودن».

– أكان هناك مرضى مصابون بمثل هذه الإصابات الخطرة؟

– وأكثر من ذلك.

– المُريع أنني لا أستطيع ألا أراه كما كان في صباه... لا يمكنك أن تصدّقي أي فتى ساحر كان... لكنني لم أكن أفهمه آنذاك.

قالت:

Tele: @Arab_Books

- بلى، أصدق ذلك. كم كنا سنكون صديقين حميمين.

وارتعبت مما قالت، والتفتت إلى زوجها، وهمت الدموع من عينيها.

قال بحزن:

- نعم كنتما ستكونان صديقين حميمين. كان، بالتحديد، واحداً من أولئك الرجال الذين لم يخلقوا لهذا العالم.

قالت كيتي بعد أن ألقت نظرة خاطفة على ساعتها الصغيرة:

- ما يزال أمامنا الكثير من أيام التعب، يجب أن ننام.

Tele: @Arab_Books

-٢٠-

– الموت –

في اليوم التالي، تقرّب المريض وتلقّى المسحة الأخـيرة. وأثناء الاحتفال، صلى نيقولا بحرارة. ففي عينيه الواسعتين، المحدّقتين في الأيقونة الموضوعة على طاولة لعب مغطاة بمنشفة ملوّنة، تراءى أمل قوي إلى الحد الذي روّع ليفين. كان يعلم أن هذه الصلوات وذلك الأمل ستجعل فراق الحياة التي أحبها كثيراً أشد إيلاماً. كان ليفين يعرف أخاه ويعرف سير أفكاره؛ كان يعلم أن كفره لم يأت قط من أن العيش بلا إيمان أدعى للراحة، بل لأن التفسيرات العلمية المعاصرة لظاهرات العالم قد طردت إيمانه شيئاً فشيئاً، ولذلك كان يعلم أن عودة أخيه الحاضرة للإيمان لم تكن النهاية الطبيعية لتفكيره، لكنها تنازل مؤقت، نفعي، على أمل الشفاء الذي لا يُعقل. وكان ليفين يعلم أيضاً أن كيتي قد رسّختْ هذا الأمل بما روته من قصص الشفاء العجائبية. كان يعلم ذلك كله. وكان يقضّ مضجعه أن يرى تلك النظرة الضارعة، المفعمة بالرجاء، وتلك اليد المهزولة التي كانت ترتفع بمشقة لترسم إشارة الصليب على هذه الجبهة العظيمة، وهاتين الكتفين الناتئتين، وذلك الصدر الأجوف والصافر الذي لم يعد في طاقته أن يحتوي الحياة التي

Tele: @Arab_Books

يَنْشدها المريض. وأثناء الاحتفال ردد ليفين، باعتباره كافراً، ما ردده ألف مرة من قبل، مخاطباً الله: «إن كنتَ موجوداً فاعمل على شفاء هذا الرجل، وسوف تخلّصنا نحن الاثنين».

بعد المَسْحة، أحس المريض بالتحسّن الكبير. فلم يسعل مرة واحدة أثناء الساعة التي تلت: كان يبتسم، ويلثم يد كيتي وهو يشكرها دامع العينين، ويقول إنه في حالة حسنة، وإنه لا يتألم في أية منطقة من جسده ويحس أن قواه وشهيّته عادت إليه. بل إنه نهض وحده عندما جيء بالعشاء وطلب قطعاً من اللحم. ومع أن ليفين كان يائساً أشد اليأس، ومع أنه كان مقتنعاً من منظر المريض وحده بأنه لن يشفى، فقد قضى، هو وكيتي، هذه الساعة وهما في حالة من الاهتياج السعيد الممزوج بالخوف من أن يكونا مخطئين.

كانا يقولان بصوت خفيض وهما يتبادلان الابتسام:

– حالته أحسن؟ –نعم أحسن بكثير –هذا غريب –ليس في ذلك ما هو غريب –هذا أمر واقع، إن حالته أحسن.

لم يدمْ هذا الوهم إلا قليلاً. فقد نام المريض بهدوء، لكن السعال أيقظه بعد نصف ساعة. وفجأة اختفى كل أمل فيه وفيمن حوله. لقد ألغت حقيقة الألم كل أمل.

طلب أن يتنشق «اليود»، دون أن يلمح إلى ما اعتقده قبل نصف ساعة، وكأنه كان خجلاً من تذكّره. ومد إليه ليفين قمقماً مغطى بورقة مثقوبة بثقوب. فألقى عليه أخوه نظرة الأمل القوية التي ألقاها

Tele: @Arab_Books

وهو يتلقّى المسحة الأخيرة، وكأنه كان ينتظر تأييداً لأقوال الطبيب الذي أكد أن تنشق اليود يصنع المعجزات.

قال بصوت مبحوح وهو يُجيل نظراته حوله بينما كان ليفين يُعيد عليه كلمات الطبيب على مضض:

– كيتي ليست هنا؟ لا، إذن أستطيع أن أتكلم... من أجلها تظاهرت بالإيمان. إنها لطيفة جداً، أما أنت وأنا فلا يمكن أن ننخدع.

وقال وهو يضغط على القمقم بيده المعروقة ويتنشق بنَهم:

هذا هو ما أومن به.

في نحو الثامنة، كان ليفين يتناول الشاي في غرفته مع زوجته، عندما اقتحمت ماري نيكولايفنا الغرفة وهي تلهث، وتمتمت:

– إنه يموت. أخشى أن يقضي في مدى لحظة.

ركضا كلاهما إليه. كان جالساً في سريره، متّكئاً على مرفقه، مقوّس الظهر، حاني الرأس.

– قال له ليفين بصوت خفيض، بعد صمت قصير:

– بماذا تحسّ؟

قال نيقولا بمشقة، لكن بوضوح غريب، منتزعاً الكلمات من صدره ببطء:

– أحس أنني أموت.

Tele: @Arab_Books

ولم يرفع رأسه واكتفى بأن وجّه نظرته إلى الأعلى، دون أن يبلغ وجهَ أخيه.

وقال أيضاً:

- كاتيا انصرفي!

نهض ليفين فجأة وهمس إلى زوجته بلهجة آمرة أن تخرج.

وكرّر:

- إنني أموت.

سأله ليفين ليقول شيئاً:

- لِمَ تعتقد ذاك؟

فكرر وكأنه أحب هذه العبارة:

- لأنني أموت. هذه هي النهاية.

اقتربت ماري نيكولاييفنا منه، وقالت له:

- سترتاح أكثر لو اضطجعت.

قال بصوت رفيق:

- سأضطجع عما قريب.

وأضاف بسخرية، بغضب:

Tele: @Arab_Books

- سأضطجع ميتاً. لكن أضجعوني، إذا شئتم.

مدد ليفين أخاه على ظهره، وجلس قربه، وتأمّل وجهه وهو يحبْس نفسه. لقد أغمض المحتضر عينيه، لكن عضلات جبينه كانت تتحرك من وقت إلى آخر، كما تتحرك لدى الإنسان الذي اشتغل ذهنه بالتفكير العميق. وكان ليفين يفكّر هو أيضاً، بالرغم منه، فيما يتم، في هذه اللحظة، في المريض، لكنه كان يرى، برغم الجهد الذي بذله لمرافقته، ومن تعبير وجهه الهادئ والصارم ومن حركة العضلات فوق حاجبيه، أن المحتضر قد انكشف له بوضوح يتزايد شيئاً فشيئاً ما ظلّ غامضاً بالنسبة إلى ليفين.

قال المحتضر ببطء، وبوقفات:

- نعم، نعم، الأمر «كذلك». انتظروا.

وصمت مرة أخرى، ثم قال فجأة بلهجة مطمئنة وكأن كل شيء قد حُلَّ بالنسبة إليه:

- وهو كذلك.

وهتف:

- أوه! يا إلهي!

وتنهّد تنهداً عميقاً.

جسّت ماري نيكولايفنا قدميه، وهمست:

Tele: @Arab_Books

- إنهما تبردان.

ظل المريض مستلقياً، ساكناً، خلال برهة من الزمن بدت لليفين أنها لا نهاية لها. لكنه كان ما يزال حياً يتنفّس في فترات متباعدة. وكان ليفين متعباً من توتّر ذهنه. وكان يحس أنه لا يمكن أن يفهم ما «كذلك» بالرغم من هذا التوتر. كان يحس أن المحتضر خلّفه وراءه، منذ زمن بعيد. لم يعد بوسعه أن يفكّر في مشكلة الموت، لكنه كان يتساءل لا إرادياً عما ينبغي أن يفعله بعد لحظة: أيغلق عيني أخيه، أيلبسه ثيابه، أيطلب تابوتاً. والغريب أنه كان يحس بفتور تام، إذ لم يكن يشعر لا بالحزن على الخسارة التي ستحلّ به، ولا بالشفقة على أخيه. وإذا كان يشعر بشعور، في هذه اللحظة، فهو بالأحرى الحسد على هذا اليقين الذي بلغه المحتضر والذي لا يمكنه أن يطمح إليه.

ظل جالساً بقربه، زمناً طويلاً، ينتظر النهاية من لحظة على أخرى. ولم تأتِ النهاية، وفُتح الباب وظهرت كيتي. فنهض ليفين ليمنعها من الدخول. وبينما كان ينهض، سمع المحتضر وقد بدرتْ منه حركة.

قال نيقولا وهو يمدّ يده:

- لا تنصرف.

وأمسك ليفين بهذه اليد، وأشار إلى امرأته كي تخرج، بحركة تدل على الاستياء.

ظل هكذا نصف ساعة، وساعة، ثم ساعة، ويد المحتضر في يده. في اللحظة الأخيرة، لم يعد يفكّر في الموت. كان يتساءل ماذا تفعل

Tele: @Arab_Books

كيتي، وإذا كان الطبيب يملك بيتاً خاصاً. ولقد ألمَّ به الجوع والنعاس. فخلّص يده من يده أخيه برفق وجسّ قدميه. كانت القدمان باردتين لكن المريض ما زال يتنفس. أراد ليفين أن يخرج على أطراف قدميه، لكن المريض عاد إلى الحركة وكرر:

– لا تنصرف.

***

أشرق النهار؛ ظل المريض على حاله. سحب ليفين يده برفق دون أن ينظر إلى المحتضر، ومضى إلى غرفته ونام. وعندما استيقظ بُلِّغ أن المريض عاد إلى حالته السابقة، بدلاً من أن يُبلَّغ موته الذي كان يتوقعه، وأنه عاد إلى الجلوس والسعال والأكل والكلام، وأنه كفّ، من جديد، عن الكلام على الموت، وعبّر، من جديد، عن أمله في الشفاء. كان أكثر تقلباً وعبوساً من ذي قبل. ولم يستطع أحد، لا كيتي ولا أخوه، أن يهدئه. كان يغضب على الجميع، ويرمي مَنْ حوله بشتى الحماقات، ويلومهم على آلامه، ويطلب منهم أن يأتوه بقطب من أقطاب الطب في موسكو. وكان كلما سُئل عن حالته أجاب جواباً واحداً لا يتغيّر، بلهجة الملامة والحقد:

– إنني أتألم على نحو لا يُطاق.

كان المريض يتألم أكثر فأكثر، ولا سيما من جراحه التي لم يمكن أن تندمل، ويغضب أكثر فأكثر على الذين يحيطون به، لائماً إياهم على كل شيء، وبخاصة لأنهم لم يأتوه بالطبيب من موسكو.

Tele: @Arab_Books

وكانت كيتي تبذل وسعها بكل الوسائل لمساعدته، وتهدئته، لكن كل شيء كان بلا جدوى، وكان ليفين يرى أنها مُنهكة جسدياً ونفسياً وإن لم تعترف بذلك. وقد تبدد الشعور بالموت الذي أيقظه في كل منهم وداعه للحياة في الليلة التي دعا فيها أخاه. وكانوا جميعاً يعلمون أنه سيموت عما قريب، وأنه صار نصف ميت. كانت تخالج الجميع رغبة واحدة: هي أن يموت بأسرع ما يمكن. كانوا يُخفون هذا الشعور ويصبّون له الشراب، ويبحثون عن أشربة أخرى، ويدعون الطبيب، ويخدعونه ويخدعون أنفسهم، ويغشّ بعضهم بعضاً. لم يكن ذلك كله سوى كذب، كذب مدنَّس، دنيء ومهين. وكان ليفين، بسبب طبعه وبسبب حبه لأخيه، يتألم ألماً شديداً من هذا الكذب.

كان ليفين يحرص منذ زمن بعيد أن يُصلح بين أخويه، ولو كان ذلك قبل الموت. وقد كتب إلى سيرج إيفانوفتش وقرأ جوابه للمريض الذي يقول فيه: إنه لا يستطيع المجيء لكنه يطلب الصفح من أخيه بعبارات مؤثّرة.

ولم يقل المريض شيئاً.

سأله ليفين:

- ماذا ينبغي أن أكتب إليه. أرجو ألا تحقد عليه؟

أجاب نيقولا بتبرّم:

- لا، أبداً. أكتب إليه لكي يرسل إلي الطبيب.

Tele: @Arab_Books

مرّتْ ثلاثة أيام قاسية على هذا النحو؛ كان المريض في الحالة نفسها. وكان جميع الذين يَدْنون منه يتمنّون موته الآن:

خدم الفندق ومديره وجميع النزلاء والطبيب وماري نيكولايفنا وليفين وكيتي. المريض وحده لم يكن يعبر عن هذا الشعور؛ على العكس، كان يغضب لأنهم لم يأتوا بالطبيب، وظل يتناول أدويته ويتحدث عن الحياة. في الدقائق النادرة وحدها التي كان الأفيون ينسيه فيها أوجاعه المستمرة، إنما كان يقول ما يعانيه معاناة أشد من غيرها: «آه! ليت النهاية تأتي!» أو«متى سينتهي ذلك؟»).

كان الألم الآخذ بالاشتداد يفعل فعله ويهيئه للموت. لم يبق وضع لم يتألم فيه، ولا دقيقة نسي نفسه فيها، ولا موضع من جسمه، ولا عضو من أعضائه لم يؤلمه. وكانت ذكرياته وانطباعاته وأفكاره توقظ فيه الاشمئزاز الذي يوقظه جسده ذاته. وكان مرأى الناس وأحاديثهم عذاباً بالنسبة إليه. وقد أدرك الذين حوله ذلك وامتنعوا باللاشعور عن أية حركة عفوية، أو أي حديث، أو أي تعبير عن رغباتهم في حضوره. لقد انصهرت حياته كلها في الشعور بالألم، والرغبة في التخلص من ذلك الألم.

كان يتم فيه بجلاء التغير الذي سيرغمه على اعتبار الموت تحقيقاً لرغباته، على اعتباره السعادة. كانت كل رغبة من رغباته الخاصة التي يوقظها الألم أو الحرمان، كالجوع والتعب والعطش، تشبعها وظيفة من وظائف الجسم وتوفّر له المسرة. كان هذا من قبل، أما الآن فإن الحرمان والألم لا يجدان ما يشبعهما، وكل محاولة للحصول على ذلك

Tele: @Arab_Books

تولّد ألماً جديداً. ولذلك انصهرت جميع رغباته في رغبة واحدة: وهي أن يتخلص من جميع الآلام ومن مصدر هذه الآلام: أي من جسده. لم يكن لديه من الكلمات ما يُعبّر به عن رغبة التحرر هذه، لذلك لم يكن يتحدث عنها، لكنه كان يطلب، بفعل العادة، أن تُشبع تلك الرغبات التي لا سبيل إلى تحقيقها. كان يقول: «أضجعوني على الجهة الأخرى»، وسرعان ما يطلب بعد ذلك أن يعيدوه إلى وضعه السابق. «أعطوني حساء». «خذوا هذا الحساء». «اروووا لي شيئاً؛ لم لا تقولون شيئاً؟». ولكن ما إن يبدأ أحدهم الكلام حتى يغمض عينيه ويعبّر وجهه عن الإعياء واللامبالاة والاشمئزاز.

أصاب المرض كيتي. في اليوم العاشر بعد وصولها. وشكت من أوجاع الرأس ومن الغثيان، واضطرت إلى أن تلزم فراشها الصبيحة كلها.

قال الطبيب: إن ذلك من جراء التعب والانفعال، وأوصاها بالهدوء.

بيد أنها نهضت، بعد العشاء، وذهبت كعادتها إلى المريض ومعها شغلها. نظر إليها بصرامة عندما دخلت، وابتسم ابتسامة الازدراء عندما قالت له إنها كانت متوجّعة. ولم يكفّ طوال هذا النهار عن الامتخاط والأنين الشاكي.

سألته:

– كيف تُحس بحالك؟

فنطق بمشقة:

Tele: @Arab_Books

– أسوأ، إني أتألم.

– أين؟

– في كل موضع من جسدي.

قالت ماري نيكولاييفنا:

– سينتهي ذلك اليوم، سترون.

لكن، مع أنها تكلمت بصوت خفيض فقد كان بمقدور المريض الذي كان مرهف السمع كما لاحظ ليفين، أن يسمعها وقد سمعها المريض، لكن هذه الكلمات لم تترك فيه أثراً. ظلّت نظرته ثابتة ملأى باللوم.

سأل ليفين ماري التي خرجت في إثره إلى الممر:

– لم تعتقدين ذلك؟

قالت:

– لأنه أخذ يتعرّى.

– كيف؟

قالت وهي تسحب ثنايا ثوبها الصوفي:

– هكذا؟

Tele: @Arab_Books

وبالفعل، لاحظ ليفين أن المريض كان يشد أغطيته، طوال هذا اليوم، كأنه يريد أن يتخلّص منها.

صدقتْ نبوءة ماري نيكولاييفنا. فنحو الليل لم يعد المريض يقوى على رفع ذراعيه: كان يشخص أمامه بنفس التعبير المشدود والمركّز. وكان يحافظ على الوضع ذاته حتى عندما ينحني أخوه أو كيتي فوقه بحيث يراهما. وأرسلت كيتي تدعو كاهناً لقراءة صلاة المحتضرين.

وبينما كان الكاهن يتلو الصلوات، لم تكن تبدو عليه دلائل الحياة. وكان ليفين وكيتي وماري نيكولاييفنا واقفين قرب سريره. لم تنته الصلاة حتى تصلّب المريض وتنهّد وفتح عينيه. وعندما انتهى الكاهن من صلاته، وضع الصليب على جبينه البارد، وغطاه بصدرته الكهنوتية، ببطء، وبعد أن انتظر بضع دقائق دون أن يفوه بكلمة، لمس اليد الضخمة الباردة والفاقدة الدم.

قال الكاهن:

- انتهى الأمر.

وأراد أن يبتعد، لكن شاربي المريض الملتصقين تحركا فجأة وسُمعت في الصمت أصوات واضحة صاعدة من أعماق صدره:

لم ينته تماماً... عما قريب.

وبعد دقيقة، استنار وجهه، وظهرت الابتسامة تحت شفتيه وبادرت النسوة إلى البدء بزينته الأخيرة.

Tele: @Arab_Books

إن مرأى أخيه ومجاورة الموت أيقظا في ليفين شعوراً بالهلع أمام سرّ الموت المحتّم، وهو شعور تملّكه في ذلك المساء الخريفي الذي وصل فيه أخوه إلى منزله. لقد كان هذا الشعور الآن أقوى من ذي قبل؛ كان يحس أنه أعجز عن فهم معنى الموت، وبدا له دنوّه المحتم أشد هولاً، لكن هذا الشعور لم يعد يوحي إليه باليأس، وذلك بفضل امرأته؛ كان يشعر بضرورة الحياة والحب، رغم الموت. كان يحس أن الحب قد خلّصه من اليأس، وأن هذا الحب، المهدد دائماً، يغدو بسبب ذلك أقوى وأنقى.

لم يكد سر الموت الذي لا يُدرك كنهه، يتم أمام عينيه حتى برز سر آخر لا يدرك كنهه أيضاً، لكنه سر من الحياة والحب.

أيد الطبيب افتراضاته بصدد كيتي: لقد كانت حاملاً.

Tele: @Arab_Books

-٢١-

منذ اللحظة التي استنتج فيها ألكسي ألكسندروفتش من أحاديثه مع بيتسي وستيفان أركاديفتش أن ما يُطلب منه فقط هو أن يدع امرأته وشأنها، دون أن يضايقها بحضوره، وأن امرأته نفسها ترغب في ذلك، أحس بأنه في حيرة شديدة من أمره حتى إنه لم يستطع أن يتخذ أي قرار، و لم يدر هو نفسه ما الذي كان يبغيه الآن، فأسلم أمره بفرح لأيدي الذين كانوا يتدخّلون في شؤونه ووافق على كل شيء. وإنما أدرك وضعه بوضوح ورُوِّع منه عندما تركت آنا البيت وسألته الإنكليزية إن كان سيتعشى معها أو وحده.

كان أشق شيء هو أنه لم يستطع أن يوفِّق بين الماضي والحاضر. لا لأن الماضي، الفترة التي عاش فيها سعيداً مع زوجته، أخذ يقلقه. فهذا الماضي قد أنساه إياه اكتشاف خيانة زوجته، بعد أن كابد آلاماً مبرّحة. هذه الحالة كانت مؤلمة لكنه كان يدركها. ولو أن زوجته هجرته معترفة له بخيانتها لشعر بأنه مُهان، تعس، لكنه ما كان ليقع في هذا الوضع الذي لا يُفهم والذي لا مخرج منه في الظاهر. لم يكن بوسعه أن يوفّق الآن بين الماضي القريب –حنانه وحبه إزاء زوجته المريضة والطفلة التي ليست منه– والحاضر، وبعبارة أخرى، بين الماضي القريب وكونه

Tele: @Arab_Books

قد وجد نفسه –في مقابل ذلك الحب والحنان– وحيداً، متسربلاً بالعار، مضحكاً، عديم الفائدة، مُحتقراً من الجميع.

في اليومين اللذين تبعا سفر امرأته، استقبل ألكسي ألكسندروفتش المراجعين، وذهب إلى اللجنة، وتعشّى في قاعة الطعام، كعادته. ولقد حفّز كل قوى نفسه، في هذين اليومين، من أجل هدف واحد: وهو أن يبدو هادئاً بل وغير مبال، دون أن يفهم لماذا يفعل ذلك. وحين كان يُعطي أوامره بصدد أمتعة آنا أركادييفنا وشقتها فإنه كان يبذل جهوداً جبّارة لكي يظهر بمظهر الرجل الذي يعتبر الحدث الذي حدث أمراً متوقعاً وليس فيه ما يخرج عن مستوى الأحداث العادية. وبلغ هدفه: فلم يشك أحد في يأسه. لكن في اليوم التالي لسفر آنا، عندما حمل إليه «كورني» قائمة من صانعة القبعات نسيت آنا أن تدفعها، وأخبره أن الوكيل هنا، طلب ألكسي ألكسندروفتش إدخاله.

– اعذرني، يا صاحب السيادة، إذا تجاسرتُ على إزعاجك. وإذا كان ينبغي أن نرسل القائمة إلى السيدة، فلتتفضل سيادتك بإعطائي عنوانها.

بدا ألكسي ألكسندروفتش كمن يفكر، وفجأة استدار وجلس إلى مكتبه، وظل طويلاً في هذا الوضع، ورأسه بين يديه؛ حاول أن يتكلم عدة مرات، لكنه توقف.

فهم «كورني» شعور سيده ورجا الوكيل أن يعود ثانية. وعندما بقي ألكسي ألكسندروفتش وحده، أحس بأنه لم يعد يقوى على

Tele: @Arab_Books

تحمّل دوره. فأمر بحل عربته التي كانت تنتظره، ومنع الدخول عليه، ولم يظهر للعشاء.

أحس أنه لا يستطيع بعد الآن تحمل هجمة الاحتقار والقسوة التي كان يراها على وجه الوكيل، وكورني، وجميع الذين لقيهم في هذين اليومين، بدون استثناء. أحس أنه لا يستطيع أن يرد عن نفسه كره الناس، لأن هذا الكره يستهدفه لا لأنه سيّئ (بإمكانه حينئذ أن يسعى ليكون أفضل) بل لأنه كان تعساً على نحو مُنكر. وعلم أنهم سيكونون بلا رحمة وذلك بالضبط لأن قلبه كان ممزقاً، وأنا سيقطّعونه إرباً إرباً، مثلما تخنق الكلاب كلبا مغطّى بجراحه يجوح من الألم، وأن الوسيلة الوحيدة للإفلات منهم هو أن يُخفي عنهم جراحه، وهو ما حاول أن يفعله غريزياً في اليومين الأولين، أما الآن فلم يعد بمقدوره متابعة هذا الصراع غير المتكافئ.

وازداد يأسه من جراء شعوره بأنه وحده مع حزنه. فلم يكن في بطرسبرج، ولا في أي مكان آخر مَنْ يشكو له همّه ومَنْ تخالجه الشفقة عليه، لا من حيث هو موظف كبير أو عضو في المجتمع، بل من حيث هو رجل يتألم لا غير.

عاش ألكسي ألكسندروفتش يتيماً منذ شبابه مع أخ له. لم يكن يتذكّر أباه، وماتت أمه وهو ابن عشر سنوات. ولم يخلّف أبواه إلا ثروة قليلة. وقد عُني بتربيته عمه كارينينا، وهو موظف مرموق، وكان من قبل ذا حظوة لدى الإمبراطور المتوفّى.

بعد أن أنهى ألكسي ألكسندروفتش دراسته في المعهد والجامعة

Tele: @Arab_Books

بتفوّق، في رعاية عمه، بدأ عمله الإداري بنجاح، ووقف نفسه عليه دون غيره. و لم يصطف صديقاً له لا في المعهد، ولا في الجامعة، ولا فيما بعد. كان أخوه أقرب الناس إليه، لكنه كان يعمل في وزارة الخارجية، وكان يعيش معظم وقته في الخارج حيث مات بعد زواج ألكسي ألكسندروفتش بقليل.

بينما كان حاكم مقاطعة، سهّلت عمّة لآنا وهي سيدة واسعة الثراء، اللقاءات بين صاحب هذه الرتبة العالية الصغير السن بالنسبة إلى منصبه وابنة أخيها، وألجأته إلى موقع لم يبق عليه فيه إلا أن يطلبها للزواج أو أن يهجر المدينة، وتردد ألكسي ألكسندروفتش طويلاً. كانت حججه المحبّذة للزواج تساوي حججه المناهضة للزواج، ولم يجد في نفسه ما يكفي من العزم للخروج على مبدئه: «توقف عند الشبهة». لكن عمة آنا أفهمته من خلال شخص توسّط أنه لوَّث سمعة الفتاة وأن واجبه كرجل شريف يقضي عليه بطلب الفتاة للزواج. فوافق على ذلك، وحوَّل إلى الخطيبة ثم إلى الزوجة كل كمية الحب التي كان قادراً عليها.

إن التعلّق الذي خصّ به آنا نفى من نفسه الحاجات الأخيرة لعلاقات المودة بينه وبين أقرانه. وليس له الآن بين جميع الناس الذين يخالطهم من صديق حميم. كان له عدد من المعارف و لم يكن له أصدقاء. كان ألكسي ألكسندروفتش يعرف كثيراً من الناس يمكنه أن يدعوهم إلى العشاء، وأن يستمزجهم من أجل قضية أو طالب حاجة، وأن ينتقد بحرية عمل شخصيات أخرى أو الحكومة، لكن هذه العلاقات مع هؤلاء الناس كانت محصورة في مجال ضيّق محدود بالعادة، يصعب الخروج منه.

Tele: @Arab_Books

كان له رفيق في الجامعة ارتبط به فيما بعد، وكان جديراً أن يبوح له بهمومه، لكن هذا الرفيق كان مشرفاً على دائرة مدرسية[٢٤] بعيدة. أما خلصاؤه في بطرسبرج فكانوا رئيس مكتبه وطبيبه وحدهما.

كان ميشيل فاسيلييفتش، رئيس مكتبه، رجلاً رصيناً، بسيطاً، ذكياً، طيباً، وكان ألكسي ألكسندروفتش يحسّ أنه يكنّ له المودة؛ لكن خمس سنوات من النشاط الإداري أقامت بينهما حاجزاً يحول دون البوح الذاتي الصميم.

عندما انتهى ألكسي ألكسندروفتش من توقيع بريده، لزم الصمت طويلاً، وهو ينظر بين وقت وآخر إلى ميشيل فاسيلييفتش وحاول عدة مرات أن يكلّمه، فلم يفلح. لقد هيّأ جملة: «هل سمعتَ بمصيبتي؟». لكنه قال، كعادته، في النهاية: «وهكذا فسوف تهيّئ لي هذا العمل». وصرفه.

الشخص الآخر كان طبيبه الذي يضمر له الإخلاص أيضاً. لكن اتفاقاً ضمنياً مضمراً قام بينهما وهو أنهما كليهما مرهقان بالعمل ولا بدّ لهما من العجلة.

أما صديقاته، وعلى رأسهن ليديا إيفانوفنا، فلم يكن ألكسي ألكسندروفتش يفكر فيهن. جميع هؤلاء النساء كن ينفّرنه ويُخفنه من حيث هن نساء.

٢٤- «كان مشرفاً على دائرة مدرسية»: كانت إمبراطورية روسيا مقسمة إلى حوالي اثنتي عشرة «دائرة مدرسية» (كما هو الشأن أيضاً في «الدوائر العسكرية»). وعلى رأس كل دائرة مشرف هو المفتش الأعلى للجامعة ولجميع المؤسسات المدرسية في هذه المنطقة.

Tele: @Arab_Books

-٢٢-

نسي ألكسي ألكسندروفتش الكونتيسة ليديا إيفانوفنا لكنها لم تَنْسه. ففي هذه اللحظة بالذات، لحظة يأسه المتوحد، جاءت لتراه ودخلت مكتبه دون أن تُعلن عن نفسها فوجدته جالساً إلى مكتبه، ورأسه بين يديه.

قالت وهي تدخل بخطوات سريعة وتلهث من المشي والانفعال:

- خرقتُ الأوامر.

وأضافت وهي تشد على يده في يديها، وتحطّ عليه عينيها الجميلتين، المتأملتين:

- أعرف كل شيء، يا صديقين ألكسي ألكسندروفتش.

نهض ألكسي ألكسندروفتش وهو يقطّب بين حاجبيه، وخلّص يده وقدّم لها كرسياً.

قال لها وقد أخذت شفتاه ترتجفان:

- تفضّلي بالجلوس، كونتيسة. إني لا أستقبل لأنني متوعك.

Tele: @Arab_Books

فكررت الكونتيسة ليديا إيفانوفنا دون أن ترفع عينيها عنه:

- يا صديقي!

وفجأة ارتفع حاجباها راسمين مثلثاً على جبينها؛ فزاد وجهها الأصفر دمامة. لكن ألكسي ألكسندروفتش أحسّ أنها ترثي لحاله وأنها توشك أن تبكي، فانتقل إليه التحنّن وأخذ يدها الربلة وقبّلها.

قالت بصوت قطعه الانفعال:

- يا صديقي! لا ينبغي لك أن تستسلم للحزن. مصيبتك كبيرة، لكن يجب أن تجد العزاء.

قال ألكسي ألكسندروفتش وقد أرخى يده وظل يحدّق فيها بعينيه الممتلئتين بالدمع:

- إنني مُدمَّر، محطَّم، لم أعد إنساناً! المرعب في وضعي هو أنني لا أجد مُستنداً في أي مكان، حتى ولا في نفسي.

قالت وهي تتنهد:

- ستجد هذا المستند؛ لا تفتش عنه فيّ، مع أني أرجوك أن تؤمن بصداقتي.

وأضافت وهي تنظر تلك النظرة الحماسية التي يعرفها كارينينا جيداً:

- مستندُنا هو الحب، الحب الذي خلّفه لنا. وحملُه خفيف. فهو يسندك ويُسعفك.

Tele: @Arab_Books

ومع أن هذه الكلمات أظهرت تحننها أمام عواطفه الرفيعة، وكشفت عن الاتجاه الجديد... الصوفي، الذي انتشر حديثاً في بطرسبرج والذي كان يستنكره ألكسي ألكسندروفتش، فقد سرّه سماع هذه الأحاديث في هذه اللحظة.

– أنا ضعيف، ومحطّم. لم أتوقع شيئاً من قبل ولست أفهم شيئاً.

فردّت الكونتيسة ليديا إيفانوفنا:

– يا صديقي!

واستأنف ألكسي ألكسندروفتش:

– لستُ أبكي الخسارة التي لحقتني. لكن لا يسعني الشعور بالعار من الوضع الذي أنا فيه. هذا سيّئ. لكنني لا أستطيع غير ذلك. لا أستطيع... قالت الكونتيسة ليديا إيفانوفنا وهي ترفع عينيها إلى السماء كالمخطوفة:

– لستَ أنتَ الذي بدرتْ منه بادرة الصفح الرفيع الذي أُعجب به الجميع مثلي، بل الذي يسكن في قلبك، ولذلك يجب ألا يخامرك الخجل.

قطّب ألكسي ألكسندروفتش بين حاجبيه، وطوى أصابعه وأخذ يفرقعها عند المفاصل.

وقال بصوت نحيف:

– يجب أن تعرفي جميع التفاصيل. إن لقوى الإنسان حدوداً، يا

Tele: @Arab_Books

كونتيسة، وقد بلغتُ حدود قواي. كان لا بدَّ لي، طوال النهار من اتخاذ الترتيبات الناجمة (وشدد على كلمة «الناجمة») عن وضعي الجديد. الخدم والمربية والحسابات... فهذه الأشياء الحقيرة أنهكتني، ولم يبق لي من طاقة على احتمالها. لقد أوشكتُ أن أترك المائدة البارحة، أثناء العشاء. لم أستطع أن أتحمّل نظرة ابني. لم يكن يسألني عن دلالة ذلك كله، لكنه كان يودّ أن يسألني، ولم أستطع أن أتحمل نظرته. ما كان يجرؤ على النظر إلي، وليس هذا أسوأ ما في الأمر...» لقد أراد ألكسي ألكسندروفتش أن يتحدث عن القائمة التي حُملتْ إليه، لكن صوته أخذ يرتجف وتوقّف. لم يكن بوسعه أن يفكّر في هذه القائمة من الورق الأزرق التي سُجل عليها ثمن قبعة وأشرطة إلا أخذته الشفقة على نفسه.

قالت الكونتيسة ليديا إيفانوفنا:

– فهمتُ، يا صديقي. فهمتُ كل شيء. لن تجد العون والعزاء في، بيد أني جئتُ لأعينك، إن استطعت. ليتني أستطيع أن أخلّصك من هذه الهموم الحقيرة... أرى أنك بحاجة هنا إلى يد امرأة. أتثق بي؟

شدّ ألكسي ألكسندروفتش على يدها دون أن يفوه بكلمة وقد بدا عليه مظهر الامتنان.

– سنعتني أنا وأنت بسيرج. وأنا لا أفهم شيئاً في الأمور العملية، لكني سأحاول، وسأكون قيّمتك. لا تشكرني. إني لا أفعل ذلك من نفسي.

– لا يسعني إلا أن أشكرك.

Tele: @Arab_Books

– لكن، لا تُسلمْ نفسك، يا صديقي، إلى هذا الشعور الذي حدثتني عنه: إلى الخجل مما هو أسمى ما في المسيحي! «من انخفض فسوف يُرفع[٢٥]». ولذلك فلا تشكرني أنا، وأشكره «هو»، وأطلب عونه. فيه وحده نجد السلام والعزاء والخلاص والحب.

قالت ذلك ورفعت عينيها إلى السماء، وأخذتْ تصلّي، وقد أدرك ذلك ألكسي ألكسندروفتش من صمتها.

كان ألكسي ألكسندروفتش يصغي إليها الآن، وبدت له هذه العبارات بسيطة ومعزّية، وكانت تبدو له من قبل لغواً، إن لم تبدُ مُكدّرة. لم يكن ألكسي ألكسندروفتش يحب هذه الروح الجديدة من الحماسة. كان مؤمناً وكان يهتم بالدين ولا سيما من الناحية السياسية؛ وكان يكره مبدئياً التعاليم الجديدة التي تسمح لنفسها بتأويلات جديدة وتفتح الباب للنقاش والتحليل. ولقد أبدى من قبل برودة وعداء لهذه التعاليم الجديدة وللكونتيسة ليديا إيفانوفنا التي ولعتْ بها؛ ولم يكن يناقش قط لكنه كان يقابل ضيوفه بصمت حذر. ولأول مرة، أخذ يصغي اليوم لكلماتها بسرور، ولا يجد رداً عليها في قرارة نفسه.

قال لها بعد أن انتهت من صلاتها:

– أنا ممتن جداً، جداً، لمسعاك ولكلماتك.

شدّت الكونتيسة ليديا إيفانوفنا على يدي صديقها مرة أخرى، وقالت وهي تبتسم بعد صمت، وتمسح عن وجهها آثار الدموع:

٢٥– «من انخفض فسوف يُرفع»: استشهاد غير دقيق بكلمات يسوع التي ذكرها متى ٢٠ –٢١.

Tele: @Arab_Books

– الآن، سأعكف على العمل. وسأذهب لألقى سيرج. ولن أرجع إليك إلا في الحالات القصوى.

ثم نهضت وخرجت.

مضت الكونتيسة ليديا إيفانوفنا إلى شقة سيرج، وهناك قالت للصبي المرتعب وهي تبلل خدّيه بالدموع إن أباه قديس وإن أمه ميتة.

وفتْ الكونتيسة ليديا إيفانوفنا بوعدها. فقد تكفّلت فعلاً بإدارة منزل ألكسي ألكسندروفتش. لكنها لم تكن تبالغ عندما قالت إنها لا تفهم شيئاً في الحياة العملية. كان لا بدَّ لها من تغيير أوامرها التي يتعذّر تنفيذها، فأخذ «كورني» خادم ألكسي ألكسندروفتش ذلك على عاتقه. وانتقلت إدارة المنزل إلى يديه، على نحو غير ملحوظ:

وكان يقدم لسيده وهو يلبس ثيابه تقريراً متحفظاً. لكن مساعدة ليديا إيفانوفنا كانت بالرغم من كل شيء فعّالة إلى أقصى حد: فعطفها وتقديرها كانا سنداً لألكسي ألكسندروفتش، ولا سيما أنها توصلت وهذا أعظم عزاء لها –إلى هدي؛ فحوّلته على الأقل من مؤمن فاتر الإيمان، غير مبال، إلى نصير ورع من أنصار التأويل الجديد للتعليم المسيحي الذي انتشر في هذه الأيام الأخيرة في بطرسبرج. ولم يجد مشقة في قبول هذا التأويل. كان ألكسي ألكسندروفتش، مثل ليديا إيفانوفنا ومثل جميع الناس الذين يشاطرونه وجهة نظره، محروماً كلياً من عمق الخيال، من هذه الملكة الداخلية التي بفضلها تغدو التصورات التي يثيرها الخيال حقيقية إلى الحد الذي تستدعي فيه التوافق مع التصورات الأخرى ومع الواقع. لم يكن يرى شيئاً من المستحيل أو

Tele: @Arab_Books

من غير المعقول في أن يكون الموت موجوداً بالنسبة إلى غير المؤمنين لا بالنسبة إليه؛ أن تكون الخطيئة مستبعدة من نفسه لأنه يملك الإيمان الكامل الذي هو وحده حكمٌ عليه، وأن يكون مقتنعاً بأنه قد نال الخلاص منذ هذه الحياة.

ولا شك أنه كان يشعر أحياناً بخفة هذا المذهب وهشاشته، وكان يعلم أنه عندما انساق غريزياً وراء الشعور بالصفح، دون أن يفكّر في أن الصفح هو عمل قوة عليا، وجد من السعادة أكثر مما يجد الآن، وهو يفكر، في كل ساعة من ساعات النهار، أن المسيح يسكن نفسه وأنه يتمم مشيئته حين يوقّع الأوراق. لكن، كان لا بدَّ لألكسي ألكسندروفتش من أن يفكر هكذا؛ كان لا بدَّ له، في مذلّته، من أن يملك تلك العظمة –ولو كانت خيالية– التي تتيح له، وهو المحتقر من الجميع. أن يحتقر الجميع، كان لا بدَّ له من أن يتشبّث بخشبة الخلاص المزعومة، هذه.

Tele: @Arab_Books

-٢٣-

تزوّجت الكونتيسة ليديا إيفانوفنا، وهي فتاة متهوّسة، في وقت مبكر من فاسق شهير، واسع الثراء، منهمك في الفجور، وإن كان طيّب القلب. وبعد شهر من الزواج، تركها و لم يرد على مظاهر حنانها المتهوّس إلا بالسخرية بل وبشيء من العداء حار في تفسيره الناس الذين عرفوا طيبة قلبه و لم يجدوا خطأ في ليديا المتحمّسة. ومنذ هذا الوقت، عاشا منفصلين وإن لم يقع الطلاق بينهما، وكان الزوج إذا لقي امرأته خاطبها دائماً بهذه السخرية المستهزئة التي لم يُعرَف سببها.

نزعت الكونتيسة ليديا إيفانوفنا، منذ وقت بعيد، حبها لزوجها من نفسها، لكنها كانت، منذ ذلك الوقت، مغرمة دائماً بأحد الناس. كانت مغرمة بعدة أشخاص في آن واحد، من الرجال والنساء؛ لقد شُغفت بجميع الناس الذين يخرجون عن المألوف بشكل أو بآخر: بجميع الأمراء والأميرات الذين صاهروا العائلة الإمبراطورية، برئيس أساقفة، بنائب أسقف، بكاهن، بصحفي، بثلاثة من أنصار السلافية، بكوميساروف[٢٦]، بوزير، بطبيب، بمُبشِر إنكليزي،

٢٦- «كوميساروف»: الشاب البرجوازي الذي أمسك بمسدس العدمي «كاراكوزوف» وحوله عن هدفه، أثناء الاعتداء الأولى على الاسكندر الثاني الذي كان يتنزه بهدوء في «حديقة الصيف» سنة ١٨٦٦؛ وقد كوفئ كوميساروف مكافأة عظيمة واحتفى به مجتمع العاصمة.

Tele: @Arab_Books

بكارينينا. و لم تكن كل علاقات الغرام هذه تمنعها من المحافظة على أوسع العلاقات وأشدها تعقيداً بالبلاط وبالمجتمع الراقي. لكنها منذ أن مدّت جناحها على كارينينا بعد المصيبة التي حلّت به، ومنذ أن وقفت جهودها على منزل كارينينا، حرصاً على راحته، أحست بأن جميع علاقات الحب الأخرى كانت وهمية وأنها لم تكن مغرمة حقاً إلا بكارينينا. بدا لها الشعور الذي خالجها الآن أقوى من جميع المشاعر التي خالجتها قديماً. رأت بوضوح، حين حلّلت حبها وقارنته بما سبق من حب، أنها ما كانت لتُغرم بكوميساروف لولا أنه أنقذ حياة القيصر، وما كانت لتغرم بريستتش -كودجيكي[٢٧] لولا نزعته السلافية، لكنها أحبّت كارينينا من أجل ذاته. من أجل روحه السامية التي لم تُقدَّر حق قدرها، من أجل جرس صوته النحيف، من أجل نبراته الممدودة، ونظرته المتعبة، وطبعه ويديه الناعمتين البيضاوين بعروقهما المنتفخة. لم تكن تستمتع بلقائه فحسب، بل إنها كانت تحاول أن تقرأ على وجهه الأثر الذي تُحدثه فيه. كانت تتوق إلى إرضائه لا بأحاديثها وحدها، بل بكل شخصها. من أجله، ازدادت عنايتها بزينتها. كانت تحلم بما كان يمكن أن يقع لو لم تتزوج ولو ظل حراً. كانت تحمرّ من الانفعال عندما تدخل الغرفة التي هو فيها؛ و لم تكن تستطيع أن تكبح ابتسامة سعيدة عندما كان يبادرها ببعض اللطف.

منذ بضعة أيام، وقعت الكونتيسة ليديا إيفانوفنا فريسة لاضطراب عظيم: لقد علمتْ أن آنا وفرونسكي موجودان في بطرسبرج. وينبغي

٢٧- «ريستتش-كودجيكي»: (١٨٣١-١٨٩٩) وزير خارجية الحرب آنذاك.

Tele: @Arab_Books

لها أن تُجنِّب ألكسي ألكسندروفتش اللقاء معها؛ بل ينبغي لها ألا تُعرِّفه بأن هذه المرأة الفظيعة موجودة في المدينة نفسها التي يقيم فيها، وأنه مُعرّض في كل لحظة لأن يلتقيها.

استعلمت ليديا إيفانوفنا، بواسطة أصدقائها، نية «هذين الخبيثين» كما كانت تدعوهما، وبذلت وسعها لكي توجّه كل حركة من حركات صديقها بحيث لا يتسنّى له لقاؤهما. وكان المرافق العسكري الشاب، صديق فرونسكي، الذي أعلمها بكل شيء آملاً أن ينال بواسطتها امتيازاً، قد قال لها إنهما رتّبا أمورهما وأنهما سيسافران في اليوم التالي. بدأت ليديا إيفانوفنا تطمئن عندما حُملتْ إليها في اليوم التالي بطاقة عرفت خطّها وهي مذعورة. كانت البطاقة من آنا كارينينا، وكان المغلف من الورق السميك كاللحاء، ومنها انبعث عطر ذكي.

– من حَمَل هذه؟

– خادم الفندق.

ظلت الكونتيسة ليديا إيفانوفنا زمناً طويلاً دون أن تستطيع قراءة الرسالة. وقد سبب لها الانفعال نوبة ربو (وكانت عرضة لها). وعندما هدأت، قرأت الرسالة التالية المكتوبة بالفرنسية.

«السيدة الكونتيسة، إن المشاعر المسيحية التي تملأ قلبك تمنحني الجرأة (وهي جرأة غير مغتفرة، كما أحس) على أن أكتب إليك. إنني أتألم لانفصالي عن ابني. وأنا أضرع إليك أن تسمحي لي برؤيته مرة

Tele: @Arab_Books

قبل سفري. اغفري لي إن ذكرتك بوجودي. وإذا كنتُ أخاطبكِ دون ألكسي ألكسندروفتش، فذلك فقط لأني لا أريد أن أؤلم هذا الرجل الكريم حين أذكّره بنفسي. وأنا واثقة من أنك ستفهمين ذلك، لعلمي بمودتك له. أترسلين لي سيرج، أينبغي أن آتي إلى البيت في ساعة محددة، أم هل ستُعلمينني متى وأين أستطيع أن أرى ابني خارج البيت؟ وأنا لا أتوقع الرفض، لأنني أعرف شهامة الذي يتوقف عليه هذا الأمر. لا تستطيعين أن تتصوري تعطّشي لرؤية ابني، ومن ثم العرفان بالجميل الذي ستبتعثه المساعدة التي ستتكرمين بتقديمها».

«آنا»

كل ما في هذه الرسالة غاظ الكونتيسة ليديا إيفانوفنا: المحتوى، والإشارة إلى الشهامة، ولا سيما اللهجة التي بدت لها طليقة.

قالت الكونتيسة ليديا إيفانوفنا:

– قل له ألا ينتظر الجواب.

وما لبثت أن فتحت النشّافة وكتبت إلى ألكسي ألكسندروفتش أنها تأمل أن تراه في الساعة الواحدة، في القصر، عند تقديم التهاني.

«يجب أن أحدثك عن أمر محزن ومهم. سوف نتفق على المكان. الأفضل أن يكون في بيتي حيث يُقدَّم لك الشاي. لا بدَّ من ذلك».

وأضافت من أجل أن تهيّئه للنبأ: «إنه يُعطي الصليب، لكنه يعطي القوة على حمل الصليب».

Tele: @Arab_Books

كانت الكونتيسة ليديا إيفانوفنا تكتب عادة بطاقتين أو ثلاثاً في اليوم لألكسي ألكسندروفتش. كانت تحب هذه الطريقة في التواصل، وهي طريقة تضفي على علاقاتهما الشخصية أناقة وخفاء كانا يعوزانها فيما عدا ذلك.

Tele: @Arab_Books

-٢٤-

انتهى الاحتفال. والذين انصرفوا أخذوا يتحدثون عن آخر أنباء اليوم: المكافآت والتنقلات.

قال شيخ قصير ببزة رسمية مقصّبة لوصيفة من وصيفات الشرف طويلة وجميلة:

– ما قولكِ لو عُيِّنتْ الكونتيسة ماري بريسوفنا وزيرة للحرب والأميرة فاتكوفسكي رئيسة للأركان؟

فأجابت الوصيفة:

– وأنا مرافقة عسكرية.

– أنتِ، أنت وزيرة للأديان من قبل... ومعك كارينينا وزير دولة. مرحباً، يا أمير.

قال ذلك وهو يشد على يد شخص اقترب منه.

قال الأمير:

– ماذا قلتَ عن كارينينا؟

Tele: @Arab_Books

– لقد حاز هو وبوتياتوف وسام ألكسندر نيفسكي[٢٨].

– كنت أظنه حائزاً له من قبل.

أشار الشيخ القصير بقبعته المقّرنة والمقصّبة إلى كارينينا الواقف في فرجة الباب يتحدث مع عضو متنفّذ من أعضاء مجلس الدولة، وقد تقلّد فوق بزة البلاط شريطاً أحمر جديداً، وقال:

– لا، انظر إليه.

وأضاف:

– إنه سعيد ومسرور مثل فلس جديد.

قال ذلك وهو يقف ليشدّ على يد حاجب ملكي، عريض المنكبين.

قال الحاجب:

– لا، لقد شاب.

– إنها الهموم. وهو يقضي وقته في تحرير المشروعات. في هذه اللحظة، لن يترك محدّثه المسكين قبل أن يَعرض عليه كل شيء نقطة فنقطة.

– لم يشب، بل إنه يعاني تباريح الهوى، أظن أن الكونتيسة ليديا إيفانوفنا لا بدَّ أن تكون غيرى من زوجته.

٢٨– «وسام ألكسندر نيفسكي»: أنشأته كاترين الأولى سنة ١٧٢٥ في ذكرى البطل الذي انتصر على السويديين على «النيفا» سنة ١٢٤٠. وكان مؤلفاً من شريط عريض أحمر ووسام، كما كان يعتبر وساماً رفيعاً.

Tele: @Arab_Books

– لا تذكر الكونتيسة ليديا إيفانوفنا بسوء، أرجوك.

– أهو سوء أن تكون عاشقة لكارينينا؟

– أصحيح أن السيدة كارينينا هنا؟

– ليست هنا في القصر، وإنما في بطرسبرج. صادفتُها أمس مع ألكسي فرونسكي، وهما متآبطان في «المورسكايا».

بدأ الحاجب يقول:

– هذا رجل ليس له...

لكنه توقّف ليتنحّى أمام شخص من العائلة الإمبراطورية وليحييه أثناء مروره.

وبينما كانوا يتحدثون هكذا عن ألكسي ألكسندروفتش منتقدين له وهازئين به، كان هو يسد طريق عضو مجلس الدولة، ويعرض عليه نقطة فنقطة مشروعه المالي، دون أن يتوقف لحظة واحدة لكي لا يُفلت منه.

في الوقت الذي تركته فيه زوجته تقريباً، أصيب بحادثة مؤلمة للموظف بخاصة: وهي توقّف مسيرته الصاعدة في مهنته. الجميع لاحظوا ذلك أما هو فلم يكن يتبين بعد أن مهمته قد انتهت. أكان ذلك لأنه اصطدم بستريموف. أكان ذلك مصيبة أم أنه قد بلغ حدوده المرسومة؟ لكن الثابت أنه قد بدا واضحاً للجميع في هذه السنة أن مهمته قد انتهت. كان ما يزال يشغل منصباً مرموقاً، وكان عضواً

Tele: @Arab_Books

في عدة هيئات ولجان، لكن زمنه انقضى و لم يعد يُرجى منه خير. ومهما يقل، مهما يقترح، فقد كان الناس يصغون إليه وكأن ما يقترحه شيء مُتداول وبال. لكن ألكسي ألكسندروفتش لم يتبين ذلك؛ على العكس، كان يرى الآن بعد أن نُحّي عن المشاركة المباشرة في الحكومة، عيوب الآخرين وأخطاءهم رؤية أوضح من أي وقت مضى، وكان يقدّر أن من واجبه تعيين الوسائل لتفادي ذلك. بعد سفر آنا بقليل، بدأ يكتب عن المحاكم الحديثة أول مبحث في سلسلة من المباحث التي لا نهاية لها ولا جدوى منها البتة، وبدأ يؤلّف في جميع فروع الإدارة.

لم يلاحظ ألكسي ألكسندروفتش هذا الانحطاط و لم يتأذ منه، بل إنه كان أكثر رضاً عن نشاطه من ذي قبل.

يقول بولس الرسول: «غيرُ المتزوج يهتم فيما للرب كيف يرضي الرب، وأما المتزوّج فيهتم للعالم كيف يُرضي امرأته»[٢٩]. كان ألكسي ألكسندروفتش الذي أخذ يرجع إلى الكتاب المقدس، في كل مناسبة، يردد هذه الجملة، وقد بدا له أنه بدأ يخدم الرب منذ هذه اللحظة، بمشاريعه الشهيرة، خدمة أفضل من ذي قبل.

لم يضطرب ألكسي ألكسندروفتش لنفاد صبر عضو مجلس الدولة الذي كان يرغب في استئذانه، و لم يقطع عرضَه إلا عندما انتهز محدّثه مرور شخصٍ من العائلة الإمبراطورية ليتخلّص منه.

وعندما بقي وحده أطرق رأسه، وجمّع أفكاره، ثم ألقى نظرة

٢٩- «غير المتزوج... امرأته»: الرسالة الأولى لأهل كورنتس الإصحاح السابع، ٣٣.

Tele: @Arab_Books

شاردة حوله، واتجه إلى الباب حيث كان يأمل أن يلقى الكونتيسة ليديا إيفانوفنا.

فكّر ألكسي ألكسندروفتش حين نظر إلى الحاجب القوي بعارضيه الممشوطين والمعطّرين، وإلى القذال الأحمر للأمير المحزوم في بزته، وكان لا بدَّ له من المرور بجانبها «ما أقواهم جميعاً وما أصح أجسامهم». وفكّر أيضاً وهو يلقي نظرة جانبية على ربلة ساق الحاجب: «بحق قيل: كل ما في هذا العالم كذب[٣٠]».

كان يمشي بلا استعجال، وانحنى بوجه وقور ومتعب لهؤلاء السادة الذين كانوا يتحدّثون عنه، ثم تطلّع إلى الباب، باحثاً بعينيه عن الكونتيسة ليديا إيفانوفنا.

قال الشيخ القصير، وفي عينيه بريق شرير، في اللحظة التي حاذاه فيها كارينينا وحيّاه بفتور:

آه! ألكسي ألكسندروفتش!

وأضاف وهو يشير إلى الوسام الذي ناله حديثاً:

- لم أهنئك بعد.

أجاب ألكسي ألكسندروفتش!

- شكراً.

٣٠- «كل ما في هذا العالم كذب»: استشهاد غير دقيق من رسالة يوحنا الرسول الأولى. الإصحاح الخامس، ١٩.

Tele: @Arab_Books

وأضاف:

- ما أجمل الطقس.

وشدد، كعادته، على لفظة «أجمل».

كان يعلم أنهم يهزؤون منه، لكنه ما كان ينتظر منهم سوى العداء: لقد تعوّد ذلك.

عندما شاهد كتفي الكونتيسة ليديا إيفانوفنا الصفراوين اللتين خرجتا من ثوبها، وعينيها الجميلتين الساهمتين، ابتسم كاشفاً عن أسنانه البيضاء، واقترب منها.

انشغل باله بما كانت تصطنعه ليديا إيفانوفنا من تزّين، في هذه الآونة الأخيرة. كان هدف هذه الزينة مخالفاً للهدف الذي تابعته قبل ثلاثين سنة. كانت آنذاك ترغب في أن تتزيّن ما وسعها التزيّن. أما الآن فإن زينتها، على العكس، متعارضة مع سنها وشخصها حتى إن همها الوحيد انحصر في تخفيف هذا التناقض بين لباسها ومظهرها. أما بالنسبة إلى ألكسي ألكسندروفتش فقد بلغتْ هدفها وبدت له فاتنة. كانت عنده هي الجزيرة الوحيدة لا للعطف وحده وإنما للحب في بحر العداء والسخرية الذي يحيط به.

كان يمر أمام صف من العيون الهازئة، وهو منجذبٌ بنظرتها العاشقة انجذاباً لا يُقهر كما تنجذب النبتة بالضوء.

قالت وهي تومئ بعينيها إلى الوسام:

Tele: @Arab_Books

– أهنئك.

هزّ كتفيه وهو يكبح ابتسامة الرضا، مغمضاً عينيه كأنما يقول: إن ذلك لا يمكن أن يُدخل السرور على نفسه. لكن الكونتيسة ليديا إيفانوفنا كانت تعلم أن ذلك من أعظم مباهجه وإن لم يعترف به.

سألته ملمّحة عن سيرج:

– كيف حال ملاكنا؟

قال ألكسي ألكسندروفتش وهو يرفع حاجبيه ويفتح عينيه:

– لا يمكنني أن أقول: إنني راض عنه كل الرضا. وسيتنيكوف غير مسرور منه كذلك. (سيتنيكوف هو المربي الذي عهد إليه بتربية سيرج). فهو –كما قلت لكِ– يُظهر كثيراً من البرودة إزاء المسائل الأساسية التي ينبغي أن تمسّ قلب كل إنسان وكل صبي.

قال ذلك وبدأ يعرض أفكاره حول الموضوع الوحيد الذي يهمه خارج مهنته: وهو تربية ابنه.

فعندما استأنف ألكسي ألكسندروفتش حياته ونشاطه، بمساعدة ليديا إيفانوفنا، أحس بضرورة العناية بتربية ابنه، وبما أنه لم يهتم بهذه المسألة من قبل، فقد كرّس بعض الوقت لدراسة هذا الموضوع دراسة نظرية. وبعد أن قرأ بعض الكتب عن الانتروبولوجيا والتربية والتعليم رسم خطة تربوية ودعا خير مُربّ في بطرسبرج لتطبيقها. وكانت المسألة تشغله باستمرار.

Tele: @Arab_Books

قالت ليديا إيفانوفنا باندفاع:

– صحيح، لكن قلبه؟ إني أرى فيه قلب أبيه، وبمثل هذا القلب لا يمكن للولد أن يكون سيئاً.

– ربما... أما أنا فإني أقوم بواجبي، وهذا كل ما أستطيع أن أفعله.

استأنفت الكونتيسة ليديها إيفانوفنا بعد صمت:

– تعال إلى منزلي. إن علينا أن نتحدث في موضوع مؤلم لك. أتمنى أن أدفع كل ما أملك لأجنّبك بعض الذكريات، لكن الآخرين لا يفكّرون مثلي. تلقّيت رسالة منها. «هي» هنا، في بطرسبرج.

ارتعش ألكسي ألكسندروفتش عند تذكيره بزوجته، لكن سرعان ما استقر على وجهه، بعد ذلك، جمود الموت الذي يُظهر عجزه الكلي في هذه القضية. وقال:

– كنتُ أتوقع ذلك.

رمتْه الكونتيسة ليديا إيفانوفنا بنظرة إعجاب، وهمتْ من عينيها دموع الانفعال أمام عظمة نفسه.

Tele: @Arab_Books

-٢٥-

عندما دخل ألكسي ألكسندروفتش القاعة الصغرى، الأنيقة في منزل الكونتيسة ليديا إيفانوفنا، المزيّنة باللوحات وبالخزف القديم، لم تكن ربة المنزل هنا.

كانت تستكمل زينتها.

وعلى منضدة مغطاة بغطاء صُفّ طقم الشاي الصيني والغلاية الفضية. ألقى ألكسي ألكسندروفتش نظرة شاردة على اللوحات المعروضة التي لا تُحصى والتي كانت تُزيّن القاعة، وجلس قرب الطاولة، وفتح إنجيلاً كان عليها. لكن حفيف ثوب الكونتيسة الحريري حوّل انتباهه.

قالت الكونتيسة ليديا إيفانوفنا وهي تنسلّ بين الطاولة والأريكة، وعلى شفتيها ابتسامة التأثّر:

– آه! الآن سنكون مطمئنين، وسنتحدّث قليلاً ونحن نتناول شاينا.

وبعد مقدمة من بضع كلمات سلّمته الكونتيسة ليديا إيفانوفنا الرسالة التي تلقتها، وهي تتنفّس بمشقة وتحمرّ.

Tele: @Arab_Books

وبعد أن قرأ الرسالة، صمت برهة طويلة. ثم قال بوجل وهو يرفع عينيه:

- لا أظن من حقي رفض طلبها.

- يا صديقي، إنك لا ترى الشر في أي مكان.

- على العكس، إني أراه في كل مكان لكن أمن العدل أن...

عبّر وجهه عن التردد وعن طلب النصيحة، والسند، والتوجيه في مسألة لا يفقه منها شيئاً.

قاطعته الكونتيسة ليديا إيفانوفنا:

- لا، هناك حدود لكل شيء.

وأضافت من غير أن تكون صادقة تماماً لأنها لم تفهم قط ما يدفع النساء إلى انتهاك القوانين الأخلاقية:

- إني أفهم الخلاعة، لكني لا أفهم الوحشية، وتجاه مَنْ؟ تجاهك! كيف يجوز لها أن تبقى في مدينة أنتَ فيها؟

آه! صحيح، لا يكبر الإنسان عن التعلّم! لقد تعلّمتُ حين عرفتُ سموّك الأخلاقي ودناءتها.

قال ألكسي ألكسندروفتش، وهو ظاهر الرضا عن دوره:

- مَنْ سيرميها بأول حجر؟ لقد صفحتُ عن كل شيء ولا أستطيع أن أحرمها ما هو حاجة من حاجات حبها لابنها...

Tele: @Arab_Books

- لكن، أهذا من الحب، يا صديقي؟ أهو حب صادق؟ ولنقبل بأن تصفح أيضاً مثلما صفحتَ من قبل... أيحق لنا أن نهزّ نفس هذا الملاك؟ إنه يظنها ميتة، ويصلّي من أجلها، ويضرع إلى الله كي يغفر لها خطاياها... الأمر أفضل هكذا. فماذا سيقول الآن؟

قال ألكسي ألكسندروفتش وقد ظهر عليه القبول:

- لم أفكرْ في ذلك.

غطّت الكونتيسة ليديا إيفانوفنا وجهها بيديها وصمتت. كانت تصلّي. ثم قالت بعد أن صلّت ورفعت يديها عن وجهها:

- إن سألتني رأيي، فأنا لا أنصحُك بذلك. أتظنني لا أرى أنك تتألم وأن هذا الأمر قد نكأ جراحَك كلها؟ لكن لنفرض أنك تنسى نفسك، كما يقع لك دائماً، فإلى أين سيُفضي بك ذلك؟ إلى آلام جديدة؛ وإلى عذابات جديدة بالنسبة إلى ابنك. وإذا كان قد بقي فيها شيء من الإنسانية فينبغي ألا ترغب في ذلك. لا، إني أنصحك، دون تردد، بالعدول عن ذلك، وسأكتب إليها إذا سمحتَ بذلك.

وافق ألكسي ألكسندروفتش وكتبت الكونتيسة ليديا إيفانوفنا الرسالة التالية بالفرنسية:

«سيدتي العزيزة

إن ذكراك يمكن أن تثير، لدى ابنك، أسئلة لا يمكن الجواب عنها دون أن يُدفَع الصبي إلى نقد ما ينبغي أن يظل مقدّساً عنده. ولذلك

Tele: @Arab_Books

أرجوك، أرجوك أن تفهمي رفض زوجك بروح المحبة المسيحية. وأنا أدعو الخالق أن يرأف بك».

«الكونتيسة ليديا»

بلغتْ هذه الرسالة الهدف الخبيء الذي كانت الكونتيسة ليديا إيفانوفنا تخفيه عن نفسها: لقد جرحت آنا حتى أعماق نفسها.

ومن جهة أخرى، فإن ألكسي ألكسندروفتش، بعد أن رجع من عند ليديا إيفانوفنا، لم يستطع، في هذا اليوم، أن ينصرف إلى مشاغله العادية ولا أن يجد هذه السكينة الداخلية لمؤمن مقتنع بخلاصه، وهي سكينة عرفها من قبل.

إن ذكرى امرأته، المذنبة بحقه والتي تصرّف إزاءها كما يتصرّف القديسون، على حدّ قول الكونتيسة، ما كان ينبغي أن تُدخل الاضطراب إلى نفسه؛ لكنه لم يكن مطمئناً؛ لم يكن بمقدوره أن يفهم الكتب التي يقرؤها، ولا أن يصد الذكريات المعذّبة لعلاقته بها، وللأخطاء التي بدا له الآن أنه ارتكبها. إن ذكرى الطريقة التي استقبل بها اعترافها بخيانتها وهما عائدان من السباق (طالباً منها فقط مراعاة أصول اللياقة، دون أن يدعو فرونسكي إلى المبارزة) كانت تعذّبه كما يعذّبه الندم. كان يتعذب أيضاً بفكرة الرسالة التي كتبها إليها، والصفح الذي منحها إياه من غير أن يحتاج إليه أحد، والعناية التي غمر بها الطفلة التي ليست منه: كان كل ذلك يحرق قلبه خجلاً وندماً.

كان يشعر اليوم بنفس الشعور وهو يستعيد ماضيه معها ويتذكر الكلمات الخرقاء التي قالها وهو يخطبها بعد ترددات طويلة.

Tele: @Arab_Books

قال في نفسه: «لكن فيمَ أنا مذنب؟ وهذا السؤال استدعى سؤالاً آخر: كل هؤلاء الناس من أمثال فرونسكي وأوبلونسكي... كل أولئك الحجّاب الامبراطوريين ذوي الربلات الغليظة، أكانوا يحسّون ويحبّون ويتزوّجون على نحو مختل؟ واستعرض في ذاكرته طائفة من هؤلاء الناس الأقوياء، المرفّهين، الواثقين من أنفسهم، الذين استرعوا انتباهه دائماً، بالرغم منه، أينما وجدهم. كان يدفع عنه هذه الأفكار ويجهد في إقناع نفسه أنه لا يحيا من أجل هذه الحياة الزائلة على الأرض، لكن من أجل الحياة الأبدية، وأن الحب والسلام يسكنان نفسه. لكنه فكر: إن بعضاً من هذه الأخطاء التافهة التي ارتكبها في هذه الحياة الزائلة والحقيرة كانت تُقضّ مضجعه. كما لو أن الخلاص الأبدي الذي يؤمن به لم يكن موجوداً، بيد أن هذا الإغواء لم يدم طويلاً، وسرعان ما عادت إلى نفسه تلك السكينة وعاد إليها ذلك السمو الروحي، وبفضلهما استطاع أن ينسى ما لم يكن يحب أن يتذكّره.

Tele: @Arab_Books

-٢٦-

قال سيريوجا الذي عاد من نزهته محمراً ومنتعشاً، عشية عيد ميلاده، بينما كان الحاجب العجوز ينزع معطفه وهو يتبسم للفتى من أعلى قامته:

– وبعد! يا كابيتونيتش؟ هل جاء الموظف ذو العصابة؟ وهل استقبله أبي؟

قال الحاجب وهو يغمز غمزة فرحة:

– نعم. ولقد أعلنتُ عن وصوله عندما انصرف رئيس مكتبه. اسمح لي أن أنزع عنك معطفك.

ناداه المربي الصربي، على عتبة الباب الذي يؤدي إلى الشقق:

– سيريوجا! اخلعْ ملابسك بنفسك!

ومع أن سيريوجا سمع صوت المعلم الضعيف، لكنه لم يعره انتباهاً. وظل هنا ممسكاً الحاجب بحمالته، ناظراً إليه في وجهه:

– وهل فعل له أبي ما يلزم؟

Tele: @Arab_Books

فأومأ الحاجب برأسه إيجابياً.

إن الموظف ذا العصابة الذي جاء سبع مرات يطلب شيئاً من ألكسي ألكسندروفتش أثار اهتمام سيرج والحاجب معاً. لقيه سيريوجا ذات يوم في البهو وسمعه يرجو الحاجب بصوت شاكٍ لكي يُعلن عن وصوله، قائلاً: إنه إذا لم يلق ألكسي ألكسندروفتش فسوف يُحكَم عليه وعلى أولاده بالموت.

ومنذ هذا اليوم، اهتم به سيريوجا، وكان قد لقيه مرة ثانية في البهو.

وسأله:

– أكان مسروراً جداً؟

– لا شك، فقد رجع وهو يكاد يثب!

سأله سيريوجا بعد أن صمت لحظة:

– هل جاءني شيء؟

قال الحاجب بصوت خفيض وهو يهز رأسه:

– نعم، يا سيدي؛ من عند الكونتيسة.

وأدرك سيريوجا في الحال أن ما جاءه هدية من الكونتيسة ليديا إيفانوفنا بمناسبة عيد ميلاده.

– ماذا تقول؟ أين؟

Tele: @Arab_Books

– حملها «كورني» إلى غرفة أبيك. لا بدّ أن يكون شيئاً جميلاً!

– كيف، أهو كبير؟ هكذا؟

– لا، أصغر، لكنه جميل.

– كتاب؟

قال الحاجب وهو يسمع خطوات المربي:

– لا، هو شيء، اذهب، اذهب، «بازيل لوكيتش[٣١]» يدعوك.

ودفع برفق اليد الصغيرة المنزوعة القفاز نصفياً والمتشبّثة بحمالته، وغمز بعينه صوب المربي لوكيتش.

أجاب سيريوجا بهذه الابتسامة المرحة المتوددة التي كانت تسحر دائماً «بازيل لوكيتش» الصارم:

– في الحال.

كان سيريوجا أعظم سعادة من ألا يشرك صديقه الحاجب في فرحته العائلية التي أطلعته عليها، أثناء نزهته في حديقة الصيف، ابنة أخت الكونتيسة ليديا إيفانوفنا. وهذه الفرحة بدت له عظيمة الأهمية، ولا سيما أنها توافقت مع فرحته بالموظف وفرحته باللعبة التي حُملتْ إليه. وخُيل إليه أن جميع الناس ينبغي أن يكونوا سعداء وفرحين في هذا اليوم.

٣١– «بازيل لوكيتش فونتيش»: المربي الصربي لسيرج كارينينا.

Tele: @Arab_Books

– أتعلم أن أبي نال وسام ألكسندر نيفسكي؟

– لا شك أني أعلم! وقد جئنا قبل حين لتهنئته.

– أهو مسرور؟

قال الحاجب بلهجة رصينة، متصنعة الوقار:

– الناس يُسرّون دائماً بحظوة القيصر. ذلك أنه استحقها.

أخذ سيريوجا يفكر، وهو يتأمل وجه الحاجب الذي يعرفه حتى في أدنى تفاصيله، ولا سيما الذقن المعلّقة بين عارضيه الرماديين والتي لم يكن يراها أحد إلا سيريوجا لأنه لم يكن يتطلع إلى صديقه إلا من تحت.

– أمن زمن بعيد جاءت ابنتك لتراك؟

كانت ابنة الحاجب أحد أعضاء فرقة الباليه.

– ليس لديها من الوقت ما يسمح لها بالمجيء أسبوعياً. فهي تدرس أيضاً. اذهب إلى درسك، يا سيدي.

عندما ذهب سيريوجا إلى غرفته، روى لمربيه، بدلاً من أن يجلس، أنه يفترض أن تكون الهدية التي حُملت إليه قاطرة، وسأله:

– ما رأيك؟

لكن بازيل لوكيتش لم يكن يفكر إلا في تحضير درس القواعد للأستاذ الذي سيأتي في الساعة الثانية.

وسأل فجأة وقد استقر إلى طاولته، وبين يديه كتاب:

Tele: @Arab_Books

- لا، قل لي، يا بازيل لوكيتش، هل هناك وسام فوق وسام ألكسندر نيفسكي؟ أنت تعلم أن أبي نال وسام ألكسندر نيفسكي.

أجاب بازيل لوكيتش أن هناك وسام القديس فلاديمير[٣٢].

- وفوقه؟

- وسام القديس أندريه؟

- وفوق وسام القديس أندريه[٣٣].

- لا أدري.

- كيف، حتى أنت لا تدري ذلك؟

واستغرق سيريوجا في تفكيره وهو متكئ إلى الطاولة. كانت هذه الأفكار كأشد ما تكون تعقّداً وتنوعاً. كان يتصور أن أباه سينال وسامي القديس فلاديمير والقديس أندريه معاً، وأنه سيكون اليوم أكثر تساهلاً في درسه، وأنه سينال، عندما يكبر، جميع الأوسمة حتى التي سيخترعونها فوق القديس آندريه. فما يكادون يخترعونها

٣٢- «وسام القديس فلاديمير»: وسام أنشئ في ١٧٨٢ بأمر كاترين الثانية للمآثر المدنية؛ والدرجة الأولى منه تتألف من شريط أحمر بحاشية سوداء مع رصيعة الوسام.

٣٣- «وسام القديس أندريه»: أعلى وسام في الإمبراطورية أنشأه بطرس الأكبر في ١٦٩٨ على شرف الرسول أندريه، الذي كان مبشراً بالإنجيل بين السلتيين واعتبر حامياً لروسيا. وكان الوسام ذو الشريط السماوي لا يمنح إلا للملوك والأمراء الأجانب، ونادراً لأصحاب المقامات الروس.

Tele: @Arab_Books

حتى يستحقها. وسيخترعون أوسمة لا تني تعلو بعضها فوق بعض، وسوف يستحقها جميعاً.

مضى الوقت في هذه الأفكار، وعندما وصل الأستاذ لم يكن درسا المفعول به والحال محضّرين. لم يستأ الأستاذ فحسب بل إنه اغتمّ. وتأثر سيريوجا بغمِّ أستاذه. لم يكن يحسّ أنه مخطئ؛ لم يكن بمقدوره أن يفهم دروسه، مهما يبذل من جهد؛ كان يُخيّل إليه أنه يفهم هذه الدروس عندما يشرحها أستاذه، فإذا خلا بنفسه لم يميز بين الحال والمفعول به؛ لكنه تأسف لأنه غمّ أستاذه.

اختار دقيقة كان الأستاذ يبحث فيها عن شيء في الكتاب دون أن يقول شيئاً، وسأله فجأة:

– ميشيل إيفانوفتش، في أي الأيام عيدك؟

– الأَوْلى بك أن تفكر في عملك، فليس ليوم العيد أهمية عند الكائن العاقل. إنه يوم كسائر الأيام، يجب أن يعمل المرء فيه.

نظر سيريوجا بإمعان إلى أستاذه، إلى لحيته المتناثرة الشعر، إلى نظارتيه اللتين انزلقتا على أنفه، وتاه في أفكاره العميقة إلى الحد الذي لم يسمع فيه هذه المرة شيئاً مما يشرحه أستاذه. وأدرك أن أستاذه لم يكن يفكر فيما يقوله، أدرك ذلك من اللهجة التي قال فيها ما قاله. وتساءل الصبي بحزن دون أن يتمكن من العثور على الجواب: «لكن لم يتفقون جميعاً ليقولوا لي بالطريقة نفسها مثل هذه الأشياء المملة والتي لا فائدة منها؟ لِمَ ينبذني؟ لِمَ لا يحبني؟».

Tele: @Arab_Books

-٢٧-

بعد درس الأستاذ جاء درس الأب. كان سيريوجا جالساً إلى طاولته ينتظره ويعبث بالمدية ويتابع تأملاته. كان أحد مشاغله المفضلة أن يبحث عن أمه أثناء نزهته. لم يكن يؤمن بالموت على العموم، وبخاصة موت أمه، بالرغم مما قالته له ليديا إيفانوفنا وما أكّده له أبوه: ولذلك ظل يبحث عنها أثناء نزهاته، بعد أن قيل له إنها ميتة. وكل النساء الرشيقات، السمراوات، القويات قليلاً، كن أمه. فإذا شاهد واحدة منهن تملّك نفسه شعور من الحنان العارم إلى حدّ يختنق معه وتستبق الدموع إلى عينيه. وكان يأمل دائماً أن تأتيه إحدى هؤلاء النسوة وترفع غلالتها، وتُسفر عن وجهها، وتبتسم، وتأخذه بين ذراعيها، فيحسّ عطرها، وعذوبة يدها، ويأخذ بالبكاء من السعادة مثل ذلك المساء الذي ظل فيه مضطجعاً عند قدميها حيث دغدغته، وحيث ضحك حتى سالت دموعه، وحيث عض يدها البيضاء المُثقلة بالخواتم. وفيما بعد، عندما أخبرته مربيته أن أمه لم تمت وعندما شرح له أبوه وليديا إيفانوفنا أنها ميتة بالنسبة إليه لأنها سيئة (وهو ما لم يمكنه تصديقه لأنه كان يحبها) ظل يبحث عنها وينتظرها كأن شيئاً لم يكن. ولقد رأى اليوم، في حديقة الصيف سيدة في غلالة ليلكية، وتطلع إليها وهي تدنو على طول الطريق، وقد ذهب قلبه، آملاً أن تكون

Tele: @Arab_Books

هي. لكن هذه السيدة لم تصل إليه وتوارت. لقد كان يحس اليوم، على نحو أعنف من أي يوم مضى، أنه يفيض حباً لها، وكان ينتظر أباه وهو يشطب بمديته حافة الطاولة، شاخصاً أمامه، بادي الشرود، ملتمع العينين، مفكراً في أمه.

قال له بازيل لوكيتش:

– وصل أبوك.

نهض سيريوجا بغتة، وأقبل على أبيه، وبعد أن قبّل يده، أمعن النظر فيه، باحثاً في وجهه عن أمارات فرحته بنيل وسام ألكسندر نيفسكي.

جلس ألكسي ألكسندروفتش في مقعده وفتح مجلد «العهد القديم». ومع أنه قال لابنه عدة مرات: إن على كل مسيحي أن يعرف معرفة تامة الكتاب المقدس، فقد كان يرجع، في الغالب إلى العهد القديم، من أجل درسه: لقد لاحظ الصبي ذلك.

وسأل ابنه:

– هل سُررت بنزهتك؟

قال سيريوجا وقد جلس جانبياً على كرسيه وأخذ يتمايل، وهو ما مُنع منه:

– نعم، تسلّيت كثيراً. ورأيت ناديا (ناديا هي ابنة أخت ليديا إيفانوفنا التي تكفّلت بتربيتها). قالت لي إنك نلتَ وساماً جديداً. هل أنت مسرور، يا أبي؟

Tele: @Arab_Books

قال ألكسي ألكسندروفتش:

– أولاً، لا تمايل، أرجوك، وثانياً، إن العمل هو العزيز علينا، لا المكافأة. وأحب أن تفهم ذلك. فإذا عملتَ وتعلّمت من أجل أن تحصل على مكافأة بدا لك العمل شاقاً؛ أما إذا عملت وأنت تحب ما تعمله، وجدت مكافأتك في العمل. (تذكّر ألكسي ألكسندروفتش أنه اضطر، في هذا الصباح، إلى توقيع مائة وثماني عشرة ورقة، وأنه لم يشد أزره في هذا العمل القاسي سوى شعوره بالواجب).

أظلمتْ عينا سيريوجا الملتمعتان بالحنان والمرح أمام نظرة أبيه. وكان ألكسي ألكسندروفتش يصطنع دائماً هذه اللهجة وهو يخاطب ابنه، وتعلم الصبي أن يمتثل لها. كان أبوه يكلّمه –كان هذا انطباعه على الأقل– وكأنه يتحدث مع صبي خيالي لا يجمعه به جامع، كالصبيان الذين يظهرون في الكتب. وكان سيريوجا يبذل وسعه، بحضور أبيه، لكي يُشبه ذلك الصبي.

قال له أبوه:

– أرجو أن تفهم.

أجاب سيريوجا وهو يلعب دور الصبي الخيالي:

– نعم، يا أبي.

كان الدرس ينحصر في استظهار بعض آيات الإنجيل وتلاوة الفصول الأولى من العهد القديم. كان سيريوجا حافظاً لدرسه، لكنه

Tele: @Arab_Books

استغرق، وهو يتلوه، في تأمل عظمة أبيه الجبهية التي كانت تشكل زاوية حادة قرب الصدغ، حتى إنه تخبط في التلاوة وخلط بين آيتين تنتهي الأولى بنفس الكلمة التي تبدأ بها الثانية. وكان واضحاً، بالنسبة إلى ألكسي ألكسندروفتش، أنه لم يكن يفهم ما يقوله. فضايقه ذلك.

قطّب بين حاجبيه واسترسل في شرح سمعه سيريوجا عدداً من المرات ولم يستطع أن يتذكره لأنه خلا مما يُفهم، كالتفريق بين الحال والمفعول فيه. كان سيريوجا ينظر إلى أبيه بوجه خائف وهو لا يفكّر إلا في شيء واحد: أيطلب إليه أبوه ترديد ما قاله، كما يفعل في بعض الأحيان؟ هذه الفكرة أرعبته إلى الحد الذي لم يعد يفهم شيئاً معه. لكن أباه لم يطلب ذلك وانتقل إلى درسه في العهد القديم. استطاع سيريوجا أن يروي الأحداث لكنه عندما لزمه تفسير ما تمثّله هذه الأحداث مسبقاً، انذهل مع أنه كان قد عوقب من أجل هذا الدرس. وعندما بلغ الحديث الشيوخ الذين سبقوا الطوفان، لم يستطع أن يقول شيئاً: تردد، وأخذ يشطب الطاولة بمديته، وتمايل على كرسيه. لم يكن يتذكر سوى «أنوش» الذي رُفع حياً إلى السماء. قبل لحظة، كان يتذكر أسماء آخرين، أما الآن فقد نسيها كلياً؛ وجزء من نسيانه يعود إلى أن «أنوش» كان شخصيته المفضلة من كل العهد القديم، وإلى أن رفع أنوش إلى السماء يرتبط، في ذهنه، بمجموعة من الأفكار التي كانت تستغرقه استغراقاً تاماً وهو شاخص إلى سلسلة ساعة أبيه وإلى زر في صدرته كاد يخرج من عروته.

لم يكن سيرج يؤمن بالموت الذي كثيراً ما حدّثوه عنه. لم يكن يؤمن أن الناس الذين يحبهم أو هو نفسه يمكنهم أن يموتوا. كان ذلك شيئاً

Tele: @Arab_Books

غير ممكن وغير مفهوم كلياً. لكن قد قيل له: إن جميع الناس يموتون، واستعلم عدداً من الأشخاص الذين يثق بهم فأيّدوا له هذه الأقوال: أجابته مربيته بهذا المعنى، وإن كان جوابها على مضض. لكن بما أن «أنوش» لم يمت، فمعنى ذلك أن جميع الناس لا يموتون. وفكر سيريوجا: «لم إذن لا يستحق كل واحد أن يرتفع حياً إلى السماء؟» الشريرون، وبعبارة أخرى الذين لا يحبهم سيريوجا، يمكن أن يموتوا، أما الصالحون فيمكن أن يكونوا مثل «أنوش».

– حسناً! ومَنْ هم الشيوخ؟

– أنوش... أنوش.

قال له أبوه وهو ينهض:

– لقد ذكرته. هذا سيّئ، سيّئ جداً. إذا كنتَ لا تبذل جهداً لتتعلم ما هو أشد ضرورة من غيره للمسيحي، فما الذي يثير اهتمامك إذن؟ أنا مستاء منك و«بيير إيفناتييفتش» (كان هذا هو المربي الرئيسي) مستاء منك أيضاً... وأنا مُضطر إلى معاقبتك.

كان أبوه ومعلمه مستاءين كليهما من سيريوجا، والواقع أنه كان قليل الاجتهاد. ومع ذلك، فالقول بأن هذا الولد لم يكن موهوباً غير جائز. على العكس، لقد كان، في نظر أبيه، يرفض أن يتعلم ما يُلقى عليه. والواقع أنه لم يكن يستطيع أن يدرس. لم يكن يستطيع ذلك لأن نفسه كانت تحتوي على مطالب أكثر إلحاحاً من التي يعرضها عليه أبوه ومربّيه. وهذه المطالب المتنوعة كانت تتعارض فيما بينها. ولذلك كان في صراع دائم مع مربّيه.

Tele: @Arab_Books

كان طفلاً، ابن تسع سنوات. لكنه كان يعرف نفسه، وكانت نفسه عزيزة عليه، وكان يحميها، كما يحمي الجفن العين، من الذين يريدون أن يلجوها بغير مفتاح الحب. كان مربّوه يَشكون من أنه يأبى أن يتعلّم في حين أنه كان متعطشاً إلى المعرفة. وإذا كان يتعلم فذلك مع كابيتونيتش، مع مربّيته، مع ناديا، مع بازيل لوكتيش، لا مع أساتذته. فهذا الماء الذي كان ينتظره أبوه ومعلمه، قد تسرّب منذ زمن بعيد إلى أرض أخرى وأخذ يفعل فيها فعله.

منعه أبوه أن يرى ناديا، ابنة أخت ليديا إيفانوفنا، عقاباً له؛ لكن هذا العقاب انقلب إلى مصلحته. ذلك أن بازيل لوكيتش الذي كان مبتهجاً في هذا اليوم، أراه كيف تُصنع الطواحين الهوائية. وقضى مساءه يصنع طاحونة ويحلم بالوسيلة التي يستخدم بها مثل هذه الطاحونة ليحوّم في الهواء؛ أينبغي أن يربط نفسه بها أو يتشبث فقط بجناحيها؟ لم تخطر أمه بباله طوال المساء، لكنه ما إن أوى إلى فراشه حتى تذكّرها فجأة وصلّى، بطريقته الخاصة، لكي تكفّ أمه عن التخفّي وكي تجيء إليه في اليوم التالي من أجل عيده.

– أتدري، يا بازيل لوكيتش، ماذا طلبتُ فوق ذلك؟

– أن يتحسّن عملُك؟

– لا.

– لُعَباً؟

– لا، لن تحزر، أمر عجيب لكنه سر. سأطلعك عليه إذا ما حدث... ألم تحزره؟

Tele: @Arab_Books

قال بازيل لوكيتش مبتسماً، وقلما كان يبتسم:

- لا، ستقوله لي. نم، سأطفئ الشمعة.

قال سيريوجا وقد أخذ يضحك بفرح:

- بدون ضوء، أرى رؤية أفضل ما طلبته في صلاتي. كدت أبوح لك بسرّي.

وعندما حُملتْ الشمعة. أحس سيريوجا بحضور أمه. كانت واقفة بجانبه تغمره بنظرتها المحبة. لكن الطواحين والمدية جاءت لتختلط بها، فتشوّش كل شيء... وأغفى.

Tele: @Arab_Books

-٢٨-

نزل فرونسكي وآنا في فندق من أفخم فنادق بطرسبرج. فرونسكي في الطابق الأرضي. وآنا مع الطفلة والمرضع وخادمتها في شقة واسعة من أربع غرف، في الطابق الأول.

قصد فرونسكي، في يوم وصوله بالذات، إلى منزل أخيه. فوجد أمه هناك، وقد جاءت من موسكو لشؤونها. واستقبلته أمه وزوجة أخيه كعادتهما: سألتاه عن رحلته إلى الخارج وحدّثتاه عن معارفهم المشتركين، لكنهما لم تلمّحا ولو مرة واحدة إلى آنا. وبالمقابل فإن أخاه بادره بالكلام عليها عند زيارته له في اليوم التالي. وأعلمه ألكسي ألكسندروفتش صراحة أنه يعتبر علاقته بآنا كارنينا زواجاً وأن في نيته الحصول على الطلاق الذي يتيح له الزواج منها، لكنه يعتبرها، في هذه الأثناء، زوجة شرعية له، ورجاه أن ينقل هذا الكلام إلى أمه وزوجة أخيه.

قال فرونسكي:

- ليُنحِ علي الناس باللائمة، فلست أبالي، لكن إذا كانت أسرتي ترغب في أن تظل علاقتها حسنة بي فمن الضروري أن تكون علاقتها بزوجتي حسنة أيضاً.

Tele: @Arab_Books

لم يدرِ الأخ الأكبر، وكان شديد الاحترام لآراء أخيه الأصغر، إن كان ألكسي على حق أم لا ما دام الناس لم يبتّوا في هذه المسألة؛ وهو نفسه لم يكن له مأخذ عليه فذهب إلى زيارة آنا مع أخيه.

كان فرونسكي يخاطب آنا، في حضور أخيه أو غير أخيه أيًّا كان، بضمير الجمع، ويعاملها كما تُعامل الصديقة الحميمة لكن آنا كانت تعلم ضمناً أن أخاه مطّلع على علاقاتهما، ولذلك جرى الكلام على المشروع آنا في الذهاب إلى ممتلكات فرونسكي لتعيش فيها.

ارتكب فرونسكي، بالرغم من تجربته بين الناس، خطأ فادحاً، نتيجة للوضع الجديد الذي ألفى نفسه فيه. كان ينبغي له أن يفهم، فيما يبدو، أن المجتمع سيظل مغلقاً في وجهيهما. على العكس، لقد وُلدت في ذهنه تصوّرات مشوّشة أوحتْ إليه أن الأمر كان كذلك في الزمن الماضي، أما الآن فإن رأي المجتمع تغير بفضل التقدم السريع (ولقد غدا هو حديثاً نصيراً لجميع أصناف التقدّم، دون أن يدرك ذلك) وإن مسألة استقبال الناس لآنا وله لم تحلّ بعد. وفكر: «لا شك أن المجتمع الرسمي لن يستقبلها، لكن أقرباءنا يمكن وينبغي لهم أن يفهموا الوضع فهماً مناسباً».

يمكن للمرء أن يظل جالساً عدة ساعات، متصالب الساقين في الوضع ذاته، إذا كان يعلم أن لا شيء يمنعه من تغيير وضعه، لكنه إذا علم أنه يجب عليه أن يظل جالساً مطويّ الساقين أصابه التشنّج وسعت ساقاه غريزياً إلى الاسترخاء. هذا بالضبط ما عاناه فرونسكي إزاء الناس. ومع أنه كان يعلم في أعماقه أن المجتمع مُغلق في وجهيهما، فقد ظل يتساءل إن كان المجتمع لم يتغير وإذا كان الناس لا يستقبلونها.

Tele: @Arab_Books

لكنه اضطر بعد قليل إلى أن يرضخ لأحكام الواقع؛ وإذا كان المجتمع قد ظل مفتوحاً له فقد ظل مغلقاً في وجه آنا. وذلك كما هي الحال في لعبة الهر والفأر، فالأيدي المرفوعة لا تلبث أن تنخفض أمام آنا.

إحدى أوليات النساء التي رآها في مجتمع بطرسبرج كانت ابنة عمه بيتسي.

هتفت بيتسي بفرح حين شاهدته:

– جئت أخيراً! وآنا؟ ما أعظم سروري! أين نزلتما!؟ أعتقد أن بطرسبرج ستبدو لك شنيعة بعد رحلة ممتعة كرحلتك. إني أتصور شهر العسل الذي قضيتماه في روما. والطلاق؟ هل سوّي كل شيء؟

لاحظ فرونسكي أن حماسة بيتسي فترت منذ أن علمت أن الطلاق لم يتم.

قالت:

– سيَسلقني الناس بألسنة حداد، أعلم ذلك، لكني سأذهب لأرى آنا، نعم، سأذهب لا محالة، ألن تبقوا طويلاً؟

وبالفعل، جاءت في اليوم نفسه لتزور آنا؛ لكن لهجتها لم تكن هي نفسها. كان واضحاً أنها تفتخر بجسارتها وتريد من آنا أن تُكبر دليل الأمانة والمحبة هذا. لم تبق أكثر من عشر دقائق تحدّثت فيها عن أخبار اليوم وقالت قبل أن تنصرف:

– لم تقولي لي بعد متى سيتم الطلاق؟ لنفرض أنني تحدّيت الآداب

Tele: @Arab_Books

العامة، لكن الذين يتصنعون الأخلاق سيُشيحون عنكما ما لم تتزوجا. والأمر سهل الآن. إنه يحدث. وهكذا، ستسافرين نهار الجمعة؟ من المؤسف أننا لن نتلاقى حتى ذلك الموعد.

كان حرياً بفرونسكي أن يدرك، من لهجة بيتسي، ما ينتظره في المجتمع، لكنه جرّب تجربة أخرى مع أسرته، لم يكن يرجو خيراً من أمه. كان يعلم أنها فُتنت بآنا عند لقائهما الأول، وأنها غدت الآن لا ترحم تلك التي حطّمت حياة ابنها. لكنه كان يعتمد كثيراً على زوجة أخيه فاريا. كان يعتقد أنها لن تغتابهما وأنها ستأتي ببساطة وجرأة لترى آنا، وأنها ستستقبلها.

ومنذ اليوم التالي لوصولهما، توجه فرونسكي إليها وأعرب لها عن رغبته دون لف ولا دوران.

قالت له بعد أن أصغت إليه حتى النهاية:

– أنت تعلم، يا ألكسي، كم أحبك وكم أنا مستعدة لعمل كل شيء في سبيلك. وإذا كنت قد صمتُّ فذلك لعلمي أنني لا يمكن أن أنفعك في شيء، لا أنت ولا آنا أركادييفنا، (ولفظت بعناية: «آنا أركادييفنا»). لا تظن أنني أُصدر حكمي عليها. أبداً: وربما لو كنتُ محلها لتصرّفتُ مثلها.

وأضافت وهي تلقي بين الحين والآخر نظرة وجلة على وجهه المتجهم:

– إني لا أتطرق ولا يمكن أن أتطرّق إلى التفاصيل. لكن يجب أن

Tele: @Arab_Books

نسمّي الأشياء بأسمائها. أنت تريد أن أذهب لأراها وأن أستقبلها وأن أرد لها اعتبارها في المجتمع بهذه الطريقة؛ لكن يجب أن تعلم أنني لا أستطيع أن أفعل ذلك. إن لي بنات يكبرن وأنا مُضطرة إلى العيش في المجتمع بسبب زوجي. ولنفرض أنني ذهبت لزيارة آنا أركاديفنا؛ سوف تفهم هي أنني أستطيع دعوتها إلى بيتي أو على الأقل إنني يجب أن أتصرف بحيث لا تلاقي الذين ينظرون إلى الأشياء نظرة مختلفة: ستكون هي أول مَنْ يهان بسبب ذلك. لست أستطيع أن أُقيلَها من عثرتها...

قاطعها فرونسكي وقد ازداد تجهماً:

– لكني أقدّر أنها لم تعثر أكثر من مئات النساء اللواتي تستقبلينهن!

ونهض دون أن يقول كلمة لأنه أدرك أن قرار زوجة أخيه قرار لا رجوع عنه.

واستأنفت فاريا وهي تنظر إليه بابتسامة وجلة:

– ألكسي! لا تغضب علي. أرجوك، اعلمْ أن الغلطة ليست غلطتي.

قال لها وهو ما يزال متجهماً:

– لست غاضباً عليك. لكن ما قلته يؤلمني مرتين. وأنا آسف لأن ذلك سيحطّم صداقتنا. ولنقل إنه لن يحطّمها، لكنه سيُضعفها. واعلمي أن الأمور لا يمكن أن تكون غير ذلك بالنسبة إلي.

Tele: @Arab_Books

قال هذه الكلمات وغادرها.

أدرك فرونسكي أن من العبث القيام بمساع أخرى، وأن عليهما أن يقضيا هذه الأيام في بطرسبرج وكأنهما في مدينة أجنبية، وأن يتحاشيا الاتصال بوسطهما القديم، لكي لا يتعرّضا للمزعجات وللإهانات التي كانت تجرحه جرحاً شديد العمق. أحد هذه المزعجات الأساسية هو أن اسمه كان مقترناً دائماً باسم ألكسي ألكسندروفتش. كان من المستحيل أن يدور الحديث على أي شيء دون أن يُعرّج على ألكسي ألكسندروفتش؛ ولم يكن ممكناً الذهاب إلى أي مكان دون التقائه. كان ذلك على الأقل هو إحساس فرونسكي، كالرجل الذي له إصبع مريضة ويظن أنه يصدم هذه الإصبع الموجوعة بكل شيء.

بدت الإقامة في بطرسبرج شديدة الوطأة على فرونسكي، ولا سيما لما رآه، أثناء هذه الفترة كلها، من غرابة وغموض في طباع آنا. كانت تبدو تارة مشغوفة به، وكانت تارة أخرى باردة، عصبية، لا تُدرك مراميها. كان هناك شيء يُقضّ مضجعها ولا تبوح به له، وكانت كأنها لا تلاحظ المنغّصات التي سممت حياة فرونسكي والتي كان ينبغي لها أن تشعر بها شعوراً أشد إيلاماً، لما أُوتيت من حسّ عادي مرهف.

Tele: @Arab_Books

-٢٩-

كان أحد الأهـداف التي حددتها آنا لنفسها، وهي عائدة إلى روسيا، أن تلتقي ابنها. ومنذ اليوم الذي تركت فيه إيطاليا ظلت فكرة هذا اللقاء تهزّها. وكانت كلما اقتربت من بطرسبرج تعاظمت في عينيها فرحة هذا الحدث وأهميته. ولم تتساءل: كيف السبيل إلى ذلك. فقد بدا لها بسيطاً جداً وطبيعياً جداً أن ترى ابنها عندما تكون في المدينة نفسها التي هو فيها؛ لكنها رأت فجأة بجلاء، بعد عودتها إلى بطرسبرج، وضعها الراهن في المجتمع وأدركت أن من الصعب عليها تأمين هذا اللقاء.

مضى عليها يومان وهي في بطرسبرج وفكرة رؤية ابنها لا تفارقها لحظة، لكنها لم تره بعد. أتذهب رأساً إلى البيت حيث يمكن أن تلقى ألكسي ألكسندروفتش؟ أحسّت أن لا حق لها في ذلك. وقد يرفضون استقبالها، ولا تستطيع أن تحتفظ بهدوئها إلا إذا كفّت عن التفكير في زوجها. أما رؤية ابنها في النزهة فلم يكن ليكفيها. لقد هيأت نفسها طويلاً لهذا اللقاء، وكان في نفسها الكثير من الأشياء التي ينبغي أن تقولها له، واشتاقت أعظم الاشتياق إلى ضمّه وتقبيله. وكانت مربية سيريوجا العجوز قادرة على مساعدتها وإزجاء النصيحة لها، لكنها

Tele: @Arab_Books

لم تكن في منزل ألكسي ألكسندروفتش، فقضت يومين في التردد والشك.

وعندما علمت آنا بالصداقة الحميمة بين ألكسي ألكسندروفتش والكونتيسة ليديا إيفانوفنا، قررت في اليوم الثالث أن تكتب إليها رسالة كلّفتها جهداً عظيماً، وقالت لها عن قصد: إن السماح لها برؤية ابنها يتوقّف على شهامة زوجها. وكانت تعلم أن زوجها لو اطلع على الرسالة فسوف يلبي لها طلبها، التزاماً منه بدوره، دور الشهامة.

حمل إليها الرسول الذي نقل الرسالة أقسى الأجوبة وأبعدها عن توقّعها حين قال لها: إن ليديا إيفانوفنا لم تشأ، أن تردّ على رسالتها.

لم تحسّ قط بالذل كما أحست به في هذه اللحظة التي أصعدت فيها الرسول إلى غرفتها، واستمعت إليه وهو يروي بالتفصيل كيف طُلب إليه الانتظار ليُقال له: ليس للرسالة من جواب.

أحست آنا بالإهانة لكنها أدركت أن الكونتيسة ليديا إيفانوفنا محقة من وجهة نظرها. وزاد من شدة حزنها أنها وحيدة. فلم تستطع ولم تشأ أن تشارك فيه فرونسكي. كانت تعلم أنه وإن كان السبب الرئيسي لشقائها، فسوف يبدو له هذا اللقاء مع ابنها عديم الأهمية. وكانت تعلم أنه لن يقوى أبداً على فهم عمق آلامها: وسوف يصطنع معها لهجة بالغة البرودة لا تثير في نفسها سوى الكره. وهذا أشد ما كانت تخشاه في الدنيا، ولذلك أخفت عنه كل ما يتعلق بابنها.

لزمت البيت طوال النهار باحثة عن وسيلة ترى فيها ابنها، وقررت أخيراً الكتابة إلى زوجها. وكانت قد بدأت رسالتها عندما

Tele: @Arab_Books

حُملت إليها رسالة ليديا إيفانوفنا. كان صمت الكونتيسة قد هدّأها وأخضعها، لكن رسالتها وما قرأته بين السطور غاظها غيظاً شديداً، وبدا لها هذا الخبث محنقاً إزاء حنانها المتقّد والمشروع نحو ابنها. حتى إنها ثارت وكفّتْ عن اتهام نفسها.

وأخذت تقول في نفسها: «يا لهذه البرودة، يا لهذا النفاق! كل ما يبغونه هو إهانتي وإيلام ابني! لن أرضخ لهم! أبداً! إنها أسوأ مني. أنا، على الأقل، لا أكذب». وقررت من فورها أن تقصد منذ اليوم التالي، وهو عيد ميلاد ابنها، إلى منزل زوجها، وأن ترشوَ الخدم إذا دعت الحاجة، على أن ترى ابنها بأي ثمن، وأن تضع حداً للكذب الهائل الذي يحيطون به الصبي التعس.

ومضت إلى مخزن للعب، واشترت عدداً منها، ووضعت خطة كاملة. فسوف تصل في الصباح نحو الساعة الثامنة: سيكون ألكسي ألكسندروفتش في فراشه حتماً. وسيكون معها مبلغ جاهز من المال للحاجب وللخادم حتى يَدَعاها تدخل، وسوف تقول، دون أن ترفع غلالة وجهها، إنها جاءت تحمل إلى سيريوجا تمنيات إشبينه وأنه قد أوصاها بوضع هذه اللعب قرب سريره. لكنها لم تُعدّ الكلمات التي ستقولها لابنها. وعبثاً شغلت فكرها بها، إذ لم تجد ما تقوله.

وفي اليوم التالي، في الثامنة صباحاً، نزلت آنا وحدها من العربة ودقت على الجرس عند مدخل درج الضيوف في بيتها القديم.

ألقى كابيتونيتش نظرة خاطفة من النافذة، وهو في سترته وخفّه المطاطي، وشاهد امرأة أمام الباب محتجبة بغلالة، وقال لمساعده:

Tele: @Arab_Books

- اذهب وانظر ماذا تريد. إنها سيدة.

ولم يكد مساعده، وهو فتى لا تعرفه آنا، يفتح الباب حتى عبرتْ العتبة، وسحبتْ من كمها ورقة بثلاثة روبلات ودسّتها بسرعة في يده. وقالت:

- سيريوجا... سيرج أليكسيفتش.

وأرادت أن تمر. لكن الخادم أوقفها أمام الباب الزجاجي الثاني، بعد أن ألقى نظرة عجلى على ورقة الروبلات، وسألها:

- مَنْ تريدين أن تري؟

لم تسمع ولم تُجب.

وعندما لاحظ كابيتونيتش اضطراب الغريبة، خرج بذاته من حجرته، وأدخل الزائرة وسألها عما تريد.

قالت:

- جئت أرى سيرج أليكسيفتش من قِبَل الأمير سكورودوموف.

أجاب الحاجب وهو يفحصها بإمعان:

- إنه لم ينهض بعد.

لم تكن آنا تظن أن غرفة الانتظار الباقية على حالها، في هذا البيت الذي عاشت فيه تسع سنوات، ستُحدث فيها مثل هذا الأثر. لقد

Tele: @Arab_Books

استيقظت في نفسها الذكريات السعيدة والمؤلمة، واحدة بعد الأخرى. فنسيت، في مدى ثانية، لماذا جاءت إلى هنا.

قال كابيتونيتش وهو يخلع عنها معطفها:

– تفضلي وانتظري.

وفي هذه اللحظة، عرفها فانحنى انحناءة شديدة أمامها دون أن يفوه بكلمة.

وقال لها:

– هلا تفضلتِ بالدخول.

أردت أن تقول شيئاً، لكن صوتها لم يسعفْها؛ وبعد نظرة مذنبة، وضارعة إلى الرجل العجوز، دلفت إلى الدرج بخطوات سريعة وخفيفة. فانطلق وراءها كابيتونيتش، محاولاً أن يلحق بها، وقد انحنى حتى صار اثنين، وأخذ خفّه ينشب في كل درجة:

– لعل المربي لم يلبس ثيابه بعد. سأعلن قدومَكِ.

ظلت آنا تصعد الدرج العائلي دون أن تفهم ما كان يقوله لها الشيخ.

قال الحاجب وهو يلهث:

– من هنا، إذا شئتِ، إلى اليسار. اعذري الفوضى. إنه الآن في القاعة الصغرى القديمة. عفواً، يا صاحبة السيادة، انتظري، سألقي نظرة سريعة.

Tele: @Arab_Books

وتجاوزها ففتح باباً كبيراً وتوارى. وقفت آنا وانتظرت.

قال الحاجب وهو يظهر مرة أخرى على الباب:

– لقد استيقظ قبل هنيهة.

في اللحظة التي كان الحاجب يقول فيها ذلك، سمعت آنا تثاؤباً صبيانياً، فعرفت صوت ابنها، ورأته بوضوح كما لو كان أمامها.

قالت:

– دعني، دعني أدخل، انصرف!

ودخلت الغرفة. كان السرير إلى يمين الباب، وعلى السرير صبي بقميص محلول الأزرار، حاني الجسم إلى الأمام. وقد انتهى من تثاؤبه وهو يتمطّى. وفي اللحظ التي كانت شفتاه تنغلقان فيها، رسمتا ابتسامة وَسْنى، وتهالك الصبي بدعةٍ وغبطة على وسادته.

همست وهي تدنو منه دون ضوضاء:

– سيريوجا.

أثناء انفصالهما، وبفعل فيض الحب الذي أحسّت به في هذه الآونة الأخيرة، تصوّرته دائماً ابن أربع سنوات، وهو السن الذي أحبّته فيه أكثر من أي سن آخر. لم يكن الآن كما تركته، لقد كبر ونحف. يا إلهي! ما أنحف وجهه! ما أقصر شعره! ما أطول ذراعيه! كم تغيّر منذ أن تركتْه! لكنه كان هو ذاته، بشكل رأسه، بشفتيه، بعنقه الدقيقة وكتفيه العريضتين.

Tele: @Arab_Books

وهمست من جديد في أذن الصبي:

– سيريوجا!

نهض مستنداً إلى مرفقه، وأدار رأسه الأشعث يمنة ويسرة كأنه يبحث عن شخص ما، وفتح عينيه. نظر بضع ثوان نظرة مستفهمة إلى أمه الواقفة أمامه، وابتسم ابتسامة الانشداه، وترامى بين ذراعي أمه وهو يغلق من جديد جفونه المتثاقلة.

قالت وهي تلهث وتمسك الجسم الصغير الممتلئ بين ذراعيها:

– سيريوجا! يا ولدي الحبيب!

قال وهو يضطرب بين ذراعي أمه حتى تحسّ مختلف أجزاء جسمه بضغطهما:

– ماما!

أرخى قائمة السرير وهو ما يزال مبتسماً، غافياً، مغلق العينين، ومرر ذراعيه المدوّرتين حول كتفي أمه، وشد نفسه إليها، وغمرها بهذا العطر الدافئ والعذب للأطفال النائمين، وفرك وجهه بكتفيها وعنقها.

وقال وهو يفتح عينيه:

– كنت واثقاً من ذلك. اليوم عيد ميلادي. كنتُ واثقاً من أنك ستأتين. سأنهض في الحال.

قال هذه الكلمات وغفا.

Tele: @Arab_Books

التهمته آنا بعينيها؛ لقد رأت كم كبر وتغيّر في غيابها. لقد تعرّفت، بعد لأي، إلى هاتين الساقين العاريتين الطويلتين الآن، إلى هذين الخدين الناحلين، إلى هذا الشعر القصير المجعّد على قذاله الذي طالما قبّلته عليه. كانت تجسّ هذا الجسد كله وهي عاجزة عن الكلام: ذلك أن العبرات خنقتها.

قال لها بعد أن استيقظ تماماً:

– لماذا تبكين، يا أمي؟

واستأنف بلهجة شاكية:

– يا أمي، لماذا تبكين؟

قالت وهي تغصّ بدموعها وتشيح بوجهها:

– لن أبكي بعد... بكيت من الفرح. فأنا لم أرك منذ زمن بعيد!

انتهى، انتهى الأمر.

وأضافت حين هدأ روعُها بعد صمتٍ:

– حان الوقت الآن لكي ترتدي ثيابك.

وجلست قرب السرير على كرسي حيث رتّبت ثيابه.

– كيف ترتدي ثيابك بدوني؟ كيف...

أرادت أن تكلّمه بفرح وبساطة، لكنها لم تستطع وأشاحت بوجهها مرة أخرى.

Tele: @Arab_Books

– لم أعد أغتسل بالماء البارد. منعني أبي من ذلك. ألم تري بازيل لوكيتش؟ جلستِ على ثيابي!

وانفجر سيريوجا ضاحكاً؟ فنظرت إليه وابتسمت.

وهتف سيريوجا وهو يرتمي من جديد بين ذراعيها:

– أمي، أمي الغالية!

فكأنه لم يدرك بوضوح ما حدث إلا في هذه اللحظة عندما شاهد ابتسامتها. وقال لها وهو ينزع عنها قبعتها:

– ليس بك حاجة إليها.

وكأنه وجدها كلها، عارية الرأس، فعاد إلى معانقتها.

– ماذا ظننت بي؟ ألم تعتقد أنني مت؟

– أبداً، لا.

– حقاً، يا عزيزي؟

وردد جملته المفضلة:

– كنت واثقاً، كنت واثقاً!

وأمسك باليد التي كانت تداعب شعره وأسند راحتها على فمه وغطّاها بالقبل.

Tele: @Arab_Books

-٣٠-

في هذه الأثناء، كان بازيل لوكيتش يتساءل إن كان ينبغي له أن يدخل أو يُعلِم ألكسي ألكسندروفتش: لقد علم قبل قليل أن هذه السيدة هي أم الصبي التي هجرت زوجها والتي لم يكن يعرفها لأنه دخل منزل ألكسي ألكسندروفتش بعد ذهابها. وبعد التفكير، صمم على أن يتقيد بواجبه تقيداً دقيقاً وهو أن يُنهض سيرج في ساعة محددة لا أن يتساءل إن كانت التي في غرفة الصبي أمه أو شخصاً آخر، فارتدى ثيابه واقترب من الباب وفتحه.

لكن مداعبات الأم والولد، وصوتهما وما كانا يقولانه حملاه على تغيير رأيه. فهزّ رأسه وأغلق الباب من جديد. وقال في نفسه وهو يتنحنح ويمسح عينيه: «سأنتظر أيضاً عشر دقائق».

وفي اللحظة نفسها، انتشرت بين الخدم حركة نشطة. إذ علموا جميعاً أن سيدتهم حضرت، وأن كابيتونيتش تركها تدخل، وأنها الآن في غرفة سيرج، في حين أن سيدهم سيمر بالغرفة في الساعة التاسعة، على عادته، وأدركوا أن من الواجب الحيلولة دون لقاء الزوجين. وقد نزل كورني، الخادم، إلى حجرة الحاجب وعندما علم أن كابيتونيتش هو الذي استقبل آنا ورافقها، وبّخه توبيخاً شديداً. لزم الحاجب

Tele: @Arab_Books

الصمت العنيد، لكن عندما قال له «كورني» إنه يستحق أن يُطرد، وثب كابيتونيتش، وقال لكورني وهو يحرك يديه في وجه كورني:

– وأنـتَ، أما كنتَ تتركها تدخل؟ أكنتَ تقول لها بعد عشر سنوات من الخدمة التي لم تلقَ فيها سوى المعاملة الحسنة: «تفضّلي بالخروج!». أنت داهية في السياسة، أليس كذلك؟ لكنك لا تنسى أن تسرق سيدك وتنهب له معاطف الفرو!

قال كورني باحتقار:

– سوقيّ!

والتفت إلى المربية التي كانت تدخل:

– احكمي أنت بنفسك، يا ماري إيفيموفنا. لقد تركها تدخل دون أن يخبر أحداً. وقد يخرج ألكسي ألكسندروفتش بين لحظة وأخرى ليذهب إلى غرفة الصبي.

قالت المربية:

– آه! يا له من مأزق، يا له من مأزق! أوجدْ وسيلة لاستبقاء سيدك، يا كورني فاسيليفتش، وسأجري أنا إلى هناك، أثناء هذا الوقت، وأخرجها. آه! يا له من مأزق!

عندما دخلت المربية الغرفة، كان سيريوجا يروي لأمه كيف وقعا، ناديا وهو حين انزلقا وهما يصعدان ويهبطان في مدينة الألعاب، وانقلبا ثلاث مرات متوالية. كانت آنا تصغي إلى جرس صوته وترى

Tele: @Arab_Books

وجهه، وتشاهد تبدّل ملامحه، وتجسّ يده، لكنها لم تكن تعي ما يقول. كانت تفكر في شيء واحد: يجب أن تنصرف، يجب أن تتركه. لقد سمعت وقع بازيل لوكيتش الذي دنا من الباب وهو يتنحنح، ثم سمعت وقع خطوات المربية العجوز، دون أن تقوى على الكلام أو النهوض.

قالت المربية وهي تدنو من آنا وتقبّل كتفيها ويديها:

– يا سيدتنا الغالية! أنتِ الفرح الذي أرسله الله لصغيرنا. ما تزالين كما كنتِ!

قالت آنا التي تمالكت نفسها لحظة:

– آه! يا عزيزتي! ما كنتُ أعلم أنك تسكنين في البيت.

– لستُ أسكن هنا، وأنا أعيش مع ابني، وإنما جئت لأبلغ سيريوجا تهاني، آنا أركادييفنا، يا سيدتي الغالية.

وفجأة أغربت العجوز في البكاء وأخذت تلثم يد آنا.

كان سيريوجا يمسك أمه بإحدى يديه وبالأخرى المربية، وهو مبتسم، ملتمع العينين، وقد أخذ يضرب السجادة بقدميه العاريتين الصغيرتين. وملأه حنان المربية العجوز إزاء أمه بنشوة عارمة.

بدأ الصبي يقول:

– يا أمي! إنها تأتي غالباً لتراني وعندما تصل...

Tele: @Arab_Books

لكنه توقّف حين لاحظ أن مربيته تهمس بشيء في أذن أمه وأن وجه أمه عبّر عن الذعر وعن شعور قريب من الخجل الذي لا يلائمها.

اقتربت منه، وقالت:

– يا عزيزي!

لم تستطع أن تقول «الوداع»، لكنه فهم ذلك من تعبير وجهها.

قالت وهي تستخدم اسماً كانت تطلقه عليه وهو صغير:

– يا عزيزي الصغير، يا عزيزي الصغير «كوتيك» ألن تنساني؟ أنتَ....

ولم تستطع أن تنهي الجملة.

كم من كلمة خطرتْ لها فيما بعد وكان يمكن أن تقولها له! كانت الآن عاجزة عن التعبير. لكن سيريوجا فهم كل ما كانت تنوي أن تقوله. بل إنه فهم ما قالته مربيته العجوز بصوت خافت. وسمع قولها: «في الساعة التاسعة دائماً»، وأدرك أن الكلام يدور على أبيه، وأن والديه ينبغي ألا يتواجها. أما ما لم يدركه فهو الذعر والخجل اللذان رآهما على وجه أمه. لم تكن مذنبة، ومع ذلك انتابها الخوف من أبيه، والخجل. تمنّى أن يلقي عليها سؤالاً يبدد شكوكه، لكنه لم يجرؤ: رأى أنها تتألم فأشفق عليها. وشد نفسه إليها بصمت، ثم قال بصوت منخفض:

– لا تذهبي الآن! لن يأتي في الحال.

Tele: @Arab_Books

أبعدتْه أمه لترى إن كان يفكر فيما يقوله، وأدركت من تعبير وجهه المرتعب، أنه لا يقصد أباه فقط بل بدا كأنما يسألها عما ينبغي أن يكون رأيه فيه فقالت:

– سيريوجا، يا حبيبي، يجب أن تحبّه. إنه خير مني، وأنا مذنبة بحقه. وعندما تكبر ستحكم.

هتف الطفل بأسىً من خلال دموعه:

– ليس هناك من هو خير منك.

وأمسك بأمه من كتفيها وضمّها إليه بكل قواه، شاداً بذراعيه اللتين ارتجفتا من الجهد.

قالت آنا:

– يا صغيري، يا صغيري الحلو!

وطفقت تبكي مثله، مثل الطفل.

في هذه اللحظة، فُتح الباب ودخل بازيل لوكيتش، وسُمِع وقع خطوات قرب الباب الآخر. فهمست العجوز برعب: «لقد جاء»، وناولت آنا قبعتها.

ارتمى سيريوجا على سريره وأخذ ينتحب ووجهه بين يديه. فأزاحتهما آنا لتقبّل مرة أخرى خديه المبللتين بالدموع، واتجهت إلى الباب بخطوات سريعة. وكان ألكسي ألكسندروفتش مقبلاً صوبها،

Tele: @Arab_Books

فلما شاهدها وقف وحنى رأسه. مع أنها قالت قبل هنيهة إنه كان خيراً منها. فقد استحوذ عليها شعور بالاشمئزاز والكره والحسد (بصدد ابنها) من النظرة التي رمته بها ولفّتْ شخصه كله في أدنى تفاصيله. وأسبلتْ غلالتها بحركة سريعة، وحثت خطاها، وخرجت من الغرفة وهي تكاد تركض.

نسيت، من جراء عجلتها، اللعب التي اختارتها أمس بكثير من الحب والحزن: فحملتها معها إلى الفندق.

Tele: @Arab_Books

-٣١-

مع أن آنا رغبت بشوق في هذا اللقاء وهيأت نفسها له منذ زمن طويل، فإنها لم تكن تعتقد أنه سيُسبب لها مثل هذه الانفعالات العنيفة. فعندما عادت إلى جناحها المنعزل، لم تستطع أن تدرك، أثناء لحظة، لماذا هي هنا. وقالت في نفسها: «نعم، انتهى كل شيء، وهأنذا الآن وحيدة مرة أخرى». وجلست على مقعد قرب المدفأة، دون أن ترفع قبعتها.

أخذت تفكر وعيناها شاخصتان إلى رقاص الساعة البرونز الموضوع على الطاولة بين نافذتين.

دخلت عليها خادمتها الفرنسية التي جاءت بها من الخارج وسألتها إن كانت ترغب في ارتداء ثيابها، فنظرت إليها آنا بدهشة وقالت لها:

– فيما بعد.

وجاء خادم الفندق يعرض عليها الغداء، فرددت:

– فيما بعد.

وحملت إليها المرضع الإيطالية الطفلة التي ألبستها ثيابها قبل هنيهة. قلبت الطفلة يديها الصغيرتين جاعلة راحتيهما إلى تحت، مبتسمة بفمها

Tele: @Arab_Books

الذي لم تطلع أسنانه بعد، وأخذت -كعادتها عندما تشاهد أمها- تخبط الهواء بهاتين اليدين، كما يحرّك السمك زعانفه، ضاربة الثنايا المنشاة لتنورتها المقصّبة. كان من المستحيل ألا تبتسم لها آنا وتقبّلها؛ وكان من المستحيل ألا تمد لها إصبعها لتتعلق به وهي تصرخ وتنتفض بكل جسمها؛ وكان من المستحيل ألا تقدّم لها شفتها لتأخذها في فمها بمثابة تقبيل لها. فعلت آنا ذلك كله: أخذت الطفلة بين ذراعيها، ورقصتْها، وقبّلتها على وجنتيها النضرتين ومرفقيها الصغيرين العاريين؛ لكنها أحست، عند مرأى هذه الطفلة، إحساساً أشد وضوحاً أن الشعور الذي يخالجها إزاءها لم يكن حباً إذا قورن بالشعور الذي يخالجها إزاء سيريوجا. كل شيء في هذه الطفلة كان مليحاً، لكن لا شيء من ذلك كان يمس شغاف قلبها. لقد صبّت على ابنها البكر الذي لم تحبّ أباه جميع طاقات حبها الظمئ؛ ووُلدت الصغيرة في أشق الظروف ومع ذلك فإنها لم تظفر بواحد من مائة من العناية التي أغدقت على ابنها البكر. وفوق ذلك فالطفلة لم تكن سوى أمل، بينما صار سيريوجا رجلاً تقريباً؛ ذلك أن العواطف والأفكار أخذت تتصارع فيه، وبدأ يفهمها ويحبّها ويحكم عليها. كذلك كانت تفكر وهي تتذكر نظراته وأقواله. لكنها كانت منفصلة عنه لا جسدياً فقط بل روحياً أيضاً، انفصالاً لا علاج له!

أعادت الطفلة إلى المرضع التي صرفتها، وفتحت حلية تحتوي على صورة سيريوجا عندما كان في عمر ابنتها تقريباً. ونهضت ونزعت قبعتها، وتناولت عن المنضدة مجموعة صور فيها صور سيريوجا في مختلف سنيه. أرادت أن تقارن بين هذه الصور فسحبتها كلها من المجموع إلا واحدة منها هي أفضلها: كان يمتطي كرسياً، في قميص خارجي، مقطّب الحاجبين، مفترّ الثغر. كان هذا التعبير أصدق تعبير

Tele: @Arab_Books

عن شخصيته. وأرادت أن تنزع زوايا الصورة بيديها الناعمتين الحاذقتين اللتين تشنّجت أصابعهما العصبية تشنّجاً خاصاً في هذه اللحظة؛ لكن الصورة أخذت تتمزّق و لم تستطع إخراجها. لم يكن معها مقطع للورق، فأخذت صورة كانت بجانبها (صورة تصوّرها في روما). واستخدمتها لتسحب صورة ابنها، وقالت وهي تنظر إلى صورة فرونسكي «آه! ها هو ذا»، وتذكرت فجأة ذاك الذي كان سبباً لآلامها. لم تفكر فيه مرة واحدة طوال الصباح. لكنها عندما رأت هذا الوجه الحبيب الذي ينطق بالنبل والرجولة والذي تعرفه جيداً، أحست بغتة نحوه بفيض من الحب الغامر.

قالت في نفسها فجأة وقد خامرها شعور من اللوم له، ناسية أنها هي نفسها كتمت عنه كل ما يتعلّق بابنها: «أين هو؟ ولماذا يتركني وحدي مع آلامي؟». وأرسلت من يرجوه للصعود رأساً إليها؛ وانتظرته منخوبة الفؤاد، وهي تتصور الكلمات التي ستستعملها لتخبره بكل شيء، وعبارات الحنان التي سيجدها ليعزيها. ورجع الرسول لينبئها أن لديه ضيفاً، وهو يسألها إن كانت تستطيع استقبال الأمير إياشفين الذي وصل لتوّه بطرسبرج. وفكرت في نفسها: «إنه لا يأتي وحده، وأنا لم أره منذ عشاء البارحة». وفجأة، خطرت ببالها خاطرة غريبة: «وإذا كان قد كف عن حبها؟».

وحين استعرضت أحداث الأيام الأخيرة خيّل إليها أن كل شيء يؤيد هذا الافتراض الغريب: فهو لم يتعش البارحة في البيت، وقد أصرّ على أن يسكنا في بطرسبرج شققاً منفصلة، وهو الآن يأتي مع صاحب له وكأنه يخشى الخلوة بها.

Tele: @Arab_Books

«لكن ينبغي أن يقول لي ذلك. ينبغي أن أعلم به. وإذا كان صحيحاً فسوف أعلم ما الذي يترتب علي فعله». قالت ذلك في نفسها دون أن تقوى على تصور موقفها الذي ستؤول إليه، إذا ما تحققت من لا مبالاته بها. لقد تأكدت من أنه كف عن حبها، فبلغت إلى حجرة زينتها. وأسرفت في العناية بهندامها، وكأن فرونسكي الذي غدا خلي القلب مدعو إلى أن يُغرم بها من جديد حين يرى ثوبها وزينة شعرها اللذين يلائمانها أحسن ملاءمة.

لم تكن جاهزة بعد، حين رن الجرس.

وعندما دخلت قاعة الاستقبال كانت نظرة إياشفين لا فرونسكي هي التي التقتها أولاً. كان فرونسكي ينظر إلى صور ابنها التي نسيتها على الطاولة و لم يستعجل في رفع عينيه إليها.

قالت وهي تضع يدها الصغيرة في اليد الضخمة التي مدّها إياشفين وقد تولاه الارتباك (وهذا ما كان يتعارض تعارضاً غريباً مع قامته الجبّارة ووجهه الخشن).

– نحن متعارفان من قبل. التقينا في السباق، في السنة الفائتة.

وقالت وهي تسحب من فرونسكي بحركة رشيقة الصور التي كان يتأملها بينما كانت عيناها ترميانه بنظرة ذات معنى...

– هاتها.

وخاطبت إياشفين بابتسامة لطيفة:

Tele: @Arab_Books

– هل كان السباق ناجحاً، في هذا العام؟ أنا رأيت السباق في روما وفي كو.... لكنك لا تحب الحياة في الخارج. إنني أعرفك وأعرف ذوقك، هذا مع أننا لم نلتق إلا نادراً.

قال إياشفين وهو يُعضعض شاربه الأيسر:

– إني أتألم لذلك، فذوقي سيّئ في معظم الأحيان.

بعد أن ظل إياشفين بعض الوقت يحادث آنا، سألها وقد رأى فرونسكي ينظر إلى ساعته، إن كانت تنوي البقاء طويلاً في بطرسبرج، وتناول قبعته بعد أن نهض وبسط شخصه الهائل.

قالت وهي ترمي فرونسكي بنظرة شاردة:

– أظن أنني لن أبقى طويلاً.

قال إياشفين وهو يلتفت على فرونسكي:

– لن نلتقي بعد الآن، إذن؟ أين تتعشى؟

قالت آنا بلهجة حازمة:

– تعال وتعشّ عندي. العشاء هنا ليس رائعاً، لكنكما ستلتقيان على الأقل. فمن بين رفاق ألكسي في الكتيبة، أنت الشخص الذي يؤثره.

قالت ذلك وبدت كأنها ساخطة على نفسها بسبب اضطرابها، وعلتها الحمرة كما يصيبها في كل مرة يتراءى وضعها أمام شخص غريب.

Tele: @Arab_Books

قال إياشفين، وعلى شفتيه ابتسامة أظهرت لفرونسكي أن آنا أعجبته كثيراً:

– سيسعدني ذلك.

انحنى إياشفين وخرج. وتأخر فرونسكي، فسألته:

– ستذهب أنت أيضاً؟

فأجاب:

– لقد تأخرت!

وصاح بإياشفين:

– اذهب، سألحق بك في الحال!

أمسكت بيده ونظرت إليه دون أن تغضّ بصرها، باحثة عما ممكن أن تقوله لتستبقيه:

– انتظر، فلدي ما أقوله لك.

وأخذت يده القصيرة وشدتها على خدها، وقالت:

– ألم أخطئ بدعوته إلى العشاء؟

قال وهو يبتسم ابتسامة هادئة كشفت عن أسنانه المنتظمة، ويلثم يدها:

– بل أحسنت صنعاً!

Tele: @Arab_Books

قالت وهي تضغط يده بين يديها:

- ألكسي، ألم تتغير إزائي. إنني مرهقة هنا، يا ألكسي. فمتى نسافر؟

- عما قريب، عما قريب. لا تستطيعين أن تتصوري ما أثقل الحياة هنا علي أيضاً.

قال ذلك ومد إليها يده.

قالت بلهجة جريحة:

- طيب، امضِ، امضِ!

ونأت بعجلة.

Tele: @Arab_Books

-٣٢-

عندما رجع فرونسكي لم تكن آنا في الفندق. وقيل له إن سيدة زارتها بعد ذهابه بقليل وأنهما خرجتا معاً. إن هذه الطريقة في التغيب دون أن تخبر إلى أين تذهب (لم تفعل قط هذا من قبل)، وتعبير وجهها المهتاج والغريب في هذا الصباح، وتذكّره لتلك اللهجة العدائية التي انتزعت بها، في حضور إياشفين، صور ابنها من يديه، كل ذلك قاده إلى التفكير. فقرر أن يسألها تفسيراً لسلوكها. وانتظرها في جناحها. لكن آنا لم تعد وحدها: وإنما اصطحبت إحدى عمّاتها، وهي عانس طاعنة في السن، الأميرة أوبلونسكي. وكانت هذه هي السيدة التي جاءت صباحاً والتي معها ذهبت آنا لشراء بعض الحاجات. تظاهرت آنا بأنها لم تلاحظ ما نطق به وجه فرونسكي من همّ وتساؤل، وعددت له بابتهاج مشترياتها. رأى أن تغيّراً قد طرأ عليها: ففي عينيها الملتمعتين، تجلى الاهتمام المركّز، وهما تحطّان عليه، وفي أحاديثها وحركاتها تراءت تلك الحيوية العصبية وتلك الرشاقة اللتان خَلَبتا لبّه في الأوقات الأولى من علاقتهما الحميمة واللتان غدتا تقلقانه وترعبانه الآن.

أُعِدت المائدة لأربعة أشخاص. وكان الجميع يوشكون أن ينتقلوا إلى قاعة الطعام عندما وصل توشكيفتش برسالة من الأميرة بيتسي إلى آنا. كانت الأميرة بيتسي تعتذر لأنها لم تحضر لوداعها بسبب توعّكها.

Tele: @Arab_Books

لكنها كانت ترجو آنا أن تحضر إلى بيتها بين الساعة السادسة والنصف والساعة التاسعة. رماها فرونسكي بنظرة سريعة ليُفهمها أن هذه الساعة إنما اختيرت بحيث لا تصادف أحداً. بيد أن آنا بدت كأنها لم تلاحظ ذلك.

قالت وهي تبتسم ابتسامة لا تكاد تُلحظ:

- إني آسفة كثيراً. فأنا على موعد في هذا الوقت بالذات.

- ستتألم الأميرة.

- وأنا أيضاً.

قال توشكيفتش:

- ستذهبين، من غير شك، لسماع المغنية «لاباتي»[٣٤]؟

- «لاباتي»؟... هذه فكرة. سأذهب إذا أمكن أن أجد مقصورة.

فأجاب توشكيفتش:

- سوف أؤمن لك مقصورة.

قالت آنا:

- سأكون ممتنة جداً، جداً. لكن ألا تريد أن تتعشى معنا؟

هز فرونسكي كتفيه هزاً خفيفاً. لم يفهم قطعاً ما كانت تفعله آنا.

٣٤- «لاباتي»: مغنية إيطالية شهيرة، كثيراً ما جاءت إلى روسيا منذ ١٨٧٣.

Tele: @Arab_Books

لماذا جاءت بهذه الأميرة العجوز، لماذا استبقت توشكييفتش للعشاء، ثم لماذا أرادت أن ترسله ليستأجر لها مقصورة؟ أيمكنها، في مثل وضعها، أن تذهب إلى الأوبرا يوم الاشتراك، في الحين الذي سيكون فيها جميع من تعرفهم؟ نظر إليها بجد، لكنها ردّت عليه بهذه النظرة المتحدية التي تجمع بين السخرية واليأس والتي لم يستطع أن يدرك دلالتها.

أثناء العشاء، كانت آنا مرحة مرحاً عدوانياً. وبدت كأنها تصطنع الغُنج مع توشكييفيتش ومع إياشفين معاً. ولما قاموا عن الطاولة، ذهب توشكييفيتش يبحث عن المقصورة ونزل إياشفين يدخّن مع فرونسكي. وبعد بضع لحظات صعد فرونسكي. وكانت آنا قد لبست ثوباً حريرياً، فاتحاً، مزخرفاً بالمخمل، مقوّر الصدر، طلبت أن يُصنع في باريس؛ وأحاطت بوجهها تخريمات ثمينة بيضاء أبرزت بخاصة جمالها الباهر.

سألها وهو يحاول جاهداً ألا ينظر إلى وجهها:

– أستذهبين حقاً إلى المسرح؟

قالت وقد خدشها أن يتحاشى نظرتها:

– ولَمَ تسألني عن ذلك سؤال الخائف؟ ولَمَ لا أذهب، يا تُرى؟ بدت كأنها لم تفهم قصده.

قال وهو يقطّب بين حاجبيه:

– بالطبع، ليس هناك أي سبب!

Tele: @Arab_Books

أجابته وهي تتظاهر بأنها لم تشعر باللهجة الساخرة في جوابه، وتضع في يدها قفازاً طويلاً معطراً:

– هذا بالضبط ما قلته.

قال وهو يحاول إيقاظها، تماماً كما فعل زوجها قديماً:

– آنا، بالله عليك، ما بكِ؟

– لم أفهم عم تتحدث.

– أتعلمين أنك لا تستطيعين الذهاب إلى هناك.

– لماذا؟ لن أكون حدي. فالأميرة بربارة ذهبت لترتدي ثيابها. وسوف ترافقني.

فهز كتفيه، قانطاً. وبدأ يقول:

– ألا تعلمين...

فردت وهي تصيح تقريباً:

– ولا أريد أن أعلم! لا أريد. أنادمة أنا على ما فعلت؟ لا، ولا، ولا. ولو كان علي أن أبدأ من جديد لبدأت. الشيء الوحيد المهم لنا، لي ولك، هو أن يحب كلانا الآخر. أما ما سوى ذلك فلا يدخل في الحساب. لماذا نعيش هنا منفصلين، دون أن يرى أحدنا الآخر؟ لماذا لا أستطيع أن أذهب إلى هناك. إني أحبك، وكل الأشياء سواء علي إذا لم تتغير أنت.

Tele: @Arab_Books

قالت هذه الجملة بالروسية، وفي عينيها بريق غريب، لم يفهمه وأضافت:

- لِمَ لا تنظر إلي؟

رفع عينيه إليها، فرأى جمال وجهها وزينتها التي لاءمتها أحسن ملاءمة. لكن هذا الجمال وتلك الأناقة هما بالذات اللذان يغيظانه.

قال لها مرة أخرى بالفرنسية وفي صوته نبرة من الحنان، وإن كان بارد النظرة:

- إن عاطفتي لا يمكن أن تتغير، تعلمين بذلك، لكني أرجوك، أتوسّل إليكِ ألا تخرجي.

لم تسمع ما قال، لكنها رأت برودة نظرته فأجابته بلهجة حانقة:

- وأنا، أرجو أن تشرح لي لماذا ينبغي ألا أخرج.

- لأن ذلك سيسبب لكِ...

وتردد.

- لست أفهم. إن إياشفين لا يثير الشبهة والأميرة بربارة لا تقل عن غيرها. ها هي ذي.

Tele: @Arab_Books

-٣٣-

لأول مرة، خامر فرونسكي شعور بالضغينة قريب من العداء، من جراء هذا الرفض المتعمّد لفهم موقفه. وقد رسخ هذا الشعور كون فرونسكي لم يستطع أن يشرح لها سبب ضغينته. ولو شاء أن يصارحها بما يفكر فيه لقال لها: «إن الظهور في المسرح بهذا الثوب ومع شخص كالأميرة، ليس اعترافاً بأنك امرأة ضالة فحسب، بل إنه تحدٍّ للمجتمع، أي اعتزاله إلى الأبد».

لم يكن بوسعه أن يقول لها ذلك. وقال في نفسه: «لكن، كيف لم يمكنها أن تفهم ذلك وما الذي يعتمل في نفسها؟». وأحس أن تقديره لها تناقص في الحين الذي تعاظم فيه شعوره بجمالها.

عاد مهموماً إلى غرفته، وجلس قرب إياشفين الذي كان يشرب مزيجاً من الكونياك والماء الغازي، وساقاه ممددتان على كرسي، وطلب الشراب نفسه.

قال إياشفين بعد أن ألقى نظرة خاطفة على وجه صديقه المتجهّم:

– قلتَ إذن: عن جواد «لانكوفكسي» «فاره». إنه جواد حسن وأنا أنصحك بشرائه. إن كفله شديد الانحدار، لكن قوائمه ورأسه... هي خير ما يتمناه المرء.

Tele: @Arab_Books

أجاب فرونسكي:

– أظن أني سأشتريه.

كان الحديث عن الجياد يثير اهتمامه، لكنه لم يكن ينسى آنا دقيقة واحدة. كان يصيخ السمع تلقائياً إلى وقع الخطوات في الممر وينظر بين الحين والحين إلى الساعة على المدفأة.

وأنبأه أحد الخدم:

– تقول لك آنا أركاديفنا إنها ذاهبة إلى المسرح.

صبّ إياشفين قدحاً صغيراً من الكونياك في كأس الماء الغازي وشربه ثم نهض وهو يزرّر سترته.

قال وهو يبتسم ابتسامة خفية تحت شاربيه ويظهر بهذه الابتسامة أنه يدرك سبب ضيق صدر فرونسكي دون أن يعلّق أهمية على ذلك:

– ستذهب، إذن؟

أجاب فرونسكي بحزن:

– أنا لن أذهب!

– أما أنا فقد وعدتُ بالذهاب، ولا بدَّ أن أذهب. وأضاف إياشفين وهو يخرج:

– إلى اللقاء. إذا غيرتَ فكرتك فتعال إلى المقاعد الأمامية في الصالة، وخذ مقعد كراسنسكي.

Tele: @Arab_Books

- لا، فلدي شغل.

فكّر إياشفين وهو يخرج من الفندق: «هموم الرجل مع زوجته كثيرة، ومع عشيقته أكثر».

بعد أن بقي فرونسكي وحده، نهض وأخذ يمشي جيئة وذهاباً.

قال في نفسه وهو يحاول أن يتصوّر المسرح: ما هذا اليوم؟ أمسية الاشتراك الرابعة... سيكون أخي هناك مع زوجته، ومن المحتمل أن تكون أمي هناك أيضاً. أي كل بطرسبرج! الآن دخلت، وخلعتْ فروها، وها هي ذي عرضةً للأنظار جميعاً. توشكيفتش، إياشفين، الأميرة بربارة... وقال بحركة من الغضب: حسناً! وأنا! أخائف أنا أم أنني أعطيت توشكيفتش حق حمايتها؟ هذا غير معقول، غير معقول، أياً كانت الزاوية التي يُنظر منها... ولَم تدفعني إلى هذا الموقف؟. قال ذلك وضرب بيده المنضدة التي وضع عليها الماء الغازي وقنينة الكونياك وكاد يوقعها، فأراد أن يلتقطها قبل أن تقع فقلبها، ومن الحنق ضرب الطاولة بقدمه؛ ثم قرع الجرس. وقال لخادمه الذي دخل الغرفة:

- إذا أردت أن تبقى في خدمتي فلا تُهمل عملك. ينبغي ألا يحدث ذلك بعد الآن. ارفع هذا من وجهي.

أراد الخادم الذي أحس ببراءته أن يبرّئ نفسه، لكن النظرة التي حدجه بها سيده أفهمته أن الصمت أولى به؛ فاعتذر وجثا على السجادة ليلتقط حطام الكؤوس والقناني.

- ليس هذا هو شغلك، ادع الخادم وهيّء لي ثيابي.

Tele: @Arab_Books

دخل فرونسكي المسرح في الساعة الثامنة والنصف. كان العرض في أوْجه. نزع عنه خادم المسرح العجوز معطف الفرو، وبعد أن عرفه دعاه «سيادتك». ثم قال له إنه لا حاجة إلى إعطائه رقماً وما عليه إلا أن يدعو «فيدور». لم يكن في الممر المضاء أحد سوى خادم المسرح والخادمين المكلفين بإدخال الوافدين، والمحمّلين بالفرو وهما يصغيان قرب الباب. ومن الباب وافت أنغام الجوقة وهي تصاحب برفق وبتقطع صوت امرأة تموج بوضوح جملة موسيقية. وفُتح الباب لحظة ليسمح بمرور الخادم، فطرقت سمع فرونسكي بجلاء الجملة التي شارفت نهايتها. وما لبث الباب أن أُغلق فغابت عنه نهاية الجملة، لكنه أدرك من أصوات التصفيق أن المقطوعة قد انتهت. وعندما دخل الصالة المتوهّجة بأضواء الثريات وقناديل الغاز البرونزية، كان الهُتاف ما يزال مستمراً. وعلى خشبة المسرح، كانت المغنية المكشوفة الكتفين والصدر والمغطاة بالمجوهرات، تحيي الجمهور وهي تبتسم وتلم، بمساعدة المغني الذي كان يمسكها بيدها، باقات من الزهور قذفت بغير مهارة إلى ما فوق حافة خشبة المسرح. واقتربت من سيد شعره لمّاع ومدهون ومفصول بمفرق في وسطه، كان يمد لها شيئاً من فوق حافة المسرح بذراعيه الطويلتين، بينما كان الجمهور في الصالة والمقاصير يضطرب، وينحني إلى الأمام، ويصرخ ويصفّق. وكان رئيس الجوقة على مِقرئه يساعد في نقل الهدايا، ويصلح وضع عقدته. تقدّم فرونسكي إلى وسط الصالة وأخذ ينظر حوله. كان اليوم أقل التفاتاً من ذي قبل إلى هذا الجو المألوف بمسرحه، وبضوضائه، وبهذا الجمع المبرقش الذي لا يثير الاهتمام من المشاهدين المتكدّسين في الصالة.

كان هناك في المقاصير السيدات أنفسهن وخلفهن الضباط

Tele: @Arab_Books

أنفسهم؛ النساء المزركشات أنفسهن، البزّات الرسمية ذاتها، السُّتر الرسمية ذاتها، الجمهور القذر نفسه في المقصورة العليا، ووسط هذا الجمهور كله في المقاصير وفي الصفوف الأولى، لم يكن هناك إلا حوالي أربعين شخصاً حقيقياً من المجتمع الراقي. وعلى هذه الواحة انصبّ انتباه فرونسكي في الحال، ومنهم اقترب.

كان الفصل قد انتهى في اللحظة التي دخل فيها، ولذلك قصد إلى الصف الأول، دون أن يلجّ مقصورة أخيه، ووقف قرب حافة المسرح إلى جانب سيربوكوفسكوي الذي شاهده من بعيد. وناداه مبتسماً وهو طاوٍ ركبته يضرب الحافة بعقبه.

لم يكن فرونسكي قد رأى آنا بعد؛ وكان يتحاشى النظر إلى الجهة التي كانت فيها. لكنه علم أين كانت من اتجاه الأنظار. كان ينظر حوله من غير أن يبدو عليه ذلك، لكنه لم يكن يبحث عنها. كان يخشى أسوأ الأشياء. كان يبحث عن ألكسي ألكسندروفتش. ولحسن الحظ لم يكن حاضراً هذا المساء في المسرح.

قال له سيربو كوفسكوي:

– ما أقلّ ما بقي لك من هيئة الضابط. لكأنك دبلوماسي أو فنان.

قال فرونسكي وهو يبتسم ويخرج منظاره ببطء:

– نعم، فعندما عدت إلى البيت لبست ثيابي المدنية.

فأجابه وهو يلمس زخارف بزّته العسكرية:

Tele: @Arab_Books

- أعترف أنني أغبطك في ذلك. فعندما أعود من الخارج وأرتدي هذه آسف على حريتي.

أقلع سيربوكوفسكوي منذ زمن بعيد عن دفع فرونسكي في مهنته، لكنه ظل يحبه كما أحبه في الماضي وظهر في هذه اللحظة شديد اللطف معه:

- من المؤسف أنك وصلتَ متأخراً عن الفصل الأول.

وجّه فرونسكي الذي كان يصغي بأذن شاردة، نظّارته إلى الشرفة الأولى وأجال نظره في المقاصير. وشاهد فجأة رأس آنا مزهواً، مبتسماً، آخّاذ الجمال في إطار التخريمات التي تحيط به، قرب سيدة لفّت على رأسها عصابة مكوّرة، وشيخ قصير أصلع يطْرف بعينيه وقد بدا عليه الغضب خلف منظاره. كانت في المقصورة الخامسة، وقد انحرفت قليلاً وأخذت تحدّث إياشفين. ولقد ذكّره مفصل عنقها، وكتفاها العريضتان والجميلتان، والإشعاع المتوهج والمكبوت في عينيها ووجهها، ذكّره ذلك كله بها بما رآه في حفلة موسكو الراقصة، لكنه كان يحسّ الآن بجمالها إحساساً مختلفاً. ففي شعوره إزاءها لم يبق فيها شيء خفي تكتنفه الأسرار، ولذلك فإن جمالها، وإن جذبه جذاباً أعنف من ذي قبل، بدا له مهيناً تقريباً. لم تكن تنظر باتجاهه. لكن فرونسكي أحس أنها رأته.

وعندما حوّل منظاره إلى جهتها مرة أخرى، لاحظ أن الأميرة بربارة كانت شديدة الحمرة، وأنها تضحك بتكلف، وأنها لا تني تنقّل بصرها نحو المقصورة المجاورة؛ وكانت آنا تضرب بمروحتها المطويّة

Tele: @Arab_Books

حافة مقصورتها المخملية الحمراء، محدّقة في نقطة ما، قاصدة بوضوح ألا ترى ما يجري بجنبها. أما إياشفين فقد عبّر وجهه عما يعبر عنه حين يخسر في القمار. كان يقطّب بين حاجبيه، ويُدخل أكثر فأكثر شاربه الأيسر في فمه، وينظر بمؤخر عينه إلى المقصورة المجاورة.

في هذه المقصورة، إلى يسار مقصورة آنا، كان آل كارتاسوف. كان فرونسكي يعرفهم ويعلم أن آنا كانت على علاقة بهم. كانت السيدة كارتاسوف، وهي امرأة قصيرة وهزيلة، واقفة في مقصورتها، وقد أدارت ظهرها لآنا وطفقت ترتدي معطفها الذي مدّه إليها زوجها. كان وجهها ممتقعاً وغاضباً وهي تتحدث بهياج. وكان كارتاسوف، وهو رجل ضخم أصلع، يلقي بنظرة طوال الوقت نحو آنا ويحاول جاهداً أن يهدّئ من ثائرة امرأته. وعندما خرجتْ هذه، تريّث الزوج برهة طويلة، وهو ظاهر الرغبة في تحيّتها. لكن آنا التي كانت تحاول تجاهله علانية، أشاحت بوجهها عنه وأخذت تحادث إياشفين الذي أكبّ عليها برأسه الحليق. وانصرف كارتاسوف دون أن يحييّها وظلت المقصورة فارغة.

لم يفهم فرونسكي ما الذي حدث بالضبط بين آل كارتاسوف وآنا، لكنه فهم أن حادثاً مهيناً لآنا قد حدث. فهمَ ذلك مما رآه ولا سيما من وجه آنا الذي كان يستجمع آخر قواه -كما كان يرى- ليتابع الدور الذي اضطلعت به حتى النهاية. ولقد أفلحتْ في المحافظة على موقفها، موقف اللامبالاة الكلية. والذين لم يكونوا يعرفونها، ولم يكونوا يسمعون عبارات الشفقة والسخط والدهشة من صديقاتها القديمات أمام جرأتها على الظهور بين الناس علانية بطرحتها المخرّمة

Tele: @Arab_Books

وبجمالها، هؤلاء كانوا يُعجبون برباطة جأش هذه المرأة وملاحتها، وما كان يخطر ببالهم أنها تعاني شعور الإنسان الذي يتعرّض للخزي حتى الموت.

أحس فرونسكي بقلق لا يُطاق عندما علم بأن حادثاً قد وقع، وإن جهل قوامَه بالضبط، فقصد إلى مقصورة أخيه، على أمل أن يطّلع على شيء مما جرى. وبعد أن عبر الصالة عن قصد في الجهة المقابلة لمقصورة آنا، اصطدم وهو يخرج بعقيده القديم الذي كان يحادث شخصين. وسمع فرونسكي اسم كارينينا، ولاحظ أن العقيد سارع إلى دعوته بصوت عالٍ وهو يرمي محدّثيه بنظرة لها دلالتها.

قال العقيد:

- آه! فرونسكي! متى تأتي إلى الفوج؟ لن ندعك تذهب دون مأدبة. أنت منّا.

قال فرونسكي:

- ليس لديّ وقت، آسف، مرة أخرى:

وصعد الدرج الذي يؤدي إلى مقصورة أخيه وهو يركض.

كانت الكونتيسة العجوز، أم فرونسكي، جالسة في المقصورة بخصلها الصغيرة ذات اللون الفولاذي. أقبلت عليه إلى الممر فاريا والأميرة الشابة «سوروكين».

بعد أن أوصلت فاريا الأميرة سوروكين إلى أمها مدت يدها إلى

Tele: @Arab_Books

أخي زوجها وبدأت تحدّثه في الحال عمّا يعنيه. قلّما رأته في مثل هذا الاضطراب. بدأت تقول:

أرى أن ذلك جبن وحقارة. و لم يكن للسيدة كارتاسوف الحق في أن تفعل ما فعلته. والسيدة كارينينا...

– لكن ما الأمر؟ إني لا أدري شيئاً.

– كيف. ألم تسمع؟

– تعرفين جيداً أني آخر من يعلم ذلك.

– وهل هناك كائن أخبث من هذه السيدة «كارتاسوف»!

– لكن ماذا فعلت؟

– زوجي هو الذي روى لي ما جرى... لقد أهانت السيدة كارينينا. وجّه زوجها الكلام إلى السيدة كارينينا من مقصورة إلى أخرى فوّبخته زوجته ويبدو أنها جهرت بعبارة شائنة وانصرفت.

قالت الأميرة سوروكين وهي تطلّ برأسها من باب مقصورتها:

– أمك تناديك، يا كونت.

قالت له أمه بابتسامة ساخرة:

– إني أقضي حياتي في انتظارك. أنتَ محتجب.

Tele: @Arab_Books

ورأى ابنها أنها لم تستطع أن تكبح ابتسامة الفرح.

- فأجاب ببرودة:

- مرحباً، يا أمي. سآتي لزيارتك.

قالت الأم عندما انصرفت الفتاة:

- ألن تذهب لمغازلة السيدة كارينينا؟ إن لها جمالاً مثيراً. «لاباتي» تضيع أمامها.

قال وهو يقطّب بين حاجبيه:

- يا أمي، لقد رجوتك ألا تحدثيني عن ذلك.

- إني أقول ما يقوله جميع الناس.

لم يجب فرونسكي بشيء، وبعد أن خاطب الأميرة سوروكين ببضع كلمات خرج. ولقي أخاه عند عتبة الباب.

قال له أخوه:

- آه! ألكسي! يا للعار! هذه امرأة حمقاء، هذا كل شيء... كنت أنوي أن أذهب إلى مقصورتها. فلنذهب معاً.

لم يكن فرونسكي يصغي إليه. ونزل الدرج مسرعاً؛ أحس أن عليه أن يفعل شيئاً، دون أن يعلم ما هو. كان ساخطاً لأن آنا ألجأته وألجأت نفسها إلى هذا الموقف الخاطئ، بَيْدَ أنه أشفق عليها من جراء الآلام التي تكابدها.

Tele: @Arab_Books

نزل إلى الصالة ومضى رأساً إلى مقصورة آنا. كان ستريموف واقفاً أمام المقصورة يحادث آنا. كان يقول:

– لم يبق هناك مغنون صادحون. «تحطّم القالب».

حيّا فرونسكي آنا ووقف ليسلّم على ستريموف.

قالت آنا لفرونسكي وهي ترميه بنظرة هازئة، فيما لاح له:

– وصلتَ متأخراً، كما يبدو لي، وفاتتك أجمل قطعة. أجابها وهو ينظر إليها بصرامة:

– أنا حكم سيئ.

فقالت مبتسمة:

– أنت إذن مثل الأمير إياشفين الذي يرى أن «لاباتي» تغني بشدة مفرطة.

وأضافت وهي تتناول بيدها الصغيرة الحبيسة في قفّازها الطويل البرنامج الذي مدّه إليها فرونسكي، وفجأة، ارتعش في هذه اللحظة وجهها. فنهضت وتراجعت إلى مؤخر المقصورة.

وحين لاحظ فرونسكي، في بداية الفصل التالي أن مقصورة آنا خالية، غادر القاعة ورجع إلى الفندق رغم احتجاجات المشاهدين الذين كانوا يصغون بخشوع إلى اللحن البسيط في الأوبرا.

كانت آنا قد عادت، وكانت ما تزال ترتدي الثوب الذي كانت ترتديه في المسرح، عندما عاد فرونسكي، وقد جلست على أول مقعد

Tele: @Arab_Books

لقيته، قرب الحائط، وهي شاخصة أمامها. رفعت عينيها إليه وما لبثت أن عادت إلى وضعها الأول.

قال:

– آنا...

فصاحت وهي تنهض وقد غصّ صوتها بدموع اليأس والحنق:

– أنتَ، أنتَ سبب كل شيء.

– لقد رجوتُكِ، توسلتُ إليك ألا تذهبي إلى المسرح؛ كنت أعلم أنك ستلقين ما تكرهين...

فصرخت:

– ما أكره! فظيع! لن أنسى ذلك ما دمتُ حية. قالت لي «إن من المخزي أن تكوني جالسة بقربي».

فقال:

– هذه كلمات امرأة حمقاء، لكن كيف يجوز لكِ أن تخاطري، أن تتحدي...

– إنني أكره هدوءك. ما كان ينبغي لك أن تقودني إلى ذلك. ولو كنتَ تحبني...

– آنا! ما دخل الحب هنا؟

قالت وهي تنظر إليه نظرة تنطق بالرعب:

Tele: @Arab_Books

- نعم، لو كنتَ تحبني كما أحبك، لو كنتَ تتألم مثلي...

كان يشفق عليها وكان مع ذلك يحقد عليها. فأكّد لها حبه لأنه رأى أن هذه هي الوسيلة الوحيدة لتهدئتها، وامتنع عن لومها وإن لامها في قرارة نفسه.

استساغت توكيدات الحب هذه، وهي توكيدات بدت لفرونسكي شديدة الابتذال حتى إنه خجل من الإعراب عنها، فهدأت شيئاً فشيئاً. وفي اليوم التالي سافرا إلى الريف وهما متصالحان.

* * *

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

الجزء السادس

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

-١-

كانت داريا ألكسندروفنا تقضي الصيف مع أولادها في بوكروفسكوي، عند أختها، كيتي ليفين. لقد أخذ منزلها في أرغوشوفو يتهدم فأقنعها ليفين وزوجته بأن تأتي لتقيم معهم. ووافق ستيفان أركاديفتش على هذا الحل كل الموافقة. وكان يقول: إنه يأسف كثيراً لأن عمله يمنعه من قضاء الصيف في الريف مع أسرته، وهو سعادته القصوى؛ وبقي في موسكو فلم يكن يأتي إلا في فترات متباعدة ليوم أو يومين. وفضلاً عن آل أوبلونسكي والأولاد والمربية، كان آل ليفين يستضيفون أيضاً الأميرة العجوز التي كانت ترى من واجبها أن تساعد ابنتها التي لا تجربة لها والتي هي في حالة «الحمل». ثم إن «فارنكا»، صديقة كيتي في الخارج، وفت بوعدها: وهو أن تزور كيتي عندما تتزوج، وكانت تقيم عند صديقتها. كان هؤلاء جميعاً من أقرباء وأصدقاء زوجة ليفين. ومع أنه كان يحبهم جميعاً، فقد كان يأسف قليلاً على عالمه هو، وعاداته التي اكتسحها «العنصر تشرباتزكي» كما كان يدعوهم في أعماقه. لم يكن عنده من قرابته في هذا الصيف سوى سيرج إيفانوفتش؛ بل إن هذا كان أقرب إلى آل كوزنتيشيف منه إلى آل ليفين بحيث إن روح آل ليفين قد اندحرت كلياً.

Tele: @Arab_Books

في هذا المنزل الذي ظل مقفراً زمناً طويلاً، اجتمع الآن عدد غفير من الناس حتى إن جميع الغرف كانت مشغولة وإن الأميرة العجوز كانت تعمد، في كل الأيام تقريباً، وعندما تجلس للطعام، إلى عدّ المدعويين، فترسل الثالث عشر، حفيدها أو حفيدتها، إلى المائدة الصغرى ليتناول طعامه عليها. وكانت كيتي التي تقوم بواجباتها على أدق وجه تجد مشقة كبيرة في تأمين الدجاج والحبش والبط بالعدد الكافي لإشباع شهية ضيوفها التي شحذها الهواء الطلق.

كانت الأسرة تتعشى. فاعتزم أولاد دولي والمربية وفارنكا أن يذهبوا لجني الفطور. بيد أن سيرج إيفانوفتش الذي كان الجميع يظهرون الاحترام لعقله وعلمه إلى حدّ الإجلال، أدهش الحاضرين حين شارك في الحديث عن الفطور.

قال وهو ينظر إلى فارنكا:

– خذوني معكم. أحب كثيراً جني الفطور. وأرى أنه عمل ممتع.

أجابت فارنكا وقد علتها الحمرة:

– بكل سرور.

تبادلت كيتي هي ودولي نظرة خاطفة. فهذا العرض الذي يعرضه العالم المرهف العقل سيرج إيفانوفتش ليذهب إلى جمع الفطور مع فارنكا أكد بعض الافتراضات التي كانت تشغل كيتي كثيراً منذ بعض الوقت. وسارعت إلى مخاطبة أمها حتى لا تلحظ نظرتها.

بعد العشاء، جلس سيرج إيفانوفتش مع كأس الشاي قرب نافذة

Tele: @Arab_Books

قاعة الاستقبال، وتابع الحديث الذي بدأه مع أخيه، ملقياً بين الحين والحين نظرة إلى الباب الذي سيخرج منه الأولاد. جلس ليفين على مُتكأ النافذة قرب أخيه.

وقفت كيتي بجنب زوجها وقد ظهر عليها أنها تنتظر نهاية الحديث الذي لم يكن يهمها، لتقول له شيئاً ما.

قال سيرج إيفانوفتش وهو يبتسم لكيتي وكان واضحاً له أنه لا يعير الحديث كبير اهتمام:

– تغيرت كثيراً منذ أن تزوجت، لقد تحسنت، لكنك ما زلت متمسكاً بحبك للمخالفة.

قال ليفين لزوجته وهو يقدم لها كرسياً وينظر إليها نظرة جادة:

– كاتيا، لا يحسن بك أن تقفي.

قال سيرج إيفانوفتش وقد رأى الأولاد يتراكضون إليه:

– لكنني سأترك صحبتكم.

في المقدمة، جاءت تانيا التي كانت تجري إلى جانبهم بجوربيها المشدودين، وتهز بكل ما في ذراعها من قوة السلة وقبعة سيرج إيفانوفتش.

ركضت بجرأة إليه ومدت إليه قبعته وكأنها تريد أن تضعها على رأسه؛ ولطّفت ابتسامتها الرقيقة والوجلة من حرية حركتها، وأرسلت عيناها الجميلتان الشبيهتان بعيني أبيها بريقاً وهاجاً.

Tele: @Arab_Books

قالت وهي تضع له قبعته بعناية، بعد أن استشفّت من ابتسامته أن ذلك مسموح:

- فارنكا آتية.

كانت فارنكا واقفة عند عتبة الباب، مرتدية ثوباً من الحرير الهندي الأصفر، وقد غطّت رأسها بخمار أبيض.

قال سيرج إيفانوفتش وهو يفرغ كأسه ويضع في جيبه منديله وعلبة السيجار:

- أنا آت، أنا آت، يا بربارة أندريفنا.

وقالت كيتي لزوجها عندما نهض سيرج إيفانوفتش:

- ما أروعها، أليس كذلك، فارنكا العزيزة؟ وما أجملها وأنبل جمالها!

وصاحت بفارنكا:

- فارنكا! اذهبوا إلى غابة الطاحونة، وسنلحق بكم.

قالت الأميرة التي دخلت مسرعة:

- أنت تنسين حتماً وضعك. لا يجب أن تصرخي هكذا.

عندما سمعت فارنكا صوت كيتي وتأنيب أمها، دنت من صديقتها بخطوات خفيفة. كانت الحيوية في حركاتها، والحمرة التي صبغت

Tele: @Arab_Books

وجهها المنتعش، كان ذلك كله يظهر أن قد أخذ يجري فيها شيء غير عادي. كانت كيتي تعلم ماذاك الشيء وتراقبه باهتمام. وإذا كانت قد نادت فارنكا في هذه اللحظة، فلكي تباركها ذهنياً قبل الحدث المهم الذي ينبغي أن يحدث – في تصور كيتي – بعد العشاء في الغابة.

قالت لها بصوت خافت وهي تعانقها:

– فارنكا، سأكون جد سعيدة إن حدث ما أريد.

قالت فارنكا لليفين وقد اضطربت وتظاهرت بأنها لم تسمع:

– أتأتي معنا؟

– نعم، لكن حتى البيدر فقط؛ فسوف أتوقف فيه.

قالت كيتي:

– وشُغلك هناك؟

– يجب أن أفحص العجلات الجديدة، وأتحقق من الحسابات وأنتِ، إلى أين تذهبين؟

– إلى الشرفة.

Tele: @Arab_Books

-٢-

اجتمعت النساء كلهن على الشرفة. وكن يحببن، على العموم، أن يجلسن فيها بعد العشاء، أما هذا اليوم بالذات فقد كان هناك سبب خاص يدعوهن إلى التوجه إليها. ففضلاً عن إعداد اللفافات والصديريات التي كن يعكفن عليها جميعاً، عمدن اليوم إلى صناعة المربى بطريقة جديدة تجهلها آغات ميخايلوفنا، دون إضافة الماء. وكيتي هي التي أدخلت هذه الطريقة الجديدة المستعملة في بيت أهلها. وكانت آغات ميخايلوفنا التي عُهد إليها بهذا العمل قد أضافت الماء إلى الفريز لأن ذلك كان يُفعل في منزل آل ليفين، ومن ثم فهو لا يمكن أن يكون رديئاً؛ لكنها فوجئت بجرم العصيان المشهود وأخذت كيتي تصنع اليوم مربى توت العليق على مرأى من الجميع لإقناع آغات ميخايلوفنا بجودة الطريقة الجديدة.

كانت آغات ميخايلوفنا تحرّك بيديها الهزيلتين قدر المربى على موقد صغير وهي كسيرة النفس، بادية الغضب، مشعثة الشعر، مشمرة كميها حتى المرفقين، وكانت تنظر إلى التوت بوجه مكفهر، متمنية من كل قلبها أن يلزق التوت بقعر القدر. وأحست الأميرة أن غضب آغات ميخايلوفنا سيتجه إليها، باعتبارها المسؤولة الرئيسية، فحاولت

Tele: @Arab_Books

جاهدة أن تتظاهر بأنها منهمكة وأنها لا تلقي بالاً إلى التوت؛ لكنها كانت تراقب الطبخة بمؤخر عينيها، وهي تتحدث عن أمور شتى.

قالت الأميرة وهي تتابع حديثاً بدأته:

– إني أشتري دائماً، أنا نفسي، أثواب خادماتي بسعر زهيد.

وأضافت مخاطبة آغات ميخايلوفنا:

– ألم يحن الوقت بعد لنزع الرغوة، يا عزيزتي؟

وقالت وهي تمسك بكيتي:

– لا فائدة من فعلك هذا بنفسك، ثم إن الحرارة المفرطة تؤذيك.

قالت دولي:

– سأفعل أنا هذا.

ودنت من القدر، وأخذت تُحرك الملعقة بحذر في الشراب المزبد؛ ومن وقت إلى آخر كانت تسحب الملعقة وتخلصها من المادة الدبقة التي علقت بها وهي تطبطب على صحن مغطى برغوة صفراء وردية يسيل منها عصير بلون الدم. وقالت في نفسها وهي تفكر في الأولاد: «كم سيلتذون بها مع الشاي»، وتذكرت أنها، عندما كانت صغيرة، كانت تدهش دائماً حين ترى الكبار يأنفون من ألذ شيء: من الرغوة.

بيد أن كيتي عادت إلى الموضوع الذي استأثر باهتمامهن: أفضل الهدايا التي تُقدم إلى الخدم:

Tele: @Arab_Books

– يقول ستيفان إن من الأفضل أن نعطيهم مالاً! لكن...

فهتفت بصوت واحد الأميرة وكيتي:

– المال! كلا، إنهم يتأثرون عندما نشتري لهم شيئاً.

قالت الأميرة.

– أنا، مثلاً، اشتريت في السنة الفائتة لماترينا سيمينوفنا ثوباً من «البوبلين».

– أذكر أنها ارتدته في عيد ميلادك.

– رسْمُه رائع وبسيط، وهو يدل على ذوق سليم. ولو لم يكن لها، لاشتهيت أن أصنع لنفسي مثله. من نوع الذي ترتديه فارنكا. إنه رائع، وهو لا يكلف شيئاً.

قالت دولي وهي تُسيل الشراب من الملعقة:

– أظن أنه جاهز الآن.

– عندما يتخثر فمعنى ذلك أنه نضج. دعيه يغلي قليلاً على النار الخفيفة، يا آغات ميخايلوفنا.

دمدمت آغات ميخايلوفنا:

– آه! من هذا الذباب! ستكون النتيجة هي ذاتها.

قالت كيتي وهي تنظر إلى عصفور دوري حط على حافة الشرفة وأخذ ينقر حبة من التوت بعد أن قلبها:

Tele: @Arab_Books

– أوه! ما ألطفه! لا تُخوّفيه!

قالت لها أمها:

– نعم، لكن لا تقتربي كثيراً من الموقد.

قالت كيتي بالفرنسية، كما يفعلن دائماً عندما يردن ألا تفهمهن آغات ميخايلوفنا:

– بمناسبة الكلام على فارنكا، أتعلمين، يا أمي، أنني أنتظر قراراً اليوم. تعرفين ما هو. كم سيفرحني ذلك.

قالت دولي:

– ما أبرعها من خطّابة! وكم تتصرف بفطنة، ومهارة...

– لا، قولي لي، يا أمي، ما رأيك في ذلك.

– كيف تريدين أن يكون رأيي؟ فهو («هو» يعني سيرج إيفانوفتش) رجل كان بإمكانه أن يطلب خير بنات روسيا للزواج؛ وحتى الآن، فأنا أعرف الكثيرات ممن يردن الزواج به، مع أنه لم يعد فتياً... إنها حسنة جداً، لكن يمكنه...

قالت كيتي:

– اعلمي، يا أمي، أنني لا أحلم بأفضل من ذلك، لا له ولا لها. أولاً، إنها لطيفة..

Tele: @Arab_Books

وطوت إصبعاً من أصابعها.

فأيدتها دولي:

– إنها تعجبه كثيراً، هذا مؤكد.

– ثم إنه يشغل مركزاً كبيراً في المجتمع حتى إنه لا يحتاج لا إلى الثروة ولا إلى المعارف. إنه يحتاج فقط إلى امرأة صالحة، رائعة، وديعة.

فأضافت دولي:

– نعم، يستطيع المرء أن يكون مطمئناً معها:

– وأخيراً، يجب أن تحبه... وهي تحبه!... كم سيكون ذلك رائعاً! أنا واثقة أنهما عندما يخرجان من الغابة سيكون كل شيء قد قُرِّر. سأرى ذاك في الحال من عيونهما. كم سيسرني ذلك! ما رأيك، يا دولي؟

قالت لها أمها:

– لكن لا تضطربي، لا حاجة بك إلى الاضطراب.

– إني لم أضطرب، يا أمي. يخيل إلي أنه سيطلبها للزواج في هذا اليوم. قالت دولي مبتسمة، ساهمة، وقد تذكّرت ماضيها مع ستيفان أركاديفتش.

– آه! ما أغرب الأمر عندما يطلبك الرجل للزواج... هناك حاجز بينكما وفجأة ينهار الحاجز.

Tele: @Arab_Books

قالت كيتي بغتة:

– كيف طلبك أبي للزواج، يا أمي؟

أجابت الأميرة واستضاء وجهها لهذه الذكرى:

– لم يجر شيء خارق للعادة، كان الأمر بسيطاً.

– نعم، لكن كيف؟ أكنتِ تحبينه قبل أن يُسمح لك بالكلام معه؟

كانت كيتي تشعر بمتعة خاصة لأنها استطاعت الآن أن تحدّث أمها نداً لندّ عن أخطر الموضوعات في حياة المرأة.

– بالتأكيد؛ كان يأتي لزيارتنا في الريف.

– لكن، كيف تقرَّر الأمر، يا أمي؟

– أتعتقدين أنكن اخترعتن شيئاً جديداً؟ الأمور تجري دائماً بالطريقة نفسها؛ تقرر الأمر بالنظرات، والابتسامات...

فأيّدتها دولي:

– ما أحسن ما قلتِه، يا أمي! صحيح: بالنظرات والابتسامات....

– لكن ما الكلمات التي قالها لكِ؟

– وأنت؟، ما الكلمات التي قالها لك كوستيا؟

قالت كيتي:

Tele: @Arab_Books

تب بالحوار... كان شيئاً غير عـادي!... كم يبدو لي ذلك
!!...

واستغرقت النساء الثلاث في الأفكار نفسها. وكانت كيتي أول من قطع الصمت. لقد تذكّرت آخر شتاء قبل زواجها وتذكّرت افتتانها بفرونسكي. فقالت وقد عادت إلى هذا الموضوع بتداعي الأفكار:

– ليس هناك سوى عائق... هو حب فارنكا الأول...

وأضافت:

– كنت أنوي أن أحدّث سيرج إيفانوفتش، أن أهيّئه. فهؤلاء الرجال يغارون غيرة كريهة من ماضينا.

قالت دولي:

– ليسوا جميعاً كذلك. أنت تحكمين على ذلك من خلال زوجك. إنه ما يزال يتألم من ذكرى فرونسكي. أليس كذلك؟

أجابت كيتي وهي باسمة العينين. ساهمة الوجه:

– بلى.

تدّخلت الأميرة، وقد أحست أن إشرافها الأمومي هو الذي يُشار إليه بالاتهام:

– لكنني لا أدري ما الذي يمكن أن يُقلقه من ماضيك. أن يكون فرونسكي قد غازلكِ؟ ذلك يقع للبنات جميعاً.

Tele: @Arab_Books

قالت كيتي وقد علتها الحمرة:

- إننا لا نتكلم على ذلك.

فتابعت أمها:

- اسمحي لي، لقد منعتني أنت نفسك من أن أكلّم فرونسكي. أتذكرين؟

قالت كيتي، ووجهها ينطق بالألم:

- آه! يا أمي!

- في الوقت الحاضر، لا يمكن كبح جماحكن... لكن علاقاتكن لا يمكن أن تتجاوز حداً معيناً. كنت سأحمله على البوح بحبه.

على كلّ حال، لا ينبغي لك أن تضطربي، يا ملاكي. تذكري ذلك، أرجوك، وابقي هادئة.

- لكنني هادئة تماماً، يا أمي.

قالت دولي:

- ما أسعد كيتي لأن آنا قد اعترضت سبيلها، وما أشقى آنا بذلك!

وتابعت كلامها وقد راعتها فكرتها هذه:

- لقد تبادلتا دوريهما. كانت آنا في منتهى السعادة آنذاك، وكانت كيتي تظن نفسها شقية. الأمر على العكس تماماً، الآن! وكثيراً ما أفكر فيها.

Tele: @Arab_Books

قالت أمها التي لم تستطع أن تنسى أن كيتي تزوجت ليفين لا فرونسكي:

– أو تستحقين هذا العناء! أتفكرين في هذه المخلوقة الكريهة، في هذه المرأة التي لا قلب لها!

قالت كيتي وقد نفذ صبرها:

– دعيني من ذلك، إني لا أفكر فيه، ولا أريد أن أفكر فيه...

ورددت وهي تصيخ السمع إلى خطوات زوجها المألوفة على الشرفة:

– ولا أريد أن أفكّر فيه...

سألها ليفين حين ظهر على الشرفة:

– ما الذي لا تريدين أن تفكري فيه؟

فلم يجبه أحد، ولم يُعد سؤاله.

قال وهو يلفهن بنظرة ممتعضة حين أدرك أنهن لن يتابعن حديثهن أمامه:

– آسف لكوني واغلاً على مملكتكن، مملكة النساء.

أحسّ، خلال لحظة، أنه يشاطر آغات ميخايلوفنا شعورها وهي ساخطة على صنع مربى توت العليق بدون ماء وعلى الخضوع

Tele: @Arab_Books

لسيطرة آل تشرباتزكي. ومع ذلك، ابتسم واقترب من كيتي، فسألها وهو ينظر إليها وعلى وجهه ذلك التعبير الذي أخذ الجميع يصطنعونه حين يخاطبونها:

- ما لكِ؟

قالت كيتي وهي تبتسم:

- أنا بخير. وعجلاتك؟

- إنها تتسع لحمولة أكبر بثلاث مرات من العربات الأخرى. سنذهب لنأتي بالأولاد. أمرتُ أن تهيأ العربة.

قالت الأميرة بلهجة الملامة:

- ماذا، تريد أن تأخذ كيتي في عربة ذات مقاعد؟

- سنذهب ببطء، يا أميرة.

لم يكن ليفين يدعو الأميرة: «أمي» كما يفعل الأصهار عادة، وكانت هي تتأذى من ذلك. لكنه لم يكن يستطيع أن يفقد العزم على دعوتها: «أمي»، مع حبه واحترامه لها، لأنه اعتقد أنه يمتهن ذكرى أمه.

قالت كيتي:

- تعالي معنا، يا أمي.

Tele: @Arab_Books

– لا أريد أن أرى طيشكما.

– طيب، سأذهب مشياً، فالمشي ينفعني.

نهضت كيتي، واقتربت من زوجها، وأمسكت بيده.

قالت الأميرة:

– هذا ينفعكِ، إذا لم تتجاوزي الحد.

قال ليفين وهو يبتسم لآغات ميخايلوفنا ويرغب في إدخال السرور على نفسها:

– ما رأيك، يا آغات ميخايلوفنا، هل نضج المربى؟ هل للطريقة الجديدة حسناتها؟

– يبدو ذلك، لكنه قد طبخ أكثر من اللازم.

قالت كيتي التي أدركت رأساً نية زوجها وخاطبت العجوز بهذا القصد نفسه:

– لن يزيده ذلك إلا حسناً؛ على الأقل إنه لن يفسد: فقد ذاب الثلج وليس لدينا غرفة للتبريد.

وأضافت وهي تبتسم وتُصلح لها خمارها:

– أما موالحك فقد قالت أمي: إنها لم تأكل قط ألذّ منها.

قالت آغات ميخايلوفنا وهي تلقي عليها نظرة غضبى:

Tele: @Arab_Books

– لا تواسيني، يا سيدتي. ولا يسرني شيء إلا أن أراك «معه».

فتأثرت كيتي من طريقتها الخشنة في استخدام الضمير.

– تعالي معنا للبحث عن الفطور؛ سوف تدليننا على أماكنها.

ابتسمت آغات ميخايلوفنا وهزّت رأسها كمن تقول: «سأكون مسرورة لو غضبتُ عليك، لكن ذلك مستحيل».

قالت الأميرة:

– اتّبعي نصحيتي، غطي كل وعاء بورقة مدوّرة مبللّة بالروم، ولن تحتاج إلى الثلج لتمنعي التعفن.

Tele: @Arab_Books

-٣-

سُرّت كيتي سروراً شديداً بمناسبة الاختلاء بزوجها، لأنها لاحظت ظلاً من الحزن يمر على وجهه القوي التعبير دائماً، عندما صعد إلى الشرفة وسألهن عمّ يتحدثن فلم يجبنه.

عندما تقدما على الطريق المغبرة التي تناثرت عليها السنابل وحبوب الشيلم، وغابا عن الناظر من البيت، اتكأت بقوة أكبر على ذراعه وشدت نفسها إليه. لقد نسي الانطباع المؤلم الذي لم يدم سوى دقيقة، وأحس الآن، وهو حده معها، وفكرة حملها لا تفارقه لحظة، بسرور جديد عليه، نقي وخال من كل نزعة حسية، سرور بحضور الحبيبة. لم يكن لديه ما يقوله لها، لكنه كان يرغب في سماع جرس صوتها، والشعور بنظرتها التي تغيرت منذ أن غدت حاملاً. وفي صوتها ونظرتها ظهرت تلك العذوبة والرزانة الخاصتان بأولئك الناس الذين يتركز انتباههم وحبهم في شيء واحد.

قال لها:

– ألا تخافين أن تتعبي؟ اتكئي علي أكثر.

– لا، أنا جد سعيدة بمناسبة الحديث إليك ونحن وحدنا. إني أحب أسرتي، لكنني أعترف لك بأني آسفة على سهرات الشتاء.

Tele: @Arab_Books

قال لها وهو يشدّ على يدها:

– كان ذلك حسناً، آنذاك، لكنه الآن أحسن. كل شيء حسن.

– أتدري عم كنا نتحدث عند وصولك؟

– عن المربى؟

– نعم، تحدّثنا أيضاً عن المربى، لكننا تحدثنا بعد ذلك عن الطريقة التي يتم بها طلب الزواج.

قال ليفين:

– آه!

قال ذلك وهو أكثر انتباهاً لجرس صوتها منه إلى الكلمات التي كانت تقولها، مع مراقبته للطريق التي يسيران عليها الآن في الغابة لكي يجنبها كل عثرة.

– وتحدثنا أيضاً عن سيرج إيفانوفتش وعن فارنكا. هل لاحظت؟...

وتابعت:

– إني أرغب في ذلك كثيراً. ما رأيك؟

ونظرت إليه في عينيه.

قال ليفين وهو يبتسم:

Tele: @Arab_Books

– لا أدري ما الرأي الصحيح. فسيرج من هذه الناحية شديد الغرابة، بالنسبة إلي. لقد قلتُ لكِ، أليس كذلك....

– نعم، إنه كان مغرماً بتلك الفتاة التي ماتت...

– كنتُ ما أزال طفلاً، وسمعتُ بالخبر سماعاً. وأنا أتذكره في تلك الفترة. كان فاتناً. ثم لاحظته، بعد ذلك، مع النساء؛ إنه كيّسٌ، وبعض النساء يُعجبنه، لكن المرء يحسّ أنهن لا يوجَدْن بالنسبة إليه كنساء.

– أما الآن، مع فارنكا... فيلوح لي أن هناك شيئاً...

– ربما... لكن يجب الاعتراف بأنه رجل غريب الأطوار، مُدهش. إنه لا يحيا إلا بالفكر. وله نفس في غاية الصفاء والسمو.

– كيف؟ أتريد أن تقول: إن ذلك يغضّ منه؟

– لا، لكنه تعوَّد ألا يحيا إلا بالفكر إلى الحد الذي لا يستطيع معه أن يتصالح مع الواقع، وفارنكا، بالرغم من كل شيء، هي الواقع.

لقد ألف ليفين التعبير عن فكرته بجرأة، دون أن يكلّف نفسه تغليفها بألفاظ دقيقة، لعلمه بأن امرأته تفهم عنه بالإشارة، في لحظات حنانها. والواقع أنها فهمت قصده:

– ومع ذلك فليس فيها الواقع نفسه الذي فيّ أنا. وأنا واثقة من أنه لا يمكن أن يغرم بي. وهي أيضاً فكر خالص.

– بلى، إنه يحبّك بما أنت عليه؛ ويسرّني دائماً أن أرى ذويَّ يحبونك...

Tele: @Arab_Books

– إنه مليء بالطيبة تجاهك، لكن...

وأنهى ليفين كلامه الذي بدأه:

– بالطبع، الأمر معه غير الأمر مع نيقولا المسكين... لقد شُغفتما أحدكما بالآخر... ولَمَ لا أعترف بأني ألوم نفسي أحياناً: سأنتهي بأن أنساه... آه! كان رجلاً رهيباً ورائعاً...

وقال بعد صمت:

– نعم، عمّ كنّا نتحدث؟

فترجمت فكرة زوجها إلى لغتها وقالت:

– أنت ترى أنه لا يمكن أن يحب؟

قال ليفين وهو يبتسم:

– لا، ليس الأمر كذلك، لكن ليس فيه ذلك الضعف الضروري... لقد غبطته دائماً، وحتى الآن وأنا سعيد، ما زلت أغبّطه.

– أتغبطه على أنه لا يستطيع أن يحب؟

قال ليفين وهو ما يزال يبتسم:

– أغبطه لأنه خير مني. إنه لا يحيا لذاته. كل حياته خاضعة للواجب. ولذلك يمكنه أن يكون مطمئناً وراضياً.

قالت كيتي مع ابتسامة مغتصبة وهازئة:

Tele: @Arab_Books

- وأنت؟

لم يكن بوسعها أن تعثر على تداعي الأفكار الذي قادها إلى الابتسام؛ لكن آخر استنتاج لها كان أن زوجها حين يمجد أخاه ويغضّ من نفسه أمامه، لم يكن صادقاً. وكانت كيتي تعلم أن نقصان الصدق هذا يأتي من حبه لأخيه، ومن تبكيت الضمير الذي يخامره لشعوره بفَرط السعادة، ولا سيما من تَوْقه المستمر إلى أن يصبح أفضل: كانت تحب هذه الاستعدادات ولذلك ابتسمت.

وسألته وهي ما تزال تبتسم:

- وأنت؟؟ أنت غير راضٍ؟

إن شكها في هذه النقطة خلب لبّه، فأراد لا شعورياً أن يسوقها إلى التعبير عن أسباب شكّها، فقال:

- أنا سعيد، لكنني غير راض عن نفسي.

- وهكذا، يمكن أن تكون غير راضٍ عندما تكون سعيداً؟

- كيف أقول لك؟... لست أرغب في شيء، من أعماق قلبي، رغبتي في أن أجنبك العثرات...

وقال مقاطعاً نفسه لأنها قامت بحركة مفرطة السرعة وهي تتجاوز غصناً يسدّ الطريق:

- آه! ينبغي ألا تثبي هكذا!

Tele: @Arab_Books

وأضاف:

– لكنني عندما أقارن نفسي بالآخرين ولا سيما بأخي، فإني أحس بالنقص.

استأنفت كيتي مع الابتسامة ذاتها:

– النقص في أي شيء؟ ألست تفكر، أنتَ أيضاً، في الناس؟ ومزارعك، واستثمارك، وكتابك؟

قال وهو يشد على يدها:

– لا، وأنا أحس بالنقص، ولا سيما الآن: وهذه غلطتكِ. لكن الأمر ليس كما قلتِ. إني أفعل ما أفعله باستخفاف. ليتني أستطيع أن أحب كل ذلك العمل كما أحبك... لكني أقوم بذلك العمل كمن يقوم بمهمة مفروضة.

فسألته كيتي:

– ما قولك إذن بوالدي؟ أهو سيئ لأنه لا يفعل شيئاً للمصلحة العامة؟

– هو؟ لا. لكن ينبغي أن يكون للمرء بساطة والدك ووضوحه وطيبته: وليس لدي شيء من ذلك. إني لا أفعل شيئاً وأتألم. كل ذلك بسببك..

وأضاف وهو يلقي على قامة زوجته نظرة فهمت معناها:

Tele: @Arab_Books

– فعندما لم تكوني هنا و لم يكن قد حدث «هذا» بعد، كنت أضع قواي كلها في عملي؛ أما الآن فأنا أستحي من ذلك، ولا أقوى على شيء منه؛ ليس ذلك سوى مهمة مفروضة علي، سوى مظهر خادع...

قالت كيتي:

– لكن، أتقبل أن تبادل سيرج إيفانوفتش رأساً؟ أتقبل أن تقف نفسك على المصلحة العامة مثله وتقتصر على ذلك؟

قال ليفين:

– طبعاً لا. فأنا جد سعيد إني لم أعد أفهم شيئاً.

وأضاف بعد صمت:

– وهكذا فأنت تعتقدين أنه سيتقدَّم بطلبه اليوم؟

– لستُ متأكدة من ذلك. لكنني أتمناه من كل قلبي. انتظر.

وانحنت فقطفت من حافة الطريق أقحوانة، وأردفت، وهي تعطيه الزهرة:

– خذ، عدَّ: سيتقدم بطلبه، لن يتقدم بطلبه...

قال ليفين وهو ينتزع الوريقات الضيقة المضلعة، واحدة بعد الأخرى:

– سيتقدم بطلبه، لن يتقدم بطلبه...

Tele: @Arab_Books

قالت كيتي التي تابعت حركاته بانفعال وأمسكت بيده:

– لا، لا! انتزعت اثنتين منها.

قال ليفين وهو يرفع وريقة شديدة الصغر، لم تبلغ بعد نهاية نموها:

– بلى فهذه الوريقة لا تحسب. هذه هي العربة ذات المقاعد. لقد أدركتنا.

صاحت الأميرة:

– ألم تتعبي، يا كيتي؟

– أبداً.

– اصعدي، إذا شئت فالجياد وديعة؛ ستسير على مهل، بالطبع.

لكن، لم تكن هناك حاجة للصعود، لأنهم اقتربوا من الهدف، فتابع الجميع الطريق سيراً على الأقدام.

Tele: @Arab_Books

- ٤ -

كانت فارنكا جذابة جداً بخمارها الأبيض على شعرها الأسود، وقد أحاط بها الأولاد الذين كانت تُعنى بهم ببهجة وادعة، وظهر عليها الانفعال من إمكان مكاشفة رجل يعجبها. وكان سيرج إيفانوفتش يسير بجانبها وقد ذلهه الإعجاب بها. كان يتذكر، وهو ينظر إليها، كل ما قيل له عنها وكل ما عرفه عنها من أنباء مؤثرة، ويحس بحدة متزايدة أن هذا الشعور الذي يخامره نحوها إنما هو شعور خاص خامره قديماً مرة واحدة فقط أثناء شبابه الأول. وكان الفرح الذي يبعثه فيه حضور الفتاة يتعاظم من دقيقة إلى دقيقة. وحين وضع في سلتها فطراً ضخماً دقيق الساق متهدل الجوانب، وحين لاحظ حمرة وجهها المنفعل الذي بدا عليه الفرح والخوف في آن واحد، اضطرب وابتسم لها ابتسامة قالت الشيء الكثير.

قال في نفسه: «إذا كان الأمر كذلك وجب علي أن أفكر وأن أتخذ قراراً، وألا أنساق كالمراهقين لفتنة اللحظة».

وقال لها:

- سأذهب الآن للبحث عن الفطور منفرداً، وإلا فلن يحس أحد

Tele: @Arab_Books

بما عثرت عليه. وترك حافة الغابة التي كانوا يسيرون فيها على العشب القصير والحريري، بين أشجار البتولة المتناثرة، ودلف إلى الغابة التي كانت أشجار الحور وأجمات البندق فيها تلقي بقعاً رمادية وسوداء بين جذوع البتولة البيضاء. وحين ابتعد نحو أربعين خطوة ودار حول غيضة من شجيرات المضاض في ذروة ازدهارها بأزهارها الحمراء القاتمة، توقف. كان الصمت مخيماً من حوله. الذباب وحده كان يطن بلا كلل، قرب رؤوس أشجار البتولة التي وقف في ظلها، كأنه خلية النحل، ومن حين إلى آخر كانت تتناهى إليه أصوات الأولاد. وفجأة رن صوت فارنكا الخفيض قريباً منه، على أطراف الغابة، وهي تنادي غريشا، وإذا بابتسامة الفرح تبسط وجه سيرج إيفانوفتش. ولقد شعر بهذه الابتسامة فهز رأسه مستنكراً وأخرج سيجاراً وأشعله. ولم يفلح رأساً في إشعال عود الكبريت على جذع البتولة. كانت الأوراق الطرية للقشرة البيضاء تلتصق بالفوسفور فتنطفئ الشعلة. وأخيراً اشتعل أحد الأعواد وانتشر دخان سيجاره الأرج في سحائب رجراجة أمامه وفوق الدغل، تحت أغصان البتولة المتدلية. واستأنف سيرج إيفانوفتش سيره بخطوات بطيئة، متابعاً بعينه شريط الدخان، ومتأملاً في الحالة التي هو فيها.

فكر في نفسه: «لِمَ لا؟ ليس ما بي نزوة أو هوى، إنه انجذاب متبادل. (أستطيع القول إنه «متبادل»). ولسوف يخالف هذا الانجذاب نمط حياتي لو أحسست أني حدت عن دربي أو أهملتُ واجبي... وليس الأمر كذلك. الاعتراض الوحيد هو أنني عندما فقدت ماري أقسمت أن أظل وفياً لذكراها. هذا كل ما أستطيع أن أعارض به عاطفتي... وهذا مهم. قال ذلك في نفسه وهو يحس أن هذا الاعتبار لا يملك أية

Tele: @Arab_Books

أهمية بالنسبة إليه شخصياً، لكنه قد يشوه الفكرة التي كونها الناس عنه. وفيما عدا ذلك لن أجد ما يقال على هذه العاطفة مهما فتشت عن المطاعن. لو كان العقل وحده هو الذي يقود اختياري لما وجدتُ خيراً منها!.

وعبثاً استعرض في ذاكرته النساء والبنات اللواتي عرفهن، إذ لم يجد واحدة منهن تجمع إلى هذا الحد بالذات المحاسن التي يتمنى وجودها في امرأته حين يحاكم بعقله محاكمة باردة. كانت تملك كل ملاحة الشباب ونضارته دون أن تكون طفلة، وإذا كانت تحبه فعن شعور واع، كما ينبغي أن تحب المرأة: هذه هي النقطة الأولى. ثانياً إنها لم تكن مجردة من الميل إلى المجتمع الراقي نفسه وتحسن ممارسة العادات التي لا بدَّ منها لشريكة حياتك –على حدّ تفكيره– وثالثاً: لقد كانت متدينة لا على طريقة الطفل، بلا تبصر، مثل كيتي، بل إن حياتها كانت ترتكز على قناعات دينية. وحتى في التفاصيل، كان سيرج إيفانوفتش يجد فيها كل ما يتمنى وجوده في المرأة: كانت فقيرة، بلا أسرة، ولن تفرض إذن على زوجها، مثل كيتي، وجود عدد كبير من الأهل وتأثيرهم. على العكس، ستكون مدينة في كل شيء لزوجها، وهو ما تمناه دائماً في حياته الزوجية المقبلة. وهذه الفتاة التي تجمع كل هذه المحاسن كانت تحبه. ومهما يكن طفيفاً ذلك الحب فلا يسعه إلا أن يلاحظه. وكان يحبها. الاعتبار الوحيد المزعج كان عمره. لكنه كان من سلالة قوية البنيان، ولم يكن في رأسه شعرة بيضاء، ولم يكن أحد يعطيه أربعين عاماً؛ وتذكر، من جهة أخرى: أن فارنكا قالت ذات يوم: إن الناس في روسيا وحدها يظنون أنهم صاروا شيوخاً في سن الخمسين، وأن الرجل في فرنسا يعتبر نفسه في شرخ الشباب وهو

Tele: @Arab_Books

ابن خمسين ويعتبر نفسه شاباً فتياً وهو في الأربعين. وعلام يدل عدد السنين إذا كان يحس بنفسه فتيّ القلب كما كان قبل عشرين سنة؟ أليس شباباً ذلك الشعور الذي خالجه الآن، وهو عائد إلى تخوم الغابة بطريق أخرى، حين شاهد في الضياء الباهر لأشعة الشمس المائلة شخص فارنكا الرشيق في ثوبها الأصفر وسلتها، متجاوزة بخطوة خفيفة جذع بتولة عتيقة، وانصهر هذا الانطباع مع مشهد حقل الشوفان المصفر، المغمور بأشعة الشمس المائلة، الذي أذهله بجماله، ومن وراء الحقل مع مشهد غابة عتيقة، مبقعة بالصفرة، غائبة في زرقة الآفاق البعيدة؟ انقبض قلبه من الفرح، واستبد به شعور من الحنان. أحس أن قراره قد اتخذ. أما فارنكا التي انحنت بحركة رشيقة لتجني أحد الفطور فقد نهضت واستدارت. عند ذاك رمى سيرج إيفانوفتش سيجاره واتجه إليها بخطوات ثابتة.

Tele: @Arab_Books

-٥-

«يا بربارة أندريفنا، عندما كنت مازال شاباً، كونتُ لنفسي مثلاً أعلى عن المرأة التي سوف أحبها والتي سأسعد بأن تكون رفيقة لي. لقد عشت سنوات طويلة، وهأنذا أعثر الآن فيك على ما كنت أبحث عنه. إني أحبك وأعرض عليك الزواج بي».

هذا ما كان يقوله سيرج إيفانوفتش في نفسه وهو على عشر خطوات من فارنكا. وكانت فارنكا جاثية في العشب تحمي الفطور من غريشا، وتدعو ماشا الصغيرة، بصوتها الحلو ذي الجرس الخفيض:

– من هنا، من هنا، يا أولاد! ها هنا عدد كبير من الفطور!

عندما شاهدت سيرج إيفانوفتش يقترب لم تنهض وظلت في وضعها نفسه، لكن كل شيء كان ينبئ كوزنيتشيف بأنها أحست باقترابه وخامرها الفرح.

سألته وهي تدير إليه وجهها الجميل الذي استنار بابتسامة وادعة:

– هل وجدتَ شيئاً؟

قال سيرج إيفانوفتش:

Tele: @Arab_Books

- لاشيء، وأنت؟

لم تجبه بشيء، وظلّت مشغولة بالأولاد الذين أحاطوا بها.

قالت وهي تدل ماشا على فطر صغير برز من خلال كومة من الأعشاب الجافة دخلت قشة منها في قبعة الفطر الوردية والطرية:

- بقي فطرٌ هنا، بجانب الغصن.

نهضت فارنكا عندما جاءتها ماشا بالفطر الذي قطعته إلى قسمين، وأضافت وهي تلحق بسيرج إيفانوفتش:

- إن هذا يذكرني بطفولتي.

سارا بضع خطوات بصمت. رأت فارنكا أنه يرغب في الكلام، واستشفت الموضوع، فخارت قواها من الفرح والخوف. ومضيا بعيداً جداً بحيث لا يسمعهما أحد، لكنه لم يجمع أمره على الكلام. وآثرت فارنكا الصمت. فسوف يكون أسهل عليهما، أن يعربا عما يريدان أن يقولاه أحدهما للآخر بعد الصمت، منه بعد الحديث عن الفطور؛ لكنها قالت، على حين غرة وبالرغم من إرادتها:

- وإذن فأنت لم تعثر على شيء؟ على كل حال، الفطور أقل في وسط الغابة.

تنهد سيرج إيفانوفتش ولم يجب بشيء. لقد آذاه أن تعود بالحديث إلى الفطور، وأراد أن يرجع بها إلى الكلمات الأولى التي قالتها عن طفولتها؛ بعد أن صمت لحظة، أبدى، بالرغم منه تقريباً، ملاحظة تتصل بجملتها الأخيرة:

Tele: @Arab_Books

– سمعت أننا نعثر على الفطور الكبيرة بخاصة عند حافة الغابة، لكني لا أستطيع تمييز الفطور بعضها من بعض.

مرت بضع دقائق أيضاً: لقد نأيا عن الأولاد وأصبحا وحدهما. وكان قلب فارنكا يدق بقوة شديدة حتى إنها كانت تسمع دقاته؛ وأحست أنها تحمر وتشحب ثم تحمر من جديد.

لأن تصبح امرأة رجل مثل كوزنيتشيف بعد حالتها مع السيدة «ستاهل»، بدا لها كأنه السعادة القصوى. ثم إنها شبه متأكدة من أنها تحبه. وسوف يتقرر ذلك في هذه اللحظة. لاح لها ذلك غريباً. لقد خافت مما ستقوله ومما لن تقوله في آن واحد.

يجب أن نتكاشف الآن أو لا نتكاشف أبداً: هذا ما كان يحس به سيرج إيفانوفتش. كان كل شيء: نظرتها، واحمرارها، وطرفها الغضيض، يظهر له انتظارها المؤلم. رأى سيرج إيفانوفتش ذلك فأشفق عليها. وأحس أن الامتناع عن الكلام إهانة لها. فردد في ذهنه جميع الحجج التي تؤيد قراره، وردد الكلمات التي سيستخدمها للتقدم بطلبه؛ لكنه، بدلاً من ذلك كله، وبمداورة غير متوقعة من خياله، سألها:

– ما الفرق بين فطر الكمأة والفطر العادي؟

ارتعشت شفتا فارنكا عندما أجابت:

– قبعتهما واحدة وساقاهما مختلفان.

وما إن قيلت هذه الكلمات حتى أدركا كلاهما أن الأمر قد انتهى

Tele: @Arab_Books

وأن ما كان ينبغي أن يقال لن يقال؛ وسكن انفعالهما الذي بلغ ذروته شيئاً فشيئاً.

قال سيرج إيفانوفتش بهدوء:

– ساق الفطر الأسمر يذكر بلحية عمرها يومان.

فأجابت فارنكا وهي تبتسم:

– نعم، هذا صحيح.

اتجها غريزياً وجهة أخرى، واقتربا من الأولاد. كانت فارنكا مغتمة وخجلة لكنها كانت تشعر. في الوقت نفسه، بالعزاء.

بينما كان سيرج إيفانوفتش عائداً إلى البيت، استعرض جميع حججه فاكتشف أن محاكمته كانت خاطئة. لم يكن بوسعه أن يتنكر لذكرى ماري.

صرخ ليفين بتبرم وهو يقف أمام كيتي ليحميها من عصبة الأولاد الذين هرعوا إليها وهم يتصايحون من الفرح:

– مهلاً، يا أولاد، مهلاً.

وبعد الأولاد، خرج سيرج إيفانوفتش وفارنكا من الغابة. لم تكن كيتي بحاجة إلى أن تستفهم صديقتها: لقد أدركت، من تعبيرهما الهادئ. والمرتبك، أن خططها قد فشلت.

سألها زوجها وهما عائدان:

Tele: @Arab_Books

– ما النتيجة؟

قالت كيتي بلهجة وابتسامة تذكران بأبيها الذي كان يطيب لليفين أن يلقاه كثيراً فيها:

– لم تنجح الخطة.

– كيف؟

قالت كيتي وهي تمسك بيد زوجها:

– هكذا.

ورفعت يده إلى شفتيها ولامست بها فمها المغلق وأضافت:

– هكذا تقبل يد الأسقف.

فقال وهو يضحك:

– مع من لم تنجح؟

– مع الاثنين كليهما. هكذا ينبغي أن يتصرفا...

– انتبهي، فهناك فلاحون قادمون...

– لا، لم يروا شيئاً.

Tele: @Arab_Books

-٦-

بينما كان الأولاد يتناولون شايهم، كان الأشخاص الكبار مجتمعين على الشرفة يثرثرون، كأن لم يكن شيء. بيد أنهم كانوا يعلمون جميعاً علم اليقين، ولا سيما سيرج إيفانوفتش وفارنكا، أنه قد حدث حادث شديد الأهمية وإن كان سلبياً. كانا يشعران كلاهما بشعور شبيه بطالب رسب في الامتحان وأُجبر على البقاء في صفه أو طرد نهائياً من مدرسته. وكان جميع الحاضرين يتحدثون فيما بينهم بحيوية حول شتى الموضوعات، وقد استشفوا هم أيضاً أنه قد جرى شيء ما. وأحس ليفين وكيتي هذا المساء بسعادة وحب بالغين، وخجلا من هذه السعادة التي تحتوي في ذاتها على تلميح لا يستسيغه الذين تاقوا إلى مثل هذه السعادة دون أن يبلغوها.

قالت الأميرة العجوز:

– تذكروا ما أقوله لكم: لن يأتي ألكسندر.

كانوا ينتظرون وصول ستيفان أركاديفتش هذا المساء، كما أن الأمير العجوز كتب أنه ربما أتى.

وتابعت الأميرة:

Tele: @Arab_Books

– وأنا أعرف لماذا؛ فهو يقول إنه ينبغي أن يترك العروسان وحدهما في الأوقات الأولى.

قالت كيتي:

– نعم، إن أبي يهجرنا، ونحن لم نعد نراه أبداً. ثم إننا لم نعد عروسين، بل نحن زوجان قديمان.

قالت الأميرة مع تنهيدة كئيبة:

– إذا لم يأت فلا بدَّ من أن أترككم، يا أولاد.

فهتفت بنتاها معاً:

– ماذا تقولين، يا أمي؟

فكري قليلاً في مدى الضجر الذي سيصيبه! الآن، تعلمين...

وفجأة أخذ صوت الأميرة العجوز يتهدج، فصمتت بنتاها وتبادلتا نظرة خاطفة. كانتا تقولان بهذه النظرة: «إن أمي تخلق لنفسها دائماً موضوعات للحزن». وغاب عنهما أنها، وإن كانت سعيدة بقرب ابنتها لاعتقادها بأنها ضرورية لها، لم تكن تفكر في نفسها وفي زوجها إلا بحزن لا حدَّ له منذ أن زوجا آخر بناتهما ومنذ أن أقفر العش العائلي.

سألت كيتي الخادمة العجوز التي كانت تقف أمامها وقد بدا عليها الاستغراب، وتكلفت الوقار:

Tele: @Arab_Books

- أتحتاجين إلى شيء، آغات ميخايلوفنا؟

- جئت بصدد العشاء.

- ممتاز. اذهبي وأمري بتهيئته، وأنا سأستمع إلى درس غريشا. فهو لم يفعل شيئاً اليوم.

قال ليفين وهو ينهض فجأة:

- الدرس علي! دعي ذلك، وأنا ذاهب.

كان على غريشا الذي دخل المعهد أن يكتب بعض وظائف العطلة. وكانت داريا ألكسندروفنا التي تعلمت اللاتينية مع ابنها قد اتخذت لنفسها قاعدة منذ وصولها إلى منزل آل ليفين، وهي أن تراجع معه، ولو مرة في اليوم، أصعب دروس الحساب واللاتينية. لقد عرض ليفين أن يحل محلها لكن دولي التي شهدت مراجعته مرة لاحظت أن ليفين لا يتبع طريقة مدرس غريشا. في موسكو. فقالت له بوضوح، وهي مرتبكة وحريصة على ألا تجرحه، أن من الواجب الرجوع إلى الكتاب كما يفعل المدرس وأنها أقدر على ذلك. وامتعض ليفين بسبب ذلك من ستيفان أركاديفتش الذي ترك لزوجته كلياً مهمة الإشراف على تعليم أولادها، مع أنها لا تفقه شيئاً من ذلك، كما امتعض من المدرسين الذين يعلمونهم هذا التعليم السيئ؛ بيد أنه وعد أخت زوجته بالامتثال لرغباتها. وظل يعنى بغريشا مع الرجوع إلى الكتاب هذه المرة، لكنه كان يفعل ذلك على مضض، وينسى في الغالب ساعة الدرس. وهذا ما جرى اليوم.

Tele: @Arab_Books

قال لها:

- سأذهب إليه، يا دولي، فابقي. وسنسير وفق نظام الكتاب المدرسي. لكن متى جاء ستيفا إلى هنا فسوف نذهب إلى الصيد، وسوف نودّع الدروس آنذاك.

وذهب ليفين ليلقى غريشا.

كما أن فارنكا استبقت كيتي أيضاً. لقد استطاعت أن تكون نافعة حتى في بيت سعيد، حسن الترتيب مثل بيت آل ليفين. قالت لها:

- سآمر بإعداد العشاء، فابقي مطمئنة. ولحقت بآغات ميخايلوفنا.

قالت كيتي:

- شكراً، لكن من المؤكد أنهم لم يجدوا دجاجاً، ولا بدّ أن يأخذوا من دجاجنا.

وتوارت فارنكا بصحبة الخادمة العجوز.

قالت الأميرة:

- يا لها من فتاة فاتنة.

- إنها ليست فاتنة، يا أمي، إنها الفتنة بعينها.

قال سيرج إيفانوفتش وهو ظاهر الحرص على ألا يمد الحديث عن فارنكا:

Tele: @Arab_Books

– إذن أنتم تنتظرون ستيفان أركاديفتش اليوم؟

وأضاف مع ابتسامة ناعمة:

– من الصعب أن نجد عديلين متباينين مثلكما. أحدكما يقظ، يعيش في المجتمع كما يعيش السمك في الماء، والآخر، كوستيا، حرك، حساس لكل شيء، لكنه يسير إلى التلف أو يتخبط في المجتمع على غير هدى كالسمك خارج الماء.

قالت الأميرة مخاطبة سيرج إيفانوفتش:

– نعم، إنه طائش جداً. كنت أنوي بالضبط أن أطلب منك إفهامه أنها (وأشارت إلى كيتي) لا تستطيع أن تبقى هنا، ولا بدَّ لها من الذهاب إلى موسكو. وهو يقول إنه سيأتي بطبيب...

قالت كيتي وقد ارتبكت حين رأت أمها تختار سيرج إيفانوفتش حكماً في هذه القضية:

– سيفعل كل ما تريدين، يا أمي.

وأثناء حديثهما سمعت حمحمة جياد وضوضاء عجلات على الحصى.

لم يتسن لدولي أن تستقبل زوجها إلا في الطابق الأرضي، ومن نافذة الحجرة التي يدرس فيها غريشا أطل ليفين جاراً معه تلميذه. صاح ليفين تحت الشرفة:

Tele: @Arab_Books

- هذا ستيفان!

وأضاف وقد أخذ يركض كالصبي لملاقاة العربة:

- لقد انتبهينا، يا دولي، لا تقلقي!

وتلجلج غريشا وهو يثب في الممر ويردد أسماء الإشارة باللاتينية. صرخ ليفين وهو يقف في أول الممر:

- معه شخص؛ لا شك أنه عمي. كيتي لا تنزلي من السلم الصعب، دوري الدورة!

لكن ليفين أخطأ حين ظن الشخص الجالس في العربة عمه الأمير العجوز. لقد رأى قرب ستيفان أركادييفتش، عندما اقترب فتى جميلاً، قوياً بقبعة إيكوسية لها شريطان من الخلف، لا الأمير. كان الفتى هو «فاسيا فيسلوفسكي» من أبناء عم آل تشرباتزكي، وهو فتى لامع في مجتمع بطرسبرج وموسكو، «فتى ساحر وصياد مشغوف بالصيد»، كما قدمه ستيفان أركادييفتش.

لم يضطرب فيسلوفسكي من الخيبة التي سببها إذ قدم مكان الأمير، وسلم بمرح على ليفين وذكره بأنهما اجتمعا من قبل، وحمل غريشا بين يديه من فوق كلب ستيفان أركادييفتش -وهو كلب صيد إنكليزي قصير الشعر- وأجلسه في العربة.

لم يصعد ليفين لكنه تبعهم. لقد اغتاظ قليلاً حين رأى فاسيا فيسلوفسكي الذي كان برأيه زائداً عن اللزوم، يصل مكان الأمير

Tele: @Arab_Books

العجوز الذي أخذ يتزايد حبه له. وبدا الضيف أثقل على نفسه، عندما اقترب ليفين من درج المدخل حيث تجمع جمهور مبتهج من الكبار والصغار، ورأى فيسلوفسكي يقبل بأناقة يد كيتي.

قال فاسيا فيسلوفسكي وهو يشد مجدداً على يد ليفين بقوة:

– نحن ابنا عمومة، زوجتك وأنا، وبيننا معرفة قديمة.

أما ستيفان أركادييفتش فلم يكد يتسنى له أن يسلم على الحاضرين حتى أخذ يكلم الجميع دفعة واحدة. والتفت إلى ليفين أولاً:

– قل لي، أعندكم صيد؟ لقد رسمنا، هو وأنا، أشد الخطط فتكاً...

كلا، يا أمي، لم يكونوا قد وصلوا إلى موسكو في هذه الفترة... آه!

تانيا، أهذا أنت!... اذهب وابحث عن ذلك في مؤخرة العربة، أرجوك...

وقال لزوجته وهو يقبل يدها مرة أخرى ويستبقيها في يده مداعباً لها:

– لقد تجدد شبابك، يا صغيرتي دولي!

بيد أن ليفين الذي كان مبتهجاً قبل لحظة، أخذ ينظر إلى جميع الناس وهو ظاهر العبوس. بدا له كل شيء كريهاً.

وخطر بباله وهو يرى مظاهر حنان ستيفان أركادييفتش نحو

Tele: @Arab_Books

زوجته: «مَنْ قبّل أمس بهاتين الشفتين؟». ونظر إلى دولي فساءه منظرها أيضاً. وقال في نفسه: «لكنها لم تعد تؤمن بحبه. فلماذا سُرتْ هذا السرور؟ هذا مُنفِّر!»

ونقل عينيه إلى الأميرة التي كانت جد مليحة قبل دقيقة، فبدت له جارحة طريقتها في استقبال فاسيا بشريطيه، وكأنها في بيتها.

وبدا له سيرج إيفانوفتش ذاته الذي خرج إلى مدخل الدرج، لا يُطاق بهذه الملاطفة الزائفة التي أظهرها لستيفان أركادييفتش، في الحين الذي كان ليفين يعلم فيه أن أخاه لا يحب ولا يقدر ستيفان أركادييفتش أوبلونسكي.

واشمأز من فارنكا وهي تتصنع مظهر التقوى عندما قدم إليها هذا السيد، في حين أنها لم تكن تفكر إلا في الزواج.

وأخيراً بلغ سخطه أقصاه عندما رأى كيتي تصطنع اللهجة المرحة لهذا السيد الذي بدا كمن يعتبر قدومه مسعداً له وللجميع، وشقت عليه بخاصة هذه الابتسامة ذات المعنى التي ردت بها على ابتسامته.

دخلوا البيت جميعاً، في ضجيج الأصوات؛ لكن ما إن استقر الجميع في أماكنهم، حتى انسل ليفين خارجاً.

رأت كيتي أن زوجها منزعج، فأرادت أن تكلمه على انفراد، لكنه عجل في الابتعاد قائلاً: إن هناك حاجة إليه في المكتب. منذ زمن طويل لم تبدُ له أعماله أشد أهمية مما هي عليه اليوم. وفكر في نفسه: «هم في عيد دائم أما أنا فإن عندي أعمالاً ملحة لا نستطيع العيش بدونها».

Tele: @Arab_Books

-٧-

لم يعد ليفين إلا عندما أرسلوا يطلبونه إلى العشاء. وعلى سطح الدرج كانت كيتي وآغات ميخايلوفنا تتشاوران بشأن المشروبات.

– لِمَ كل هذه الجلبة؟ قدمي نبيذاً عادياً.

– لا، ستيفان لا يشرب خمراً عادياً... كوستيا، انتظر، ما بكَ؟

قالت ذلك وهي تستعجل لتلحق به؛ لكنه اتجه بخطوات واسعة إلى غرفة الطعام، دون أن ينتظرها، وما لبث أن شارك في حديث محتدم أداره فاسيا فيسلوفسكي وستيفان أركادييفتش.

قال ستيفان أركادييفتش:

– إذن، سنذهب إلى الصيد غداً؟

وقال فيسلوفسكي الذي غير كرسيه وجلس طاوياً تحته إحدى ساقيه الضخمتين:

– أوه! نعم، أرجوك.

Tele: @Arab_Books

تأمل ليفين بإمعان ساق ضيفه فيسلوفسكي، وقال له بذلك اللطف المتكلف الذي تعرفه كيتي جداً والذي لا يناسبه أبداً:

- بكل رضا. هل طلعتم إلى الصيد، هذه السنة. لا أدري إن كنا سنجد دجاج الأرض، لكن هناك الكثير من طير الشنقب. ولا بدَّ من الذهاب في وقت مبكر، أليس هذا منهكاً لكما؟ ألست متعباً، يا ستيفان؟

- أنا؟ أنا لا أعرف ما التعب. فلنهجر النوم، إذا شئت، ولنخرج إلى التنزه!

فأيده فيسلوفسكي:

- وهو كذلك، لنهجر النوم! فكرة ممتازة!

قالت دولي بتلك السخرية الخفية التي أخذت تصطنعها دائماً في علاقاتها به:

- أوه! نحن قانعون أنك قادر على البقاء واقفاً طوال الليل وعلى منع الآخرين من النوم. أما أنا فقد حان الوقت لأن آوي إلى غرفتي، ولن أتعشى.

قال ستيفان أركاديفتش وهو يقوم ليجلس بجانبها على المائدة الكبرى حيث قُدم الطعام:

- لا، انتظري قليلاً، يا صغيرتي دولي. فما زال لدي أشياء كثيرة يجب أن أقصها عليك.

Tele: @Arab_Books

– لا شيء مهم، من دون شك.

– بلى، أتعلمين أن فيسلوفسكي ذهب لرؤية آنا وفرونسكي؟ وسيعود إليهما؟ هما على سبعين فرسخاً فقط، من هنا. سأذهب لأراها. بكل تأكيد. تعال يا فيسلوفسكي.

اقترب فاسيا من السيدات وجلس بجانب كيتي.

قالت له داريا ألكسندروفنا:

– آه! أخبرني، أرجوك، هل ذهبت لزيارتها؟ كيف حالها؟

ظل ليفين في الطرف الآخر من المائدة، ورأى، دون أن يكف عن الحديث مع الأميرة وفارنكا، أن حديثاً نشطاً وسرياً يجري بين ستيفان أركاديفتش ودولي وكيتي وفيسلوفسكي. وأكثر من ذلك، لقد لاحظ على وجه امرأته تعبيراً عن شعور جدي، بينما كانت عيناها مثبتتان في ذلك الوجه الجميل لفيسلوفسكي الذي كان يروي لها شيئاً بحيوية.

كان فاسيا يقول وهو يتحدث عن آنا وفرونسكي:

– الحياة حلوة في منزلهما. بالطبع، ليس لي أن أحكم، لكن المرء يحس في بيتهما أنه بين أهله.

– وماذا ينويان أن يفعلا؟

– أظنهما يريدان أن يقضيا الشتاء في موسكو

سأل ستيفان أركاديفتش فاسيا:

Tele: @Arab_Books

– كم يكون جميلاً لو ذهبنا معاً لزيارتهما! متى تذهب؟

– سأقضي شهر تموز عندهما.

وقال ستيفان أركاديفتش وهو يلتفت إلى امرأته:

– وأنتِ، هل تذهبين؟

قالت دولي:

– كنتُ أنوي الذهاب منذ زمن طويل. سأذهب بدون شك. إنني أرثي لها وأنا أعرفها جيداً. إنها امرأة ساحرة. سأذهب إليها بعد سفرك، فهذا أفضل، وبذلك لا أضايق أحداً.

قال ستيفان أركاديفتش:

– ممتاز. وأنتِ، يا كيتي؟

فقالت كيتي التي علتها الحمرة، وألقت على زوجها نظرة سريعة:

– أنا؟ ولماذا أذهب إلى هناك؟

سألها فيسلوفسكي:

– أتعرفين آنا أركاديفنا؟ إنها امرأة خلابة.

فأجابته وقد ازدادت حمرة وجهها:

– نعم.

Tele: @Arab_Books

ونهضت ومضت إلى قرب زوجها، وقالت له:

– إذن، ستذهب غداً إلى الصيد.

أثناء هذه الدقائق القليلة، ولا سيما عندما رأى ليفين امرأته تعلوها الحمرة وهي تتحدث مع فيسلوفسكي، ما انفكت غيرته تتعاظم. وأضفى على كلماتها معنى خاصاً. ومهما بدا له غريباً فيما بعد التفكير في هذا الموضوع فقد تبين له بوضوح، في هذه اللحظة أنها إذا كانت تسأله إن كان سيذهب إلى الصيد فلكي تعلم فقط إن كان سيسر فاسيا فيسلوفسكي الذي كانت مغرمة به.

أجابها بصوت متكلف ترك في أذنها رنيناً مزعجاً:

– نعم، سأذهب إلى الصيد.

قالت كيتي:

– الأفضل أن تبقوا غداً. فلم تر دولي زوجها أبداً، وستذهبون بعد غد.

فترجم ليفين كلماتها على النحو التالي: «لا تفرقني عنه. لا فرق عندي إن ذهبت أنت، لكن دعني أستمتع بصحبة هذا الشاب الفاتن، الجميل».

أجاب ليفين ببشاشة خاصة:

– آه! إذا شئتِ فسنبقى غداً.

Tele: @Arab_Books

في هذه الأثناء، نهض فاسيا الذي لم يتوهم الآلام التي يسببها وجوده على المائدة أن نهضت بعد كيتي، وسار في أثرها وهو يلاحقها بنظرته المداعبة.

رأى ليفين هذه النظرة فامتقع وجهه، وظل دقيقة لا يستطيع فيها التقاط أنفاسه. وقال في نفسه وهو يغلي من السخط: «كيف يسمح لنفسه أن ينظر هذه النظرة إلى امرأتي!».

قال فاسيا الذي عاد إلى الجلوس وهو يطوي ساقه، على عادته:

– إذن سنذهب غداً؟ أوه؟ أوه! نعم، أرجوك.

لم تعرف غيرة ليفين حدوداً. رأى نفسه في موقف الزوج المخدوع الذي لا تحتاج إليه زوجته وعشيقها فيه إلا من أجل راحتهما ومتعتهما... وبالرغم من ذلك، سأل فاسيا بلطف عن صيده، وعما إذا كان معه جزمة وبندقية، ووافق أن يطلع معه إلى الصيد، في اليوم التالي.

ولحسن الحظ وضعت الأميرة العجوز حداً لعذاب ليفين، حين نهضت ونصحت ابنتها أن تأوي إلى فراشها. لكن ذلك كان سبباً جديداً لإيلامه أيضاً. فعندما ودع فاسيا ربة البيت، أراد أن يقبل يدها من جديد، لكن كيتي احمرت وسحبت يدها منه قائلة له بوقاحة بريئة لامتها أمها عليها فيما بعد:

– إن هذا غير مقبول عندنا.

كانت مذنبة، في عيني ليفين، لأنها سمحت له بهذه الدالة، وزادت ذنبها خطورة حين أظهرت برعونة أن هذه التصرفات لا تعجبها.

Tele: @Arab_Books

قال ستيفان أركادييفتش الذي غدا، بعد عدة كؤوس من الخمر تناولها أثناء العشاء، أكثر الناس رقة وسحراً:

- ما أسخف فكرة النوم، في مثل هذا الوقت!

وقال وهو يري كيتي القمر خلف أشجار الزيزفون:

- انظري، يا كيتي، ما أجمله! فيسلوفسكي، هذا أوان الغناء تحت نافذة المحبوبة. أتعلمين أن له صوتاً جميلاً؛ غنينا معاً في الطريق. لقد حمل معه أغنيتين جديدتين. يستطيع أن يغنيهما مع بربارة اندريفنا.

عندما أوى كل واحد إلى فراشه، كان ستيفان أركادييفتش ما يزال يتمشى في الممر مع فيسلوفسكي، وسُمعا وهما يدندنان بالأغنية الجديدة.

كان ليفين جالساً على مقعده في غرفة زوجته، يصغي إلى هذه الأصوات، مقطب الحاجبين، ويواجه بصمته العنيد كيتي التي كانت تسأله عما به؛ لكن عندما سألته أخيراً بابتسامة وجلة إن كان قد رأى في فيسلوفسكي شيئاً لم يعجبه، انفجر وقال لها كل ما في قلبه؛ وكانت كلماته ذاتها تهينه ولا تني تلهب غيظه.

كان واقفاً أمام امرأته، وفي عينيه ضياءً رهيب، مقطب الحاجبين، ضاغطاً بيديه صدره وكأنه يحفز قواه كافة لكي يتمالك نفسه. ولو لم يعبر وجهه عن الألم الذي أثر فيها لبدا مكفهراً بل وشرساً. وكانت وجنتاه ترتجفان وصوته يتكسر:

- صدقيني أنني لا أشعر بالغيرة؛ فهذه الكلمة بشعة. لا يمكن أن

Tele: @Arab_Books

أشعر بالغيرة ولا أن أصدق... لا أستطيع أن أقول لك ما يخامرني: لكنه شيء فظيع... لا أشعر بالغيرة، لكن بالإهانة، بالمذلة عندما يجرؤ إنسان على التفكير، عندما يجرؤ على النظر إليك بهاتين العينين...

قالت كيتي وهي تحاول جاهدة أن تتذكر بأقصى الدقة جميع التصرفات في هذه السهرة:

– لكن، بأي عينين؟

كانت ترى، في الحقيقة، أن فيسلوفسكي تجاوز الحد حين لحق بها إلى الطرف الآخر من الطاولة، لكنها لم تكن تجرؤ أن تصارح نفسها بذلك، فكيف تصارح به زوجها وتزيد من آلامه؛ قالت له:

– ما الذي يمكن أن يجذب الآخرين في، وأنا في هذه الحالة؟

فصاح وهو يمسك رأسه بكلتا يديه:

– آه! ما كان ينبغي أن تقولي هذا!... وهكذا، لو كنتِ جذابة...

فقالت له وهي تنظر إليه بعطف:

– كلا، يا كوستيا، انتظر قليلاً، اصغ! كيف يجوز لك أن تفكر هذا التفكير! في حين لا يوجد أحد في نظري سواك، لا أحد! أتريد ألا أرى أحداً بعد الآن؟

في اللحظة الأولى، جرحتها غيرة زوجها، ووجدت عليه لأنه

Tele: @Arab_Books

يمنعها من أبرأ التسليات؛ أما الآن فهي تضحي بكل شيء عن رضاً من أجل راحته، لكي تخلصه من الألم الذي يعانيه.

وأردف بصوت خافت وبلهجة يائسة:

– افهمي ما في موقفي من بشاعة ومضحكات. فهو ضيفي، وفيما عدا رفعه للكلفة وطريقته في الجلوس على إحدى ساقيه، فلم يأت شيئاً غير لائق ألومه عليه. إنه يظن أن هذا هو خير أسلوب، ولذلك يجب أن أكون لطيفاً معه.

قالت كيتي وهي سعيدة، في أعماقها، بعنف هذا الحب الذي عبر عن نفسه بالغيرة، في هذه اللحظة:

– دعك من هذا، كوستيا، إنك تبالغ.

– أرهب ما في الأمر أنك عندي الآن، كما كنتِ دائماً، شيئاً مقدساً، وأننا سعيدان جداً، سعيدان في غاية السعادة، وأن هذا النذل يأتي على حين غرة... على كل حال، إنه ليس نذلاً، وليس لي الحق في إهانته. إني لا أهتم به. لكن سعادتي وسعادتك لا يجب أن تتعرضا للخطر...

قالت كيتي:

– اصغ، إنني أعرف من أين جاء ذلك كله.

– من أين، قولي لي؟

– رأيت سحنة وجهك عندما تحدّثنا أثناء العشاء.

Tele: @Arab_Books

فأقر ليفين قلقاً:

– صحيح، صحيح.

روت له ماذا تحدثوا. ولقد ضاق صدرها من الانفعال وهي تقص عليه قصتها. صمت ليفين ثم تفحص وجهها الشاحب والخائف، وفجأة أمسك رأسه بيديه:

– كاتيا، إنني أعذبكِ! اغفري لي، يا صديقتي! إن هذا لمن الجنون! أنا المذنب الوحيد. أيجوز أن نعذب أنفسنا بمثل هذه الحماقات!

– إنك لتحزنني...

– أنا؟ لست سوى مجنون!... لكن ليس لي الحق في إيلامك. إنه لشيء رهيب أن نفكر في أن أي إنسان قد يدمر سعادتنا.

– أصحيح أن سلوكه كان جارحاً...

قال ليفين وهو يقبّل يدها:

– لا، لا. سأستبقيه كل الصيف، وسأغمره بالملاطفة سترين. غداً... آه! صحيح، غداً سنذهب إلى الصيد.

Tele: @Arab_Books

-٨-

في اليوم التالي، لم تكن النساء قد نهضن بعد حين كانت عربتا الصيد: عربة ذات مقاعد وعربة بأربع عجلات، جاهزتين تنتظران أمام درج المدخل. أما «لاسكا» التي فهمت في الحال أنهم سيطلعون إلى الصيد فقد اتخذت مكانها قرب الحوذي على العربة ذات المقاعد بعد أن وثبت وعوت كما يحلو لها؛ كانت مضطربة تلقي نظرات مستنكرة على الباب الذي تأخر الصيادون عن الظهور فيه. كان أول الخارجين فاسيا فيسلوفسكي، وكان محتذياً جزمة جديدة، طويلة تصل إلى نصف فخذه، ومرتدياً سترة خضراء مشدودة على جسمه بحزام الخرطوش الجلدي الجديد، الطيب الرائحة. وكان يضع على رأسه قبعته ذات الشريطين ويحمل بيده بندقيته الإنكليزية الجديدة بدون حمالة وبدون جعبة. وثبت «لاسكا» عليه، واحتفت به، وسألته على طريقتها، إن كان الآخرون سيخرجون قريباً، لكنها، حين لم تتلق جواباً، عادت إلى مركز انتظارها واستقرت فيه خافضة الرأس ناصبة أذنيها. وأخيراً فُتح الباب وهو يصر ليمر منه «كراك»، كلب الترصد الإنكليزي الأبيض المبقع ببقع حمراء الذي كان يثب ويدور على نفسه في الفضاء، ثم ليمر منه صاحبه ستيفان أركادييفتش، وبندقيته بيده، وسيجاره في فمه.

Tele: @Arab_Books

انتهر برفق الكلب الذي حط قائمتيه على بطنه وصدره، وتشبث بجعبته:

- مهلاً، مهلاً، «كراك»!

كان يحتذي جزمة رخوة فوق عصابة من نسيج الكتان، ويرتدي بنطالاً ممزقاً، ومعطفاً قصيراً، وقبعة منقوبة. لكن بندقيته كانت تحفة من أحدث طراز، وجعبته وحزام خرطوشه من الصنف الأول وإن كانا باليين.

لم يدرك فاسيا فيسلوفسكي من قبل أن أناقة الصياد الحقيقية تقوم على ارتدائه الملابس الرثة، مع امتلاكه عتاداً لا غبار عليه. لقد أدرك ذلك في هذا اليوم عندما رأى ستيفان أركادييفتش متألقاً في أطماره، وقد ظهر بمظهر السيد العظيم. المرح والمنعم، فقرر أنه سيتجهز مثله في المرة القادمة التي سيذهب فيها إلى الصيد. وسأله:

- ومضيفنا؟

قال ستيفان أركادييفتش وهو يبتسم:

- امرأته شابة.

- وفاتنة!

- لقد ارتدى ملابسه. فلا شك أنه عاد إليها.

أصاب ستيفان أركاديفتش. ذلك أن ليفين عاد وصعد إلى غرفة

Tele: @Arab_Books

زوجته ليسألها مرة أخرى إن كانت تغفر له حماقة البارحة، وليرجوها بحق السماء أن تكون حذرة. ينبغي لها، على الخصوص، أن تكون بعيدة عن الأولاد، حتى لا يدفعوها. ثم كان لا بدَّ له من تلقي تأكيدها بأنها لن تحقد عليه لغيابه مدة يومين، ومن الطلب إليها أن ترسل في صباح غد رسولاً على جواد يحمل بطاقة، ولو من كلمتين، تخبره فيها عن صحتها.

كان يؤلم كيتي، كما هي حالها دائماً، فراقها لزوجها؛ لكنها عندما رأت نشاط ليفين الذي بدا أطول وأقوى بجزمة الصيد، وبقميصه الخارجي الأبيض، ورأت هذا النوع من الإشعاع الذي لا تفهمه والذي أضفاه عليه اندفاعه إلى الصيد، نسيت حزنها وودعته بفرح.

قال وهو يهرع إلى درج المدخل:

– المعذرة، يا سادة! هل وضع الغداء في العربة؟ لَمَ ربط الجواد الكميت إلى اليمين؟ لابأس، لا أهمية لذلك. «لاسكا»، هيا، نامي!

وقال لراعي البقر الذي جاء يسأله عن العجول:

– ضعها مع الثيران الفتية. المعذرة. وهذا لص آخر يصل.

ووثب ليفين من العربة ذات المقاعد التي كان قد جلس عليها ليلحق بمتعهد نجار كان يسير نحو درج المدخل وقياسه بيده:

– لم تأتِ أمس إلى المكتب، وستؤخرني الآن. ما الأمر؟– مُرني

Tele: @Arab_Books

بصنع دوّار آخر للسلم. يجب إضافة ثلاثة درجات. وهكذا يصير السلم في المستوى المطلوب تماماً، وسيكون أقل انحداراً.

أجاب ليفين بتبرم:

- كان ينبغي أن تصغي إلي. لقد أمرتك أن تعتني بحافات الدرج. لا سبيل إلى إصلاحها الآن. فاعمل سلماً جديداً، كما قلتُ لك.

في الجناح الذي هو قيد البناء، أتلف المتعهد السلم حين فصل الأقواس وحدها دون أن يحسب أبعاد بئر السلم، بحيث إن الدرجات كانت شديدة الانحدار. وهو الآن يريد أن يحتفظ بالسلم ويضيف إليه ثلاث درجات.

- سيكون ذلك أفضل.

- لكن إلى أين ستفضي بدرجاتك الثلاث؟

قال النجار وهو يبتسم ابتسامة مزدرية:

- سيكون السلم بمستوى الأرض.

وأضاف بحركة مقنعة:

- سوف يبدأ من الأسفل ويصعد برفق ليصل إلى المكان المطلوب:

- لكن الدرجات الثلاث ستزيد من علوه... فإلى أين سيصل؟

فردد النجار بعناد:

Tele: @Arab_Books

- بما أنه سيبدأ من الأسفل، فسوف يصل إلى المستوى المطلوب.

- نعم، في الجدار، تحت السقف!

- بل بما أنه سيبدأ من الأسفل فسوف يصعد برفق لينتهي في المكان المطلوب...

أخرج ليفين سيخ البندقية وأخذ يرسم له سلماً على تراب الطريق.

- فهمت؟

قال النجار الذي استضاءت نظرته، لقد فهم أخيراً:

- بأمرك. لا بدَّ من صنع سلم آخر، إذن؟

فصاح ليفين وهو يجلس في العربة ذات المقاعد:

- افعلْ كما قلتُ لك. امضوا! امسك الكلبين، يا فيليب!

شعر ليفين الآن وهو يترك خلفه جميع الهموم المنزلية بشعور من الفرح بالحياة والانتظار، شعور بلغ من العنف حداً لم يشته معه الكلام. وفوق ذلك، كان مفعماً بذلك الانفعال الكثيف الذي يخامر كل صياد وهو يقترب من موضع الصيد. المسائل الوحيدة التي أخذت تشغله الآن، هي أن يعلم إن كانوا سيجدون صيداً في مستنقعات كولبنسكوي، وإن كانت «لاسكا» تحتمل المقارنة مع «كراك»، وإن كان سيحسن هو القيام بدوره اليوم، على أن يكون في المستوى اللائق أمام هذا الغريب، وعلى ألا يسبقه أوبلونسكي! هذه هي الأفكار التي تواردت عليه.

Tele: @Arab_Books

كان أوبلونسكي يشعر بالشعور نفسه ولا يجد ميلا إلى الكلام. فاسيا فيسلوفسكي هو وحده الذي أخذ يتكلم بدون انقطاع. لقد استحى ليفين الآن، وهو يسمعه، حين تذكر إلى أي حدّ كان ظالماً له البارحة. كان فاسيا، في الحقيقة، فتى ممتازاً، بسيطاً، ودوداً، ومليئاً بالاندفاع ولو أن ليفين عرفه قبل زواجه لصادقه. كان طيشه واستهتاره وتأنقه في ملبسه، كان ذلك كله يصدم ليفين قليلا. فكأنما كان ينسب لنفسه أهمية عظمى لأن له أظافر طويلة، وقبعة إيكوسية، وأشياء أخرى مشابهة؛ لكن مودته وتصرفاته الأنيقة كانت تنسي ذلك. وكان يعجب ليفين بتربيته الممتازة، ولهجته الإنكليزية والفرنسية السليمة، ولأنه من وسطه.

أُعجب فاسيا بالجواد الأيسر وهو جواد من الدون. و لم يكف من التعجب أمام هذا الجواد، ويقول:

– ما أروع الخبّ على مثل هذا الجواد في السهوب! ألا ترى ذلك؟

لقد كوّن عن الجري في السهوب صورة متوحشة وشاعرية لا تتوافق مع شيء؛ لكن سذاجته، مضافة إلى جماله وابتسامته ورشاقة حركاته، كانت ساحرة. أكان ذلك لأنه جذاب أم لأن ليفين كان يحاول جاهداً ألا يرى فيه سوى المحاسن ليكفَّر عن غلطة البارحة؟ لكن من المؤكد أن ليفين كان يشعر بالراحة وهو في صحبة هذا الفتى.

بعد ثلاثة فراسخ، فطن فيسلوفسكي فجأة لغياب علبة سيجاره ومحفظته. و لم يكن يعلم إن كان قد أضاعهما أو إن كان قد نسيهما على طاولة غرفته. كان في المحفظة ثلاثمائة وسبعون روبلاً. ولذلك لم يكن من الجائز تركه مرمياً.

Tele: @Arab_Books

قال وهو يستعد للنزول من العربة:

– أتعلم، يا ليفين، سأجري إلى المنزل على الجواد الأيسر!

سيكون ذلك ممتعاً! ما رأيك؟

أجاب ليفين وقد قدر أن وزن فاسيا لا يقل عن خمسة وتسعين كيلو غراماً:

– كلا، لماذا؟ سأرسل الحوذي.

مضى الحوذي على أحد الجياد وساق ليفين نفسه العربة بالجوادين الباقيين.

Tele: @Arab_Books

-٩-

قال ستيفان أركاديفتش:

– حسناً! قلْ لنا ما خطة حملتك؟ اشرحها لنا بالتفصيل.

– خطتي هي التالية: سنذهب الآن إلى غفوزديفو. ففي هذه الجهة من القرية مستنقع يكثر فيه دجاج الأرض، وفي الجهة الأخرى مستنقع رائع أيضاً يكثر فيه الشنقب ويرتاده دجاج الأرض أيضاً. الجوحار، وسنصل عند المساء (المستنقع على عشرين فرسخاً) ونبدأ صيدنا في الليل؛ سوف ننام هناك وغداً سنصل إلى المستنقعات الكبرى.

– وفي الطريق، أليس هناك شيء؟

– بلى، لكن ذلك يؤخرنا، والجو مفرط الحرارة. هناك موضعان مدهشان لكننا قد لا نجد شيئاً فيهما.

كان ليفين يشتهي أن يقصد إلى هذين الموضعين لكنهما كانا بحوار منزله، وهو يستطيع أن يذهب إليهما بسهولة، ومن جهة أخرى فإن المساحة فيهما محدودة تضيق بثلاثة بنادق، ولذلك فقد شوه الحقيقة حين زعم أنهم قد لا يجدون فيهما شيئاً. أراد ليفين أن يتابع طريقه

Tele: @Arab_Books

لكن عين ستيفان أركادييفتش المتمرسة تبينت في الحال المستنقع الصغير المرئي من الطريق، فقال وهو يشير إلى المكان:

– ألا ننزل؟

ورجاه فيسلوفسكي بدوره:

– أوه! بلى، ليفين، أرجوك! هذا رائع!

و لم يستطع ليفين أن يرفض.

لم يكادوا يتوقفون حتى أسرع الكلبان، وأحدهما وراء الآخر، إلى المستنقع:

– «كراك»! «لاسكا»!

وعاد الكلبان.

قال ليفين وهو يرجو ألا يجد سوى الزقزاق؛ وقد طيّر الكلبان بعضاً منها كانت تُطلق صرخات شاكية فوق المستنقعات وهي تتهادى في طيرانها.

– المكان يضيق بنا نحن الثلاثة. أنا أنتظركم هنا.

نادى فيسلوفسكي:

– لا، تعال معنا، يا ليفين.

– أؤكد لكم أن المكان يضيق بنا. «لاسكا» إلى هنا! لاسكا! يكفيكم كلب واحد، فيما أظن؟

Tele: @Arab_Books

ظل ليفين قرب العربة ذات المقاعد، وأتبع الصيادين عينيه بشيء من الحسد. لقد جابا المستنقع فلم يجدا سوى دجاج الماء والزقزاق. واصطاد فاسيا زقزاقاً.

قال ليفين:

– أرأيتما؟ أضعنا الوقت، وهذا كل شيء.

قال فاسيا فيسلوفسكي الذي كان يصعد العربة بتثاقل، متعثراً ببندقيته وزقزاقه:

– لا، كان ذلك مسلياً جداً. أرأيت كيف أنزلته؟ ألن نصل بعد قليل؟

انطلقت الجياد بعنف، واصطدم رأس ليفين بقصبة البندقية ودوى صوتُ طلق ناري. حدث الدوي قبل اصطدام رأسه؛ هذا، على الأقل، انطباع ليفين. والواقع أن فاسيا فيسلوفسكي، حين أراد أن يُفرغ بندقيته، ضغط أحد الزنادين وهو يمسك ديك الزناد الآخر. وغابت الطلقة في الأرض دون أن تؤذي أحداً. هز ستيفان أركادييفتش رأسه وضحك من فيسلوفسكي ضحكة قصيرة مستنكرة. لكن ليفين لم يجرؤ على توبيخه، خوفاً من أن يقال: إن الخطر الذي لامسه والتورم الذي أصابه في جبهته هما اللذان دفعاه إلى اللوم، ثم إن فيسلوفسكي أظهر اغتمامه بصدق وضحك من كل قلبه بعد الذعر الذي أصابه حتى كان من المستحيل عدم مجاراته في ضحكه الصاخب.

عندما وصلا إلى قرب مستنقع أوسع يحتاج استكشافه إلى وقت

Tele: @Arab_Books

أطول، ناشد ليفين رفيقيه ألا ينزلا. لكن فيسلوفسكي عاد إلى توسله. فبقي ليفين قرب العربتين، باعتباره رب البيت المضيف، لأن المستنقع يضيق بهم جميعاً.

انطلقت «كراك» رأساً إلى المكان، وتبعه فاسيافيسلوفسكي.

ولم يتسنّ لستيفان أركاديفتش أن يلحق به حتى طار شنقب كبير، فأخطأه فيسلوفسكي وحط الطائر بين العشب العالي في أحد المروج. كانت الطريدة لفيسلوفسكي. عثر عليها كراك، ووقف متربصاً، فقتلها فيسلوفسكي وعاد إلى العربة. قال لليفين:

– جاء دورك، وسأبقى مع الجياد.

أخذ ليفين يحسد رفيقه. سلم المقود فيسلوفسكي وتوجه إلى المستنقع.

أما لاسكا التي كانت تعوي منذ وقت غير قصير على نحو مثير للرثاء لتشكو حظها العاثر فقد وثبت نحو جزيرة صغيرة واعدة كان صاحبها يعرفها ولم يكتشفها «كراك» بعد.

صاح ستيفان أركاديفتش:

– ألا تحتجزها؟

أجاب ليفين مغتبطاً بفرح كلبته وحاثاً خطاه وراءها:

– إنها لن تطير الطيور.

Tele: @Arab_Books

أخذت لاسكا تجدّ في الطلب وهي تقترب من الجزيرة التي ألفتها. و لم يصرف انتباهها طائر صغير من طيور المستنقعات إلا للحظة. لقد طافت بأطراف الجزيرة، وبدأت جولة ثانية، ثم ارتعشت فجأة وتجمدت.

صاح ليفين:

– ستيفان! تعال، تعال.

وأحس أن قلبه بدأ يخفق بعنف وأن جميع الأصوات فقدت معنى المسافة وجاءت تقرع أذنه بغير انتظام وبشدة خاصة، وكأن درقةً قد نُزعت فجأة من سمعه المرهف. حسبَ خطوات أوبلونسكي وقع حوافر الجياد البعيد، والصوت الرخو لمدرة متفتتة من جذورها تحت قدميه طيران شنقب؛ وسمع خلفه أيضاً، على مقربة منه، نوعاً من الاصطفاق الذي لم يفهم مصدره.

كان يتقدّم خلف كلبته مختاراً الأمكنة التي تطؤها. وصاح بها:

– هاته!

طار شنقب من تحت قدمي الكلبة، فسدد ببندقيته، وفي اللحظة ذاتها التي كان يصوب فيها سمع صوت ذلك الاصطفاق وقد غدا أوْضح وأقرب، وانضاف إلى ذلك صوت فيسلوفسكي الذي كان يصرخ بقوة غريبة. رأى ليفين أن تصويبه كان متأخراً جداً عن الطائر ومع ذلك فقد أطلق النار.

استدار ليفين، وهو متأكد من أنه أخطأ هدفه، فرأى العربة ذات المقاعد

Tele: @Arab_Books

والجياد، لا على الطريق بل في المستنقع. ذلك أن فيسلوفسكي رغبة منه في مشاهدة الصيد قد دلف إلى المستنقع فغاصت الجياد في الوحل.

همهم ليفين بينه وبين نفسه وهو يعود إلى العربة الغائصة في الوحل:

- لعنة الله عليه!

ثم سأله بجفاف:

- لماذا تبعتَنا؟

ونادى الحوذي وتهيأ لتخليص الخيل.

كان ليفين هائجاً لأنه أُزعج في اللحظة التي كان يُطلق النار فيها، ولأن الجياد تُركت لتغوص في الوحل، ولا سيما لأن ستيفان أركاديفتش وفيسلوفسكي عاجزان عن مساعدتهما، هو وحوذيه، على فك الجياد وتخليصها من الوحل، إذ ليس لأي منهما أدنى فكرة عن قرن الجياد. كان ليفين يعمل بصمت مع حوذيه، دون أن يرد بكلمة على فيسلوفسكي الذي أخذ يؤكد له أن الأرض كانت جافة تماماً في هذا الموضع. لكنه عندما رأى فيسلوفسكي، بعد أن حمي بالعمل، يشدّ العربة ذات المقاعد بحمية عظيمة حتى إنه انتزع منها واقية الوحل، لام ليفين نفسه على ما بدر عنه من جفاء مفرط إزاء فيسلوفسكي بتأثير عاطفة البارحة، وحاول جاهداً أن يُخفّف جفاءه بما يُظهره من إيناس زائد. فلما أعيدتْ الأمور إلى ما كانت عليه وبلغت العربتان الطريق، أمر ليفين بإخراج الغداء.

Tele: @Arab_Books

قال فيسلوفسكي الذي عادت إليه جراءته وهو يلتهم دجاجة ثانية:

– إذا قويت الشهية استراحَ الضمير! هذه الدجاجة ستنزل إلى أعماق جزمتي!

وأجاب دون أن يرخي المقود عندما طلب منه ليفين أن يعطي مكانه للحوذي:

– الآن انتهت مصائبنا؛ سيسير كل شيء على ما يرام. وعقاباً لي على غلطتي، أرى نفسي مكرهاً على أن أجلس في مقعد الحوذي. ما رأيك؟ بلى، بلى، أنا «أوتوميدون»[٣٥] سترون كيف سأحسن السوق بكم! نعم، يجب أن أكفر عن غلطتي، وأنا مستقر على مقعدي.

قال ذلك وانطلق.

كان ليفين يخشى أن يتعب الجياد، ولا سيما الكميت على اليسار الذي لم يمسك مقوده جيداً؛ لكنه استسلم لابتهاج فيسلوفسكي: لقد غنّى له طوال الطريق الأغاني، وقص عليه القصص، وقلد إنكليزياً يقود أربعة جياد بيد واحدة، وبلغوا مستنقع «تمفوزديفو» وهم في أعظم حال من الفرح.

٣٥– «أوتوميدون»: شخصية من الإلياذة؛ وهو الذي قاد عربة «أخيل». وقد غدا اسمه رمزاً لكل حوذي بارع، وبهذا المعنى استعمله الشاعر «بوشكين».

Tele: @Arab_Books

-١٠-

قاد فاسيا الجياد بسرعة كبيرة حتى إنهم بلغو المستنقع قبل اشتداد الحر.

تساءل ليفين تلقائياً، وهم يقتربون من الهدف الرئيسي لرحلتهم، كيف يستطيع أن يتخلص من فيسلوفسكي. وبدت على ستيفان أركادييفتش الرغبة ذاتها ورأى ليفين على وجهه أمارات الهمّ يظهرها كل صياد قبل البدء بالصيد، مقترنة بأمارات المكر البريء الذي كان خاصاً به.

قال ستيف أركاديفتش وهو يشير على طائرين كبيرين يحومان فوق القصب:

– ما رأيكما، أننزل هنا؟ المكان ملائم. فأنا أرى بزاة، وحيث توجد البزاة يوجد الصيد.

قال ليفين وقد بدا عليه الانشغال وهو يسحب جزمته ويتحقق من مكبسي البندقية:

– أترىان، أترىان هذا القصب؟

Tele: @Arab_Books

وأشار إلى جزيرة صغيرة من خضرة أشد دكنة في المرج الواسع الذي حصد نصفه والذي يمتد على الضفة اليمنى من الساقية:

– المستنقع يبدأ هناك، أمامنا بالضبط، هناك حيث الخضرة أوضح. ثم يمتد إلى اليمين، هناك حيث تتجه الجياد. وهناك نجد الشنقب الكبير؛ ثم يدور حول القصب حتى تلك الأيكة من شجر المغاث، وحتى الطاحونة. وها هي هناك عند منعطف الساقية. إنها أحسن موضع للصيد. قتلت فيها مرة سبعة عشر شنقباً. سوف نستعد وسنلتقي في الطاحونة.

وسأل ستيفان أركادييفتش:

– من يذهب إلى اليمين، ومن يذهب إلى الشمال؟

وأضاف وهو يتكلف اللامبالاة.

– المكان في الجهة اليمنى أوسع، فاذهبا فيه كلاكما، وسأذهب أنا إلى اليسار.

فأيده فيسلوفسكي:

– ممتاز! سنستكشفه نحن. هيا، هيا!

اضطر ليفين إلى القبول وافترقا.

ما إن دلفوا إلى المستنقع حتى جدّ الكلبان في البحث عن الطريدة، وأخذا يشتمان التراب السبخي. وكان ليفين يعرف هذه المشية الحذرة

Tele: @Arab_Books

والمترددة من لاسكا: كان يعرف المكان أيضاً ويتوقع أن يرى رفاً من طيور الشنقب.

قال بصوت مخنوق لرفيقه الذي كان يتخبط في الماء خلفه:

- فيسلوفسكي، ابق بجنبي!

ذلك أن اتجاه بندقية فيسلوفسكي بعد الحادث المزعج الذي وقع قبل قليل أخذ يقلق ليفين.

- لا، لا أريد أن أضايقك، لا تهتم بي.

لكن ليفين تذكر كلمات كيتي عندما ودعته: «احذروا من أن تطلقوا النار بعضكم على بعض!» كان الكلبان ما يزالان يمشيان وكل منهما يتحاشى الآخر وأنفه في الأرض. كان انتباه ليفين مشدوداً بحيث خيل إليه أن صوت الامتصاص الذي أحدثه كعبه وهو ينفلت من الوحل صراخ شنقب! فأمسك في الحال بعقب البندقية.

وسمع قرب أذنه: «بوم! بوم!». لقد أطلق فاسيا النار على سرب من البط وصل إلى ما فوق المستنقع مقبلاً على الصيادين، لكنه كان أبعد من مرمى البندقية. لم يتسن لليفين أن يلتفت حتى طار شنقب، وثان وثالث وثمانية أخرى أيضاً.

أصاب ستيفان أركادييفتش واحداً في اللحظة التي بدأ فيها يتعرج في طيرانه وسقط الطائر كمدرة من التراب على الأرض المتحركة. وأتبعه طائراً آخر، دون أن يستعجل، وكان الطائر يطير على وجه

Tele: @Arab_Books

القصب فسقط عندما سُمع صوت الطلقة؛ وشوهد وهو يقفز خلف الأسل المقطوع محركاً جناحاً سليماً، أبيض من الداخل.

لم يوفق ليفين مثله: رمى عن كثب أول شنقب فأخطأه؛ وأراد أن يصيبه وهو يرتفع، لكن شنقباً آخر طار في هذه اللحظة بالذات وحول انتباهه، فأخطأه مرة أخرى.

وبينما كانوا يعبثون بنادقهم من جديد انطلق شنقب. أرسل فيسلوفسكي الذي كان قد عبّأ بندقيته طلقتين في الماء. ورفع ستيفان أركادييفتش طريدته ونظر إلى ليفين بعينين لامعتين. وقال:

– والآن، لنفترق.

ومضى في جهته، وهو يعرج قليلاً من ساقه اليسرى، متأهباً ببندقيته، صافراً لكلبه. ومضى ليفين وفيسلوفسكي في الجهة الأخرى.

كان ليفين إذا أخطأ في طلقاته الأولى فقد رباطة جأشه وغضب وازداد خطؤه. وهذا ما أصابه اليوم. كان هناك الكثير من الشنقب الذي كان يطير من تحت أنف الكلبة، ومن بين أقدام الصيادين.

وكان ليفين قادراً على تدارك الخطأ. لكنه كان كلما أطلق النار غشيه الخجل أمام فيسلوفسكي الذي كان يطلق النار يمنة ويسرة دون أن يقتل شيئاً لكن دون أن يضطرب من جراء ذلك. كان ليفين يسرع، ويفقد صبره، ويزداد اغتياظه، وانتهى بأن صار يطلق النار كما يتفق له. وكأن لاسكا فهمت ذلك، فأخذت تبحث بتكاسل وتنظر إلى الصيادين حائرة أو عاتبة. كانت الطلقات تتتابع دون انقطاع. وكان

Tele: @Arab_Books

الدخان يحيط بالصيادين لكن الجعبة الواسعة لم تحتو إلا على ثلاثة شناقب هزيلة، قتل فيسلوفسكي واحداً منها وشارك ليفين في قتل الآخر. وفي هذه الأثناء، كانت تدوي في الجانب الآخر من المستنقع، أصوات الطلقات النارية المتباعدة، لكنها كانت تصيب جميعها من دون شك، لأن صوت ستيفان أركادييفتش كان يسمع بعد كل طلقة وهو يصيح:

- «كراك»، هاتها!

زاد ذلك في غيظ ليفين. وكانت الشناقب لا تني تتطاير فوق القصب ومن كل الجهات دوت أصوات الاصطفاق على مستوى الأرض، والصرخات الجشاء في الفضاء؛ وكانت الطيور تأتي لتحط أمام الصيادين، بعد أن تطير فوق رؤوسهم. وكانت عشرات البزاة تسبح في الفضاء الآن فوق المستنقع وهي تصرخ صراخاً حاداً.

بعد أن جاب ليفين وفيسلوفسكي الشطر الأكبر من المستنقع، بلغا مرجاً تملكه عدة أسر من الفلاحين، وقد قسم إلى عدة رقع تنطلق من القصب. كان نصف هذه الرقع محصوداً؛ والنصف الآخر قد ديس في بعض الأمكنة.

كان هناك قليل من الأمل في أن يجدوا صيداً حيث حصد العشب، لكن ليفين كان قد وعد ستيفان أركادييفتش بأن يلاقيه، ولذلك دلف إلى المرج مع رفيقه.

صرخ بهما أحد الفلاحين وكان جالساً قرب عربة:

Tele: @Arab_Books

- هيه! أيها الصيادان! ميلا واشربا جرعة!

التفت ليفين.

صاح به فلاح ملتح بادي البشاشة، محمر الوجه، وهو يكشف عن أسنانه البيضاء ويرفع زجاجة ضاربة إلى الخضرة:

- تعال، ولا تخف!

سأل فيسلوفسكي:

- ماذا يقولان؟

- إنهما يدعواننا إلى شرب الفودكا. فلا شك أنهما قد انتهيا من اقتسام المرج. سوف أقبل بكل رضا.

قال ذلك بشيء من المكر، آملاً أن يغري فيسلوفسكي بأن يعرج على الفلاحين.

- لكن لماذا يدعواننا؟

- لأنهما مبتهجان. ينبغي أن تذهب. فسوف تجد ذلك ممتعاً.

- لنذهب، فهذا طريف.

وصاح به ليفين:

- اذهب اذهب، ومن السهل عليك أن تعثر على طريق الطاحونة.

Tele: @Arab_Books

وعندما التفت رأى بسرور فيسلوفسكي وهو ينأى منحنياً أشد انحناء، متعثراً لدى كل خطوة بقدميه المتعبتين، ممسكاً بندقيته بيده الممدودة.

صاح فلاح بليفين:

– تعال أنت أيضاً، وكل معنا لقمة من الفطائر.

كان بود ليفين لو شرب كأساً من الفودكا ولو أكل قطعة من الخبز. كان منهكاً يصدم إحدى رجليه بالأخرى ويسحبها بمشقة من الأرض الموحلة؛ وتردد لحظة. لكن «لاسكا» وقفت متربصة. فغاب تعبه كله في طرفة عين وأدركها بخطوات رشيقة. طار شنقب من تحت قدميه فرماه وقتله؛ وظلت الكلبة متربصة، وطار شنقب آخر من تحت أنفها، رماه ليفين، لكن يومه كان مشؤوماً، فأخطأه، وعندما أراد أن يبحث عن الطائر الذي قتله لم يجده. فتش القصب كله فلم يجده. ولم تصدق «لاسكا» أنه قتله وعندما أرسلها في طلبه تظاهرت بالبحث عن الطريدة تظاهراً.

وإذن فقد لزم سوء الحظ ليفين، حتى في غياب فاسيا الذي جعله ليفين مسؤولاً عن فشله. فبالرغم من وفرة الطير إلا أنه عجز عن أن يصيب واحداً منه.

كانت أشعة الشمس المائلة ما تزال شديدة الحرارة. ولزقت بجسمه ثيابه التي بللها العرق؛ وامتلأت جزمته اليسرى بالماء وصدر عنها وهو يمشي صوت شبيه بالازدراد؛ وسال العرق بقطرات كبيرة على

Tele: @Arab_Books

وجهه الذي سوده البارود؛ وأحس بالمرارة في فمه، وبرائحة بالبارود والوحل في منخريه، وباصطفاق الشنقب في أذنيه؛ وكان لا بدَّ له من أن يتحاشى لمس أنبوبي البندقية اللذين أصبحا محرقين؛ ودق قلبه دقات متسارعة، وارتجفت يداه من الانفعال، وتعثرت قدماه المتعبتان واصطدمتا بالمدر الترابي الموحل؛ لكنه ظل يمشي ويرمي. وأخيراً، وبعد طلقة كابية أدعى إلى الخجل مما سبقها، رمى بندقيته وقبعته أرضاً. وقال في نفسه:

«مالي، ينبغي أن أتمالك نفسي!». والتقط بندقيته وقبعته، ونادى لاسكا، وخرج من المستنقع. وعندما صار في الأرض اليابسة.

جلس على أكمة، ونزع جزمته وأفرغ الماء منها، ثم عاد إلى المستنقع وشرب بجرعات طويلة الماء الذي له طعم الصدأ، وبل بالماء أنبوبي البندقية الملتهبتين كما بلل وجهه ويديه. فلما تبرّد عاد إلى الموضع الذي حط فيه الشنقب وقد عقد العزم ألا يغضب بعد الآن.

أراد أن يكون هادئاً، لكن شيئاً لم يتغير؛ ذلك أن إصبعه ضغطت الزناد قبل أن يسدد. كان كل شيء يسير من سيّئ إلى أسوأ.

لم يكن في جعبته سوى خمسة شناقب عندما خرج من المستنقع ليتجه إلى حرجة المغاث حيث ينبغي أن يلاقي ستيفان أركادييفتش.

قبل أن يرى عديله أبصر كلبه «كراك». لقدوثب من تحت أرومة شجرة مقطوعة، وهو مغطى بالوحل الأسود النتن، وجاء ليشتم لاسكا وقد ظهر بمظهر المنتصر. ومن خلف كراك، بدا، في ظل شجرة، شخص ستيفان أركادييفتش الجميل، مقبلاً على ليفين وهو

Tele: @Arab_Books

محمر، مبلل الوجه بالعرق، محلول أزار القبة، وهو ما يزال يعرج عرجاً خفيفاً.

قال وهو يبتسم بمرح:

– ما أخبارك؟ إنك لم تنقطع عن إطلاق النار.

سأله ليفين:

– وأنت.

لكن هذا السؤال كان بلا معنى لأنه رأى جعبته ملأى.

– أنا، لا بأس.

صاد أربعة عشر شنقباً.

قال ستيفان أركاديفتش ليخفف من وطأة انتصاره:

– هذا المستنقع نعمة كبرى! لا شك أن فيسلوفسكي ضايقك. ليس سهلاً أن يصيد صيادان بكلب واحد.

Tele: @Arab_Books

-١١-

عندما وصل ليفين وستيفان أركاديفتش إلى كوخ الفلاح الذي كان ليفين يتوقف عنده دائماً، وجدا فيسلوفسكي فيه. كان جالساً وسط الكوخ الخشبي، متمسكاً بالمقعد بينما أخذ جندي، هو أخو المضيفة، يسحب له جزمته المغطاة بالوحل؛ وكان يضحك ضحكه المعدي.

- وصلتُ قبل قليل. كانوا رائعين. تصوروا أنهم قدموا إلي الشراب والطعام! ويا له من خبز، إنه أعجوبة! والفودكا، لم أشرب قط أطيب منها! وأبوا أن يأخذوا شيئاً. كانوا يقولون لي طوال الوقت: «لا ينبغي أن يكون المرء شحيحاً».

قال الجندي الذي أفلح أخيراً في أن يسحب له جزمة مبللة بالماء وجورباً أسود من الوحل:

- كيف تريد أن يقبلوا منك مالك؟ لقد دعوك، أليس كذلك؟ و لم تكن الفودكا التي شربتها للبيع.

بالرغم من قذارة الكوخ الذي وسخته جزمات الصيادين وقوائم الكلبين المبللة، وبالرغم من رائحة المستنقع والبارود التي امتلأ بها،

Tele: @Arab_Books

ومن عدم وجود السكاكين والشوكات، فإن صيادينا شربوا الكثير من كؤوس الشاي وتعشوا بشهية لا تعرف إلا في الصيد. وبعد أن اغتسلوا ونظفوا أنفسهم أووا إلى مستودع للحصيد نُظِف من أجلهم وهيأ لهم الحوذي فيه فرشاً على الحشيش اليابس.

مع أن الظلام قد حل إلا أن الصيادين لم ينم أحد منهم.

بعد أن تذبذب الحديث بين الذكريات وحكايات الصيد، استقر على موضوع كان يهمهم جميعاً. فبينما كان فيسلوفسكي يعرب عن حماسته بمناسبة كل شيء: التوقف، رائحة الحشيش، العربة المكسورة (بدت له مكسورة لأن مقدمتها سحبت)، لطف الفلاحين الذين سقوه الفودكا، الكلبين اللذين نام كل منهما عند قدمي سيده، حكى أوبلونسكي لهم عن رحلة صيد شارك فيها في السنة الفائتة عند شخص يدعى «مالتوس».

وكان مالتوس ثرياً حديث العهد بالثراء، جمع ثروته في السكك الحديدية. ووصف ستيفان أركادييفتش المستنقع الذي اشتراه هذا الرجل في إقليم «تفير» والذي كان يحميه، والعربات التي نقلت الصيادين والعربات التي نقلت الكلاب، والخيمة التي نصبت على ضفاف المستنقع لتناول الغداء.

قال ليفين وهو ينهض عن فراش الحشيش:

- لستُ أفهمك. كيف لا يكون هؤلاء الناس كريهين؟ أفهمُ أن يكون الغداء في «شاتولافيت» ممتعاً، أما هذا الترف أفلا تأباه نفسك؟ جميع

Tele: @Arab_Books

هؤلاء الناس، شأنهم شأن مزارعينا القدماء الذين يتاجرون بماء الحياة[٣٦]، يربحون المال على نحو يستحقون معه الاحتقار العام الذي يهزؤون منه، ثم يستردون سمعتهم بهذا المال الذي كسبوه كسباً غير شريف.

فأيده فاسيا فيسلوفسكي:

- هذا صحيح تماماً! صحيح تماماً! إن أوبلونسكي يقبل هذه الدعوات عن طيبة قلب، لكن الآخرين يقولون بعد ذلك: بما أن أوبلونسكي ذهب إلى هناك...

- لا، أبداً... (أحس ليفين أن أوبلونسكي ابتسم وهو يقول ذلك). ولست أظن هذا الرجل أقل استقامة من أي نبيل أو تاجر مثر. فجميعهم مدينون بوضعهم إلى عملهم وذكائهم.

- نعم، لكن أي عمل هو هذا العمل؟ أهو عمل أن ينال المرء امتيازاً وأن يبيعه؟

- لا شك في ذلك. بمعنى أنه لو لم يكن هو ولو لم يكن أمثاله هنا لما كانت لنا تلك السكك الحديدية.

- ليس هذا عمل الفلاح ولا العالم.

- لنقبل بذلك، لكنه عمل بمعنى أن نشاطه يؤدي إلى نتيجة هي: السكك الحديدية. لكنك ترى أن السكك الحديدية غير مجدية.

٣٦- «يتاجرون بماء الحياة». كان بيع «ماء الحياة» قبل ١٨٤٦ ممنوحاً لمزارعين عموميين يثرون منه ثراء فاحشاً.

Tele: @Arab_Books

– لا، هذه مسألة أخرى؛ أنا مستعد للاعتراف بجدواها. لكن كل كسب لا يتناسب مع العمل المبذول كسب غير شريف.

– ومن يحدد هذا التناسب؟

قال ليفين وقد أحس أنه لن يستطيع أن يرسم حداً دقيقاً بين ما هو شريف وما ليس شريفاً:

– عنيت كل ربح كسبه صاحب كسباً غير شريف، بالحيلة.

وتابع قائلاً:

– أرباح المصارف مثلاً. ذلك هو السوء: كسب ثروات فاحشة بدون عمل؛ هذا مثل زمن المزارع، المظاهر وحدها تغيرت. «مات الملك، عاش الملك!». لم نكد نلغي المزارع حتى ظهرت السكك الحديدية والمصارف: هذا أيضاً ربح بدون عمل.

قال ستيفان أركادييفتش:

– نعم، كل ذلك قد يكون صحيحاً وذكياً...

وصاح بكلبه الذي كان يحك نفسه ويتقلب على القش:

– «كراك»! انبطح.

كان أوبلونسكي بادي القناعة بصحة وجهة نظره، ولذلك كان يتكلم برزانة ودون استعجال:

Tele: @Arab_Books

– لكنك لم ترسم حداً واضحاً بين العمل الشريف والعمل غير الشريف. وإذا كنت أتلقى مرتباً أعلى من مرتب رئيس مكتبي الذي يتقن عمله خيراً مني فهل هذا غير شريف؟

– لا أدري.

– حسناً! أحب أن أقول لك: إنك عندما تتلقى خمسة آلاف روبل مثلاً مقابل عمل لا ينال منه فلاحنا، مهما يبذل من جهد، سوى خمسين، فذلك غير شريف، وهو شبيه بحالي عندما أربح أكثر من رئيس مكتبي، وبحال مالتوس عندما يربح من العامل في سكة الحديد. وبالمقابل، فأنا أرى من المجتمع موقفاً معادياً لهؤلاء الناس لا يستند إلى شيء. يلوح لي أنه الحسد...

قال فيسلوفسكي:

– لا، ذلك غير صحيح: لا يمكن أن تحسدهم: ففي هذا النوع من الأعمال شيء من القذارة.

فرد ليفين:

– اسمح لي. أنت تقول إن من الظلم أن أربح خمسة آلاف روبل حين لا يربح الفلاح سوى خمسين: هذا صحيح. وهو ظلم لم يغب عن بالي، لكن...

قال فاسيا فيسلوفسكي وفي كلامه نبرة من الصدق زاد من وقعها أن هذه هي المرة الأولى في حياته التي يفكر فيها، كما يبدو، في هذه المسائل:

Tele: @Arab_Books

– هذا صحيح! لماذا نأكل ونشرب ونظل بلا عمل في حين يعمل هو بلا كلل؟

قال ستيفان أركادييفتش الذي كأنما طاب له أن يكايد ليفين:

– نعم، أنت تدرك ذلك، لكنك لا تهب الفلاح أرضك.

لقد نشأت بين العديلين، في هذه الآونة الأخيرة، عداوة خبيثة: فمنذ أن صارا عديلين، حرص كل منهما على أن يظهر أنه قد نظم حياته خيراً من الآخر، وعبرت هذه العداوة عن نفسها الآن في هذا الحديث الذي أخذ يتجه وجهة شخصية.

فأجاب ليفين:

– لم يطلب إلي أحد ذلك. وحتى لو أردت ذلك لما استطعت أن أعطي أرضي. لا أدري لمن أهبها؟

– لهذا الفلاح. فهو لن يرفض.

– لكن، ما السبيل إلى ذلك؟ أأذهب معه لإبرام عقد التملك؟

– لا أدري، لكنك إذا كنت مقتنعاً بأن ليس لك الحق...

– لست مقتنعاً البتة. على العكس، أحس أن ليس من حقي أن أهب أملاكي، لأن علي واجبات تجاه أرضي، وتجاه عائلتي...

– عفواً؛ إذا كنت تعتقد أن هذا التفاوت ظالم فلماذا لا تتصرف على هذا الأساس؟

Tele: @Arab_Books

– هذا ما أفعله، لكن سلبياً، بمعنى أنني أحاول جاهداً ألا أزيد هذا التفاوت بين الفلاح وبيني.

– عفواً، لكن في هذا مفارقة.

وأيده فيسلوفسكي:

– نعم، هذا تفسير سفسطائي.

وقال للفلاح الذي دخل المستودع فجعل الباب يصر:

– هيه! أيها المضيف، ألم تنم بعد؟

– لا، أين أنا من النوم! كنت أعتقد أنكم قد نمتم، ثم سمعتكم تتحدثون. أنا بحاجة إلى كلاب.

وأضاف بحذر وهو يضع قدميه العاريتين الواحدة أمام الأخرى:

– لن يعضني؟

– وأين ستنام؟

– سوف نبقي الخيول في المرعى.

قال فيسلوفسكي وهو ينظر من إطار الباب إلى ركن من الكوخ:

– آه! يا لهذا الليل! واصغوا إلى أصوات النساء، ما أجملها! من يغني؟

Tele: @Arab_Books

– البنات اللواتي بجنبنا.

– تعالوا نقم بجولة هناك! فلن نستطيع النوم أبـداً. تعال، يا أوبلونسكي.

فأجاب أوبلونسكي:

– ليتنا نستطيع البقاء هنا على الفراش والذهاب إلى هناك في آن واحد! فنحن مرتاحون هنا.

قال فيسلوفسكي وهو ينهض ويحتذي جزمته على عجل:

– إذن، سأذهب وحدي. فإذا كان ذلك مسلياً ناديتكم. لقد أطعمتموني من صيدكم، ولن أنساكم.

قال أبولونسكي عندما انصرف فيسلوفسكي وأغلق الفلاح الباب وراءه:

– إنه فتى لطيف، أليس كذلك؟

أجاب ليفين:

– نعم.

وكان ما يزال يفكر في حديثهم. لقد خيل إليه أنه عبر بأقصى ما يستطيع من وضوح عن أفكاره وعواطفه، بيد أن رفيقيه، هما رجلان ذكيان وصادقان، قال بصوت واحد: إنه كان يغتذي بالسفسطائيات. فأثار ذلك اضطرابه.

Tele: @Arab_Books

– نعم، يا صديقي، أحد أمرين: إما أن نقر بأن التنظيم الحالي للمجتمع عادل، وحينئذ ينبغي الدفاع عن حقوقنا، وإما أن نعترف بأننا نتمتع بامتيازات جائرة وأننا نستغلها بكل سرور: وهذا ما أفعله أنا.

– لا، لو كان ذلك جائراً لما استطعت أن تتمتع بهذه الخيرات وأنت مسرور. أنا على الأقل، لا أستطيع ذلك. أنا بأشد الحاجة إلى الإحساس بأني غير مذنب.

قال ستيفان أركاديفتش، وقد بدا عليه التعب من توتر ذهنه:

– في الواقع، ليتنا نقوم بجولة! إننا لا ننام. إذن، فلنذهب!

لم يجب ليفين. وفكر فيما قال أثناء الحديث: إنه لم يكن يتصرف وفقاً لقناعاته إلا بالمعنى السلبي. وتساءل:

«أيمكن ألا نكون عادلين إلا سلبياً».

قال وهو ينهض:

– ما أقوى رائحة العشب الغض! أحس أنني لن أستطيع النوم. يبدو فاسيا كمن يتسلى. أتسمع صوته، وقهقهاته؟ هيا إلى هناك؟

أجاب ليفين:

– أنا، سأبقى.

قال ستيفان أركاديفتش وهو يبحث عن قبعته في العتمة:

– أعن مبدأ، أيضاً؟

Tele: @Arab_Books

- لا، لكن ماذا سأفعل هناك؟

قالت ستيفان أركاديفتش الذي عثر على قبعته ونهض:

- أتدري أنك مقبل على متاعب.

- لماذا؟

- لماذا؟ إني أرى أي موقف تقفه إزاء زوجتك. لقد سمعتكما تناقشان مسألة في غاية الأهمية وهي: أتستطيع أم لا تستطيع أن تغيب يومين لتذهب إلى الصيد. هذا رائع من حيث دلالته على الحب البريء، لكنه لن يدوم طول العمر. ينبغي للرجل أن يكون مستقلاً: إن له مصالحه. الرجل ينبغي أن يكون رجولياً.

قال ذلك وهو يفتح الباب فسأله ليفين:

- أي أن يذهب ليغازل بنات المزارع؟

- ولم لا، إن كان ذلك يسليه؟ وليس هذا بالأمر الخطير. إنه لا يزيد في شقاء امرأتي وهو يزيد في إمتاعي. المهم هو أن نحترم مذبح الزوجية. ينبغي ألا يجري شيء في البيت. لكن لا يجوز أن نظل مكتوفي الأيدي.

قال ليفين بجفاف وهو ينقلب على جنبه:

ربما. يجب أن أنهض مبكراً، غداً. سأذهب مع الفجر ولن أوقظ أحداً.

Tele: @Arab_Books

صاح صوت فيسلوفسكي الذي عاد:

- أسرعا، يا صاحبي! إنها رائعة! أنا اكتشفتها. إنها رائعة، ألمانية حقيقية، وقد غدونا صديقين حقيقيين. في الحقيقة، إنها رائعة.

وقال هذه الجملة الأخيرة بلهجة الموافقة، كأن تلك الفتاة الرائعة قد خلقت لأجله وكأنه يغتبط ممن هيأ له هذه المفاجأة.

تظاهر ليفين بالنوم، وخرج أوبلونسكي من المستودع، بعد أن احتذى خفيه، وأشعل سيجاراً. وما لبث أن خبا صوتهما.

مكث ليفين طويلاً قبل أن يستطيع النوم. لقد سمع جياده وهي تلوك كلأها، وسمع مضيفه يذهب هو وابنه إلى المرعى؛ وبعد ذلك سمع الجندي يستقر في زاوية من المستودع مع ابن أخته، ابن صاحب البيت؛ وسمع الولد ينبئ خاله بالأثر الذي تركه الكلبان في نفسه، وقد ظنهما وحشين هائلين ومرعبين؛ ثم إن الصبي سأل: بمن سيمسك هذان الكلبان، فبين له الجندي بصوت مبحوح ينم على النعاس أن الصيادين سيذهبون غداً إلى المستنقع وسيطلقون طلقات نارية من بنادقهم؛ ولكي يتخلص أخيراً من أسئلة الصبي، قال له: «نم «فاسكا»، نم، وإلا فحذار! وبعد لحظة أخذ يشخر وغرق كل شيء في الصمت؛ ولم تكن تسمع سوى حمحمة الجياد وصرخات الشنقب القصير. وردد ليفين على نفسه: «ألا يمكن أن نكون عادلين إلا سلبياً؟ وبعد؟ الذنب ليس ذنبي». وعاد إلى التفكير في نهار الغد.

«غداً، سأذهب مبكراً وسآخذ على نفسي ألا أهتاج. فالشنقب كثير، وهناك أيضاً شنقب كبير. وعندما سأعود سأجد كلمة من كيتي.

Tele: @Arab_Books

ربما كان «ستيفان» محقا، فأنا مفرط الضعف، وأنا أسمح لها بالسيطرة علي... لكن ما العمل؟ هذا أيضاً جانب سلبي!»‏.

وخلال نومه سمع ضحكات فيسلوفسكي وستيفان أركادييفتش وأحاديثهما الفرحة. وفتح عينيه لحظة، فرأى القمر مشرقاً وهما واقفان على عتبة الباب يتحدثان، وقد غمرهما القمر بنوره. كان ستيفان أركادييفتش يتحدث عن بنت شبهها ببندقية لم تكد تخرج من قشرتها، وكان فيسلوفسكي يكرر، وهو يضحك ضحكه المعدي، جملة لعل أحد الفلاحين قد قالها له: «أولى بك أن تسعى إلى الحصول على فتاة لك». فقال لهما ليفين من خلال نومه:

– غداً، يا سادة، منذ أن يبزغ الفجر!... ثم غفا.

Tele: @Arab_Books

-١٢-

استيقظ ليفين مع أول أضواء الفجر، وحاول أن يوقظ رفيقيه. كان فاسيا مضطجعاً على بطنه، وإحدى ساقيه مشدودة بجوربها، ينام نوماً عميقاً بحيث تعذر أن يحصل منه على جواب. وحتى لاسكا نفسها التي كانت تنام متكورة على جانب العشب اليابس، نهضت على مضض ومطت بتكاسل كلاًّ من قائمتيها الخلفيتين. بعد أن احتذى ليفين جزمته، تناول بندقيته، وفتح بحذر الباب الذي يصر، وخرج. كان الحوذيان غافيين قرب العربتين، وكانت الجياد غافية إلا واحداً منها كان يلوك شوفانه ويبعثره في معلفه. كان الضوء ما يزال أغبش.

قالت المضيفة العجوز التي خرجت من الكوخ لليفين بلهجة ودية وكأنها تخاطب أحد معارفها القدماء:

– لَمَ نهضت مبكراً هذا التبكير، يا عزيزي؟

– أنا ذاهب إلى الصيد، يا عزيزتي. أهذا هو الطريق الذي يؤدي إلى المستنقع؟

– امض من خلف المستودع على خط مستقيم؛ ستمر ببيدرنا المسور، ثم بحقل القنب، هناك ستجد الدرب.

Tele: @Arab_Books

ووضعت العجوز بحذر قدميها العاريتين الملوحتين على الأرض، ورافقت ليفين، وفتحت له حاجز البيدر المسور.

– امض من هنا على خط مستقيم وستصل مباشرة إلى المستنقع. فمن هنا ساق أبناؤنا الماشية أمس مساء.

كانت لاسكا تركض بفرح على الدرب! وكان ليفين يتبعها بخطوات خفيفة وسريعة وهو يتفحص السماء في كل لحظة. كان يود ألا تطلع قبل أن يصل إلى المستنقع. لكن الشمس لن تتأخر حتى تشرق. وأخذ القمر الذي كان مضيئاً عند خروجه يصطبغ بلون فضي؛ أما نجمة الصبح التي كانت بارزة قبل لحظة فصار يصعب العثور عليها؛ واتضحت حواشي البقع التي لم تكن متميزة في الحقول البعيدة: كانت تلك البقع أكداساً من الشيلم. وأخذ الندى الذي لم يكن ليرى لولا أشعة الشمس يبلل قدمي ليفين وقميصه الخارجي في القنب الذي انتشرت رائحته، وعلا حتى تجاوز قامة الإنسان، وقُطعت سوقه الفحلة. في صمت الصباح الشفاف، كان المرء يحس بأدنى نأمة. مرت نحلة قرب أذن ليفين في صفير كصفير الرصاص. فأمعن النظر وشاهد نحلة ثانية، ثم ثالثة. كان النحل يطير من فوق غطاء المنحلة ويتوارى باتجاه المستنقع، فوق حقل القنب. كان الدرب يفضي مباشرة إلى المستنقع. وكان ليفين يستشف وجوده من خلال الأبخرة المتصاعدة كثيفة هنا، خفيفة هناك؛ وكانت أجمات القصب والصفصاف تتهادى في هذا الضباب كأنها جزر صغيرة. وعند مدخل المستنقع، على حافة الدرب، نام الصبية والفلاحون الذين قاموا بحراسة الليل، متدثرين بمعاطفهم. وغير بعيد عنهم، كانت

Tele: @Arab_Books

ترعى ثلاثة جياد مُقيدة. وكان أحدها يخشخش سلسلة قيده. أما «لاسكا» فكانت تسير بجانب سيدها، وهي تنظر إلى كل الجهات، وقد نفد صبرها، لتضرب في عرض الأرض. وعندما تجاوز ليفين الفلاحين النائمين وأحس بالأرض رخوة تحت قدميه، تحقق من مكبسيه وأطلق الكلبة. وشاهدها أحد الجياد، وهو مهر جميل أسمر ابن ثلاث سنوات، فأخذ يركض ونخر وهو يرفع ذيله. وخافت المهار الأخرى فخرجت من الماء وهي تتخبط في الماء وتسحب حوافرها من الوحل الكثيف بصوت شبيه بالاصطفاق. توقفت لاسكا وألقت على الجياد نظرة ساخرة، وعلى سيدها نظرة مستفهمة. فداعبها ليفين وصفر صفيراً خفيفاً، وهو إشارة لها بأنها يمكن أن تبدأ بحثها.

انطلقت لاسكا على الأرض المتحركة وقد بدا عليها الفرح والانشغال.

عندما دخلت لاسكا المستنقع ميزت مباشرة بين جميع الروائح المعهودة: الجذور، وأعشاب المستنقع، وتفتحات الأزهار الحديدية، وبين الروائح الغريبة مثل روث الجواد ورائحة الطير، وهي عطر خاص كان يدخل الاضطراب على نفسها أكثر من أي شيء آخر. كانت هذه الرائحة قوية جداً، هنا وهناك، على الطحلب أو الأعشاب الأخرى، لكن لم يكن ممكناً الكشف عن الجهة التي تقوى فيها هذه الرائحة أو تضعف. وللعثور على الجهة لا بدَّ من تحسس الطريدة بكل الاتجاهات. كانت لاسكا لا تشعر بحركة قوائمها، وهي تجري جرياً موزوناً بحيث تستطيع أن تتوقف بعد كل وثبة إذا دعت الحاجة إلى ذلك، تجري نحو اليمين سابقة النسيم الذي يسبق الفجر والذي يهب

Tele: @Arab_Books

من المشرق، ثم تقف في وجه الريح. حتى إذا تنشقت الهواء بمنخريها الواسعين أحست في الحال أنها ليست بإزاء اتجاه الطريدة فقط، بل بإزاء الطريدة ذاتها وبإزاء وفرة عظيمة منها. فتتباطأ في جريها. كان «الطير هنا»، لكن أين بالضبط، لم تستطع بعد تحديد ذلك. ولمعرفة الموضع بالذات أخذت تسير في خط متعرج عندما دوى فجأة صوت سيدها وحول انتباهها. قال لها وهو يشير إلى وجهة أخرى:

– «لاسكا»، من هنا!

توقفت لحظة كأنها تسأله إن لم يكن الأفضل أن تستمر. لكنه كرر أمره بصوت غاضب مشيراً إلى تلعة لا يستطيع أن يرى فيها شيئاً. فأطاعته، وتظاهرت بالبحث لكي تسره، وصعدت التلعة، ثم عادت إلى المكان الأول، وما لبثت أن شمت رائحة الطريدة. أصبحت تعرف ماذا ينبغي لها أن تفعل الآن حين لم يعد سيدها يزعجها؛ ودون أن تنظر إلى قوائمها وهي تتعثر حانقة بالمدر العالي، أو تسقط في الماء ثم لا تلبث أن تنتصب على قوائمها القوية والمرنة، بدأت دائرة ستكشف لها عن كل شيء. كانت رائحة طيور الشنقب توافيها وهي تزداد شدة ووضوحاً، وبدا لها جلياً أن أحدها لا بدَّ أن يكون هنا، خلف التلعة، على خمسة أقدام أمامها: فوقفت متربصة وتجمّد جسدها كله. لم يكن بوسعها أن ترى شيئاً أمامها، وهي على هذه القوائم المنخفضة، لكنها كانت تعلم من الرائحة «أنه» على بعد لا يزيد عن خمسة أقدام. ظلت بلا حراك، وقد ازداد شعورها بوجود الطائر، ملتذة بهذا الانتظار. وكان ذيلها المشدود لا يرتجف إلا في طرفه، وكان فمها مفتوحاً قليلاً، وأذناها منتصبتين نصفياً. وقد انقلبت إحدى أذنيها أثناء جريها.

Tele: @Arab_Books

كانت تتنفس بثقل لكن بحذر وتنظر إلى سيدها خلفها، وهي لا تكاد تحرك رأسها. ويقترب سيدها، بهذا الوجه الذي تعرفه جيداً وبهاتين العينين المرعبتين دائماً، وهو يتعثر بالأرض الوعرة. ويبدو للاسكا أنه يمشي مشية بالغة البطء. والحقيقة أنه كان يركض.

وحين يرى ليفين «لاسكا» تشد نفسها إلى الأرض وهي تفلح التراب بقائمتيها الخلفيتين، وتفتح فاها، يدرك أنها اكتشفت شنقباً كبيراً ويمضي إليها وهو يرجو الله ألا يخطئ في طلقته الأولى. فإذا صار بمحاذاتها نظر من أعلى قامته فرأى ما لم تستطيع سوى شمه. رأى بين مدرتين من الأرض، على ستة أقدام شنقباً كبيراً. أدار الشنقب رأسه مترصداً، ثم لم يكد يفتح جناحيه حتى طواهما، ورعش ذيله بخرق، وتوارى بين تضاريس الأرض.

صاح ليفين وهو يدفع كلبته بقدمه:

– هاته! هاته!

وكأن لاسكا قد فكرت: «لا أستطيع أن أتحرك. إلى أين سأذهب؟ من هنا أستطيع أن أشمه لكني لو تقدمت لما استطعت أن أعرف أين صار ولا ما هو» لكن ها إن سيدها يدفعها بركبته ويكرر همسه، وهو منفعل:

– هاته، يا صغيرتي «لاسكا»، هاته!

وقالت لاسكا في نفسها: بما أنه يرغب في ذلك سأفعل، لكنني لا أضمن نفسي. واندفعت إلى الأمام، لم تعد تشم شيئاً الآن: كانت ترى وتسمع دون أن تفهم شيئاً.

Tele: @Arab_Books

على عشر خطوات من موضعها القديم طار شنقب وهو ينق نقيقاً غليظاً ويصفق بجناحيه هذا التصفيق الرنان الخاص بالشنقب الكبير. وما إن طلعت الطلقة حتى سقط على الأرض الرخوة والرطبة، ببطنه الأبيض أولاً: ولم ينتظر الشنقب الثاني طويلاًن فقد طار من خلف ليفين دون مساعدة الكلبة.

عندما التفت ليفين كان الطائر قد ابتعد. لكن طلقته أصابته. وبعد أن قطع الطائر نحو عشرين قدماً صعد عمودياً ثم سقط على ظهره في موضع جاف.

فكر ليفين وهو يدس في جعبته الطائرين الساخنين والسمينين: سيكون الأمر جدياً، هذه المرة! ما رأيك، يا «لاسكا»، سنمَّشي الحال؟

عندما استأنف ليفين سيره، بعد أن عبأ بندقيته من جديد، كانت الشمس قد تخطت الأفق، وإن كانت ما تزال محتجبة خلف السحب. ولم يعد القمر الذي فقد بهاءه الآن سوى غيمة صغيرة بيضاء في السماء؛ وغابت النجوم فما عادت ترى نجمة. وعكست المناقع الآن أضواء مذهبة، وكانت فضية من قبل بفعل الندى. واكتست براعم الأزهار الحديدية على سطح الماء لوناً عنبرياً. وتحول العشب من الألوان الزرقاء إلى اللون الأخضر الضارب إلى الصفرة. وأخذت طيور المستنقعات تضطرب حول الأدغال المتلألئة بالندى والتي كانت تلقي ظلالها المتطاولة على ضفة الساقية. وحط باز مستيقظ على أعلى كدس، وأخذ يدير رأسه في هذه الجهة وفي تلك وهو يتأمل المستنقع وقد بدا عليه الاستياء. وكانت الغربان تطير في الحقول؛ وساق صبي

Tele: @Arab_Books

حاف الجياد نحو شيخ رمى معطفه وأخذ يحك جسمه. ورسم دخان البندقية مساحب بيضاء على أرضية الأعشاب الخضراء.

هرع أحد الصبية إلى ليفين وصاح:

- كان هنا بط أمس، يا عم!

ولحق به مسافة غير قليلة.

لقد سر ليفين سروراً شديداً حين قتل ثلاثة شناقب الواحد تلو الآخر أمام هذا الصبي الذي كان يظهر انشراحه.

Tele: @Arab_Books

-١٣-

إن التقليد الذي يؤكد أن الصياد إذا نجح في طلقته الأولى كان صيده مثمراً قد أثبت صحته.

عاد ليفين إلى الاستراحة متعباً، جائعاً، سعيداً، بعد أن جاب نحو ثلاثين فرسخاً، ومعه تسعة عشر شنقباً وبطة علقها بزناره لأنها لم تدخل في الجعبة. أما صديقاه اللذان استيقظا منذ وقت طويل فقد تناولا الطعام أخيراً بدونه لأنهما ماتا من الجوع.

قال ليفين وهو يعد للمرة الثانية طيور الشنقب الكبيرة والعادية التي تقلصت وتغطت بالدم المتجمد ومال رأسها الصغير جانباً وفقدت طلعتها البهية التي كانت لها أثناء طيرانها:

– انتظرا، انتظرا، أنا واثق أن عددها تسعة عشر.

كان العدد صحيحاً وسر ليفين بما بان على ستيفان أركادييفتش من حسد. ومن جهة أخرى، فقد فرح حين وجد في الكوخ الرسول الذي أرسلته كيتي معه الرسالة:

«إني في أحسن حال، وأنا منشرحة الصدر. إذا كنت تعاني القلق

Tele: @Arab_Books

بصددي، فبوسعك أن تكون أكثر اطمئناناً من ذي قبل. إن عندي هيئة جديدة للحراسة هي: ماريا فلاسييفنا (كانت هذه هي القابلة، وكانت شخصية جديدة وذات شأن في حياة ليفين الزوجية). جاءت لتفحصني، ووجدتني في صحة تامة وسنستبقيها حتى عودتك. الجميع بخير، لذلك لا تستعجل، أرجوك؛ وإذا كان الصيد مؤاتياً، فتأخر يوماً».

هاتان الفرصتان: الصيد الموفق والرسالة، كانا عظيمين إلى الحد الذي لم يلتفت معه ليفين إلى مضايقتين صغيرتين طرأتا بعد الصيد. أولاً إن الجواد الكميت الذي سيق أمس، في الواقع، بسرعة مفرطة، قد رفض أن يأكل وبدا مهدود القوى.

وقال الحوذي: إنه ملتهب الحوافر.

قال ليفين:

– لقد أنهكته أمس، يا قسطنطين دميتريتش. ليس ذلك مدهشاً، عشر فراسخ بمثل هذه السرعة!

أما المضايقة الثانية التي كدرت مزاجه في البداية ثم ضحك كثيراً منها فيما بعد فهي أنه لم يجد شيئاً من الزاد الذي منحته كيتي بوفرة عظيمة حتى كأنه يكفي لثمانية أيام. فعندما عاد من الصيد متعباً، جائعاً حلم، على الخصوص، بالفطائر الصغيرة، وأحس، وهو يقترب من الكوخ، بطعمها ورائحتها في حلقه، كما تشم «لاسكا» الطريدة، وسرعان ما أمر «فيليب» بتقديمها له.

بيد أنه لم يجد أثراً لا للفطائر ولا للدجاج!

Tele: @Arab_Books

قال ستيفان أركادييفتش وهو يشير إلى فاسيا فيسلوفسكي ويضحك:

– أية شهية هي شهيته! لست أشكو نقص الشهية لكن شهيته عجيبة...

قال ليفين وهو ينظر إلى فيسلوفسكي بتجهم:

– لابأس! هات إذن، قطعة من لحم البقر، يا فيليب.

أجاب فيليب:

– لم يبق منه شيء، ولقد رمينا العظام للكلب.

تكدر ليفين إلى حدٍّ كبير حتى أنه قال بلهجة حزينة:

– كان بإمكانكم أن تتركوا لي شيئاً ما!

واشتهى أن يبكي.

ثم قال بصوت مرتجف، وهو يحاول جاهداً ألا ينظر إلى فاسيا:

– أفرغ الطيور واحشها بالقراص. وحاول أن تجد لي شيئاً من الحليب على الأقل.

ما إن شبع من الحليب حتى خامره الندم على ما أظهر من مشاعر الخيبة أمام رجل غريب، وأخذ يضحك من الغضب الذي ابتعثه جوعه الشديد.

Tele: @Arab_Books

وفي المساء، ذهبوا إلى الصيد أيضا، فقتل فيسلوفسكي بعض الطيور، ورجعوا في الليل.

كان الإياب بهيجاً كالذهاب. كان فيسلوفسكي يغني تارة، وتارة أخرى يحكي بتلذذ عن استراحته عند الفلاحين الذين قدموا له الفودكا وقالوا له: «يجب ألا يكون المرء شحيحاً»، أو يروي قصة مغامراته الليلية التي يدخل فيها البندق، وفتاة المزرعة، وفلاح قال له بعد أن سأله إن كان متزوجاً: «بدلاً من أن تأتي لتتطلع إلى النساء، يجدر بك أن تحاول البحث عن واحدة لك». هذه الكلمات أبهجت فيسلوفسكي على نحو خاص.

– على الإجمال، أنا مغتبط بهذه الرحلة، وأنت، ليفين؟

– وأنا أيضاً.

قال ليفين ذلك بصدق، وكان سعيداً جداً لا لأنه لم يعد يشعر بشعور العداء الذي أحس به في البيت إزاء فيسلوفسكي فحسب بل لأنه أخذ يحس، بأخلص مشاعر الود نحوه.

Tele: @Arab_Books

-١٤-

في الساعة العاشرة من اليوم التالي جاء ليفين الذي تفقد ممتلكاته ودق باب الغرفة التي قضى فيها فاسيا الليل.

صاح به فيسلوفسكي:

– ادخل!

وقال وهو يبتسم:

– اعذرني، فأنا أنهي اغتسالي.

كان يقف أمامه وهو لا يرتدي سوى قميص.

– لا تتحرج، أرجوك. هل نمت نوماً مريحاً؟

وجلس ليفين قرب النافذة.

– نمت كالميت هل الطقس مؤات للصيد اليوم؟

– ماذا تشرب: شاياً أو قهوة.

– لا هذه ولا ذاك. إني أتناول وجبة كاملة، وأنا أستحي من

Tele: @Arab_Books

ذلك... نهضت السيدات، فيما أعتقد. ما ألطف القيام بجولة! ستريني جيادك.

بعد نزهة في البستان، وزيارة للاصطبل، وبعض التمارين على العارضتين المتوازيتين، عاد ليفين إلى المنزل وقصد إلى صالة الاستقبال بصحبة ضيفه.

قال فيسلوفسكي وهو يقترب من كيتي الجالسة قرب السماور:

– كان الصيد بديعاً، وأنا أحمل عنه طائفة من الانطباعات. إنه لمؤسف حقاً أن تُحرم السيدات من هذه المتع!

قال ليفين في نفسه:

لا بدَّ له من أن يقول بضع كلمات لربة المنزل.

ورأى ظلاً خاصاً في الابتسامة وفي الهيئة المنتصرة اللتين خاطب بهما كيتي...

كانت الأميرة، جالسة في الجهة الأخرى من المائدة مع ماري فلاسييفنا وستيفان أركاديفتش، فنادت ليفين إليها وشرعت في الحديث معه بصدد إقامتهما في موسكو هو وكيتي من أجل الولادة، وبصدد تهيئة مسكنهما. كانت هذه الاستعدادات، في مرحلة الزواج، تبدو كريهة على نفس ليفين: كانت تسيء بتفاهتها إلى عظمة ما كان في سبيله إلى التمام؛ وبدت هذه الاستعدادات من أجل الولادة المقبلة التي كانوا يعدون تاريخها على الأصابع، جراحة أكثر من تلك. كان

Tele: @Arab_Books

يحاول جاهداً ألا يسمع إلى هذه الأحاديث عن أحسن الطرق للف الوليد، وألا يرى هذه اللفائق الغريبة المسرودة التي لا تنتهي، ولا هذه المثلثات من القماش التي تعلق عليها دولي أهمية خاصة، إلخ... إن ولادة صبي (كان مقتنعاً أنه سيكون صبي) وُعد بها، وإن لم يؤمن بها بعد لفرط ما بدت له خارقة، كانت كأنها مستحيلة، وكأنها حدث محفوف بخفايا الأسرار حتى إن هذه المعرفة المتخيلة لما سيقع، وهذه الاستعدادات المتعلقة، فيما يظهر، بحدث عادي، قد بدت مذلة ومثيرة.

لكن الأميرة لم تكن تفهم حالته الروحية وعزت نفوره من الانشغال بهذه الموضوعات والحديث عنها إلى الخفة واللامبالاة، ولذلك لم تكن تدعه يستريح. لقد كلفت ستيفان أركاديفتش أن يبحث لهما عن منزل، وها هي تشير إلى ليفين ليأتي إليها.

قال لها:

– لا أدري شيئاً، يا أميرة. افعلي كما تشائين.

– يجب أن تحدد موعد سفرك.

– إني أجهل ذلك حقاً. كل ما أعلمه هو أن ملايين الأطفال يولدون خارج موسكو وبدون طبيب... لمَ إذن...

– إذا كان الأمر كذلك...

– ليكن كما تريد كيتي.

Tele: @Arab_Books

– لا ينبغي أن نحدث كيتي عن ذلك! أتريد أن أخوفها؟ لا تنس أن «ناتالي غوليتزين» ماتت في الربيع الماضي لعدم وجود مولد.

فقال وهو بادي الاغتمام:

– سأفعل ما تأمرين به.

أخذت الأميرة تحدثه، لكنه لم يكن يصغي إليها. ومع أن هذا الحديث جدير بأن يهده، إلا أنه ليس هو الذي أحزنه، وإنما ما كان يراه قرب السماور. وفكر وهو يلقي بين الحين والحين نظرة على فاسيا الذي انحنى فوق كيتي وأخذ يحدثها من خلال ابتسامته الجميلة، ثم على أمرته التي علتها الحمرة وبدا عليها التأثر: «لا، هذا لا يطاق».

كان في وضع «فاسيا» شيء من عدم الحشمة، وكذلك في نظرته وابتسامته. بل إن ليفين رأى وضع كيتي ونظرتها غير لائقين. ومرة أخرى، أظلمت الدنيا في عينيه، وأحس بنفسه، مثل أمس، ودون أدنى انتقال، مقذوفاً به من قمة السعادة والسكينة والكرامة إلى حضيض اليأس والخبث والذل. لقد بدا له العالم كله غير محتمل.

قال لها وهو ما يزال ينظر إلى ذلك الموضع:

– افعلي ما تشائين، يا أميرة.

قال له ستيفان أركاديفتش بلهجة مازحة، ملمحاً لا إلى أحاديث الأميرة فقط بل وأيضاً إلى سبب اضطراب ليفين الذي استشفه:

– يوم لك ويوم عليك... كم تأخرت حتى نزلت اليوم، يا دولي!

Tele: @Arab_Books

نهض الجميع ليحيوا داريا ألكسندروفنا. ونهض فاسيا لمدة لحظة فقط وحياها تحية لا تكاد تلحظ، في شيء من عدم اللباقة الخاص بشباب اليوم، ثم استأنف وهو يضحك الحديث الذي بدأه.

قالت دولي:

– لم تترك لي ماشا لحظة أستريح فيها. إنها لم تكد تنام البارحة، وقد أصبحت متقلبة الأطوار.

أما الحديث الذي بدأ بين فاسيا وكيتي فكان نفس موضوع أول البارحة: كانا يتحدثان عن آنا ويتساءلان إذا كان يجوز أن يوضع الحب فوق المواضعات الاجتماعية. وكان هذا الحديث يرعب كيتي ويقلقها بموضوعه ذاته، وباللهجة التي يستخدمها فيسلوفسكي، ولا سيما بالأثر الذي كانت تعلم مسبقاً أنه سيحدثه في زوجها. لكنها كانت أكثر بساطة وبراءة من أن تعرف كيف تقطع هذا الحديث بل من أن تخفي هذا السرور السطحي الذي سببته بوادر اهتمام هذا الشاب بها. كانت تريد أن تضع حداً لهذه الأحاديث لكنها لم تعرف ما السبيل إلى ذلك. كانت تعلم أن كل ما ستفعله سيؤوله زوجها تأويلاً سيئاً. وبالفعل، فعندما سألت دولي عما أصاب ماشا، وأخذ فاسيا ينظر إلى دولي بلا مبالاة منتظراً انتهاء هذا الحديث الثقيل على نفسه، بدا سؤالها في نظر ليفين خالياً من العفوية ومثيراً بما فيه من نفاق.

سألت دولي:

– هل سنذهب اليوم للبحث عن الفطور؟

Tele: @Arab_Books

قالت كيتي وقد علتها الحمرة:

– أوه! نعم، سأذهب معكم.

وأرادت أن تسأل فاسيا على سبيل المجاملة إن كان سيأتي، لكنها لم تجرؤ.

وقالت لزوجها بلهجة المذنبة عندما مر أمامها بخطوات ثابتة:

– إلى أين تذهب، يا كوستيا؟

لقد ثبتت هيئتها المرتبكة جميع شكوك ليفين.

فأجابها دون أن ينظر إليها:

– وصل ميكانيكي أثناء غيابي، ولم أره بعد.

ونزل لكنه لم يكد يخرج من مكتبه حتى سمع خطوتها المعهودة وهي تنزل بسرعة متهورة.

سألها بجفاف:

– ماذا تريدين؟ نحن مشغولان.

قالت وهي تلتفت إلى الميكانيكي الألماني:

– اعذرني، فسوف أقول بعض الكلمات لزوجي.

أراد الألماني أن ينسحب، لكن ليفين قال له:

Tele: @Arab_Books

- لا تزعج نفسك.

سأله الرجل:

- موعد القطار في الساعة الثالثة، أعتقد؟ ولا أريد أن يفوتني.

لم يجبه ليفين وخرج مع زوجته. وقال لها بالفرنسية:

- ما بك؟ ماذا تريدين أن تقولي لي؟

لم يكن ينظر إليها في وجهها ولم يشأ، أن يرى أنها، بسبب من حالتها، أخذت ترتجف بكل أعضائها، وقد بدت مهدودة وجديرة بالرثاء.

فأجابته:

- إني... إني أردت أن أقول لك أن العيش غير ممكن على هذا النحو، وأن هذا عذاب...

فرد عليها بلهجة غاضبة:

- في غرفة الخدمة ناس، فلا تفضحينا.

- إذن تعال من هنا.

كانا يقفان في غرفة الانتظار. كانت كيتي تريد أن تنتقل إلى الغرفة المجاورة لكن الإنكليزية كانت تعطي تانيا درساً.

- فلنذهب إلى الحديقة.

Tele: @Arab_Books

في الحديقة، اصطدما بفلاح كان يمشط الممرات. كانا يتقدمان بخطوات سريعة، دون أن يخطر ببالهما أن هذا الرجل قد رأى وجهيهما المقلوبين، وأنهما يبدوان كمن يهربان أمام المصيبة؛ كانا يتقدمان وهما يحسان أن لا بدَّ لهما من المكاشفة، من أن يرد كل منهما الآخر عن ضلاله، من أن يبقيا وحدهما بضع دقائق ويتخلصا من همهما.

– لا يمكن العيش هكذا! إنه عذاب! إني أتألم، وأنت تتألم. ولماذا؟

قالت ذلك عندما بلغا مقعداً منعزلاً في ركن من ممر الزيزفون. فقال ها وهو يتخذ أمامها مرة أخرى الوضع الذي اتخذه في ذلك اليوم، وقبضتاه مشدودتان إلى صدره:

– قولي لي فقط هذا الشيء: ألم يكن في تصرفاته ما لا يليق، ما هو كريه، ما هو مذل؟

أجابت بصوت متهدج:

– نعم. لكنك تعلم جيداً أنني غير مذنبة! كنت أود، على الفور، أن أقابله بالأسلوب الذي يليق به، لكن هؤلاء الناس...

وقالت وهي تختنق وسط النحيب الذي هز جسدها المثقل:

– لماذا جاء؟ كنا سعيدين جداً!

دهش البستاني عندما رآهما يعودان من أمامه بوجهين وادعين ومشرقين، مع أنهما لم يكونا بحاجة إلى الهرب إذ لم يلحق بهما أحد، وأنهما لم يستطيعا أن يكتشفا على هذا المقعد ما يبعث على هذه السعادة البالغة.

Tele: @Arab_Books

-١٥-

بعد أن أوصل ليفين امرأته إلى حجرتها، مضى إلى شقة دولي. كانت داريا ألكسندروفنا مضطربة أيضاً في هذا اليوم. كانت تروح وتجيء في الغرفة وتتكلم بغضب إلى إحدى بناتها الصغار، وكانت واقفة تبكي في ركن الحجرة.

– ستبقين في هذا الركن طوال النهار، وستتعشين وحدك، ولن تري لعبة من لعبك، ولن أسمح بتفصيل ثوب جديد لك.

كانت تقول ذلك وهي لا تعلم أي عقاب تخترع.

وقالت لليفين وهي تلتفت إليه:

– آه! إنها طفلة رديئة! من أين جاءتها هذه الغرائز الشريرة؟

قال ليفين بشيء من اللامبالاة:

– هدئي نفسك، وماذا فعلت؟

كان يريد أن يسألها النصيحة وأسف لأنه لم يأتي في الوقت المناسب.

Tele: @Arab_Books

- ذهبت مع غريشا لقطف توت العليق هناك... لا أستطيع حتى أن أقول ماذا فعلت. كم أنا آسفة على الآنسة إيليوت. أما هذه فلا تلتفت إلى شيء... تصور أن الصغيرة...

وروت داريا ألكسندروفنا إساءات ماشا.

قال ليفين مهدئاً:

- هذا لا يدل على شيء، وليس من الغرائز الشريرة، في شيء. إنه مجرد شيطنة.

وسألته دولي:

- أنت، لا تبدو مطمئناً؟ لماذا جئت؟ وماذا يجري هناك؟

أحس ليفين، من اللهجة التي طُرح بها السؤال، أن من السهل عليه قول ما كان ينوي أن يقوله.

- لم أكن هناك. كنت وحدي مع كيتي في الحديقة. هذه هي المرة الثانية التي نتخاصم فيها منذ أن... وصل ستيفان.

فنظرت إليه دولي بعينين ذكيتين متفهمتين.

- قولي لي بكل صدق، أليس.... لا أقول لكيتي بل لهذا السيد... تصرف يشق على الزوج، لا يشق فحسب بل إنه غير محتمل، ومهين له.

- لا أدري كيف أقول لك؟...

Tele: @Arab_Books

وقالت لماشا التي تحركت لتستدير حين رأت ابتسامة خفية على وجه أمها:

– هلا بقيت في الركن!

أضافت:

– في المجتمع الراقي، يبدو كأنما يتصرف كما يتصرف جميع الشباب. إنه يغازل امرأة شابة وجميلة، والزوج ابن تلك الطبقة الراقية لا يجد في ذاك إلا ما يرضي غروره.

قال ليفين وهو بادي التجهم:

– نعم، نعم، لكن هل لاحظت ذلك؟

– لم ألاحظ أنا وحدي، بل ستيفا أيضاً. لقد قال لي بعد الشاي: «أعتقد أن فيسلوفسكي يغازل كيتي قليلاً».

فقال ليفين:

– ممتاز. لقد اطمأنت نفسي. سأطرده.

صاحت دولي مذعورة:

– ماذا أصابك، أأنت مجنون؟

وأضافت وهي تضحك:

– دع ذلك، كوستيا، وعُدْ إلى رشدك.

Tele: @Arab_Books

وقالت لماشا:

– طيب، تستطيعين أن تذهبي وتلقي «فاني» وأردفت مخاطبة ليفين.

– سأكلم ستيفان، إذا شئت. فسيذهب به. يمكن أن يقال له إنك تنتظر ضيوفاً. خلاصة القول إنه لا يلائم نمط بيتنا...

– لا، لا، سأتعهد أنا بذلك.

– لكن لا ينبغي أن تتخاصم وإياه؟

قال ليفين وعيناه تبرقان:

– أبداً. سيسليني ذلك كثيراً.

وقال وهو يشير على المذنبة الصغيرة التي لم تذهب لتلتقي «فاني»:

– هيا، اصفحي عنها، يا دولي!

ظلت البنت واقفة قبالة أمها، بادية التردد، ملقية عليها نظرات من تحت، ومنتظرة أن تتطلع أمها إليها.

ألقت الأم عليها نظرة سريعة. فأخذت تنتحب وخبأت وجهها في تنورة أمها. فوضعت دولي على رأسها يدها الناعمة والناحلة.

وفكر ليفين: «ما الجامع المشترك بين هذه الطفلة وبيننا؟» ومضى يبحث عن فيسلوفسكي.

Tele: @Arab_Books

عندما اجتاز غرفة الانتظار، أمر بإعداد العربة للتوجه إلى المحطة. فأجاب الخادم.

– انكسر أحد النوابض أمس.

– إذن أعدوا المركبة القديمة، لكن. بسرعة. أين الضيف؟

– في غرفته.

عندما دخل ليفين، كان فاسيا قد انتهى من حل أمتعته، وتنظيم أغانيه الجديدة، وكان يجرب لفافتين من أجل امتطاء الجواد.

أكان لوجه ليفين ذلك التعبير الخاص، أم أن فاسيا قد أدرك أن ذلك القليل من الغزل لم يكن في محله، في هذه الأسرة؟ فالواقع أنه أحس بالارتباك (على قدر ما يمكن لرجل من الطبقة الراقية أن يحس به) عند ظهور ليفين.

– أتمتطي الجواد بلفافتين؟

قال فاسيا وهو يضع ساقه الضخمة على الكرسي منهياً تزرير لفافتيه وعلى وجهه ابتسامة لطيفة:

– نعم، فهذا أنظف بكثير.

لا شك أنه كان فتى طيباً، ولقد خالج ليفين الإشفاق والندم عندما رأى الوجل في نظرة فاسيا.

كان على الطاولة قضيب كسروه في الصباح أثناء تمارينهم

Tele: @Arab_Books

الرياضية، وهم يحاولون تركيب العارضتين المتوازيتين اللتين انتفختا بفعل الرطوبة. تناول ليفين قطعة القضيب هذه وأخذ يكسر طرفها المشقوق، دون أن يعرف كيف يطرق موضوعه.

– كنت أود...

وصمت، لكنه تذكر فجأة كيتي وكل ما جرى، فنظر إليه بعزم في عينيه، وأنهى كلامه:

– لقد أمرت بربط الجياد من أجلك.

فقال فاسيا بدهشة:

– كيف؟ للذهاب إلى أين؟

قال ليفين وهو عابس وقد أخذ يقشر طرف القضيب:

– كي تقودك إلى المحطة.

– هل تعزم على السفر؟ هل حدث شيء؟

قال ليفين بعد أن فتت بين أصابعه القوية قطعة الخشب المكسرة.

– ما حدث هو أنني أنتظر ضيوفاً. على كل حال، إني لا أنتظر ضيوفاً ولم يحدث شيء، لكني أرجوك أن تنصرف. وفسر وقاحتي كما يحلو لك.

انتصب فاسيا وقال بوقار:

Tele: @Arab_Books

- أنت الذي أرجوه أن يفسر لي ذلك...

لقد فهم أخيراً.

وأردف ليفين بصوت بهيم، مباعداً بين المقاطع، ومحاولاً أن يخفي ارتجاف وجنتيه:

- لا أستطيع ذلك. ويجدر بك ألا تطرح علي أسئلة.

ونظراً لأن طرف القضيب المتشظي قد تنسل، فقد أقبل على الطرف الضخم، وكسر القضيب قسمين والتقط بعناية الجزء الذي وقع.

إن هاتين اليدين المتشنجتين، وهذه العضلات التي تعرفها هذا الصباح حتى في التمارين الرياضية، وهاتين العينين الملتمعتين، وهذا الصوت المخنوق، وهاتين الوجنتين المرتجفتين، إن ذلك كله أقنع فاسيا أكثر من الكلمات. فانحنى وهو يهز كتفيه بابتسامة مستخفة.

- أأستطيع أن أرى أوبلونسكي؟

لم يغتظ ليفين من هزه كتفيه ومن ابتسامته. وفكر: «لم يبق له ما يفعله غير ذلك».

- سأرسله إليك في الحال.

قال ستيفان أركاديفتش عندما لحق بليفين في الحديقة، بعد أن أنبأه صديقه بطرده.

Tele: @Arab_Books

– ما هذه الحماقة! لكن هذا مضحك! ما الذي حملك على ذلك؟ هذا مضحك للغاية! إذن، لأن شاباً...

لكن الدافع الذي حمل ليفين على ذلك ما يزال قائماً في نفسه، لذلك فقد امتقع عندما أراد ليفين أركاديفتش أن ينطلق في إيضاحاته، وعجل فقاطعه:

– أرجوك لا تعطني إيضاحاً! لا أستطيع أن أتصرف على نحو آخر! أنا متألم لك وله. لكنني أعتقد أنه سيتعزى عن ذلك بسهولة وحضوره يؤذينا. امرأتي وأنا.

– لكن هذه إهانة! ثم إن هذا مضحك!

– هذه إهانة لي أيضاً! وأنا لم أستحقها، ولا داعي لأن أتألم!

– آه! ما كنت أنتظر ذلك منك! يمكن للمرء أن يكون غيوراً، أما إلى هذا الحد فهذا مضحك للغاية!

انثنى ليفين عنه بسرعة ودلف إلى الممر حيث بقي يتمشى جيئة وذهاباً. وما لبث أن سمع صرير العربة القديمة ورأى من خلال الأشجار فاسيا جالساً على طبقة من القش (لسوء الحظ لم يكن في هذه العربة مقعد) يمر في الممر، واضعاً على رأسه قبعته الأيكوسية، وهو يهتز لدى كل رجة.

فكر ليفين وهو يرى خادماً يخرج راكضاً ليوقف العربة: «ما الأمر». كان ذلك الرجل هو الميكانيكي الألماني الذي نسيه ليفين

Tele: @Arab_Books

تماماً. قال هذا الرجل شيئاً لفيسلوفسكي وهو ينحني مراراً ثم صعد إلى العربة وابتعدا معاً.

استاء ستيفان أركاديفتش والأميرة من سلوك ليفين. وأحس هو نفسه لا بأنه مضحك إلى أعلى حدٍّ فقط بل وأيضاً بأنه مذنب وأنه في وضع مخز؛ لكنه حين فكر في الألم الذي عانته امرأته وعاناه هو أيضاً تساءل كيف سيتصرف في المرة القادمة، وأجاب نفسه بأنه سيتصرف تماماً كما تصرف الآن.

بالرغم من هذه الأحداث كلها، فإن الجميع، ما عدا الأميرة التي لم تصفح عن ليفين، كانوا فرحين ومنشرحين مثل الأطفال بعد العقاب، أو مثل الأشخاص الكبار بعد استقبال رسمي شاق. وفي المساء، عندما انصرفت الأميرة، تحدث الحاضرون عن طرد فيسلوفسكي كما يتحدثون عن حدث بعيد. واستطاعت دولي التي ورثت عن أبيها موهبة الفكاهة، أن تضحك فارنكا حتى تغرب في الضحك، عندما روت لها لثالث مرة ولرابع مرة، رواية جديدة في كل مرة، أنها كانت تستعد لأن تعلق عقدة من الأشرطة الجديدة على شرف ضيفهم وأنها دخلت القاعة عندما سمعت فجأة صرير العربة. ومن كان فيها؟ فاسيا نفسه بقبعته الأيكوسية وأغانيه الغرامية ولفافتيه، وهو يجلس على كومة من القش!

– كان يمكنك على الأقل أن تربط له العربة الجديدة! كلا!.. ثم أسمع: «قف!». وأعتقد أنهم قد أشفقوا عليه، وأنظر: فإذا بهم يحلون ألمانيا ضخماً بجانبه، ثم يذهبون به... وهكذا ذهبت الأشرطة هدراً!.

Tele: @Arab_Books

-١٦-

نفذت داريا ألكسندروفنا مشروعها وذهبت لترى آنا. لقد خشيت كثيراً أن تغم أختها أو تزعج زوج أختها. كانت تدرك أن لآل ليفين الحق في أن يأبوا التقارب مع فرونسكي لكنها كانت ترى من واجبها تذهب لزيارة آنا وأن تبرهن لها أن عواطفها لا يمكن أن تتغير رغم تبدل وضعها.

ولكي لا تقيد نفسها بآل ليفين، أرسلت تستأجر جياداً من القرية؛ لكن ليفين، حين علم، جاء ووبخها. قال لها:

– لماذا تعتقدين أنك تزعجيني بالذهاب إلى هناك؟ لو كان ذلك صحيحاً، لازداد غضبي حين أراك تستخدمين جياداً غير جيادي. وأنت لم تقولي لي قط أنك عاقدة العزم على الذهاب إلى هناك. وإذا استأجرت جياداً من القرية فإن ذلك سيغمني أولاً، وثانياً إنها لن توصلك إلى هناك. إن عندي جياداً، فخذيها إذا شئت ألا تجرحيني.

اضطرت داريا ألكسندروفنا أن تقبل، وفي اليوم المحدد أمر ليفي بإعداد عربة ذات أربعة جياد وأبدال غير أنيقة من خيل الركوب لكنها قادرة على أن توصل داريا ألكسندروفنا إلى غايتها في يوم واحد.

Tele: @Arab_Books

في هذا الوقت، كانت الحاجة ماسة إلى الجياد من أجل الأميرة التي ستنصرف ومن أجل القابلة؛ ولقد أحرج ذلك ليفين لكن واجبات الضيافة كانت تمنعه من أن يترك داريا ألكسندروفنا تستأجر جياداً، وفضلاً عن ذلك فإنه كان يعلم أن العشرين روبلاً التي ستدفعها دولي أجرة لهذه الرحلة كانت ضرورية لها. لأن ليفين وزوجته كانا معنيين بالهموم المالية لداريا ألكسندروفنا التي كانت رقيقة الحال، عنايتهما بهمومهما المالية ذاتها.

انطلقت داريا ألكسندروفنا، بناء على نصيحة ليفين، قبل الفجر. كانت الطريق حسنة، والعربة مريحة، والجياد تخب بفرح، وكان على المقعد، إلى جانب الحوذي، المحاسب الذي أرسله ليفين، لمزيد من الاطمئنان، عوضاً عن الخادم المرافق. وأغفت داريا ألكسندروفنا و لم تستفق إلا عندما اقتربوا من النزل الذي ستبدل فيه الجياد.

بعد أن تناولت داريا ألكسندروفنا الشاي عند الفلاح الموسر نفسه الذي توقف عنده ليفين عندما قصد إلى منزل سفياجسكي، وبعد أن تحدثت مع النساء عن الأولاد وسمعت الشيخ يثني على الكونت فرونسكي ثناءً عظيماً، استأنفت سيرها في الساعة العاشرة. لقد كانت في البيت مستغرقة في شؤون أولادها، فلم يتسن لها قط أن تفكر. أما خلال هذا السفر الذي مضى عليه أربع ساعات فإن جميع أفكارها المكبوتة انهالت على ذهنها، وفكرت في حياتها كما لم تفكر قط من قبل، وتأملتها من وجوهها كافة. وكانت هذه الأفكار تدهشها هي نفسها. مر ببالها أولادها قبل أي شيء آخر، وكانت قلقة بشأنهم، مع أن الأميرة وكيتي بخاصة، (وكانت تبني جل رجائها عليها) وعدا

Tele: @Arab_Books

بالإشراف عليهم. «بشرط ألا تعود ماشا إلى حماقاتها، وألا تصاب غريشا بلبطة أحد الجياد، وألا تصاب ليلي بعسر الهضم». ثم ما لبثت مشكلات الحاضر أن أخلت مكانها لمشكلات المستقبل القريب. قالت في نفسها: إنه يلزمها تغيير شقتها وتبديل أثاث قاعة الاستقبال وصنع فرو لابنتها الكبرى. ثم مثلت أمامها قضايا المستقبل الأبعد: كيف تسيّر أولادها كلاً في دربه وقالت في نفسها: «والأمر سهل مع البنات، أما الأولاد؟».

«إنني أهتم، في هذا الوقت، بغريشا، وهذا حسن جداً.. لكن ذلك ما كان إلا لأن لدي فراغاً في هذه الفترة، وأنني لست حاملاً. لا جدوى من الاعتماد على ستيفا، طبعاً. وإذا تيسر لي خدم صالحون استطعت أن أخلص الأولاد من هذا المأزق. وإذا حملت مرة أخرى...» وقالت في نفسها: كم كان غير صحيح أن يقال: إن لعنة حلت بالمرأة وهي: أن تلد في الألم. وفكرت وهي تتذكر آخر حمل لها وموت هذا الطفل الأخير: «الولادة ليست شيئاً، أما الحمل فهذا أرهب ما في الأمر». وتذكرت حديثها مع امرأة شابة في النزل، عندما سألتها إن كان عندها أطفال، فأجابتها تلك الفلاحة:

– كان عندي طفلة صغيرة، لكن الله خلصني منها، وقد دفناها أثناء الصوم الكبير.

فسألتها داريا ألكسندروفنا:

– وهل تأسفت كثيراً عليها؟

Tele: @Arab_Books

– الواقع لا. وللشيخ أحفاد كثيرون مثلها. الولد همّ على أهله. إنه لا يبقي لهم وقتاً للعمل أو لأي شيء آخر. هو عقبة تعرقلنا لا غير.

بدا هذا الجواب بغيضاً على داريا ألكسندروفنا بالرغم من ذلك السحر البريء الذي اتسمت به تلك المرأة؛ لكن هذه الكلمات عادت إلى ذاكرتها تلقائياً الآن. لقد كانت هذه الأحاديث الوقحة تحتوي على شيء من الحقيقة.

فكرت داريا ألكسندروفنا وهي تستعرض سنوات الزواج الخمس عشرة؛ «كانت هذه السنوات، على الإجمال: حملاً وغثياناً وتبلداً ولا مبالاة بكل شيء، وبشاعة مستمرة على الخصوص. إن كيتي ذاتها، مع ما هي عليه من شباب وسحر، قد غاض جمالها، أما أنا فإنني أغدو، أثناء الحمل، شنيعة؛ وأنا أعلم ذلك. الولادة، والألم، وعذاب الدقيقة الأخيرة... ثم الإرضاع، وليالي السهاد، وهذه الآلام المبرّحة...».

ارتعشت داريا ألكسندروفنا لمجرد أن تذكرت شقوق الثدي التي كانت تتألم منها مع كل ولد. «وتأتي بعد ذلك أمراض الأولاد، والقلق المستمر؛ ثم التربية، والميول الشريرة (تذكرت خطيئة ماشا الصغيرة في شجرة توت العليق)، والدراسة، واللاتينية: كل ذلك شديد الغموض والصعوبة. وأسوأ الأشياء موت الأطفال». ومرة أخرى طافت بخيالها الذكرى القاسية لوليدها الأخير الذي اختطفه الموت بالخنّاق، وذكرى دفنه، واللامبالاة العامة حول النعش الصغير الوردي، وألمها المفرد أمام ذلك الجبين الأبيض الصغير بصدغيه الجعدين، وذلك الفم الصغير المفترّ، المدهوش، اللذين لمحتهما لآخر مرة عندما أغلق غطاء التابوت المزين بصليب مزركش.

Tele: @Arab_Books

«و لِمَ ذلك كله؟ وما الغاية التي سيفضي إليها؟ إني لا أجد دقيقة أرتاح فيها: فأنا حامل تارة، ومرضع تارة أخرى، وأنا في جميع الأحوال شكسة، منهكة، كريهة على من حولي وعلى زوجي؛ كل ذلك لإنجاب أولاد تعسين، سيئي التربية، فقراء. لست أدري ماذا كنا سنفعل لو لم نقض الصيف عند آل ليفين. لا شك أن كيتي وكوستيا قد بلغا حداً من الرقة لم نتضايق معه؛ لكن ذلك لا يمكن أن يدوم وإذا صار لهما أولاد فلن يمكنهما مساعدتنا. وهما منذ الآن غير واسعي الثراء. ثم إن أبي الذي لم يحتفظ بشيء لنفسه لا يمكن أن يساعدني. وإذن فأنا لا أستطيع أن أربي أولادي، ولا بدَّ لي من اللجوء إلى الآخرين، وهذا مُذلّ. ولنسلّم بأن كل شيء يسير على ما يرام، وأنني لن أفقد أولادي، وأنني تدبرت شؤون تربيتهم بطريقة ما. إن أفضل ما أرتجيه هو ألا يتجهوا وجهة سيئة. وكم نعاني من آلام ونكابد من مشقات حتى نصل إلى هنا!... لقد ضاعت حياتي!». وتذكرت ما قالته لها المرأة الشابة، فأحنقتها هذه الذكرى من جديد؛ لكنها اعترفت بأن في كلماتها شيئاً من الحقيقة القاسية.

سألت المحاسب لكي تنصرف عن الأفكار التي أخذت تخيفها:

– أمانزال بعيدين، يا ميشيل؟

– يبدو أن هناك سبعة فراسخ أيضاً وراء القرية هناك.

بعد أن اجتازت العربة القرية، دلفت إلى جسر صغير كان يمر عليه في هذه اللحظة جمهور من النساء كن يتحدثن بمرح، وعلى ظهورهن رزمهن المحزومة. وقفن ليتطلعن إلى العربة وهي تمر بأعين فضولية.

Tele: @Arab_Books

كل هذه الوجوه التي التفتت إليها بدت سليمة، مليئة بالحياة؛ فغاظتها بالحياة والفرح اللذين تجليا فيها. وتابعت داريا ألكسندروفنا تفكيرها بعد أن تجاوزوا الفلاحات، وتسلقوا طريقاً صاعداً، وأخذ خبب الجياد يهدهدها مرة أخرى هدهدة عذبة على النوابض المرنة القديمة: «وأنا انفلتّ قبل قليل من هذا العالم الذي يقتلني، وكأنني أنفلت من سجن: الآن فقط استطعت أن أعود إلى نفسي للحظة قصيرة. كلهن: هؤلاء النسوة، وأختي ناتالي، وفارنكا، وآنا التي أنا ذاهبة إليها، يعرفن ما الحياة، كلهن ما عداي...».

«إنهم يحملون على آنا، لماذا؟ أأنا خير منها؟ أنا، على الأقل، لي زوج أحبه. لا كما أريد، لكنني أحبه، بينما لا تحب آنا زوجها. وفيم هي مذنبة؟ إنها ترغب في أن تحيا. الله هو الذي زرع هذه الرغبة في نفوسنا. ربما كنت سأتصرف مثلها. وإني لأتساءل إن كنت قد أحسنت صنعاً حين أصغيت إليها في تلك الفترة الكريهة التي جاءت فيها لتراني في موسكو. كان جديراً بي أن أهجر زوجي آنذاك وأن أبدأ منذ البداية. كنت أستطيع أن أحب وأن أكون محبوبة. وهل حالي أفضل الآن؟ إني لا أقدر زوجي، أنا بحاجة إليه وأنا أتحمله. أهذا أفضل؟ كنت أستطيع آنذاك أن أعجِبَ، كان ما يزال لي جمالي». كذلك كانت تفكر داريا ألكسندروفنا، واشتهت أن تنظر في المرآة. وكان في حقيبتها مرآة صغيرة للسفر، فراودتها نفسها في أن تخرجها؛ لكنها بعد أن رأت ظهر السائق، والمحاسب المهتز على مقعده، أحست أنها ستستحي لو التفت أحدهما إلى الوراء، فامتنعت عن إخراجها.

لكنها كانت تفكر، حتى لو لم تنظر إلى مرآتها، في أن الأوان

Tele: @Arab_Books

لم يفت بعد؟ وتذكرت سيرج إيفانوفتش الذي كان شديد اللطف معها، وصديق ستيفا، توروفتسين الطيب الذي ساعدها على العناية بأولادها عندما أصيبوا بالحمى القرمزية، والذي كان مغرماً بها. وكان هناك شاب رأى، بحسب ما روى لها زوجها مازحاً، أنها أجمل من أختيها. وتوافدت إلى ذهنها أشد القصص هياماً واستحالة. «أحسنت آنا صنعاً، ولست أنا التي سترميها بحجر، إنها سعيدة، وهي تُسعد رجلاً آخر؛ وهي لم تتبلد مثلي، ولا شك أنها ما تزال غضة، خفيفة الروح، منفتحة، كما كانت من قبل». وداعبت شفتي داريا ألكسندروفنا، ابتسامة ماكرة وهي تبني قصة موازية لقصة آنا، شبيهة بها مع رجل من نسيج خيالها، يهيم حباً بها. وهي تعترف بكل شيء لزوجها كما اعترفت آنا. أما دهشة زوجها وارتباكه عند سماع هذا النبأ فيحملانها على الابتسام.

ظلت مستغرقة في أحلام اليقظة هذه حتى وصلت إلى ملتقى طرق، إلى الطريق الذي يوصل إلى «فوزد فيجنسكوي».

Tele: @Arab_Books

-١٧-

أوقف الحوذي جياده وألقى نظرة سريعة إلى اليمين، نحو حقل من الشيلم جلس فيه فلاحون بقرب عربة. أراد المحاسب أن يقفز عن مقعده، لكنه غير رأيه وصاح بلهجة الأمر الحاسم مشيراً إلى أحد الفلاحين أن يقترب. لقد هدأ الآن، بعد أن توقفوا، النسيم الذي كان يهب عليهم أثناء سيرهم؛ وجاءت النعرات بأعداد كبيرة لتلتصق بظهور الجياد التي غطاها العرق والتي كانت تحاول التخلص منها. وتوقف فجأة الصوت المعدني لمنجل كان الحاصد يضرب به قرب العربة. نهض أحد الفلاحين ودنا من العربة.

صاح المحاسب بلهجة فظة مخاطباً الفلاح الذي كان يتقدم ببطء، حافي القدمين، على الأرض الوعرة والجافة:

– ما لك لا تتحرك، هل نبتت لك جذور في الأرض! أتريد أن تأتي، نعم أم لا؟

حث الرجل خطاه، وكان شيخاً جعد الشعر الذي ثبته برباط من قشر الشجر، محدودب الظهر، مسوداً من العرق، وأدرك العربة، وتشبّثت يده الملوّحة بواقية الوحل، وردد قائلاً:

Tele: @Arab_Books

– تريد فوزدفيجنسكوي، منزل الأسياد؟ منزل الكونت؟ ليس عليك إلا أن تصعد هذا المرتفع. ثم تنعطف إلى اليسار. وستلقى الممر، وهناك بيته. من تريد أن ترى؟ الكونت نفسه:

قالت داريا ألكسندروفنا دون تدقيق، لأنها لم تعلم كيف تستخبر هذا الفلاح عن آنا:

– أهم في بيتهم، يا صاحبي؟

قال الرجل وهو يتمايل من قدم إلى أخرى وقد انطبع التراب بأثر باطن قدميه مع الأصابع الخمس.

– أظن أنهم هنا.

وردد وهو ظاهر الحرص على أن يستفيض في الحديث عنهم:

– أظن أنهم هنا. البارحة بالذات كان عندهم ضيوف. إنهم يستقبلون كثيراً من الناس...

والتفت إلى فتى جالس قرب العربة كان يصرخ بشيء له:

– ماذا تريد؟

واستأنف كلامه:

– آه! نعم، صحيح! لقد مروا من هنا على ظهور الجياد، وكانوا ذاهبين إلى رؤية الحصادة. ولا بدَّ أنهم عادوا الآن، وأنتم من أين تأتون؟

Tele: @Arab_Books

قال الحوذي وهو يعود إلى مقعده:

– من بعيد... إذن، فهم غير بعيدين من هنا؟

قال وهو يطبطب بيده على الواقية من الوحل:

– بما أنني أقول لك أنك وصلت. فما أن تقطع السفح...

دنا منه فلاح قوي، قصير وسمين، وسأل بدوره:

– هل سيكون هناك عمل لإدخال الحصاد؟

– لست أدري، يا صاحبي.

قال الفلاح الذي بدا عليه أنه ترك المسافرين يذهبون بالرغم منه لأنه كان يود لو يحدثهم قليلاً:

– وهكذا، فهمت، انعطف إلى اليسار تصل رأساً.

حث الحوذي جياده لكنه لم يكد يدخل في المنعطف حتى ناداه الفلاح وصوت آخر:

– قف، يا صاحبي، قف!

فوقف الحوذي. وصرخ الفلاح:

– ها هم! هناك.

وتابع وهو يشير إلى أربعة فرسان يقتربون على الطريق ومعهم عربة ذات مقاعد:

Tele: @Arab_Books

- إنهم جماعة كبيرة.

وكانت الجماعة فرونسكي وفارس من فرسان السباق، وآنا وفيسلوفسكي على الجياد، ثم الأميرة بربارة وسفياجسكي على العربة ذات المقاعد. وكانوا قد ذهبوا ليروا كيف تعمل الحصادات التي أُدخلت حديثاً إلى أملاك فرونسكي.

عندما توقفت العربة، سار الفرسان الهوينا. جاءت آنا في المقدمة مع فيسلوفسكي. كانت تتقدم ببطء على جواد إنكليزي صغير، قصير الذيل، مقصوص العرف، ولقد راع دولي رأسها الجميل المغطى بقبعة عالية تفلت منها شعرها الأسود، وكتفاها المدوران، وقامتها المشدودة بلباس الفرسان الأسود، وهيئتها الهادئة والرشيقة.

بدا لها، في اللحظة الأولى، من غير اللائق أن تمتطي آنا جواداً. فالفروسية بالنسبة إلى المرأة ترتبط، في ذهن داريا ألكسندروفنا، بفكرة الغنج الطائش الذي لا يتفق ووضع آنا؛ لكنها عندما رأتها عن كثب، تبدد عداؤها للفروسية. وبالرغم من أناقة آنا، كان كل شيء بالغ البساطة والهدوء والوقار في وضعيتها وثيابها وحركاتها بحيث بدا كل شيء أقرب ما يكون إلى الطبع.

وإلى جانب آنا، جاء فاسيا فيسلوفسكي، على جواد أشهب جامح، وساقاه الربلتان ممدودتان إلى الأمام، وكأنه شديد الاعتزاز بنفسه، وعلى رأسه قبعة إيكوسية ذات شريطين خفاقين، ولم تستطع داريا ألكسندروفنا أن تكبت ابتسامة ماكرة عندما تعرفته، وكان فرونسكي يتبعها، ويمتطي جواداً أصيلاً كميتاً مائلاً إلى السمرة قد اهتاج وهو يخب من غير شك. وكان يكبحه وهو يشد لجامه.

Tele: @Arab_Books

وخلفه جاء رجل قصير بلباس فرسان السباق؛ أما سفياجسكي والأميرة فقد كانا يلحقان بالفرسان في عربة جديدة ذات مقاعد يجرها حصان أسود قوي.

استضاء فجأة وجه آنا بابتسامة مشرقة عندما تعرفت إلى دولي في ذلك الشخص الصغير القابع في ركن العربة القديمة. أطلقت صرخة وارتعشت وحثت جوادها؛ فلما صارت بحذاء العربة، وثبت عن جوادها دون مساعدة أحد، وأقبلت على دولي راكضة، وهي ترفع ثيابها. وقالت وهي تضغط وجهها على وجه دولي تارة، وتبعدها عنها تارة أخرى لتتأملها والابتسامة على شفتيها:

– كان صحيحاً ما بدا لي، لكنني ما كنت أجرؤ على أن أصدق عيني. ما أشد فرحي! لا تستطيعين أن تتصوري ما تسببينه من ابتهاج.
وقالت وهي تلتفت إلى فرونسكي الذي ترجل لينضم إليهما:

– انظر، ألكسي ألكسندروفتش، ما أعظم سعادتي!

دنا فرونسكي من دولي وهو يرفع قبعته العالية الرمادية، وقال وهو يشدد على كل كلمة من الكلمات التي يقولها، كاشفاً عن أسنانه السليمة والبيضاء:

– لا تستطيعين أن تتصوري مقدار الفرح الذي تبعثه زيارتك فينا.

رفع فاسيا فيسلوفسكي قبعته دون أن يترجل، وحيا القادمة الجديدة وهو يهزها بسرور فوق رأسه.

قالت آنا جواباً عن نظرة دولي المستفهمة عندما صارت العربة ذات المقاعد على مقربة منهما:

Tele: @Arab_Books

– هذه هي الأميرة بربارة.

قالت دولي:

– آه!

وعبر وجهها عن الامتعاض.

كانت الأميرة بربارة إحدى عمات زوجها؛ وقد عرفتها منذ زمن بعيد و لم تكن لها احتراماً. وكانت تعلم أن الأميرة بربارة قضت حياتها كلها عالة على الأقارب الأثرياء؛ وكونها تعيش الآن في منزل فرونسكي، وهو لا يخصها، جرح دولي من أجل عائلة زوجها. لاحظت آنا تعبير وجهها، فاضطربت واحمرت، وفلت ذيل ثوب الفروسية من يدها وتعثرت قدماها به.

جاءت داريا ألكسندروفنا إلى العربة ذات المقاعد وحيّت الأميرة ببرودة. وكانت تعرف سفياجسكي أيضاً. فسألها عن أحوال صديقه الغريب الأطوار وزوجته الشابة، وبعد أن ألقى نظرة سريعة على العربة القديمة غير المتجانسة وعلى واقيتها المرقعة، عرض على السيدتين أن تصعدا إلى العربة ذات المقاعد. وقال:

– أنا سأذهب في تلك العربة. الجواد هادئ والأميرة تحسن القيادة.

قالت آنا التي دنت منهما:

– لا، ابقيا كما كنتما. وسنذهب في عربة دولي.

وأمسكت بذراع دولي وقادتها إلى العربة.

Tele: @Arab_Books

بهرت داريا ألكسندروفنا بالعربة الأنيقة والجياد الجميلة والناس المتألقين الذين أحاطوا بها. لكن الذي راعها على وجه الخصوص هو التحول الذي طرأ على عزيزتها آنا التي كانت تعرفها جيداً. إن امرأة غيرها أقل تنبهاً منها، لم تعرف آنا من قبل و لم تقلّب في رأسها تلك الأفكار التي قلبتها داريا ألكسندروفنا أثناء سفرها، ما كانت لتلاحظ شيئاً خاصاً لدى آنا. لقد فتنت دولي بهذا الجمال الخاطف الذي لا يشاهد لدى النساء إلا في لحظات الحب والذي رأته الآن على وجه آنا. كان كل شيء في وجهها: وضوح الغمازات في وجنتيها وذقنها، طية الشفتين، الابتسامة التي كانت كأنها تحوم حول قسماتها، بريق عينيها، رشاقة حركاتها وحيويتها، امتلاء جرس صوتها، وحتى لهجتها الناترة التي أجابت بها فيسلوفسكي الذي استأذنها في امتطاء جوادها الإنكليزي ليعلمها الجري بالرجل اليمنى، كل ذلك كان بالغ الفتنة، وكانت آنا كأنما تشعر به وتجد مسرة به.

عندما صعدتا إلى العربة أحست المرأتان فجأة بالضيق. لم ترتح آنا للنظرة المتمتعة والمتسائلة التي حدجتها بها دولي. وكانت دولي من جهتها خجلة، بعد ملاحظة سفياجسكي، بالعربة العتيقة المغبرة التي جلست فيها آنا معها. وخالج الحوذي والمحاسب الشعور نفسه. وكان المحاسب شديد التلطف مع السيدتين ليخفي اضطرابه، أما الحوذي فكان مكفهر الوجه، لقد أخذ على نفسه ألا يغتر بهذا البريق الخادع. وابتسم ابتسامة ساخرة لذلك الجواد الأدهم، وقرر في نفسه أن مثل هذا الحصان الذي يقود عربة ذات مقاعد صالح فقط للتنزه، لكنه لا يستطيع أن يقطع أربعين فرسخاً في حر الصيف.

Tele: @Arab_Books

وقف جميع الفلاحين الذين أحاطوا بالعربة، وأخذوا يتأملون هذا اللقاء بفضول ويبدون عليه ملاحظاتهم.

قال الشيخ ذو الشعر الجعد الذي ثبته بلحاء الشجر:

– إنهم مسرورون، فهم لم يتلاقوا منذ زمن طويل.

– قل لي، يا عم جيراسيم، أليس الجواد الأدهم ملائماً لإدخال الأكداس، كان سينتهي منها بسرعة!

قال أحدهم وهو يشير إلى فاسيا فيسلوفسكي الذي استقر على سرج السيدة:

– أوه! انظر إلى هذه ببنطال الفارس، أهي امرأة؟

– كلا، هذا رجل. أرأت كيف امتطى الجواد بخفة!

– هيا، يا شباب أهذا وقت الاستراحة؟

قال الشيخ وهو يلقي بمؤخرة عينه نظرة نحو الشمس:

– حان وقت العمل! تجاوزنا الظهر. خذوا مناجلكم وهيا إلى العمل.

Tele: @Arab_Books

-١٨-

نظرت آنا إلى وجه دولي المهزول والمتعب الذي أبرز الغبار تجاعيده، وأرادت أن تقول لها ما فكرت فيه، وهو أنها هزلت؛ لكنها تذكرت أنها هي نفسها ازدادت جمالاً وأن نظرة دولي كانت تنبئها بذلك، فتنهدت وجعلت الحديث عنها هي نفسها.

قالت وهي تنظر إلى دولي بابتسامة وجلة ومستفهمة:

– إنك تنظرين إلي وتتساءلين إذا كنت أستطيع أن أكون سعيدة في وضعي؟ إني لأخجل من الاعتراف بذلك لكني... لكني سعيدة على نحو لا يغتفر. إن فيما أصابني شيئاً من السحر؛ أصابني ما يصيب المرء الذي يستيقظ من كابوس مرعب ويحس أن أسباب الرعب قد زالت. لقد استيقظت. لقد عشت بعد تلك الفترة الفظيعة. وأنا الآن، ولا سيما منذ أن صرنا هنا، سعيدة أعظم السعادة!

قالت دولي، وهي تبتسم، بلهجة أشد برودة مما أرادت:

– أنا مغتبطة بذلك! أنا سعيدة به. لماذا لم تكتبي إلي؟

– لماذا؟... لأنني لم أجرؤ... أتنسين وضعي؟

Tele: @Arab_Books

– ألم تجرئي على الكتابة إلي! لو كنت تعلمين... كم أقدر...

أرادت داريا ألكسندروفنا أن تصارحها بأفكار الصباح، لكن ذلك بدا لها في غير محله. وسألتها، وهي حريصة أن تغير الحديث، وأشارت إلى سطوح خضراء وحمراء كانت تتراءى وراء أسيجة حية من أشجار السنط والليلك:

– على كل حال، سنتحدث عن ذلك فيما بعد. ما هذه الأبنية؟ كأنها مدينة صغيرة.

لكن آنا لم تجبها، وسألتها:

– لا، لا، ما رأيك في وضعي؟

شرعت داريا ألكسندروفنا تقول:

– أقدّر...

في هذه اللحظة مر بقربهما فاسيا فيسلوفسكي وقد أطلق العنان للحصان الإنكليزي، وأخذ يعلو ويهبط بإيقاع على الجلد المدبوغ للسرج النسائي. وصاح:

– كيف الحال، آنا أركادييفنا؟

لكن آنا لم توله انتباهاً. بيد أن داريا ألكسندروفنا أحست مرة أخرى أن من العسير أن تبدأ ذلك الحديث الطويل في العربة، ولذلك اختصرت الفكرة:

Tele: @Arab_Books

– إني لا أقدر شيئاً. لقد أحببتك دائماً، وعندما تحب إنساناً فإنما نحبه كله، كما هو، لا كما نريد أن يكون.

انصرفت آنا بنظرتها عن وجه صديقتها، وغمزت بعينيها (وهي عادة جديدة لم تعهدها دولي فيها من قبل) وأخذت تفكر، وهي تحرص على أن تفهم فهماً تاماً معنى كلماتها. ثم نظرت إلى دولي بعد أن بدا عليها أنها فهمتها كما يطيب لها أن تفهمها. وقالت لها:

– إن كان ضميرك يؤنبك على بعض زلاتك. فسوف تغفر لك بسبب زيارتك وهذه الكلمات.

ورأت دولي الدموع تترقرق في عينيها. فشدت على يد آنا دون أن تنبس بكلمة. ورددت بعد دقيقة صمت:

– لم تقولي لي ما هذه الأبنية؟ فما أكثرها!

أجابت آنا:

– هذه بيوت الخدم، ومرابط الخيل والاصطبلات. الحديقة تبدأ من هنا. كل ذلك كان مهجوراً، لكن ألكسي ألكسندروفتش استصلحه. إنه يحب كثيراً هذه الأملاك، ولقد دهشت دهشة عظيمة حين رأيته يشغف بالاستثمار الزراعي. إنه غني بمواهبه. فهو يجيد كل ما يباشره. وهو يقبل بشغف على ما يفعله ولا يمل. لقد أصبح مقتصداً، وملاكاً ممتازاً، بل وبخيلاً... لكن في استثماره فقط، لأنه ينفق دون حساب عشرات آلاف الروبلات.

Tele: @Arab_Books

قالت ذلك بابتسامة مشرقة هي ابتسامة النساء اللواتي يتحدثن عن بعض السمات الخلقية في الرجل الذي يحببنه. وأضافت:

– أترين هذا المبنى الكبير؟ إنه مستشفى جديد. أعتقد أنه سيكلف أكثر من مائة ألف روبل. هذه هي فكرته المفضلة في الوقت الراهن. هل تعلمين من أين جاءته هذه الفكرة؟ طلب إليه بعض الفلاحين أن يتنازل لهم عن مرج له بسعر زهيد؛ فرفض ولمته على بخله. بالطبع ليس هذا هو السبب الوحيد وإنما هناك جملة أسباب؛ لقد شرع في بناء هذا المستشفى ليظهر أنه يمكن أن يكون كريماً، أتفهمين؟ تلك حقارة إذا شئت، لكن حبي له يزداد بسببها. والآن سترين البيت؛ إنه من عهد جديد، ولم يغير شيئاً في ظاهره.

قالت دولي وهي تتأمل بإعجاب بيتاً ذا أعمدة يبرز في خضرة أشجار قديمة:

– ما أجمل هذا البيت!

– أرأيت؟ والمنظر بديع من الطابق الأول.

دخلتا باحة مفروشة بالحصى ومزينة برياض الأزهار سورها بستانيان بإطار من الحجارة المنخورة. ووقفنا أمام درج المدخل المغطى.

قالت آنا وقد رأت جياد الركوب تساق إلى الاصطبل:

– آه! لقد وصلوا! ما أجمل هذا الجواد أليس كذلك؟ إنه جواد إنكليزي وهو جوادي المفضل. ائتني به وأعطني شيئاً منا لسكر.

Tele: @Arab_Books

وسألت خادمين بلباسهما الرسمي هرعاَ إلى لقائهما:

– أين الكونت؟

وأضافت وهي تشاهد فرونسكي وفيسلوفسكي يقبلان عليهما:

– ها هما، هناك!

قال فرونسكي لآنا بالفرنسية:

– أين ستنزلين الأميرة؟

ودون أن ينتظر الجواب، حيا الأميرة من جديد، وقبّل يدها هذه المرة. وأضاف:

– في الغرفة الكبرى ذات الشرفة، ربما؟

قالت آنا وهي تطعم جوادها المفضل سكراً حمله الخادم إليها:

– أوه! لا، هذه شديدة البعد! بل في غرفة الزاوية، نستطيع فيها أن ترى إحدانا الأخرى أكثر. هيا بنا إليها.

وقالت لفيسلوفسكي الذي كان يتقدم على درج المدخل:

– وأنت تنسى واجبك.

فأجاب وهو يبتسم ويدس أصابعه في جيب صدرته:

– عفواً، فجيوبي ملأى به.

Tele: @Arab_Books

وأردفت وهي تجفف بمنديلها يدها التي بللها الجواد وهو يتناول السكر:

– لكنك جئت بعد فوات الأوان.

والتفتت آنا إلى دولي وقالت:

– هل تنوين البقاء طويلاً؟ يوماً واحداً؟ هذا غير ممكن!

قالت دولي وقد ارتبكت حين أخرجت حقيبة سفرها المتواضعة من المركبة وحين أحست أن وجهها لا بدَّ أن يكون مغطى بالغبار:

– وعدت بذلك، والأولاد...

– لا، دولي يا عزيزتي... لكن سنرى. هيا، هيا!

وقادتها آنا إلى غرفتها.

لم تكن هذه الغرفة فخمة كالتي عرضها فرونسكي، واعتذرت آنا لذلك، لكنها كانت أفخم من كل الغرف التي سكنتها دولي من قبل، وقد ذكّرتها بأجمل الفنادق في الخارج.

قالت آنا التي جلست لحظة بجنب دولي وهي بلباس الفرسان:

– آه! ما أسعدني بك، يا عزيزتي! حدثيني عن ذويك. رأيت ستيفا وهو مستعجل. لكنه لا يحسن الكلام على الأولاد. كيف صارت تانيا، طفلتي المفضلة؟ لا شك أنها غدت بنتاً كبيرة الآن؟

Tele: @Arab_Books

أجابت دولي بإيجاز وهي مدهوشة لأنها تكلمت على أولادها بهذه البرودة:

- نعم، لقد كبرت كثيراً.

وأضافت:

- نحن مسرورون جداً في منزل آل ليفين.

قالت آنا:

- لو قد علمت أنك لا تحتقرينني لكان ينبغي أن تأتوا جميعاً إلى هنا.

وأضافت وهي تحمر فجأة:

- ستيفان صديق قديم لألكسي.

أجابت دولي وهي مرتبكة:

- نعم، لكننا مسرورون جداً هناك.

- صحيح، فالفرح يحملني على قول هذه الحماقات. ما أسعدني برؤيتك، يا صديقتي!

قالت ذلك وعانقت زوجة أخيها. وأضافت:

- لم تقولي لي بعد ما رأيك فيّ وأحب أن أعلم كل شيء. لكنني

Tele: @Arab_Books

مسرورة لأنك ترينني كما أنا. وأود على الخصوص ألا يعتقد أحد أنني أحب التدليل على شيء ما. لست أريد التدليل على شيء، وإنما أريد أن أعيش،، دون أن أسيء إلى أحد إلا إلى نفسي. وهذا من حقي، أليس كذلك؟ على كل حال، هذه قصة طويلة، وسنتحدث عن ذلك كله على مهل. سأبدل ثيابي، وسأرسل لك الخادمة.

Tele: @Arab_Books

-١٩-

مرة واحدة فقط، فحصت داريا ألكسندروفنا غرفتها كربّة بيت. فكل ما رأته وهي تقترب من هذا المسكن وتعبره، كان يحمل أمارات الثراء والأناقة وهذا الترف الأوروبي الحديث الذي عرفته من خلال الروايات الإنجليزية، وهي لم تر قط في ريف روسيا شيئاً شبيهاً بهذا. كان كل شيء جديداً بدءاً من الورق الفرنسي المصور حتى السجاد الذي يغطي الأرض. وكان السرير على نوابض، مع لحاف صغير، ومخدة غريبة ووسائد صغيرة بوجوه من الحرير الطبيعي. وكانت طاولة الزينة من المرمر، أما الكرسي الطويل والمناضد والساعة الجدارية البرونزية والستائر والسجوف فكانت كلها جديدة وثمينة.

وكانت الخادمة الأنيقة التي جاءت تعرض خدماتها والتي بدت أقرب إلى الزي العصري من دولي بزينة رأسها وثوبها، جديدة وباهظة الثمن مثل سائر ما في الغرفة. وقد فتنت داريا ألكسندروفنا بأدبها ومجاملتها لكنها كانت تضيق صدراً بصحبتها؛ وكانت تستحي أمامها من قميص النوم المرتق الذي حملته معها خطأً. كانت حمرة الخجل تعلوها من هذه الرقع ومن ذلك الرتق، وكانت فخورة بذلك في بيتها. كان من الواضح، في البيت أن ستة قمصان تحتاج إلى أربعة

Tele: @Arab_Books

وعشرين ذراعاً من القماش القطني الهندي بخمسة وستين كوبيكاً، أي ما مجموعه خمسة عشر روبلاً ونيف، ما عدا التفصيل والزخرفة، وهو مبلغ توفره. لكنها أحست أمام هذه الخادمة بالارتباك إن لم يكن بالذل.

شعرت داريا ألكسندروفنا بالتخفف عندما دخلت إلى الغرفة آنوشكا التي عرفتها من زمن بعيد. لقد استُدعيت الخادمة الفرنسية إلى غرفة معلمتها وظلت آنوشكا مع داريا ألكسندروفنا.

بدا على آنوشكا اغتباطها بقدوم دولي فاستفاضت في الكلام. ولاحظت دولي أنها ترغب في الإعـراب عن رأيها حول وضع سيدتها، ولا سيما عن الحب والإخلاص اللذين يظهرهما الكونت لآنا أركادييفنا، لكن دولي كانت توقفها بفطنة منذ أن تتطرق إلى هذا الموضوع.

– لقد ربتني آنا أركادييفنا، وهي أعز علي من كل شيء. ليس لنا الحق في الحكم، أليس كذلك؟ ويبدو عليها أنها تحبه كثيراً...

فتقاطعها داريا ألكسندروفنا:

– إذن ستغسلين لي هذا، أرجوك، إن أمكن.

– حاضر، يا سيدتي. إن عندنا هنا غسالتين، والغسيل إنما يغسل على الآلة. إن الكونت يشرف بنفسه على كل شيء. وزوج كهذا الزوج...

Tele: @Arab_Books

سُرَّت دولي عندما دخلت آنا ووضعت بذلك حداً لثرثرة آنوشكا.

كانت آنا لابسة ثوباً بسيطاً جداً من «الباتستة». فحصت دولي هذه الزينة بإمعان. وكانت تعلم ما تعنيه وما تكلفه هذه البساطة.

قالت آنا مشيرة إلى آنوشكا:

– إنها صديقة قديمة.

لم تُظهر آنا أي ضيق، وبدت جد طبيعية وجدّ هادئة. ورأت دولي أنها قد تمالكت نفسها بعد الانفعال الذي أحدثه فيها قدومها، وأنها اصطنعت هذه اللهجة السطحية واللامبالية التي تغلف باب الحجرة التي تحتوي على عواطفها وأفكارها الحميمة.

سألتها دولي:

– كيف حال ابنتك، آنا؟

– آني؟ إنها بصحة جيدة. لقد ازدادت حسناً. أتريدين أن تريها؟ تعالي، سأريك إياها. عندنا مرضع إيطالية؛ وهي امرأة طيبة، لكنها غبية جداً كنا نرغب في صرفها، لكن الصغيرة تعودت عليها، فاستبقيناها.

أرادت دولي أن تسألها عن كنية الطفلة:

– كيف تدبرتِ الأمر...

لكنها لحظت أن وجه آنا ما لبث أن تجهم فغيرت السؤال:

Tele: @Arab_Books

– وهل فطمتها منذ الآن؟

لكن آنا فهمت، وقالت:

– ليس هذا ما كنت تنوين أن تسألي عنه؟ كنت تلمحين إلى كنيتها، أليس كذلك. ليس لها من اسم.

وأردفت وهي تغضن عينيها بحيث لم يبق منها سوى رموشها المضمومة:

– عنيت أنها ستسمى... كارينينا. على كل حال (وهنا استضاء وجهها فجأة) سنتكلم على ذلك فيما بعد. تعالي، سأريك إياها. إنها لطيفة جداً. لقد أخذت تحبو.

في غرفة الأطفال، ازدادت دهشتها بهذا الترف الذي راعها في البيت كله. كان فيها عربات صغيرة طلبت من إنكلترا، وأجهزة تعلم المشي، وأريكة مصنوعة بشكل طاولة البليار يستطيع أن يتنقل فيها الطفل وهو يحبو، وأراجيح ومغطساً جديداً غريب الشكل. كان ذلك كلها إنكليزياً، متيناً، من الصنف الممتاز، الباهظ الثمن، كما هو واضح. وكانت الغرفة واسعة، عالية السقف جداً ومضيئة جداً.

عندما دخلتا كانت الطفلة جالسة بقميصها في مقعد صغير أمام الطاولة، تأكل حساء فاض على صدرها كله. وكانت تطعمها وتتناول طعامها معها خادمة روسية مخصصة للحضانة. ولم تكن المرضع ولا المربية في الغرفة؛ وإنما كانتا في الغرفة المجاورة تتحدثان بلغة فرنسية منكرة، وهي اللغة الوحيدة التي تستطيعان التفاهم بها.

Tele: @Arab_Books

دخلت المربية الإنكليزية على عجل وهي تهز خصلات شعرها، وكانت امرأة مديدة القامة، أنيقة، كريهة الوجه، مريضة السحنة، وأخت تعتذر على الفور. مع أن آنا لم تلمها على شيء. وكانت الإنكليزية تجيب مرات وبسرعة عن كل كلمة تقولها آنا: «نعم يا سيدتي».

فَتَنتْ الصغيرة داريا ألكسندروفنا بلونها المتوهج، وسواد حاجبيها وشعرها، وجسدها الصغير، المتين، الأحمر، بالرغم من الهيئة الصارمة التي تفرست بها في القادمة الجديدة؛ بل إن دولي حسدتها على حسن وجهها. وأعجبت كثيراً بطريقة الصغيرة في الحبو أيضاً. فلم يحب أي من أولادها مثل هذا الحبو. وكانت الصغيرة بالغة الملاحة وهي جالسة على السجادة وقد شُمر ثوبها الصغير. كانت كالحيوان الصغير، تنظر إلى الناس بعينيها السوداوين الملتمعتين، وهي ظاهرة الرضا عن إعجاب الناس بها. كانت تباعد بين ساقيها وهي تبتسم، وتستند بقوة على يديها، وتقدم بسرعة مؤخرة جسدها، ثم تندفع مرة أخرى بيديها إلى الأمام.

لكن جو الحضانة ولا سيما الإنكليزية لم يعجبا داريا ألكسندروفنا أبداً. وقالت في نفسها: إن آنا لم تسترق هذه المرأة الكريهة غير الجديرة بالاحترام بالقرب من صغيرتها، مع معرفتها بالناس، إلا لأن أي شخص لائق سيرفض الخدمة في مثل هذه الأسرة غير الشرعية وأكثر من ذلك، لقد أدركت دولي من بضع كلمات أن آنا والمرضع والمربيات كن غريبات الواحدة عن الأخرى، وأن زيارة آنا كانت حدثاً غير مألوف. و لم تستطع آنا أن تعثر على لعبة كانت تبحث عنها للطفلة.

Tele: @Arab_Books

وأخيراً، فعندما سألتها كم عدد أسنان ابنتها، أخطأت آنا (ودهشت دولي من جراء ذلك): كانت تجهل أن للصغيرة سْنين جديدين.

قالت آنا وهي تخرج من الحضانة وترفع ذيل ثوبها لكي لا يعلق باللعب التي كانت ملقاة أمام الباب:

– هذا يشق علي أحياناً، فأحس أنني زائدة عن اللزوم هنا. كان الأمر مختلفاً مع البكر!

قالت داريا ألكسندروفنا بوجل:

– كنت سأصدق العكس...

فأستأنفت آنا وهي تغمز بعينيها وكأنها تحدق إلى نقطة في مكان بعيد:

– أوه! لا. أتعلمين أني رأيت سيريوجا ثانية. على كل حال، سوف نتحدث عن ذلك. لا تستطيعين أن تتصوري، أنا كامرأة تموت من الجوع، وتُقدَّم لها وليمة، فلا تعلم من أين تبدأ. والوليمة إنما هي أنت والأحاديث التي ستدور معك، في الحين الذي لا أجرؤ فيه على الكلام مع أحد. ولست أدري بأيها أبدأ. لكني لن أعفيك من شيء. يجب أن أقول لك كل ما في قلبي. نعم، يجب أن أعطيك لمحة عن الناس الذين ستلقينهم عندنا. وأبدأ بالسيدات. الأميرة بربارة. أنت تعرفينها، وأنا أعلم رأيك فيها ورأي ستيفا. ستيفا يقول: إن هدف حياته الوحيد هو أن يبرهن على تفوقه على عمتنا كاترين بافلوفنا؛ هذا صحيح تماماً؛ لكنها طيبة، وأنا شديدة الامتنان لها. جاءت لحظة في

Tele: @Arab_Books

بطرسبرج كنت فيها بحاجة ماسة إلى مصاحبة، فقبلت أن تكون تلك المصاحبة. أؤكد لك أنها طيبة القلب. لقد خففت كثيراً من وضعي. أرى أنك لا تدركين كم كان وضعي مؤلماً... هناك، في بطرسبرج. أنا سعيدة ومطمئنة تماماً، هنا. وسنعود إلى ذلك. وأكمل تعدادي. وهناك سفياجسي، نقيب النبلاء في المقاطعة، وهو رجل لائق جاء يطلب خدمة من ألكسي. واعلمي أن ألكسي ألكسندروفتش، مع ثروته الآن بعد أن استقر بنا المطاف في الريف، يمكن أن يكون له نفوذ عظيم. ثم هناك توشكييفتش، وقد رأيته، إنه المتيم ببيتسي. لقد جاء إلينا الآن بعد أن استبعدته. وهو، كما يقول ألكسي ألكسندروفتش، أحد هؤلاء الرجال الظريفين جداً إذا نظر إليه كما يحب أن يبدو، ثم إنه رجل لائق، كما تقول الأميرة بربارة. أما فيسلوفسكي... فأنت تعرفينه...

وقالت وقد طافت بشفتيها ابتسامة ماكرة:

– إنه فتى لطيف جداً. ما هذه القصة الغريبة بينه وبين ليفين؟ لقد حدّث فيسلوفسكي بها ألكسي، لكننا لم نصدق كلمة واحدة منها. إنه لطيف جداً وساذج (قالت ذلك بالابتسامة نفسها).

الرجال بحاجة إلى تسليات وألكسي لا يستطيع أن يستغني عن الجمهور، ولذلك فأنا حريصة على هؤلاء الناس جميعاً. يجب أن تكون حياتنا بهيجة ومليئة بالحركة، وألا يتمنى ألكسي ألكسندروفتش عمل شيء آخر. وسترين أيضاً وكيلنا. إنه ألماني، رجل طيب يتقن عمله، وألكسي يقدره كثيراً. ثم، هناك الطبيب الشاب، وهو ليس عدمياً لكنه يأكل بسكينه... على كل حال إنه طبيب ممتاز، وهناك المهندس... كل ذلك بلاط صغير.

Tele: @Arab_Books

-٢٠-

قالت آنا وهي تصل مع داريا ألكسندروفنا إلى الشرفة الكبرى حيث كانت الأميرة بربارة جالسة في الظل، خلف نول، تطرز وجه مقعد للكونت ألكسي ألكسندروفتش كيريلوفتش:

- يا أميرة، ها هي ذي دولي التي كنت تشتاقين إلى رؤيتها. وهي تقول إنها لا تريد أن تتناول شيئاً قبل العشاء، لكن دعيها تتناول شيئاً، سأذهب للبحث عن ألكسي وسآتي بهم جميعاً إليكما.

استقبلت الأميرة بربارة «دولي» بلطف وبشيء من التعطف وأخذت على الفور تشرح لها أنها أقامت في منزل آنا لانها فضلتها دائماً على أختها كاترين بافلوفنا التي ربت آنا، وأنها ترى من واجبها الآن وقد هجر الجميع آنا، أن تهب إلى نجدتها في هذه المرحلة الانتقالية البالغة الصعوبة.

- فعندما يوافق زوجها على الطلاق سأعود إلى عزلتي، أما الآن فأنا أستطيع أن أكون نافعة لها، وأنا أقوم بواجبي مهما يكن شاقاً، ولا أفعل ما يفعله الآخرون. ما ألطفك، وكم أحسنتِ صنعاً بمجيئك! إنهما يعيشان كزوجين متحابين؛ ولله وحده الحق في الحكم عليهما،

Tele: @Arab_Books

لا لنا. وهل بيريوزوفسكي والسيدة آفينييف... ونيكاندروف. وفاسيلييف والسيدة مامونوفا، وليزنيبتونوف... لم يقل عنهم أحد شيئاً قط! وانتهى الناس جميعاً بأن استقبلوهم. ثم إن المنزل جميل جداً ولائق جداً، على الطراز الإنكليزي تماماً. والناس هنا يجتمعون على الفطور صباحاً ثم يفترقون، ويفعل كل واحد ما يشاء حتى العشاء، في الساعة السابعة. أحْسنَ صنعاً ستيفا بأن أرسلك. يجب أن تظل علاقته حسنة بهما. أتعلمين أن الكونت يستطيع أن يفعل كل شيء بواسطة أمه وأخيه. إنهما واسعا البر والإحسان. ألم يحدثك عن مستشفاه؟ سيكون مثيراً للإعجاب. كل شيء فيه من باريس.

انقطع حديثهما بمقدم آنا التي وجدت الرجال في غرفة البليار وعادت معهم إلى الشرفة. كان ما يزال في الوقت فسحة حتى موعد العشاء؛ وكان النهار بديعاً، ولذلك اقترح الحاضرون سبلاً شتى لقضاء الساعتين الباقيتين. كان هناك سبل كثيرة لتزجية الوقت في «فوز فيجنسكوي»، وكلها مختلفة أشد اختلاف عن التي تستخدم في «بوكروفسكوي».

عرض فيسلوفسكي وهو يبتسم ابتسامته اللطيفة:

– لعبة بكرة المضرب. سنصبح شريكين مرة أخرى، يا آنا أركاديفنا.

قال فرونسكي:

– لا، فالحر شديد، ولنذهب، بالأحرى، إلى التنزه في الحديقة، ولنقم بجولة في القارب لنري داريا ألكسندروفنا المشاهد الطبيعية.

قال سفياجسكي:

Tele: @Arab_Books

– أوافق على كل شيء.

قالت آنا:

– أعتقد أن دولي تفضل أن تتنزه، أليس كذلك؟ وبعد ذلك سنذهب في القارب.

وهكذا كان. فذهب فيسلوفسكي وتوشكيفتش إلى حجرة الحمام، ووعدا بأن ينتظراهم هناك وأن يُعدّا القارب.

مضوا في الطريق اثنين اثنين، آنا مع سفياجسكي، ودولي مع فرونسكي. وكانت دولي متخوفة من هذا الوسط الجديد كل الجدة الذي ألفْت نفسها فيه. فمن الناحية المجردة والنظرية لم تكن تبرر سلوك آنا فحسب بل إنها كانت توافقها على هذا السلوك أيضاً. كانت لا تعذرها على حبها المذنب فحسب بل كانت تحسدها عليه، كما يقع في الغالب للنساء المحصنات اللواتي ضقن ذرعاً برتابة حياتهن الفاضلة. وفوق ذلك، كانت تحب آنا حباً ممزوجاً بالحنان. لكن الواقع أنها عندما رأتها في هذا الوسط من الناس الغرباء عنها، مع هذا الظرف الجديد عليها أحسّت بالانقباض. كانت تكره بخاصة أن ترى الأميرة بربارة تغفر كل شيء لهؤلاء الناس طلباً للرفاهية التي يوفرونها لها.

كانت دولي توافق على سلوك آنا، إجمالاً ومبدئياً، لكن كان يشق عليها أن تتحمل حضور الرجل الذي أضلها عن سواء السبيل. وفضلاً عن ذلك فإن فرونسكي لم يعجبها قط. كانت تراه شديد التكبر ولا ترى فيه شيئاً يمكنه أن يفتخر به سوى ثروته. لكنه هنا، في بيته، كان يفرض هيبته عليها، بالرغم من إرادتها، أكثر من ذي قبل، وكانت

Tele: @Arab_Books

تحس بالضيق وهي إلى جنبه. شعرت أمامه بشعور شبيه بالشعور الذي خامرها أمام الخادمة بصدد قميص نومها. فكما أحست أمامها بأنها مرتبكة على الأقل إن لم تكن خجلة من جراء رتق قميصها، فكذلك كانت أمامه مرتبكة باستمرار على الأقل إن لم تكن خجلة، من جراء شخصها.

كانت تبحث، وهي مضطربة، عن موضوع للحديث. ومع أنها كانت تقدّر أن فرونسكي يكره الثناء بسبب من كبريائه، إلا أنها قالت له، وهي لا تعلم كيف تبدأ الحديث معه، إنها تجد مسكنه جميلاً جداً. فقال:

– نعم، إنه بناء جميل، من الطراز العتيق الجميل.

– أعجبتني كثيراً الباحة الرئيسية: أهي قديمة؟

قال وقد أشرق وجهه بالفرح:

– أوه لا! ليتك رأيتها في الربيع!

واسترعى انتباه دولي، على نحو خفي أولاً، ثم وهو يتحمس شيئاً فشيئاً، إلى مختلف التحسينات التي أجراها في البيت وفي الحديقة. كان واضحاً أنه، وبعد أن أتعب نفسه في تزيين مسكنه، كان يشعر بالحاجة إلى أن يفتخر بذلك أمام القادمة الجديدة، وأنه كان مغتبطاً من إطراء داريا ألكسندروفنا.

قال لها وهو ينظر في وجهها ليقتنع بأن ذاك لن يضجرها أبداً:

Tele: @Arab_Books

– إن لم تكوني متعبة فنحن نستطيع أن نذهب ونلقي نظرة على المستشفى. فهو غير بعيد. تعالي.

وأضاف:

– أتأتين، يا آنا؟

قالت وهي تلتفت إلى سفياجسكي:

– نعم، أليس كذلك؟ لكن يجب أن لا نترك المسكين فيسلوفسكي وتوشكيفتش يتعذبان هناك في القارب. ينبغي أن ننبئهم بذلك.

وأضافت وهي تلتفت إلى دولي وتبتسم تلك الابتسامة المقصودة والماكرة التي ابتسمتها وهي تتحدث عن المستشفى:

– إنه صرح سيتركه هنا.

قال سفياجسكي:

– هذا صحيح، إنه عمل رئيسي.

وما لبث أن أضاف ملاحظة ناقدة لكي لا يبدو عليه أنه يتملق فرونسكي.

– بيد أنني أدهش، يا كونت، من أنك، وأنت تفعل كثيراً للشعب من الناحية الصحية، غير مبال بالمدارس.

قال فرونسكي:

Tele: @Arab_Books

- المدارس أصبحت شائعة جداً! ثم إنني شغفت بذلك.

وقال وهو يلتفت إلى داريا الكسندروفنا ويريها ممراً جانبياً:

- من هنا.

فتحت السيدات مظلاتهن وسرنَ في الممر. وبعد عدة منعطفات، عندما خرجن من كوة الحديقة، رأت داريا ألكسندروفنا أمامها على ربوة من الأرض بناء ضخماً بالقرميد الأحمر، معقد الهندسة، ومنتهياً تقريباً. وكان السطح المصنوع من الصفائح المعدنية يرسل ضياء يخطف الأبصار تحت الشمس. وغير بعيد منه، ارتفع هيكل بناء تحيط به الصقالات؛ كان العمال بوزراتهم يضعون القرميد ويمدون فوقه طبقة من الملاط يسوونها بالزاوية.

قال سفياجسكي:

- ما أسرع ما يسير العمل عندك! عندما جئت آخر مرة لم يكن للبناء سقف.

قالت آنا:

- سيكون كل شيء تاماً في الخريف. وقد أنجز الداخل تقريباً.

قال فرونسكي ذلك واعتذر من السيدتين حين شاهد المهندس يقبل عليه بمعطفه القصير، ومضى صوبه.

دار دورة ليتفادى الحفرة التي كان العمال يأخذون منها الكلس ووصل إلى المهندس الذي أخذ يكلمه بحيوية.

Tele: @Arab_Books

أجاب آنا التي سألته عن موضوع الحديث:

– ما تزال الواجهة شديدة الانخفاض.

قالت آنا:

– لقد أوصيت بإعلاء الأسس.

قال المهندس:

– لا شك أن ذلك أفضل، لكن الأوان قد فات الآن.

أجابت آنا، «سفياجسكي» الذي دهش من معرفتها بالهندسة:

– نعم، إني أهتم بذلك كثيراً. يجب أن يكون البناء الجديد منسجماً مع بناء المستشفى. بيد أنهم تخيلوه بعد بناء المستشفى وبدؤوا به بدون مخطط.

بعد أن أنهى فرونسكي حديثه مع المهندس رجع إلى قرب السيدتين وقادهما إلى الداخل.

لم يكن الإفريز الخارجي محفوراً بعد، وكان العمال يدهنون الطابق الأرضي، لكن الطابق الأول كان منتهياً تقريباً. وبعد أن صعدوا بدرج معدني عريض إلى سطح الدرج، دخلوا الغرفة الأولى الكبيرة. كانت الجدران مغطاة بالجص الذي يحاكي المرمر، وقد ثُبّتت النوافذ الضخمة وهي من قطعة واحدة، أرض الغرفة وحدها هي التي لم تكن منتهية بعد. وقد أوقف النجارون الذين كانوا ينجرون مربعاً من الخشب ورفعوا الأشرطة التي ردوا بها شعورهم قبل أن يحيوا الزائرين.

Tele: @Arab_Books

قال فرونسكي:

– هذه صالة الاستقبال. لن يكون هنا سوى مقرأ وطاولة وخزانة.

قالت آنا وهي تجرب الدهان بطرف إصبعها.

– تعالي من هنا –لا تقتربي من النافذة. الكسي، الدهان قد جف.

ومن قاعة الاستقبال، انتقلوا إلى الممر. أراهم فرونسكي هنا نظاماً جديداً للتهوية. ثم أراهم مغاطس من المرمر، وأسرّة بنوابض غير عادية. وبعد ذلك، زار معهم جميع الغرف غرفة بعد غرفة، وغرفة المؤنة، وغرفة الغسل، وأراهم المدافئ بتركيبها الجديد، والنقالات التي لا تحدث صوتاً، وكثيراً من الأشياء الأخرى. وكان سفياجسكي ينتقد كل شيء كرجل مطلع على آخر الإصلاحات. وكانت دولي تعجب بكل ما لم تره حتى الآن، وتطرح، رغبة منها في المعرفة أسئلة دقيقة تدخل السرور على نفس فرونسكي.

قال سفياجسكي:

– نعم، أعتقد أن هذا هو المستشفى الوحيد في روسيا المقام على نحو عقلاني تماماً.

واستفهمت دولي:

– ألن يكون لديكم صالة للتوليد؟ إن هذه الصالة عظيمة الفائدة في الريف. فغالباً...

قاطعها فرونسكي بالرغم من أدبه الجم وقال:

Tele: @Arab_Books

– ليست هذه داراً للتوليد، وإنما هذا مستشفى لمعالجة جميع الأمراض، ما عدا الأمراض المعدية. خذي، انظري إلى هذه...

ودفع نحو داريا ألكسندروفنا مقعداً طلب حديثاً للناقهين وجلس فيه ومشاه وقال:

– انظري. إن المريض الذي لا يستطيع أن يمشي لأنه ما يزال شديد الضعف أو لأنه يشكو من ساقيه يمكنه أن يسير فيه إن كان بحاجة إلى الهواء.

كانت داريا ألكسندروفنا تهتم بكل شيء، وكل شيء كان يفتنها، ولا سيما فرونسكي بحماسته البريئة. وكانت تقول في نفسها بين الحين والآخر: «نعم، إنه لرجل ساحر وطيب»، دون أن تصغي إليه، وإنما كانت تنظر إليه محاولة جهدها أن تستشف تعبير وجهه وأن تنتقل بفكرها إلى آنا. لقد أعجبها كثيراً وهو يظهر هذه الحيوية، وأدركت لماذا أمكن لآنا أن تهيم به.

Tele: @Arab_Books

-٢١-

قال فرونسكي لآنا التي اقترحت عليه أن يقصدوا إلى مربط الخيل حيث يريد سفياجسكي أن يرى جواده الجديد:

- لا، أعتقد أن الأميرة متعبة وأن الجياد لا تهمها. اذهبا أنتما، أما أنا فأصطحب الأميرة إلى البيت.

والتفت إلى دولي وأضاف:

- وسنتحدث قليلاً، إن كان هذا يسرك؟

قالت داريا ألكسندروفنا بدهشة:

- لست أفقه شيئاً في الجياد، ولذلك فأنا أقبل بكل رضا.

لقد رأت من وجه فرونسكي أنه سيطلب منها شيئاً، ولم يخطئ ظنها. فما إن اجتاز باب الحديقة الصغير حتى نظر إلى الجهة التي ذهبت فيها آنا، وحين تأكد أنها لا تستطيع سماعهما بدأ حديثه، وقال وهو ينظر بعينين ضاحكتين:

- لقد حزرت أنني أرغب في محادثتك. ولست مخطئاً في اعتقادي بأنك صديقة لآنا.

Tele: @Arab_Books

ورفع قبعته، وتناول منديله، ومسح به رأسه الذي أخذ يتعرى.

لم تجب داريا ألكسندروفنا بشيء واكتفت بأن رمته بنظرة مروعة. فعندما بقيت وحدها معه أحست فجأة بالقلق: لقد خوفها بعينيه الضاحكتين وتعبير وجهه الصارم.

طافت بذهنها مختلف الافتراضات فيما يتصل بالموضوع الذي سيطرقه: «سيطلب مني أن آتي مع الأولاد لأقيم عندهم، وعلي أن أرفض؛ أو أنه يريد أن أكون حلقة لآنا في موسكو... إلا إذا دار الكلام على فيسلوفسكي وعلاقاته بآنا؟ أو أنه يريد أن يحدثني عن كيتي التي يشعر أنه مذنب نحوها؟» لم تفكر إلا بالاحتمالات المزعجة و لم تتنبأ البتة بما ينوي أن يقوله لها.

قال لها:

- إن لك تأثيراً في آنا، وهي شديدة التعلق بك، فساعديني.

ألقت داريا ألكسندروفنا نظرة مستفهمة ووجلة على وجهه الصارم الذي تراقصت عليه ظلال الزيزفون وانتظرت ما سيقوله: لكنه ظل يمشي قربها بصمت، وهو يضرب الحصى بعصاه.

وسألها وهو يلتفت إليها:

- إذا كنت جئتِ لترينا، أنت المرأة الوحيدة بين جميع أصدقاء آنا (لا أعد الأميرة بربارة)، فأنا أقدّر أنك فعلتِ ذلك لا لأنك ترين وضعنا طبيعياً، بل لأنك تدركين كم هو شاق هذا الوضع، إنك ما تزالين تحبين آنا وتتمنين أن تساعديها. هل حزرت؟

Tele: @Arab_Books

أجابت داريا ألكسندروفنا وهي تغلق مظلتها:

– نعم، لكن...

فقاطعها:

– لا...

وتوقف على نحو غير إرادي، دون أن يمر بباله أن يحرج مُحدِثته، بحيث اضطرت هي إلى التوقف. ثم أردف:

– لا أحد يشعر شعوراً أشد مني بوضع آنا المؤلم. وأنت ستدركين ذلك لو تكرمتِ واعتبرتني رجلاً شهماً. وأنا المسؤول عن هذا الوضع، ولذلك فهو يؤلمني قبل غيري.

قالت داريا ألكسندروفنا وقد أعجبت رغماً عنها بالصدق والعزم اللذين ضمنهما كلامه.

– أُدرِك ذلك. لكني أخشى أن تكون مبالغاً، وبالذات لأنك تحس بمسؤوليتك. وأعترف أن وضعها في المجتمع شاق.

فقال بسرعة وهو يقطب بين حاجبيه بوجه متجهم:

– في المجتمع، إنه لجحيم! لا يستطيع أحد أن يتصور عذاباً نفسياً أسوأ من العذاب الذي قاسته في بطرسبرج أثناء هذين الأسبوعين... أرجوكِ أن تصدقي ذلك.

– نعم، لكن ما دمتما آنا... وأنت، لا تحتاجان هنا إلى المجتمع...

Tele: @Arab_Books

فهتف بازدراء:

– المجتمع! وكيف يمكنني أن أحتاج إلى المجتمع؟

– حتى هذه اللحظة... وربما دائماً، ستكونان سعيدين ومطمئنين. وقد رأيت أن آنا سعيدة، سعيدة كل السعادة، لقد تسنى لها أن تصارحني بذلك.

قالت ذلك وهي تبتسم؛ وبالرغم منها، تساءلت وهي تقول ذلك إن كانت آنا سعيدة حقاً.

بدأ فرونسكي كمن لا يخامره الشك في ذلك. فقال:

– نعم، نعم. وأنا أعلم أنها عادت إلى الحياة بعد كل آلامها؛ إنها سعيدة، سعيدة من الحاضر. لكنني... أخشى ما ينتظرنا... المعذرة، هل تحبين المشي؟

– لا، لا فرق عندي.

– إذن، فلنجلس هنا.

جلست داريا ألكسندروفنا على مقعد في ركن من الممر. وظل واقفاً أمامها. وردد:

– أرى أنها سعيدة.

فأحست دولي بشكوكها تتأكد. وأضاف وهو ينتقل من الروسية إلى الفرنسية.

Tele: @Arab_Books

- لكن هل يمكن أن يستمر هذا؟ أن نكون قد أحسنا أو أسأنا التصرف، تلك مسألة أخرى؛ لكن قد قضي الأمر ونحن مرتبطان مدى العمر. لقد جمعتنا أقدس الروابط: روابط الحب. ولنا ولد، ويمكن أن يأتينا غيره. لكن القانون وكل الاحتمالات تنذر بآلاف التعقيدات التي لا تراها آنا ولا تريد أن تراها بعد كل تلك الآلام والمحن التي عرفتها. وهذا مفهوم. أما أنا فلا يسعني إلا أن أرى. فابنتي بحسب القانون ليست ابنتي وإنما هي ابنة كارينينا. وهذا الكذب يثيرني!

قال هذا بحركة قوية من الاستنكار ونظر إلى داريا ألكسندروفنا بوجه حزين ومستفهم.

لم تجب بشيء واكتفت بالنظر إليه. وتابع:

- قد يولد لي ولد غداً، وسيكون، في نظر القانون، ابن كارينينا، ولن يرث اسمي ولا مالي. ومهما نكن سعداء، ومهما ننجب من أولاد، فلن يكون بينهم وبيني صلة. وسيكونون أبناء كارينينا. أنت تدركين مدى ما في هذا الوضع من فظاعة. حاولت أن أكلم آنا في ذلك. إن هذا يثيرها. إنها لم تفهم، وأنا لا أستطيع أن أقول كل شيء لها. والآن انظري إلى الأشياء من زاوية أخرى. أنا سعيد، سعيد بحبها، لكن ينبغي أن يكون لي شغل. لقد وجدت هذا الشغل، وأنا فخور به، وأقدر أنه أنبل من نشاطات رفاقي القدماء في البلاط أو الجيش. ولن أقبل أبداً بمبادلتهم به. أنا أشتغل هنا، في هذا المكان، وأنا سعيد، راضٍ، ولسنا نحتاج إلى شيء آخر. أحب هذا النشاط. وليس هذا هو السبيل الوحيد المتبقي، على العكس...

Tele: @Arab_Books

لاحظت داريا ألكسندروفنا أنه تشوش في هذه اللحظة من إيضاحه. لم تدرك جيداً معنى هذا الاستطراد، لكنها أحست أنه عندما بدأ بالكلام الآن على استعداداته الذاتية الصميمة التي لا يستطيع أن يحدث آنا عنها فقد بدأ يقول كل شيء، وأن مشكلة نشاطه في الريف تدخل في حلقة مشاغله الذاتية الصميمة، شانها شأن علاقاته بآنا.

وتابع وهو يتمالك نفسه:

– أهم شيء عندي، وأنا أعمل، هو يقيني بأن ما أفعله لن يموت معي، وأن سيكون لي وارثون... وهو ما ليس عندي. تصوري وضع رجل يعرف مسبقاً أن الأولاد الذين أنجبهم من المرأة التي يحبها لن يكونوا له بل سيكونون لرجل آخر يكرههم ولا يريد أن يعرفهم. هذا مروع!

وصمت، وقد ظهر عليه التأثر الشديد.

سألت داريا ألكسندروفنا:

– نعم، بدون شك، إنني أدرك ذلك. لكن ماذا بوسع آنا أن تفعل؟

قال وهو يسيطر على نفسه بمشقة:

– إن هذا يقودني إلى الغاية من حديثنا. إن بوسع آنا أن تفعل شيئاً، وهذا يتوقف عليها... فحتى لو طلبت إلى الإمبراطورية تثبيت نسب أولادي، فلا بدَّ من الطلاق لي. وهذا يتوقف على آنا. لقد وافق زوجها على الطلاق، وكان زوجك على وشك أن يسوي كل شيء.

Tele: @Arab_Books

يكفي أن تكتب إليه. لقد قال حينذاك: إنها إن أعربت عن رغبتها في الطلاق فلن يرد لها هذا الطلب.

وأضاف وقد بدا عليه التجهم:

ولا شك أن تلك قساوة من قساوات المنافقين التي لا يقدر عليها إلا من لا قلب له. إنه يعلم مدى الألم الذي ستدفعه آنا ثمناً للتذكير بوجودها؛ وهو إذ يعلم ذلك يطلب منها رسالة. وأنا أفهم أن يكون ذلك كريهاً عليها. لكن، أمام مثل تلك البواعث الخطيرة، يجب تجاوز هذه الرقة في الشعور. ذلك أن سعادة آنا وأولادها، ووجودهم في خطر.

وقال بهيئة المهدد:

– إني لا أتحدث عن نفسي وإن شق علي ذلك، وإن شق كثيراً. ولذلك فأنا أتعلق بك، يا أميرة، تعلقاً لا حياء فيه، باعتبارك آخر أمل للنجاة. فساعديني على إقناعها بالكتابة إليه وبطلب الطلاق.

قالت داريا ألكسندروفنا وقد بدا عليها التفكير، وهي تتذكر آخر مقابلة بينها وبين ألكسي ألكسندروفتش:

– بكل تأكيد:

ورددت هذه الكلمة بلهجة حازمة وهي تفكر في آنا. وأردف:

– استخدمي تأثيرك فيها، واحمليها على الكتابة إليه. لا أريد أن أكلمها في ذلك. وهذا، على كل حال، مستحيل تقريباً.

Tele: @Arab_Books

قالت داريا ألكسندروفنا:

– طيب، سأكلمها في ذلك. لكن ما رأيها هي في ذلك؟

وتذكرت فجأة ودون سبب محدد تلك العادة الغريبة التي تعودتها آنا وهي أن تغمز بعينيها. وتذكرت أن آنا كانت تغمز بعينيها عندما يمس الحديث موضوعات تتصل بحياتها الداخلية الصميمة. وقالت دولي في نفسها: «كأنها تغمز بعينيها لكي لا ترى كل شيء».

وأجابت داريا ألكسندروفنا على أمارات الامتنان التي عبر عنها وجه فرونسكي:

– نعم، سأكلمها، لا بدَّ من هذا، من أجلي ومن أجلها.

ثم نهضا وعادا.

Tele: @Arab_Books

-٢٢-

عندما عادت آنا، نظرت إلى دولي بتمعن كأنها تريد أن تسألها عن موضوع الحديث بينها وبين فرونسكي، لكنها لم تطرح عليها سؤالاً. وقالت:

- أظن وقت العشاء قد حان. ونحن لم تر إحدانا الأخرى بعد. وأنا أعتمد على هذا المساء. يجب أن أغير ثيابي. وأنت أيضاً، على ما أعتقد، لقد وسخنا ثيابنا حين زرنا ورشة العمل.

دخلت دولي غرفتها، وبدا لها وضعها مضحكاً. فهي لا تستطيع أن تبدل ثيابها لأنها ارتدت أجمل أثوابها؛ ولكن، لكي تظهر، على نحو من الأنحاء، استعدادها للعشاء، طلبت من الخادمة أن تنظف لها ثوبها، وغيرت ردنيه وعقدة الشريط، ووضعت منديلاً مخرماً على شعرها.

قالت وهي تبتسم لآنا التي جاءت تطلبها وهي ترتدي ثوبها الثالث، وهو كغيره في غاية البساطة:

- هذا كل ما استطعت أن أفعله.

قالت آنا وكأنها تريد أن تعتذر عن أناقتها:

Tele: @Arab_Books

– نعم، نحن شكليون جداً هنا. ألكسي ألكسندروفتش مغتبط بقدومك، و لم أره قط في مثل هذا السرور. إنه مغرم بك. ألم تتعبي كثيراً؟

لم يتسن لهما أن تتحدثا قبل العشاء. وعندما دخلا الصالة وجدا الأميرة بربارة والرجال بالسترة الرسمية. كان المهندس باللباس الرسمي. فقدم فرونسكي لدولي الطبيب والوكيل. وكان قد قدم لها المهندس في المستشفى.

تقدم رئيس الخدم، وهو رجل جسيم ذو وجه مدور، أجرد ولماع، يضع ربطة بيضاء منشاة، وأعلن أن العشاء جاهز. فنهضت النسوة. رجا فرونسكي ضيفه سفياجسكي أن يقدم ذراعه لآنا أركاديفنا، وتقدم هو نحو دولي. ومد فيسلوفسكي ذراعه قبل توشكيفتش إلى الأميرة بربارة، بحيث أن توشكيفتش مشى وحده كالوكيل والطبيب.

كان العشاء وقاعة الطعام والأواني والخدمة والخمور والأطعمة، كان كل ذلك منسجماً مع الجو العام للترف الجديد في البيت، بل إنه كان يبدو أكثر فخامة وجدة. وكانت داريا ألكسندروفنا تلاحظ كل شيء، باعتبارها ربة بيت، وتدون في ذهنها كل التفاصيل، مع أنها لا تطمح أن تقارن شيئاً مما رأته بمنزلها (كان كل شيء أكثر ترفاً مما في منزلها) وتتساءل من أشرف على ذلك كله. إن أصحاب البيوتات الرفيعي التهذيب يحبون أن يوهموا ضيوفهم أن كل شيء يتم عندهم دون أي جهد، وكأنه يتم من ذاته إن صح التعبير. إن فيسلوفسكي وزوجها وسفياجسكي والكثير من معارفها من الرجال يقعون في هذا الفخ. أما داريا ألكسندروفنا

Tele: @Arab_Books

فكانت تعلم أن حساء الصباح نفسه لا يُعطى للأطفال بدون إشراف، وأن إدارة للمنزل بهذا التعقيد وذلك الإتقان تتطلب عناية مستمرة. لقد أدركت داريا ألكسندروفنا من النظرة التي لف بها ألكسي ألكسندروفتش كيريلوفتش المائدة، ومن إيماءة رأسه إلى رئيس الخدم، ومن اختياره لما ينبغي أن تتناوله بين الثريدة الباردة بالسمك والحساء الدسم، أن كل شيء كان يصنع بأمر المضيف ذاته. و لم يكن هذا يتوقف على آنا مثلاً أكثر من فيسلوفسكي. إن آنا وسفياجسكي والأميرة وفيسلوفسكي كانوا، بالطريقة نفسها، مدعوين يستمتعون فرحين بما أعد لهم.

اكتفت آنا بإدارة الحديث. وهذه المهمة الشديدة الصعوبة، بالنسبة إلى ربة البيت، على مائدة قليلة العدد جلس إليها ناس من عالم آخر مثل المهندس والوكيل اللذين كانا يحاولان جاهدين ألا يرتعبا أمام هذا البذخ الذي لم يعهداه واللذين كانا عاجزين عن المشاركة الطويلة في الحديث العام، هذه المهمة أدتها آنا ببساطتها ولباقتها المعتادتين، بل وبسرور، كما لاحظت داريا ألكسندروفنا.

جرى الحديث أولاً عن النزهة التي قام بها توشكييفتش وفيسلوفسكي في القارب، وأراد توشكييفتش أن يستفيض في الكلام على الآخر سباق لقارب نادي بطرسبرج. لكن آنا انتظرت توقفه وخاطبت على الفور المهندس لتخرجه من صمته.

قالت وهي تتحدث عن سفياجسكي:

– لقد دهش نيقولا إيفانيتش من تقدّم البناء الجديد منذ آخر مرة

Tele: @Arab_Books

جاء فيها؛ لكنني أذهب إلى هناك كل يوم، وفي كل يوم أدهش من سرعة العمل.

قال المهندس وهو يبتسم، وكان رجلاً متأدباً، هادئاً، شديد الشعور بكرامته:

– من المفرح العمل مع سيادته. ليس الحال هنا كما هي الحال مع سلطات عاصمة المقاطعة. هناك قد يسودون رزمة كاملة من الورق، بينما يمكننا أن نتفق مع الكونت بثلاث كلمات.

قال سفياجسكي وهو يبتسم:

– تلك هي الطرائق الأمريكية.

– نعم، لكنهم يحسنون البناء هناك أيضاً...

واتجه الحديث نحو تعسف السلطة في الولايات المتحدة، لكن آنا ساقت الحديث إلى موضوع آخر لتحمل الوكيل على الكلام.

وقالت وهي تلتفت إلى داريا ألكسندروفنا:

– هل رأيت حصادات من قبل؟ كنا ذاهبين لنرى واحدة منها عندما لقيناكم. كانت هذه أول مرة، بالنسبة إلي.

سألت دولي:

– وكيف تعمل؟

– كالمقصات بالضبط. هناك لوح وعدد من المقصات الصغيرة. هكذا.

Tele: @Arab_Books

وأخذت آنا سكينها وشوكتها بيديها البيضاوين الجميلتين المغطاتين بالخواتم وبدأت برهنتها. كانت ترى بوضوح أن الحاضرين لم يفهموا شيئاً مما تقول؛ لكنها تابعت كلامها لعلمها أن لها صوتاً عذباً وأن يديها جميلتان.

قال فيسلوفسكي مازحاً، ولم يكن يرفع عينيه عنها:

- إنها مُدىً، على الأصح.

ابتسمت آنا ابتسامة ناعمة، لكنها لم تجبه.

قالت وهي تلتفت إلى الوكيل:

- أليس صحيحاً أنها تشبه المقصات، يا كارل فيدروفتش؟ أجاب الألماني:

- أوه! نعم، إنها بسيطة جداً.

وأخذ يشرح تركيب الآلة.

قال سفياجسكي:

- من المؤسف أنها لا تربط الحزم. رأيت واحدة في معرض فيينا تربط الحزم بسلك من الحديد. إنها أربح.

انطلق الألماني في الحديث وخاطب فرونسكي بالألمانية.

- الأمر ليس واحداً دائماً، يجب أن نحسب سعر السلك الحديدي. من السهل حساب ذلك، يا صاحب السيادة.

Tele: @Arab_Books

ومد الألماني يده إلى جيبه حيث كان يحتفظ دائماً بقلم ومفكرة يسجل عليها كل شيء، لكن نظرة فرونسكي الجامدة أوقفته. فختم كلامه قائلاً بالألمانية:

– هذا شديد التعقيد، وهو يسبب كثيراً من الأرباك. فرد عليه فاسيا فيسلوفسكي بالألمانية ليكايد الألماني:

– عندما نطلب المداخيل فيجب أن نتحمل الإرباكات.

وأردف وهو يلتفت إلى آنا وعلى فمه الابتسامة ذاتها:

– إنني أعبد الألمانية.

قالت له بلهجة نصفها مازح ونصفها صارم:

– انتهِ. كنا نظن أننا سنلقاك في الحقول.

وقالت للطبيب، وهو رجل معتل الهيئة:

– بازيل سيمينيتش، هل ذهبت إلى هناك؟

أجاب الطبيب بلهجة أرادت أن تكون مازحة فإذا بها في الواقع كئيبة:

– نعم، لكنني. تبخرت.

– إذن، لقد قمت بتمارين كثيرة.

– نعم، كان ذلك رائعاً.

Tele: @Arab_Books

– وكيف حال العجوز المريضة؟ أرجو ألا يكون ما بها هو الحمى التيفية؟

– لا، ليست الحمى التيفية بالذات، لكنها ليست في وضع أفضل بسبب ذلك.

قالت آنا:

– يا للأسف!

وإذ أدت، بهذه الطريقة، واجبات المجاملة نحو المترددين على المنزل، التفتت إلى أصدقائها.

قال لها سفياجسكي مازحاً:

– سيكون من الصعب، بالرغم من كل شيء، تركيب آلة بناء على تعليماتك.

قالت آنا وهي تبتسم:

– لا، ولِمَ ذاك يا ترى؟

وكانت ابتسامتها تدل على يقينها بأن في إيضاحها لعمل الآلة شيئاً فاتناً لم يفت سفياجسكي. وسمة الغنج الجديدة هذه أثارت، على نحو مرعب، دهشة دولي.

قال توشكيفتش:

Tele: @Arab_Books

- وبالمقابل فإن معرفة آنا أركاديفنا بالهندسة مدهشة.

قال فيسلوفسكي:

- لا شك عندي في ذلك. لقد سمعتُ أمس آنا أركاديفنا تتحدث عن وطائد الأعمدة، وعن جبهيات الأبنية. أليس هذا صحيحاً؟

قالت آنا:

- ليس في ذلك ما يدهش عندما نسمع هذه الكلمات كل يوم. أنا واثقة من أنك لا تعرف بأي المواد يُبنى البيت؟

رأت داريا ألكسندروفنا أن آنا كانت مستاءة من اللهجة المرحة التي قامت بينها وبين فيسلوفسكي، وإن انساقت إليها بالرغم منها.

لم يتصرف فرونسكي، في هذه المناسبة، مثل ليفين. والظاهر أنه لم يولِ ثرثرة فيسلوفسكي أية أهمية، بل إنه شجع هذه الدعابة.

- نعم، قلْ لنا كيف نربط الأحجار، يا فيسلوفسكي؟

- بالإسمنت، من غير شك.

- مرحى! لكن ما الإسمنت؟

أجاب فيسلوفسكي جواباً أثار الضحك العام، الصاخب:

- إنه نوع من المعجون... بل من الملاط.

لم ينضب الحديث بين المدعوين، باستثناء الطبيب والمهندس والوكيل

Tele: @Arab_Books

الذين غرقوا في صمت كئيب: كان الحديث يمس هذا الشخص مساً رفيقاً تارة، ويتوقف عند ذاك تارة أخرى. وفي إحدى اللحظات جُرحت داريا ألكسندروفنا وغضبت غضباً شديداً حتى إن الحمرة صبغت وجهها وأنها تساءلت بعد ذاك إن كان قد بدر عنها ما لا يليق قوله. وكان سفياجسكي قد بدأ الكلام على ليفين وروى أن له أفكاراً غريبة وأنه يعتقد أن إدخال الآلات إلى روسيا عمل مشؤوم بكل بساطة.

قال فرونسكي وهو يبتسم:

– لم أحظ بمعرفة هذا السيد ليفين. لكن الأرجح انه لم ير قط هذه الآلات التي يستنكرها. وإذا كان قد رأى أو جرب بعضاً منها، فلا شك أنها آلات روسية لا أجنبية. وما وجهة نظره، إذن؟

قال فيسلوفسكي وهو يبتسم ويلتفت إلى آنا:

– إنه يرى الأشياء من وجهة نظر تركية.

قالت دولي وقد تضرجت:

– لا أستطيع أن أدافع عن آرائه، لكني أستطيع القول إنه رجل متعلم جداً، ولو كان هنا لعرف كيف يجيبكم، أما أنا فلا أعرف.

قال سفياجسكي وهو يبتسم ابتسامة تنم على الحنو:

– إني أحبه حباً جماً، ونحن صديقان حميمان. لكن عفواً، إن به مساً خفيفاً؛ مثلاً هو يؤكد أن الحكم الذاتي وقضاء الصلح لا فائدة منهما ويأبى أن يشارك فيهما.

Tele: @Arab_Books

قال فرونسكي وهو يصب ماء مثلجاً في كأس لطيف القاعدة:

- هذه لا مبالاتنا الروسية رفض الاعتراف بالواجبات التي تفرضها علينا حقوقنا ثم إنكار الواجبات.

قالت داريا ألكسندروفنا وقد غاظتها لهجة فرونسكي المتعالية:

- لا أعرف رجلاً أدق منه في القيام بواجباته.

استأنف فرونسكي كلامه وكأنما لدغه هذا الحديث:

- من جهتي، تروني أنني ممتن للشرف الذي أُوليته بفضل إيفانوفيتش (وأشار إلى سفياجسكي) حين انتُخبت قاضياً فخرياً للصلح. وأنا أقدر أن واجب الذهاب إلى المحكمة ومحاكمة فلاح سرق جواداً يوازي في أهميته عندي كل ما يمكنني أن أفعله. وإذا ما انتخبت إلى الجمعية الإقليمية فسأعد ذلك شرفاً. هذه هي الطريقة الوحيدة لوفاء الدين الذي أَدين به للمجتمع من أجل المنافع التي أتمتع بها بصفتي ملاكاً. ولسوء الحظ، فإننا لا ندرك الأهمية التي يجب أن تكون للملاكين الكبار في الدولة.

بدا غريباً جداً لداريا ألكسندروفنا أن تراه واثقاً هذه الثقة من نفسه، تحت سقفه نفسه، وعلى مائدته، وتذكرت أن ليفين الذي يحمل آراء مناقضة، كان حاسماً مثله في أحكامه عندما كان في بيته، وعلى مائدته. لكنها كانت تحب ليفين، ولذلك فقد كانت بجانبه.

قال سفياجسكي:

Tele: @Arab_Books

– إذن نستطيع الاعتماد عليك في الجمعية القادمة، يا كونت؟ ولكي تكون هناك في الثامن من الشهر فينبغي أن تذهب قبل هذا التاريخ. وليتك تشرفني بالتوقف عندي...

قالت آنا:

أنا أميل إلى رأي زوج أختك...

وأضافت وهي تبتسم:

– لكن لدوافع مختلفة. أخشى أن تغدو واجباتنا الاجتماعية، في هذه الآونة الأخيرة، فوق طاقتنا. فنحن نصطدم أينما ذهبنا بالمندوبين الاجتماعيين كما كنا نصطدم بالموظفين. إن ألكسي ألكسندروفتش يقيم هنا من ستة أشهر وقد صار عضواً في خمس مؤسسات أو ست مؤسسات مختلفة: فهو قيم وقاض ونائب ومحلف. وعلى هذا المنوال سيقضي وقته كله فيها. وأنا أخاف أن تكون هذه الوظائف العديدة أسمية خالصة.

وقالت وهي تلتفت نحو سفياجسكي:

– كم جمعية أنت عضو فيها، يا نيقولا إيفانوفيتش. ما يقرب من عشرين، على ما يبدو لي؟

كانت آنا تحكي بلهجة رشيقة، لكن حنقها برز فيما تقول. وقد تبينت داريا ألكسندروفنا ذلك على الفور، وكانت تلاحظ آنا وفرونسكي بإمعان. كما لاحظت أيضاً أن وجه فرونسكي قد اتخذ،

Tele: @Arab_Books

أثناء هذا الحديث، تعبيراً رصيناً وعنيداً. وعندما سارعت الأميرة بربارة إلى الحديث عن الأصدقاء في بطرسبرج، رغبة منها في تغيير الحديث، وتذكرت دولي ما حدثها به فرونسكي في الحديقة، حديثاً في غير محله، عن نشاطه، أدركت أن هناك خلافاً صميماً بين آنا وفرونسكي يرتبط بمشكلة هذا النشاط الاجتماعي.

كان العشاء والخمور والخدمة، كان ذلك كله رائعاً، لكن كل شيء جرى كما يجري في الولائم الرسمية والسهرات الراقصة التي فقدت دولي عادتها: التوتر نفسه وغياب الطابع الشخصي ذاته؛ مع أن اليوم كان يوماً عادياً، وأنهم كانوا في حلقة صغيرة؛ ولذلك كان الأثر الذي استقر في نفس دولي مكدراً.

بعد العشاء، ذهبوا إلى الشرفة. ثم لعبوا بكرة المضرب. توزع اللاعبون الذين انقسموا فريقين في الحلبة التي سويت ودخلت بعناية، على جانبي الشبكة الممدودة المشدودة على عمودين مذهبين. حاولت داريا ألكسندروفنا أن تتدرب على اللعب لكنها لم تفهم شيئاً من أصول اللعبة أثناء مدة طويلة. فلما أخذت تفهمها كان التعب قد بلغ منها مبلغاً دفعها إلى ترك اللعب والجلوس قرب الأميرة بربارة، والاكتفاء بالنظر إلى اللاعبين. وكان شريكها توشكييفتش قد ترك اللعب أيضاً؛ لكن الآخرين ظلوا يلعبون طويلاً. كان سفياجسكي وفرونسكي يلعبان كلاهما لعباً رائعاً وبكثير من الجد. كانا يلاحقان الكرة التي ترمى إليهما بعين ثاقبة، ويركضان إليها دون عجلة ولا إبطاء، وينتظران أن تثب ويردانها إلى الجهة الأخرى من الشبكة بضربة مضرب دقيقة. وكان فيسلوفسكي أردأهم لعباً. كان شديد

Tele: @Arab_Books

العصبية، لكنه كان بالمقابل يبعث الحيوية في اللاعبين بمرحه. لم يكن يتوقف عن الضحك والصياح. لقد نزع سترته الرسمية مثل بقية الرجال، بعد استئذان السيدات ليظل بالقميص وحده، وكان شخصه الجميل، ووجهه النضر الذي يتقطر عرقاً، وحركاته المتقطعة تنطبع في الذاكرة.

عندما أوتْ داريا ألكسندروفنا إلى فراشها هذه الليلة، كانت ترى، كلما أغمضت عينيها، فاسيا فيسلوفسكي يغير من أحد أطراف الحلبة إلى طرفها الآخر.

أصاب الضجر داريا ألكسندروفنا، أثناء اللعب. إن هذا الحديث المتصنع الذي استمر بين فيسلوفسكي وآنا، وهذا التكلف الذي يفتعله الكبار وهم يعكفون على لعب الصغار، إن ذلك قد ساءها. لكنها انضمت إلى اللاعبين من جديد، وتظاهرت بالاستمتاع، وذلك لكي لا تزعج الآخرين ولكي تقضي الوقت. خيل إليها، طوال النهار، أنها تمثل مسرحية مع ممثلين أفضل منها، وأنها تسيء إليهم برداءة تمثيلها.

جاءت وفي نيتها أن تظل يومين عند آنا إذا طابت لها الإقامة. لكنها قررت، في المساء نفسه، أثناء اللعب، أن تسافر في اليوم التالي. فتلك الهموم الأمومية المضنية التي كرهتها كرهاً شديداً أثناء سفرها بدت لها واقعة في عالم آخر، وأخذت تجذبها من جديد بعد يوم من الغياب.

وحين عادت وحدها في المساء، بعد الشاي وبعد نزهة في القارب إلى غرفتها، وخلعت ثوبها وجلست لترتب شعرها القليل قبل النوم، شعرت براحة عظيمة.

Tele: @Arab_Books

لقد كانت تكره حتى التفكير في أن آنا ستصل بين لحظة وأخرى. كانت ترغب في البقاء وحيدة مع أفكارها.

كانت دولي توشك أن تضطجع في سريرها عندما دخلت آنا بثياب الليل.

أثناء النهار ساقت آنا الحديث إلى موضوعاتها الحميمة، لكنها كانت تقف كل مرة، بعد بضع كلمات، وتقول في نفسها: «سنتحدث عن ذلك كله، فيما بعد ونحن منفردتان».

ها هما الآن منفردتان، وآنا لا تعلم ما تقوله. كانت جالسة قرب النافذة تستعرض في ذاكرتها ذخيرة دفقها القلبي الصميم التي بدت لها كأنها لا تنضب، فلا تجد شيئاً. وخيل إليها أن كل شيء قد قيل.

قالت وهي تتنهد تنهداً عميقاً، وتنظر إلى دولي بوجه مذنب:

– كيف حال كيتي. قولي لي الحقيقة، يا دولي: أليست حاقدة علي؟

قالت داريا ألكسندروفنا وهي تبتسم:

– حاقدة عليك؟ أوه! لا.

– لكنها تكرهني، تحتقرني...

– لا! لكنك تعلمين أن ذلك لا يغتفر.

قالت آنا وهي تشيح عنها بوجهها وتلتفت من النافذة:

Tele: @Arab_Books

– نعم، نعم. لكني لم أكن مذنبة. ومن المذنب؟ ما معنى ذلك؟ وهل كان يمكن أن تكون الأمور غير ذلك؟ ما رأيك في ذلك؟

أيمكن ألا تكوني زوجة ستيفا؟

– الحقيقة أني لا أدري شيئاً. لكن، قولي لي...

– نعم، نعم، لكننا لم ننته من كيتي. أهي سعيدة. يبدو أنه فتى رائع.

– هذا أقل ما يقال فيه. ولا أعرف رجلاً خيراً منه.

فرددت:

– آه! ما أعظم سروري بذلك! أنا مغتبطة بذلك! أقل ما يقال فيه أنه فتى رائع.

ابتسمت دولي:

– حدثيني عنك. فهناك أشياء كثيرة يجب أن نحكيها. لقد تحادثت أنا و...

ولم تدر دولي كيف تدعوه. كانت تتضايق من تسميته «الكونت» كانت تتضايق من تسميته «ألكسي ألكسندروفتش كيريلوفتش».

قالت آنا:

– ألكسي. أعرف أنكما تحادثتما. لكني كنت أود أن أسألك بصراحة عن رأيك فيّ، في حياتي؟

Tele: @Arab_Books

- كيف أشرح لك ذلك فجأة ودون إعداد؟ الحقيقة أني لا أدري.

- بلى، قولي لي مع ذلك... أنت ترين ما حياتي. لا تنسي أنك ترييننا في الصيف، وأننا لم نكن وحدنا عندما وصلت... لكننا أقمنا هنا منذ بداية الربيع، عشنا وحدنا تماماً، وسنعود إلى وحدتنا ولست أتوق إلى شيء آخر. لكن، لا يغرب عن بالك أنني أظل وحدي أحياناً هنا، بدونه، وأن ذلك سيتكرر... كل شيء يحملني على الاعتقاد بأن ذلك سيتكرر كثيراً، وأنه سيقضي نصف وقته خارج البيت.

قالت ذلك ونهضت لتجلس في موضع أقرب إلى دولي، وقالت وهي تنبه دولي التي أرادت أن تجيب:

- ومن المؤكد أنني لا أريد أن أستبقيه بالقوة. ليس ذلك وارداً الآن، جاء دور السباق، وجياده تشارك فيه، وهو يحضره. إن ذلك يسعدني. لكن فكري فيما يصيبني، وتصوري حالتي... على كل حال، ما جدوى الكلام على ذلك؟

وابتسمت ثم سألتها:

- عمّ تحدثتما، يا ترى؟

- تحدثنا عن موضع كنت أود أن أتطرق إليه بالذات معك، ولذلك يسهل علي أن أصير محامية عنه. عن سبيل... (وترددت داريا ألكسندروفنا) إسباغ الصفة الشرعية على الزواج، وتحسين وضعك... أنت تعلمين كيف أرى الأشياء... لكن، بالرغم من كل شيء، الأفضل أن تتزوجي، إن أمكن.

Tele: @Arab_Books

قالت آنا:

– الطلاق إذن؟ أتعلمين أن المرأة الوحيدة التي زارتني في بطرسبرج هي بيتسي تفيرسكوي؟ أنت تعرفينها، على ما أعتقد؟ في الحقيقة، إنها أسقط امرأة يمكن أن توجد. كان لها مع توشكيفتش علاقة، وكانت تخدع زوجها بأحط الطرق. قالت لي أنها لا تريد أن تراني وأن وضعي شاذ. لا تظني أنني أقارن... فأنا أعرفك، يا صديقتي. لكن هذه الذكرى تعودني بالرغم مني.

ورددت:

– إذن، ماذا قال لك؟

– إنه يتألم لك وله. لعلك تقولين إن هذا من الأنانية، لكنها أنانية نبيلة جداً ومشروعة جداً. إنه يرغب أولاً في أن يقر شرعياً نسب ابنته، وأن يصبح زوجك، أن يكون له حقوق عليك.

فقاطعتها آنا بوجه مكفهر:

– أية امرأة أشد خضوعاً للعبودية مني، في مثل وضعي؟

– وهو يريد، على الخصوص... ألا تتألمي.

– هذا مستحيل. ثم ماذا؟

– ثم إنه يرغب، ورغبته مشروعة جداً، أن يكون لأولاده كنية.

قالت آنا وهي تغمض عينيها نصف إغماضة، ودون أن تنظر إلى دولي:

Tele: @Arab_Books

– أي أولاد؟

– «آني» والأولاد الذين سيأتون...

– يستطيع أن يكون مطمئناً بهذا الصدد: فلن أنجب أولاداً آخرين بعد الآن.

– كيف يمكنك أن تقولي هذا؟

– لن أنجب أولاداً، لأنني لا أريد أن أنجب.

ابتسمت آنا بالرغم من انفعالها حين لاحظت على وجه دولي أمارات الفضول الساذج والدهشة والرعب. وأضافت:

– قال لي الطبيب، بعد مرضي...

قالت دولي وهي تحملق فيها:

– هذا مستحيل!

لقد كان ذلك عندها اكتشافاً من هذه الاكتشافات العظيمة العواقب والنتائج حتى إنه لم يسعها إلا أن تحس في أول لحظة بأنها لا ترى مدى أهميتها وأنها ينبغي لها التفكير فيها طويلاً.

هذا الاكتشاف الذي فسر لها فجأة (وهو ما لم تستطع أن تفهمه قط) لم لا تنجب بعض الأسر سوى ولد أو ولدين، قد ولد فيها كثيراً من الأفكار والخواطر والمشاعر المتناقضة بحيث لم تجد ما تقوله واكتفت بأن حدجت آنا بعينين واسعتين ومدهوشتين. هذا هو بالذات ما

Tele: @Arab_Books

حلمت به، لكنها إذ علمت الآن أن ذلك ممكن خافت. أحست أن هذا حل مفرط البساطة لمشكلة مفرطة التعقيد.

فاكتفت بالقول بعد صمت:

– أليس ذلك لا أخلاقياً؟

– لماذا؟ لا يغرب عن بالك أنني ينبغي أن أختار فإما أن أكون حاملاً أي مريضة، وإما أن أكون صديقة زوجي أو رفيقته، لأننا نعيش كما لو كان زوجي.

قالت ذلك بلهجة سطحية وتافهة، على نحو لا إرادي.

فردت داريا ألكسندروفنا التي تعرفت حججها الخاصة فيما تقوله، لكنها لم تجد لها قوة الإقناع نفسها:

– نعم، نعم.

قالت آنا وكأنها تنبأت بفكرتها:

– بالنسبة إليك وإلى غيرك، يمكن أن يكون هناك شك، أما أنا.... فافهمي أنني لست امرأة له إلا بمقدار ما يحبني. وكيف أصون حبه؟ هكذا؟

وحركت يديها البيضاوين بحركة أمام زنارها.

ازدحمت الأفكار والذكريات في ذهن داريا ألكسندروفنا بسرعة قصوى، كما يحدث غالباً في لحظات الانفعال. وفكرت في نفسها:

Tele: @Arab_Books

«إني لم أستطع أن أحافظ على ستيفا؛ لكن أول امرأة خدعني من أجلها لم تحافظ عليه أيضاً، مع أنها كانت مرحة وجميلة. لقد تركها ليعلق بأخرى، فهل ستحافظ آنا على فرونسكي بهذه الطريقة؟ سوف يجد زينات وطرائق أكثر إغراء، مهما يكن بحثه عنها قليلاً. فمهما تكن ذراعاها العاريتان بيضاوين وجميلتين، ومهما تكن قامتها أنيقة، ومهما يكن فاتناً وجهها الذي يفيض بالحيوية والذي يحيط به شعرها الأسود، فسوف يجد خيراً منها، شأنه شأن زوجي العزيز، الساقط، الجدير بالرثاء».

لم تجب دولي بشيء، واكتفت بالتنهد. لاحظت آنا هذا التنهد الذي يعبر عن الاستنكار وتابعت حديثها. كانت لديها أيضاً حجج قوية على الحد الذي لا يمكن الرد عليها:

– أنت تقولين إن هذا شر؟ لكن لا بدَّ من المحاكمة. أنت تنسين وضعي. كيف يجوز أن أرغب في إنجاب الأولاد؟ لا أقصد الألم، فأنا لا أخافه. لكن تصوري كيف سيكون أولادي! أشقياء يحملون اسماً غير اسم أبيهم. إن ولادتهم ذاتها ستضطرهم إلى الخجل من أمهم وأبيهم ووجودهم.

– من أجل هذا بالذات كان الطلاق ضرورياً.

لكن آنا لم تكن تصغي إليها. كانت تريد أن تعرض حججها حتى النهاية، وهي حجج طالما أقنعت بها نفسها.

– ما فائدة العقل الذي أعطيته إذا لم أستخدمه لأتحاشى إنجاب الأشقياء؟

Tele: @Arab_Books

نظرت إلى دولي واستأنفت دون أن تنتظر جوابها:

– سأشعر أبداً بالذنب تجاه هؤلاء الأولاد المنكودي الحظ. فإذا لم يوجدوا تفادوا الشقاء، على الأقل. بينما لو كانوا أشقياء لكنت أنا المسؤولة الوحيدة.

هذه هي بالذات الحجج التي تصورتها داريا ألكسندروفنا؛ لكنها كانت تصغي إليها دون أن تفهمها. وقالت في نفسها: «كيف يمكن أن نكون مذنبين تجاه كائنات غير موجودة»، وفجأة مرت بخاطرها فكرة: أكان من الأفضل ألا يوجد «غريشا»، ابنها المفضل؟ بدا لها ذلك غريباً جداً وسخيفاً جداً، حتى إنها هزت رأسها لتبدد هذا الحشد من الأفكار المجنونة والعاصفة، وقالت وقد بدا عليها الاشمئزاز:

– بلى، أعتقد أن هذا شر.

أضافت آنا، وكأنها أحست، بالرغم من قوة حججها وتهافت حجج زوجة أخيها، أن ذلك شر:

– لا تنسي من أنتِ ومَن أنا... ثم لا تنسي أنني لست في الوضع الذي أنت فيه. المسألة، بالنسبة إليك، هي أن تعلمي إن كنت ترغبين في الكف عن إنجاب الأولاد، أما بالنسبة إلي، فهي إن كنت أَرغب في الإنجاب. وبينهما فرق كبير. فأنت تدركين أنني لا أستطيع أن أرغب في ذلك وأنا في وضعي هذا.

لم ترد داريا ألكسندروفنا عليها. وأحست فجأة أنها بعيدة جداً عن آنا، وأن هناك مسائل لن تتفقا عليها أبداً، وأن من الأفضل ألا تتطرق إليها.

Tele: @Arab_Books

-٢٤-

قالت دولي:

– هذا أدعى لأن تصححي أوضاعك، إن أمكن ذلك.

قالت آنا بصوت تغير فجأة وغدا خافتاً وحزيناً:

– نعم، إن أمكن ذلك.

– هل الطلاق مستحيل. قيل لي أن زوجك يوافق عليه.

– دولي، أفضل ألا أتكلم على ذلك.

فسارعت داريا ألكسندروفنا إلى القول عندما رأت على وجهها أمارات الألم:

– حسناً، لنكف عن الكلام على ذلك. لكن يبدو لي أنك تبالغين في نظرتك المأساوية.

– أنا؟ أبداً، لا. فأنا مسرورة تماماً وراضية. لقد رأيتِ: إنني أثير الأهواء. فيسلوفسكي...

– نعم الحقيقة أن لهجة فيسلوفسكي لم تعجبني.

Tele: @Arab_Books

قالت داريا ألكسندروفنا ذلك وهي راغبة في تغيير الحديث.

قالت آنا:

– و لم ذاك؟ إن هذا يدغدغ حب ألكسي ألكسندروفتش لذاته، لا أكثر؟؛ فيسلوفسكي مراهق، وأنا قابضة عليه بين يدي أفعل به ما أشاء. إنه مثل ابنك غريشا... يا دولي!

وأردفت وهي تغير فجأة لهجتها:

– أنت تقولين إنني أنظر إلى الأشياء نظرة مأساوية. لا تستطيعين أن تفهمي. الأمر أفظع مما تتصورين. وأنا أحاول جاهدة ألا أرى...

– ومع ذلك يجب أن تفعلي كل ما في وسعك أن تفعليه.

– لكن ما الذي بوسعي أن أفعله؟ لا شيء. أنت تقولين إنني يجب أن أتزوج ألكسي، وأنني لا أفكر في ذلك.

ورددت: «لا أفكر في ذلك». وعلت الحمرة وجهها، ونهضت، وانتصبت، وتنهدت تنهداً عميقاً وأخذت تذرع الغرفة بخطوات خفيفة، وهي تقف بين الحين والآخر. وأردفت:

– لا أفكر في ذلك الأمر؟ لا يمر يوم ولا ساعة أنقطع فيهما عن التفكير فيه، ولا ألوم نفسي على التفكير فيه... لأن هذه الفكرة يمكن أن تجعلني مجنونة... تجعلني مجنونة. وكلما راودتني تلك الفكرة امتنع علي النوم بدون مورفين. يكفي. ولنتكلم بهدوء. إنكم تنصحونني بالطلاق. أولاً، «هو» لن يوافق عليه. فهو الآن خاضع لتأثير الكونتيسة ليديا إيفانوفنا.

Tele: @Arab_Books

كانت داريا ألكسندروفنا معتدلة في جلستها على كرسيها، تتابع بنظرة رؤوفة آنا وهي تذرع الغرفة، فقالت لها بصوت وديع.

– يجب أن تحاولي.

قالت آنا وقد بدا عليها أنها تعرب عن فكرة طالما رددتها على نفسها وحفظتها عن ظهر قلب:

– لنسلم بذلك. أتعرفين ماذا يعني ذلك. ذلك يعني أنني أعترف بذنبي تجاهه، وإن كنت أكرهه؛ وأن علي أن أذل نفسي من أجل الكتابة إليه... لكن لنفرض أنني حملت نفسي على ذلك. فإما أن أتلقى جواباً مهيناً، وإما أن أحصل على موافقته. ولنفرض أنني نلت موافقته...

كانت آنا، في هذه اللحظة، في الطرف الآخر من الغرفة وقد وقفت لتصلح الستار وتابعت:

– .... نلت موافقته... و... وابني؟ لن يعيدوه إلي. سيكبر وهو يحتقرني في منزل أبيه الذي هجرته. اعلمي إذن أنني أحب هذين المخلوقين: سيروجا وألكسي حباً متساوياً، لكني أحب الاثنين أكثر من حبي لنفسي.

تقدمت إلى وسط الغرفة ووقفت أمام دولي، وهي تضغط يديها على صدرها. كانت تبدو مهيبة حقاً فيمئزرها. لقد حنت رأسها ونظرت خفية بعينيها المبللتين والبراقتين إلى دولي النحيفة، الهزيلة في قميص نومها المرتق وفي قبعة الليل، هي ترتجف بجسدها كله من الانفعال. واستأنفت آنا كلامها:

Tele: @Arab_Books

– لا أحب سوى هذين الكائنين في العالم، وكل منهما يستبعد الآخر. لست أستطيع أن أجمع بينهما، مع أن هذه هي أمنيتي الوحيدة. وإذا لم أفلح في ذلك، فلست أبالي بشيء. لست أبالي بشيء. وسوف ينتهي الأمر على نحو أو على آخر، ولذلك لا أستطيع ولا أريد أن أتحدّث عن ذلك –لا تلوميني، ولا تنتقديني. أنت أنقى من أن تدركي مدى ألمي.

دنت من دولي، وجلست بجانبها، وأمسكت بيدها وهي تنظر إليها بوجه مذنب:

– ما رأيك في ذلك؟ ما رأيك فيّ. لا تحتقريني. لا أستحق الاحتقار. أنا تعسة، على وجه الخصوص. إذا كان هناك امرأة تعسة فهي أنا حقاً.

قالت ذلك وأشاحت بوجهها وأجهشت بالبكاء.

بعد أن بقيت دولي وحدها، صلت ونامت. لقد رثت لآنا من كل قلبها وهي تحدثها؛ لكنها لم تستطع الآن أن تحمل نفسها على التفكير فيها. لقد حضر إلى ذاكرتها بيتها وأولادها بجاذبية وإشعاع جديدين. لقد بدا لها عالمها الآن ثميناً، مفعماً بالسحر إلى الحد الذي لم تشأ معه أن تبقى بعيدة عنه أكثر من يوم واحد، ولذلك قررت أن تعود في اليوم التالي، بدون أدنى شك.

رجعت آنا، في هذه الأثناء، إلى الصالة الصغرى. وتناولت هنا كأساً صبت فيه قطرات من دواء يحتوي أساساً على المورفين، وبعد أن شربتها ظلت بضع لحظات جامدة، وتوجهت إلى غرفة النوم وهي هادئة النفس، مطمئنة البال.

Tele: @Arab_Books

عندما دخلت، نظر إليها فرونسكي بانتباه. كان يبحث عن آثار الحديث الذي لا بدَّ أنه انعقد بينها وبين دولي، بما أنها ظلت هذه المدة الطويلة في غرفتها. لكنه لم يرَ في تعبير وجهها، وهو تعبير مغلق ينطوي على الحماسة والكبت معاً، غير هذا الجمال الذي خضع دائماً لسحره، بالرغم من العادة، وغير الشعور بهذا الجمال، وحرصها على التأثير فيه. لم يشأ أن يسألها عم تحدثتا، لكنه كان يرجو أن تبدأ هي بالكلام. بيد أنها اقتصرت على القول:

- أنا مسرورة لأن دولي أعجبتك. لأنها تعجبك. أليس كذلك؟

- إنني أعرفها منذ زمن بعيد. إنها امرأة ممتازة، لكنها مبتذلة إلى أقصى حدود الابتذال. وبالرغم من كل شيء، أنا مغتبط بقدومها.

تناول يد آنا وثبت في وجهها نظرة مستفهمة.

أولت هذه النظرة تأويلاً مختلفاً وأجابته بابتسامة.

في اليوم التالي، تأهبت دولي للسفر، بالرغم من إلحاح مضيفيها. وجاء حوذي ليفين، وهو مقطب، واثق الهيئة، بمعطفه البالي، وبقبعته التي تذكر، على نحو مبهم، بحوذيي مركبات البريد، جاء بالعربة ذات الواقية المرقعة والجياد غير المتجانسة إلى الممر المفروش بالرمل الذي يقوده إلى مدخل الدرج المغطى.

كان وداع داريا ألكسندروفنا للأميرة بربارة وللرجال ثقيلاً على نفسها. فبعد أن قضت يوماً معهم أحست كما أحس مضيفاها بأنهم لم يتوافقوا وبأن افتراقهم أولى بهم. آنا وحدها كانت حزينة. كانت

Tele: @Arab_Books

تعلم أنه لن يأتي أحد، بعد سفر دولي، ليوقظ تلك المشاعر التي حركها هذا اللقاء في نفسها. كانت هذه المشاعر مؤلمة؛ لكنها كانت تعلم أنها الشطر الأفضل من نفسها، وأن هذا الشطر من نفسها ستكتسحه بعد قليل الحياة التي تحياها.

عندما بلغت داريا ألكسندروفنا السهل، خالجها شعور لطيف من التخفف. كانت تريد أن تسأل مصاحبيها إن كانا قد سرا عند فرونسكي لكن الحوذي فيليب بدأ الكلام:

– إذا عددنا الأثرياء فإنهم أثرياء حقاً، لكنهم لم يعطوني جملة وتفصيلاً سوى ثلاثة مكاييل من الشوفان. وقد التهمت الجياد المسكينة كل ذلك قبل صياح الديكة، ثلاثة مكاييل، ليست شيئاً! إنها لا تكفي إلا لفتح الشهية! ونحن ندفع بالشوفان عند التبديل خمسة وأربعين كوبيكاً. أما عندنا فلا يخضع للكيل الشوفان الذي يقدم لجياد الزائرين، أنا مطمئن إلى ذلك!

فأيده المحاسب:

– نعم، والسيد هنا حريص.

سألته دولي:

والجياد، هل وجدتها جميلة؟

– آه! الجياد جميلة، نعم، وليس عندي ما يقال عليها. والغذاء كان حسناً أيضاً. ومع ذلك، لم أحس بالراحة، يا داريا ألكسندروفنا.

والتفت إليها بوجهه الجميل والنبيل وأضاف:

Tele: @Arab_Books

- لست أدري إن كان رأيك مثل رأيي.

- نعم، وأنا لم أشعر بالراحة. قل لي، هل نصل قبل الليل؟

- سنفعل كل ما في وسعنا.

وجدت داريا ألكسندروفنا أولادها في صحة تامة وأعظم سحراً من أي وقت مضى. ووصفت بحيوية رحلتها، والاستقبال الذي خصوها به، والترف، وأناقة آل فرونسكي، ولهوهم، ولم تسمح لأحد بإبداء أي نقد.

قالت بصدق، هذه المرة، ناسية ذلك الإحساس الغامض بالامتعاض والضيق الذي أحست به هناك:

- ينبغي أن نعرف فرونسكي وآنا لندرك إلى أي حدٍّ هما ساحران ورقيقان. وأنا الآن أفضل معرفة بهما.

Tele: @Arab_Books

-٢٥-

قضى فرونسكي وآنا الصيف وشطراً من الخريف في الريف، في الشروط نفسها دون أن يتخذوا تدبيراً بشأن الطلاق. لقد قررا ألا يغادرا منزلهما؛ لكنهما أحسا كلاهما، بعد أن عاشا وحدهما زمناً طويلاً، ولا سيما في الخريف بعد سفر مدعويهما، أنهما لا يستطيعان تحمل هذه الحياة وأن من اللازم تغييرها.

كانا يبدوان كأنهما لا يستطيعان أن يشتهيا حياة أفضل: لقد توافرت لهما الثروة والصحة والبنت، وكان لكل منهما مشاغله. وظلت آنا، حتى أثناء غياب زوجها، تحسن العناية بنفسها، وتقرأ الكتب العصرية: الروايات والكتب الجادة. وكانت تستجلب الكتب التي تمدح في الجرائد والمجلات الأجنبية وتتلقاها وتقرؤها بانتباه لا توليه القراءة إلا في العزلة. وفضلاً عن ذلك، كانت تطالع في الكتب والمجلات الاختصاصية جميع الموضوعات التي تهم فرونسكي، وكان يستشيرها غالباً في مسائل الزراعة والهندسة بل وتربية الخيل أو الرياضة. وأدهشته بمعارفها وذاكرتها فشك فيها أولاً وسألها عن المراجع: لكنها وجدت في تلك المراجع المقاطع المطلوبة ودلته عليها.

كان إعداد المستشفى يعنيها أيضاً. لم تكن تشرف عليه فحسب،

Tele: @Arab_Books

لكنها كانت تساعد بنفسها وتعثر على ترتيبات أخرى. وكان همها الأكبر، بالرغم منها، هي نفسها، بمقدار ما هي عزيزة على فرونسكي، وبمقدار ما تستطيع أن تقوم مقام كل ما هجره. وكان فرونسكي يقدر هذه الرغبة لا في أن تعجبه بل في أن تخدمه، وهي الرغبة التي غدت هدف حياتها الوحيد، لكن أواصر الحب هذه التي كانت تحاول أن تغمره بها كانت عبئاً عليه. وكان كلما مر الوقت ورأى نفسه مغموراً بهذه الأواصر، ازداد شوقاً لا إلى الإفلات منها، بل إلى التحقق من أن كانت هذه الأواصر لا تقيد حريته، ولولا هذه الرغبة المتعاظمة أبداً في أن يحس بحريته، وفي تفادي المشاحنات كلما توجه إلى عاصمة الإقليم لحضور اجتماع أو لمشاهدة السباق لكان فرونسكي راضياً كل الرضا عن حياته. إن الدور الذي اختاره، وهو دور أحد الأثرياء الملاكين الذين ينبغي أن يكونوا نواة الارستقراطية الروسية لم يكن يلائم ذوقه تماماً فحسب بل غدا يوفر له، الآن بعد أن عاش في الريف ستة أشهر على هذا النحو، مسرات تنمو باطراد. وكانت أعماله التي أخذت تستغرقه شيئاً فشيئاً تسير سيراً حسناً. وبالرغم من المبالغ الهائلة التي أنفقها على المستشفى والآلات والماشية التي طلبها من سويسرا، ومن مشتريات أخرى، كان مقتنعاً بأنه لم يزعزع ثروته بل إنه وطدها. وعندما كان الأمر يمس عائداته، من مثل بيع الأخشاب، والحبوب، والصوف، أو تأجير الأرض، فقد كان صلباً كالصخرة يعرف كيف يحافظ على أسعاره. وفي الزراعة، كان يقتصر على أبسط الطرق وأقلها مجازفة، ويتسم بالحذر والتوفير في أصغر التفاصيل. وبالرغم من حيلة وكيله الألماني ومهارة هذا الوكيل الذي كان يحاول أن يجره وهو يصور له المشتريات الجديدة وكأنها توفير قادر على تحقيق أرباح مباشرة، فإن الحيلة لم تكن لتنطلي

Tele: @Arab_Books

عليه. كان يصغي إلى وكيله حتى النهاية، ويسأله ولا يأخذ برأيه إلا إذا كان المشروع المقصود جديداً كل الجدة في روسيا، وقادراً على أن يترك أثراً عميقاً فيمن حوله. لم يكن يعقد العزم على إنفاق المبالغ الكبيرة إلا إذا توافر لديه الفائض، فإذا أنفق مثل هذه المبالغ تحقق من أدنى التفاصيل، حرصاً منه على أن يحصل، في مقابل ماله، على أفضل النتائج. وبهذه الطريقة، كان ينمي ثروته بدلاً من أن يبددها.

في تشرين، كان يجري انتخاب نقباء الطبقة النبيلة في مقاطعة كاشين حيث توجد أراضي فرونسكي، وسفياجسكي، وكوزبنيشيف، وأوبلونسكي، وقسم صغير من أراضي ليفين.

كانت هذه الانتخابات تجتذب انتباه المجتمع بسبب من الظروف ومن الشخصيات التي تشارك فيها. كان الناس يتحدثون كثيراً عنها ويستعدون لها. وكان الكثير من الناس ممن يسكنون موسكو وبطرسبرج والخارج، وممن لم يحضروا الانتخابات قط، يتجهون إلى عاصمة المقاطعة.

وعد فرونسكي، منذ زمن بعيد، سفياجسكي أن يكون حاضراً.

وقبل ذلك بوقت قليل، مر سفياجسكي الذي كان يزور «فوزفيجنسكوي» غالباً، ليرى فرونسكي.

والبارحة بالذات، تخاصم فرونسكي وآنا بشأن هذه الرحلة. كانا في هذه الفترة في الخريف التي هي أجلب الفترات للضجر في الريف، وقد أعلن فرونسكي سفره لآنا، وهو يستعد للنزاع، بلهجة باردة وصارمة

Tele: @Arab_Books

لم يصطنعها من قبل في حديثه معها. وشد ما كانت دهشته عندما تلقت آنا النبأ بهدوء شديد، وسألته فقط عن موعد عودته. ونظر إليها بانتباه دون أن يفهم تلك السكينة النفسية. فردت على نظرته بابتسامة. كان يعرف قدرة آنا على الانكفاء على نفسها ويعلم أنها لا تستخدمها إلا إذا اتخذت قراراً لا تريد أن تُطلعه عليه. كان يخشى هذه الحالة؛ لكنه كان شديد الحرص على أن يتفادى مشاحنتها حتى لقد أظهر الاعتقاد بأنها صارت أقرب إلى المعقول (بل إنه اعتقد ذلك جزئياً).

– أرجو ألا ينتابك الملل.

قالت آنا:

– وأنـا أيضاً. تلقيت البارحة صندوقاً من الكتب، من عند «غوتييه»[٣٧]. لا، لن يصيبني الملل.

فكر في نفسه: «هذه لهجة تريد أن تصطنعها. هذا أفضل، وإلا لظلت على لهجتها القديمة».

وسافر هكذا، دون أن يسألها إيضاحاً. كانت هذه أول مرة منذ بدء علاقتهما، يتركها فيها دون أن يتفاهما بعمق. كان هذا يقلقه من جهة، ومن جهة أخرى كان يراه أفضل. وقال في نفسه: «سيظل بيننا، في البداية كما هي الحال الآن، شيء من التشوش، شيء لا يفصح عنه، ثم سوف تتعوده. على كل حال، أنا مستعد للتضحية بكل شيء من أجلها، ما عدا استقلالي».

٣٧– من عند غوتييه: مكتبة فرنسية كبيرة في موسكو أسست سنة ١٧٩٩.

Tele: @Arab_Books

-٢٦-

في أيلول، توجه ليفين إلى موسكو من أجل الـولادة المنتظرة. ومضى عليه شهر فيها وهو يعيش في فراغ حتى جاء أخوه سيرج إيفانوفتش الذي كانت له ملكية في مقاطعة كاشتين والذي كان يهتم اهتماماً كبيراً بالانتخابات المقبلة، واستعد للسفر إلى هناك، فدعا أخاه الذي كان يملك أرضاً في منطقة «سيليزبنيف» إلى مصاحبته. وكان على ليفين، فوق ذلك، أن يسوي لأخته التي تعيش في الخارج قضية وصاية واستيفاء ملحة.

تردد ليفين، لكن كيتي التي رأت أنه أخذ يضجر في موسكو والتي نصحته بالذهاب أوصت له خفية على بزة من بزات النبلاء كلفت أربعة وثمانين روبلاً. هذه النفقة أقنعته بالذهاب، فقصد إلى كاشين.

مرت على ليفين خمسة أيام في كاشين وهو يتردد يومياً على الاجتماعات ويقوم بمساع من أجل قضيتي أخته اللتين لم تسويا. كان نقباء الأشراف جميعهم مشغولين بالانتخابات ولم يكن بالإمكان تسوية أبسط مسألة متعلقة بمجلس الوصاية. وأما المسألة الثانية وهي مسألة استيفاء الإتاوة التي يدفعها الفلاحون في مقابل تنازل الملاك عن أرضه عند إلغاء القنانة، فقد اصطدمت أيضاً بعقبات. وبعد مساع

Tele: @Arab_Books

طويلة لرفع الحجز، كان المال جاهزاً للدفع، لكن كاتب العدل، وهو رجل شديد المجاملة، لم يكن بوسعه أن يسلم سنداً على الخزينة لأن توقيع الرئيس كان ضرورياً ولأن الرئيس، وإن لم يتخل عن مهماته، كان في الدورة. كل هذه الإرباكات، والروحات والجيئات، والأحاديث مع ناس طيبين أدركوا جيداً ما في وضع هذا المُراجع من مضايقات ولم يستطيعوا أن يمدوا له يد المساعدة، كل هذا التوتر الذي لا يفضي إلى نتيجة ولد في ليفين شعوراً معذباً شبيهاً بذلك العجز المحنق الذي يصيبنا في الحلم عندما نود أن نستخدم قوتنا الجسدية. كان يحس بذلك في الغالب وهو يتحدث مع معتمده. وكان هذا المعتمد رجلاً ممتازاً بدا عليه أنه يبذل وسعه ويستخدم كل إمكانات ذكائه ليخلص ليفين من ورطته. كان يقول له: «جرب هذه الوسيلة، اذهب إلى هذا المكان أو ذاك»، ويبني المعتمد خطة كاملة ليدرس الصعوبة التي تتعثر بها القضية. لكنه لا يلبث أن يضيف: «لن ينفعك ذلك في شيء، لكن حاول دائماً». ويحاول ليفين، ويقوم بزيارة جديدة. وكان الجميع طيبين ولطيفين، لكن العقبة التي يحاول تفاديها لا تلبث أن تبرز من جديد لتسد طريقه. أنكد ما في الأمر أن ليفين ألم يستطع أن يدرك من كان يصارع، ومن المنتفع إن لم تنجح مساعيه. وهذا ما لم يمكن يبدو على أحد أنه يدركه؛ كان معتمده يجهل ذلك كما كان يجهله الآخـرون. ولو أن ليفين استطاع أن يدرك ذلك، كما يدرك المرء أنه لا يستطيع الاقتراب من شباك التذاكر في المحطة إلا بدوره، لما أحس بالمضايقة؛ لكن لم يستطع أحد أن يفسر له وجود العقبات التي يصادفها.

تغير ليفين كثيراً بعد زواجه؛ لقد غدا صبوراً، وإذا لم يكن يفهم لم

Tele: @Arab_Books

رُتب كل شيء على هذا النحو، فقد كان يقول في نفسه: إنه لا يستطيع أن يحكم دون أن يفهم كل شيء، وأن ذلك ضروري، فيحاول جاهداً ألا يثور.

وكان يحاول الآن أيضاً وهو يحضر الانتخابات ويشارك فيها ألا يصدر نقداً، وألا يخاصم أحداً، وأن يفهم قدر الإمكان هذا الحدث الذي عكف عليه بكثير من الجد والحماسة كثير من الرجال الشرفاء الجديرين بالتقدير والاحترام. لقد اكتشف ليفين في الحياة، منذ أن تزوج، كثيراً من الجوانب الجادة التي كان يعدها من قبل تافهة بسبب طيشه، وأخذ يفتش عن المعنى الجدّى لهذه الانتخابات.

كان سيرج إيفانوفتش يشرح له معنى هذه الثورة المزعومة ومداها. إن نقيب الأشراف في هذه المقاطعة التي تركزت بين يديه، بحكم القانون، الكثير من المؤسسات الهامة بما فيها الوصايات (وهي نفسها التي سببت لليفين ذلك الإزعاج)، والمبالغ الهائلة، والمعاهد، والتعليم العام، والإدارة الإقليمية، إن نقيب الأشراف «سنيتكوف، كان نبيلاً من أسرة عريقة بدد ثروة ضخمة، وكان شهماً، شريفاً بين أقرانه، لكنه كان غريباً كل الغرابة عن مقتضيات العصر. كان يتصدى، في جميع المسائل، للدفاع عن الطبقة النبيلة، ويعارض بصراحة انتشار التعليم العام، ويعطي المجالس المحلية التي ينبغي أن تكون لها أهمية عظيمة طابعاً طبقياً. كان يجب أن يحل محله شاب نشيط، ابن عصره، جديد كل الجدة، يقوم بمهمته على نحو يستخلص فيه من الحقوق الممنوحة للطبقة النبيلة، لا من حيث هي طبقة نبيلة بل من حيث هي عنصر من عناصر المجالس المحلية، كل ما يمكن استخلاصه لمصلحة «الحكومة

Tele: @Arab_Books

الذاتية». ففي مقاطعة «كاشين» الغنية، التي كانت تتقدم غيرها دائماً، تجمعت الكثير من القوى بحيث أن عملاً مناسباً يباشر به هنا يمكن أن يكون قدوة تقتدي بها مقاطعات روسيا جميعاً. ولذلك كان للدورة الحاضرة أهمية كبيرة. وكان من المتوقع أن يأتي محل سنيتكوف أو سفياجسكي أو حتى ينفييدوفسكي أستاذ قديم، ورجل مرموق الذكاء، وصديق كبير من أصدقاء سيرج إيفانوفتش.

افتتح الحاكم الدورة بخطاب دعا فيه النبلاء إلى اختيار أصحاب الرتب لا بحسب المودات بل بحسب الجدارة، ومن أجل خير الوطن؛ وأضاف أنه يأمل أن يتمم أشراف كاشين واجباتهم بأمانة ودقة كما فعلوا في الانتخابات السابقة ليسوغوا ثقة مليكهم.

عندما أنهى الحاكم خطابه، ترك القاعة، وتبعه الأشراف وقد ضجوا وهاجوا، بل وتحمسوا، وأحاطوا به وهو يرتدي معطف الفرو ويتحدث حديثاً ودياً مع نقيب الأشراف. أما ليفين الذي كان لا يحب أن يفوته شيء فقد اختلط بالجمهور وسمع الحاكم يقول: «أرجو أن تنقل إلى ماري إيفانوفنا اعتذارات زوجتي، لكنها ستزور مستشفى للمجانين». وعند ذلك ارتدى الأشراف معاطفهم بمرح وتوجهوا إلى الكنيسة. وهناك، رفع ليفين يده مع الآخرين وكرر كلمات رئيس الأساقفة، وأقسم بالأيمان المغلظة أن يستجيب لآمال الحكومة. كان ليفين شديد التأثر بالقداس الديني، فعندما نطق بهذه الكلمات: «إني أقبل الصليب» والتفت ليرى هذا الجمهور من الرجال الكبار والشباب وهم يلفظون هذه الكلمات أحس بالانفعال.

Tele: @Arab_Books

في اليوم التالي، والذي تلاه، شُغل المجتمعون بالميزانية وبمعهد الفتيات، وهما مسألتان لا تنطويان، برأي سيرج إيفانوفتش، على أية أهمية. لذلك لم يحضرهما ليفين الذي شغل بمساعيه. في اليوم الرابع، جرى التحقق من حسابات المقاطعة. ولأول مرة وقع صدام بين الحزب الجديد والحزب القديم. فاللجنة المكلفة بالتحقيق في المبالغ أعلنت للجمعية أن كل شيء كان حسب الأصول. ووقف نقيب الأشراف وشكر الجمعية للثقة التي منحته إياها، وذرف بعض الدموع. فصفق له الأشراف وشدوا على يده. لكن أحد أعضاء حزب سيرج إيفانوفتش صرح، في هذه اللحظة، أنه سمع أن اللجنة لم تباشر التحقيق، مقدرة أن في ذلك إهانة لنقيب الأشراف. وأيد أحد أعضاء الجمعية بتهور هذه الأقوال. حينذاك وقف سيد قصير، شاب في الظاهر لكنه لاذع التهكم وعرض بأن نقيب الأشراف كان سيسر من غير شك لو قدم حساباً عن إدارته، لكن رقة اللجنة المرهفة حرمته هذه المتعة النفسية. عند ذاك سحب المحققون تصريحهم، وبدأ سيرج إيفانوفتش يبرهن على أنه يجب أن يعلن للجمعية أحد شيئين: إما أن تكون الحسابات قد حقق فيها، وإما أنها لم يحقق فيها، واستفاض في الكلام على هذا البرهان ذي الحدين. وتصدى للرد على سيرج إيفانوفتش محدث جذاب الحديث من الحزب المضاد. وبعد ذلك تكلم سفياجسكي، ثم جاء دور السيد المتهكم مرة أخرى. دام النقاش طويلاً ولم يتيسر الانتهاء منه. وزاد من دهشة ليفين إزاء هذا النقاش الطويل لهذه المسألة، أنه عندما سأل سيرج إيفانوفتش إن كان يتهم «سنيتكوف» بالتبذير، أجابه:

– أوه! لا. إنه رجل شريف. لكن ينبغي أن نزعزع هذه الطريقة العتيقة في إدارة شؤون الحكم.

Tele: @Arab_Books

في اليوم الخامس، جرت انتخابات نقباء المناطق. كان ذلك اليوم عاصفاً جداً في بعض المناطق. وفي منطقة «سليزنييف» تمّ انتخاب سفياجسكي بالإجماع وأقام مأدبة عشاء في اليوم نفسه.

Tele: @Arab_Books

-٢٧-

حُدد موعد انتخابات نقيب المقاطعة في اليوم السادس. كانت القاعات غاصة بالأشراف الذين ارتدوا بزات شتى. وقد وصل الكثير منهم في هذا اليوم بالذات. وتلاقى الآن أصدقاء لم يروا بعضهم بعضاً منذ زمن بعيد، جاء أحدهم من القرم، وجاء آخر من بطرسبرج، وجاء الثالث من الخارج. وقرب طاولة الحاكم، تحت صورة الإمبراطور، كانت المناقشات تسير سيراً حسناً.

كان الأشراف في القاعة الكبرى والقاعة الصغرى يتجمعون في معسكرين، وكانت النظرات المعادية، الحذرة، والصمت المفاجئ عندما يمر الخصم، والهمس في أركان القاعتين وحتى في الممر، كان ذلك كله يُظهر أن كلاً من الطرفين يخبئ أسراراً عن الآخر. كان الأشراف ينقسمون في الظاهر انقساماً جلياً إلى طائفتين: القدامى والجدد. كان القدامى في معظمهم إما في بزات مزررة انقضى عهدها مع السيف والقبعة، وإما في بزات الفرسان والبحرية والمشاة. وكانت بزات الأشراف القدماء مفصلة بحسب الزي القديم، منفوخة عند الكتفين، قصيرة القياس، ضيقة كما لو أن لابسيها قد كبروا فيها. أما الشباب فكانوا يرتدون بزات محلولة الأزرار، طويلة، عريضة الكتفين،

Tele: @Arab_Books

مع صدرات بيضاء، أو يلبسون لباساً ذا قبة سوداء مزينة بأوراق الغار، هو لباس وزارة العدل. وكان بعض الشباب يرتدون لباس البلاط الذي ألقى هنا وهناك شيئاً من البهجة على الجمعية.

لكن هذا التقسيم إلى شباب وشيوخ لم يكن يتطابق مع التقسيم إلى حزبين. لقد لحظ ليفين أن بعضاً من الشباب ينتمون إلى الحزب القديم، وبالمقابل فإن بعض الأشراف الطاعنين في السن كانوا يكلمون سفياجسكي بصوت خافت، وكان ظاهراً أنهم من زعماء الحزب الجديد المتحمسين.

كان ليفين في القاعة الصغرى حيث كان الحاضرون يدخنون ويتناولون المقبلات، وكان يجلس إلى جانب طائفة من أصدقائه. كان يصيخ السمع إلى ما يقال، ويستنفر عبثاً قوى فكره ليفهم ما يجري. وكان سيرج إيفانوفتش المركز الذي يتجمع حوله الآخرون. وكان يصغي في هذه اللحظة إلى سفياجسكي وكليوستوف ونقيب منطقة أخرى ينتمي إلى حزبهم. لم يكن من رأي «كليوستوف» أن يرجو سنتيكوف باسم المنطقة لكي يقدم ترشيحه. وكان سفياجسكي يحاول أن يقنعه بذلك، وكان سيرج إيفانوفتش موافقاً على هذه الخطة. و لم يفهم ليفين لماذا ينوي الحزب الخصم أن يطلب من النقيب الذي يطمح في استبعاده أن يقدم ترشيحه.

دنا منهم ستيفان أركاديفتش الذي انتهى من شرب كأس ومن تناول بعض المقبلات وهو يمسح فمه بمنديل من الباتيستا المعطر، وقد ارتدى بزة حاجب الإمبراطور.

Tele: @Arab_Books

قال وهو يملس سالفيه:

– نحن نحتل الموقع، سيرج إيفانوفتش!

وبعد أن استمع إلى الحديث أيد سفياجسكي، وقال:

– تكفي منطقة واحدة، ومنطقة سفياجسكي تنتمي إلى المعارضة بصراحة بالغة.

فهم الجميع ما عدا ليفين.

وأضاف وهو يلتفت إلى ليفين ويمسك بيده:

– وأنت أيضاً، يا كوستيا، كأنك تتذوق ذلك؟

كان ليفين سيسر لو تذوق ذلك، لكنه لم يكن يفهم ما يجري، وبعد أن نأى خطوات أعرب لستيفان أركاديفتش عن حيرته.

قال ستيفان أركاديفتش باللاتينية:

– يا للبساطة المقدسة!

وشرح لليفين القضية في بضع كلمات.

إذا كانت جميع المناطق تطالب بترشيح سنيتكوف، كما كانت الحال في الانتخابات السابقة، فسوف ينجح في الاقتراع. وذلك ما ينبغي تفاديه. وفي هذه المرة اتفقت ثماني مناطق على المطالبة بسنيتكوف؛ وإذا امتنعت اثنتان منها فقد يسحب ترشيحه. وحينذاك

Tele: @Arab_Books

قد يختار الحزب القديم نقيباً آخر أشد خطراً بين أفـراده وينهار الائتلاف. بينما لو امتنعت منطقة سفياجسكي لرشّح سنيتكوف نفسه مع ذلك، ولا تنقل جزء من الأصوات إليه: وفي هذه الحالة سيمنح الحزب الخصم المبلبل بعض أصواته لمرشح المعارضة حين يتقدم هذا المرشح للانتخابات.

لم يفهم ليفين إلا نصف فهم، وأراد أن يطرح بعض الأسئلة، عندما أخذ الجميع فجأة يتكلمون معاً واتجهوا إلى القاعة الكبرى:

«مـاذا جرى؟ مـاذا؟ مَنْ هـذا؟» – «سلطة يحققون فيها؟ مَنْ المقصود؟» – «نعم، هذا رفض». – «كلا». – «فليروف هو الذي لم يقبلوا به». – «لماذا، لأنه كان غرضاً للتحقيق؟» – «على هذا الأساس، لن يقبلوا أحداً». – «هذا عمل دنيء». – «هذا هو القانون».

سمع ليفين هذا الكلام آتياً من مختلف الجهات، واختلط بجميع الذين كانوا يستعجلون، خشية أن يفوته الحادث، واتجه إلى القاعة الكبرى. وزحمه الجمهور فدنا من طاولة الشرف التي كان يتناقش حولها نقيب الأشراف سفياجسكي وشخصيات أخرى مرموقة.

Tele: @Arab_Books

-٢٨-

كان ليفين بعيداً جداً. وكان بجانبه شخص أجش الأنفاس، وآخر له حذاء يطقطق، فمنعاه من أن يسمع بوضوح. سمع فقط صوتاً آتياً من النقيب، ثم صراخ السيد المتهكم، ثم صوت سفياجسكي. كانوا يتناقشون، بحسب ما فهم، حول معنى المادة القانونية والكلمات «كان غرضاً للتحقيق».

فسح الجمهور الطريق ليمر سيرج إيفانوفتش. وبعد أن استمع إلى آخر ما تكلم به السيد المتهكم قال: إن الرجوع إلى نص القانون أدعى إلى الثقة، فيما يبدو له، وطلب إلى أحد أمناء السر أن يبحث عن تلك المادة. وكانت تنص على أنه في حالة اختلاف الآراء ينبغي أخذ الأصوات.

قرأ سيرج إيفانوفتش المادة وشرع يشرح معناها، لكن ملاكاً قطع عليه الكلام حينئذ، وكان رجلاً طويلاً، ضخماً، مقوس الظهر قليلاً، ذا شاربين مصبوغين، وبزة ضيقة تشد قبتها قذاله. دنا من الطاولة، وضربها بخاتمه، وصرخ بصوت قوي:

– إلى الأصوات! إلى الأصوات! لا نقاش!

Tele: @Arab_Books

ارتفعت بعض الأصوات فجأة وأخذ النبيل ذو الخاتم الذي تزايد هياجه، يصرخ بقوة آخذة في الشدة. لكن كان من المستحيل تمييز ما يقول.

كان يطالب بما يطالب به سيرج إيفانوفتش؛ لكن الظاهر أنه كان يكرهه كما كان يكره كل حزبه؛ وانتقل هذا الكره إلى الحزب الخصم وأثار فيه الحنق نفسه وإن عبر عنه بأشكال أكثر حشمة. وتعالت الصرخات؛ وحدث تشوش عظيم حمل نقيب الأشراف على طلب الصمت.

«إلى الأصوات! إلى الأصوات! سيفهمني جميع الأشراف». - «ستريق دمنا...» - «ثقة المليك...» - «لا تصغوا إلى النقيب، فليس له أن يأمرنا...» - «ليست هذه هي المسألة...» - «إلى صناديق الاقتراع...» - «هذه فضيحة».

ارتفع الزعيق من كل جانب. وكان يعبر عن حقد شديد. لم يفهم ليفين ما الذي يحدث، ودهش لهذه الأهواء التي أثارتها قضية «فليروف». ونسي القياس الذي يقضي بأن يهزم نقيب المقاطعة من أجل المصلحة العامة، كما شرح له ذلك سيرج إيفانوفتش فيما بعد؛ ولكي يهزم كان لا بدَّ من أغلبية الأصوات، وللحصول على هذه الأغلبية كان يجب منح «فليروف» حق التصويت؛ ومن أجل إثبات حق فليروف، كان يجب تفسير المادة القانونية بالمعنى المناسب. وختم سيرج إيفانوفتش كلامه:

- وهكذا يستطيع صوت واحد أن ينقل الأغلبية من جانب إلى

Tele: @Arab_Books

جانب. فإذا شئنا أن نخدم المصلحة العامة وَجَبَ علينا أن نكون جديين وأن نتحلى بروح المثابرة. لكن ليفين نسي ذلك، وشق عليه أن يرى هؤلاء الناس الطيبين الذين يقدرهم في مثل هذه الحالة من الحنق والهياج. ولكي يتخلص من هذا الإحساس المزعج، توجه، دون أن ينتظر نهاية المناقشة، إلى القاعة الصغرى التي لم يكن فيها سوى خدم المقصف. وعندما رآهم ليفين يجففون الأواني ويرتبون الصحون والكؤوس بأوجه هادئة، أحس بشعور غير متوقع من الراحة وكأنه خرج إلى الهواء الطلق من غرفة منتنة. وأخذ يتمشى طولاً وعرضاً وهو ينظر إلى الخدم بابتهاج. وأُعجِب بخادم رمادي السالفين. مليء بالازدراء لمناكدات رفاقه الشباب، وهو يعلِّمهم كيف يطوون المناشف. وأوشك أن يخاطبه، لولا أن حول انتباهه أمين سر مكتب الوصايات، وهو شيخ قصير متخصص بمعرفة أشراف المقاطعة بأسمائهم وكناهم. قال له:

– عفواً، يا قسطنطين دميتريتش، أخوك يبحث عنك. سيتم التصويت.

رجع ليفين إلى القاعة الكبرى، وتلقى بطاقة الاقتراع، ودنا، في إثر أخيه سيرج إيفانوفتش، من الطاولة التي استقر بقربها سفياجسكي، بهيئته الساخرة، المتوقرة، وهو ينفخ على لحيته التي جمعها بيده. وضع سيرج إيفانوفتش بطاقته في الصندوق، وتنحى قليلاً ليسمح بمرور أخيه. اقترب ليفين بدوره، لكنه كان قد نسي موضوع التصويت، فارتبك، والتفت إلى سيرج إيفانوفتش وسأله أين ينبغي أن يضع بطاقته. لقد تكلم بصوت خافت وكان الناس يتحدثون حوله،

Tele: @Arab_Books

ولذلك كان يأمل ألا يسمعه أحد. لكن الذين كانوا يتكلمون سكتوا، وسمعوا السؤال غير اللائق. قطب سيرج إيفانوفتش بين حاجبيه، وقال بصرامة:

– هذه قضية قناعة.

ابتسم بعضهم. احمر ليفين، وأسرع فدس تحت الغطاء يده اليمنى التي تمسك بالبطاقة ووضع البطاقة في الجهة اليمنى. حينذاك تذكر أنه ينبغي أن يخفي يده اليسرى أيضاً. فسارع ودسها تحت الغطاء، لكن الوقت كان متأخراً. فأخذ ارتباكه يشتد وانسحب على عجل إلى الصفوف الخلفية.

أعلن أمين السر:

– مائة وستة وعشرون صوتاً موافقاً! ثمانية وتسعون صوتاً معارضاً!

ثم سمعت ضحكات: ذلك أنهم وجدوا في الصندوق زراً وجوزتين. لقد قُبِل فليروف وانتصر الحزب الجديد.

لكن الحزب القديم لم يسلِّم بأنه غلب. وسمع ليفين النبلاء يرجون سنيتكوف أن يتقدم للانتخاب ورأى جمهور النبلاء يحيطون بالنقيب الذي كان يقول شيئاً. فاقترب منه. كان سنيتكوف يتحدث، وهو يجيب النبلاء، عن الثقة والمحبة اللتين أبدوهما له واللتين لا يستحقهما، لأن ميزته الوحيدة هي إخلاصه للطبقة النبيلة التي كرَّس لها اثنتي عشرة سنة من حياته. وكرر، عدة مرات: «خدمت العقيدة والحقيقة، بقدر ما

Tele: @Arab_Books

تسمح به قواي. إني أقدركم وأشكركم»، وفجأة توقف بعد أن غص بالعبرات، وترك القاعة. هل استدر هذه الدموع شعوره بالظلم الذي ارتكب بحقه، أو بحبه للطبقة النبيلة، أو بصعوبة موقفه وقد أحس بالأعداء يكتنفونه؟ والشيء المؤكد هو أن انفعاله انتقل إلى من حوله. فتأثر معظم الحاضرين، وخامر ليفين شيء من الحنان إزاءه.

عند عتبة الباب اصطدم نقيب الأشراف بليفين، وقال عندما عرف ليفين:

- عفواً، اعذرني.

وابتسم بوجل. فأحس ليفين بأنه ينوي أن يقول شيئاً لكن الانفعال منعه من ذلك. إن تعبير وجهه وشخصه كله، وهو يهم بالخروج، في بزته المغطاة بالأوسمة وبنطاله الأبيض المزين بشرائط، إن ذلك كله ذكر ليفين بالوحش المطارد. ولقد أثر ذلك التعبير الذي ارتسم على وجه نقيب الأشراف تأثيراً كبيراً في نفس ليفين ولا سيما أنه ذهب البارحة إلى منزله من أجل قضية الوصاية فرآه والوقار يغمره، وقار الرجل الطيب القلب، ورب العائلة الرحيم، في مسكن فسيح قديم الأثاث، وحوله خدم متقدمون في السن، في لباس مهمل وإن نمّت حركاتهم على الاحترام؛ ورأى امرأة سمحة، بدينة، بقبعة مخرمة وشال تركي، تغمر بمظاهر الحنان صبية جميلة هي حفيدتها؛ وفتى أنيق الهيئة قبّل يد والده القوية عند عودته من المعهد؛ إن تصرفات رب المنزل المهيبة، وبشاشته، أيقظت في نفس ليفين الاحترام والمودة. ولذلك أخذته الشفقة بهذا الشيخ الآن؛ وأراد أن يقول له شيئاً لطيفاً:

Tele: @Arab_Books

– أرجو أن تظل على رأسنا.

قال النقيب وهو يلتفت كالخائف:

– لا أدري. فأنا طاعن في السن، ومتعب. وهناك من هم أجدر وأصغر سناً مني. فليحلوا محلي.

وتوارى النقيب من باب جانبي.

اقتربت الدقيقة الرسمية. كان لا بدَّ من الشروع في الانتخابات دون تأخر. وكان زعماء الحزبين يعدون على أصابعهم المناصرين والمعارضين.

إن الجدال الذي جرى بصدد «فليروف» أكسب الحزب الجديد صوته، وأربحه شيئاً من الوقت: فقد أمكن المجيء بثلاثة نبلاء حرمتهم مكائد الحزب القديم إمكان المشاركة في الانتخابات. اثنان من هؤلاء كانا يميلان إلى الشراب قد أسكرهما عملاء سنيتكوف أما الثالث فقد أخفوا بزته.

لقد تسنى للحزب الجديد، حين علم بذلك، أن يرسل بزة، أثناء النقاش وأن يأتي بأحد النائبين الثملين.

قال النائب الذي ذهب ليأتي به:

– جئتك بواحد منهما، لقد صببت على رأسه سطلاً من الماء. صار يمكنه الوقوف على رجليه.

Tele: @Arab_Books

سأله سفياجسكي وهو يهز رأسه:

- وهو لن يقع؟

- لا، مشت الحال بشرط ألا يسقوه شيئاً. لكني قلت للمسؤول عن الحانة ألا يقدموا له شيئاً مهما تكن الذريعة.

Tele: @Arab_Books

-٢٩-

كانت القاعة التي يدخن الحاضرون ويتناولون المقبلات فيها غاصة بالناس. وكان الاهتياج الديني يتزايد والقلق يقرأ على جميع الوجوه. وكان أكثر الناس انفعالاً زعماء الحزبين الذين يعرفون العدد الدقيق للناخبين. لقد كانوا يستعدون للمعركة الوشيكة الوقوع. أما الآخرون فمع أنهم كانوا على استعداد للنزال، إلا أنهم كانوا يبحثون عما يلهيهم، كالجنود عشية المعركة. كان بعضهم يأكلون وقوفاً أو جلوساً إلى الطاولة؛ وكان الآخرون يروحون ويجيئون وهم يدخنون ويتحدثون مع الأصدقاء الذين لقوهم بعد فراق طويل.

لم يكن ليفين جائعاً، و لم يكن يدخن، و لم يجد ما يغريه بالانضمام إلى أصدقائه، أي إلى سيرج إيفانوفتش، وستيفان أركادييفتش، وسفياجسكي، وغيرهم، لأن فرونسكي كان بينهم يتحدث بحماسة، وهو في بزة حامل سلاح الإمبراطور. ولقد شاهده ليفين البارحة وتحاشاه بعناية لأنه لم يكن يرغب في التقائه. دنا من النافذة وجلس، وأخذ يفحص الجماعات ويصيخ السمع إلى ما يقال حوله. وخامرته الكآبة حين تبين أنهم متحمسون، مهمومون جميعاً؛ ما عدا شيخاً قصيراً، أدرد، يُتأتئ، في بزة ضابط البحرية، كان خالي البال، غير مكترث مثله.

Tele: @Arab_Books

قال نبيل ريفي معتدل القامة، حاني الظهر، قد تدلى شعره المدهن على ياقة بزته المطرزة، وهو يطقطق بعقبي جزمته الجديدة التي أراد أن يتباهى بها في يوم الانتخابات:

– يا له من نذل! مع أني أنبئه، لكن تأنيبي ذهب أدراج الرياح! إذ لم تكفه ثلاث سنوات ليتم استعداده!

ورمى ليفين بنظرة غاضبة وأشاح بوجهه عنه.

أجابه محدثه، وهو رجل قصير القامة، بصوت نحيف:

– نعم، هذا صحيح، فالقضية حقيرة.

في إثر هؤلاء أقبل جمهور يحيط بجنرال ضخم. وكان واضحاً أنهم يبحثون عن ركن يتحدثون فيه دون أن يسمعهم أحد.

– كيف يجرؤ أن يقول إنني أمرتُ باختلاس بنطاله! لقد باعه ليشرب، فيما أعتقد. إنني أبصق عليه وعلى أمارته. لكنه لا يتجرأ على أن يصرح بذلك، إنها حقارة!

وفي جماعة أخرى، كانوا يقولون:

– لكن اسمحوا لي! إنهم يستندون إلى القانون: ينبغي أن تكون المرأة مسجلة في سجل النبلاء.

– إني لا أبالي بالقانون! وأنا أتكلم بحسب رأيي. فلسنا بالنبلاء اعتباطاً. وإذا كنت نبيلاً فيجب أن توضع الثقة بي.

Tele: @Arab_Books

– تعال وتناول شيئاً من الشمبانيا الفاخرة، يا صاحب السيادة.

وكانت جماعة أخرى تتبع نبيلاً يصرخ بأعلى صوته، وكان أحد الرجال الثلاثة الذين أُسكروا.

قال صوتٌ متكلف اللطف، هو صوت ملاّك ذو شاربين رماديين، يرتدي بزة عقيد في هيئة الأركان القديمة:

– لقد نصحت ماريا سيمينوفنا دائماً بأن تؤجر أرضها، لأنها لا تنتفع منها.

كان هذا الرجل هو الشخص الذي كان ليفين قد لقيه عند سفياجسكي. فعرفه على الفور وتلاقت نظراتهما وحيا كل منهما الآخر.

– يسعدني أن ألتقيك. بالتأكيد! إني أذكر تماماً! السنة الفائتة، عند نيقولا إيفانوفتش.

سأله ليفين:

– كيف يسير استثمارك؟

أجاب الآخر بابتسامة تنم على الإذعان وبوجه هادئ ومقتنع، كأن الأمور لا يمكن أن تكون على غير ما كانت عليه.

– إنه يسير من سيّئ إلى أسوأ. وأنت، أية مصادفة حملتك على المجازفة في مقاطعتنا؟ أجئت لتشارك في «انقلابنا». (قال ذلك بعزم

Tele: @Arab_Books

وبفرنسية رديئة اللهجة). كل روسيا تواعدت على المجيء إلى هنا. وبين الوافدين حجاب للإمبراطور ولعل بينهم وزراء.

وأشار إلى شخص ستيفان أركاديفتش المهيب الذي كان يتمشى بجانب جنرال في بنطال أبيض[٣٨] وفي بزة حاجب الإمبراطور.

قال ليفين:

– ينبغي أن أعترف لك بأنني لا أفهم جيداً معنى هذه الانتخابات.

نظر إليه الملاّك:

– لكن ليس فيها ما يحتاج إلى الفهم، ولا معنى لها. إنها مؤسسة بالية لا تمد حركتها إلا بقوة العطالة. انظر إلى البزات، إنها بليغة الدلالة: نحن بإزاء جمعية قضاة للصلح، وأعضاء دائمين،... لا جمعية نبلاء.

سأله ليفين:

– إذن لماذا جئت؟

– بحكم العادة، لا غير. ثم إن علينا أن نحافظ على علاقتنا. القضية، في الواقع، نوع من الإلزام المعنوي. كما أن لي، في الحقيقة، مصلحة. فصهري يرغب في أن يرشح نفسه كعضو دائم: ليس لأسرته ثروة، وتجب مساعدته. وهؤلاء السادة لماذا يأتون.

٣٨– بنطال أبيض: كان البنطال الأبيض ذو الشريط المذهب جزءاً من لباس الاحتفالات الذي يرتديه حجاب الإمبراطور أو غيرهم من أصحاب المقامات في البلاط.

Tele: @Arab_Books

قال ذلك وأشار إلى المستجوب المتهكم الذي شارك في النقاش.

– جيلٌ جديدٌ من النبلاء.

– جديدٌ ربما، أما نبيل فلا. هؤلاء أصحاب ملكيات، أما نحن فملاكو أرض. إنهم يهاجمون أنفسهم من حيث هم نبلاء.

– لكنك قلت إنها مؤسسة بالية.

– صحيح، صحيح، لكن يمكنهم مع ذلك أن يكونوا أكثر احتراماً لنا، أو لسنيتكوف على الأقل... لعلنا لا نساوي شيئاً كبيراً لكننا قضينا ألف عام ونحن نكبر. لو كان عليك أن تقيم رياضاً للزهور أمام بيتك، وكان لديك فيها شجرة معمرة... فأنت لن تقطع هذه الشجرة العتيقة والملتوية من أجل مساكبك، بل إنك ستخطط لتلك الرياض بحيث تستفيد من هذه الشجرة.

وقال وهو يخفض صوته بحذر:

– لأن مثل هذه الشجرة لا تنمو في سنة واحدة.

وما لبث أن غير الحديث:

– وأنت، كيف حال ممتلكاتك؟

– ليست على ما يرام. إنها لا تعطي أكثر من خمسة بالمئة.

– هذا من غير أن تحسب جهدك. فلا شك أن جهدك يساوي شيئاً، أليس كذلك؟ أقول ذلك وأنا أقصد نفسي. فقبل أن أنسحب

Tele: @Arab_Books

إلى أراضي، كنت أقبض مرتباً قدره ثلاثة آلاف روبل. وأنا أشتغل الآن أكثر، وأحصل مثلك على خمسة بالمئة، هذا عندما تسير الأمور سيراً حسناً. أما جهدي فلا حساب له.

– لماذا إذن تتمسك بذلك، إذا كنت في عجز؟

– آه! لكن ماذا تريد أن أفعل؟ إنها العادة، والمرء يحس أنه مجبر على هذا.

وأضاف، وقد فاضت قريحته، وهو يتكئ على النافذة:

– وأكثر من ذلك أن ابني لا يميل إلى الاستثمار. إنه لا يُعنى بغير العِلم، بحيث إني لن أجد أحداً يخلفني. ومع ذلك فأنا مستمر. وقد انتهيت من غرس بستان.

قال ليفين:

– نعم، هذا صحيح تماماً. يخيل إلي أنني لن أستفيد من ممتلكاتي. ومع ذلك فأنا مستمر. إنه ضرب من الواجب تحس به تجاه الأرض.

وتابع الملاك:

– اسمع: إن جاري تاجر. لقد جاء يزورني فقمنا بجولة في أراضي. أتعلم ماذا قال لي: «ستيفان فاسيليفتش، كل شيء منظم عندك ما عدا هذه الحديقة المهملة». مع أنني أعتني بحديقتي. «لو كنت مكانك لقطعت أشجار الزيزفون وهي في عنفوان تفتحها. إن عندك هنا نحو ألف منها، ومن كل واحدة تستطيع أن تضع

Tele: @Arab_Books

عارضتين صالحتين للبناء. ولهذا ثمنه اليوم. نعم لو كنت مكانك، لصنعت منها خشباً للبناء».

وأضاف ليفين مبتسماً وطالما اصطدم بمثل هذه المحاكمة:

– وبهذا المال سيشتري ماشية أو أرضاً بسعر بخس يؤجرها للفلاحين ويثرى منها. أما أنت وأنا فنحن لا هم لنا سوى المحافظة على أملاكنا وتوريثها لأبنائنا.

قال الملاّك:

– أنت متزوج، فيما أعتقد؟

أجاب ليفين باعتزاز:

– نعم.

واستأنف:

– نعم، إن ها هنا شيئاً غريباً. إننا نعيش دون أن نتنبأ بالمستقبل، كأننا مكلفون بالإشراف على النار المقدسة، مثل عذارى روما القديمة.

ضحك الملاّك ضحكة خرساء تحت شاربيه الأبيضين.

– والبعض أيضاً، مثل صديقنا نيقولا إيفانوفتش أو الكونت فرونسكي الذي جاء ليستقر في أرضيه، يرغبون في أن يديروا استثماراً زراعياً، لكن ذلك لم يؤد حتى الآن إلا إلى التهام رأسمالهم.

Tele: @Arab_Books

قال ليفين وهو يعود إلى فكرة أذهلته:

– لكن لماذا لا نفعل مثلما يفعل التجار؟ لماذا لا نقطع أشجارنا لنصنع منها عوارض للبناء؟

– لنصون النار المقدسة، كما قلت، على كل حال، ليس هذا من عمل النبيل. إن عملنا نحن لا يتم هنا، في الانتخابات، لكن هناك في أرضنا. إن لنا غريزة طبقية عما ينبغي وعما لا ينبغي فعله. وكذلك للفلاحين غريزتهم الطبقية، وأنا ألاحظ ذلك، على كل حال، بين وقت وآخر: فالفلاح النشيط يستأجر من الأرض أقصى ما يمكن، وحتى لو كانت الأرض رديئة؛ إنه يحرث كل شيء. وليس ذلك عن حساب محسوب، لأنه، في الغالب، يخسر فيها.

قال ليفين:

– مثلنا نحن.

وأضاف وهو يرى سفياجسكي يقترب:

– كنت سعيداً جداً بلقائك.

قال الملاّك:

– لم نلتق منذ أن تعارفنا عندك، وقد وجدنا كثيراً من النقاط المشتركة.

قال سفياجسكي وهو يبتسم:

Tele: @Arab_Books

- أراهن، أنكم طعنتم على نظام الأشياء الجديد.

- ربما.

- لا بدّ لنا من أن نسري الهم عن أنفسنا.

Tele: @Arab_Books

-٣٠-

أمسك سفياجسكي ليفين من ذراعه وجره نحو زمرة من أصدقائه.

كان من المستحيل، هذه المرة، تحاشي فرونسكي. كان مع ستيفان أركادييفتش وسيرج إيفانوفتش ينظر باتجاه ليفين.

قال وهو يمد يده إلى ليفين:

– تسعدني رؤيتك. يلوح لي أنني قد حظيت بلقائك... في منزل الأميرة تشرباتزكي.

فقال ليفين:

– نعم، إنني أذكر جيداً لقاءنا.

تضرج وجهه وما لبث أن التفت إلى أخيه وخاطبه.

ابتسم فرونسكي ابتسامة خفيفة واستأنف نقاشه مع سفياجسكي: كان ظاهراً أنه لا يرغب في مباشرة الحديث مع ليفين. لكن ليفين كان يلقي، وهو يحدث أخاه، نظرات خاطفة على فرونسكي، ويتساءل عمّا يمكن أن يقوله له ليصلح فظاظته.

Tele: @Arab_Books

سأل وهو يلتفت إلى سفياجسكي وفرونسكي:

– أين صرتما؟

أجاب سفياجسكي:

– مازلنا نتحدث عن سنيتكوف.

– حسناً! هل سيتقدم، نعم أم لا؟

قال فرونسكي:

– لا هذا ولا ذاك، في الحقيقة.

سأل ليفين وهو يلقي بين الحين والآخر نظرة على فرونسكي:

– وإذا تنازل، فمن الذي سيتقدم مكانه؟

قال سفياجسكي:

– من شاء ذلك.

سأل ليفين:

– أنت؟

قال سفياجسكي وهو يرتبك ويلقي نظرة قلقة على السيد المتهكم الذي كان يقف بجانب سيرج إيفانوفتش:

Tele: @Arab_Books

- أنا أبعد الناس عن هذا.

فقال ليفين وقد أحس أنه ضل السبيل:

- ومن إذن؟ نيفييدوفسكي؟

فأجاب السيد المتهكم:

- أبداً، لا.

كان هذا السيد هو نيفييدوفسكي بعينه. فقدم له سفياجسكي ليفين.

قال ستيفان أركادييفتش وهو يغمز فرونسكي بعينه:

- كأن ذلك يستثيرك، أنت أيضاً. هذا شبيه بالسباق ويمكن للرهان أن يدخل فيه.

قال فرونسكي وهو يقطب بين حاجبيه ويقلص وجنتيه القويتين:

- نعم، هذا آسر للقلوب. فما أن نبدأ به حتى نود أن نمضي فيه حتى النهاية. إنه الصراع.

- ما أبرع خطط سفياجسكي! كل شيء يغدو معه واضحاً!

قال فرونسكي وقد بدا عليه الشرود:

- أوه! صحيح.

Tele: @Arab_Books

وران صمت نظر فيه فرونسكي إلى ليفين (كان لا بدَّ من أن يحط عينيه على جهة ما)، إلى قدميه وبزته ووجهه، وحين لاحظ نظرة ليفين الكئيبة مثبتة فيه، سأله ليقول شيئاً:

– كيف جرى أنك تسكن الريف طوال السنة ولا تصير قاضياً للصلح؟ إنك لا تلبس بزة قاضي الصلح.

أجاب ليفين وهو عابس الوجه، وكان، طوال هذا الوقت ينتظر مناسبة يكلم فيها فرونسكي ليخفف من خشونته التي بدرت منه قبل هنيهة:

– لأنني أقدر أن قضاء الصلح مؤسسة سخيفة.

قال فرونسكي بدهشة هادئة:

– على العكس، أنا لا أرى ذلك.

فقاطعه ليفين:

– هذا القضاء لعبة. لسنا بحاجة إلى قضاة الصلح. فخلال ثماني سنوات لم أقم دعوى واحدة. وعندما أقمت دعوى كان الحكم فيها منافياً للعقل. إن قاضي الصلح على أربعين فرسخاً من أراضي. ومن أجل قضية تكلفني روبلين، علي أن أرسل معتمداً يكلفني خمسة عشر.

وروي أن فلاحاً سرق طحيناً من عند طحان، وأن الطحان عندما لام الفلاح على ذلك، أقام عليه الفلاح الدعوى بالافتراء. كان ما يقوله ليفين غباء، لا يناسب المقام، وقد أدرك ذلك بنفسه وهو يتكلم.

Tele: @Arab_Books

قال ستيفان أركاديفتش وهو يبتسم أعذب ابتساماته:

– يا له من رجل غريب الأطوار! ليتنا نذهب إلى القاعة الكبرى؟ يبدو لي أنهم قد شرعوا بالتصويت.

وافترقوا.

قال سيرج إيفانوفتش الذي لاحظ فورة أخيه الرعناء:

– لست أفهم كيف يمكن أن يكون المرء محروماً إلى هذا الحد من الحصافة السياسية. وهذا ما ينقصنا نحن الروس. فالمارشال خصمنا وأنت تلاطفه وتطلب إليه أن يتقدم بترشيحه. أما الكونت فرونسكي.... فلا أقبل أن أكون صديقاً له، لكنه في جانبنا، فلماذا تحوله إلى عدو؟ وبعد ذلك، أنت تسأل نيفييدوفسكي هل سيتقدم. هذا لا يجوز.

أجاب ليفين وقد بدا عليه الكمود:

– آه! لست أفقه شيئاً من ذلك! كل ذلك، إنما هو حماقة.

– أنت تقول أنه حماقة، لكنك عندما تتدخل فيها فأنت تفسد كل شيء.

صمت ليفين وتوجها كلاهما إلى القاعة الكبرى.

مع أن نقيب المقاطعة أحس بمناورة في الجو، وأن بعض الأشراف امتنعوا عن مطالبته بترشيح نفسه، إلا أنه تقدم بترشيحه. خيم الصمت

Tele: @Arab_Books

على القاعة وأعلن أمين السر بصوت مرتفع ومفهوم أن قائد الحرس المتقاعد ميشيل ستيبانوفتش سنييتكوف يتقدم لانتخابات نقيب أشراف المقاطعة.

ترك نقباء المناطق طاولاتهم ليجلسوا على طاولة الشرف التي وضعت عليها الصحون الملأى ببطاقات الاقتراع، وبدأت الانتخابات.

همس ستيفان أركادييفتش إلى ليفين عندما اقتربا من الطاولة:

- إلى اليمين!

لكن ليفين نسي الإيضاحات التي قدمت إليه وخشي أن يكون ستيفان أركادييفتش قد ارتكب خطأ حين قال له: إلى اليمين. أليس سنيتكوف عدواً؟ كان يمسك البطاقة بيده اليمنى، وهو يتقدم إلى الصندوق لكنه قال في نفسه: إنه أخطأ، وفي آخر لحظة نقل البطاقة إلى يده اليسرى. وكان يقف بجنب الصندوق عارف خبير بالأمور يكتشف من مجرد حركة المرفق أين وضع المقترع بطاقته، فلما رأى ليفين يضع بطاقته قطب بين حاجبيه وبدا عليه الاستياء. لم يكن بحاجة، هذه المرة، إلى استخدام ذكائه.

صمت الجميع وسُمع صوت عد أوراق الاقتراع. وبعد ذلك أعلن صوت مفرد عدد الأصوات الموافقة والمعارضة. لقد انتُخب النقيب بأغلبية عظمى. وحدثت ضوضاء، وهرع الناس إلى الباب. دخل سنيتكوف وأحاط به النبلاء ليهنئوه.

Tele: @Arab_Books

سأل ليفين أخاه سيرج إيفانوفتش:

- وإذن، فقد انتهى الأمر الآن!؟

أجاب سفياجسكي الذي ابتسم، عن سيرج إيفانوفتش:

- بل إن هذه هي البداية. ذلك أن نائبه يمكن أن يحصل على عدد أكبر من الأصوات.

كان قد نسي ليفين كلياً هذه المناورة. وتذكر في هذه اللحظة أن ها هنا دهاه، وأعياه أن يتذكر أين يكمن هذا الدهاء، فانتابته الكآبة وشعر بالحاجة إلى الإفلات من هذا الجمهور.

وبما أنه لم ينتبه إليه أحد، وأنه شعر بعدم جدواه، اتجه دون أن يلحظه أحد إلى القاعة الصغرى حيث المقصف، وأحس بعزاء كبير حين رأى الخدم. وعرض عليه الخادم العجوز أن يتناول شيئاً فقبل ليفين. وبعد أن طلب ليفين كبيبة بالفاصولياء واستخبر الخدم عن معلميهم القدماء، لم يشأ أن يعود إلى القاعة الكبرى حيث أحس بالضيق، فصعد إلى الأروقة.

كانت ملأى بالسيدات المتزينات اللواتي انحنين من فوق الحاجز، حرصاً منهن على ألا يضيعن كلمة مما يقال في القاعة. وكان في صحبتهن محامون متأنقون في لباسهم، وأساتذة معاهد بنظاراتهم، وضباط. كان الكلام يجري، في كل مطرح عن الانتخابات: كان يقال إن النقيب قد استنفد قواه، وأن النقاش كان مثيراً؛ وسمع ليفين جماعة تمدح أخاه. وقالت سيدة لمحام:

Tele: @Arab_Books

- ما أسعدني لأني سمعت كوزنيتشيف! هذا يستحق أن نستغني عن العشاء! يا للروعة! وكم كان واضحاً ومفهوماً كل ما قاله! لا يشبهه سوى «مايدال»، بل هو دونه بلاغة.

وجد ليفين مكاناً شاغراً قرب الحاجز فانحنى ليرى ويسمع.

كان جميع النبلاء الذين تجمعوا بحسب مناطقهم يجلسون خلف حواجز صغيرة. وفي وسط القاعة أخذ رجل لابس بزة رسمية يعلن وهو ينفخ صوته النحيف:

- القائد في المرتبة الثانية أوجين إيفانوفتش آبوكتين مرشح لمنصب نقيب أشراف المقاطعة!

فخيم الصمت وسمع صوت شيخ دقيق:

- إنه يرفض.

وصاح صوت آخر:

- مستشار البلاط «بطرس بيتروفتش بوهل» مرشح...

فزعق صوت شاب، حاد.

- إنه يرفض.

واستمرت تلاوة الأسماء فاستمر الجواب: «إنه يرفض». استمر ذلك نحو ساعة. كان ليفين متكئاً على الحاجز ينظر ويسمع. في البداية دهش وأراد أن يفهم ما الذي يعنيه ذلك كله، لكنه اقتنع بأنه

Tele: @Arab_Books

يستطيع أن يفهم شيئاً، فبدأ الضجر ينتابه. وحين تذكر بعد ذلك ما رآه على جميع الوجوه من انفعال وحقد، تملكه الحزن: قرر أن ينزل ونزل. وعلى سطح الدرج صادف طالباً يتمشى، وهو كئيب الوجه، غائر العينين. وفي الدرج لقيته امرأة تصعد بسرعة وهي تستند على عقبيها وعلى نائب حرك:

قال النائب في اللحظة التي تنحى فيها ليفين ليسمح بمرور السيدة:

– لقد قلت لك إننا سنصل في الوقت المناسب.

بلغ ليفين البهو وأخرج رقم حجرة الثياب عندما لحق به أمين السر:

– هلا تفضلت، يا قسطنطين دميتريتش، فقد بدأ التصويت.

قدم نيفييدوفسكي ترشيحه، وكان يتأبى قبل قليل.

دنا ليفين من باب القاعة الكبرى فوجده مغلقاً.

قرع أمين السر الباب، فتح الباب واندفع منه ملاّكان قد علتهما حمرة شديدة، ودفعا ليفين.

قال أحدهما:

– لقد بلغ بي الإرهاق غايته!

وبعدهما انسل من خلف المصراع وجه نقيب الأشراف. هذا الوجه المنهوك، القلق، كان مرعباً.

Tele: @Arab_Books

صرخ بالحارس:

– أمرتك ألا تدع أحداً يخرج!

– إنما فتحته لإدخال أحد النبلاء، يا صاحب السيادة.

– يا إلهي!

قال النقيب ذلك وهو يتنهد، وعاد إلى قرب الطاولة، في وسط القاعة، جاراً قدمه، خافضاً رأسه.

انتصر نيفييدوفسكي كما كان مقدراً، وأصبح نقيباً لأشراف المقاطعة. ابتهج بعضهم وسر واغتبط، واستاء آخرون واغتمّوا. وقد بلغ الأسى بسنيتكوف أقصاه ولم يستطع أن يخفي ذلك. وعندما ترك نيفييدوفسكي القاعة، أحاط به الجمهور المتحمس وتبعه، كما تبع الحاكم في أول يوم، عندما افتتح الدورة، وكما تبع سنيتكوف عندما انتخب.

Tele: @Arab_Books

-٣١-

تناول النقيب المنتخب حديثاً وعدد كبير من أعضاء الفريق المنتصر عشاءهم في هذا اليوم بالذات عند فرونسكي.

جاء فرونسكي إلى الانتخابات لأنه ضجر في الريف ولأنه أحب أن يؤكد استقلاله إزاء آنا، ولكي يسند سفياجسكي، في الانتخابات، شاكراً له على المساعي التي بذلها من أجله في انتخابات المجالس المحلية، ولا سيما ليؤدي بدقة واجباته الناجمة عن وضعه الذي اختاره، وضع الملاّك النبيل. لكنه لم يكن يتوقع البتة أن تشغله وتثير اهتمامه قضية الانتخابات إلى هذا الحد، ولا أن يحسن القيام بدوره إلى هذا الحد. كان جديداً تماماً في هذه الدائرة، لكنه أحرز نجاحاً كبيراً، و لم يكن مخطئاً حين قدر أنه حظي بشيء من النفوذ بين النبلاء. وكان مرد هذا النفوذ إلى ثورته، واسمه، والمسكن الجميل الذي يشغله في المدينة والذي تنازل له عنه في المدينة صديقه القديم، «شيركوف»، وهو متمول أسَّس في كاشين مصرفاً مزدهراً؛ وإلى الطباخ الممتاز الذي جاء به فرونسكي من الريف؛ وإلى صداقته مع الحاكم، وهو رفيقه، بل ومحميّه؛ وعلى الخصوص إلى أساليبه البسيطة في التعامل مع الجميع التي سرعان ما ألغت أسطورة كبريائه المزعومة. كان يحس أن جميع

Tele: @Arab_Books

الناس الذين تعرف بهم غدوا الآن من جملة أنصاره، ما عدا هذا المخبول الذي تزوج كيتي تشرباتزكي والذي صبّ عليه بغضب، ومن غير سبب معقول، طائفة من الحماقات التي لا معنى لها. لقد رأى بوضوح، كما رأى الآخرون، أنه أسهم كثيراً في نجاح نيفييدوفسكي، وخالجه، إزاء النقيب الجديد، شعور لذيذ بالنصر. لقد خلبت لبه هذه الانتخابات حتى قال في نفسه: إنه قد يتقدم إليها في ظرف ثلاثة أعوام إن تزوج. وذلك كما أصابه قديماً حين ربح جائزة السباق بفضل أحد الفرسان فاشتهى أن يكون هو الفارس الذي يشارك في السباق.

في هذه اللحظة، كان فرونسكي يحتفل بانتصار ذلك الفارس. لقد تصدر المائدة: وإلى يمينه جلس الحاكم الشاب، وهو جنرال من تبع الإمبراطور، كان، بالنسبة إلى الجميع، سيد المقاطعة: فهو الذي دشن رسمياً الانتخابات بخطبة، وكان الناس يظهرون له الاحترام، والتذلل؛ أما بالنسبة إلى فرونسكي فكان «فاسلوف كاتكا»، كما كان يلقب في الكلية العسكرية، وكان يرتبك أمام فرونسكي الذي يحاول جاهداً أن يهيئ له أسباب الراحة. وإلى يساره جلس نيفييدوفسكي بوجهه المراهق، المتهكم، الرصين. وكان فرونسكي معه بسيطاً، مظهراً للاحترام.

تحمل سفياجسكي فشله بمرح. بل إن ذلك لم يكن فشلاً عنده، كما قال بنفسه وهو يشرب نخب نيفييدوفسكي: فلا شيء أدعى إلى السعادة من أن ينتخب نقيب من الاتجاه الجديد الذي ينبغي أن تسير فيه الطبقة النبيلة. ولذلك فكل ما هو شريف ينبغي أن يبتهج بهذا النجاح ويحتفل به.

Tele: @Arab_Books

كان ستيفان أركاديفتش مغتبطاً باستمتاعه بالوقت وبفرح الناس. وأثناء العشاء الذي كان رائعاً، نبش الحاضرون جميع فصول الانتخابات. فقلد سفياجسكي تقليداً مضحكاً الخطبة المتباكية التي ألقاها النقيب السابق، ولاحظ وهو يلتفت إلى نيفييدوفسكي أن «سيادته» لا بدَّ أن يختار للتحقيق في أموال الخزينة حججاً أكثر تعقيداً من الدموع. وروى مدعوٌ قارص اللسان أن سنيتكوف كان قد استخدم خدماً بالبنطال القصير من أجل السهرة الراقصة وأن عليه أن يصرفهم الآن، إلا إذا أصر النقيب الجديد على إقامة هذه الحفلة.

كان الحاضرون يقولون، في كل لحظة، وهم يخاطبون نيفييدوفسكي:

«نقيبنا»، أو «سيادتك». وكانوا يجدون في استعمال هذين اللقبين اللذة التي يجدونها وهم يسمون العروس: «سيدتي».

وكان نيفييدوفسكي لا يتظاهر بأنه لا يبالي بهذه التسمية فحسب، بل وأيضاً بأنه يزدريها؛ وكان من الظاهر، مع ذلك، أنه سعيد، وأنه يسيطر على نفسه لكي لا يتفجر فرحه الذي كان حريّاً أن يثير الدهشة في هذا الوسط المتقدم والمتحرر الذي ينتمون إليه.

أثناء المأدبة، أرسلت عدة برقيات إلى الأشخاص الذين كانوا معنيين بسير الانتخابات. وأرسل ستيفان أركاديفتش الذي كان يحب التسلية كثيراً. البرقية التالية إلى داريا ألكسندروفنا: «نيفييدوفسكي نجح بأغلبية عشرين صوتاً. تهاني. خبري». وأملاه بصوت عال وهو يضيف:

Tele: @Arab_Books

«يجب أن نسرهم». وعندما تلقت دولي البرقية اكتفت بالتنهد حين مر ببالها الروبل الذي كلفته البرقية، وقدرت أن هذه البرقية قد أرسلت من غير شك عند نهاية العشاء. كانت تعلم أن أحد مظاهر ضعف ستيفا هو أنه «يشغّل البرقيات» عند نهاية العشاء.

كان كل شيء أنيقاً، بسيطاً، بهجاً، مثل هذا العشاء الفاخر وتلك الخمور الأجنبية. لقد اختار سفياجسكي هؤلاء المدعوين الذين يبلغون نحو عشرين بين الرجال الجدد في الحزب الجديد ومن أخفهم روحاً وأعلاهم تهذيباً. وقد شربوا نخب مدير المصرف، ونخب «مضيفنا المحبوب». كان فرونسكي مفتوناً. لم يكن يصدق أنه سيجد في المقاطعة مثل هذه الأساليب.

غدا الجو أمرح، في نهاية العشاء. لقد رجا الحاكم فرونسكي أن يحضر حفلة موسيقية لمصلحة «الأخوة السلاف»(٣٩)، تنظمها امرأة أرادت أن تتعرف بالكونت.

– ستقام حفلة راقصة وسترى هناك ما عندنا من جمال، من جمال هو محط الأنظار.

أجاب فرونسكي بالإنكليزية.

– ليس ذلك من خلقي.

وكان يحب هذا التعبير، لكنه ابتسم ووعد بالمجيء.

٣٩– «الأخوة السلاف»: منذ بداية تمرد السلاف الجنوبيين على الترك في حزيران ١٨٧٥، نظمت حملات التبرعات في روسيا لمصلحتهم.

Tele: @Arab_Books

في اللحظة التي سبقت قيام المدعوين عن الطاولة، والتي أشعلوا فيها سيجاراتهم، اقترب خادم فرونسكي منه ومعه رسالة على طبق، وقال بلهجة لها دلالتها:

- من «فوزدفيجنسكوي»، بالبريد العاجل.

قال أحد المدعوين بالفرنسية وهو يشير إلى الخادم:

- غريب كم يشبه النائب «سفنتتسكي».

كان فرونسكي يقرأ الرسالة وقد قطب بين حاجبيه. كانت الرسالة من آنا. وكان يعرف محتواها، حتى قبل أن يقرأها. لقد كان وعدها بالرجوع نهار الجمعة، مفترضاً أن الانتخابات ستنتهي في مدى خمسة أيام. واليوم هو السبت؛ وكان يعلم أن الرسالة تحتوي على لوم لأنه لم يعد في الوقت المحدد. أما الرسالة التي أرسلها البارحة مساء فلم تكن قد وصلت بعد. كان المحتوى كما انتظره، لكن شكل الرسالة كان غير متوقع، وقد انزعج منه انزعاجاً شديداً:

«آني مريضة جداً، والطبيب يقول: إن هناك التهاباً. وأنا أفقد صوابي، وحدي. الأميرة بربارة تربكني أكثر مما تساعدني. انتظرتك أول أمس وأمس، وأنا الآن مرسلة رسولي لأعلم أين أنت، وماذا حل بك. كنت أنوي أن ألحق بك، لكني غيرت رأيي، لعلمي أن ذلك سيسوءك. أرسل جواباً لأعلم ما الذي ينبغي أن أفعله».

كانت الطفلة المريضة، وهي تنوي أن تأتي! إن ابنتهما تتألم، وهي تخاطبه بهذه اللهجة المعادية!

Tele: @Arab_Books

إن التباين بين فرح الانتخابات البريء وهذا الحب الثقيل والمأساوي الذي سيعود إليه أذهل فرونسكي. لكن، كان لا بدَّ له من الذهاب، فسافر في أول قطار، في الليل.

Tele: @Arab_Books

-٣٢-

قبل سفر فرونسكي إلى الانتخابات، فكرت آنا في أن المشاحنات التي تحدث بينهما عند كل غيبة من غيباته لا يمكن إلا أن تصدّ فرونسكي عنها لا أن تُعلّقه بها، فقررت أن تتحامل على نفسها قدر الإمكان لتتحمل بهدوء هذا الفراق. لكن النظرة الباردة والقاسية التي حدجها بها وهو يعلن لها سفره قد جرحتها، فانهار هدوءها حتى قبل أن يسافر.

وحين فكرت، أثناء وحدتها، في هذه النظرة التي تعبر عن حقه في الحرية، أفضى بها التفكير إلى الشعور بحقارتها: «إن له الحق في أن يسافر أينما شاء ومتى شاء. لا أن يسافر فقط بل وأن يتركني. إن له كل الحقوق، وليس لي أي حق. لكنه لا ينبغي له أن يتصرف هذا التصرف وهو يعلم ذلك. على كل حال، ما الذي فعله؟... لقد نظر إلي نظرة باردة وقاسية وهذا شيء غير محدد، غير ملموس، لكن ذلك لم يحدث من قبل، وهذه النظرة لها دلالة مهمة جداً. إنها تدل على أنه بدأ ينفصل عني».

ومع أنها كانت مقتنعة أنه بدأ ينفصل عنها، فلم يكن بوسعها أن تفعل أو تغير شيئاً في علاقاتهما. لم يكن بوسعها أن تستبقيه إلا بحبها

Tele: @Arab_Books

وسحرها، كما كان الأمر قديماً. وكذلك لم يكن بوسعها أن تسكن الرعب الذي يجتاحها حين تتصور أنه ربما كف عن حبه لها ذات يوم إلا بأن تشغل نفسها في النهار وتتناول المورفين في الليل. والحق أنه قد بقيت لها وسيلة: لا أن تستبقيه (لم تكن تبغي سوى حبه)، بل أن تتقرب منه، أن تكون في وضع لا يمكنه معه أن يهجرها. وهذه الوسيلة هي الطلاق والزواج. لقد بدأت ترغب في هذا الحل وقررت أن تعطي موافقتها عندما يكلمها فرونسكي أو ستيفان في ذلك.

في هذه الحالة النفسية قضت وحدها الأيام الخمسة التي كان غائباً فيها.

كانت النزهات، والأحاديث بينها وبين الأميرة بربارة، وزياراتها للمستشفى، ولا سيما قراءتها المتصلة (كلما انتهت من كتاب تناولت غيره)، كان ذلك كله يشغل وقتها. لكنها أحست، في اليوم السادس عندما عاد الحوذي بدونه، أنها لا تملك القوة ولا سيما لتصرف تفكيرها عنه، وعما يفعله هناك. في هذه الفترة، مرضت طفلتها، فأرغمت نفسها على العناية بها، لكن ذلك لم يثنها عن تفكيرها، ولا سيما أن المرض لم يكن شديداً. إنها لم تستطع أن تحب هذه الطفلة، ولا أن تتظاهر بحبها، بالرغم مما تبذل من جهد. وفي المساء، عندما ظلت آنا وحدها، انتابها قلق مؤرق بصدد فرونسكي حتى إنها قررت أن تتوجه إلى عاصمة المقاطعة؛ لكنها بعد أن فكرت ملياً كتبت تلك الرسالة المناقضة التي تلقاها فرونسكي، وأرسلتها بالبريد العاجل دون أن تعيد قراءتها. وفي اليوم التالي تلقت رسالة من فرونسكي فندمت على رسالتها. كانت تنتظر برعب تكرار النظرة الباردة التي رماها

Tele: @Arab_Books

بها وهو يسافر، وبخاصة عندما يعلم أن الطفلة ليست مريضة مرضاً شديداً. بيد أنها كانت مسرورة لأنها كتبت إليه، بالرغم من كل شيء. لقد صارحت آنا نفسها الآن أن حبها عبء على فرونسكي، وأنه يترك بأسف حريته ليعود إليها، لكنها كانت سعيدة بعودته. وحتى لو كان يضجر فسوف يكون هنا، معها، وستراه، وسيطلع على كل حركة من حركاتها.

كانت جالسة في قاعة الاستقبال، في ظل المصباح، وبيدها كتاب جديد «لتين» تقرأ فيه، وهي تصيخ إلى صفير الرياح في الخارج، منتظرة وصول العربة بين دقيقة وأخرى. وخيل إليها، عدة مرات، أنها تسمع ضوضاء العجلات، لكنها كانت مخطئة؛ وأخيراً سمعت ضوضاء العجلات وصراخ الحوذي ودرجان العربة المخنوق تحت مطلع الدرج المغطى. وأيدت هذا الانطباع الأميرة بربارة التي كانت تلعب بالورق لعبة الصبر. غدت آنا قرمزية، ونهضت، لكن بدلاً من أن تنزل كما فعلت مرتين من قبل، تجمدت في مكانها. لقد خجلت من خداعها، وخافت، بخاصة، من لقائه. اختفت الإهانة، ولم تكن تخشى إلا التعبير عن استيائه. وتذكرت أن صحة ابنتها تحسنت، منذ البارحة، وشعرت بالامتعاض من هذه الطفلة التي أبلت من مرضها في اللحظة التي أرسلت فيها رسالتها بالذات. ثم تذكرته، وفكرت أنه هنا بشخصه، بيديه وعينيه؛ وسمعت صوته، فنسيت كل شيء، وهرعت بفرح إلى لقائه.

سأل بوجل من تحت وقد رأى آنا تبادر إلى لقائه:

– وكيف حال «آني»؟

Tele: @Arab_Books

كان جالساً على كرسي وأمامه خادم يسحب جزمته المبطنة.

- إنها أحسن.

قال وهو ينفض نفسه:

- وأنت؟

أخذت إحدى يديه بين يديها وجذبته إليها دون أن تفارقه عيناها.

قال وهو يلف زينة رأسها، وثوبها الذي أدرك أنها ارتدته من أجله، بنظرة باردة:

- هيا، أنا مسرور جداً.

أعجبها ذلك كله، وطالما أعجبها من قبل! وإذا بذلك التعبير البارد الذي تخشاه كثيراً يستقر على وجهه.

وردد وهو يمسح ذقنه المبللة بمنديله ويقبل يدها:

- أنا مسرور جداً، وأنت، كيف حالك؟

قالت في نفسها: «ليكن ما يكون؛ فكل ما أبغيه هو أن يكون هنا، وعندما يكون هنا فلا يسعه إلا أن يحبني، لا يجرؤ إلا على أن يحبني».

مرت السهرة مرحة بحضور الأميرة بربارة التي كانت تشكو من أن آنا تناولت المورفين في غياب زوجها.

Tele: @Arab_Books

- ما العمل؟ لم أكن أستطيع النوم... كانت أفكاري تحول بيني وبين النوم. وأنا لا أتناول المورفين أبداً أو لا أكاد أتناوله عندما يكون هنا.

تحدث عن الانتخابات واستطاعت آنا بأسئلتها أن تقوده إلى التلميح إلى نجاحاته. وحدثته هي عما قد يعنيه من شؤون المنزل. و لم تنبئه بغير الحوادث السعيدة.

- أعترف بأنك غضبت حين تلقيت رسالتي وأنك لم تصدقني؟

وما إن قالت ذلك حتى أدركت أنه لم يغفر لها ما فعلته، مهما يكن الحب الذي يضمره لها.

قال:

- نعم، كانت رسالتك غريبة. كنت تنوين أن تسافري وآني مريضة.

- كان ذلك كله صحيحاً.

- لا أشك في ذلك.

- بلى، إنك تشك. وأنا أرى أنك غاضب.

- أبداً، لا. الشيء الوحيد الذي يضايقني هو أنك لا تريدين أن تقبلي بأن هناك واجبات...

- واجب الذهاب إلى الحفلة الموسيقية...

قال:

Tele: @Arab_Books

- دعينا من الكلام على ذلك الأمر.

- بلى، ولماذا لا نتكلم عليه.

- عنيت فقط أنه قد تعرض مساع لا بدَّ منها. مثلاً سوف يتعين علي أن أذهب إلى موسكو من أجل البيت... آه! آنا، لم أنت سريعة التهيج؟ ألا تعلمين أنني لا أستطيع العيش بدونك؟

قالت آنا بصوت تغير فجأة:

- إذا كان الأمر كذلك، فمعنى ذلك أن هذه الحياة عبء عليك... بلى، بلى، إنك تصل لتبقى يوماً تسافر بعده، هكذا تفعل....

- آنا، هذا قاس. أنا مستعد لأن أبذل حياتي كلها...

لكنها لم تكن تصغي إليه.

- إن كنت ذاهباً إلى موسكو، فسأذهب إليها أنا أيضاً. لن أبقى هنا. ينبغي لنا أن نفترق أو أن نعيش معاً.

- أنت تعلمين أن هذه هي رغبتي الوحيدة. لكن من أجل ذلك...

- الطلاق ضروري؟ سأكتب إليه. أرى أنني لا أستطيع أن أعيش هكذا... لكنني سأذهب معك إلى موسكو.

فقال وهو يبتسم:

- كأنك تهددينني، لست أرغب في شيء رغبتي في ألا أفترق عنك.

Tele: @Arab_Books

وبينما هو يقول هذه الكلمات الرقيقة، التمعت في عينيه النظرة الباردة، بل الحاقدة، نظرة إنسان أثار حفيظته الاضطهاد.

رأت هذه النظرة واستشفت معناها.

كانت نظرته تقول:

– إن كان الأمر كذلك، فتلك هي المصيبة!

كان ذلك انطباعاً سريعاً، لكنها لن تنساه أبداً.

كتبت آنا إلى زوجها لتطلب منه الطلاق، وفي نهاية تشرين الثاني، وبعد أن افترقت عن الأميرة بربارة التي كانت ستذهب إلى بطرسبرج، ذهبت لتقيم في موسكو مع فرونسكي. أصبحا يعيشان الآن كزوجين، وينتظران بين يوم وآخر رد ألكسي ألكسندروفتش بالموافقة على الطلاق.

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

الجزء السابع

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

-١-

كان آل ليفين في موسكو منذ شهرين. وقد مر زمن طويل على الموعد الذي قُدِّر أن كيتي ستلد فيه، بحسب أدق الحسابات التي صدرت عن ناس لهم خبرة بذلك. وظل الوضع على ما هو عليه و لم يدل شيء على أن الحل غدا أقرب مما كان قبل شهرين. و لم يستطع الطبيب والقابلة ودولي والأميرة وليفين، على الخصوص، أن يفكّروا فيما سيأتي دون رعب، وأخذوا يشعرون بنفاد الصبر والقلق. كيتي وحدها كانت مطمئنة كل الاطمئنان، سعيدة كل السعادة.

أحست أن شعوراً جديداً بالحب ينمو فيها نحو هذا الولد الذي كان موجوداً وجوداً جزئياً بالنسبة إليها، واستسلمت بفرح خاشع لهذا الشعور. لم يكن هذا الولد جزءاً منها لا غير؛ بل إنه كان يُبدي أحياناً حياة مستقلّة. كانت تتوجّع من جراء ذلك، لكنها كانت تشتهي، في الوقت نفسه، أن تضحك من صدمة هذا الفرح الجديد والغريب.

جميع الذين يحبونها كانوا بجنبها، وجميعهم كانوا بالغي الطيبة معها والملاطفة لها، و لم تكن ترى أمامها سوى آفاق سعيدة جداً بحيث لو لم تكن تعلم وتشعر أن ذلك سينتهي قريباً لما ابتغت حياة غير

Tele: @Arab_Books

هذه الحياة. همٌّ واحدٌ كان يُفسد سحر هذه الحياة: وهو أن زوجها لم يكن كما أحبّته ولا كما كان في الريف.

كانت تحبّ هدوءه ولطفه وكرمه. أما في المدينة فكان يبدو قلقاً، محترساً، كأنه يخشى أن يهينه أحد أو يهين أحد كيتي بخاصة. كان في أملاكه يحس على نحو واضح أنه في مكانه، فلا يستعجل، وكان مشغولاً دائماً. أما هنا فكان مستعجلاً كأنه لا يريد أن يفوّت شيئاً ما، في حين لم يكن لديه ما يفعله. وكانت تشفق عليه. وتعلم أن الآخرين لا يخالجهم هذا الشعور؛ على العكس، فعندما كانت تنظر إليه في المجتمع الراقي كما ننظر أحياناً إلى الرجل المحبوب محاولين جهدنا أن ننظر إليه كغريب لنفهم الأثر الذي يتركه في الآخرين، كانت تتبين، وكان ذاك يحرّك غيرتها، أنه لا يخلو فقط مما يثير الشفقة بل إنه كان جذاباً جداً بمجاملته التي عفا عليها الزمن، وحشمته مع النساء، وقامته المهيبة، وهذا الوجه الذي كان يبدو لها بليغَ التعبير. لكنها كانت تراه من الداخل، لا من الخارج؛ وإلا لما استطاعت أن تفهم حالته. كانت أحياناً تلومه ضمنياً على أنه لا يحسن العيش في المدينة؛ وكانت أحياناً أخرى تعترف بأن من الصعب عليه أن ينظّم لنفسه هنا حياة هانئة.

وبالفعل، ماذا كان بوسعه أن يفعل هنا؟ لم يكن يحب اللعب بالورق. لم يكن يذهب إلى النادي. أما مخالطة محبيّ الملذات من نوع أوبلونسكي، فكانت تعلم الآن ماذا يعني ذلك... ذلك يعني الانغماس في الشرب ثم الذهاب إلى حيث يعلم الله بعد الشرب. لم تكن تفكّر دون رعب بالأماكن التي يتردد عليها الرجال في مثل هذه الظروف. أيعاشر المجتمع الراقي؟ كانت تعلم أنه لا بدَّ لذلك من أن يستطيع

Tele: @Arab_Books

صحبة النساء، وهو أمر لا يمكن أن ترضى عنه. أيبقى في البيت معها، قرب أمها وأخواتها؟ لكن مهما تكن ممتعة تلك الأحاديث، تلك الثرثرات المتكررة، فقد كانت تعلم أن ذلك لا بدَّ أن يُضجره. ماذا يبقى عليه أن يفعل؟ أن يؤلّف كتابه؟ لقد حاول ذلك وقصد إلى المكتبة ليدوّن بعض الملاحظات ويجمع شيئاً من المواد؛ لكنه كان، كما قال لها، كلما قلّ عمله قلّ وقته. ثم إنه شكا من كثرة الكلام على كتابه: لقد تشوّشت أفكاره جميعها وفقدت شيئاً من أهميتها.

الميزة الوحيدة لهذه الحياة في المدينة هي أنهما لم يكونا يتخاصمان أبداً. أكان ذلك لأن شروط الحياة مختلفة أم لأنهما أصبحا أكثر احتراساً وتعقّلاً بهذا الصدد؟ الشيء الأكيد هو أنه لم تقع بينهما مشاحنات بسبب الغيرة التي كانا يرهبانها عندما جاءا ليُقيما في المدينة.

وفي هذا المجال، حدث حادث شديد الأهمية بالنسبة إليهما: لقد التقت كيتي وفرونسكي.

إن الأميرة العجوز ماري بوريسوفنا، اشبينة كيتي التي أحبتها كثيراً، رغبت رغبة شديدة في رؤيتها. وذهبت كيتي، وكانت لا تخرج من بيتها بسبب حالتها، مع أبيها إلى منزل السيدة العجوز المحترمة ولقيت هناك فرونسكي.

عندما عرفت شخصه الذي كان مألوفاً من قبل، وهو باللباس المدني، ضاق نَفَسُها، وتدفّق الدم إلى قلبها، وأحسّت بالحمرة القانية تصبغ وجهها: كان هذا هو التخاذل الوحيد الذي لامت نفسها عليه. لم يدمْ ذلك سوى بضع ثوان. وقد سارع أبوها إلى الشروع في حديث

Tele: @Arab_Books

محتدم مع فرونسكي، و لم يكن الحديث قد انتهى بعد حتى كانت كيتي مستعدة للنظر إلى فرونسكي أو الكلام معه، إذا دعت الضرورة، كما تكلِّمُ الأميرة ماري بوريسوفنا دون أن يكون في نبرة صوتها أو في ابتسامتها ما يعرّضها للوم زوجها التي كانت كأنما تحسّ بحضوره غير المرئي إلى جانبها.

قالت لها بضع كلمات، بل إنها ابتسمت عندما علّق على الانتخابات بدعابة إذ دعاها «مجلسنا النيابي» (كان لابدّ من ابتسامها لتظهر أنها فهمت النكتة). لكنها ما لبثت أن ارتدّت إلى الأميرة ماري بوريسوفنا و لم تُلق عليه بعد ذلك نظرة واحدة قبل أن تنهض لتستأذن بالانصراف؛ في هذه اللحظة، حطّت عينيها عليه لسبب وحيد هو أنه ليس من الأدب في شيء ألا تنظر إلى رجل يحيّيها.

كانت ممتنة لأبيها إذ لم يقل لها كلمة واحدة عن هذا اللقاء؛ لكنها رأت، من الحنان الخاص الذي أبـداه لها فيما بعد، أثناء نزهة من نزهاتهما المعتادة، أنه كان مسروراً منها. وكانت هي أيضاً، مسرورة من نفسها. لم تكن تعتقد أنها ستقوى على كبت ذكريات محبتها القديمة لفرونسكي في مكان ما من أعماق قلبها، وأن تكون، لا أن تظهر فقط، هادئة غير مبالية كلياً إزاءه.

احمرّ ليفين أكثر منها عندما قالت له إنها لقيت فرونسكي عند الأميرة ماري بوريسوفنا. صَعُبَ عليها أن تُخبره بذلك، وصعبَ عليها أكثر أن تستمر في سرد تفاصيل هذا اللقاء لأنه لم يطرحْ عليها أيّ سؤال، لكنه اكتفى بالنظر إليها وقد قطّب بين حاجبيه. قالت له:

Tele: @Arab_Books

- أسفتُ كثيراً لأنك لم تكن هناك. لم أكن أريد أن تكون في الغرفة... لأنني ما كنتُ لأكون طبيعية أمامك كما كنتُ إذ ذاك... وأنا في هذه اللحظة أشد خجلاً بكثير، بكثير. لكنني أسفتُ لأنك لم تستطع أن تراني من ثقب الباب.

واحمرّت حتى البكاء. وقالت عيناها الشريفتان لليفين إنها مسرورة من نفسها، مع أنها احمرّت. فهدأ ليفين على الفور وأخذ يطرح عليها الأسئلة. كان هذا كل ما تطلبه. وحين عرف كل شيء وبيّنت له أنها لم تستطع أن تمنع نفسها من الخجل في اللحظة الأولى وحدها، وأنها أحست بعد ذلك بالراحة كما تحس بها مع أي شخص، انبسطت أساريره على الفور وقال إنه مسرور جداً وأنه لن يتصرّف في المستقبل بحماقة كما تصرف في الانتخابات، لكنه سيحاول جاهداً أن يكون لطيفاً قدر الإمكان عند أول لقاء مع فرونسكي. وقال:

- من المؤلم إلى حدٍّ كبير أن نعتبر الرجل عدواً نخاف رؤيته. أنا مسرور جداً، جداً.

Tele: @Arab_Books

-٢-

قالت كيتي لزوجها عندما دخل إلى غرفتها في الساعة الحادية عشرة صباحاً قبل أن يخرج.

- إذن، مُرَّ على منزل آل «بوهل»، أرجوك. أنا أعلم أنك ستتناول العشاء مع أبي في النادي لكن ماذا تفعل في هذا الصباح؟

أجاب ليفين:

- سأذهب إلى «كاتافاسوف»، هذا كل شيء.

- و لم أنت مبكّر إلى هذا الحد؟

- وعدني أن يعرّفني إلى «ميتروف». أود لو أكلّمه عن عملي؛ وهو عالم مشهور من بطرسبرج.

سألت كيتي:

- آه! نعم، هو الذي كتب تلك المقالة التي مدحتَها كثيراً؟ وبعد ذلك؟

- ربما مررتُ على المحكمة من أجل قضية أختي.

Tele: @Arab_Books

– ألن تذهب إلى الحفلة الموسيقية؟

وماذا سأفعل هناك وحدي؟

– بلى، اذهبْ إليها؛ إذ يجري فيها تقديم الأعمال الجديدة التي طالما أثارت اهتمامك. لو كنتُ أستطيع لذهبتُ بالتأكيد.

قال وهو ينظر إلى الساعة:

– على كل حال، سآتي لزيارتك قبل العشاء.

– ضعْ سترتك الرسمية؛ وهكذا تستطيع أن تمرّ رأساً على منزل الكونتيسة بوهل.

– أذلك ضروري حتماً؟

– بدون شك. فالكونت قد جاء لزيارتنا. لن يشقّ ذلك عليك. سوف تصلُ، وتجلس وتتحدث خمس دقائق من الزمن، ثم تنهض وتنصرف.

– طيب، لكنك لا تستطيعين أن تصدّقي إلى أي حدّ فقدتُ العادة في هذه الأمور كلها: إن ذلك يضايقني. فنحن نصل إلى منزل الغرباء، ونجلس، ونبقى هناك دون أي سبب، ونضايق الناس جميعاً، ونضجر من تلقاء أنفسنا، ثم ننصرف.

فأخذت كيتي تضحك، وقالت له:

– أكنتَ تقوم بزيارة الناس عندما كنتَ عزباً؟

Tele: @Arab_Books

- نعم، لكني كنتُ أشعر دائماً بالضيق، وقد فقدت الآن هذه العادة إلى حدٍّ أقسم لك معه أني أفضّل الاستغناء عن العشاء مدة يومين على القيام بهذه الزيارة. إن الخجل ينتابني دائماً. ويلوح لي أن الناس سيغتاظون وسيقولون لي: «لَمَ تأتي إلى حيث لا شغل لك؟».

قالت كيتي وهي تضحك وتأخذ يده:

- كلا، لن يغتاظوا، أؤكد لك ذلك. هيا، وداعاً... اذهب، أرجوك.

لثَمَ يدها وأراد الخروج فاستوقفته.

- أتعلم، يا كوستيا، أنه لم يبق معي سوى خمسين روبلاً.

قال لها بوجه مستاءْ تعرفه جيداً.

- لابأس، سأمر على المصرف لأسحب بعض المال. كم تريدين؟

فاستبقتْه من ذراعه:

- لا، انظر. إن الأمر يشغل بالي. فالمال يختفي مع اعتقادي بأنني لا أتزيّد في المصروف الذي لا طائل فيه. لعلنا لا نحسن التصرّف بالمال.

قال وهو يسعل سعالاً خفيفاً وينظر خفية:

- كلا.

كانت تعرف معنى هذا السعال. لقد كان دليلاً على الاستياء

Tele: @Arab_Books

الشديد لا منها بل من نفسه. كان غاضباً لا لأن المال يطير بسرعة، بل لتذكيره بهذا الأمر المكدّر الذي يودّ لو ينساه.

- قلتُ لسوكولوف أن يبيع الحنطة وأن يقبض سلفاً أجرة الطاحونة. لن يعوزنا المال في حال من الأحوال.

- بالتأكيد، لكنني أخشى أن أسرف في المصروف....

فردد:

- كلا، كلا. هيا، وداعاً، يا روحي.

- الحق أنني آسفة، في بعض الأيام، على إصغائي لآراء أمي. لو بقينا في الريف لكنا أسعد. فأنا أسبب لكم جميعاً الكثير من المتاعب هنا، ونحن نُفرط في الإنفاق...

- كلا. فأنا لم آسف، منذ زواجنا، على أن تكون الأشياء قد جرتْ على نحو آخر لا أريده.

قالت له وهي تنظر إليه في وجهه:

- أحقاً ما تقول؟

قال ذلك دون أن يتروّى فيه، رغبةً منه في تعزيتها. لكنه عندما رأى عينيها الجميلتين، النبيلتين محدّقتين فيه وقد بدا عليهما التساؤل، كرر الكلمات نفسها ومن أعماق قلبه هذه المرة. وتذكّر ما ينتظره وفكّر في نفسه: «لا شك أنني نسيتُ ذلك». وهمس إليها وهو يتناول يديها:

Tele: @Arab_Books

– هل خلاصك قريب؟ كيف تشعرين بنفسك؟

– لقد فكرت في ذلك كثيراً حتى إني لم أعد أفكر في ذلك الآن و لم أعد أعلم شيئاً.

– ألستِ خائفة؟

ابتسمت ابتسامة ازدراء.

– إن حدث شيء فأنا عند كاتافاسوف.

– لن يقع شيء، لا تقلق. سأذهب لأتنزّه مع أبي على الجادة. سنزور دولي. إني أنتظرك قبل العشاء. آه! نعم. أتعلم أن وضع دولي أصبح لا يُطاق حتماً؟ إنها غارقة في الديون حتى رأسها، وهي لا تملك شيئاً من المال. كنا نتحدث عن ذلك أمس أنا وأمي وأرسين (زوج أختها لفوف) وقررنا أن تُنحيا عليه باللوم العنيف. هذا لا يطاق إطلاقاً. ولا طائل من إطلاع أبي على ذلك... لكن إذا استطعتما كلاكما...

قال ليفين:

– وما عسانا أن نفعل؟

– اذهب، على كل حال، وحادث «أرسين» في ذلك؛ سينبئك بما عقدنا العزم عليه.

– أنا آخذ سلفاً برأي أرسين. طيب، سأمر عليه. وإذا كان هناك حفلة موسيقية فسأذهب مع ناتالي. إلى اللقاء.

Tele: @Arab_Books

عند درج المدخل أوقفه العجوز «كوزما» الذي كان في خدمته قبل زواجه والذي كان يقوم بدور كبير الخدم في المدينة، وقال:

- بيْطرْنا «الظريف» (جواد العربة الأيسر) لكنه ما يزال يعرج. ما الذي ينبغي فعله؟

لقد أتى ليفين بالجياد من الريف: كان يرغب في أن يكون له اصطبل مناسب لا يكلّفه غالياً. لكنه تبيّن أن جياده تكلّفه أكثر من جياد الأجرة، وأن عليه أن يستأجر عربة من وقت إلى آخر.

- استدعِ الطبيب البيطري. لعله مريض بالصحن في باطن حافره.

وسأله «كوزما».

- وبالنسبة إلى كاترين ألكسندروفنا؟

دهش ليفين، في الآونة الأولى بعد إقامته في موسكو، من أنه لكي يذهب من كنيسة «التمجيد» إلى «سيفتسيف فراجوك»، كان لا بدَّ له من ربط جوادين قويين إلى عربة ثقيلة، لتقطع أربعة فراسخ في مزيج من الثلج والوحل، ومن إيقافها هناك أربع ساعات، ومن دفع خمسة روبلات فوق ذلك كله. أما الآن فصار يجد ذلك طبيعياً.

قال له:

- استأجر جوادين.

- بأمرك.

Tele: @Arab_Books

بعد أن حلّ ليفين صعوبة تحتاج في الريف إلى تفكير طويل، خرج إلى درج المدخل، ونادى عربة وصعد إليها وأمر أن تأخذه إلى شارع القديس «نيسيفود». وفي الطريق نسي مسألة المال و لم يعد يفكّر إلا في مقابلته لعالم بطرسبرج الذي كان يهتمّ بعلم الاجتماع والذي أراد ليفين أن يحدّثه عن كتابه.

في بداية الأمر، كانت هذه النفقات غير المعقولة بالنسبة إلى ابن الريف، وهي نفقات لا خير فيها وإن كانت لا بدَّ منها، نفقات تُطلَب منه لدى كل خطوة، تدهش ليفين. أما الآن فقد تعوّدها. وبهذا الصدد وقع له ما يقع للسكّيرين: «فالكأس الأولى يصعب بلعها، أما الثانية فأسهل، وأما الثالثة فتطير كالعصفور الصغير». فعندما دفع ليفين مائة الروبل الأولى ثمناً لخلعتي الخادم والحاجب، فكّر بالرغم منه في أن هاتين الخلعتين الرسميتين لا فائدة منهما وإن كانتا ضروريتين حتماً إذا ما حكمنا على ذلك من دهشة الأميرة وكيتي عندما لمحَ ليفين بأن الممكن الاستغناء عنهما، وأن هاتين الخلعتين تمثّلان أجر عاملين، أي نحو ثلاثمائة يوم عمل من أسبوع الفصح إلى آخر يوم قبل الصوم الكبير، ثلاثمائة يوم من الجهد المضني منذ الفجر إلى ساعة متقدمة من السهرة، وغمّه أن يدفع ورقة بمائة روبل. المائة التالية التي أنفقها في شراء المؤن المخصصة لعشاء عائلي كلّفه ثمانية وعشرين روبلاً ذكّر ليفين أن ثمانية وعشرين روبلاً تمثّل نحو مائتي صاع من الشوفان الذي عَرِقَ الرجال وتألّموا لحصده وربطه ودرْسه وتذريته وغربلته وتعبئته، لكنه تخلى عنها بسهولة أكبر. أما الآن فإن المال الذي كان ينفقه لم يعد يثير فيه مثل تلك التصوّرات، وكان يختفي بمثل السحر. وقد كفّ عن التساؤل إن كانت اللذة التي يوفّرها ما يشتريه هذا المال يتناسب

Tele: @Arab_Books

مع العمل الذي بُذل لتجميع ذلك المال. ونسي أن هناك أسعاراً محددة لا يجوز بيع بعض أصناف القمح دونها. فشيلمه الذي حافظ ليفين على سعره زمناً طويلاً بيع كل مائة ليتر منه بخمسة وعشرين كوبيكاً أنقص من الشهر السابق. بل إنه لم يعد يخطر بباله أن هذا النمط من الحياة سيغرقه في الدَّيْن بعد سنة: لم يبق لذلك أية أهمية لديه. كل ما كان يطلبه هو أن يكون له في المصرف مبلغ من المال، دون أن يسأل من أين جاء المال، لكي يكون على ثقة من أنه قادر على شراء اللحم في اليوم التالي. وحتى هذه اللحظة، احتفظ بشيء من المال في المصرف، لكنه كان شيئاً زهيداً، و لم يكن يعلم من أين يأتي به. هذه الفكرة هي التي أزعجته عندما حدّثته كيتي عن المال. لكن لم يكن لديه من الوقت ما يكفي للتوقّف ملياً عندها. لم يكن يفكّر إلا في كاتافاسوف وفي مقابلته لميتروف.

Tele: @Arab_Books

-٣-

تقرّب ليفين كثيراً، أثناء هذه الإقامة في موسكو، من أحد أصدقائه القدماء في الجامعة هو أستاذ «كاتافاسوف» الذي لم يره منذ زواجه. كان كاتافاسوف يعجبه بوضوح مفاهيمه وبساطتها. كان كاتافاسوف يرى، من جهته، أن عدم تناسق فكر ليفين ينجم عن نقص في تنظيم فكره؛ لكن وضوح كاتافاسوف كان يعجب ليفين، كما أن وفرة الأفكار غير المنظمة عند ليفين كانت تعجب كاتافاسوف، ولذلك كانا يحبان أن يلتقيا ليتناقشا.

كان ليفين قد قرأ من كتاب كاتافاسوف مقاطع أثارت اهتمامه. وعندما لقيه كاتافاسوف البارحة في محاضرة عامة، قال له إن «ميتروف» الشهير الذي فَتنت مقالته ليفين، موجود في موسكو، وأنه اهتم كثيراً بما قاله له كاتافاسوف عن عمل ليفين، وأنه سيكون في بيته غداً صباحاً، في الساعة الحادية عشرة، وسيسعده أن يتعرّف بليفين.

قال كاتافاسوف وهو يُقبل على ليفين في الصالة الصغرى:

– لا شك أنك صرتَ تغيّر ما في نفسك، يا عزيزي، يسعدني أن أراك. قلتُ في نفسي وأنا أسمع الجرس: «ليس ممكناً أن يكون

Tele: @Arab_Books

دقيقاً إلى هذا الحد!» حسناً! ما رأيك بأهالي الجبل الأسود؟[٤٠] جنود أصيلون!

سأله ليفين:

– وماذا حدث؟

أبلغه كاتافاسوف في بضع كلمات آخر الأخبار، ودخل مكتبه فقدّم ليفين إلى شخص قوي، قصير القامة، حسن المظهر، هو «ميتروف». دار الحديث بعض الوقت حول السياسة وحول رأي الدوائر العليا ببطرسبرج في الأحـداث الجديدة. وذكر لهما «ميتروف» بعض الكلمات التي قالها الإمبراطور وأحد وزرائه بهذه المناسبة والتي وصلته من مصدر موثوق. بيد أن كاتافاسوف ترك نفسه على سجيتها وقال: إن الإمبراطور قد علّق على الأحداث تعليقاً مختلفاً كل الاختلاف. وتصوّر ليفين موقفاً يمكن أن تُقال فيه هذه الكلمات وتلك، وتوقّف الحديث عن هذا الموضوع عند هذا الحد.

قال كاتافاسوف:

– إن صديقي أنهى كتاباً عن الشروط الطبيعية التي يوجد فيها العامل بالنسبة إلى الأرض. لست اختصاصياً، لكن ما أعجبني، باعتباري مختصاً بالطبيعيات، هو أنه لا يعتبر الإنسانية عنصراً غريباً عن القوانين الحيوانية بل إنه يراها، على العكس، في تبعيتها لقوانين وسطها، وأنه يبحث في هذه التبعية عن قوانين تطورها.

٤٠– «ما رأيك بأهالي الجبل الأسود»: إن إمارة الجبل الأسود تحالفت مع بلاد الصرب وتجرأت على إعلان الحرب على تركيا في ١٨ حزيران ١٨٧٦.

Tele: @Arab_Books

قال ميتروف:

– هذا شائق.

قال ليفين وهو يحمر:

– بدأتُ بكتابة كتاب عن علم الزراعة، ثم توصّلت، بالرغم مني، وأنا أدرس الأداة الأولى في الاقتصاد الريفي: العامل، إلى نتائج لم أكن أتوقّعها.

وشرع ليفين يعرض نظريته بحذر، كأنه يتعرّف الأرض. وكان يعلم أن ميتروف قد كتب مقالة يعارض فيها التعليم الرسمي للاقتصاد السياسي، لكنه كان يجهل إلى أي حدٍّ يستطيع أن يعتمد على تعاطفه، ولم يكن يستطيع أن يستشفّ ذلك على وجه العالم الهادئ والذكي.

قال ميتروف:

– فيم يفترق العامل الروسي عن غيره من العمال، برأيك؟ أمن الناحية الحيوانية، إن صحّ القول، أم بسبب الشروط التي هو موجود فيها؟

رأى ليفين أن هذا السؤال يعبّر عن فكرة لا يوافق عليها، لكنه تابع عرضه لنظريته: وبرأيه أن للعامل الروسي علاقة بالأرض تختلف تماماً عن علاقات عمال الأمم الأخرى بالأرض. ولكي يفسّر هذا الزعم سارع فأضاف أن هذا الموقف ينبع، برأيه، من شعوره بقَدره الذي هُيِّئ له: وهو إعمار مناطق شاسعة غير مأهولة في الشرق.

Tele: @Arab_Books

قال ميتروف مقاطعاً ليفين:

– من السهل أن يخطئ المرء وهو يستخلص نتائج بصدد قدر شعب من الشعوب. إن وضع العامل سيتوقف دائماً على علاقاته بالأرض ورأس المال.

وبدأ ميتروف يعرض عليه آراءه الشخصية، دون أن يتيح له الانتهاء من تبيان حججه.

أما علام تقوم هذه الآراء بالضبط، فلم يفهم ليفين ذلك، لأنه لم يحاول حتى أن يفهم: لقد رأى أن ميتروف، مثله مثل كثيرين غيره، لا ينظر إلى العامل الروسي إلا من وجهة نظر رأس المال والأجر والدخل، بالرغم من المقالة التي دحض فيها مذاهب الاقتصاديين. ومع أنه اضطُر إلى الاعتراف أن الدخل معدوم في الجزء الشرقي من روسيا، وهو أوسع أجزائها، وأن الأجر بالنسبة إلى تسعة أعشار السكان يقتصر على تحصيل ما يسدّون به الأود، وأن رأس المال لم يوجد بعد إلا بشكل أكثر أدوات العمل بدائية، مع ذلك كله كان لا ينظر إلا من تلك الزاوية الوحيدة ليدرس العامل، بالرغم من أنه يفترق، في كثير من الجوانب، عن الاقتصاديين وأنه دافع عن نظرية جديدة في الأجر عَرَضها على ليفين.

كان ليفين يصغي إليه دون لذة وقد ردّ عليه رداً لاذعاً في البداية، أراد أن يُقاطع ميتروف ليُفهمه وجهة نظره التي تجعل كل عرض لاحق أمراً لا جدوى فيه. لكنه بعد أن اقتنع بأنهما من رأيين مختلفين أشد اختلافاً بحيث إنهما لن يتفاهما، كفّ عن الاحتجاج واكتفى

Tele: @Arab_Books

بالإصغاء. ومع أن ما كان يقوله ميتروف لم يعد ينطوي، بدءاً من هذه اللحظة، على أية أهمية بالنسبة إليه، يَبْدَ أنه أخذ يصغي إليه بشيء من المتعة. لقد أرضى غروره أن يعمد مثل هذا الرجل العا لم إلى أن يعرض له أفكاره راضياً مختاراً، بهذه العناية الفائقة، مفترضاً فيه معرفة واسعة بالموضوع (كان يكتفي أحياناً بالتلميح إلى جانب واحد من المسألة). كان ينسب ذلك إلى مزيّته ناسياً أن ميتروف الذي استنفد الموضوع بحثاً مع مَنْ يحيط به، كان يجد لذة خاصة في الحديث مع مستمع جديد، وأنه كان، من ناحية أخرى، يتحدث راضياً مختاراً إلى الجميع عن مشكلة تشغله ولا بدَّ له من توضيح بعض جوانبها.

قال كاتافاسوف وقد ألقى نظرة إلى الساعة بعد أن انتهى ميتروف من شرحه.

– سوف نتأخر. وستنعقد اليوم جلسة في جمعية الهواة في ذكرى مرور خمسين عاماً على «سفنتيش». وسنذهب إليها، بييرايفانوفتش وأنا. وقد وعدت بتقديم بحث عن أعماله في علم الحيوان. تعال معنا. سيكون ذلك شائقاً.

قال ميتروف:

– لقد حان الوقت، في الواقع. تعال معنا، وبعد ذلك نعرّج على بيتي إذا لاءمك ذلك. أحب كثيراً أن تقرأ علي كتابك.

– أوه! إنه ليس سوى مشروع كتاب. لكنني سأذهب بكل رضا إلى هذه الجلسة.

Tele: @Arab_Books

قال كاتافاسوف الذي أخذ يرتدي ثيابه في الغرفة المجاورة.

- أتعلم، يا عزيزي، أنني وقّعتُ المذكّرة؟

وأخذوا يتحدّثون عن النزاع الذي وقع في قلب الجامعة.

كان ذلك النزاع حَدثاً شديد الأهمية في موسكو، هذا الشتاء. لقد رفض ثلاثة من الأساتذة القدامى وجهة نظر زملائهم الشباب؛ فقدّم هؤلاء مذكّرة. وكانت هذه المذكّرة كريهة برأي بعضهم، وأشد ما تكون بساطة وعدلاً برأي الآخرين، ولذلك انشقّ الأساتذة إلى حزبين.

كان المعارضون الذين ينتمي إليهم كاتافاسوف يصفون المحافظين بأنهم وشاةٌ ماكرون، وكان المحافظون يتّهمون المعارضين بالشيطنة والتمرّد. وقد سمع ليفين الناس يتحدثون عن هذه القضية منذ وصوله إلى موسكو، مع أنه غريب عن الجامعة، وكوّن لنفسه رأياً في هذا الموضوع: فشارك في الحديث الجاري في الشارع بينما كانوا يتّجهون ثلاثتهم إلى الجامعة.

كانت الجلسة قد بدأت. وخلف الطاولة التي غُطّيت بغطاء والتي اتخذ كاتافاسوف وميتروف مكانهما إليها، جلس ستة أساتذة. كان أحدهم يقرأ وأنفهُ على مذكّراته. استقر ليفين على أحد الكراسي الفارغة التي تُحيط بالطاولة، وسأل بصوت خافت طالباً جالساً بجنبه عن الموضوع الذي يعالجه القارئ. رماه الطالب بنظرة ممتعضة وقال:

- السيرة.

Tele: @Arab_Books

ومع أن ليفين لم يكن يهتم بسيرة العالم، فقد أصغى بالرغم منه واكتشف في حياة رجل العلم الشهير بعض الخصائص المثيرة للاهتمام. حين انتهى الخطيب من كلامه شكره الرئيس وقرأ قصيدة أرسلها الشاعر «منت» بمناسبة العيد الخمسيني، ووجّه كلمات شكر إلى المؤلف. بعد ذلك، قرأ كاتافاسوف بصوته الصارخ والجهوري لمحة عن أعمال سفنتيش العلمية. وعندما انتهى، نظر ليفين إلى الساعة ورأى أنه قد مرّت ساعة، وأنه لن يتسنّى له أن يقرأ عمله على ميتروف قبل الحفلة الموسيقية، ثم إنه لم يكن يشتهي ذلك. وفكّر أيضاً، أثناء ذلك العرض الذي كان يقدّمه كاتافاسوف، في الحديث الذي جرى بينهم. لقد رأى الآن بوضوح أن أفكار ميتروف ربما كان لها أساس، لكن لأفكاره أيضاً أساساً، وأن هذه الأفكار لا يمكن أن تؤدي إلى نتيجة إلا إذا اشتغل كل واحد بشكل منفصل في الطريق التي اختارها، وأن المقابلة بين هذه الأفكار لن تعطي شيئاً حسناً. ولذلك فبعد أن قرر ليفين رفض دعوة ميتروف، أقبل عليه في نهاية الجلسة، فقدّمه ميتروف للرئيس الذي كان يتحدّث معه عن الحوادث السياسية الجارية. وبهذه المناسبة، ردد ميتروف على الرئيس ما رواه لليفين وردد ليفين الملاحظات التي أبداها في الصباح، لكنه أضاف إليها، رغبة منه في التنويع، فكرة مرّت بباله قبل هنيهة. وبعد ذاك، انتقل الحديث إلى خصام الجامعة. وبما أن ليفين قد سمع ذلك كله من قبل سارع إلى القول لميتروف: إنه يأسف على أنه لا يستطيع تلبية دعوته، ثم استأذن وقصد إلى منزل «لفوف».

Tele: @Arab_Books

- ٤ -

لقد قضى «لفوف»، زوج ناتالي أخت كيتي، حياته في العواصم وفي الخارج حيث تدرّب على مهنة الدبلوماسي.

في السنة الفائتة، ترك هذه الوظيفة لا على أثر المضايقات، (لم تحدث له قطّ مضايقات مع أحد) بل لكي يوفّر لولديه تربية أفضل. واضطلع بمهمة في البلاط، في موسكو.

بالرغم من اختلاف واضح في العادات والآراء بين لفوف وليفين، ومع أن لفوف كان أكبر سناً من ليفين، فقد توثّقت العلاقات بينهما في هذا الشتاء، وأحبّ كل منهما الآخر.

كان لفوف في المنزل ودخل ليفين مكتبه دون أن يُعلن عن نفسه.

كان لفوف جالساً على مقعد، بسترة البيت وبحذاء من جلد الأيل، يقرأ، وعلى عينيه نظارة زجاجتاها زرقاوان، في كتاب على مقرأ؛ وكان في يده التي نحّاها بحذر سيجار أحرق نصفه.

استضاء وجهه الجميل، الناعم، الذي ما زال فتياً والذي أسبغ عليه شعره الجعد الرمادي المائل إلى الفضي تعبيراً أكثر أصالة، استضاء بابتسامة عندما شاهد ليفين.

Tele: @Arab_Books

– رائع! كنت سأستخبر عنك. كيف حال كيتي؟ اجلسْ هنا، فهو أرْوحُ لك...

ونهض فقدم مقعداً قلاّباً وقال وفي لهجته نبرة فرنسية خفيفة:

– هل قرأت آخر منشور في «جريدة بطرسبرج». إني أجد ذلك ممتازاً.

روى له ليفين ما قاله له كاتافاسوف عن آخر الإشاعات المنتشرة في بطرسبرج، وبعد أن تحدّث بعض الوقت عن السياسة، صوّر له لقاءه مع ميتروف والجلسة التي حضرها. فاهتم «لفوف» بذلك اهتماماً كبيراً، وقال له:

– إني أغبطك على دخولك عالم العلم هذا.

وبما أنه كان ميالاً إلى الثرثرة كعادته، فقد انتقل إلى الكلام بالفرنسية التي كانت أيسر عليه:

– الحق أن ليس لدي الفراغ الكافي. فوقتي كله مشغول بخدمتي وبولديّ. ومن جهة أخرى فلست أخجل من الاعتراف بأن تعليمي غير كاف.

قال ليفين مبتسماً، وقد تأثّر، كدأبه دائماً، بهذا التواضع الصادق تماماً، الذي لم يتكلّفه صاحبه رغبة منه في الظهور أو حتى في التواضع:

– اسمحْ لي أن أشكّ في ذلك.

– بلى! إني أدرك الآن كل الثغرات في تعليمي. فمن أجل تربية

Tele: @Arab_Books

ولديّ لا بدَّ لي من تحريك ذاكرتي أو من الرجوع إلى دراساتي بكل بساطة. لأن الأساتذة لا يكفون، ولا بدَّ من مشرف، كما أنك في استثماراتك لا بدَّ لك من مدير أعمال قرب العمال. انظر، ماذا أقرأ هنا (وأراه كتاب قواعد لبوسلايف[٤١] موضوع على المقرأ)، إنهم يطلبون إلى ميشا أن يعرفه، وهو صعب جداً... هيا، اشرح لي ما يقوله هنا...

أراد ليفين أن يقنعه بأن هذه المواد إنما ينبغي أن نعرفها لا أن نسعى إلى التعمّق فيها. لكن «لفوف» لم يكن من رأيه:

– أترى، إنك تهزأ بي!

– على العكس، إنك لا تستطيع أن تتصوّر إلى أي حدّ أتّخذك قدوة للمستقبل، ولا سيما فيما يتعلّق بتربية الأولاد.

قال لفوف:

– ليس لك أن تتّخذني قدوة.

فقال ليفين:

– كل ما أعلمه هو أنني لم أر قط أولاداً أحسن تربية من أولادك؛ وأنا أحب أن يكون أولادي المقبلون مثلهم في تربيتهم.

أراد لفوف بشكل ظاهر أن يتمالك نفسه لكي لا يكشف عن فرحه، لكنه كان يشع من الفرح حقاً.

٤١– قواعد بوسلايف: بوسلايف (١٨١٨ –١٨٩٧) أستاذ بارز في علم اللغة مؤلف كتاب ممتاز هو: القواعد التاريخية للغة الروسية.

Tele: @Arab_Books

– بشرط أن يكونوا أفضل مني. هذا كل ما أبغيه. إنك لا تعرف بعدُ المشقّة التي يسبّبها الأولاد، ولا سيما عندما يُتركون، مثل أولادي، لأنفسهم في الخارج.

– سوف تعوّض ذلك كله. إنهم أولاد موهوبون. الأهم هي التربية الخلقية. هذا ما أتعلّمه وأنا أتطلّع إلى أولادك.

– أنت تقول: تربية خلقية. لا نستطيع أن نتصوّر مدى صعوبة ذلك! فما أن نتغلب على أحد الميول الشريرة حتى تنتصر الميول الشريرة الأخرى من جديد، ويبدأ الصراع مرة أخرى. ولولا سند الدين (لقد تكلمنا على ذلك، وأنت تتذكّر) لما استطاع والد بقواه وحدها أن يُفلح في تربية أولاده.

هذا الحديث، الممتع جداً بالنسبة إلى ليفين، انقطع بدخول ناتالي ألكسندروفنا الجميلة التي ارتدت ملابسها استعداداً للخروج.

قالت:

– آه! ما كنتُ أعلم أنك هنا.

وكان واضحاً أنها لا تشعر بأدنى أسف بل إنها شعرت بالرضا حين قطعتْ حديثاً معاداً كان يضجرها. وأضافت:

– كيف حال كيتي؟ سأتعشى عندكم اليوم.

والتفتت إلى زوجها وقالت:

– صحيح، يا أرسين، هل ستأخذ العربة...

Tele: @Arab_Books

وقام بين الزوج والزوجة نقاش بشأن استخدامهم للوقت. فالزوج كان مكلفاً باستقبال إحدى الشخصيات، والزوجة ستذهب إلى الحفلة الموسيقية، وإلى جلسة عامة لجمعية سلاف الجنوب. كان يجب التفكير في ذلك كله إذن، واتخاذ القرارات المناسبة. واضطر ليفين، باعتباره أحد أصدقاء البيت، إلى المشاركة في النقاش. وتقرر أن يذهب ليفين مع ناتالي إلى الحفلة والجلسة، ومن هناك يرسل العربة لتقلّ أرسين إلى المكتب؛ حينئذ يأتي أرسين ليأخذ امرأته إلى منزل كيتي؛ وإذا لم ينه عمله فسوف يرسل العربة، وسيكون ليفين هو الذي يصحب السيدة لفوف.

قال لفوف لزوجته:

– إنه يدللني ويزعم أن أولادنا رائعون، في حين أعلم أن لهم الكثير من العيوب.

أجابت زوجته:

– أرسين يتطرّف دائماً، وطالما قلت له ذلك. إذا كنتَ تسعى إلى الكمال فلن تسرَّ أبداً. كان أبي على حق حين قال: إن الأهل في زمانه كانوا يقعون في تطرّف آخر: كانوا يرمون بالأطفال في الدور المنخفض ليسكنوا الدور الأول؛ أما الآن فالعكس هو الصحيح: فالأهل يسكنون الغرف المهملة، والأولاد في الدور الأول. الأهل، اليوم، لا يحق لهم العيش إلا من أجل ذريتهم.

قال لفوف، وهو يبتسم ابتسامته الجميلة ويلمس يدها:

– وما أهمية ذلك، إن كان ذلك ألذّ؟ مَنْ لا يعرفك يظن أنه يسمع زوجة الأب.

Tele: @Arab_Books

قالت ناتالي بهدوء وهي تعيد مقطع الورق إلى مكانه:

- لا، التطرف في كل شيء خطأ.

- هيا، تعالا، أيها الولدان الكاملان.

قال لفوف ذلك لصبيين جميلين دخلا، وبعد أن سلّما على ليفين، اقتربا من والدهما وبنيّتهما أن يطرحا عليه بعض الأسئلة.

كان بودّ ليفين أن يكلّمهما ويسمع ما سيقولانه لأبيهما، لكن ناتالي وجّهت الكلام إليهما، وفي اللحظة نفسها، دخل الغرفة رفيق «لفوف»، ماكوتين، ببزة البلاط؛ كان مقرراً أن يصطحب صديقه إلى المحطة. وفي الحال، بدأ حديث لا ينضبُ عن «الهيرزيجوفين»[42] والأميرة كوزنسكي، والدوما[43]، وموت السيدة ابراكسين المفاجئ.

نسي ليفين المهمة التي عُهد بها إليه. ولم يتذكرها إلا في اللحظة التي انتقل فيها إلى غرفة الانتظار. فقال لفوف الذي شيّعه حتى الدرج:

- آه! لقد رجتني كيتي أن أكلّمك بشأن أوبلونسكي.

قال لفوف محمرّاً:

- نعم، نعم، «أمي» تريد أن يؤنبه العدلاء على سلوكه. لكن، لمَ أنا بالذات؟

٤٢- «هيرزيجوفين»: كانت هذه المقاطعة تحت السيطرة العثمانية حتى انفجر عصيان ١٨٧٥.

٤٣- «الدوما»: كانت المجالس البلدية في المدن الروسية تسمى كذلك؛ والمقصود هنا «دوما» موسكو.

Tele: @Arab_Books

قالت السيدة لفوف وهي تبتسم، وكانت تنتظر نهاية الحديث في معطفها الجلدي الأبيض:

- أنا سأتولّى ذلك، إذن. لنذهب.

Tele: @Arab_Books

-٥-

قُدّم، هذا الصباح، في الحفلة الموسيقية عملان ممتعان. كان أحدهما «فنتازية» عن «الملك ليرفي السهوب»[٤٤]، وكان الآخر رباعياً مقدماً إلى ذكرى باخ. كانا عملين حديثين أوحت بهما الروح الجديدة، وكان ليفين يرغب في أن يكوّن لنفسه رأياً عنهما. وبعد أن قاد أخت زوجته إلى مقعدها، ذهب واستند إلى عمود وقرر أن يصغي بأكبر قدر ممكن من الانتباه والدقة. لقد حاول جاهداً ألا يسمح لنفسه بالشرود أو بالانزعاج من جراء حركات قائد الجوقة ذي العقدة البيضاء، وهي حركات شديدة الإزعاج للمستمعين المتنبّهين، أو من جراء السيدات ذوات القبعات اللواتي غطّين بعناية آذانهن بالشرائط قبل أن يأتين إلى الحفلة الموسيقية، أو من جراء جميع هذه الوجوه العاطلة أو المشغولة بشتى المصالح لكنها ليست مشغولة بالموسيقا على كل حال. وحاول أن يتحاشى الهواة والمهذارين، وظل واقفاً يصيخ السمع، وقد خفض بصره إلى الأرض.

٤٤- «الملك لير في السهوب»: إشارة ساخرة إلى المجموعة السمفونية لميل بالأكيريف «الملك لير» (١٨٩٠)، التي أوحت بها قصة لتورغنيف بالعنوان نفسه.

Tele: @Arab_Books

لكنه كان كلما أمعن في إصغائه إلى «فنتازية» الملك لير، ازداد إحساسه بالعجز عن أن يكوّن لنفسه رأياً دقيقاً.

ففي كل برهة، كان التعبير الموسيقي يتناثر مزقاً لحظة تفتّحه، بحسب المبادئ الجديدة، أو يذوب في إيقاعات بالغة التعقيد ولا رابط بينها إلا نزوة المؤلف. لكن هذه الفقرات نفسها من التعبير الموسيقي كانت تصدم الأذن لأنها لم تكن متوقعة على الإطلاق و لم يمهد لها شيء، وإن كانت جميلة أحياناً. فالفرح والحزن واليأس والحنان والانتصار، كل ذلك كان يتتالى دون مسوّغ مثل انطباعات المجنون. وكانت تتلاشى فجأة كما تتلاشى انطباعات المجنون.

انتاب ليفين أثناء مدة العزف كلها إحساس كإحساس الأصم الذي ينظر إلى الراقصين. لقد شعر، وهو حائر الفكر، عندما انتهت القطعة الموسيقية، بالإعياء من التوتر الذهني الذي لم يَجْنِ من ورائه شيئاً. سُمع تصفيق صاخب من كل الجهات، ونهض الجميع وأخذوا يمشون ويتكلّمون. وكان ليفين حريصاً على أن يجلو تلك الحيرة التي ألمّت به، فأخذ يبحث عن العارفين بالموسيقا، واغتبط حين شاهد واحداً منهم يحادث «بيستسوف».

كان بيستسوف يقول بصوته العميق والجهير:

– هذا مدهش! مرحباً، يا قسطنطين دميتريتش. إن أكبر المقاطع تصويراً، وأقربها إلى النحت إن صح القول، وأغناها بالألوان هو المقطع الذي تشعر فيه بقرب كورديليا، والذي تدخل منه المرأة، الأنثى الخالدة، في صراع مع القدر. ألست ترى ذلك؟

Tele: @Arab_Books

سأله ليفين بوجل وكان قد نسي كلياً أن الفنتازية تمثّل الملك ليرفي السهوب:

– ولماذا «كورديليا»؟

قال بيستسوف وهو ينقر بأصابعه البرنامج الصقيل والململّع الذي كان يمسكه بيده والذي ناوله ليفين:

– إن كورديليا تدخل المسرح... انظر!...

حينذاك فقط تذكّر ليفين عنوان الفنتازية وسارع إلى قراءة أشعار شكسبير المترجمة إلى الروسية والمطبوعة على قفا البرنامج.

قال بيستسوف وهو يلتفت إلى ليفين، لأن محدّثه قد انصرف و لم يبق أحد يحدّثه:

– لا يمكن متابعة الموسيقا دون هذا البرنامج.

وشرع ليفين وبيستسوف في حديث عن مزايا الاتجاه الفاغنيري. وعيوبه. لقد أراد ليفين أن يبرهن على أن خطأ فاغنر وكل تلاميذه هو أنه أراد أن يلج ميداناً غريباً عن الموسيقا، كما أن الشعر يضلّ طريقه حين يصف قسمات الوجه، وهي مهمة من اختصاص التصوير. وضرب شاهداً على ذلك النحّات الذي تصوّر أن ينحت من المرمر ظلالاً لصور شعرية تنتصب حول قاعدة تمثال الشاعر.

قال ليفين:

– هذه الظلال أبعد ما تكون عن الظلال باعتبارها تستند إلى قاعدة التمثال.

Tele: @Arab_Books

أعجبته هذه الجملة، لكنه لم يكن واثقاً من أنه لم يقلها من قبل، ولبيستسوف بالذات، فارتبك.

أما بيستسوف فقد أكّد له أن الفن واحد، وأنه لا يمكن أن يبلغ الذُّرا إلا باجتماع جميع الفنون.

لم يتمكن ليفين من سماع القطعة الثانية لقد حدّثه بيستسوف الذي ظل بجانبه بدون انقطاع، فانتقد بساطة العمل الباهتة والمتصنعة التي قارنها ببساطة الفنانين الذين سبقوا رفائيل في مجال التصوير. وعندما خرج ليفين التقى كثيراً من الناس المعروفين الذين تحدّث معهم عن السياسة، والموسيقا والعلاقات العامة؛ وشاهد فيمن شاهد الكونت «بوهل» الذي نسي كلياً أن يزوره.

قالت له السيدة «لفوف» التي أفضى إليها بذات نفسه:

– اذهب إلى هناك بسرعة. لعلهم لا يستقبلون اليوم. وبعد ذلك عُدْ لتأخذني من الجلسة، فسأكون فيها.

Tele: @Arab_Books

-٦-

قال ليفين وهو يدخل غرفة الانتظار في منزل الكونتيسة «بوهل»:

– ربما لم يكن هذا اليوم يوم استقبال؟

قال الحاجب وهو يخلع عنه معطفه بعزم:

– بلى، تفضل بالدخول.

فكّر ليفين وهو يتنهد ويسحب أحد قفازيه ويسوّي قبّعته: «يا له من هم! لماذا جئت إلى هنا؟ ليس عندي ما أقوله لهم!».

عندما عبر القاعة الأولى، لقي ليفين الكونتيسة «بوهل» وهي تلقي أوامرها إلى أحد الخدم وقد بدا عليها الانهماك والصرامة. ولما شاهدت ليفين ابتسمت ورجته أن يمر على قاعة الاستقبال الصغرى المجاورة التي وافى منها ضجيج أصوات. كان يجلس في هذه الغرفة موظف من موسكو يعرفه ليفين وابنتا الكونتيسة. دنا ليفين من الموظف وسلّم عليه وجلس بجانب الأريكة، وقبعته على ركبتيه.

– كيف حال زوجتك؟ هل ذهبتَ إلى الحفلة الموسيقية؟ نحن، نحن لم نستطع. لقد اضطرت أمي أن تذهب إلى الجنّاز.

Tele: @Arab_Books

قال ليفين:

- نعم، لقد علمتُ... أي موت مفاجئ!

عادت الكونتيسة، وجلست على الأريكة وطرحت أيضاً على ليفين أسئلة عن زوجته وعن الحفلة الموسيقية.

أجابها ليفين وكرر سؤاله عن موت السيدة أبراكسين الفجائي:

- على كل حال، لقد كانت دائماً رقيقة الصحة.

- هل ذهبت إلى الأوبرا أمس؟

- نعم،

- كانت «لوكا» رائعة[٤٥].

قال ليفين:

- نعم.

وبما أنه لم يكن يبالي برأي الناس فيه، فإنه كرر ما قيل مئات المرات عن خصائص موهبة هذه المغنية، وقد تظاهرت الكونتيسة «بوهل» بالإصغاء. وبعد أن تكلّم ليفين بما فيه الكفاية وصمت، شرع العقيد الذي لزم الصمت حتى هذه اللحظة في الكلام بدوره. وتحدّث عن الأوبرا وعن الإضاءة الجديدة. وبعد أن لمّح إلى «اليوم العاصف»،

٤٥- «كانت لوكا رائعة»: بولين لوكا (١٨٤١ -١٩٠٨) مغنية إيطالية غنت بنجاح على جميع مسارح أوروبا حتى سنة ١٨٨٧.

Tele: @Arab_Books

الـذي ينتوونه في منزل تيورين، أخـذ يضحك، ونهض بصخب وانصرف. ونهض ليفين بدوره، لكنه أدرك، من وجه الكونتيسة، أن الوقت لم يحن بعد كي يستأذنها. كان ينبغي له أن يبقى دقيقتين أيضاً. فعاد إلى الجلوس.

وبما أنه لم ينقطع عن التفكير في سخافة ذلك كله، فإنه لم يعثر على موضع للحديث.

سألته الكونتيسة:

- ألن تذهب إلى جلسة الجمعية؟

قال ليفين:

- لا، وإنما وعـدتُ أخـت زوجتي بالمرور عليها هناك لكي أصطحبها.

حدث صمتٌ. وتبادلت الأم وبنيتها النظر.

فكّر ليفين: «أظـن أن الوقت قد حان الآن»، ونهض. شدّت السيدات على يده ورجونه أن ينقل تحياتهن إلى زوجته.

سأله الحاجب، وهو يمد إليه معطفه، عن عنوانه وسجّله على سجل كبير مجلد تجليداً فخماً.

فكر ليفين: «من المؤكد أني لا أكـترث لهذا، لكنه، مع ذلك يضايقني؛ إن هذا لمضحك حقاً!». وعزاه أن الناس يفعلون مثلما

Tele: @Arab_Books

فعل، قصد إلى جلسة الجمعية التي سيلقى فيها أخت زوجته ليقودها إلى بيتها.

في جلسة الجمعية، اجتمع خلق كثير، كل المجتمع الراقي تقريباً. وقد وصل ليفين في الوقت المناسب ليستمع إلى بيان عظيم الأهمية، على حدّ قول الجميع. وعندما انتهى البيان أقبل الناس بعضهم على بعض، أما ليفين فقد لقي سفياجسكي الذي دعاه إلى المجيء، في هذا المساء نفسه، إلى الجمعية الزراعية حيث ستُلقى محاضرة رائعة، كما لقي ستيفان أركادييفتش الذي كان عائداً لتوه من السباق، وكثيراً من الأشخاص غيره: كان لا بدَّ له أن يلقي ويسمع أحكاماً شتّى حول الجلسة، والأوبرا، وحول إحدى الدعاوى الجارية. لكنه ارتكب، وهو يتحدث عن الدعوى، غلطة عادت إلى ذاكرته عدة مرات لتغيظه، ولا شك أن ذلك إنما كان بسبب التعب الذي أخذ يحس به. فعندما كانوا يتحدثون عن العقاب الذي فرض على أجنبي حوكم في روسيا والذي رأوه غير كاف لأنه حكم عليه بالطرد فقط، كرر ليفين ما سمع صديقاً له يقوله أمس:

– يلوح لي أن طرده يعادل عقابنا لسمكة بإلقائها في الماء. لكنه تذكّر بعد ذلك أن هذه الفكرة التي يقدّمها باعتبارها له والتي سمع صديقاً له يعبّر عنها، كانت مأخوذة من حكاية لكلريلوف وأن هذا الصديق اقتبسها من مقالة في جريدة.

رجع ليفين بصحبة أخت زوجته، ووجد كيتي مبتهجة، وبصحة جيدة، وذهب إلى النادي.

Tele: @Arab_Books

-٧-

وصل ليفين في الوقت نفسه الـذي وصل فيه أعضاء النادي والمدعوون. لم يكن قد زار النادي منذ الفترة التي سكن فيها موسكو بعد الجامعة والتي أخذ يخالط المجتمع الراقي فيها. كان يتذكّر بعض التفاصيل الخارجية في موقع النادي، لكنه نسي كلياً الإحساس الذي كان يخالجه قديماً حين كان يدخله. وما إن ولج الفناء الواسع نصف الدائري، وترك عربته، وصعد درج المدخل، وبادر الحاجب ذو الحمّالة إلى لقائه وفتح له الباب دون ضجة وهو ينحني؛ وما إن شاهد في البهو معاطفهم، وكذلك أحذيتهم المطاطية التي تركوها هنا لأن ذلك أسهل عليهم من أن يحملوها إلى الطابق الأول؛ وما إن سمع دقة الجرس المحفوفة بالأسرار والتي تُعلن عنه وشاهد، وهو يصعد الدرج اللطيف الانحدار والمغطّى بسجادة، التمثال على قرص الدرج، وعلى عتبة باب الطابق الأول، الحاجب العجوز الذي يعرفه جيداً، وقد ارتدى لباس النادي الرسمي، وفتح له الباب دون استعجال وهو ينظر إليه من رأسه إلى قدميه، حتى عاوده الإحساس القديم: إحساس بالراحة والرغد والحشمة.

قال الحاجب لليفين الذي نسي أن يترك قبعته في حجرة الثياب كما يقضي بذلك النظام:

Tele: @Arab_Books

– قبعتك، أرجوك. إننا لم نرك منذ زمن بعيد. جاء الأمير ليسجّلك أمس. لم يصل بعد الأمير ستيفان أركاديفتش.

كان الحاجب يعرف جميع معارف ليفين وأهله لا ليفين وحده، و لم يلبث أن حدثه عن أقرب الناس إليه.

بعد أن اجتاز ليفين مدخلاً أول مزيناً بحواجز، وغرفة معزولة بحاجز إلى اليمين كان يقف فيها بائع الفواكه، أدرك رجلاً كان يمشي بخطوات بطيئة ودخل غرفة الطعام.

مر بين الطاولات المشغولة كلها تقريباً، وهو ينظر إلى المدعوين. رأت عيناه أشد الناس تنوعاً: الشباب والشيوخ، الأشخاص الذين لم يكد يعرفهم، الأصدقاء الحميمين. و لم يجد لأي منهم وجهاً مهموماً أو عابساً. وبدا عليهم جميعاً أنهم نزعوا في حجرة الثياب متاعبهم وهمومهم مع قبّعاتهم، وأنهم تهيؤوا لانتهاب خيرات العالم المادية بسلام. كان بين الحاضرين سفياجسكي، تشرباتزكي، نيفيدوفسكي، الأمير العجوز، فرونسكي، وسيرج إيفانوفتش.

قال له الأمير العجوز وهو يبتسم ويمد إليه يده من فوق ظهره:

– آه! لقد تأخّرت!

وأضاف وهو يعيد فوطته إلى موضعها، بعد أن أدخل طرفها في إحدى عرى صدرته:

– وكيف حال كيتي؟

Tele: @Arab_Books

– إنها بخير. وسيتناولن ثلاثتهن العشاء في البيت.

– آه! من اللواتي يكررن أنفسهن. طيب! لم يبق محل هنا. اذهب بسرعة واجلس إلى تلك الطاولة هناك.

قال الأمير ذلك ثم التفت وتناول باحتراس صحناً من الحساء بالسمك.

صرخ صوت متودد، من مكان أبعد قليلاً:

– ليفين، هنا!

كان توروفستين. وكان مع ضابط شاب، إلى جانب مكانين محجوزين. فانضم إليهما ليفين بسرور. لقد أحب دائماً توروفستين، وهو فتى عربيد وطيب (كانت ذكراه مرتبطة بذكرى استفساره كيتي)، واليوم، بعد كل تلك الأحاديث التي حاول جاهداً فيها أن يظهر بمظهر الذكي، سُرّ سروراً خاصاً بسحنة توروفستين السمحة.

– المكانان لك ولأوبلونسكي. سيأتي في الحال.

كان الضابط الذي اعتدل في جلسته والذي كانت له عينان فرحتان وضاحكتان دائماً، من بطرسبرج واسمه «غاغين». عرّفهما توروفتسين أحدهم بالآخر.

– أوبلونسكي من دأبه التأخر.

– آه! ها هوذا.

قال أوبلونسكي وهو يدنو منهم بخطوات سريعة:

Tele: @Arab_Books

- وصلتَ للتوّ؟ مرحباً. هل تناولتَ شيئاً من الفودكا؟ هيا بنا.

نهض ليفين ورافقه إلى قرب طاولة كبيرة ملأى بالمشروبات والمقبلات من كل صنف ولون. كان عليها ما لا يقل عن مائتي صنف من المقبّلات يستطيع المرء أن يختار منها ما يلائم ذوقه، لكن ستيفان أركادييفتش طلب لوناً خاصاً، وما لبث أن حمل إليه خادم باللباس الرسمي ما يطلبه. أفرغا كلاهما كأساً صغيراً وعادا إلى طاولتهما.

بعد الحساء بالمسك رأساً، جيء بالشمبانيا، فصب منها غاغين أربع كؤوس. لم يرفض ليفين وطلب زجاجة ثانية. كان جائعاً، وكان يأكل ويشرب بسرور، ويشارك بسرور أكبر في أحاديث مؤاكليه البسيطة والمرحة. وقد روى غاغين، وهو يخفض صوته، حكاية حديثة من بطرسبرج: ومع أن هذه الحكاية كانت وقحة وسخيفة، إلا أنها كانت مضحكة جداً حتى لقد أغرب ليفين في ضحك صاخب والتفت مَنْ حوله ليتطلعوا إليه.

فسأله ستيفان أركادييفتش:

- هذه الحكاية من نمط حكاية: «لا أستطيع أن أتحمّل هذا!». أتعرفها؟ آه! ما ألذّ هذه الشمبانيا! زجاجة أخرى.

قال ذلك للخادم وانطلق في حكايته.

قاطعه خادم عجوز وهو يقدّم إلى ستيفان أركادييفتش وليفين كأسين لطيفتين من الشمبانيا الفوّارة:

Tele: @Arab_Books

- من عند بيير إيليتش فينوفسكي.

تناول ستيفان أركادييفتش الكأس. وبعد أن بادل النظر رجلاً أشقر، أصلع، طويل الشاربين، كان في الطرف الآخر من الطاولة، أومأ إليه برأسه وهو يبتسم.

سأله ليفين:

- مَنْ هذا؟

- لقد وجدته ذات مرة عندي، أتذكر؟ إنه فتى طيب.

فأومأ ليفين برأسه مثل ستيفان أركادييفتش وأخذ كأسه.

كانت حكاية ستيفان أركادييفتش هي أيضاً، مسلية جداً. وروى ليفين حكاية أعجبتهم كثيراً أيضاً. وبعد ذلك، استقر الحديث حول الجياد والسباق وانتصار جواد فرونسكي، «ساتان»، الذي نال الجائزة الأولى. لم يحسّ ليفين بمرور الوقت.

قال ستيفان أركادييفتش في نهاية العشاء بعد أن تهالك على مسند كرسيه ومد يده إلى فرونسكي الذي كان يمر بجنبه ومعه عقيد من الحرس مهيب الطلعة:

- آه، ها هما!

كان وجه فرونسكي يشعّ بهذه المودة التي كانت تُرى منتشرة في النادي. فاتكأ بمرفقه على كتف ستيفان أركادييفتش وقد بدا الفرح

Tele: @Arab_Books

عليه، وهمس إليه بشيء في أذنه، ومد يده إلى ليفين وهو يبتسم تلك الابتسامة الفرحة، وقال:

– يُسعدني أن ألقاك. لقد فتشتُ عنك في يوم الانتخابات، لكن قيل لي إنك قد سافرت.

قال ليفين:

– نعم، لقد سافرت في اليوم نفسه. كنا نتحدث قبل هنيهة عن جوادك. أهنئك. لقد ضرب رقماً قياسياً.

– عندك جياد أخرى، فيما أعتقد.

– لا، أبي هو الذي كان يملك جياداً كثيرة؛ لكن لي بها خبرة قليلة.

سأله ستيفان أركاديفتش:

– أين تعشيت؟

– على الطاولة الثانية، خلف الأعمدة.

قال العقيد:

– لقد احتفوا به. الجائزة الإمبراطورية الثانية! أتمنى أن يكون لي في اللعب مثل حظه في السباق. لكن لماذا أضيّع هذا الوقت الثمين؟ ها أنا عائد إلى الغرفة الجهنمية.

وابتعد.

Tele: @Arab_Books

أجاب فرونسكي عن سؤال توروفتسين:

– هذا «إياشفين».

وجلس على كرسي ظلت شاغرة قربهم. وقَبِلَ كأساً من الشمبانيا، وطلب زجاجة. وشرع ليفين، بتأثير جوّ النادي أو ربما بتأثير الخمر، في حديث حار مع فرونسكي عن أفضل الأصناف البقرية، واغتبط لأنه لم يشعر بأي حقد على هذا الرجل. بل إنه قال له، فيما قال له، إن زوجته قد أخبرته أنها لقيته في منزل الأميرة ماري بوريسوفنا.

قال ستيفان أركادييفتش:

– آه! الأميرة ماري بوريسوفنا، يا لها من امرأة ساحرة!

وروى عنها قصة ألهتْ الجميع. وضحك فرونسكي بخاصة من كل قلبه حتى أحس ليفين أنه قد صالحه.

قال ستيفان أركادييفتش وهو ينهض ويبتسم:

– انتهيتم؟ لنخرج.

Tele: @Arab_Books

-٨-

عندما نهض ليفين عن الطاولة، أحس بيسر شديد في حركاته، واجتاز عدداً من الغرف الكبيرة مع غاغين قاصدين غرفة «البليار». وفي إحدى الصالات التقى حماه.

قال له الأمير العجوز وهو يمسك بذراعه:

– ما رأيك بمعبد البطالة هذا؟ تعال، سأقودك لتطوف في أرجائه.

– كانت هذه نيتي بالذات. إنه يثير الاهتمام.

– صحيح، لكن اهتمامي أنا به مختلف عن اهتمامك.

وأضاف وهو يشير إلى رجل مقوس الظهر، متدلي الشفة، يحرّك بمشقّة رجليه اللتين لُفّتا بحذاء طري، وهو مقبل عليهما:

– أترى إلى هؤلاء الشيوخ الصغار. أنت تظن أنهم وُلدوا خَرِفين، وهذا يضحك، أما أنا فأقول في نفسي: إنني سأصير مثلهم ذات يوم. أتعرف الأمير تشينشنسكي؟

سأل الأمير هذا السؤال ورأى ليفين، من وجهه، أنه يستعد ليقص عليه شيئاً مضحكاً.

Tele: @Arab_Books

- لا.

- كيف لا تعرفه! لكنه مشهور! على كل حال، لا فرق. إنه يلعب بالبليار كل الوقت. وذات يوم، منذ ثلاث سنوات، و لم يكن قد خرف بعد وكان يتصنّع الشجاعة، وكان يصف الآخرين بالبلاهة، وصل إلى النادي ولقي حاجبنا، بازيل، أنت تعرفه؟ الرجل الضخم. إنه حسن النكتة. سأله الأمير تشيتشنسكي:

- بازيل، مَنْ تراه جاء إلى هنا؟ هل وصل أولئك البله؟ فأجابه: «أنت الثالث»[٤٦]. نعم، يا عزيزي، هكذا كان.

اجتاز ليفين والأمير العجوز جميع الغرف وهما يتحدثان ويحييان أصدقاءهما أثناء مرورهما: اجتازا الصالة الكبرى حيث نُصبت موائد اللعب وحيث بدأ اللاعبون المعهودون لعبَهم؛ والصالة الصغرى حيث كان اللاعبون يلعبون بالشطرنج؛ وصالة البليار حيث كانت تشرب الشمبانيا في ركن منها، قرب الديوان، جماعة فيها غاغين؛ بل إنهما ألقيا نظرة على «الغرفة الجهنمية» حيث ازدحم كبار اللاعبين حول مائدة اللعب التي جلس عندها إياشفين. ودخلا، وهما يحاولان جاهدين ألا يُحدثا ضجيجاً، قاعة المطالعة المعتمة حيث جلس شاب متجهّم الوجه، تحت مصباح له كمّة يتصفّح مجلة، وجنرال أصلع، مستغرق في قراءته. كما عرّجا على الغرفة التي سمّاها الأمير العجوز: «صالة ذوي الفكر» وكان فيها ثلاثة رجال يتناقشون بحرارة في آخر الأخبار السياسية.

٤٦- النكتة تقوم على لعب لفظي تتعذر ترجمته.

Tele: @Arab_Books

قال للأمير أحد رفاقه الذي كان يبحث عنه:

- تعال، يا أمير، فنحن ننتظرك.

جلس ليفين وأصغى، لكنه عندما تذكّر أحاديث الصباح داهمه فجأة ضجر قاتل. فنهض بسرعة وذهب للبحث عن أوبلونسكي وتوروفتسين اللذين يمكن أن يتسلّى معهما على الأقل.

كان توروفتسين جالساً في حلقة الشاربين على الأريكة العالية في صالة البليار؛ وكان ستيفان أركادييفتش وفرونسكي يتحدثان في ركن ناء من الغرفة، قرب الباب.

سمع ليفين أطرافاً من الحديث:

- ليس ذلك لأن الضجر ينتابها، بل إن هذا الغموض، وتلك الحيرة...

أراد ليفين أن يبتعد على الفور، لكن ستيفان أركادييفتش ناداه:

- ليفين!

لاحظ ليفين أن عيني ستيفان أركاديفتش مبلّلتان كما يصيبه دائماً عندما يشرب أو عندما يتأثّر. وفي هذه المرة، إنما تبلّلت عيناه لكلا السببين.

وأردف:

- ليفين لا تذهب.

Tele: @Arab_Books

وشد بقوة على ذراعه فوق المرفق، وهو ظاهر الحرص على ألا يدعه يفلت بأي ثمن. وقال لفرونسكي:

– هذا أوفى أصدقائي ولعله أفضلهم. وأنت أيضاً قريب من نفسي وعزيز علي. وأنا أرغب أن تكونا صديقين وينبغي أن تكونا كذلك، لأنكما كليكما فتيان كريما النفس.

قال فرونسكي مداعباً ومادّاً يده إلى ليفين:

– لم يبق علينا، بعد ذلك، إلا أن نتعانق.

فتناول ليفين اليد التي مُدّت إليه وشدّ عليها بقوة. وقال:

– أنا مسرور جداً، جداً.

فقال ستيفان أركاديفتش لأحد النُدل:

– هات زجاجة شمبانيا.

قال فرونسكي:

– وأنا أيضاً مسرور جداً.

لكن بالرغم من رغبة ستيفان أركاديفتش ومن رغبتهما المشتركة، فلم يكن لديهما ما يقولانه أحدهما للآخر، وكانا يحسّان بذلك كلاهما.

قال ستيفان أركاديفتش لفرونسكي:

Tele: @Arab_Books

– أتدري أنه لا يعرف آنا؟ لن أقبل إلا أن آخذه إليها. هيا بنا، ليفين!

قال فرونسكي:

– حقاً؟ ستغتبط بذلك.

وأضاف:

– وسأذهب على الفور، لكن إياشفين يشغل بالي؛ ويجب أن أظل هنا حتى يفرغ من لعبه.

– أهو يخسر؟

– إنه يفقد كل ما يملك، وأنا وحدي قادر على كبح جماحه.

قال ستيفان أركاديفتش:

– ليتنا نلعب لعبة «بليار»، إذن. رائع.

وقال للمسجّل:

– هات الكرات.

قال المسجّل الذي رتّب الكرات على شكل مثلث وأخذ يدحرج الكرة الحمراء ليتسلى:

– إنها جاهزة، منذ مدة طويلة.

بعد اللعبة ذهب فرونسكي وليفين وجلسا إلى طاولة «غاغين»،

Tele: @Arab_Books

وراهن ليفين، بناء على نصيحة ستيفان أركادييفتش، على «الآس». وكان فرونسكي يترك الطاولة من وقت إلى آخر، بعد أن يأتيه بعض الأصدقاء ليدعوه إلى الإشراف على إياشفين في الغرفة الجهنمية. أحس ليفين بانبساط لطيف بعد تعب الصبيحة الفكري. كان سعيداً بانتهاء العداء بينه وبين فرونسكي وتملّكه شعور بالراحة والحبور.

أمسك ستيفان أركادييفتش، بعد انتهاء اللعبة، ليفين بذراعه:

– إذن، ستأتي لزيارة آنا؟ إنها في بيتها. لقد وعدتها منذ زمن بعيد بأن آخذك إليها. أين تريد أن تذهب في هذا المساء؟

قال ليفين:

– ليس لدي أي مشروع خاص. وعدت سفياجسكي بالمرور على الجمعية الزراعية. فلنذهب إذا شئتَ.

قال ستيفان أركادييفتش:

– رائع!

وقال لأحد الخدم:

– أتريد أن تسأل عن عربتي إن كانت هنا؟

عاد ليفين إلى الطاولة ودفع الأربعين روبلاً التي خسرها في اللعب، وسدد حساباته لمدير الخدم العجوز المستند إلى أعلى الباب والذي كان يعرف –ولا يدري أحد ما السر في معرفته– مقدارها، واتجه إلى المخرج وهو يخطر بيديه خطراناً خاصاً به.

Tele: @Arab_Books

-٩-

صرخ الحاجب بصوت خافت وغاضب:

– عربة الأمير أوبلونسكي!

دنت العربة وصعد إليها الصديقان. في الآونـة الأولى عندما عبرت العربة باب العربات، احتفظ ليفين بإحساس الهدوء والرضا والحشمة وهو الإحساس الذي يخالج المرء في النادي؛ لكن ما إن دلفوا إلى الشارع، وما إن أحس بتهادي العربة على الأرض غير المستوية، وسمع صراخ الحوذي الذي واجههم، وما إن شاهد، على ضوء المصابيح الباهت، اللافتة الحمراء لإحدى الحانات، والدكاكين، حتى تلاشى ذلك الإحساس وأخذ يفكر في تصرفه ويتساءل إن كان يحسن صنعاً بذهابه إلى بيت آنا. وماذا ستقول كيتي؟ لكن ستيفان أركادييفتش لم يتح له أن يقف عند هذه الفكرة وبدد شكوكه، وكأنه تنبأ بها. فقال له:

– كم يسرني أن تعرفها. أتعلم أن دولي كانت تتمنى ذلك منذ زمن بعيد؟ «لفوف» أيضاً يزورها.

وأردف قائلاً:

Tele: @Arab_Books

- ومع أنها أختي، فأنا أستطيع القول بكل جرأة إنها امرأة مرموقة. على كل حال، سترى. إن وضعها شديد الصعوبة، ولا سيما في هذا الوقت.

- ولماذا في هذا الوقت؟

- نحن نفاوض زوجها بشأن الطلاق. وقد أعطى موافقته؛ لكن هناك صعوبات بصدد الولد، والقضية التي كان ينبغي أن نفرغ منها منذ زمن طويل، ما تزال تمتد منذ ثلاثة أشهر. وما أن تحصل على الطلاق حتى تتزوج فرونسكي. يا لحماقة ذلك الاحتفال التقليدي بالزواج، وهو احتفال لا يؤمن به أحد، كما أنه يقف عثرة في وجه سعادة الناس! على كل حال، عندما يتم الطلاق والزواج، سيصبح وضعها محدداً، مثل وضعي ووضعك.

قال ليفين:

- من أين تأتي الصعوبات؟

- آه! إنها قصة طويلة ومملة وغامضة جداً! لكن الواقع أنها تقيم منذ ثلاثة أشهر في موسكو، حيث يعرفها الجميع، بانتظار الطلاق؛ وهي لا تخرج من بيتها، ولا ترى أيّاً من صديقاتها ما عدا دولي، لأنها لا تريد أن يزورها الناس على سبيل الإحسان إليها: حتى هذه الحمقاء «بربارة» سافرت، مقدّرة أن الوضع غير مناسب. وفي مثل هذه الحالة يصعب على امرأة غيرها أن تجد في نفسها ملجأ لها. بينما سترى كيف نظّمت هي حياتها، وكم هي هادئة وفاضلة.

وصرخ ستيفان أركاديفتش وهو يطلّ من باب العربة:

Tele: @Arab_Books

– إلى اليسار، مقابل الكنيسة.

وأضاف وهو يفك أزرار معطفه الذي كان قد فتحه قليلاً بالرغم من الاثنتي عشرة درجة تحت الصفر:

– يا إلهي، ما أشد الحرارة!

قال ليفين:

– لكن لها بنتاً، ولا شك أنها تهتم بها؟

قال ستيفان أركادييفتش:

– كأنك لا ترى في المرأة سوى أنثى، سوى حاضنة لا ينبغي لها أن تهتم بغير أولادها. لا، إن آنا تربّي ابنتها تربية حسنة، لكننا لا نسمعها تتحدث عنها. إنها مشغولة أولاً بما تكتبه. أراك تبتسم ساخراً، أنت مخطئ. إنها تكتب كتاباً للأطفال، ولا تحدث أحداً عنه، لكنها قرأته لي، وقد أطلعت «فوركويف» على مخطوطته؛ أنت تعرف «فوركويف» الناشر... وهو كاتب أيضاً، فيما أعتقد. إنه خبير بهذه الأمور وقد قال: إنه كتاب مرموق. لكنك قد تظن أنها امرأة أديبة؟ ليس الأمر من ذلك في شيء. إنها، قبل كل شيء، امرأة ذات قلب كبير، وسترى. إنها تُعنى بأمر طفلة إنكليزية وبعائلتها.

– ماذا، من باب حب البشر؟

– كلا، إنك تفتش دائماً عن الجانب السيئ. ليس ذلك من باب حب البشر بل من باب الطيبة. كان لهما، أو على الأصح كان

Tele: @Arab_Books

لفرونسكي مدرّب إنكليزي، قدير جداً لكنه سكّير، أضاعه الشراب فترك عائلته بعد أن أُصيب بالهذيان العاشي. لقد ذهبت لرؤيتهم، وأنجدتهم، واهتمّت بهم، والأسرة كلها الآن على عاتقها، لكنها لا تقتصر على بذل المال لهم؛ إنها تعطي الصغار دروساً في الروسية لتهيّئهم للمعهد، وجاءت بالصغيرة إلى بيتها. على كل حال، سوف تراها.

ولجت العربة الفناء، وقرع ستيفان أركادييفتش الجرس بقوة على باب المدخل الذي كانت تنتظر أمامه زلاجة.

دخل أوبلونسكي البهو دون أن يسأل الخادم الذي فتح لهما الباب إن كان في البيت أحد. كان ليفين يتبعه، وقد أخذت تقلّ ثقته بصحة هذه الخطوة التي يخطوها.

لاحظ ليفين، وهو ينظر في المرآة، أنه محمّر؛ لكنه كان واثقاً من أنه صاح، وتبع ستيفان أركادييفتش الذي كان يصعد الدرج المغطّى بسجادة. وفي الطابق الأول سأل ستيفان أركادييفتش الخادم الذي حيّاهن سؤال من أكثر التردد على المنزل، إن كان عند آنا أركادييفنا أحد؛ فأجابه أن عندها «فوركويف».

– وأين هما؟

– في المكتب.

اجتاز ستيفان أركادييفتش وليفين قاعة صغيرة للطعام بجارتها الخشبية قاتمة اللون، ودخلا مكتباً فُرش بسجاد ناعم، وأضاءه مصباح

Tele: @Arab_Books

واحد ذو كمة داكنة. وكان في الجدار عاكس ينشر ضوءه على صورة امرأة بشخصها الكامل استرعت انتباه ليفين بالرغم منه. وكانت الصورة صورة آنا التي رسمها ميخايلوف. وبينما كان ستيفان أركاديفتش يمر خلف عريش من النباتات المعرّشة، وبينما صمت صوت الرجل الذي كان يُسمع في هذا الركن، كان ليفين يتأمل الصورة التي كانت تبدو، تحت النور الباهر، كأنما تريد أن تخرج من إطارها، ولم يستطع أن ينصرف عنها. بل لقد نسي أين كان، وظل معلّق العينين بالصورة الرائعة، دون أن يُصغي إلى ما كان يُقال له. لم تكن الصورة لوحة وإنما كانت امرأة فاتنة وحية بشعرها الأسود الجعد، وكتفيها وذراعيها العارية، وبهذه الابتسامة الناعمة، المتأملة على شفتيها اللتين زانهما زغب ناعم؛ وكانت تُلقي عليه نظرة رقيقة ومنتصرة أدخلت الاضطراب على نفسه.

وسمع فجأة بجانبه:

– أنا جد سعيدة.

كان الكلام مُوجّهاً إليه وكان هذا الصوت هو صوت المرأة التي أُعجب بصورتها. لقد أقبلتْ آنا عليه، وفي غبش الصالة الصغرى، شاهدها ليفين في ثوب أزرق، داكن، مشجّر. لم يجد الوقفة نفسها ولا التعبير نفسه لكنها كانت دائماً في هذه القمة من الجمال التي ثبّتها الرسام على اللوحة: كانت أقل تألقاً في الواقع لكنها كانت أكثر جاذبية.

Tele: @Arab_Books

-١٠-

لقد نهضت لاستقباله، دون أن تخفي الفرح الذي سببته زيارتها. ومن اليُسر الذي به مدّت يدها الصغيرة والقوية إليه، وقدّمته إلى فوركويف، وأشارت له إلى طفلة صغيرة شقراء جالسة هنا تخيط، ودعتها يتيمة قاصرة في وصايتها، تعرّف ليفين بطرائق امرأة من الوسط الراقي، هادئة وطبيعية دائماً. وكان حساساً جداً لذلك.

رددت:

– أنا سعيدة جداً، جداً.

وعلى شفتيها اكتست هذه الكلمات البسيطة معنى خاصاً. وأضافت:

– منذ زمن بعيد وأنا أعرفك وأحبك بسبب صداقتك مع ستيفا وبسبب زوجتك... لقد عرفْتُها فترة طويلة من الزمن لكنها تركت في نفسي الأثر الذي تتركه الزهرة الرائعة، الزهرة، نعم، هذه هي الكلمة المناسبة. وعما قريب ستصبح أماً!

كانت تتكلم دون ارتباك ولا عجلة، ناقلة، بين وقت وآخر، نظرها

Tele: @Arab_Books

من ليفين إلى أخيها. وأدرك ليفين أنه وقع منها موقعاً حسناً، وأحسّ على الفور بالارتياح كما لو كان يعرف آنا منذ الطفولة.

وأجابت ستيفان أركاديفتش الذي سألها إن كان يستطيع أن يدخّن:

– من أجل هذا بالذات جئنا إلى مكتب ألكسي ألكسندروفتش، إيفان بيتروفتش وأنا.

وبعد أن ألقت على ليفين نظرة سريعة بدلاً من أن تسأله إن كان يدخّن، جذبت إليها علبة سجائر من الحرشف وتناولت منها سيجارة ملفوفة بورقة ذُرة.

سألها أخوها:

– كيف حالكِ اليوم؟

– لابأس. الأعصاب، كالعادة.

قال ستيفان أركاديفتش الذي لاحظ أن ليفين تأخّر كثيراً عند الصورة:

– ألا تراها فائقة الجمال؟

– هذه أجمل صورة رأيتها في حياتي.

قال فوركويف:

– وفائقة الشبه أيضاً، أليس كذلك؟

Tele: @Arab_Books

نقل ليفين نظره من الصورة إلى الأصل. استنار وجه آنا بضياء خاص عندما أحست بهذه النظرة تحدّق فيها. احمرّ ليفين وأراد أن يسألها، لكي يخفي اضطرابه، إن كانت لم تر داريا ألكسندروفنا منذ زمن بعيد، لكن آنا وجّهت إليه الكلام، في هذه اللحظة بالذات:

– كنا نتحدث قبل لحظة، أنا وإيفان بيتروفتش، عن آخر لوحات «فاستشنكوف». هل رأيتها؟

أجاب ليفين:

– نعم.

– عفواً، لقد قاطعتُك، كنت تريد أن تقول...

سألها ليفين إن كانت لم تر دولي منذ زمن بعيد.

جاءت لزيارتي أمس. كانت جد غاضبة. يبدو أن أستاذ اللاتينية في المعهد قاسٍ على غريشا.

قال ليفين وقد عاد إلى الحديث الذي بدأته:

– نعم، رأيت هذه اللوحات. ولم تعجبني كثيراً.

لم يكن ليفين يتكلم، هذه المرة، بجهد، جهد الطالب المجدّ كما فعل في أحاديث الصباح. كانت كل كلمة مع آنا، لها معناها. كان الكلام معها ممتعاً، وأشد إمتاعاً منه الاستماع إليها. لم تكن آنا تعبّر عن ذاتها ببساطة وذكاء فحسب، بل إنها لم تكن تنزع في حديثها إلى

Tele: @Arab_Books

التباهي و لم تكن تنسب لأفكارها أدنى قيمة. لقد كانت تمّحي أمام محدّثها.

ثم استقرّ الحديث على اتجاهات الفن الحديثة وعلى رسوم التوراة التي عملها رسّام فرنسي. وقد انتقد فوركويف الفنان على واقعيته التي بالغ فيها إلى حدّ الخشونة. وقال ليفين إن الفرنسيين قد أسرفوا في مواضعاتهم الفنية أكثر من غيرهم، ولذلك كانوا يرون أن في الرجوع إلى الواقعية مزية خاصة. كانوا يرون أمارات الشعر في كونهم كفّوا عن الكذب.

لم يتركْ أي من أحاديث ليفين الذكية ما تركه هذا الحديث من السرور. لقد استنار وجه آنا فجأة، في اللحظة التي أحسّت فيها بوزن هذا التفكير. فأخذت تضحك، وقالت:

إني أضحك كما يضحك الناس عندما يرون صورة مشابهة للأصل كل المشابهة. وما قلتَه الآن يميز الفن الفرنسي المعاصر بدقة كبيرة سواء منه الرسم أم الأدب: زولا و«دوديه». لكن ربما بنى الفنان أولاً تصوّراته بواسطة أشكال مخترعة أو اصطلاحية؛ وهو لا يبدأ بخلق أشكال أقرب إلى الطبيعة والدقة إلا بعد أن تُستنفد جميع «التشكيلات» وبعد أن تغدو الأشكال المخترعة ثقيلة على النفس.

قال فوركويف:

– هذا صحيح كل الصحة.

وقالت وهي تلتفت إلى أخيها:

Tele: @Arab_Books

– وهكذا فقد ذهبتم إلى النادي؟

– نعم، نعم، إنها امرأة مدهشة!». كذلك فكّر ليفين وهو مستغرق في تأمل هذا الوجه المتحرك الذي تحوّل قبل هنيهة تحولاً آنياً. لم يكن ليفين يسمع ما تقول لأنها كانت منحنية على أخيها، لكنه ذهل من تغيّر سحنتها. لقد عبّر فجأة وجهها الذي كان رائعاً قبل قليل بهدوئه، عن فضول غريب، وعن الغضب والكبرياء. لكن ذلك لم يدم سوى دقيقة. وأغمضت عينيها نصف إغماضة كأنها تحاول أن تتذكر شيئاً ما. وقالت:

– على كل حال، هذا لا يعني أحداً.

وقالت للإنكليزية:

– قدّمي الشاي، إذا شئتِ، في قاعة الاستقبال.

ونهضت الصغيرة وخرجت.

سألها ستيفان أركاديفتش.

– حسناً! وكيف كان فحصها؟

– رائعاً. إنها طفلة موهوبة جداً وحسنة الخلق.

– ستنتهين بأن تحبّيها أكثر من ابنتك.

– هذا حقاً حديث رجل. ليس في الحب أكثر أو أقل. إني أحب ابني على نحو وأحب هذه على نحو آخر.

Tele: @Arab_Books

قال فوركوييف:

- كنت أقول بالضبط لآنا أركاديفنا أنها لو استخدمت واحداً بالمئة من الطاقة التي تبذلها لهذه الإنكليزية الصغيرة في تربية الأولاد الروس لقامت بعمل عظيم، وبعمل مفيد.

- ماذا تريد مني، إني لا أستطيع. لقد شجّعني كثيراً الكونت ألكسي ألكسندروفتش كيريلوفتش (عندما نطقتْ بهذا الاسم ألقت على ليفين نظرة وجلة ومستفهمة، فأجابها على نحو لا إرادي بنظرة تنم عن الاحترام والتأييد)، شجعني كثيراً على الاهتمام بمدرستنا في الريف. ولقد ذهبتُ إليها عدة مرات. إنهم في غاية اللطف، لكنني لم أستطع الاهتمام بهذا المشروع. إنك تتحدّث عن الطاقة. الطاقة تقوم على الحب. والحب لا يُؤمر به أمراً. أنا مشغوفة بهذه الطفلة، وأنا نفسي لا أدري لماذا.

ألقت مرة أخرى نظرة خاطفة على ليفين. وكانت ابتسامتها ونظرتها تقولان: إن هذا الكلام موجّه إليه وحده، وإنها تقدّر رأيه تقديراً كبيراً وتعلم مسبقاً أنهما سيتفاهمان.

أجاب ليفين:

- إنني أفهم ذلك تماماً. فلا يستطيع الإنسان أن يضع قلبه في مدرسة أو مؤسسة من هذا النوع، وأظن أنه لهذا السبب لا تعطي المؤسسات التي تهدف إلى الإحسان إلا نتائج ضحلة.

سكتت ثم ابتسمت. وأيّدته قائلة:

Tele: @Arab_Books

- نعم، نعم. إني لم أستطع قط. لست أملك قلباً كبيراً إلى الحد الذي يتّسع معه لأن أحب مشغلاً مملوءاً بالصغيرات البشعات. لم أفلحْ في ذلك قط. وكثير من النساء يبنين مركزهن الاجتماعي على ذلك.

وقالت بلهجة كئيبة ومطمئنة:

- وحتى في هذه اللحظة (كانت تبدو في الظاهر كأنها تكلّم أخاها، لكن من الواضح أنها لم تكن تخاطب إلا ليفين) وحتى في هذه اللحظة التي ربما كانت بحاجة فيها إلى شغل يشغلني، فإني لا أستطيع.

وقطّبت بين حاجبيها (أدرك ليفين أنها تلوم ذاتها لأنها تحدّثت عن نفسها)، فغيّرت الحديث، وقالت لليفين:

- يُقال عنك إنك مواطن رديء. ولقد دافعت عنك قدر استطاعتي.

- وكيف ذلك؟

- كان الأمر متوقفاً على الانتقادات... لكن أتريد كأساً من الشاي؟

ونهضت وتناولت دفتراً مجلداً بالجلد الملوّن.

قال لها فوركويف مشيراً إلى الدفتر:

- أعطيني هذا الدفتر، يا آنا أركادييفنا. إنه يستحق أن يُطبع.

- أوه! لا، إنه لم يكتمل بعد.

Tele: @Arab_Books

قال ستيفان أركاديفتش لأخته وهو يشير إلى ليفين:

– لقد حدثته عنه.

– لا فائدة من ذلك. إن كتاباتي تشبه هذه السلال الصغيرة وتلك الأشياء المنحوتة التي يصنعها السجناء والتي كانت تبيعني إياها قديماً «ليزميركالوف»، وكانت تهتم بالسجون (قالت ذلك لليفين). كان هؤلاء البؤساء يصنعون أشياء عجيبة مفرطة الدقة.

واكتشف ليفين سمة جديدة في هذه المرأة التي فتنته بسحرها الأخّـاذ. فقد كانت تتسم بالاستقامة فضلاً عن الذكاء والرشاقة والجمال. ولم تكن تحاول أن تخفي عنه صعوبات وضعها. وبعد أن قالت ذلك تنهّدت واتخذ وجهها تعبيراً صارماً، واكتسى صلابة الحجر. وكانت أجمل وهي هكذا. لكن هذا التعبير كان مختلفاً؛ كانت خارج دائرة التعبير عن ذلك الهناء المولّد للسعادة والذي التقطه الرسام في صورتها. ونظر ليفين أيضاً على تلك الصورة بينما كانت تمسك بذراع أخيها وتقوده إلى الباب، وشعر نحوها بحنان وعطف أدهشاه هو نفسه.

رجتْ ليفين وفوركويف أن يدخلا الصالون. وتخلّفتْ هي لتحدّث أخاها. وفكّر ليفين: «عمّ تحدّثه؟ عن طلاقها؟ عن فرونسكي؟ عم يفعله في النادي؟ عني؟». لقد هزّه هذا السؤال إلى الحد الذي لم يُعرْ فيه ما كان يقوله فيركويف أذناً صاغية، وكان يحدثه عن مزايا رواية آنا التي كتبتها للأطفال.

Tele: @Arab_Books

أثناء تناول الشاي، استأنفوا هذا الحديث الممتع والمليء بالمادة الدسمة، لم يكونوا فقط بغنى عن البحث عن موضوع للحديث، بل إنهم كانوا يحسّون، على العكس، بفيض من الأفكار المتواردة التي كانوا يصدونها وهم يستمعون بعضهم إلى بعض. كان كل ما يقوله فوركويف وستيفان أركادييفتش، لا آنا وحدها، يتخذ دلالة خاصة بفضل انتباه ربة البيت وملاحظاتها: كان هذا هو انطباع ليفين على الأقل.

كان ليفين، وهو يتابع هذا الحديث، يتأمل جمال آنا، وفكرها، وثقافتها، وأيضاً بساطتها وأنسها. كان يصغي ويتكلّم، وهو لا يفكر إلا فيها، في حياتها الداخلية، وكان يحاول جاهداً أن يستشفّ عواطفها.

لقد غفر لها الآن، عبر مسيرة غريبة لأفكاره، وكان حكمه عليها من قبل جد قاس، وفي الوقت نفسه، رثى لها وخشي ألا يفهمها فرونسكي فهماً كاملاً. وعندما نهض ستيفان أركادييفتش في الحادية عشرة ليستأذن (كان فوركويف قد ذهب)، خُيل إلى ليفين أنه قد وصل لتوّه. فنهض بدوره على مضض.

قالت له وهي تستبقي يده في يدها وتطيل فيه النظر:

– إلى اللقاء. أنا مسرورة لأن الجفاء بينكما قد زال.

أرخت يده وطرفت بعينيها، وأضافت:

– قلْ لزوجتك إنني أحبها كما أحببتها من قبل وإنها، إذا لم تستطع

Tele: @Arab_Books

أن تغفر لي وضعي، فأنا أتمنى أن تظل دائماً على ما هي عليه لكي يغفر الإنسان لا بدَّ له من أن يمر بما مررت به: وليحفظها الله من ذلك.

قال ليفين وهو يحمر:

– سأبلّغها ما قلتِ، كوني واثقة من ذلك.

Tele: @Arab_Books

-١١-

«يا لها من امرأة غريبة وفاتنة، وما أجدرها بالرثاء!». كذلك كان ليفين يفكّر وهو ينغمس مرة أخرى في الهواء الجليدي مع ستيفان أركادييفتش.

قال ستيفان أركادييفتش وقد رأى ليفين مخلوب اللب:

– وماذا قلتُ لك؟

أجاب ليفين وهو ساهم الفكر:

– نعم، إنها امرأة نادرة! ليس فكرها وحده هو الذي يلفت النظر، بل وقلبها أيضاً. إنها تُثير منتهى شفقتي!

قال ستيفان أركادييفتش وهو يفتح باب عربته:

– الآن، سيُسوّى كل شيء عما قريب، ينبغي أن نؤمّل ذلك. أرأيت، ينبغي أن تحترس من الحكم في المستقبل. إلى اللقاء. فليس طريقنا واحداً.

على طريق العودة، لم يكفّ ليفين عن التفكير في آنا، وفي الأحاديث

Tele: @Arab_Books

البسيطة التي تبادلاها. كان يستعيد في ذاكرته كل دقائق تعابيرها. ويحاول أن يضع نفسه موضعها، ويشعر نحوها بشفقة عميقة.

في البيت، أنبأه «كوزما» أن كاترين ألكسندروفنا في صحة جيدة، وأن أختيها انصرفتا قبل قليل، وسلّمه رسالتين. قرأهما ليفين رأساً في البهو لكي لا ينشغل بهما فيما بعد. كانت الرسالة الأولى من مدير أعماله «سوكولوف». وقد كتب أنه لم يُفلح في بيع الحنطة. وأن السعر الذي دُفع له هو خمسة روبلات ونصف، وأنه لا يعلم من أين يأتي بالمال. وكانت الرسالة الثانية من أخته، وهي تلومه فيها على أنه لم يسوِّ لها قضيتها بعد.

«حسناً! سنبيع الحنطة بخمسة روبلات ونصف بما أن المشترين لا يدفعون أكثر من ذلك». هكذا قرر ليفين، حاسماً بخفة مسألة بدت له من قبل جد مُربكة. وقال في نفسه وهو يفكر في الرسالة الثانية. «غريب، فهنا لا يجد المرء دقيقة واحدة». وأحس بالذنب تجاه أخته لأنه لم يحقق لها ما طلبته. «لم أذهب اليوم بعد إلى المحكمة، لكنني لا أجد متّسعاً من الوقت، في الحقيقة». ومضى إلى غرفة زوجته وقد عزم أن يقوم حتماً بمسعاه غداً. وفي طريقه، استعرض بسرعة ذكرى يومه الذي انصرم. كانت أحداث اليوم عبارة عن أحاديث، أحاديث استمع إليها وشارك فيها. وكانت كلها تدور على موضوعات ما كان ليقف عندها، لو كان وحده في الريف. لكن هذه الأحاديث كانت تكتسي أهمية هنا. وعلى الإجمال، لقد شارك فيها مشاركة حسنة: لم يجد ما يلوم نفسه عليه سوى فكرة السمكة التي ذكرها وسوى شفقته الرقيقة على آنا، وهي شفقة ربما كانت جديرة باللوم.

Tele: @Arab_Books

وجد ليفين زوجته حزينة، بلا عمل. كان عشاء الأخوات الثلاث بهيجاً، لكنهن انتظرنه بعد ذلك، وأصابهن الضجر، وانصرفت الأختان وبقيت هي وحدها.

وسألته وهي تنظر إلى عينيه اللتين التمعتا ببريق مشبوه:

– وأنتَ، ماذا فعلتَ؟

ولكي لا تمنعه من أن يروي كل ما عنده، أخفت شكوكها وأصغت إليه وهو يقص قصة أمسيته وعلى وجهها ابتسامة الاستحسان.

قال:

– كنتُ مسروراً جداً برؤية فرونسكي. شعرتُ بالارتياح الشديد معه. أنت تفهمين أنني سأبذل وسعي، الآن، لكي لا ألقاه، لكن لن يكون بيننا ذلك التحرّج.

وتذكر أنه حين بذل وسعه لكي لا يلقاه قصد مباشرة إلى منزل آنا، فعلته الحمرة. وأضاف:

– نحن نقول: إن أبناء الشعب يسرفون في الشراب؛ إني أتساءل مَنْ يشرب أكثر، أبناء الشعب أو أبناء عالمنا الراقي؛ أبناء الشعب، على الأقل، لا يشربون إلا في أيام الأعياد... لكن هذه التأملات لم تكن تعني كيتي. لقد رأته يحمر وأحبت أن تعلم لماذا.

– وأين ذهبتَ بعد ذلك؟

Tele: @Arab_Books

– لقد أصرّ علي «ستيفان» كثيراً لكي أرافقه إلى منزل آنا أركاديفنا.

بعد أن قال ليفين ذلك ازداد احمراراً. لقد تبددت شكوكه، وعلم الآن أنه ما كان يجب أن يقوم بهذه الزيارة.

جحظت عينا كيتي، عندما سمعت باسم آنا، وأرسلتا بريقاً، لكنها بذلت جهداً كبيراً لتكبت انفعالها، ونجحت في خداع زوجها. قالت ببساطة:

– آه!

– لا ينبغي أن يغضبك ذلك. ستيفا هو الذي طلب ذلك مني، كما أن دولي ترغب فيه أيضاً.

قالت:

– أوه! لا.

لكنه رأى في عينيها إكراهها لنفسها الذي لا يبشّر بخير.

استأنف كلامه على آنا، واهتماماتها، ناقلاً إلى كيتي ما كلّفته آنا قوله لها:

– إنها امرأة فتّانة وطيبة وجديرة حقاً بالرثاء.

فقالت كيتي عندما فرغ من كلامه:

– نعم، بالتأكيد، إنها جديرة حقاً بالرثاء. مَنْ كتب إليك؟

Tele: @Arab_Books

فأخبرها ومضى ليخلع ثيابه، ثقة منه بهدوئها. عندما عاد وجد كيتي في المقعد نفسه. وعندما اقترب منها، رفعت عينيها إليه وانفجرت باكية. فسألها:

- ماذا جرى؟ ماذا جرى؟

مع علمه المسبق بالذي جرى.

- لقد وقعتَ في حب هذه المرأة الشريرة، لقد سحرتكَ. رأيتُ ذلك في عينيك. بلى، بلى! إلى أين سيؤدي ذلك؟ شربتَ في النادي، شربتَ وقامرتَ، وبعد ذلك ذهبتَ... وإلى أين! لا، فلنْنصرف... سأسافر غداً.

ظل ليفين زمناً طويلاً دون أن يستطيع تهدئة امرأته. ولم ينجح في ذلك إلا عندما اعترف لها بأن الشفقة الممتزجة بفعل الخمر قد أفقدته رشده وأنه خضع لتأثير آنا الخبيث، لكنه سيتحاشى ذلك التأثير منذ الآن. وكانت أكثر لحظاته صدقاً هي اللحظة التي اعترف فيها بأنه إذا عاش حياته على هذا النحو في موسكو، بين الثرثرة والشرب والأكل فسوف يتحول إلى رجل غبي تام الغباء. تحدّثا حتى الساعة الثالثة صباحاً. وفي الساعة الثالثة فقط تصالحا إلى الحد الكافي الذي سمح لهما بالنوم.

Tele: @Arab_Books

-١٢-

بعد أن شيّعت آنا ضيوفها، أخذت تذرع الغرفة طولاً وعرضاً بدلاً من أن تجلس. لقد بذلت وسعها أثناء هذه الأمسية لتوقظ حب ليفين، وإن كان ذلك على نحو غير واعٍ، (في الآونة الأخيرة، كانت تسلك هذا السلوك مع جميع الشباب). ومع أنها كانت تعلم أنها قد بلغت أربها بقدر إمكانها مع رجل متزوج وشريف، وفي أمسية واحدة، ومع أن ليفين أعجبها كثيراً (من وجهة نظر الرجل، كان ليفين وفرونسكي مختلفين جذرياً، لكنها استشفت، من حيث هي امرأة، ما هو مشترك بينهما وما يفسّر شغف كيتي بهذا وبذاك)، إلا أنها كفّت عن التفكير فيه منذ أن انصرف.

فكرة واحدة لا تتغير ظلّت تعذّبها بلا هوادة وبأشكال مختلفة: «إذا كنتُ أحدثُ مثل هذا التأثير في الآخرين، في هذا الرجل المتزوج والعاشق، فلِمَ هو بارد تجاهي؟.... على كل حال، إنه ليس بارداً. إنه يحبني. أنا أعلم ذلك. لكن شيئاً جديداً يفصل بيننا الآن. لماذا ظلّ غائباً الأمسية كلها؟ لقد أبلغني بطريق «ستيفان» أنه لا يستطيع أن يترك إياشفين وأنه سيراقب لعبه. هل إياشفين طفل؟ ولنفرض أن ذلك صحيح، فهو لا يكذب أبداً، فإن في الأمر شيئاً آخر. إنه مسرور

Tele: @Arab_Books

بهذه المناسبة لكي يظهر لي أن عليه واجبات أخرى. إني أعلم ذلك وأوافق عليه، فما حاجته إلى أن يبرهن لي على ذلك؟ لستُ بحاجة إلى البراهين وإنما أنا بحاجة إلى الحب وحده. ينبغي أن يدرك كم تشق علي هذه الحياة في موسكو. أأنا عائشة؟ لستُ عائشة، وأنا أنتظر حلاً يمتد ويمتدّ. ولا جواب! ستيفا يقول إنه لا يستطيع أن يذهب إلى ألكسي ألكسندروفتش. وأنا لا أستطيع أن أكتب إليه مرة أخرى. لا أستطيع أن أفعل شيئاً، أو أن أبدأ شيئاً، أو أن أغيّر شيئاً: إني أكظم غيظي. أنتظر مخترعة التسليات: عائلة الإنكليزي، كتابي، المطالعة، كل ذلك لكي أخدع نفسي، إنه نوع آخر من المورفين. ينبغي أن يرثي لحالي. قالت ذلك وأحست أنها توشك أن تبكي على نفسها.

سمعتْ قرع فرونسكي المفاجئ للجرس فسارعت إلى مسح دموعها؛ ولم تمسح دموعها فحسب بل إنها جلست أيضاً تحت المصباح وفتحت كتاباً، وهي تتظاهر بالهدوء. ينبغي أن تُظهر له استياءها من أنه لم يرجع كما وعد، أن تظهر استياءها فقط، وينبغي أن تُخفي حزنها ولا سيما إشفاقها على نفسها. يمكنها أن تشفق على نفسها أما هو فلا. إنها لا تحب الصراع، وهي تلومه على أنه يريد الصراع، لكنها كانت تتخذ، على نحو لا إرادي، موقعاً قتالياً.

قال لها بلهجة مرحة، مليئة بالحيوية وهو يدنو منها:

– ألم تضجري؟ أي هوى رهيب هو القمار!

– لا، فقد تعلّمت، منذ زمن بعيد، ألا أضجر. جاء ستيفان ليراني مع ليفين.

Tele: @Arab_Books

قال لها وهو يجلس بجنبها:

- نعم، كانا ينويان أن يمرّا عليك. هل أعجبكِ ليفين؟

- كثيراً. ذهبا منذ زمن غير بعيد، وماذا فعل إياشفين؟

- ربح سبعة عشر ألف روبل. نجحت في ثَنْيه عن اللعب وكان على وشك الانصراف. بيد أنه رجع وأخذ يخسر.

سألته وهي ترفع عينيها إليه فجأة. وكان تعبير وجهها بارداً وعدائياً:

- إذن لماذا بقيتَ؟ قلتَ لستيفان إنك باقٍ لتأتي بإياشفين، ثم تركتَه هناك.

نطقَ وجه فرونسكي بنفس التصميم على الصراع، فقال وهو يقطّب بين حاجبيه:

- أولاً لم أكلّفه أية مهمة إليكِ؛ ثانياً إني لا أكذب أبداً. وعلى الخصوص... إني بقيت لأني اشتهيت أن أبقى.

وأضاف بعد دقيقة صمت، وهو ينحني عليها ويفتح يده آملاً أن تضع يدها عليها:

- آنا، لماذا، لماذا؟

اغتبطتْ بهذه الدعوة إلى الحنان، لكن قوة غريبة وشريرة منعتها من الاستسلام لحركتها الأولى، وكأن شروط الصراع تحرّم عليها الخضوع. فقالت له وقد أخذت تحتدّ شيئاً فشيئاً:

Tele: @Arab_Books

– من الطبيعي أنك بقيتَ لأنك اشتهيتَ أن تبقى. أنت تفعل كل ما تريد. لكن لماذا تقول لي ذلك. هل أنكر عليك أحد حقوقك. تريد أن يكون الحق معك؛ فليكن الحق معك.

انغلقت يد فرونسكي ثانية. فأعرض عنها واكتسى وجهه تعبيراً أشد عناداً.

قالت وهي تنظر إليه بإصرار، بعد أن وجدت فجأة اسم ذلك التعبير الذي غاظها العناد:

– الأمر، بالنسبة إليك، قضية عناد لا غير. المسألة، بالنسبة إليك، هي أن تعلم إن كنتَ ستتغلّب علي، أما أنا...

وانتابتها مرة أخرى بوادر الشفقة على ذاتها وكادت تنفجر باكية. وأضافت:

– ليتك تعلم ما الذي يدور في نفسي! عندما أحس، كما أحسّ في هذه اللحظة، أنك تعاملني كعدوة، نعم، كعدوة، فيا ليتك تعلم ما الذي يعنيه ذلك عندي! في هذه الآونة، أحس أنني قريبة من الكارثة، فأخاف، أخاف من نفسي!

وانثنت عنه لتخفي نحيبها.

ارتعبَ من هذا التعبير عن اليأس، فانحنى من جديد نحوها وتناول يدها وقبّلها، وقال:

– لكن عمّ تتحدثين؟ لماذا؟ وهل فتشتُ عن اللهو خارج البيت؟ ألست أهرب من صحبة النساء؟

Tele: @Arab_Books

قالت:

– لن ينقصنا إلا هذا!

قال وقد تأثر بأمارات يأسها:

– إذن، أخبريني بما ينبغي فعله لتكوني هادئة البال. أنا مستعد للقيام بأي عمل تكون فيه سعادتك. ولن أحجم عمّا يجنّبك الحزن، كحزنك، في هذه اللحظة، آنا!

فعادت إلى القول:

– لا قيمة لهذا، لا قيمة لهذا! لا أدري أنا نفسي ما الذي يصيبني: الوحدة، الأعصاب.... دعْنا من ذلك.

وسألته وهي تحاول جاهدة أن تخفي انتصارها، لأنها هي التي انتصرت:

– والسباق؟ لم تروِ لي ما جرى.

طلب أن يُقدَّم إليه العشاء، وأعطاها بعض التفصيلات عن السباق: لكنها رأتْ، من صوته، ومن نظراته التي أخذت تفتر شيئاً فشيئاً، أنه لن يغفر لها انتصارها، وأن ذلك العناد الذي ناضلت ضده استقرّ من جديد في نفسه. لقد غدا أكثر برودة معها من ذي قبل، وكأنه ندم على خضوعه. أما هي فعندما تذكّرت كلماتها التي منحتها الغلبة: «أنا على حافة كارثة فظيعة، وأنا خائفة من نفسي»، أدركتْ أن ذلك سلاح خطر وأنها لا ينبغي لها أن تستخدم مرة أخرى هذا السلاح.

Tele: @Arab_Books

وأحسّت أنه، إلى جانب الحب الذي يجمعهما، قد قام بينهما روح الصراع، وهو روح خبيث لا تستطيع أن تطرده من قلب فرونسكي أو من قلبها.

Tele: @Arab_Books

-١٣-

ليس من وَضْع لا يستطيع الرجل أن يتعوّده، ولا سيما إذا رأى جميع الذين يحيطون به يفعلون الشيء نفسه. ما كان ليفين ليصدق، قبل ثلاثة أشهر، أن بإمكانه أن ينام نوما هادئاً بعد مثل هذا اليوم؛ فبعد أن عاش حياة منافية للعقل ولا هدف لها، وأسوأ من ذلك أنها فوق قدراته المادية، وبعد أن سكر في النادي (لم يكن بوسعه أن يُسمّي ما حدث بغير هذا الاسم) فأظهر صداقة لا مكان لها لرجل كان عاشقاً لكيتي قديماً، وبعد زيارة أقل ملاءمة أيضاً لامرأة لا يُمكن أن تُعتبر إلا امرأة ساقطة، امرأة امتلأ إعجاباً بها، والغم يملأ صدر كيتي، استطاع أن يغفو بهدوء في هذه الشروط. بيد أنه نام نوماً عميقاً، بتأثير التعب، وليلة السهاد والخمر.

في نحو الساعة الخامسة، أيقظه صوت باب يُفتح. فوثّب ونظر حوله. لم تكن كيتي بجنبه. لكنه رأى خلف الحاجز ضوءاً يتحرّك وسمعَ خطواتها.

فهمهم وهو ونصف غافٍ:

– ماذا؟ ماذا جرى؟ كيتي! ما لكِ؟

Tele: @Arab_Books

قالت وهي تعود إلى الظهور، وفي يدها شمعدان صغير:

– لا شيء.

وأردفت وعلى شفتيها ابتسامة بالغة الرقة والدلالة:

– كنتُ أحسّ بشيء من التوعك.

فقال وهو مرتعب:

– هل بدأ...؟ ينبغي أن نستدعي الطبيب.

وأراد أن يرتدي ثيابه على الفور.

قالت وهي تبتسم وتَثْنيه عن قصده:

– لا، لا. الأرجح أن ذلك ليس شيئاً ذا بال. شعرتُ بشيء من الضيق فقط. وقد زال الآن.

دنتْ من السرير، وأطفأت الشمعة، وتمددت ولزمت الهدوء. ومع أن أنفاسها الحصيرة، وعلى الخصوص تلك اللهجة المتوتّرة والمتوثّبة على نحو غريب، تلك اللهجة التي قالت بها: «ليس ذلك شيئاً ذا بال» بعد عودتها من حجرة الزينة قد أثارت شكوكه، إلا أن النعاس قد راوده بقوة حتى نام من فوره. وفيما بعد فقط تذكّر هذه الأنفاس الحصيرة وخمّن كل ما جرى في هذه النَّفْس الساحرة بينما كانت مستلقية بجنبه دون حراك، بانتظار أشد اللحظات جلالاً في حياة امرأة. وفي الساعة السابعة، انتزعه من نومه مسُّ يدها لكتفه وهمسٌ

Tele: @Arab_Books

خفيف، بدت كأنها موزعة بين أسفها على إيقاظه ورغبتها في الكلام إليه.

– كوستيا، لا تخفْ، ليس ذلك شيئاً ذا بال. لكن يلوحُ لي... ينبغي أن تذهب وتأتي بإليزابيت بيتروفنا.

أُضيئت الشمعة من جديد. وأمسكت كيتي التي كانت جالسة في سريرها، بشغلها الذي اشتغلت به في هذه الأيام الأخيرة.

قالت وهي تلمح وجهَ زوجها القلق:

– أرجوكَ، لا تخفْ، ليس ذلك شيئاً ذا بال. لستُ خائفة على الإطلاق.

وشدّتْ يدَ ليفين على صدرها، ثم على شفتيها.

وَثبَ بعجلة من سريره إلى الأرض، وقد خرج عن طوره، وارتدى مبذله دون أن يرفع عينيه عنها، ثم تجمّد هكذا. كان ينبغي له أن يترك الغرفة، لكنه لم يستطع أن يُزيح بصره عنها. هذا الوجه الذي أحبه كثيراً، والذي يعرف أقل تعبير فيه، لم يره قط على هذا النحو. وكم كان تصرّفه البارحة دنيئاً وكريهاً، حين تذكّر الحزن الذي سبّبه لها، في حالتها هذه! إن وجه كيتي المتضرّج بالحمرة، والذي تُحيط به خصلات حريرية تفلّتتْ من قبّعتها الليلية، كان يلتمع بالعزم الفَرِح.

مهما تكن كيتي طبيعية وبسيطة فإن ليفين ذهل مما انكشف له، الآن وقد انزاحت جميع الحجب، الآن وقد كان جوهر روحها

Tele: @Arab_Books

يتسرّب إلى عينيها. فهذه البساطة وذلك العري كشفا النقاب عمّن يُحبّ. كانت تنظر إليه وهي تبتسم؛ لكن حاجبيها تقلّصا فجأة ورفعت رأسها؛ دنتْ من زوجها وتناولت يده وضغطت بها على جسدها وهي تغمرها بأنفاسها الملتهبة. كانت تتألم وكأنما تشكو له آلامها. وفي اللحظة الأولى، انتابه، كعادته، شعور بالإثم. لكن نظرة كيتي أرتْه حناناً يقول: إنها لا تمتنع عن لومه فحسب بل إنها تحبّه من أجل هذه الآلام. وقال في نفسه على نحو لا إرادي، وهو يسعى إلى الكشف عن مسبّب هذا العذاب ليعاقبه: «على مَنْ يقع الخطأ إذن، إن لم يكن عليّ؟»؛ لكنه لم يجد ذلك المسبب. كانت تتوجّع، وتشكو، لكنها كانت تنتصر: كانت تحبّ هذا العذاب الذي يغمرها بالفرح. وأحسّ أن روحها تبلغ الأعالي لكنه لم يكن يستطع أن يلحق بها. كان ذلك يفوق إدراكه.

- سأُخبر أمي، أما أنت فاذهب وَأْتِ بإليزابيت بيتروفنا... كوستيا!... لا، ذهب الألم.

وقامت لتقرع الجرس.

- قمْ الآن، ستأتي «باشا». أشعر بالتحسّن.

ودهش ليفين عندما رآها تستأنف شغلها.

بينما كان يخرج من باب، دخلت الخادمة من باب آخر. فوقف وسمع كيتي تلقي عليها تعليمات مفصّلة، وهي تساعدها على نقل السرير.

Tele: @Arab_Books

ارتدى ثيابه، وبينما كانت العربة تُعَدّ (لم يكن هناك من عربة أجرة في هذه الساعة)، رجع على عجل إلى غرفة النوم، لا على رؤوس أصابعه، بل خطفاً: على الأقل كذلك كان إحساسه. كانت فيها خادمتان منهمكتين في تغيير مواضع بعض الأشياء. وكانت كيتي تتمشّى وهي تسرد؛ كانت تصفّ السردات بعصبية، وهي تلقي أوامرها.

– سأذهب إلى الطبيب. بعثت من يخبر إليزابيت بيتروفنا لكني سأمرّ عليها حباً بالاطمئنان. هل تحتاجين إلى شيء آخر. هل نستدعي دولي؟

نظرت إليه: وكان ظاهراً أنها لم تكن تصغي إليه.

قالت بحيوية وهي تقطّب بين حاجبيها وتشير إليه بالابتعاد:

– نعم، نعم، اذهب.

بينما كان يجتاز قاعة الاستقبال، تناهى إلى سمعه أنين شاك، ما لبث أن اختنق. فتوقّف وظل برهة طويلة دون أن يفهم.

وقال في نفسه وهو يمسك رأسه بكلتا يديه: «نعم، إنها هي». ونزل الدرج راكضاً.

– يا إلهي، ارحمنا! اغفر لنا، ساعدنا! أخذ يردد هذه الكلمات التي صعدتْ فجأة إلى شفتيه. لم يكن يلفظها فقط بشفتيه، مع أنه لم يكن مؤمناً. في هذه اللحظة، كان يعلم أن لا شكوكه ولا استحالة التوفيق بين العقيدة والعقل، وهي استحالة كان يعرفها جيداً، تمنعه

Tele: @Arab_Books

إطلاقاً من التوجه إلى الله. لقد تبدّد دخاناً ذلك كله الآن. وإلى مَنْ يتوجه إلا إلى ذاك الذي يحسّ أنه يملك بين يديه روحه وحبه وشخصه بأكمله؟

لم يكن الجواد قد رُبط بعد؛ لكنه كان يشعر أن انتباهه وجميع قواه الجسدية مشدودة نحو ما يجب فعلُه، ولكي لا يضيع دقيقة واحدة ذهب مشياً دون أن ينتظر أكثر مما انتظر وأمر كوزما أن يلحق به.

في ركن من الشارع، التقى زلاجة تسير بسرعة، وكانت إليزابيت بيتروفنا فيها، وقد ارتدت سترة من المخمل، ولفّت رأسها بخمار. فتمتم في نفسه وقد تعرّف بفرح وجهها الصغير المدوّر الذي اكتسى، في هذه اللحظة تعبيراً غريب الرصانة والقسوة: «شكراً لله! شكراً لله!» واستدار وأخذ يركض بحذاء الزلاجة، دون أن يأمر الحوذي بالوقوف.

سألتْه:

– منذ ساعتين، قلتَ؟ لا أكثر؟ سوف تجد بيير دميتريفتش في منزله، لكن لا تستعجله. وهات أفيوناً من الصيدلية.

– أتعتقدين أن الأمور ستكون على ما يرام.

وقال في نفسه وهو يشاهد زلاجته تجتاز باب العربات: «يا إلهي ارحمنا، وانجدْنا!». ووثب إلى جنب كوزما وأمره أن يمضي إلى منزل الطبيب.

Tele: @Arab_Books

- ١٤ -

لم يكن الطبيب قد نهض بعد، وأعلن خادمه أن معلّمه نام متأخراً وطلب ألا يوقظه أحد، وأنه سينهض بعد قليل. كان الرجل يمسح زجاج المصباح، وهو عمل بدا كأنه يستغرقه استغراقاً عميقاً. إن عناية الخادم بزجاج المصباح ولا مبالاته إزاء الحدث الذي طرأ في بيت ليفين، أدهشا ليفين في أول الأمر، لكنه أدرك بعد لحظة من التفكير أن لا أحد يعرف أو يحرص أن يعرف عواطفه، وأنّ عليه أن يتصرف بهدوء ورزانة وعزم لكي يخرق جدار اللامبالاة هذا ويصل إلى هدفه. قال ليفين بينه وبين نفسه: «يجب ألا أستعجل وألا أهمل شيئاً»: لقد أحس أن مدّخرات متزايدة من القوة الجسدية ومن الانتباه تتدفق في كيانه، تحسباً لكل ما بقي عليه أن يفعله.

عندما علم ليفين أن الطبيب لم ينهض بعد، قرر أن يختار الخطة التالية من بين الخطط التي خطرت له: سيحمل «كوزما» رسالة إلى طبيب آخر وسيذهب هو إلى الصيدلية ليؤمّن الأفيون، وإذا لم يكن الطبيب مستيقظاً بعد عندما يعود فسوف يرشو الخادم أو يستخدم القوة، في حالة الرفض، ليوقظ الطبيب مهما كلّف الأمر.

في الصيدلية، كان المُحضِّر المسرف الهزال يضع مسحوقاً في مغلّفات

Tele: @Arab_Books

من الخبز الفطير لحوذي كان ينتظر. ولقد أبدى اللامبالاة نفسها التي أبداها الخادم وهو يلمّع زجاج المصباح، ورفض أن يعطي الأفيون. فحمل ليفين نفسه على الهدوء والصبر ورأى من واجبه أن يقنعه بإعطائه اسم الطبيب واسم القابلة وشرح له سبب حاجته إلى الأفيون. وفاوض المحضِّر بالألمانية شخصاً وراء الحاجز الفاصل، وعندما حصل على الإذن بتسليم الدواء، جاء بقمقمين وقمع، وملأ بهدوء القمقم الصغير مما يحتويه القمقم الكبير، وألصق عليه علامة ختمها بختمه، رغم احتجاجات ليفين، وأراد أن يغلّفها. لكن صبر ليفين نفد، في هذه المرة: فانتزع القمقم من بين يدي المحضّر بعزم ومضى راكضاً.

لم يكن الطبيب قد نهض بعد، ورفض الخادم إيقاظه. فأخرج ليفين بهدوء ورقة بعشرة روبلات، ومدّها إلى الخادم وبين له، وهو يشدد على كل كلمة من كلماته، أن «بيير دميترفيتش» (كم بدا عظيماً وهاماً الآن، في عيني ليفين، ذلك الشخص الذي كان حتى هذه اللحظة هزيلاً جداً) وعده بالمجيء في أية ساعة، يشاء، وأنه لن يغضب، وأنه يستطيع أن يوقظه على الفور.

قبل الخادم، وصعد إلى الطابق الأول، ورجا ليفين أن يدخل قاعة الانتظار.

سمع ليفين الطبيب خلف الباب، يسعل ويغتسل ويمشي ويتكلم. ومرت ثلاث دقائق بدت لليفين كأنها أكثر من ساعة. و لم يعد بإمكانه أن ينتظر.

فقال بصوت متوسل وهو يشقّ الباب:

Tele: @Arab_Books

– بيير دميتريفتش، بيير دميتريفتش! اغفر لي، بالله عليك! لكن استقبلني كما أنت. ها قد مضت ساعتان منذ أن بدأ الوجع.

أجابه صوت:

– على الفور، على الفور!

ودهش ليفين إذ أحس أن الطبيب كان يقول ذلك وهو يبتسم.

– لن أحتاج إلا إلى أقل من دقيقة.

– على الفور.

مرّت دقيقتان قبل أن يحتذي الطبيب جزمته ودقيقتان أخريان قبل أن يرتدي سترته ويمتشط.

فاستأنف ليفين بصوت شاك:

– بيير دميتريفتش!

وفكّر ليفين: «هؤلاء الناس لا ضمير لهم. هم يمتشطون ونحن نهلك!».

قال له الطبيب وهو يتناول يده وقد بدا عليه الهدوء وكأنه يريد أن يزدريه:

– مرحباً! ما بك؟ لا داعي للعجلة.

حين حاول ليفين جاهداً أن يروي له قصته بأكبر قدر ممكن

Tele: @Arab_Books

من التفصيل، بدأ برواية تفاصيل لا فائدة منها، تتعلق بحالة امرأته الصحية؛ وكان يقطع روايته، في كل لحظة، ليحث الطبيب على الذهاب معه في الحال.

– على مهلك، ولا تُصب بالذعر. ليس لك تجربة، فيما أرى، ولا أعتقد أن حضوري ضروري، لكني وعدت، وسوف آتي إذا شئت. لا داعي للعجلة. اجلس، أرجوك؛ أأقدم لك القهوة؟

تطلّع إليه ليفين كمَنْ يسأله إن لم يكن يهزأ به. لكن الطبيب لم يخطر بباله أن يهزأ. فقال وهو يبتسم:

– إني خبير بذلك. وأنا أيضاً متزوج. نحن الأزواج باهتون أثناء هذا الوقت بالذات. إن لي زبونة هنا ينهزم زوجها دائماً كلما جاءها المخاض.

– ما رأيك، بيير دميتريفتش؟ أتظن أن الأمور ستمر بسلام؟

– كل المعطيات تبشّر بحسن العاقبة.

قال ليفين وهو يرمي بنظرته السامة الخادم الذي دخل ومعه القهوة:

– إذن؛ ستأتي على الفور؟

– بعد حوالي الساعة.

– ناشدتكَ الله!

– دعني، على الأقل، أشرب قهوتي.

Tele: @Arab_Books

صبّ الطبيب لنفسه قهوة. وصمتا كلاهما.

قال الطبيب وفمه مملوء بالقهوة:

- ما رأيك، يبدو أن الترك أخذوا ينهزمون حقاً. هل قرأت البلاغ الأخير؟

قال ليفين وهو ينهض فجأة:

- آه! لم أعد أحتمل ذلك. هل تكون عندي بعد ربع ساعة؟

- بعد نصف ساعة.

- كلام شرف؟

عندما وصل ليفين إلى البيت، نزل من عربته في الوقت نفسه الذي نزلت فيه الأميرة. فصعدا معاً إلى غرفة النوم. كانت عينا الأميرة مغرورقتين بالدموع وكانت يداها ترتجفان. وعندما شاهدت ليفين أخذته بين ذراعيها وهي تبكي. وقالت وهي تمسك بذراع القابلة التي أقبلت عليهما بوجه مشرق ومهموم في آن واحد. وقالت:

- الأمور تسير في طريقها السليمة. اقنعيها بالتمدد، فذلك أسهل عليها.

منذ اللحظة التي استيقظ فيها ليفين وأدرك حقيقة الأمر، هيأ نفسه لتحمّل الحدث، دون أن يشغله شاغل ودون أن يتوقّع شيئاً، مخبّئاً جميع عواطفه وجميع أفكاره: إنه سيشدّ من عضد امرأته ويقوّي عزيمتها

Tele: @Arab_Books

ولن يثبّطها. ولقد امتنع حتى عن التفكير فيما سيقع وفي عاقبة ذلك كله، فاستعد لأن يتجلّد ويمسك قلبه بكلتا يديه مدة خمس ساعات، بناء على التقديرات المعتادة، وبدا له ذلك ممكن التحقيق. لكنه لما عاد من عند الطبيب وشهد من جديد أوجاع كيتي أخذ يردد ويكثر من الترديد: «يا إلهي، اغفر لنا، وامنحنا عونك!»، وأخذ يتنهد ويرفع رأسه إلى السماء، واستولى عليه الرعب من أنه لن يستطيع أن يتحمل هذا المشهد، ومن أنه سينفجر باكياً أو سيهرب: سوف يقاسي عذاباً حقيقياً. هذا و لم تمض بعد سوى ساعة واحدة.

بعد هذه الساعة، مرت ساعة أخرى، ثم ساعتان، ثم ثلاث: انقضت الساعات الخمس التي عيّنها حداً أقصى لصبره والوضع ما يزال كما كان؛ وصبر على الضيم لأنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً سوى الصبر على الضيم؛ وفي كل لحظة، كان يعتقد أنه قد بلغ غاية المكابدة وأن قلبه سيتحطّم من الشفقة.

لكن الدقائق، ثم الساعات كانت تتوالى وكان الشعور بآلامه ورعبه ينمو من لحظة إلى لحظة.

كل الشروط العادية للحياة، وهي شروط لا يمكن تصوّر شيء خارجاً عنها، قد كفّت عن الوجود بالنسبة إلى ليفين. لقد فقد مفهوم الزمن. فتارة تبدو له الدقائق ساعات عندما تدعوه كيتي إلى جنبها وعندما يمسك يدها الرطبة التي كانت تشد على يده بقوة لم يعهدها، لتصدّه بعد ذلك ثانية، وتارة تبدو له الساعات دقائق. ودهش عندما رجته إليزابيت بيتروفنا أن يشعل شمعة خلف الحاجز، فرأى أن الساعة قد بلغت الخامسة مساء. ولو

Tele: @Arab_Books

قيل له إن الساعة لم تتجاوز العاشرة صباحاً لدهش أيضاً. و لم يكن يعلم أين كان في هذا الوقت ومتى. كان وجه كيتي المحمر أمام عينيه: كانت تبدو أحياناً مدهوشة من ألمها؛ وكانت أحياناً أخرى تبتسم له ابتسامة مطمئنة. وكان يرى الأميرة وهي تبلع دموعها وتعضّ شفتيها، وقد احمرّت وتشنّجت وتناثرت خصلها الرمادية. كان يرى أيضاً دولي، والطبيب وهو يدخّن سيجارات غليظة، وإليزابيت بيتروفنا بوجهها القوي المشجّع، والأمير العجوز الذي كان يذرع قاعة الاستقبال، وهو مقطّب الحاجبين. أما كيف كانوا يدخلون ويخرجون، وأين كانوا يقفون، فذلك ما كان يجهله. وكانت الأميرة مع الطبيب في غرفة النوم حيناً، وحيناً آخر، في المكتب حيث مُدّت المائدة؛ وفي بعض الأحيان كانت كيتي تقوم مقامها. وفيما بعد، تذكّر ليفين أنه قد أُرسل لشراء بعض الحاجات، وأنه قد طُلب إليه تغيير موضع طاولة وأريكة. فنفّذ ذلك بحمية معتقداً أن ذلك لكيتي، وعلم بعد لحظة أنه أعدّ سريره. وبعد ذلك، أُرسل إلى المكتب ليسأل الطبيب شيئاً. فأجابه الطبيب واستطرد على الحديث عن فساد الدوما. ثم كُلِّف أن يذهب إلى غرفة الأميرة ليُحضر أيقونة مغطاة بغطائها الفضي المذهب: فتسلّق على خزانة الصور بمساعدة خادمة حماته العجوز وكسر قنديلاً: فأوسعته الخادمة العجوز عزاء من أجل القنديل ومن أجل كيتي، وحمل الأيقونة، ووضعها بعناية عند رأس كيتي، خلف الوسائد. أما أين ومتى ولماذا تمّ ذلك كله، فهو أمر لا يعلم عنه شيئاً. و لم يكن يفهم أيضاً لماذا كانت الأميرة تمسك بيده وتحثّه على الهدوء وهي ترنو إليه بعينين مشفقتين، ولا لماذا كانت دولي تحاول إقناعه بأن يأكل وتقوده إلى خارج الغرفة، ولا لماذا كان الطبيب يتأمله بوجه مشفق ويقترح عليه أن يتناول بعض القطرات.

Tele: @Arab_Books

كل ما كان يعلمه هو أن ما يحدث الآن يشبه ما حدث قبل سنة في فندق من فنادق عاصمة المقاطعة قرب السرير الذي مات عليه أخوه نيقولا. لقد حل الفرح محل الحزن. لكن ذلك الحزن وهذا الفرح كانا خارج الشروط المعتادة للحياة؛ كانا كأنهما ثغرة في الحياة العادية تكشف عن شيء أسمى. كان الحدث الذي هو في سبيله إلى التمام حدثاً شاقاً، معذّباً، وكانت النفس، وهي تتأمل هذا الحدث الأسمى، تسير إلى أعالٍ لا تبلغ، أعالٍ لم تخطر بالبال من قبل، ولا يستطيع العقل فيها أن يتبعها.

كان يردد بصوت خافت دون كلل: «يا إلهي، اغفر لنا ومدّ يد العون إلينا!» فقد كان يحسّ أنه أخذ يبتهل إلى الله بمثل الثقة والبراءة اللتين كان يبتهل بهما أيام طفولته وصباه، وذلك رغم التباعد الطويل الأمد والنهائي في الظاهر.

أثناء هذا الوقت كله، مر بحالتين نفسيتين مختلفتين. الأولى مع الطبيب الذي كان يدخّن سيجارة تلو سيجارة ويطفئها على حافة المنفضة المملوءة، ومع دولي والأمير: كان الحديث يدور حول العشاء والسياسة ومرض «ماري بيتروفنا»، وكان ليفين ينسى، للحظة، نسياناً تاماً ما كان يجري، ويُخيل إليه أنه يخرج من حلم؛ والحالة الثانية عند سرير زوجته؛ حينذاك كان قلب ليفين يودّ لو يتحطّم من الرأفة، لكنه ما كان يستطيع ذلك، وكان يصلي بلا انقطاع. وكان كلما انتشلته من نسيانه صرخة آتية من غرفة النوم عاد إلى الاضطراب الغريب الذي استولى عليه في اللحظة الأولى: فما أن يسمع أنيناً حتى يثب عن مقعده ويجري ليبرّئ نفسه؛ ثم يتذكّر في طريقه أنه ليس

Tele: @Arab_Books

مذنباً وتراوده الرغبة في الدفاع عن زوجته ونجدتها. فإذا رآها أدرك مرة أخرى أنه لا حيلة له وتملّكه الرعب وقال: «يا إلهي، اغفر لنا ومدّ يد العون إلينا!».

وكان كلما مرّ الوقت اتّضح هذان الاستعدادان واشتدّ بروزهما: لقد ازداد شعوره بالطمأنينة ونسيانه كيتي كلياً عندما لا يكون بجنبها، وازدادت حدة آلام كيتي وشعور ليفين بالعجز أمام آلامها. كان لا يني ينهض متمنياً أن يهرب إلى أي مطرح من الأرض، ثم يركض إليها.

كان أحياناً يحقد على كيتي، بعد دعواتها المتكررة له. لكنه ما إن يرى وجهها المذعن والمبتسم، ويسمعها تقول: «إنني أسبب لك الكثير من الهموم»، حتى يلقي التبعة على الله؛ ثم لا يلبث إذا مر ذكر الله على باله أن يناشده المغفرة والرحمة.

Tele: @Arab_Books

-١٥-

لم يعد يعلم إن كان الوقت ليلاً أو صباحاً. ذابت الشموع، ودخلت دولي المكتب لتقترح على الطبيب أن يستريح قليلاً. وكان ليفين جالساً على مقعد، يصغي إلى الطبيب الذي أخذ يحدثه عن مشعوذ ينوِّم مغنطيسياً، ويتأمل رماد سيجارته. كانت لحظة استراحة وهو يُخلد إليها... لقد نسي كلياً ما يجري. كان يصغي إلى ثرثرة الطبيب ويفهمها. وفجأة دوّى صراخ ليس فيه شيء إنساني. كان هذا الصراخ مرعباً إلى حدٍّ كبير حتى إن ليفين لم يتحرك، وإنما ألقى على الطبيب نظرة مرتعبة ومستفهمة وهو محتبس الأنفاس. فحنى الطبيب رأسه، وأصاخ السمع وابتسم وقد بدت الموافقة عليه. كان كل شيء خارقاً للعادة حتى إن ليفين لم يعد يدهش لشيء. وقال في نفسه: «لا شك أن الأمور ينبغي أن تكون كذلك»، وظل جالساً. لكن مَنْ الذي صرخ؟ نهض فجأة وجرى على رؤوس أصابعه، سابقاً إليزابيت بيتروفنا والأميرة، واتخذ مكانه عند رأس كيتي. سكتَ الأنين لكن شيئاً هناك قد تغيّر. أما ماذا كان ذلك الشيء، فهو ما لم يكن يراه ويفهمه وما لم يكن يرغب في رؤيته وفهمه. لكنه تبيّنه من وجه إليزابيت بيتروفنا: كان وجهها شاحباً، قاسياً، راسخ العزم كما كان، لكن فكّيها كانا يرتجفان قليلاً، وعيناها تُحدّان النظر إليها بإلحاح.

Tele: @Arab_Books

وكان وجه كيتي القرمزي والمنهوك مع خصلة الشعر التي ألصقها العرق به قد استدار إليه باحثاً عن نظرته. وكانت يداها تبحثان عن يدي ليفين. حتى إذا وجدت يدي ليفين الباردتين أخذتهما بين يديها النديتين وضغطتهما على وجهها.

قالت بعجلة:

– لا تنصرف، لا تنصرف، لستُ خائفة! انزعي، يا أمي، قرطيَّ فهما يضايقانني. ألستِ خائفة؟ إليزابيت بيتروفنا أسرعي، أسرعي...

كانت تتكلم بسرعة وتحاول أن تبتسم. لكن وجهها كشّر فجأة فدفعت زوجها عنها. وصاحت:

– آه! هذا فظيع! سأموت! اذهب من هنا.

وعلا الصراخ الحيواني من جديد.

أمسك ليفين رأسه بين يديه وترك الغرفة راكضاً.

قالت له دولي:

– ليس ذلك شيئاً ذا بال، ليس ذلك شيئاً ذا بال، كل شيء يسير سيراً حسناً!

لكن، مهما يقولوا له فقد كان يعلم الآن أن كل شيء قد فُقد. كان يصغي، ورأسه مستند إلى إطار الباب، إلى الصياح الآتي من الغرفة المجاورة، وهو صياح لا يُشبه في شيء ما سمعه حتى الآن، وكان يعلم

Tele: @Arab_Books

أن هذه الصرخات تنبعث عمّن كانت قديماً كيتي. لم يعد يفكر في الوليد، منذ زمن بعيد. كان يكره ذلك الوليد. بل إنه لم يكن يتمنى أن تحيا كيتي، فكل ما كان يتمناه أن يرى النهاية لمثل هذه الآلام المبرّحة.

قال وهو يمسك بذراع الطبيب الذي دخل:

– دكتور! ما هذا؟ ما هذا؟ يا إلهي!

قال الطبيب:

– هذه هي النهاية.

وكان وجهه بالغ الرصانة حتى إن ليفين فسّر قوله: «هذه هي النهاية». بمعنى: «إنها تموت».

فأسرع إلى الغرفة، وقد خرج عن طوره. كان أول وجه لقيه هو وجه إليزابيت بيتروفنا الذي كان أشد اكفهراراً ورصانة. أما كيتي فلم تكن تُعرَف. فالموضع الذي كان فيه وجهها انكشف الآن عن شيء مرعب كلّه تشنج وصراخ. أسند جبهته إلى خشب السرير، وأحس أن قلبه يوشك أن يتمزّق. كانت الصرخات المرعبة ترتفع دون انقطاع: لقد غدت أفظع، ثم انقطعت فجأة، وكأنها بلغت غاية الفظاعة. لم يصدّق ليفين أذنيه، لكن لم يبق مجال للشك، لقد سكتَ الصياح. سُمعت الروحات والجيئات الحذرة، وحفيف الثياب الخفيف، وأنفاس متسارعة، ثم كيتي تهمس بصوت لاهث، مليء بالحياة والحنان والفرح: «انتهى الأمر».

Tele: @Arab_Books

رفع رأسه. كانت ذراعاها الخامدتان مستلقيتين على الغطاء، وهي خارقة الجمال والسكينة، تنظر إليه بصمت وتحاول أن تبتسم فلا تفلح في ذلك.

وفجأة، ألفى ليفين نفسه وقد انتقل فوراً من ذلك العالم غير الواقعي، الرهيب، المحفوف بالأسرار، الذي عاش فيه اثنتين وعشرين ساعة، إلى عالم عاداته القديم، لكن هذا العالم أخذ يلتمع الآن بنور السعادة الباهر حتى إنه لم يستطع أن يحتمله. وانقطعت الحبال التي شُدَّت شداً مفرطاً. فهزّه النحيب ودموع الفرح التي لم يتوقعها هزاً عنيفاً لم يستطع معه الكلام زمناً طويلاً.

جثا قرب السرير، وغطّى يد امرأته بالقبل؛ فردّت عليها بأن ضغطت بأصابعها ضغطاً رفيقاً. في هذه الأثناء، وعند قائمة السرير، كانت حياة كائن بشري لم يوجد من قبل في أي مكان، كائن سيعتدّ بحقوقه عما قريب وسيولّد كائنات أخرى شبيهة به، ترتعش بين يدي إليزابيت بيتروفنا الخبيرتين، كما يرتعش ضوء الشمعة.

وبينما كانت إليزابيت بيتروفنا تفرك ظهره، سمع ليفين:

– إنه يحيا! إنه يحيا! وهو صبي! لا تخشي شيئاً.

وقال صوت كيتي:

– أهذا صحيح، يا ماما؟

لم يسع الأميرة إلا أن تنتحب كجواب وحيد عن سؤالها. وفي

Tele: @Arab_Books

غمرة الصمت ارتفع صوت مختلف عن أصوات الحاضرين الخافتة، وكأنه يريد أن يبدد شكوك الأم ولا يدع لَبَساً. كان الصوت صرخة جريئة، وقحة يطلقها كائن بشري جديد يستخفّ بكل شيء، قد انبثق قبل قليل دون أن يعلم أحد من أين.

لو قيل لليفين، قبل لحظة، إن كيتي ميتة، وإنه ميت في الوقت نفسه معها، وإن لهما أولاداً ملائكة هم بحضرة الله، لما أحس بالدهشة؛ أما الآن وقد دخل عالم الواقع، فقد كان يلزمه جهد فكري عظيم ليُدرك أنها سليمة معافاة وأن هذا الكائن الذي يُطلق الصراخ الثابت هو ابنه. كانت كيتي حية، وزالت آلامها. كان سعيداً وسعادته لا توصف. ذلك ما أدركه وابتهج به من كل كيانه. والولد؟ من أين جاء، ولماذا، ومَنْ هو؟ لم يكن يستطيع أن يألف هذه الفكرة. كان هذا الولد زائداً عن اللزوم، ولا حاجة به إليه، وقد مرّ زمن طويل دون أن يألفه.

Tele: @Arab_Books

-١٦-

في نحو الساعة الحادية عشرة، كان الأمـير العجوز، وسيرج إيفانوفتش، وستيفان أركاديفتش مجتمعين عند ليفين. وبعد أن استخبروا عن النَّفْساء، صَرَفوا الحديث إلى موضوعات أخرى. كان ليفين يُصغي إليهم وهو ينتقل بفكره، رغماً عنه، إلى الأحداث التي سبقت هذه الصبيحة، وإلى ما كان عليه هو نفسه البارحة. كان يحسّ أنه على علو لا يُنال وأنه يبذل جهده ليهبط منه حتى لا يجرح محدّثيه. كان لا ينفك يفكر بزوجته، وبحالته الجديدة، وبابنه، وبوجود هذا الابن الذي يسعى أن يعوّده، وهو يتابع الكلام. إن عالم المرأة الذي اتخذ، في نظره، منذ الزواج أهمية لم يكن يوليه إياها حتى لحظة الزواج، قد ارتفع عالياً جداً في فكره بحيث لم يكن بإمكانه أن يُلم به ولو بخياله. كان يصيخ السمع إلى حديث عن عشاء البارحة في النادي ويفكّر: «ماذا تفعل الآن؟ هل تنام؟ وهل صحتها حسنة؟ فيمَ تفكّر؟ إن ابني «دميتري» يصرخ؟». وفي وسط الحديث، في وسط الجملة، نهض فجأة وترك الغرفة.

قال له الأمير:

– أرسلْ من يخبرني إن كنتُ أستطيع أن أراها.

Tele: @Arab_Books

أجاب ليفين:

– طيب، على الفور

وقصد إلى غرفة امرأته، دون أن يتوقّف.

لم تكن نائمة وكانت تحدّث أمها بهدوء. وكانتا تضعان المشاريع من أجل العماد القريب.

كانت مستلقية على ظهرها، وقد بدّلتْ ثيابها، وامتشطت، وغطّت رأسها بقبعة جميلة مزينة بلون أزرق سماوي، ومدت يديها على غطاء السرير. التقت عيناها عيني زوجها واجتذبتاهما إليها. وكانت نظرتها المضيئة تلتمع ببريق يزداد توهجاً كلما دنا منها. وكان وجهها يعكس تلك النقلة من عالم الأرض إلى عالم السماء التي نراها على وجوه الموتى؛ إلا أنها هنا لم تكن إشارة الوداع بل إشارة الترحيب. فاعتصر قلب ليفين انفعال شبيه بالذي خالجه ساعة وضعها. وأمسكت بيده وسألته إن كان قد نام. لم يستطع أن يجيب وثنى رأسه، وقد اقتنع بضعفه. وقالت له:

– أما أنا فنمت، يا كوستيا! وأحسّ أنني كأحسن ما أكون حالة.

تطلعت إليه لكن تعبير وجهها ما لبث أن تبدّل. وقالت وقد سمعت زقزقة الوليد:

– أعطني إياه، يا إليزابيت بيتروفنا، حتى يراه أبوه.

قالت إليزابيت بيتروفنا وهي تتناول من السرير وتحمل رزمة غريبة حمراء تتخبّط:

Tele: @Arab_Books

- بابا يريد أن يرانا. لكن انتظر حتى نستكمل زينتنا.

ووضعت القابلة الرزمة الحمراء على السرير وحلّتْ لفافة الوليد ثم لفّته من جديد وهي ترفعه وتديره بأصبعها لكي ترشه بالبودرة.

وكان ليفين، وهو يتأمل هذا الكائن الصغير والجدير بالشفقة، يجهد نفسه عبثاً لكي يعثر فيها على أدنى أمارات الحب الأبوي. لم يكن يشعر نحو هذا الوليد بغير النفور. لكنه أحسّ حين خلعت ثيابه وظهرت هاتان الذراعان النحيلتان، وهاتان القدمان بلون الزعفران اللتان تميّز فيهما الإبهام عن الأصابع الأخرى، وحين رأى إليزابيت بيتروفنا تمسك بيديه الصغيرتين اللتين كانتا تنكمشان كأنهما نابضان ليّنان لتلفّهما، أحس بكثير من الرأفة وبكثير من الإشفاق حتى لقد أمسكها من ذراعها خوفاً من أن تؤذيه. فأخذت إليزابيت بيتروفنا تضحك.

- لا تخفْ، لا تخف!

عندما أُلبس الصغير وتحوّل إلى شرنقة، نقّلته القابلة من يد إلى أخرى، وهي فخورة بعملها، وتنحّتْ لكي يتمكّن ليفين أن يرى ابنه بكل جماله.

لم تكفّ كيتي عن النظر بمؤخر عينها في هذا الاتجاه.

قالت وقد همّت بالنهوض:

- أعطني إياه، أعطني إياه!

Tele: @Arab_Books

– ليتكِ تظلّين هادئة، كاترين ألكسندروفنا، فهذه الحركات محظورة عليكِ! انتظري، فسوف أحمله إليك. سنُري البابا قليلاً مقدار جمالنا.

ورفعتْ إليزابيت بيتروفنا بيد واحدة هذا الكائن الصغير الأحمر، الغريب الذي كان يهزّ رأسه ويدخله في اللفافة، (أما اليد الأخرى فلم تكن تسند القذال المهتز إلا بأصابعها).

قالت القابلة:

– إنه لطفل جميل!

تنهد ليفين بحزن. فهذا الطفل الجميل لم يوح إليه إلا بشعور من الاشمئزاز والشفقة. وليس هذا ما كان ينتظره.

أشاح بوجهه في الوقت الذي كانت فيه إليزابيت بيتروفنا تُجلس الصبي على صدر الأم.

وفجأة، حملته القهقهة على رفع رأسه. كانت كيتي مغربة في الضحك. ذلك أن الطفل تناول ثديها.

قالت إليزابيت بيتروفنا:

– هيا، كفى!

لكن كيتي لم تشأ أن تدع الصبي، لقد نام بين ذراعيها.

قالت كيتي وهي تدير الطفل نحو ليفين حتى يتسنّى له أن يراه:

Tele: @Arab_Books

- انظر إليه الآن.

تجعّد الوجه الصغير، الذابل أكثر من ذي قبل وعطس الطفل.

ابتسم ليفين، وأوشك أن يبكي من الحنان، فقبّل امرأته وترك الغرفة المظلمة.

ما اعتمل في نفسه نحو هذا الكائن الصغير لا يشبه في شيء ما قد توقعه. لم يكن هذا الشعور يتضمّن شيئاً من البهجة أو الفرح. على العكس، لقد انضاف إلى همومه همّ جديد. وأحس الآن أن منطقة كاملة من ذاته غدت قابلة للعطب. وقد عذّبه هذا الشعور، في اللحظة الأولى، أيّما تعذيب، وكان رعبه من أن يرى هذا الكائن الأعزل يتألم، قوياً جداً حتى لقد منعه ذلك الشعور وهذا الرعب من ملاحظة الفرح الأرعن بل والاعتزاز اللذين تملّكاه عندما عطس الصغير.

Tele: @Arab_Books

-١٧-

كان ستيفان أركادييفتش في وضع سيئ. فقد صرف ثلثي المال الذي باع به خشب الغابة كما اقترض سلفاً من التاجر الثلث الباقي كله تقريباً بتخفيض عشرة بالمئة. وكان التاجر ينوي ألا يعطيه المال ولا سيما أن داريا ألكسندروفنا التي أكّدت، لأول مرة، حقوقها على ثروتها، رفضت التوقيع على قبض الثلث الأخير. وكان مرتّب أوبلونسكي كله يذهب في نفقات المنزل وفي تسديد الديون الصغيرة. ولم يكن لهما من موارد على الإطلاق.

كان ذلك شيئاً كريهاً، مزعجاً، ولا يجوز أن يستمر على هذا المنوال، في اعتقاد ستيفان أركادييفتش. وكان يعزو هذا الوضع إلى صغر مرتبه. والمركز الذي يشغله بدا ممتازاً قبل خمس سنوات، أما الآن فالأمر مختلف. كان مدير المصرف، يقبض اثني عشر ألف روبل؛ وسفنتزكي، وهو عضو في جمعية، يحصل على سبعة عشر ألفاً؛ وميتين الذي أسس مصرفاً يربح خمسين ألف روبل. وفكّر ستيفان أركادييفتش «لا شك أنني أنام وأن الناس ينسونني». ولذلك أخذ يترقّب؛ ونحو أواخر الشتاء اكتشف مركزاً مربحاً جداً، فشنّ عليه هجوماً، من موسكو أولاً بواسطة العمّات والأعمام والأصدقاء؛ ثم لما نضجت الثمرة،

Tele: @Arab_Books

قصد هو نفسه إلى بطرسبرج في الربيع. كان هذا المركز يدرّ من ألف إلى خمسين ألف روبل في السنة، وكان وظيفة من هذه الوظائف التي هي أكثر عدداً اليوم من وظائف الزمن القديم التي تُشترى بالرشوة. كان المطلوب منه أن يصبح عضواً في لجنة الوكالات المتّحدة لمصرف التأمين والخطوط الحديدية في الجنوب. وكانت هذه الوظيفة تتطلب معارف واسعة جداً، ونشاطاً كبيراً جداً وهو ما يصعب أن يتوفر في إنسان واحد. وبما أن الرجل الذي يجمع هذه الصفات لا يوجد، فقد كان من الأفضل أن يُعهَد بهذا العمل إلى رجل شريف بدلاً من أن يُعهد به إلى رجل غشاش. أما الشرف فقد كان ستيفان أركادييفتش شريفاً بالمعنى الخاص الذي تملكه هذه الكلمة في موسكو، عندما تُطبّق على رجل الدولة أو الكاتب أو الصحيفة أو المؤسسة، أو اتجاه للرأي العام، والذي لا يدل فقط على أن ذلك الرجل أو تلك المؤسسة ليسا لئيمين، وإنما يدل أيضاً على أنهما يستطيعان عند الضرورة إرسال سهامهما إلى الدولة إذا سنحت الفرصة. كان ستيفان أركاديفتش يتنقل في موسكو، في الحلقات التي أطلقت فيها هذه الكلمة وكان يُعتبر فيها رجلاً شريفاً: وإذن فقد كان له الحق أكثر من غيره في هذه الوظيفة.

كانت هذه الوظيفة تدرّ من سبعة آلاف إلى عشرة آلاف روبل في السنة، وكان أوبلونسكي يستطيع الجمع بينها وبين وظائفه الأخرى. وكانت مرتبطة بوزارتين، وبسيدة، وبيهوديين، ومع أن هؤلاء الناس جميعاً قد أُبلغوا لدعمه، فقد كان ينبغي أن يذهب لرؤيتهم في بطرسبرج. وفضلاً عن ذلك، فإن ستيفان أركادييفتش وَعدَ أخته آنا أن يحصل من كارينينا على جواب ثابت بشأن الطلاق. ولذلك سافر إلى بطرسبرج بعد أن ابتزّ من دولي خمسين روبلاً.

Tele: @Arab_Books

كان يُصغي، وهو جالس في مكتب كارينينا إلى زوج أخته وهو يعرض عليه خطّته في إصلاح المالية الروسية، وكان يترصّد اللحظة التي يتوقّف فيها كارينينا لكي يوجّه الحديث نحو شؤونه الخاصة وشؤون آنا.

قال ستيفان أركاديفتش بعد أن رفع ألكسي ألكسندروفتش نظارته التي لا يستطيع القراءة بدونها، وألقى عليه نظرة مستفهمة:

– نعم، هذا صحيح جداً في التفاصيل، لكن مبدأ عصرنا هو الحرية.

– ولذلك فإن المبدأ الجديد الذي أنادي به «يشمل» مبدأ الحرية.

قال ألكسي ألكسندروفتش ذلك وهو يشدد على كلمة «يشمل»، ويضع نظارته ليعيد قراءة المقطع الذي عُرضت فيه وجهة النظر هذه بالتحديد.

تصفح مخطوطاً أنيق الأحرف، عريض الهوامش وأعاد قراءة المقطع الذي يثبت ذلك.

وأضاف وهو ينظر إلى أوبلونسكي من فوق نظّارته:

– إذا كنت أدعو إلى مذهب الحماية فليس ذلك من أجل منفعة الأفراد بل من أجل المصلحة العامة، سواء في ذلك الطبقات الدنيا أم الطبقات العليا. لكنهم لا يستطيعون أن يفهموه، إنهم غير معنيين إلا بمصالحهم الخاصة ويكتفون بالجمل الرنانة.

Tele: @Arab_Books

كان ستيفان أركاديفتش يعلم أن كارينينا عندما يبدأ بالكلام على ما يفكر فيه أو يفعله الذين يُعارضون مشاريعه والذين هم سبب الفساد في روسيا، فإنه يقترب من نهاية الكلام، ولذلك هجر، ستيفان أركادييفتش للحظة مبدأ الحرية وقرر أن يوافق زوج أخته كلياً.
وصمت ألكسي ألكسندروفتش وهو يتصفح المخطوط وقد بدا عليه التفكير.

فقال ستيفان أركادييفتش:

– آه! أحببت أن أسألك بهذه المناسبة إن كانت الفرصة تسنح لك بلقاء «بومورسكي»، لتقول له كلمة من أجلي: فأنا أرغب في أن أكون عضواً في لجنة الوكالات المتحدة لمصرف التأمين وللخطوط الحديدية في الجنوب. ولقد نطق ستيفان أركادييفتش بهذا العنوان دون أن يخطئ فيه، لفرط قربه من نفسه، ولألفته له.

سأله ألكسي ألكسندروفتش عن مدار نشاط هذه اللجنة الجديدة واستغرق في تأملات عميقة. كان يتساءل إذا كانت هذه المؤسسة لن تعرقل مشاريعه. لكن بما أن نشاط هذه المؤسسة الجديدة كان شديد التعقيد وبما أن مشاريع كارينينا تضم ميداناً شديد الاتساع فإنه لم يستطع أن يحل المسألة مباشرة. فرفع نظارته وقال:

– بكل تأكيد، أستطيع أن أكلمه؛ لكن لماذا تريد أن تشغل هذه الوظيفة بالتحديد.

– إن المرتب يبلغ حوالي تسعة آلاف روبل، ومواردي...

Tele: @Arab_Books

فردد ألكسي ألكسندروفتش وقد قطّب بين حاجبيه:

– تسعة آلاف روبل.

هذا الرقم المرتفع أظهر له أن نشاط ستيفان أركادييفتش من هذه الناحية يصدم الفكرة السائدة في مشاريعه: وهي العودة إلى التوفير:

– إني أجد أن هذه المرتّبات الضخمة في عصرنا من أمارات الخلل في قاعدتنا الاقتصادية (على كل حال، لقد كتبتُ مذكرة بهذا المعنى).

قال ستيفان أركاديفتش:

– ماذا تريد؟ إن مدير المصرف يقبض اليوم عشرة آلاف روبل، وهو لم يسرقها. والمهندس يربح عشرين ألفاً. وهذه الوظائف ليست وظائف بلا عمل.

– أنا أزعم أن الأجرة هي ثمن سلعة وأنها ينبغي أن تخضع إذن لقانون العرض والطلب. فإذا انحرف تعيين الأجور عن هذا القانون، كأن أرى مثلاً مهندسيْن تخرّجا من مدرسة واحدة بمعارف واحدة ومؤهلات واحدة، يربح أحدهما أربعين ألف روبل ويكتفي الآخر بألفين؛ أو عندما يُعيّن على رأس أحد المصارف، بأجرة هائلة قانوني أو فارس من الخيّالة ليس له أية معرفة خاصة، فأنا أستنتج أن راتبه لم يُقدّر بحسب قانون العرض والطلب بل على أساس المحاباة، بكل بساطة. وها هنا تعسّف خطير في ذاته ومضر بمصلحة الدولة. وأقدر...

فسارع ستيفان أركاديفتش وقاطعه قائلاً:

Tele: @Arab_Books

- نعم، لكننا هنا أمام مؤسسة جديدة ذات فائدة لا نزاع فيها. وأولو الأمر فيها يحرصون على أن تجري شؤونها «بشرف».

لكن المعنى الموسكوفي لهذه الكلمة غاب عن ألكسي ألكسندروفتش. فقال:

- هذا الشرف ليس سوى صفة سلبية.

قال ستيفان أركادييفتش عرضاً في وسط الحديث:

- بالرغم من كل شيء، سيسرني أعظم السرور لو همست بكلمة صغيرة إلى بومودسكي:

قال ألكسي ألكسندروفتش:

- يُخيل إلي أن ذلك يتعلق ببولغارينوف، على الخصوص.

قال ستيفان أركادييفتش وهو يحمرّ:

- بولغارينوف موافق تماماً.

وإنما احمرّ ستيفان أركادييفتش عند ذكر اسم بولغارينوف لأنه زار في هذا الصباح ذلك اليهودي، ولأن ذكرى هذه الزيارة كانت مؤلمة.

كان ستيفان أركاديفتش مقتنعاً بأن المشروع الذي يبغي المؤازرة فيه مشروع شريف ونافع؛ لكنه أحس فجأة بالضيق في هذا الصباح، عندما جعله بولغارينوف ينتظر ساعتين، في غرفة الانتظار، مع المراجعين، عن قصد ظاهر.

Tele: @Arab_Books

هل شعر بهذا المضيق لأنه، وهو الأمير أبلونسكي المنحدر من «روريك»، قد اضطر إلى الانتظار ساعتين في غرفة انتظار يهودي، أم لأنه خالف تقاليد أجداده الذين خدموا الدولة، لأول مرة، كي يضطلع بعمل جديد؟ لكن من المؤكد أنه لم يحس بالراحة. وأثناء هاتين الساعتين من الانتظار عند بولغارينوف، كان ستيفان أركادييفتش يذرع غرفة الانتظار وهو طلق المحيا، ممسّداً سالفيه، متحدثاً مع المراجعين، مؤلّفاً التوريات التي سيطرحها بشأن هذا التوقف عند يهودي، محاولاً جهده أن يخفي نفسه وأن يكتم عن الآخرين العاطفة التي تملأ نفسه.

لكنه أحس، أثناء هذا الوقت كله، بالحنق والضيق اللذين يجهل هو نفسه سببهما: أكان ذلك لأنه لم يستطع أن يتم توريته أم لسبب آخر؟ وعندما استقبله بولغارينوف أخيراً بلطف زائد، وهو ظاهر الانتصار، ورفض تقريباً طلبه، سارع ستيفان أركادييفتش قدر الإمكان إلى نسيان هذه الإهانة. وها هو ذا يحمرّ الآن عندما تذكّرها.

قال ستيفان أركادييفتش بعد صمت قصير، عندما طرد الفكرة التي كانت تُزعجه:

– وعندي شيء آخر أحب أن أقوله لك، وأنت تعلم علام يدور... على آنا...

ما إن لفظ أوبلونسكي اسم آنا حتى تغيّر كلياً تعبير وجه ألكسي ألكسندروفتش: تحوّل من الحيوية والانتعاش إلى الإعياء والخمود.

قال وهو يستدير في مقعده ويطوي نظارته:

– وماذا تريد مني بالضبط؟

Tele: @Arab_Books

– قراراً ما، ألكسي ألكسندروفتش، وأنا أخاطبك، في هذه اللحظة، (وأراد ستيفان أركاديفتش أن يقول: «لا كرجل مُهان»، لكنه خشي أن يُعطِّل مسعاه، فغيّر الصيغة (لا كرجل دولة) وهو تعبير تبيّن أنه غير موفّق)، لكن بكل بساطة كرجل، كإنسان ذي قلب كبير، وكمسيحي، ينبغي أن تشفق عليها.

قال كارنينا بصوت خفيض:

– من أية ناحية؟

– أؤكد لك أنك لو رأيتها لآلمك منظرها. إن وضعها فظيع، فظيع حقاً.

أجاب ألكسي ألكسندروفتش بصوت أنحف، صوت يكاد يكون حاداً:

– كان يبدو لي أن آنا أركاديفنا نالت كل ما تبتغيه.

– آه! بالله عليك، يا ألكسي ألكسندروفتش، فلندعْ مبادلة التهم! ما قد فات فات، وأنت تعلم أن ما تبغيه وتطلبه: إنما هو الطلاق.

فصرخ ألكسي ألكسندروفتش:

– لكنني كنت أعتقد أن آنا أركاديفنا ستعدل عن الطلاق في حالة إصراري على الاحتفاظ بابني. وقد كتبت إليها بهذا المعنى، وكنت أظن أن المسألة منتهية. وأقدّر أنها منتهية.

قال ستيفان أركاديفتش وهو يلمس ركبة زوج أخته:

Tele: @Arab_Books

– أرجوك، لا تحتدّ. المسألة لم تنته. وإذا سمحت لي أن أُجمل الأمور فالمسألة تتلخص كما يلي: عندما انفصلتما كنت في غاية الشهامة: لقد منحتها كل شيء، منحتها الحرية وحتى الطلاق. وأكبرتْك هي. إنك لا تستطيع أن تتصور كم تأثّرتْ بهذه الشهامة. لقد بلغ بها التأثر في مطلع الأمر، أنها شعرت بأخطائها تجاهك وعجزت عن المضي في التفكير فرفضت كل شيء. لكن الواقع والزمن أظهرا لها أن وضعها مُعذب وأن حالتها لا تُطاق.

فقاطعه ألكسي ألكسندروفتش وهو يرفع حاجبيه:

– إن حياة آنا أركادييفنا لا يمكن أن تعنيني في شيء.

فرد عليه ستيفان أركادييفتش بهدوء.

– اسمح لي ألا أصدق ما قلت. إن وضعها يعذّبها ولا يُفيد أحداً. قد تقول لي إنها تستحق ذلك. هي تعلم أنها تستحقه ولا تطلب منك شيئاً، وهي نفسها تقول: إنها لا تجسر أن تسألك شيئاً. لكنني أنا، وجميع أقاربها، وكل الذين يحبّونها نرجوك ونتضرع إليك أن ترحمها. لماذا تتألم؟ ومن يستفيد من ذلك؟

فقال ألكسي ألكسندروفتش:

– لكنك، في الحقيقة تضعني في موضع المتّهم.

فاستدرك ستيفان أركادييفتش وهو يلمس يده وكأنه كان مقتنعاً بأن هذه اللمسة ستهدّئ من ثائرته:

Tele: @Arab_Books

- كلا، كلا، على الإطلاق، افهمني. وأنا أكتفي بأن أقول لك ما يلي: إن وضعها مؤلم، وتستطيع أنت أن تخفف من ألم هذا الوضع، ولن تفقد شيئاً من جراء ذلك. دعني أرتب الأمور بحيث تظل بمنأى عن التدخل فيها. لقد وعدتَ...

- هذا الوعد قطعتُه على نفسي منذ زمن بعيد. وكنت أعتقد أن مسألة الولد قد سوّت المشكلة. وفضلاً عن ذلك، كنت آمل أن يكون لآنا أركادييفنا شيء من الكرم...

لفظ ألكسي ألكسندروفتش الذي غدا شاحباً هذه الكلمات بمشقة، وشفتاه ترتجفان.

- إنها تترك الأمر كله لكرم نفسك. وهي ترجوك وتتضرع إليك أن تخلّصها من هذا الوضع الحرج الذي تجد نفسها فيه. وهي لا تطالب حتى بابنها. ألكسي ألكسندروفتش، أنت كريم النفس، ضع نفسك مكانها لحظة واحدة: المسألة هذه مسألة حياة أو موت. ولو أنك لم تعدها في البداية لارتضت حياتها ولسكنت الريف. وإنما كتبت إليك وجاءت لتقيم في موسكو، على أثر وعدك. وها قد مضى على سكناها المدينة ستة شهور كل لقاء فيها طعنة خنجر، وهي تنتظر قرارك يوماً بعد يوم. إن حالتها شبيهة بحالة محكوم بالموت وُضع الحبل في عنقه دون أن يقول له أحد إن كان ينبغي له أن يُعد نفسه للموت أو للتبرئة. ارأف بها وسوف أتكفل بتدبير كل شيء... إن وساوسك...

فقاطعه ألكسي ألكسندروفتش باشمئزاز:

Tele: @Arab_Books

– ليست القضية قضية وساوس. لكن لعلي وعدت بما لا يحق لي أن أعد به.

– وهكذا، فأنت ترجع عن كلامك؟

– لم أرفض قط ما هو ممكن، لكنني أطلب مزيداً من الوقت لأفكر في صحة هذا الوعد.

فاستأنف ستيفان أركادييفتش وهو ينهض فجأة:

– لا، ألكسي ألكسندروفتش، إني أرفض أن أصدق! إنها تعسة كأتعس ما تكون المرأة، ولا يجوز لك أن ترفض...

– في نطاق الممكن. أنت تجاهر بأنك حر التفكير. أما أنا فلا أستطيع، باعتباري مؤمناً، أن أخرج على القانون المسيحي.

– الطلاق مسموح به في جميع المجتمعات المسيحية، وحتى في مجتمعنا، على حدّ علمي. وكنيستنا ذاتها تبيحه. ونحن نرى...

– ربما كان مباحاً، لكن في غير الحالة الحاضرة.

قال ستيفان أركادييفتش بعد صمت:

– ألكسي ألكسندروفتش، إني أنكرك، فأنت اليوم غيرك بالأمس. أأنت حقاً الذي أُعجبنا به والذي غفر كل شيء، أأنت الذي حرّكه الشعور المسيحي وأبدى استعداده للتضحية بكل شيء؟ كنتَ أنت نفسك تقول: من أخذ قميصك فاعطه معطفك؛ والآن...

Tele: @Arab_Books

قال ألكسي ألكسندروفتش بصوت حاد:

- أرجو أن تكفّ... عن هذا الحديث.

ثم نهض فجأة. وأخذ فكّه يرتجف، وشحب وجهه.

قال ستيفان أركاديفتش وهو يمد إليه يده ويبتسم ابتسامة مرتبكة:

- مهلاً! اصفح عني إن كنتُ قد آلمتك. كان علي، كرسول، أن أبلغك الرسالة التي حملتها.

تناول ألكسي ألكسندروفتش يده، وقال بعد لحظة من الصمت:

- ينبغي أن أفكر في ذلك، أن أنتظر الإلهام. وستعلم جوابي النهائي بعد غد.

Tele: @Arab_Books

-١٩-

كان ستيفان أركادييفتش على وشك الخروج عندما أعلن «كورني»:

– سيرج الكسيفيتش!

وكاد ستيفان أركادييفتش يسأل:

«من ترى يكون سيرج ألكسيفيتش؟»، لكنه ما لبث أن تذكّر، وقال:

– آه! سيريوجا!

وفكّر في نفسه: «ظننت أنه رئيس أحد المكاتب. لقد طلبت آنا إلي أن أراه».

وتذكّر هيئتها الوجلة والمؤثرة عندما قالت له: «سوف تراه بكل تأكيد، وتستطيع أن تعرف ماذا يفعل، ومَنْ يعتني به. ثم يا ستيفان... إن كان ذلك ممكناً! أتظن ذلك ممكناً؟» وفهم ستيفان أركاديفتش ما معنى هذه الكلمات: إذا كان ممكناً أن تحصل، مع الطلاق، على حراسة الولد... كان ستيفان أركادييفتش يرى الآن

Tele: @Arab_Books

أنه لا ينبغي التفكير في ذلك، لكنه كان مسروراً أن يرى ابن أخته، مع هذا.

ذكّر ألكسي ألكسندروفتش أخا زوجته أنه لا يجوز الكلام على آنا أمام ابنها ورجاه ألا يُلمّح إليها من قريب أو بعيد.

قال ألكسي ألكسندروفتش:

– لقد مرض مرضاً شديداً بعد ذلك اللقاء بينه وبين أمه، وهو لقاء لم نتوقعه، حتى خفنا على حياته. لكن العلاج المناسب وحمامات البحر أعادت إليه صحته في هذا الصيف. وقد أدخلته المدرسة، هذا العام، بناء على نصيحة الأطباء. والواقع أن تأثير رفاقه كشف عن فائدته له. وهو في صحة تامة ويعمل جيداً.

– لكنه غدا رجلاً! ومن رأيي ألا يُسمى «سيريوجا» بعد الآن.

قال ستيفان أركاديفتش ذلك وهو يبتسم عندما رأى فتى صغيراً، جميلاً، حسن القامة، يدخل بثقة، وهو يرتدي سترة زرقاء وبنطالاً طويلاً. وكان الولد يبدو مبتهجاً، حسن الصحة. انحنى أمام خاله كما ينحني أمام الغريب، لكنه، عندما عرفه، احمرّ وسارع إلى الإشاحة بوجهه وقد بدا عليه الشعور بالإهانة والغضب. ثم دنا من أبيه وسلّمه العلامات التي نالها في المدرسة.

قال له أبوه:

– لابأس بذلك. هيا، تستطيع أن تذهب لتلعب.

Tele: @Arab_Books

قال ستيفان أركاديفتش:

- لقد غدا نحيلاً وطويلاً. إنه لم يعد طفلاً، بل هو فتى صغير. أحب ذلك. هل تذكرني؟

أدار الفتى الصغير عينيه بحدة إلى أبيه، وأجاب وهو ينظر إلى أوبلونسكي:

- نعم يا خالي.

وخفض عينيه مرة أخرى.

دعاه ستيفان أركاديفتش إلى جنبه وتناول يده، وسأله وهو راغب في أن يحمله على الكلام دون أن يعلم ما يقول:

- ماذا تفعل الآن، إذن؟

احمر الولد ولم يفه بكلمة. كان يسعى إلى أن يخلّص يده. وما إن أرخى خاله يده حتى ألقى نظرة مستفهمة على أبيه وهرب راكضاً، كالعصفور الذي أعيدت إليه حريته.

مضت سنة منذ أن رأى سيريوجا فيها أمه آخر مرة. ومنذ ذلك الوقت، لم يسمع أحداً يذكرها. ثم أرسل إلى المدرسة، فتعرّف بالأولاد من لِداته، وأحبهم. أما الأحلام والذكريات التي أمرضته فلم تعد تشغله. فإذا عاودته ردّها بعناية لأنه يراها مخجلة، جديرة بالبنات لا بالطالب الفتى. كان يعلم أن خصاماً فصل بين أهله، وأن عليه أن يبقى مع أبيه، فيحاول جاهداً أن يألف هذه الفكرة.

Tele: @Arab_Books

لقد شقّ عليه أن يرى خاله الذي يشبه أمه لأن ذلك يوقظ فيه ذكريات يراها مخجلة. وزاد من هذه المشقة أنه استشف، من خلال الكلمات التي التقطها بينما كان يتسمّع عند الباب، ومن تعبير أبيه وخاله بخاصة، أنهما قد تحدّثا عن أمه. ولكي لا يتحتّم عليه أن يحكم على أبيه الذي يعيش معه ويرتبط به، ولكي لا يُسلم نفسه إلى تلك الحساسية الزائفة التي يقدّر أنها مزرية، فقد حاول جاهداً ألا ينظر إلى خاله الذي جاء يشوّش هدوءه، وألا يفكر فيما يُعيده هذا الخال إلى ذاكرته.

لكن عندما لقيه ستيفان أركادييفتش على الدرج، وهو يترك زوج أخته، وسأله بم يلعب أثناء الفرصة، بدا سيريوجا، وهو بعيد عن أبيه، أكثر ثرثرة. وقال:

– في هذه الآونة، نحن نلعب لعبة السكة الحديدية. هكذا: يجلس اثنان على مقعد. إنهما المسافران. ويصعد عليه ثالث، ويتعلّق به الآخرون. ونحن نجره خلال القاعة بأيدينا أو بأحزمتنا، ونفتح مسبقاً جميع الأبواب، لكن من الصعب القيام بدور السائق.

سأله ستيفان أركادييفتش وهو يبتسم:

– ذاك الذي يظلّ واقفاً؟

– نعم، يجب أن يكون شجاعاً وحاذقاً، ولا سيما عندما يقف الآخرون فجأة، أو عندما يسقط أحدهم.

قال ستيفان أركاديفتش وهو ينظر بحزن إلى هاتين العينين

Tele: @Arab_Books

المملوءتين بالحياة اللتين تشبهان عيني أمه واللتين فقدنا شيئاً من براءتهما الطفولية:

– نعم، ليس ذلك مريحاً.

ومع أنه وعد ألكسي ألكسندروفتش ألا يحدّثه عن أمه، فلم يَفِ بوعده، وسأله فجأة:

– أتذكر أمك؟

فأجاب سيريوجا بحدة:

– لا.

وعلته الحمرة وخفض عينيه. ولم يستطع خاله، هذه المرة، أن يستخلص منه شيئاً.

عندما وجد المربّي الصربي، بعد نصف ساعة، تلميذه على الدرج، لم يستطع أن يفهم إن كان يبكي أو إن كان حَرِداً. فقال له:

–لا شك أنك توجعتَ حين وقعتَ. لقد قلت لك: إن هذه اللعبة خطرة. ينبغي أن أكلّم المدير.

– لو كنتُ توجعتُ لما لاحظ ذلك أحد. كن واثقاً من ذلك.

– ما بكَ، إذن؟

فردد قائلاً وكأنه يخاطب العالم أجمع، هذه المرة:

– دعْني... أتذكرتُ أم لم أتذكر، ماذا يهمّه من ذلك؟ ولَمَ أتذكّر، يا ترى؟ دعني وشأني!

Tele: @Arab_Books

-٢٠-

استخدم ستيفان أركادييفتش وقته في بطرسبرج أحسن استخدام، كما هو شأنه دائماً. ففضلاً عن أعماله: طلاق أخته والوظيفة التي يسعى إليها، كان لا بدَّ له، كما قال، من أن يروّح عن نفسه، بعد تلك الإقامة في عَفَن موسكو.

ذلك أن موسكو، بالرغم من مقاهي الغناء فيها ومن عرباتها، لم تكن سوى مستنقع آسن، وكان ستيفان أركادييفتش يحس بذلك. فعندما قضى فيها بعض الوقت، ولا سيما بجوار أسرته خُيّل إليه أنه غدا خامد العزم، فاتر الهمة. وبعد أن طالت إقامته في موسكو انتهى به الأمر إلى انشغال باله بمزاج امرأته المتبرم وبلومها، وبصحة الأولاد وتربيتهم، وبتفاصيل عمله التافهة؛ بل لقد أخذ بالُه ينشغل بديونه. لكن كان يكفيه أن يصل إلى بطرسبرج، وأن يقيم فيها عدة أيام، في الحلقة التي يُتاح له الدخول إليها والتي يعيش فيها المرء حقاً بدلاً من أن يتعفّن، كما هي الحال في موسكو، حتى تغيب جميع أفكاره وتذوب كما يذوب الشمع إذا لامس النار.

المرأة؟... لقد تحدّث اليوم بالذات مع الأمير «تشيتسنسكي» وقد كانت له أسرة أخرى غير زوجته وأولاده. ومع أن أسرته الشرعية كانت

Tele: @Arab_Books

محببة إليه، إلا أنه كان يحس بقسط أكبر من السعادة في أحضان الأسرة الثانية. ولقد أدخل ابنه الشرعي البكر الأسرة الثانية، وبيّن لستيفان أركادييفتش أنه يجد ذلك مفيداً جداً لنمو الفتى. فكم سيتقوّل الناس في موسكو على ذلك! الأولاد؟... الأولاد هنا لا يمنعون الرجل من أن يحيا. إذ يُعهد بتربيتهم إلى المؤسسات، ولا توجد في بطرسبرج تلك الفكرة الغريبة والمنتشرة في موسكو (عند آل لفوف، مثلاً) والتي بموجبها يستأثر الأولاد بحق الرفاهية بينما يكون العمل والهموم من نصيب الأبوين. الناس، هنا، يدركون أن من حق الإنسان، باعتباره مخلوقاً متحضّراً، أن يعيش لذاته.

الخدمة؟... ليست الخدمة هنا ذلك العبء المزعج الذي يجرجره المرء خلفه في موسكو؛ الخدمة هنا ممتعة. إن موعداً، وجميلاً يُسدى، وكلمة ظريفة، وتبديلاً في ملامح الوجه، إن ذلك جدير بأن يوصل صاحبه إلى منصب متألق، كما هي الحال مع «بريانتسيف» الذي لقيه ستيفان أركادييفتش البارحة والذي يشغل مركزاً إدارياً رفيعاً.

لكن ما عزّى ستيفان أركادييفتش، على وجه الخصوص، هو الطريقة التي ينظر بها أهل بطرسبرج إلى أمور المال. إن «بارتنيانسكي» الذي بدد خمسين ألف روبل على الأقل بسبب حياة البذخ التي يحياها، قد أبدى له، بهذه المناسبة، فكرة مثقفة.

فقَبْل العشاء بالضبط، قال ستيفان أركادييفتش لبارتنيانسكي، بينما هما يتحدّثان:

– أظن أنك حسن الصلة بموردفنسكي؛ ويمكن أن تؤدي لي خدمة

Tele: @Arab_Books

كبيرة لو قلتَ له كلمة من أجلي. هناك وظيفة أحب أن أشغلها. عضو وكالة...

– لا يهمّني الاسم، وسوف أنساه حتماً. لكن كيف خطر ببالك أن تحشر نفسك في قضية السكك الحديدية هذه مع هؤلاء اليهود!... قلْ ما شئتَ، لكن هذا المركز ليس برّاقاً.

لم يقل له ستيفان أركاديفتش إنه يجد هذا العمل ممتعاً، فما كان «بَارتيانسكي» ليفهمه، وإنما قال:

– أنا بحاجة إلى المال، وليس لدي ما أعيش به.

– أنت تعيش مع ذلك؟

– صحيح، لكن علي ديوناً.

سأله بارنياتسكي وقد بدت عليه الرأفة.

– ماذا! أهي كثيرة؟

– نعم، حوالي عشرين ألف روبل.

غرق بارتيانسكي في ضحك فرح، وهتف:

– أوه! يا لك من رجل سعيد! علي، أنا، مليون ونصف، وليس بين يدي فلس واحد؛ وها أنت ترى أن صحتي ليست أسوأ، من جرّاء ذلك!

Tele: @Arab_Books

لاحظ ستيفان أركاديفتش صحة هذا الكلام. فقد كان جيفاكوف مديناً بثلاثين ألف روبل، و لم يكن معه روبل واحد، وظلّ يعيش حياته المترفة! وكان الكونت كريستوف، وهو في عسرٍ شديد، منذ وقت طويل، ينفق على عشيقتين. وبدّد بيتروفسكي خمسة ملايين، وظل مع ذلك يعيش حياة البذخ نفسها، بل ويدير مشروعاً مالياً يدرّ عليه عشرين ألف روبل في السنة. لكن بطرسبرج، بالرغم من ذلك كله، أثّرت تأثيراً حسناً في صحة ستيفان أركاديفتش. كان يستعيد شبابه. كان في موسكو، يلقي بين الحين والحين نظرة على شعره الرمادي، وينام بعد العشاء، ويجر ساقه جراً، وينفخ وهو يصعد السلّم، ويضجر بصحبة النساء الفتيات، ولا يرقص في الحفلات. لقد خالجه الإحساس نفسه الذي كاشفه به أمس بالذات الأمير بيير أوبلونسكي، وهو ابن ستين، وقد عاد من الخارج. قال له بيير أوبلونسكي:

– نحن، هنا، لا نعرف كيف نعيش. صدّقني إذا شئت، لقد قضيت الصيف في «بادن» وأحسستُ هناك أنني شاب. إن مرأى امرأة حلوة كان يثيرني... وعشاء مع قليل من الشراب كان يبعث القوة فيّ. فلما وصلتُ إلى روسيا، كان لا بدَّ لي من زيارة امرأتي، وفوق ذلك كله في الريف... وفي مدى خمسة عشر يوماً، عدتُ إلى مبذلي، و لم أعد أرتدي ثيابي للعشاء. ذهب الشباب! ورجعتُ شيخاً. لم يبق لي إلا أن أفكّر في خلاص روحي. فقمت بجولة إلى باريس وردّ ذلك علي صحتي مرة أخرى.

كان ستيفان أركاديفتش يحسّ بالفرق نفسه. ففي موسكو، كان يتهاون بالقيام بحق نفسه إلى حدٍّ بعيد بحيث لو قُدّر له أن يعيش

Tele: @Arab_Books

طويلاً هناك فلربما انتهى به الأمر (وكل شيء ممكن) إلى أن ينشغل بخلاص روحه؛ أما في بطرسبرج فقد كان يغدو رجلاً مناسباً.

كانت بين الأميرة بيتسي تفيرسكوي وستيفان أركاديفتش روابط قديمة وغريبة حقاً. فقد غازلها دائماً، على سبيل المزاح، وكان يقول لها، على سبيل المزاح أيضاً، أشد الأشياء بذاءة، لعلمه أن هذا هو الذي يسرّها قبل غيره. وفي اليوم التالي لحديثه مع ألكسي ألكسندروفتش، أحس، أثناء زيارته لها، بأنه في ذروة شبابه، ومضى بعيداً في هذا الهزل الفاحش، حتى إنه لم يعلم كيف يتراجع، ذلك أنها، لم تكن، لسوء الحظ، تعجبه، بل إنها كانت تثير اشمئزازه، وقد توطّدت هذه اللهجة بينهما، لأن بيتسي كان تجده، في المقابل، ملائماً لذوقها. ولذلك اغتبط بمقدم الأميرة مياغكوي التي وضعت حداً لخلوتهما.

قالت له وهي تلمحه:

– آه! أنتَ أيضاً، هنا. وماذا حلّ بأختك المسكينة؟

وأضافت:

– لا تنظر إليّ هكذا. فمنذ أن رأيت نساء يفعلن أسوأ من فعلتها بألف مرة، ثم يقذفنها بحجارتهن، صرتُ أرى سلوكها رائعاً. لا يمكن أن أغفر لفرونسكي أنه لم ينبئني بمروره في بطرسبرج. إذن لزرتُه ولطفتُ به في كل مكان. بلّغه تحياتي. حدّثني عنها.

بدأ ستيفان أركاديفتش كلامه وقد صدّق لسذاجته ما قالته الأميرة مياغكوي: «حدّثني عن أختك»:

– إن وضعها مؤلم جداً، فهي...

Tele: @Arab_Books

لكن الأميرة ما لبثت أن قاطعته، على عادتها، واسترسلت في تعليقاتها:

– لقد فعلت ما تفعله النساء جميعاً، ما عداي، وهن مختبئات؛ لم تشأ أن تستخدم الحيلة وهذا جميل جداً. وخيراً فعلت حين تركت فجأة ذلك الغبي، صهرك. اعذرني. الناس جميعاً كانوا يقولون: إنه ذكي، وأنا وحدي كنتُ أؤكد أنه غبي. والناس جميعاً الآن يقولون عنه بعد أن توثقت العلاقة بينه وبين ليديا إيفانوفنا و«لاندو»: إنه مختلّ، يسعدني ألا أشاطر الناس رأيهم، لكن ذلك غير ممكن، هذه المرة.

قال ستيفان أركادييفتش:

– اشرحي لي، أرجوك، ما معنى الشيء التالي: لقد زرتُه أمس لأكلّمه في شأن أختي ولأطلب منه جواباً أكيداً. فلم يعطني الجواب وقال لي: إنه سيفكّر؛ وإذا بي أتلقى، في هذا الصباح، بدلاً من الجواب، دعوة إلى سهرة الكونتيسة ليديا إيفانوفنا.

فهتفت الأميرة مياغكوي فرحة:

– صحيح، وهو كذلك! سوف يستشيرون «لاندو».

– لاندو؟ لماذا؟ ومَنْ هو؟

– كيف ألا تعرف «جول لاندو»؟ جول لاندو العرّاف الشهير[٤٧]؟ وهو أيضاً مختل. لكن مصير أختك يتوقف عليه. هذه نتيجة الحياة في

٤٧– جول لاندو: شخصية خيالية لكنها نموذجية؛ فقد ذاع في بطرسبرج، في هذه الحقبة، أمر العارفين بالمستقبل ومستحضري الأرواح الأجانب، الفرنسيين والإنكليز.

Tele: @Arab_Books

المقاطعة، فلستَ مطلعاً على شيء. لاندو هذا كان موظفاً في متجر بباريس. وذات يوم ذهب لاستشارة الطبيب. وفي صالة الانتظار نام، وأثناء نومه، أخذ يزجي النصائح للمرضى. نصائح مذهلة. ثم إن زوجة «يوري ميليدنسكي» (أتعرفه، المريض؟) علمتْ بوجود لاندو هذا، ودعته ليكون قرب زوجها. فيعتني به. وبرأيي أنه لم ينفعه في شيء لأنه ما يزال واهن القوى، لكنهم يؤمنون به ويأخذونه أينما ذهبوا. وقد جاؤوا به إلى روسيا. وهنا، ارتمى الناس عليه، وأرادوا أن يتعالجوا على يديه. ولقد شفى الكونتيسة «بيزوبوف» فشُغِفت به شغفاً كبيراً حتى تبنّته.

– تبنّته؟

– نعم. ولم يعد اسمه «لاندو»، بل الكونت بيزوبوف. لكن ليس هذا ما يعنينا. وبطبيعة الحال فإن ليديا إيفانوفنا قد تعلّقت بعنق «لاندو» هذا، (وأنا أحبها كثيراً لكنها لا تعرف ما تفعل)؛ ولا شيء عندها أو عند ألكسي ألكسندروفتش يتقرّر بدونه، ولذلك فإن مصير أختك هو الآن بين يدي لاندو، أو بتعبير آخر بين يدي الكونت بيزوبوف.

Tele: @Arab_Books

-٢١-

بعد عشاء فاخر، وكمية كبيرة من الكونياك شربها ستيفان أركاديييفتش عند بارتنيانسكي، حضر إلى منزل الكونتيسة ليديا إيفانوفنا، مع شيء من التأخر.

سأل الحاجب وهو يلحظ قرب معطف ألكسي ألكسندروفتش، معطفاً غريباً، بسيط التفصيل وله مشابك:

– مَنْ عند الكونتيسة؟ الفرنسي؟

فأجابه الحاجب بقسوة:

– ألكسي ألكسندروفتش كارينينا والكونت بيزوبوف.

وفكّر ستيفان أركاديييفتش وهو يصعد الدرج: «لقد حزرتْ الأميرة مياغكوي. غريب! هذه امرأة يجب أن أوطّد علاقتي بها. إنها ذات تأثير كبير. ولو أنها همست بكلمة إلى بومورسكي، لتأكدتُ من نجاح قضيتي».

كان نور النهار ما يزال قوياً في الخارج، لكن الستائر في القاعة الصغرى من منزل الكونتيسة ليديا إيفانوفنا كانت مسدلة والأنوار مضاءة.

Tele: @Arab_Books

كان يجلس قرب المنضدة، بجنب المصباح، الكونتيسة ليديا إيفانوفنا وألكسي ألكسندروفتش وهما يتحدثان بصوت خافت. وفي الطرف الآخر من القاعة، جلس رجل قصير، هزيل الجسم، أنثوي القوام، أصدف الساقين، شديد الشحوب، ذو وجه وسيم، وعينين جميلتين، براقتين، وشعر طويل ساقط حتى ياقة سترته، يتأمّل الصور المعلقة على الجدار. بعد أن سلّم ستيفان أركادييفتش على ربة البيت وعلى ألكسي ألكسندروفتش، ألقى، بالرغم منه، نظرة صوب الغريب.

نادت الكونتيسة بعذوبة ومراعاة أذهلتا أوبلونسكي:

– يا سيد لاندو.

وعرّفتهما أحدهما بالآخر.

التفت لاندو على عجل، وأقبل عليهم، ووضع، وهو يبتسم، يده اليمنى، الهامدة في يد ستيفان أكاديفتش على مكان بجنب كارينينا:

– أنا سعيدة برؤيتك، وبخاصة اليوم.

وتابعت بصوت منخفض بعد أن ألقت نظرة سريعة على الفرنسي ثم على ألكسي ألكسندروفتش:

– لقد قدّمته لك باسم «لاندو»، وإنما هو الكونت بيزوبوف، كما تعلم ذلك بدون شك. إنه لا يحب هذا اللقب.

أجاب ستيفان أركادييفتش:

Tele: @Arab_Books

– نعم، أنا على علم بذلك. يبدو أنه شفى الكونتيسة بيزوبوف شفاء تاماً.

قالت الكونتيسة وهي تلتفت نحو ألكسي ألكسندروفتش:

– جاءت لزيارتي اليوم. منظرها مؤلم. هذا الفراق فظيع عليها. إنه صدمة شديدة!

سألها ألكسي ألكسندروفتش:

– إذن فقد قرر أن يذهب.

قالت الكونتيسة ليديا إيفانوفنا وهي تنظر إلى ستيفان أركاديفتش:

– نعم، سيسافر إلى باريس. لقد سمع صوتاً أمس.

فردد أوبلونسكي وقد أحس بوجوب التزام أعظم الحذر في مجتمع حدثت فيه أو ستحدث فيه أحداث لا يملك مفتاحها بعد:

– آه! نعم، سمع صوتاً!

وران الصمت دقيقة قالت الكونتيسة بعدها وهي تبتسم لأوبلونسكي، وكأنها تتطرّق إلى الموضوع الجوهري لحديثهما:

– إني أعرفك منذ زمن بعيد وأنا سعيدة بأن أراك في جلسة أقرب إلى الخصوصية. إن أصدقاء أصدقائنا هم أصدقاؤنا. لكن، لكي نكون أصدقاء يجب أن ننفذ إلى نفس الذي نحبّهم، وأخشى ألا تكون قد فعلتَ ذلك بالنسبة إلى ألكسي ألكسندروفتش.

Tele: @Arab_Books

واستأنفت وهي ترفع إليه عينين متأملتين:

– أنت تفهم ما أعنيه.

قال أوبلونسكي، دون أن يفهم بالضبط الغرض من كلامها، مع حرصه، من ثمّ، على أن يظلّ في العموميات:

– إني أفهم جزئياً، يا كونتيسة، أن وضع ألكسي ألكسندروفتش..

قالت الكونتيسة ليديا إيفانوفنا بلهجة قاسية، وهي تلاحق بنظرتها المولّهة ألكسي ألكسندروفتش الذي قام ودنا من «لاندو»:

– لستُ أتحدّث عن التغيّر الخارجي. إن قلبه هو الذي تغيّر. لقد مُنح قلباً جديداً وأخشى ألا تدرك تماماً مدى التغير الذي طرأ عليه.

– يعني أنني أستطيع أن أتصور هذا التغير في خطوطه العامة. فقد كنا دائماً متصافيين والآن...

قال ستيفان أركادييفتش ذلك وهو يردّ على نظرة الكونتيسة بنظرة رقيقة. وكان يتساءل: بأي الوزيرين هي أعرف حتى يسألها التوسط له عنده.

– إن هذا التغير الذي حدث في كيانه لا يمكن أن يُضعف حبّه للقريب؛ على العكس، إنه لا يمكن إلا أن ينمّ الحب فيه. لكنني أخشى ألا تفهمني.

وأضافت وهي تشير بنظرتها إلى خادم يحمل صينية:

Tele: @Arab_Books

– أأُقدم لك شاياً؟

– لم أفهمك كل الفهم، يا كونتيسة... فلا شك أن مصيبته...

قالت وهي تنظر إلى ستيفان أركادييفتش نظرة ذابلة:

– مصيبة غدت سعادته الكبرى، لأن قلبه قد تجدد وامتلأ «به».

قال ستيفان أركادييفتش في نفسه: «أعتقد أنني يمكن أن أسألها التشفّع لي بكلمة عند الاثنين». قال:

– بالتأكيد، يا كونتيسة، لكن يلوح لي أن هذه التغيّرات هي في أعماق الذات بحيث لا يحب أحد، حتى أقرب الأصدقاء، أن يحدّثك عنها.

– على العكس! يجب أن نتحدّث عنها وأن نتعاون.

قال أوبلونسكي وهو يتكلّف ابتسامة لطيفة:

– نعم، ولا شك، لكن هناك اختلافاً في الآراء، ثم إن...

– لا يمكن أن يكون هناك اختلاف في الآراء عندما يدور الكلام على الحقيقة المقدسة.

– بالطبع، بيد أن....

صمت ستيفان أركادييفتش، وقد ارتبك. لقد أدرك أن المقصود هو الدين.

Tele: @Arab_Books

قال ألكسي ألكسندروفتش بصوت خافت وبوقار وهو يدنو من ليديا إيفانوفنا:

– يبدو لي أنه سينام بين لحظة وأخرى.

التفتَ ستيفان أركادييفتش. كان «لاندو» جالساً قرب النافذة، متكئاً بمرفقه على ذراع المقعد، خافض الرأس، شاعراً بالنظرات المتّجهة إليه. رفع رأسه وابتسم ابتسامة صبيانية وساذجة.

قالت ليديا إيفانوفنا:

– لا تنتبه إليه.

وقدّمت كرسياً لألكسي ألكسندروفتش بحركة رشيقة.

واستأنفت:

– لقد لاحظتُ...

لكنها رأت خادماً يدخل ومعه رسالة، فقرأتها بسرعة، وبعد أن اعتذرت، كتبتْ عدة أسطر بسرعة خارقة، وسلَمت الخادم الجواب، وعادت إلى الطاولة، وتابعت كلامها:

– لقد لاحظتُ أن أهل موسكو، ولا سيما الرجال، أقل الناس مبالاة بمسائل الدين.

فاحتج ستيفان أركادييفتش قائلاً:

Tele: @Arab_Books

- أوه! لا، يا كونتيسة، يبدو لي أن أهل موسكو مشهورون بصلابتهم في هذه المسالة.

قال ألكسي ألكسندروفتش وهو يلتفت إليه وعلى وجهه ابتسامة متعبة:

- وإذا كنتُ قد أحسنت الفهم، فأنت في عداد اللامبالين.

قالت ليديا إيفانوفنا:

- كيف يجوز أن يكون الإنسان غير مبال!

فرد ستيفان أركادييفتش وهو يبتسم ابتسامة مُهدّئة:

- أنا، من هذه الناحية، في طور الانتظار على الأقل، إن لم أكن غير مبال. وأعتقد أن الأوان لم يحن بعد، بالنسبة إلي، للتفكير في هذه المسائل.

تبادل ألكسي ألكسندروفتش وليديا إيفانوفنا نظرة سريعة.

- لا يمكننا أبداً أن نعلم إن كان الأوان قد حان أم لا: ينبغي ألا نتساءل إن كنا مستعدين أم لا: فالنعمة لا تخضع للاعتبارات البشرية؛ وهي تُهمل أحياناً الذين يتوقون إليها وتهبط على الذين لم يستعدوا لها، مثل «شاول».

قالت ليديا إيفانوفنا التي كانت تتابع منذ بعض الوقت حركات الفرنسي:

Tele: @Arab_Books

- لا، أعتقد أن الوقت المناسب لم يحنْ بعد.

نهض لاندو والتحق بهم. وسأل:

- أتسمحون لي بالاستماع.

قالت ليديا إيفانوفنا وهي تنظر إليه نظرة حنونة:

- أوه! نعم، ما كنتُ أريد أن أزعجك. اجلس بقربنا.

واستأنف ألكسي ألكسندروفتش:

- يجب فقط ألا نغمض عيوننا، حتى لا نُحرم النور.

قالت ليديا إيفانوفنا بابتسامة النشوة:

- آه! ليتك تعرف السعادة التي تخالجنا عندما نحسّ «حضوره» في نفوسنا.

قال ستيفان أركادييفتش:

لكن قد يرى الإنسان نفسه عاجزاً عن الصعود إلى هذا العلو.

وأحس أنه يخالف ضميره حين يسلّم بسموّ الدين، وفي الوقت ذاته، لم يشأ أن يطرح نفسه كمفكر حر، أمام شخص يمكنه بكلمة أن يحصل له على المركز الذي يصبو إليه.

قالت ليديا إيفانوفنا:

Tele: @Arab_Books

– تريد أن تقول، من غير شك، إن الخطيئة تحول بينه وبين ذلك الارتفاع؟ وتلك فكرة خاطئة. لا خطيئة، بالنسبة إلى المؤمنين، لأن الخطيئة قد افتديَت.

وأضافت وهي ترى الخادم يدخل ومعه رسالة أخرى:

– عفواً.

قرأت الرسالة وأجابت الخادم شفهياً: «قلْ له إنني سأكون غداً عند الدوقة العظمى».

وأردفت:

– لا، لا خطيئة بالنسبة على الذين يؤمنون.

قال ستيفان أركادييفتش:

– نعم لكن الإيمان بدون الأعمال إيمان ميت[٤٨].

لقد تذكّر هذه الجميلة من كتاب التعليم المسيحي، ولم يدلّ على شخصيته المستقلة إلا في ابتسامته.

قال ألكسي ألكسندروفتش وهو يلتفت إلى ليديا إيفانوفنا بشيء من العتب. والظاهر أنهما تحدّثا غير مرة من قبل حول هذا الموضوع:

– انظري إلى ذلك المقطع الشهير من رسالة الرسول يعقوب. فكم

٤٨– الإيمان بدون أعمال إيمان ميت: إشارة إلى رسالة يعقوب الرسول: ٢ –١٧.

Tele: @Arab_Books

أساء التأويل الخاطئ إليه! لا شيء أبعد عن الإيمان من هذا التأويل. «لست أعمل، إذن فأنا لا أستطيع أن أكون مؤمناً». مع أن ذلك لم يرد في أي موضع. والنص يعني عكس ذلك.

قالت الكونتيسة ليديا إيفانوفنا وقد بدا عليها الاشمئزاز والازدراء:

– إن الكدّ في سبيل الله، وخلاص الروح بالصيام، إن ذلك من أضاليل الرهبان... في حين أن ذلك لم يرد الأمر به في أي مكان.

وأردفت وهي تنظر إلى أوبلونسكي وهي تبتسم تلك الابتسامة المشجّعة التي تصطنعها في البلاط لتشدّ من عزيمة الوصيفات اللواتي يضطربن من المراسم:

– والأمر أبسط وأسهل كثيراً.

فأيّد ألكسي ألكسندروفتش قولها وهو يوافق عليه بنظرته:

– إن المسيح خلّصنا وهو يتألم من أجلنا.

سألت ليديا إيفانوفنا:

– أتعرف الإنكليزية؟

ولما تلقّت رداً إيجابياً. نهضت واتجهت إلى رفّ، وقالت وهي تلقي على كارينينا نظرة مستفهمة:

– سأقرأ عليك «سليمة وسعيدة» و«في ظل الجناح».

وحين وجدت الكتاب، عادت وجلست:

Tele: @Arab_Books

– النص قصير. وهو يصف الوسيلة لامتلاك الإيمان، وتلك السعادة فوق الأرضية التي تكتسح النفس. إن الإنسان الذي يؤمن لا يمكن أن يكون تعساً، لأنه ليس وحيداً. سوف ترى.

كانت تستعد للقراءة عندما دخل الخادم مرة أخرى، وقالت له بعد أن حدّدت المقطع بإصبعها، وحدّقت أمامها بعينيها الجميلتين المتأملتين:

– السيدة بوروزدين؟ قل لها إني سأذهب إليها غداً، في الساعة الثانية.

وتابعت قائلة لأوبلونسكي:

– انظر كيف يفعل الإيمان الحقيقي. أتعرف ماري سانين؟ أعلمتَ بمصيبتها؟ لقد فقدتْ ابنها الوحيد. كانت في أشد الأسى. فماذا جرى لها؟ لقد وجدت العزاء، وهي الآن تشكر الله على موت ابنها. هذه هي السعادة التي يوفّرها الإيمان.

قالت ستيفان أركادييفتش وقد اغتبط بهذه القراءة التي ستتيح له أن يتمالك نفسه قليلاً:

– أوه! نعم، هذا...

وفكّر في نفسه: «لا، قطعاً، الأفضل ألا أسألها شيئاً اليوم. المهم أن أمضي من هنا قبل أن أضل سبيلي كلياً».

قالت الكونتيسة ليديا إيفانوفنا مخاطبة «لاندو»:

Tele: @Arab_Books

– سيُضجرك هذا، فأنت لا تعرف الإنكليزية. لكن النص قصير.

أجاب «لاندو» والابتسامة لا تفارقه:

– أوه! سوف أفهم.

وأغمض عينيه.

تبادل ألكسي ألكسندروفتش وليديا إيفانوفنا نظرة بليغة الدلالة، وابتدأت القراءة.

Tele: @Arab_Books

-٢٢-

تحيّر ستيفان أركاديفتش كلياً من هذه الأحاديث التي سمعها. إن تعقّد حياة بطرسبرج كان يستثيره، في معظم الوقت، بعد خروجه من ركود موسكو، لكنه لم يكن يفهم ويقدّر هذا التعقّد إلا في الحلقات التي ألفها. أما في هذا الوسط الغريب فقد كان يحس بأنه ضل السبيل وقصّر عن الفهم. لقد أخذ الثقل يدبّ إلى رأسه، وهو يستمع إلى ليديا إيفانوفنا أو يحس بعيني «لاندو» الساذجتين أو المنافقتين (لم يكن يعلم شيئاً عن ذلك) تحدّقان فيه.

اختلطت في ذهنه أشد الأفكار تنوّعاً. «ماري سانين تفرح بموت ابنها... ما ألذّ التدخين في هذه اللحظة... يكفي الإنسان أن يؤمن حتى يلاقي الخلاص، والرهبان لا يعرفون كيف يتم ذلك؛ الكونتيسة ليديا إيفانوفنا تعلم، وهي... لمَ ثقلَ رأسي؟ أمن الكونياك أم من غرابة ذلك كله؟ أرجو ألا أكون قد ارتكبت أية فظاظة. لكن ليس الوقت مناسباً لكي أسألها أن تُسدي إلي خدمة. يُقال إنهم يجبرون المرء على تلاوة الصلوات. بشرط ألا يطلبوا ذلك مني. سيكون ذلك مضحكاً جداً. أية سخافة تقرأ لي، لكنها تحسن الأداء. «لاندو» يُدعى بيزوبوف، لمَ يا ترى؟ وفجأة أحس ستيفان أركاديفتش أن فكه

Tele: @Arab_Books

الأسفل ينخفض في تثاؤبه انخفاضاً لا سبيل إلى ردّه. فداعب سالفيه ليخفي تثاؤبه، وهزّ نفسه. لكنه أحس، في اللحظة التي تلت، أنه قد بدأ ينام وأنه يوشك أن يشخر. لكنه صحا في اللحظة ذاتها التي كانت الكونتيسة ليديا إيفانوفنا تقول فيها: «إنه ينام».

حملق فيها بوجه مرتعب، كالمجرم الذي فوجئ بالجرم المشهود. وعادت إليه سكينته عندما تبين أن هاتين الكلمتين: «إنه ينام» كانتا تنطبقان على «لاندو» لا عليه. لقد غفا الفرنسي كما غفا ستيفان أركادييفتش. لكن نوم ستيفان أركادييفتش كان سيشعرهما بالإهانة (هذا ما فكر فيه، على الأقل، بل إنه لم يفكر في ذلك، لفرط ما بدا له كل شيء غريباً)، بينما كان نوم لاندو يغمرهما بالفرح، ولا سيما الكونتيسة ليديا إيفانوفنا.

قالت الكونتيسة ليديا إيفانوفنا وهي ترد ثنيات ثوبها الحريري إلى مكانها بحذر حتى لا تحدث ضجة، وتدعو ألكسي ألكسندروفتش، في غمرة هياجها، يا صديقي بدلاً من أن تدعوه باسمه:

– يا صديقي، أعطه يدك. أترى؟

وقالت للخادم الذي ظهر من جديد:

– صَهْ! لستُ فارغة لأحد.

كان الفرنسي ينام أو يتظاهر بالنوم؛ كان رأسه مستنداً إلى مسند المقعد، وهو يحرك يده الموضوعة على ركبته بحركات خفيفة كأنه يريد أن يلتقط شيئاً. نهض ألكسي ألكسندروفتش وصدم المنضدة بالرغم

Tele: @Arab_Books

من احتراسه ووضع يده في يد الفرنسي. نهض ستيفان أركادييفتش بدوره، وفتح عينيه واسعاً ليتأكد من أنه لم يكن ينام وألقى نظرته على هذا تارة وعلى ذاك تارة أخرى. وأخذ يحس أن كل شيء يسير من سيّئ إلى أسوأ داخل جمجمته.

قال الفرنسي دون أن يفتح عينيه:

– ليخرج الشخص الذي وصل أخيراً، الشخص الذي يطلب... ليخرج!

– اعذره، لكنك ترى... ارجع في نحو العاشرة، والأفضل أن ترجع غداً.

وكرر الفرنسي بشيء من نفاد الصبر:

– ليخرجْ!

قال ستيفان أركادييفتش:

– أنا، أليس كذلك؟

وحين تلقى الرد بالإيجاب، نسي ما أراد أن يطلب من ليديا إيفانوفنا، ونسي أخته ذاتها، وانسلّ خارجاً وبه رغبة واحدة وهي أن يُفلت من هذا المكان بأسرع ما يمكن. هبط الدرج على عجل وكأنه يهرب من بيت مصابٍ بالطاعون، وثرثر ومازح الحوذي طويلاً كأنه يريد أن يستردّ توازنه.

وفي المسرح الفرنسي، حيث وصل في الفصل الأخير، ثم عند

Tele: @Arab_Books

«التر» حيث تناول زجاجة من الشمبانيا، تنفّس أخيراً الهواء المألوف لديه. لكنه أحس بالانزعاج طوال السهرة.

عندما رجع إلى منزل «بيير أوبلونسكي» الذي نزل عنده، لقي كلمة من «بيتسي» تقول فيها إنها تتوق إلى استئناف الحديث الذي انقطع وترجوه أن يأتي في اليوم التالي. و لم يكد يقرأ الرسالة وهو يقطّب بين حاجبيه حتى سمع في الأسفل خطوات وئيدة لناس يحملون شيئاً ثقيلاً.

خرج ستيفان أركادييفتش ليتطلّع. فإذا بيير أوبلونسكي الذي استعاد شبابه من غير شك. ذلك أنه كان ثملاً إلى حدٍّ لم يستطع معه أن يصعد الدرج؛ لكنه عندما شاهد ابن أخيه أمر أن يُسند. وتعلّق بستيفان أركادييفتش، واتجه إلى غرفته حيث أخذ يروي له كيف قضى أمسيته، ثم أغفا.

أحس ستيفان أركادييفتش أنه مهدود القوة، وقلما كان يقع له ذلك. وظل برهة طويلة دون أن يجد إلى النوم سبيلاً. كانت ذكريات النهار كلها تبدو له قذرة، ولا سيما الأمسية عند ليديا إيفانوفنا.

في اليوم التالي، تلقى ألكسي ألكسندروفتش رفضاً قاطعاً للطلاق. وفهم أن هذا القرار كان مبنياً على ما قاله الفرنسي البارحة في نومه الحقيقي أو المصطنع.

Tele: @Arab_Books

-٢٣-

للشروع في أي شيء داخل الأسرة، لا بدّ إما من الخلاف الكلي بين الزوجين أو من الوئام القائم على المحبة. لكن عندما ينعدم الخلاف والوئام، وتظل العلاقات بين الزوجين غير محددة، فمن المستحيل التفكير الجدي في أي مشروع.

إن عائلات كثيرة تظل سنين كاملة في موضع غدا كريهاً على الزوجين، لسبب وحيد وهو أنه ليس بين الزوجين شقاق أو وفاق.

كانت الحياة في موسكو، في الحرارة والغبار، لا تطاق، بالنسبة إلى فرونسكي وإلى آنا. كانت الشمس محرقة كأنها شمس الصيف، مع أن الفصل ما يزال ربيعاً، وقد اكتست أشجار الشوارع أوراقها منذ زمن بعيد، وتغطّت أوراق الأشجار بالغبار؛ لكن بدلاً من أن يذهبا إلى «فوزد فيجنسكوي»، كما قررا من قبل، بقيا في هذه المدينة الكريهة عليهما لأن الشقاق أخذ يدبّ بينهما.

إن الغيظ الذي دفعهما إلى المواجهة لم يكن له أي سبب خارجي، وجميع محاولات التفاهم لم تعجز عن تبديد ذلك الغيظ فحسب بل إنها زادته تفاقماً. لقد كان غيظاً داخلياً أساسه، عندها، هو فتور

Tele: @Arab_Books

فرونسكي إزاءهـا، وأساسه، عنده، هو الندم على أنه وضع نفسه بسببها في وضع عسير كانت لا تني تزيده ثقلاً بدلاً من أن تخففه.

و لم يكن أي منهما يبين أسباب ذلك الغيظ، لكن كلاً منهما كان يجد الآخر مخالفاً للصواب ويحاول جاهداً أن يبرهن له على ذلك، في أول مناسبة.

كانت آنا ترى أن فرونسكي بعاداته وأفكاره ورغباته واستعداداته الجسدية والخُلقية. لم يُخلَق لغير الحب وهذا الحب ينبغي أن يتركّز عليها وحدها. هذا الحب لم يكن جيّاشاً كما كان من قبل؛ وذلك يعني إذن أنه قد حوّل جزءاً منه إلى امرأة أخرى أو نساء أخريات... وكانت غَيْرى من جراء ذلك. لم تكن غيرى من امرأة بعينها لكن من تضاؤل حبه. إن غيرتها لم تجد غرضاً لها بعد، فأخذت تبحث لها عن غرض. وعند أقل تلميح منه، كانت تنقل غيرتها من غرض إلى غرض. فتارة كانت تغار من هؤلاء المخلوقات السوقيّات اللواتي يستطيع أن يلتقيهن بسهولة، بفضل علاقاته كعازب؛ وتارة أخرى كانت تغار من نساء المجتمع الراقي اللواتي قد يصادفهن في طريقه؛ وفي بعض الأحيان كانت تغار من فتاة خيالية من أجلها سيهجرها. وهذا الشكل الأخير من الغيرة هو الذي كان يعذّبها أكثر من غيره، لأنه تهوّر وقال لها، في لحظة من لحظات الصدق: إن أمه لم تحسن فهمه حتى إنها سمحت لنفسها بإقناعه أن يتزوج الأميرة الشابة «سوروكين».

كانت آنا تسخط عليه، والغيرة تنهشها، وتجد الذريعة، أينما نظرت، لتسخط عليه. لقد حمّلته مسؤولية كل ما هو مؤلم في

Tele: @Arab_Books

وضعها. فانتظارها القاسي في موسكو، وحيدة بين السماء والأرض، وبطء ألكسي ألكسندروفتش وتردده، وعزلتها، كل ذلك كانت تلقي تبعته على عاتق فرونسكي. ولو أحبها لأدرك كم كان وضعها مؤلماً ولانتشلها منه. ثم إنه هو المسؤول عن سكناها موسكو لا الريف. فهو لا يستطيع أن يدفن نفسه في الريف كما كانت تريد، وهو لا يستطيع أن يستغني عن المجتمع، ولقد ألجأها إلى هذا الوضع المضني دون أن يقبل به. وأخيراً فهو الذي يتحمّل مسؤولية انفصالها عن ابنها إلى الأبد.

بل إن لحظات الحنان النادرة التي كانت تعود إلى الظهور لم تكن تهدئها؛ لقد غدت تكتشف في حنانه ظلاً من الدعة والثقة بالنفس اللتين لم تعهدهما فيه من قبل واللتين كانتا تثيران حنقها.

هبط المساء. وكانت آنا وحدها تنتظر عودته من عشاء للعزّاب قصد إليه. وتذرع مكتب فرونسكي (وكان هذا المكتب هو الغرفة التي تسمع فيها ضوضاء الطريق أقل من غيرها) طولاً وعرضاً، وتستعيد في ذاكرتها جميع تفاصيل خصام البارحة، وحين رَجَعت من الكلمات الجارحة التي تبادلاها إلى ما كان ذريعة لها وسبباً عثرت على بداية الحديث. ولم تستطع أن تصدّق، لفترة طويلة، أن أصل خصامها حديث لا يؤذي أحداً ولا يستحق اهتماماً. ومع ذلك فقد وقع الخصام. لقد سخر من معاهد البنات التي رآها بلا فائدة، ودافعت هي عنها. حينذاك قال: (وكان على العموم يستخفّ بتعليم المرأة) إن «حنّة» الإنكليزية الصغيرة التي ترعاها صديقته، ليست بحاجة في شيء إلى تعلّم الفيزياء.

Tele: @Arab_Books

لقد حزّ ذلك في نفس آنا، ورأت فيه إشارة إلى مشاغلها، مليئة بالازدراء. فردّت عليه بجملة فكّرت فيها وقالتها:

– ما كنت أتوقع منك بادرة من بوادر الود، لكني كنت أطمع في شيء من الرقة.

احمرّ من الكيد وأجابها بكلام كريه. ولا تذكر ردّها عليه. لكنه قال بعد ذلك، وهو يقصد قصداً واضحاً إلى إيذائها:

– صحيح، إن تولّعك بهذه الفتاة لا يعجبني. وأنا لا أرى فيه غير التصنّع.

لقد أسخطتها تلك القسوة التي هدّم بها العالم الذي بنته من حولها بكثير من الجهد لتتحمل حياتها، وذلك الظلم الذي أبداه وهو يصفها بالنفاق.

فقالت له:

– إني آسفة أشدَّ الأسف أن تكون المسائل الغليظة والمادية هي وحدها التي تتأثر بها.

وتركت الغرفة.

وعندما عاد، في المساء، ليلقاها، لم يذكرا هذه المشادة لكنهما كانا يحسّان أن الخلاف باقٍ وإن هدأ.

لقد غاب، طوال هذا اليوم، وشعرت بالوحدة الشديدة، وبالأسف

Tele: @Arab_Books

الشديد على خلافهما حتى لقد رغبت في نسيان كل شيء، والصفح عن كل شيء، ومصالحته. أرادت أن تتحمّل مسؤولية جميع الأخطاء وأخذت تفتش عن الأعذار لفرونسكي.

وحدّثت نفسها: «الذنب ذنبي، فأنا سريعة الغضب، وغيرى إلى حدٍّ سخيف... سنتصالح وسنسافر إلى الريف؛ فهناك سأكون أكثر طمأنينة».

وتذكّرت بغتة كلمته، ولا سيما القصد الجارح الذي أوحت به، وردّدت تلك الكلمة: «لا أرى في ذلك سوى التصنّع». «أعلم ماذا عنى. عنى أنه ليس من الطبيعي أن أحب أبناء الآخرين في حين لا أحب ابني. لكن ماذا يعلم عن الحب الذي تحمله الأم لابنها، عن حبي لسيريوجا الذي ضحّيت به من أجله؟ كان يقول ذلك ليجرحني! نعم، إنه يهوى امرأة أخرى، ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك».

وتبيّنتْ أنها بدلاً من أن تهدأ، دارت في الحلقة المفرغة من جديد وألفتْ نفسها في حالة الحنق التي بدأت بها، فخافت من نفسها، واستأنفت حديثها لها: «ألا أستطيع أن أتصرّف تصرفاً آخر؟ ألا أستطيع أن أحمل نفسي على ذلك؟ وبدأت كل شيء من البداية» «إنه مستقيم، شريف، وهو يحبّني، وأنا أحبه. ويمكن أن يتم الطلاق بين يوم وآخر. فماذا يلزمني فوق ذلك؟ الهدوء والثقة. سأتحمل مسؤولية جميع الأخطاء. سأقول له، حين يعود، إنني أنا المذنبة (مع أن ذلك غير صحيح) وسنسافر».

Tele: @Arab_Books

ولكي لا تعود إلى التفكير ولا تستسلم لعصبيتها، استدعت الخادم وأمرت بإعداد الحقائب.

عاد فرونسكي في نحو الساعة العاشرة.

Tele: @Arab_Books

-٢٤-

سألته، وهي تقبل عليه بوجه رقيق، نادم:

– حسناً! وهل كان العشاء ممتعاً؟

فأجابها:

– كالمعتاد.

وتنبّأ من أول نظرة أنها كانت في لحظة من لحظات انشراحها لقد تعوّد الآن تقلّبات مزاجها، وسُرّ سروراً جمّاً مما رأى، في هذه اللحظة، لأنه هو نفسه كان في أحسن حالاته.

قال وهو يشير إلى الحقائب في البهو:

– ماذا أرى؟ هذا جميل حقاً!

– نعم، يجب أن نسافر. لقد جلتْ بالعربة جولة فوجدت النزهة ممتعة جداً حتى شوّقتني إلى العودة إلى الريف. لا شيء يحول بينك وبين السفر، أليس كذلك؟

– هذا كل ما أبغيه. سأبدّل ثيابي وأعود، وسنتحدّث. اطلبي لي شاياً.

Tele: @Arab_Books

ومضى إلى حجرته.

شعرت بالإهانة من قوله: «هذا جميل حقاً!». فهذه الكلمة تُقال لولد كفَّ عن نزواته. ثم إن لهجة الاعتداد بالذات إزاء موقف آنا المتواضع كانت أشد إهانة. وأحسّت، في طرفة عين، برغبة في الصراع تجتاحها، لكنها سيطرت على نفسها واستقبلت فرونسكي ببشاشة.

ثم قصّت عليه حكاية يومها وعرضت عليه مشروع السفر، بجميل هيأتها من قبل. قالت له:

- أتعلم أن ذلك كان بما يُشبه الوحي؟ ولَمَ ننتظر الطلاق هنا؟ إذ يمكننا أن ننتظره في الريف أيضاً. لم أعد أطيق انتظار الطلاق. ولا ترجّيه، ولا الاستماع إلى الحديث عنه. لقد قررت ألا يؤثّر ذلك في حياتي بعد الآن. أأنت موافق؟

قال وهو يلقي نظرة قلقة على وجهها المنفعل:

- أوه! نعم.

سألته بعد صمت:

- ماذا فعلتَ؟ ومَنْ كان هناك؟

فسمّى لها فرونسكي المدعوين:

- كان العشاء لذيذاً، وبعد العشاء جرى سباق للزوارق وكان ذلك رائعاً حقاً، لكن كل شيء في موسكو مشوب بما يدعو إلى

Tele: @Arab_Books

الضحك. فقد عرضوا علينا معلّمة السباحة لملكة السويد وأظهرت لنا مواهبها.

سألته آنا وهي تقطّب بين حاجبيها:

– ماذا؟ سبحتْ أمامكم؟

– نعم، في لباس للسباحة أحمر! وهي عجوز بشعة. إذن، متى سنسافر؟

قالت آنا دون أن تجيب:

– يا لها من فكرة سخيفة! وهل في طريقة سباحتها، يا ترى، شيء خاص؟

– لا شيء على الإطلاق. قلتْ لكِ إن ذلك كان مضحكاً. متى تنوين السفر؟

هزّت آنا رأسها وكأنها تطرد فكرة ثقيلة.

– متى؟ كلما عجّلنا كان ذلك أفضل. لن نكون جاهزين غداً. بعد غد.

– طيب... آه! لا، انتظري. بعد غد هو الأحد، ويجب أن أزور أمي فيه.

ارتبك فرونسكي لأنه ما إن لفظ اسم أمه حتى أحسّ أنها ترشقه بنظرة متشكّكة ولجوج. وزاد من ريبتها ما اعتراه من اضطراب.

Tele: @Arab_Books

فتضرّج وجهها وتنحّت عنه. لم تعد تفكّر الآن في معلمة السباحة لكن في الأميرة الشابة «سوروكين» التي تقيم عند الكونتيسة فرونسكي في ملكها القريب من موسكو.

قالت:

– بوسعك أن تذهب غداً إليها.

فأجاب:

– لا، فالوكالة والمال الذي ستسلّمني إياه لن يكونا جاهزين غداً.

– طيب، إذن لن نسافر أبداً.

– ولِمَ ذاك؟

– إما أن أسافر الاثنين وإما ألا أسافر بعده أبداً!

قال فرونسكي وهو مدهوش:

– لكن لماذا؟ لا معنى لذلك!

– لا معنى لذلك عندك لأنك لا تهتم بي. أنت لا تريد أن تفهم ما حياتي. الشخص الوحيد الذي كان يعنيني هنا هو «حنة» وأنت تزعم أن ذلك نفاق. لقد قلتَ لي البارحة إنني لا أحب ابنتي وأنني أتظاهر بحب هذه الإنكليزية الصغيرة، تصنّعاً مني؛ وأود لو أعرف ما الحياة التي يمكن أن تكون هنا طبيعية بالنسبة إلي.

تمالكتْ نفسها، في مدى لحظة، وارتعبتْ لأنها لم تفِ بما وطّدت

Tele: @Arab_Books

العزم عليه. لكن، مع علمها أنها تسعى إلى دمارها إلا أنها لم تستطع أن تكبح جماح غضبها، ولا أن تمتنع من البرهنة على خطئه بحقها؛ لم يعد بوسعها الخضوع له.

- لم أقلْ هذا قط؛ وإنما قلتُ: إنني لا أفهم هذا الحب المفاجئ.

- لماذا تكذب، وأنت تفتخر كثيراً باستقامتك.

قال بصوت بهيم وهو يكظم الغضب الذي يغلي فيه:

- إني لا أفتخر ولا أكذب أبداً. ومن المؤسف أنك لا تحترمين...

- إنما اخترع الناس الاحترام ليخفوا غياب الحب... إذا كنتَ لم تعد تحبني فالأشرف أن تعترف بذلك.

فصاح فرونسكي وهو ينهض:

- لا، أصبح ذلك لا يُطاق.

وجاء فوقف أمامها وقال وهو يشدّد على مقاطع الكلمات:

- لماذا تمتحنين صبري؟ إن لصبري حدوداً.

قال ذلك كمن يستطيع أن يطيل في الكلام، لكنه يتمالك نفسه.

فصرخت وهي تتأمل برعب تعبير الكراهية الذي بدا على وجهه كله وبخاصة في عينيه الشرستين والمهددتين:

- ماذا تعني بذلك؟

Tele: @Arab_Books

فشرع يقول:

– عنيتُ...

لكنه توقّف وقال:

– ينبغي لي أن أسألك عمّا تبغيه مني.

قالت متممة فكرة فرونسكي:

– ما يمكنني أن أبغيه منك؟ يمكنني أن أبغي ألا تهجرني كما تنوي. بل إني لم أعد أبغي ذلك، فهذا ثانوي. أريد أن أكون محبوبة، و لم أعد كذلك. إذن، لقد انتهى كل شيء.

قال فرونسكي وهو يمسكها بيدها، وعلى جبينه غضون ما زالت تنم عن القسوة:

– انتظري! انتظري! عمّ تتحدثين؟ لقد قلتُ إنه ينبغي أن نؤخر سفرنا ثلاثة أيام، فأجبتني أنني أكذب وأنني عديم الشرف.

– نعم، إنني أكرر: إن الرجل الذي يعيّرني أنه ضحّى بكل شيء في سبيلي (كانت تشير إلى خصام سابق) أسوأ من رجل فقد شرفه، إنه رجل لا قلب له.

فصاح وقد أرخى، من فوره، يد آنا.

– لقد نفد صبري.

حدّثت آنا نفسها: «إنه يكرهني، هذا واضح. وتركت الغرفة

Tele: @Arab_Books

بخطوات غير ثابتة، دون أن تلتفت ودون أن تقول كلمة، وقالت في نفسها وهي تدخل غرفتها: «إني أريد أن أكون محبوبة، و لم أعدْ كذلك. وإذن فقد انتهى كل شيء. يجب أن أنتهي من ذلك كله». وتساءلت: «ولكن كيف؟»، وجلست في مقعد أمام المرآة. كانت تتساءل أين تذهب الآن: إلى العمة التي ربّتها، إلى دولي أو إلى الخارج بكل بساطة. وماذا يفعل الآن وحده في مكتبه؟ وهذا الخصام أهو حاسم أم أن المصالحة ما تزال ممكنة؟ وماذا سيقول عنها أصدقاؤها القدامى في بطرسبرج؟ وكيف سيتلقى ألكسي ألكسندروفتش هذا النبأ؟ وماذا سيجري بعد انفصالهما؟ هذه الأفكار وغيرها دارت بخلدها لكنها لم تسترسل فيها. ففي أعماق نفسها كانت تختبئ فكرة مبهمة هي وحدها كانت تهمّها، وإن لم تبلغ دائرة وعيها. فعندما فكّرت، مرة أخرى، في ألكسي ألكسندروفتش، تذكّرت فترة المرض الذي تلا نفاسها والشعور الذي استولى عليها دائماً طوال هذه الفترة لماذا لم أمتْ؟ هذا ما قالته وما خالجها آنذاك. وفجأة أدركت ما استقرّ في أعماق نفسها. نعم هذه هي الفكرة التي تحلّ كل شيء. «الموت!....».

«فالعار والخزي اللذان لحقا بألكسي ألكسندروفتش وبسيرج، وعاري أنا، كل ذلك سيمحى بموتي وإذا متّ فسوف يندم، وسوف يبكيني، وسوف يحبّني، وسوف يتألم بسبب». وظلّت جالسة في مقعدها، وعلى وجهها ابتسامة الرأفة بنفسها، تنزع وتعيد خواتم يدها اليسرى، وهي تتصور العواطف التي ستخامره بعد موتها في مختلف وجوهها.

وحوّل انتباهها خطوات تدنو، خطواته. فتظاهرت بأنها تضع خواتمها في علبها و لم تُدرْ رأسها إليه.

Tele: @Arab_Books

اقترب منها وأمسك بيدها وقال لها بهدوء:

– آنا، فلنذهب بعد غد، إذا رغبتِ في ذلك. أنا موافق على كل شيء.

لزمتْ الصمت.

فسألها:

– ماذا تقولين؟

فأجابته:

– افعلْ ما تشاء.

وفي اللحظة نفسها طفقت تنتحب، بعد أن عجزت عن تمالك نفسها.

وهمست في غمرة بكائها:

– اتركني، اتركني! سأسافر غداً... سأفعل أكثر من ذلك. لستُ سوى امرأة هالكة، سوى عبء عليك. ولا أريد أن أعذّبك بعد الآن، لا أريد سأعيد إليك حريتك. فأنت لم تعد تحبني، وأنت تحب امرأة أخرى.

تضرّع إليها فرونسكي لكي تهدأ وأكّد لها أن غيرتها لا أساس لها إطلاقاً، وأنه لم يكف ولن يكفّ عن حبها، وأنه يحبها الآن أكثر مما أحبها من قبل.

Tele: @Arab_Books

وقال لها وهو يقبّل يدها:

- آنا، لماذا يعذّب كل منا الآخر؟

كان وجهه يعبّر الآن عن الحنان، وخُيِّل إلى آنا أنها سمعت صوته يتهدج،وأنها أحست بالدموع تبلل يدها. وفي اللحظة نفسها، تحوّلت غيرة آنا إلى حنان متّقد، يائس: فأخذته بين ذراعيها وغمرت بالقُبل وجهه وعنقه ويديه.

Tele: @Arab_Books

-٢٥-

حين أحست آنا أن المصالحة كانت تامة، اهتمت بأمتعتها منذ صباح اليوم التالي. ومع أنهما لم يقررا إن كانا سيذهبان نهار الاثنين أو الثلاثاء، بعد ذلك التساهل بينهما، إلا أن آنا كانت تتأهب للسفر بنشاط، وقد غدت الآن غير مبالية كلياً بالموعد الذي سيتركان فيه موسكو. كانت في غرفتها ترفع ثيابها من صندوق، عندما دخل عليها فرونسكي وقد بكر في ارتداء ملابسه. قال لها:

– سأذهب، على الفور، لأرى أمي، وسترسل إلي المال مع «إيغور». وسأكون مستعداً للسفر غداً.

ومع أنها كانت منشرحة الصدر إلى حدٍّ كبير، إلا أن تذكيرها بهذه الزيارة وخزها كوخز الإبر.

– لا، لن أنتهي من الاستعداد غداً.

وما لبثْت أن فكرت في نفسها: «وإذن فقد كان ممكناً ترتيب الأمور كما كنت أريد».

وقالت له وهي تكدّس المتاع على ذراعي آنوشكا المثقلتين به:

Tele: @Arab_Books

– افعلْ ما كنتَ قد قررته. واذهب إلى غرفة الطعام، وسألحق بك حال انتهائي من رفع هذه الأشياء التي لا خير فيها.

كان فرونسكي يتناول قطعة من لحم عندما دخلت غرفة الطعام. قالت وهي تجلس قربه لتتناول قهوتها:

– لا تستطيع أن تصدّق كم كرهتُ هذا المسكن. لا شيء أبشع من هذه الغرف المفروشة. إنها لا تعبّر عن شيء، وليس لها روح. فهذه الساعات وتلك الستائر وتلك البسط المزخرفة بخاصة غدت كابوساً حقيقياً. وأنا أحلم بفوز دفيجنسكوي كما أحلم بالجنة. ألم ترسل الجياد بعد؟

– لا، ستلحق بنا. وأنتِ، أتنوين الخروج؟

– كنت أريد أن أمر على «ولسن» لآخذ لها فستاناً...

وقالت بمرح:

– إذن تقرر أن نسافر غداً؟

وما لبث أن تغيّر وجهها. ذلك أن خادم فرونسكي دخل ليطلب إلى معلّمه أن يوقع على إيصال برقية من بطرسبرج. لم يكن في ذلك شيء خاص، لكن فرونسكي قال، وكأنه يريد أن يخفي شيئاً ما: إن الإيصال في مكتبه وعاد بسرعة نحو آنا.

– سينتهي كل شيء غداً، لا محالة.

سألته دون أن تصغي إليه:

Tele: @Arab_Books

ممّن البرقية؟

فأجاب على مضض:

– من ستيفان.

– لماذا لم تطلعْني عليها؟ ما السر الذي يمكن أن يُخفيه «ستيفان» عني؟

نادى فرونسكي الخادم وأمره أن يأتي بالبرقية.

– لم أشأ أن أُريك إياها الآن ستيفان مُغرم بالإبراق. ولماذا يُرسل برقية إذا لم يتقرر شيء؟

– بصدد الطلاق؟

– نعم، لقد كتب أنه لم يستطع أن يحصل على شيء. مع أنه وعدني مؤخراً بالجواب النهائي. خذي، اقرئي بنفسك.

أخذت آنا البرقية، بيد مرتجفة، وقرأتها. كانت كما قال فرونسكي بدقة. وفي نهايتها، أضاف أوبلونسكي: «سأعمل الممكن والمستحيل، وإن لم يكن هناك أمل كبير».

قالت وهي تحمرّ:

– قلت لك البارحة: إنني لا أبالي بهذا الطلاق. فلا وجه إذن لأن تخفي ذلك عني.

Tele: @Arab_Books

وفكّرت في نفسها: «لا شك أنه يخفي عني بالطريقة ذاتها مراسلاته مع النساء».

قال فرونسكي:

– بالمناسبة، كان إياشفين ينوي أن يمر علينا، في هذا الصباح، مع فويتوف. وأظن أنه ربح نحو ستين ألف روبل من «بيفستوف»؛ وهذا المبلغ أكثر مما يستطيع «بيفستوف» دفعه.

واستأنفت وقد اغتاظت من تغييره الحديث بغية إشعاره بعصبيتها:

– لا، لماذا تظن أن هذا الخبر يهمّني إلى الحد الذي ينبغي معه أن تخفيه عني. لقد قلتُ لك إنني لا أريد أن أفكّر فيه بعد الآن وأود أن توليه أقل قدر من الاهتمام.

قال:

– إذا كنت أهتمّ به فلأنني أحب المواقف الواضحة.

قالت وقد أخذ حنقها يتزايد لا من كلامه بل من لهجة الثقة الباردة التي يتكلّم بها.

– ما أهمية الأشكال إذا وُجد الحب، لماذا تتوق إلى هذا الطلاق؟

قال في نفسه وهو يقطّب بين حاجبيه: «يا إلهي! رجعنا إلى الحب!» وقال لها:

– أنت تعلمين كل العلم لِمَ أتوق إليه: من أجلك ومن أجل أولادنا المقبلين.

Tele: @Arab_Books

– لن ننجب أولاداً بعد الآن.

قال:

– إنني آسف على ذلك أسفاً شديداً!

فقالت له:

– أنتَ لا تفكّر إلا في الأولاد، لا فيّ؛ ونسيت كلياً (بل إنها لم تسمع) أنه قال لها: «من أجلك ومن أجل الأولاد».

كانت مسألة الأولاد منذ زمن بعيد موضوعاً للخلاف بينهما. وكانت ترى في ميل فرونسكي إلى إنجاب الأولاد دليلاً على لا مبالاته بجمالها.

وردّد وهو يكشّر وكأنه أصيب بألم جسدي.

– بلى، لقد قلتُ: من أجلك. قبل كل شيء من أجلك. لأنني مقتنع أن عصبيتك تأتي، في جزء كبير منها، من التباس وضعك.

وفكّرت دون أن تصغي إليه، متأملة برعب هذا القاضي البارد والقاسي الذي كان ينظر إليها بعيني فرونسكي وهو يهزأ:

انجلت الحقيقة: لقد كفّ عن المداجاة وكشف عن الكراهية التي يضمرها لي.

وقالت:

Tele: @Arab_Books

– لا، ليس هذا هو السبب. إن... عصبيتي، كما سمّيتها، تأتي من أنني ملك يديك، بكل كياني. فوضعي إذن، على العكس، محدد تحديداً جيداً.

فقاطعها مصراً على الإعراب عن فكرته.

– آسف كثيراً لأنك لا تريدين أن تفهمي. الالتباس يأتي من أنك تتصورينني حراً.

قالت له:

– تستطيع أن تكون مطمئناً تماماً، بهذا الصدد.

وانثنت عنه وأخذت تشرب قهوتها.

رفعت الفنجان، منحّية إصبعها، وقرّبته من شفتيها. ورشفت منه بضع رشفات، ثم ألقت نظرة على فرونسكي، فأدركت، بوضوح، من تعبير وجهه، أن يدها وحركتها وصوت الرشف قد أثارت حنقه. فقالت وهي تحطّ الفنجان بيد مرتعشة:

– لستُ أبالي أبداً برأي أمك ولا بمشاريعها لتزويجك.

– لم نتحدث عن هذا.

– بلى، عن هذا بالذات. واعلم أن امرأة بلا قلب، سواء أكانت متقدّمة في السن أم لا، وسواء أكانت أمك أم لا، لا شأن لها عندي وأنا أوثر أن أتجاهلها.

Tele: @Arab_Books

– آنا، أرجوك ألا تتحدثي عن أمي بهذه اللهجة التي تخلو من الاحترام.

– إن المرأة التي لم تكتشف أين تكمن سعادة ابنها لهي امرأة لا قلب لها.

فقال وهو يرفع صوته وينظر إليها بقسوة:

– أكرر عليك أنني لا أحب أن أسمعك تتحدثين على هذا النحو عن أمي التي أحترمها.

لم تجب. وألقت نظرة مُلحة على وجهه ويديه، وتذكّرت جميع تفاصيل مصالحتهما البارحة ومداعباتها المشبوبة. وفكرت: «إنه يسخو وسوف يسخو بمداعباته لنساء أخر».

ثم ردّت عليه بنظرة حاقدة:

– أنت لا تحب أمك. وما تقوله ليس سوى جُمل طنانة لا غير.

– إذا كان الأمر كذلك فيجب...

– أن نتخذ قراراً، لقد اتخذت قراري.

وأرادت أن تخرج، لكن إياشفين دخل الغرفة في هذه اللحظة، فتوقّفت لتحييه.

لماذا وجب عليها، في حين ثارت في نفسها عاصفة هوجاء وأحست أنها بلغت منعطفاً في حياتها يمكن أن يؤدي إلى نتائج

Tele: @Arab_Books

رهيبة، لماذا وجب عليها أن تخفي الحقيقة، في هذه اللحظة، أمام الزائر الغريب؟ لم تكن تدري لماذا؛ لكنها سرعان ما حملت نفسها على الهدوء، فجلست وأخذت تحدّث الزائر.

سألت إياشفين:

– وقضيتك، أين صارت؟ هل تسلمتَ مالك؟

قال إياشفين:

– أعتقد أنني لن أتسلّم المال كله، وعلي أن أسافر نهار الأربعاء. وأنتما، متى تسافران؟

وكان إياشفين يلقي نظرته، بين الحين والآخر، على فرونسكي، وهو يطرف بعينيه. لقد استشفّ بوضوح أنه وصل في أثناء خصامهما.

قال فرونسكي:

– بعد غد، بدون شك.

– على كل حال، كنتما تفكران في السفر، منذ أمد بعيد.

قالت آنا وهي تنظر إلى فرونسكي في عينيه نظرة تقول: إنه لا ينبغي أن يفكّر حتى في إمكان المصالحة:

– الآن تقرر ذلك.

وأردفت مخاطبة إياشفين:

Tele: @Arab_Books

– ألم تأخذك الشفقة على هذا المسكين بيفتسوف؟

قال إياشفين وهو يشير إلى جيبه:

– لم أطرح قط هذا السؤال على نفسي، آنا أركاديفنا. إن ثروتي كلها هنا، في جيبي، وأنا الآن غني؛ لكنني إذا ذهبت إلى النادي، هذا المساء، فقد أخرج منه وليس معي فلس. والذي يلاعبني ليس له سوى همّ واحد هو: أن يسلبني كل شيء حتى قميصي، وأنا أفعل مثله. إننا نتصارح، وها هنا اللذة.

– لكن لو كنتَ متزوجاً فماذا كانت ستقول امرأتك؟

أخذ إياشفين يضحك.

– من أجل ذلك بالذات لم أتزوج، ولا أنوي أن أتزوج.

قال فرونسكي وقد تدخّل في الحديث:

– وهلسنغفور؟(٤٩).

وألقى نظرة سريعة على آنا التي كانت تبتسم. وعندما تلاقت نظراتهما اكتسى وجه آنا تعبيراً بارداً ومتعالياً كأنها تقول له: «لم أنسَ، ولم يتغير شيء».

قالت لإياشفين:

٤٩– «هلنسغفور»: هي هلنسكي عاصمة فنلندا التي كانت تابعة لروسيا آنذاك والتي كان لإياشفين فيها مغامرة غرامية.

Tele: @Arab_Books

- ألم تحب قط؟

- أوه! يا إلهي! ما أكثر ما أحببت! لكن اعلمي أن بعضهم يمكنهم أن يجلسوا إلى مائدة اللعب وأن يلعبوا فترة ثم يغادرون اللعب في الوقت المناسب لكي لا يفوتهم الموعد. أما أنا، فإذا كنت أكرّس وقتاً للحب فعلى شرط ألا أتأخر عن اللعب. لقد دبّرت أموري دائماً لتكون على هذا النحو.

- لا، ليس هذا ما كنتُ أعنيه، لقد أردت الكلام على الحب الحقيقي.

كانت تريد أن تسأله عن «هلسنغفور»، لكنها أبت أن تردد كلمة قالها فرونسكي.

ووصل «فويتوف» الذي اشترى جواداً؛ فنهضت آنا وتركت الغرفة.

قبل أن يخرج فرونسكي، مر عليها. أرادت أن تتظاهر بأنها تبحث عن شيء على الطاولة، لكنها استحت من هذا التصنع وحدجته بنظرة متشامخة. وسألته بالفرنسية:

- أأنت بحاجة إلى شيء؟

- إني أبحث عن شهادة منشأ «غامبيتا» الذي بعته.

قال ذلك بلهجة أوضح مما لو قال: «ليس لدي وقت للعتاب ولن يجدي العتاب نفعاً».

Tele: @Arab_Books

وقال في نفسه: «لم آتِ ما يستحق اللوم. وإذا شاءت أن تقتص من نفسها فلتفعل ما تشاء». لكن بينما كان يخرج، خُيِّل إليه أنه سمع شيئاً فانقبض قلبه فجأة من الرأفة. وسأل:

– ماذا قلتِ، آنا؟

فأجابت بهدوء:

– لا شيء.

ففكّر من جديد وقد فترت عاطفته نحوها «وإذن، فلتفعل ما تشاء!». وانثنى عنها وابتعد. وبينما هو يخرج، رأى في المرآة وجه آنا؛ كانت شاحبة، وكانت شفتاها ترتعشان. أراد أن يقف ويقول لها كلمة معزّية، لكن ساقاه حملتاه إلى خارج الغرفة قبل أن يجد ما يقوله.

ظل غائباً طوال النهار، وعندما دخل، في ساعة متأخرة، قالت له الخادمة: إن آنا أركاديفنا أصيبت بصداع وهي ترجو ألا يُزعجها أحد.

Tele: @Arab_Books

-٢٦-

لم يبقيا قط يوماً كاملاً على شجارهما. كانت هذه أول مرة. وكان أكثر من شجار. كان إقراراً. كان إقراراً بالانفصال الكلي. أمن الممكن أن ينظر إليها كما نظر إليها عندما جاء يبحث عن الوثيقة في غرفتها؟ أن ينظر إليها ويرى قلبها يتحطم من اليأس ثم يتابع طريقه بذلك الوجه الهادئ واللامبالي؟ لم ينفصل عنها فحسب، بل إنه كان يكرهها ويحب امرأة أخرى؛ ذلك واضح.

وعندما تذكّرت الكلمات القاسية التي قالها تصوّرت أيضاً الكلمات التي كان واضحاً أنه ينوي قولها فأخذ غيظها يتزايد من لحظة إلى لحظة.

كان من الممكن أن يقول لها: «إني لا أحتجزك، وبوسعك أن تذهبي إلى حيث تشائين. لا شك أنك رفضتِ الطلاق لتعودي إلى زوجك. وإذا كنت تحتاجين إلى المال فسأعطيكِ المال. كم يلزمك؟».

أنْطقته، في خيالها، بكل الأحاديث التي يمكن أن تبدر عن رجل فظ، وأبت أن تغتفرها له وكأنه قد قالها فعلاً.

قالت في نفسها بعد ذلك: «بَيْدَ أنه كان حتى يوم أمس. يقسم

Tele: @Arab_Books

أنه يحبني، وهو رجل مستقيم وشريف. أما انتابني اليأس، من قبل، مرّات؟»

وفيما عدا زيارتها للسيدة ولسن التي استغرقت ساعتين، فقد قضت سحابة يومها تتساءل إذا كان قد انتهى كل شيء أم أنه قد بقي أمل في المصالحة، وإذا كان ينبغي لها أن تسافر في الحال أو أن تراه مرة أخرى؟. انتظرته حتى المساء؛ وعندما أوت إلى غرفتها أمرت أن يُقال له: إنها مصابة بصداع. وفكّرت في نفسها: «إذا دخل علي غرفتي فمعنى ذلك أنه ما يزال يحبني. أما إذا لم يدخل فمعنى ذلك أن كل شيء قد انتهى، وسأعلم ما الذي يبقى علي أن أفعله».

في السهرة، سمعتْ عربته وهي تقف، ودقة الجرس، وخطواته، وحديثه مع الخادمة. لقد صدّق كلام الخادمة، ولم يسع إلى مزيد من الاستفسار، وقصد حجرته. لقد انتهى كل شيء إذن.

حينذاك بدا لها بوضوح أن الموت هو الوسيلة الوحيدة لتبعث في قلب فرونسكي الحب لها، ولتعاقبه، ولتنتصر في هذا الصراع الذي تخوضه تلك الروح الشريرة التي استولت عليها ضده.

استوى لديها الآن كل شيء: السفر إلى «فوز دفيجنسكوي» وعدمه، الحصول على الطلاق من زوجها أم لا، لقد غدا ذلك كله الآن بلا جدوى. ولم يبق لديها سوى هدف واحد تلاحقه هو: معاقبته.

عندما صبّت لنفسها جرعة الأفيون المعتادة، فكّرت أنه يكفيها أن تتناول القارورة كلها لتموت، وبدا لها ذلك بالغ البساطة والسهولة

Tele: @Arab_Books

حتى أخـذت تتخيل بلذة كم سيتألم، وكم سيندم، وكم سيتعلّق بذكراها عندما يفوت الأوان. كانت مستلقية على فراشها، مفتوحة العينين، تتأمل، على ضوء شمعة محتضرة، نواتئ إفريز السقف، وظل الحاجز الذي عتّم جزءاً منها، وتتصور بوضوح ما سيعانيه عندما تموت وتتحول عنده إلى ذكرى. تصوّرته وهو يُردد على نفسه: «كيف جاز لي أن أوجّه إليها مثل هذا الكلام القاسي؟ كيف جاز لي أن أخرج من غرفتها دون أن أقول لها شيئاً؟ لقد ماتت الآن، وفارقتنا إلى الأبد. إنها هناك...» وفجأة تراقص ظل الحاجز، واكتسح الإفريز كله، والسقف كله؛ وأقبلت ظلال أخرى من جهات أخرى مسرعة إلى لقائه: تراجعت الظلال لحظة، ثم انهالت إلى الأمام بسرعة متزايدة، وذابت في موجات مرتعشة، وغرقت الحجرة في الظلمة. وفكّرت: «الموت!». واستولى عليها رعب شديد حتى لقد ظلت برهة طويلة لم تستطع فيها أن تدرك أين هي، ولم تستطع أن تلتقط، بيديها المرتعشتين، علبة الكبريت لتشعل شمعة أخرى بدلاً من الشمعة التي ذابت. فقالت في نفسها: «لا، كل شيء إلا الموت! أنا أحبه وهو يحبني. وقد وقع لنا مثل هذا من قبل. وسوف يزول». وأحست بدموع الفرح تَهْمي على وجنتيها. ولكي تنجو من الخوف، مضت بخطوات سريعة إلى مكتب فرونسكي.

كان ينام هناك نوماً عميقاً. دنت منه، وتأملته طويلاً، وهي ترفع الشمعة فوق وجهه. كانت تحبه الآن وهو ينام حباً جماً حتى أنها لم تتمالك نفسها من ذرف دموع الحنان؛ لكنها كانت تعلم أنه لو استيقظ لألقى عليها نظرته الباردة، المنبئة بنزاهته، ولوجب عليها، قبل أن تكلّمه، أن تبرهن له أولاً أنه أذنب بحقها. وعادت إلى غرفتها،

Tele: @Arab_Books

دون أن توقظه، وتناولت جرعة ثانية من الأفيون، ونامت حتى الصباح نوماً ثقيلاً قلقاً لم تفقد خلاله شعورها بذاتها دقيقة واحدة.

وفي الصباح، رأت من جديد حلماً مرعباً طالما زارها قبل علاقتها بفرونسكي، وأيقظها. رأت شيخاً قصيراً، أشعث اللحية، منحنياً فوق قطعة من حديد، وهو يهمهم بكلمات فرنسية لا معنى لها؛ أما هي فكانت تحس (وهو إحساس كان يتردد في كل مرة، وفيه كان يكمن هول هذا الحلم المرعب) أن هذا الرجل القصير لا ينتبه إليها لكنه يتابع عمله المرعب من فوقها. فاستفاقت والعرق المتجمّد يغطيها.

وعندما نهضت تذكّرت، وكأنها تتذكر من خلال الضباب، نهار أمس.

قالت في نفسها: «لقد تخاصمنا، كما جرى ذلك بيننا عدة مرات. قلت إنني مصابة بصداع، ولم يعد إلى حجرتي. سنسافر غداً؛ يجب أن أراه وأن أفرغ من استعداداتي». واتّجهت إلى غرفته، لعلمها أنه فيها. وعندما عبرت الصالة، سمعت عربة تقف أمام الباب، وحين ألقت نظرة من النافذة شاهدت عربة أطلّت من بابها فتاة بقبعة خبازية تُلقي أوامرها على الخادم الذي فتح لها الباب. وبعد محادثة في غرفة الانتظار، صعد شخص إلى الطابق الأول، وسمعت آنا خطوات فرونسكي الذي كان ينزل الدرج على عجل. خرج دون قبعة إلى درج المدخل ودنا من العربة. فسلّمته الفتاة ذات القبعة الخبازية رزمة، وقالت له شيئاً وهي تبتسم. وابتعدت العربة؛ وصعد الدرج مستعجلاً.

تبدد فجأة الضباب الذي اجتاح نفس آنا. واعتصرت قلبها مشاعر

Tele: @Arab_Books

البارحة على نحو أشد إيلاماً. ولم تستطع أن تفهم كيف انحطّت وقبلت أن تقضي يوماً كاملاً مع فرونسكي تحت سقف واحد. فدخلت مكتبه لتبلغه قرارها.

قال لها بهدوء، ولم يشأ أن يلاحظ أو يفهم التعبير المأساوي والمهيب على وجهها:

- حملتْ إلي الأميرة سوروكين وابنتها المال وأوراق أمي أثناء مرورهما ولم أستطع الحصول عليها البارحة. ووجع رأسك هل خف؟

حدّقت فيه دون أن تقول كلمة، وهي واقفة في وسط الغرفة. فرماها بنظرة سريعة، وقطّب بين حاجبيه، وتابع قراءة رسالته. فانثنت عنه واتجهت بخطوات بطيئة إلى الباب. كان يستطيع أن يناديها، لكنها أوشكت أن تخرج وهو مخلد إلى الصمت: لم يكن يُسمع سوى صوت الصفحات التي يقلّبها. قال عندما أوشكت أن تجتاز عتبة الباب:

- آه! بالمناسبة، سنسافر غداً، لقد تقرر ذلك؟

قالت وهي تلتفت إليه:

- أنت، أما أنا فلا.

- آنا، الحياة مستحيلة هكذا...

فكررت:

- أنت، أما أنا فلا.

Tele: @Arab_Books

– إن ذلك لا يُطاق!

– أنتَ... ستندم على ذلك!

قالت ذلك وخرجت.

أرْعبه تعبير اليأس الذي رافق هذه الكلمات، فنهض فجأة وأراد أن يركض خلفها، لكنه تراجع عن ذلك، وعاد إلى الجلوس، وقطّب بين حاجبيه، وقد تشنّج فكاه. لقد غاظه هذا التهديد الذي رآه نابياً. وفكّر: «لقد حاولت كل شيء، ولم يبق علي إلا عدم الالتفات إلى ذلك». وتهيأ للخروج: كان ينبغي أن يذهب إلى المدينة، ثم يمر على أمه مرة ثانية لتوقيع الوكالة.

سمعتْ خطاه في المكتب وفي غرفة الطعام. توقّف في قاعة الاستقبال، لكنه لم يرجع إليها، وأمر فقط بإعادة الجواد إلى «فويتوف» أثناء غيابه. ثم سمعت العربة تتقدم والباب يُفتحٍ. وخرج ثم عاد إلى غرفة الانتظار ثم صعد شخص السلم مستعجلاً. كان هذا الشخص هو الخادم الذي عاد ليحمل له قفّازيه اللذين نسيهما. ركضت إلى النافذة. تناول قفّازيه، ولمس كتف الحوذي وقال له شيئاً. ثم استقر في صدر العربة، في وضعه المعتاد، مصالباً بين ساقيه، دون أن يتطلّع نحو النافذة، وغاب في ركن الشارع بينما هو يلبس أحد قفازيه.

Tele: @Arab_Books

-٢٧-

قالت آنا في نفسها وهي واقفة قرب النافذة «لقد ذهب! وانتهى الأمر!». وجواباً عن هذا السؤال اختلط القلق الذي استولى عليها في الظلمة بهول الحلم المرعب ليجمّدا قلبها من الرعب.

هتفت:

- لا، هذا مستحيل!

وعبَرتْ الغرفة ورنّت الجرس بيد قوية. كانت مرتعبة من أن تجد نفسها وحدها إلى الحد الذي نهضت فيه لملاقاة الخادم بدلاً من أن تنتظره. وقالت له:

- استعلم عن المكان الذي ذهب إليه الكونت.

فأجابها أن الكونت ذهب إلى الاصطبلات:

- ورجاني أن أقول لك: إنك إذا أحببتِ الخروج فستعود العربة في الحال.

- حسناً. انتظر. سأكتب كلمة. وأرسل «ميشيل» ليحملها إلى الاصطبلات.

Tele: @Arab_Books

وجلست لتكتب: «لقد أخطأت. عُد، يجب أن نتفاهم. بالله عليك، عُدْ، فأنا خائفة».

ختمت الرسالة وسلّمتها إلى الخادم.

خافت أن تبقى وحدها، فقصدت إلى حجرة طفلتها بعد ذهاب الخادم.

«كيف، ليس هذا هو سيريوجا، وأنا لا أتعرف إليه؟ أين عيناه الزرقاوان، وبسمته اللطيفة، الوجلة؟». كانت هذه هي الفكرة الأولى التي راودتها، عندما شاهدت طفلة صغيرة، متوردة وسمينة، بشعر أسود جعد، بدلاً من سيريوجا الذي توقّعت، في غمرة تشوّش فكرها، أن تلقاه في حجرة الأطفال. كانت الطفلة جالسة أمام طاولة لا تنفك تطبطب عليها بسدادة دورق، وكانت تنظر إلى أمها نظرة بلهاء بعينيها الشديدتي السواد. وبعد أن أجابت الإنكليزية بأن صحتها ممتازة، وبأنها ستسافر إلى الريف غداً، جلست قرب ابنتها ودوّرت أمامها سدادة الدورق. لكن ضحكة الطفلة الرنانة وحركة من حاجبيها ذكرتاها بفرونسكي على نحو مذهل إلى حدٍّ نهضت معه مسرعة وفرّت وهي تحبس عبراتها. وحدثت نفسها: «هل انتهى حقاً كل شيء؟ لا، هذا مستحيل. سيعود. لكن كيف سيفسّر لي تلك الابتسامة بهذه الحيوية بعد أن حادثها؟ وحتى لو لم يفسّر، سأصدقه مع ذلك. وإلا، فلن يبقى سوى حل وحيد... وهو حل لا أريده!».

نظرت إلى ساعة الجدار. لقد مرت اثنتا عشرة دقيقة. «الآن، تلقّى رسالتي، وسوف يعود. سيكون هنا بعد خمس دقائق، ليس

Tele: @Arab_Books

ذلك طويلاً... وإذا لم يعد؟ لا، ذلك مستحيل. يجب ألا يراني بعيني المحمرّتين. سأغسل وجهي. هل وضعتُ قبّعتي على رأسي؟» لم تستطع أن تتذكر، فمدّت يدها إلى رأسها. «نعم، لقد لبستُ قبعتي، لكن متى، لست أذكر ذلك على الإطلاق». بل إنها لم تثق بيديها، ومضت إلى مرآة الحائط لترى إن كانت حقاً لابسة قبعتها. لقد كانت مغطية رأسها لكنها لم تستطع أن تتذكر متى كان ذلك. قالت في نفسها وهي تنظر في المرآة إلى وجه محمر، ملتمع العينين على نحو غريب، يتطلع إليها وقد بدا عليه الرعب: «مَنْ هذا؟». وأدركت فجأة أنه وجهها: «آه نعم، هذا أنا»، وبينما كانت تفحص نفسها من رأسها إلى قدميها أحست بغتة بقبلات فرونسكي على جسدها، فارتعشت. وبعد ذلك رفعت إحدى يديه إلى شفتيها وقبّلتها.

«أأنا في طريقي إلى الجنون؟». ومرّت على غرفة النوم التي كانت ترتبها «آنوشكا».

قالت وهي تقف أمام الخادمة وتنظر إليها، دون أن تعلم ما ستقول لها:

– آنوشكا.

قالت لها الخادمة وكأنها قد فهمتها:

– كنتِ تنوين زيارة داريا ألكسندروفنا.

– آه! نعم، صحيح. سأذهب إليها.

«ربع ساعة للذهاب، وربع ساعة للعودة. إنه في طريقه، وسيكون

Tele: @Arab_Books

هنا بين لحظة وأخرى» وأخرجت ساعتها ونظرت إليها: «لكن كيف أمكن له أن يذهب ويتركني في مثل هذا الوضع؟ كيف يمكنه العيش دون أن يصالحني؟» ودنت من النافذة ونظرت إلى الشارع. ينبغي له أن يكون قد عاد. لعلها كانت مخطئة؟ وعادت تعدّ الدقائق بعد ذهابه.

وبينما كانت تتحقق من الوقت على ساعة الجدار، توقّفت عربة أمام الباب. ألقت نظرة من النافذة وشاهدت عربة فرونسكي. لكن لم يصعد أحد، وسُمعت في الأسفل أصوات. كان فيها الرسول الذي أرسلته في العربة. فأقبلت عليه:

– لم نجد الكونت... لقد سافر من محطة «نيجني نوفغورود»(٥٠).

قالت لميشيل، وهو فتى طلق المحيا أحمر الخدين، بعد أن أعاد إليها رسالتها:

– ماذا تريد مني؟ ماذا...

وتذكّرت:

«آه! نعم، هو لم يتسلّمها».

وقالت للخادم:

– عدْ حالاً بهذه الرسالة إلى الكونتيسة فرونسكي، أتعرفها؟ وائتني بالجواب على الفور.

٥٠– محطة نيجني نوفغورود: محطة موسكو التي يذهب منها الخط الحديدي إلى الشرق.

Tele: @Arab_Books

وفكّرت: «وأنا، ماذا سأفعل»؟ نعم، سأذهب إلى منزل دولي، صحيح، وإلا جُننت. لكني ما زلت أستطيع أن أُبرق. وكتبت البرقية: «أنا بحاجة ماسة إلى أن أكلّمك، عد بأسرع ما يمكن».

أرسلت البرقية وذهبت لترتدي ثيابها. وبعد أن وضعت قبعتها على رأسها، ألقت نظرة سريعة على آنوشكا الوديعة التي أخذت تسمن.

كانت الرأفة تقرأ في عينيها الصغيرتين، الرماديتين والمحبتين.

قالت آنا وهي تنتحب:

– آنوشكا، يا عزيزتي، ماذا يجب أن أفعل؟

وتهالكت على مقعد وقد بدا عليها الإنهاك.

قالت الخادمة:

– لماذا تعذّبين نفسك إلى هذا الحد؟ هذه أشياء تقع كثيراً. اخرجي، فسوف يُسرّي ذلك عنك.

قالت آنا وهي تتمالك نفسها وتنهض:

– نعم، هذا صحيح. إذا وصلتني برقية في غيابي فلتحْمَل إلي في منزل داريا ألكسندروفنا... أو بالأحرى لا، فلن ألبث طويلاً حتى أعود.

«نعم، يجب ألا أفكر، بل أن أفعل شيئاً ما، أن أخرج، أن أخرج

Tele: @Arab_Books

بخاصة من هذا المنزل». كانت تقول ذلك في نفسها وهي تسمع برعب دقّات قلبها المخيفة. وخرجت مسرعة وصعدت إلى العربة.

سألها «بيير» قبل أن يجلس في مقعده:

– إلى أين ينبغي أن أوصل سيدتي؟

– شارع «التجلي»، منزل آل أوبلونسكي.

Tele: @Arab_Books

-٢٨-

كان الجو صافياً. لقد هطل، طوال الصباح، مطر ناعم وكثيف، ثم صَحَت السماء. كانت السطوح، وبلاط الأرصفة، وحجارة الطريق. والعربات وجلد عُدد الجياد ونحاسها، كان ذلك كله يلمع بضياء متوهج تحت شمس أيار. كانت الساعة الثالثة وهي الساعة التي تكون فيها حركة الشارع على أشدها.

جلست آنا في ركن من العربة المريحة المتهادية برفق على نوابضها اللينة، والتي يخب بها جوادان رماديان، تستعرض أحداث الأيام الأخيرة، في قرقعة العجلات، ووسط الانطباعات التي تتالت بسرعة في الهواء الطلق. لقد رأت وضعها رؤية مختلفة كل الاختلاف. ففكرة الموت لم تعد تبدو لها مرعبة كما كانت من قبل، والموت نفسه لم يعد يبدو محتّماً. ولامت نفسها على انحطاطها. «لقد رجوته أن يصفح عني. لقد خنعت. عزوت الأخطاء إلى نفسي. لماذا؟». ودون أن تجيب عن هذا السؤال، أخذت تقرأ عنوان المحلات: مخزن ومستودع. طبيب أسنان... نعم سأقول كل شيء لدولي. إنها لا تحب فرونسكي. سيكون ذلك مؤلماً ومخزياً. لكنني سأقول لها كل شيء. إنها تُضمر الحب لي وسآخذ بنصائحها. لن أذلّ بعد الآن أمامه. وليس له أن يملي

Tele: @Arab_Books

علي سلوكي. فيليبوف، خبز أبيض... يُقال إنهم يرسلون العجين إلى بطرسبرج. إن ماء موسكو عذب جداً. وخزانات «ميتيتشتي» وفطائرها! وتذكّرت أنها قصدت مع عمّتها، منذ زمن بعيد، عندما لم يكن لها سوى سبعة عشر عاماً، إلى دير كنيسة القديس سيرج. ذهبنا في العربة. أكنت أنا حقاً مع عمتي، بيدي الحمراوين؟ كم من الأشياء تبدو لي الآن تافهة وكانت تبدو آنذاك عجيبة، بعيدة المنال؛ إن أحلام تلك الفترة هي التي لا أستطيع أن أجدها مرة أخرى. أكنت أصدّق آنذاك أنني سأقبل مثل هذه المذلّة؟ كم سيكون فخوراً وراضياً عندما يتسلّم كلمتي! سوف أشعره... ما أكره رائحة هذا الدهان! ما جدوى هذا الدهان المستمر وهذا البناء المستمر! وقرأت: «أزياء وملابس نسائية». حياها رجل. كان زوج «آنوشكا». «طفيليون علينا» كما قال فرونسكي. علينا؟ لماذا علينا؟ إنه لشيء فظيع ألا نستطيع اقتلاع الماضي بجذوره. إذا كنا لا نستطيع اقتلاعه فنحن نستطيع، على الأقل، أن نتظاهر بنسيانه. وهذا ما سأفعله. وهنا تذكرت ماضيها مع ألكسي ألكسندروفتش الذي محته كلياً من ذاكرتها. ستعتقد «دولي» أنني أهجر زوجي الثاني وأن الذنب، من ثم، ذنبي. لكنني لا أطمح أن يكون الحق معي! واشتهت أن تبكي. وما لبثت أن تساءلت: لماذا كانت الفتاتان تتحدثان وهما تبتسمان. كانتا تتحدثان عن الحب، من دون شك. وهما تجهلان كم هو محزن ومُذل... الجارة، الأولاد. ثلاثة صبية صغار يلعبون لعبة الجياد. سيريوجا! إني أفقد كل شيء، وأنت لن تُعاد إلي. نعم، كل شيء ضائع، إن لم يرجع. لعل القطار فاته ولعله الآن في البيت. وقالت لنفسها: «أنتِ تسعين إلى إذلال نفسك من جديد! نعم، ما إن أرى دولي حتى أقول لها في الحال: أنا تعسة،

Tele: @Arab_Books

والغلطة غلطتي، وأنا أستحق ما أصابني لكني أتألم ويجب أن تهبّي إلى نجدتي. هذه الجياد، وهذه العربة، كل ذلك له، وإني لأشعر بالتقزز في هذه العربة. عما قريب، أكف عن رؤيتها إلى الأبد!».

كانت آنا تُهيئ جملها، وهي تصعد الدرج، وتنكأ جراحها عن علم بما تفعل.

سألت في البهو:

– هل من أحد هنا؟

أجابها الخادم:

– كاترين ألكسندروفنا ليفين.

وفكّرت آنا: «كيتي! نفسها الذي كان فرونسكي مشغوفاً بها، تلك التي يتذكرها بقوله. إنه نادم لأنه لم يتزوجها في حين هو يكرهني ويأسف على لقائنا».

عندما وصلت آنا، كانت الأختان تتناقشان في الإرضاع. نهضت دولي وحدها للقاء الزائرة التي قطعت حديثهما. وقالت لها:

– ألم تذهبي بعد؟ كنت أنوي زيارتك. تلقيت اليوم رسالة من ستيفا.

أجابت آنا التي كانت تنظر حولها باحثة عن كيتي:

– نعم، لقد أرسل إلينا برقية.

Tele: @Arab_Books

- كتب إلي يقول: إنه لا يستطيع أن يفهم ما يريده ألكسي ألكسندروفتش بالضبط، لكنه لن يسافر قبل أن يحصل على الجواب.

- ظننت أن عندك ضيفاً. أأستطيع أن أرى تلك الرسالة؟

قالت دولي وقد انزعجت:

- نعم، كيتي هنا؛ وهي في غرفة الأولاد. لقد أبلّت من مرض شديد.

- علمت بذلك. أأستطيع أن أرى تلك الرسالة؟

قالت دولي وهي تقف على عتبة الباب:

- سآتيك بها... إنه لا يرفض، أتعلمين؛ على العكس، إن ستيفان ما يزال يرجو.

قالت آنا:

- أما أنا فلست أرجو شيئاً ولا أتوق إلى شيء.

فكّرت آنا وقد بقيت وحدها: «وهكذا، فإن كيتي تُقدّر أن من المخزي مقابلتي! وربما كانت على حق. لكنها لا تملك، وهي التي أغرمت بفرونسكي، أن تُملي عليّ سلوكي. أنا أعلم أن أية امرأة محتشمة تأبى أن تستقبلني وأنا في هذا الوضع. لقد ضحّيت له بكل شيء، منذ الدقيقة الأولى. وهذه هي مكافأتي! أوه! كم أكرهه! لِمَ جئتُ إلى هنا؟ الأمر هنا أسوأ وأشق».

Tele: @Arab_Books

سمعت الأختين تتحدثان في الغرفة المجاورة. «ماذا سأقول لدولي الآن؟ سأُفرح كيتي بمشهد تعاستي، وسأبدو كمن يستجدي رضاها وعطفها! لا! على كل حال لن تفهمني دولي. وليس عندي ما أقوله لها. ومع ذلك فأنا أحب أن أرى كيتي لأريها كم أحتقر كل شيء وكل الناس، وكيف تستوي عندي الأشياء جميعاً».

عادت دولي بالرسالة، فقرأتها آنا وردّتها إليها دون أن تقول كلمة.

قالت:

– كنت أعلم ذلك كله. وهذا لا يهمني بتاتاً.

قالت دولي وهي تنظر إلى آنا بفضول:

– ولَمَ ذاك؟ على العكس، الأمل كبير.

لم ترها قط في مثل هذه الغرابة والعصبية. وسألتها:

– متى تسافرين؟

نظرت آنا أمامها وهي تغمض عينيها نصف إغماضة، دون أن تجيب بشيء. ثم قالت وهي تنظر إلى الباب وتحمرّ:

– هل تخاف كيتي مني؟

قالت دولي بشيء من الخرق لأنها لا تعرف الكذب:

– أوه! يا لها من حماقة! إنها تُرضع ابنها، لكن ذلك لا يجري على

Tele: @Arab_Books

ما يرام؛ ولذلك قدّمتُ لها بعض النصائح... ستُسَرّ كثيراً برؤيتك. وستأتي، في الحال.

عندما علمت كيتي بقدوم آنا، كانت أول حركة بدرت منها هي ألا تظهر أمامها. لكن دولي أقنعتها بالعدول عن ذلك. فحزمت كيتي أمرها ودخلتْ ودنت من آنا وهي تحمرّ لتمدّ يدها إليها. وقالت بصوت مرتعش:

– أنا سعيدة برؤيتك.

كانت كيتي مضطربة من جراء الصراع الذي نشبَ فيها بين عدائها لهذه المرأة الشريرة ورغبتها في التسامح؛ لكنها ما إن رأت وجه آنا الجميل، الأنيس، حتى اختفى عداؤها.

قالت آنا:

– ما كنتُ لأدهش لو رفضتِ رؤيتي. لقد تعوّدتُ كل شيء. كنتِ مريضة؟ نعم، أراك متغيّرة.

كانت كيتي تشعر أن آنا تنظر إليها بحقد. وعزتْ هذا الحقد إلى الضيق الذي تعانيه آنا الآن بحضورها، وكانت من قبل ترعاها، فأشفقت عليها.

تحدّثن عن مرض كيتي، عن ابنها، عن ستيفا، لكن كان واضحاً أن آنا لا تُعنى بشيء من ذلك كله. وقالت وهي تنهض:

– جئت لتوديعك.

Tele: @Arab_Books

– متى تسافرين؟

إلا أن آنا التفتت هذه المرة أيضاً إلى كيتي، دون أن تجيب، وقالت لها وهي تبتسم:

– أنا سعيدة لأنني رأيتك ثانية. سمعت الناس يتحدثون عنك من جهات شتى، وحتى زوجك. وأضافت، بقصد سيئ، على ما يظهر:

– لقد جاء لزيارتي، وأعجبني كثيراً. أين هو؟

قالت كيتي وهي تحمر:

– عاد إلى الريف.

– بلّغيه تحياتي، ولا تنسي ذلك.

فرددت كيتي ببراءة وهي تنظر إليها نظرة مشفقة:

– لن أنسى ذلك.

– وداعاً، دولي!

عانقتها آنا، وشدت على يد كيتي، وخرجت مسرعة.

قالت كيتي بعد أن بقيت وحدها مع أختها:

– إنها ما تزال فاتنة كما كانت من قبل. ما أجملها! لكن فيها شيئاً يثير الشفقة. إنها تثير شفقتي على نحو هائل.

Tele: @Arab_Books

قالت دولي:

- لم تكن في حالتها الطبيعية. وعندما شيّعتها إلى البهو، لاح لي أنها كانت تشتهي أن تبكي.

Tele: @Arab_Books

-٢٩-

عندما صعدت آنا إلى العربة كانت أشد تعاسة منها عند مغادرتها بيتها. فإلى آلامها انضاف الآن ذلك الشعور بسقوطها وبإعراض الناس عنها، وهو شعور تملّكها على نحو شديد الحدة بحضور كيتي.

سألها «بيير»:

– أتودّ سيدتي الرجوع إلى البيت؟

فقالت، مع أنها لم تعد تفكر في المكان الذي تقصد إليه:

– نعم.

«لقد تأمّلتاني كما يتأمل الناس شيئاً فظيعاً، شيئاً غريباً لا يُفهم...»

وحدّثت نفسها وهي تنظر إلى اثنين من المارة: «ما الذي يمكن أن يقوله أحدهما للآخر بمثل هذه الحرارة؟... كنتُ أنوي أن أبوح بين يديها بما في نفسي، ولحسن الحظ أنني لم أفعل. كم كانت ستشمتُ بتعاستي! ما كانت لتدع شيئاً من شماتتها يظهر، لكن شعورها المهيمن كان سيكون شماتتها بأن تراني أكفّر عن المسرات التي حسدتني عليها. وكانت كيتي ستكون أعظم سروراً. إنني أقرأ في أفكارها. إنها تعلم

Tele: @Arab_Books

أنني كنت ألطف مما يليق مع زوجها. وهي تغار مني وتكرهني، وهي تحتقرني فوق ذلك كله. أنا، في نظرها، امرأة سيئة السلوك. ولو كنتُ كذلك لأغريتُ زوجها بحب... لو أردتُ ذلك. ولقد فكّرت في ذلك، على كل حال». وقالت في نفسها بينما كانت عربتها تُقبل على رجل ضخم، نضر الوجه، ظنّ أنه يعرفها فرفع قبّعته العالية والبرّاقة من فوق رأسه الأصلع اللمّاع، و لم يفطن إلى غلطه إلا متأخراً: «وهذا رجل راض عن نفسه. لقد ظن أنه يعرفني. وهو لا يعرف عني إلا النزر القليل كأيّ إنسان على هذه الأرض. أنا نفسي لا أعرف نفسي. إنني أعرف «شهواتي» كما يقول الفرنسيون». وقالت وهي ترى صبيين صغيرين يوقفان بائع المثلّجات الذي وضع سطله على الأرض وأخذ يجفف وجهه العرقان بطرف الممسحة: «هذان الصبيان يشتهيان هذه المثلجات الرديئة. إنهما واثقان من ذلك، على الأقل. نحن جميعاً نشتهي السكاكر والحلويات. فإذا لم نجد السكاكر ارتددنا إلى المثلجات الرديئة. هذا مثل كيتي: رضيتْ بليفين حين فقدت فرونسكي، وهي تحسدني، وتكرهني. أنا وهي متباغضتان.أنا أكره كيتي، وكيتي تكرهني. هذه هي الحقيقة. مُزيّن... إني أزين شعري عند توتكين. سأروي له ذلك عندما يعود». قالت ذلك وابتسمت. لكنها تذكّرت في اللحظة نفسها أنه لم يبق هناك مَنْ تُضحكه... «على كل حال، ليس ها هنا ما يضحك. كل شيء حقير. الأجراس تدعو إلى صلاة المساء؛ ما أشد احتراس هذا التاجر وهو يرسم إشارة الصليب: كأنه يخاف أن يسقط منه شيء. لِمَ هذه الكنائس، وهذه الأجراس، وذلك الكذب؟ لتخفي فقط أننا متباغضون، يبغض بعضنا بعضاً مثل سائقي العربات الذين يشتم بعضهم بعضاً. قال إياشفين: «إن خصمي

Tele: @Arab_Books

في اللعب سيكون سعيداً لو سلبني كل شيء حتى قميصي، وأنا أفعل مثله». ما أصدق ذلك! توقّفت أمام البيت، وهي مستغرقة في هذه الأفكار التي ألْهتها عن نفسها حتى نسيتْ وضعها. و لم تتذكر أنها أرسلت رسالة وبرقية إلا عندما رأت الحاجب يخرج إلى لقائها. سألته:

– هل ورد الجواب؟

أجاب الحاجب:

– سأرى.

وبعد أن ألقى نظرة سريعة في غرفة الانتظار، تناول عن الطاولة المغلّف الناعم المربع المحتوي على البرقية وحمله إليها. فقرأت: «لا أستطع العودة قبل الساعة العاشرة».

– ألم يعد الرسول بعد؟

فأجاب الحاجب:

– لا.

قالت في نفسها: «إذا كان الأمر كذلك، فأنا أدري ما الذي بقي علي أن أفعله» وشعرت برغبة مبهمة في الانتقام، وصعدت الدرج بسرعة. «سأذهب بنفسي لألقاه. سأقول له كل شيء، قبل أن أسافر إلى الأبد. لم أكره قط رجلاً كما أكره هذا الرجل!». وعندما رأت قبعة فرونسكي معلّقة بالمشجب، ارتعشت من الاشمئزاز. لم يدرْ بخلدها أن هذه البرقية كانت رداً على برقيتها وأنه لم يتلقّ بعد كلمتها.

Tele: @Arab_Books

وتصوّرته وهو يتحدث بهدوء مع أمه ومع الآنسة سوروكين ويلتذّ بالآلام التي تكابدها. «نعم، يجب أن أسافر بأسرع ما يمكن».قالت ذلك في نفسها، وهي لا تعلم بعد إلى أين تذهب. لقد أرادت أن تُفلت من العواطف التي اجتاحتها في هذا البيت الكريه.

إن الخدم والجدران والأشياء في هذا المنزل، كل ذلك كان يوقظ في نفسها الاشمئزاز والكره، ويسحقها.

«سأذهب إلى المحطة؛ فإذا لم أجده فيها ذهبتُ إلى هناك وداهمته مداهمة». وفتّشت في الجريدة عن مواعيد القطارات. كان بينها قطار ينطلق في الساعة الثامنة ودقيقتين. «سأصل في الوقت المناسب». وأمرتْ بربط الجياد النشيطة، وملأت حقيبة صغيرة بالأشياء التي لا بدَّ منها لبضعة أيام. كانت تعلم أنها لن تعود. كما قررت أيضاً (كانت هذه خطة من خطط عديدة خطرت ببالها) أنها ستأخذ القطار باتجاه «نيجني» وستنزل في أول محطة، وذلك بعد أن يحدث ما يحدث في المحطة أو عند الكونتيسة.

قُدّم العشاء، ومضت إلى غرفة الطعام، لكن رائحة الخبز والجبن أرعبتها. فأمرت بتقريب العربة ونزلت. كان البيت يلقي ظله على عرض الطريق، وكان المساء صافياً، والشمس ما تزال تدفئ. وكانت آناشوكا التي أنزلت حقيبتها، و«بيير» الذي وضع الحقيبة في العربة، والحوذي، ظاهري الاستياء، وكانوا جميعاً كريهين في نظرها: لقد غاظتها حركاتهم وكلماتهم.

– لا حاجة بي إليك، يا «بيير».

Tele: @Arab_Books

- ومَنْ يقطع لك تذكرتك؟

فقالت بتبرّم:

- طيب، لا فرق عندي، إذا شئت.

صعد «بيير» إلى المقعد، وحط قبضتيه على خصريه، وأمر الحوذي بالتوجه إلى المحطة.

Tele: @Arab_Books

- ٣٠ -

قالت آنا في نفسها بعد أن تحركت العربة مخلفة وراء عجلاتها رنيناً مدوّياً على حجارة الطريق غير المستوية: «ها أنا ذا أفهم كل شيء مرة أخرى!». وأخذت الإحساسات تتوالى في رأسها من جديد.

حاولت أن تتذكر فيم فكّرت أخيراً؟ في تيوتكين، المزيّن؟ لا، ليس كذلك. نعم، كنتُ أفكر فيما قاله لي إياشفين: إن الصراع من أجل الحياة والكراهية، هما الرابط الوحيد الذي يجمع بين البشر. وقالت في فكرها لجماعة مستقرة في عربة تقودها أربعة جياد، وكان واضحاً أن هذه الجماعة إنما تذهب إلى الريف طلباً للتسلية: «لا تستعجلوا إلى هذا الحد. الكلب ذاته الذي تأخذونه معكم لا يمكن أن يساعدكم. لن تُفلتوا من أنفسكم». ونظرت إلى الجهة التي نظر إليها «بيير» فرأت عاملاً فاقداً وعيه من السُكر يهز رأسه، ويقوده شرطي. ففكرت في نفسها: هذا هو الأصح. لقد نشدنا، فرونسكي وأنا، هذه اللذة التي طالما ترجّيناها، فلم نهتد إليها. ولأول مرة سلّطت آنا على علاقاتها بفرونسكي، تلك العلاقات التي كانت تتحاشى أن تفكر فيها من قبل، هذا النور الوهّاج الذي بواسطته انكشف لها كل شيء. «ما الذي كان يَنشده في؟ لم يَنْشد الحب بقدر ما نشد إشباع الغرور». وتذكرت كلماته وأماراته

Tele: @Arab_Books

المتذلّلة في الآونة الأولى من علاقاتهما. كل شيء الآن يؤكّد شكوكها. نعم، إن غروره هو الذي كان ينتصر. كان يحمل لي شيئاً من الحب أيضاً، لكنه كان فخوراً بنجاحه قبل كل شيء. كان يفخر بي، أما الآن فقد انتهى كل شيء. لم يبق له ما يفتخر به. بل لقد غدا يخجل بي. أخذ مني كل ما يستطيع أخذه، ولم تَعُدْ له حاجة بي. أنا عبء عليه وهو يحاول جاهداً ألا يكون لئيماً معي. فضح نفسه أمس: إن كان يرغب في الطلاق، وفي الزواج بي فلكي يقطع على نفسه خط الرجعة. إنه يجنني، لكن بأية طريقة يجنني؟ لقد تلاشى الباقي... وفكرت وهي تشاهد وكيلاً تجارياً أحمر الخدين يمتطي جواداً للترويض: «هذا الرجل يريد أن يُدهش جميع الناس وهو شديد الرضا عن ذاته...» «لا، بل إنه فقد هذا الميل إلي. ولو تركته لاغتبط في أعماق ذاته».

لم يكن ذلك افتراضاً، وإنما رأته بوضوح في هذا النور الكاشف الذي كشف لها، في هذه اللحظة، معنى الحياة والعلاقات الإنسانية.

تابعت تفكيرها:

«إن حبي يزداد مع الزمن توقداً وأنانية، أما حبه فيخمد من يوم إلى يوم، ولذلك تباعدنا أحدنا عن الآخر. ولا علاج لذلك. إنه كل شيء بالنسبة إلي وأريد أن يمنحني نفسه كاملة. أما هو فيزداد رغبة في الإفلات مني. قبل علاقتنا، كان كل منا يسير إلى لقاء الآخر، أما منذ هذه العلاقة فكل منا يسير في طريقه التي لا محيدَ عنها. لا سبيل إلى تغيير ذلك. يقول لي: إنني أغار على نحو مضحك؛ وأنا لمتُ نفسي على غيرتي؛ بيد أن ذلك غير صحيح. فلست غيرى، وإنما أنا غير راضية. لكن...» فتحت فمها وغيّرت مكانها في العربة، وقد هزّتها فكرة مفاجئة مرّت ببالها.

Tele: @Arab_Books

«ليتني أستطيع أن أكون شيئاً آخر غير عشيقة متعطّشة إلى مداعباته؟ لكنني لا أستطيع ولا أريد أن أكون شيئاً آخر بالنسبة إليه. إن شوقي إليه يَصرفه عني، وأنا استشعر المرارة من جراء إعراضه، ولا مناص من ذلك. أنا واثقة من أنه لا يخدعني، ولا يطمع في الزواج بالصغيرة سوروكين، وليس عاشقاً لكيتي، وأنه لن يخونني. أعرف ذلك كله، لكنني لست أسعد حالاً، مع هذه المعرفة. ولو لم يكن طيباً ورقيقاً معي إلا بدافع الواجب، دون أن يحبّني، لما كان هذا هو ما أتوق إليه. نعم، إن ذلك سيكون أسوأ ألف مرة من الكراهية! سيكون... الجحيم! ولقد وصلنا إلى هذه النقطة. فمنذ زمن بعيد كفّ عن حبي. وحيث ينتهي الحب تبدأ الكراهية... لم أمر قط من هنا. شوارع تصعد وبيوت، بيوت لا تنقطع... وفي البيوت ناس... وجميعهم، أياً كان عددهم، يبغض بعضهم بعضاً. مهلاً لنحاول تحديد ما أصبو إليه لأكون سعيدة. ما الذي أصبو إليه؟ أن يوافق ألكسي ألكسندروفتش على الطلاق، وأن يعيد إلي سيريوجا وأن أتزوج فرونسكي».

عندما فكّرت بألكسي ألكسندروفتش تصوّرته بوضوح خارق، كما لو أنه كان أمامها بنظرته الوادعة والمنطفئة، وبيديه البيضاوين وعروقهما الزرقاء، وبنبراته وأصابعه التي كانت تفرقع. وتذكّرت الشعور الذي كان قائماً بينهما والذي كان يُطلق عليه أيضاً اسم الحب، فارتعشت من الاشمئزاز.

«طيب؛ لنفرض أنني حصلتُ على الطلاق وأنني صرت زوجة لفرونسكي. وبعد ذلك؟ هل تكفّ كيتي عن النظر إلي كما نظرت إلي اليوم؟ لا. هل يكفّ سيريوجا عن التساؤل لماذا تزوجت اثنين؟

Tele: @Arab_Books

هل يمكن أن ينشأ بين فرونسكي وبيني شعور جديد؟ هل يمكنني أن أتوقع شيئاً (بغض النظر عن السعادة) لا يكون عذاباً لي؟ كلا ثم كلا!» أجابت بذلك هذه المرة دون أدنى تردد. «هذا مستحيل! الحياة نفسها هي التي تفصل بيننا: أنا سبب شقائه، وهو سبب شقائي، ونحن لا نستطيع، لا هو ولا أنا، أن نغير نفسينا. لقد جرّبنا كل شيء، ولن يجدي شيء. ها هي ذي متسوّلة مع ابنها. هي تتصور أنها تثير الشفقة. لكن ألم يُلقَ بنا على هذه الأرض لكي يبغض بعضنا بعضاً. لكي نتعذب ونعذّب الآخرين؟ وطلاب المدارس؛ إنهم يلهون». وتذكّرت ابنها: «سيريوجا؟. ظننت أنني أحبه وتحننت على عواطفي نفسها. ومع ذلك، فقد عشتُ بدونه، وبادلت به حباً آخر ولم أشك من هذه المبادلة طالما كان ذلك الحب الآخر مُشبعاً». تذكّرت برعب ما سمّته الحب الآخر. لقد ملأها فرحاً ذلك الضياء الذي غمر الآن حياتها وحياة جميع الناس. «نحن، في ذلك، سواء، أنا وبيير والحوذي فيدور، وذلك التاجر هناك وجميع الذين يسكنون على ضفاف الفولغا التي تحثنا هذه الإعلانات على زيارتها. الناس جميعاً كذلك في كل مكان وزمان». كذلك كانت تفكر وهي تقترب من محطة نيجني – نوفغورود المنخفضة. وهُرع الحمّالون إلى لقائهم.

سألها «بيير»:

– هل ينبغي أن نقطع التذكرة إلى اوبيرالوفكا[٥١]؟

٥١– اوبيرالوفكا: محطة على خط نيجني نوفغورود، على بعد١٦ كم من موسكو، ومكان للاصطياف.

Tele: @Arab_Books

نسيت كلياً إلى أين ستذهب ولماذا. وكان لا بدَّ لها من أن تبذل جهداً كبيراً لتفهم السؤال.

قالت له وهي تمد إليه كيس نقودها.

- نعم.

تناولت حقيبتها الحمراء الصغيرة ونزلت من العربة.

وبينما هي تتجه، من خلال الجمهور، إلى قاعة انتظار الدرجة الأولى، عادت إلى ذاكرتها جميع تفاصيل وضعها والاختيارات المتعددة التي ترددت بينها. وجاء الأمل واليأس الواحد تلو الآخر لينكآ جراح قلبها المُضنى والمتألم الذي اشتد خفقانه حتى كاد يتمزق. كانت جالسة على أريكة لها شكل نجمة، تنتظر القطار، وتنظر باشمئزاز إلى الداخلين والخارجين، وجميعهم كانوا يبدون كريهين. فتارة ترى نفسها وقد وصلت إلى المحطة، وأخذت تؤلّف الرسالة التي ستبعث بها إلى فرونسكي؛ وتارة أخرى تتصور فرونسكي وقد استخفّ بآلامها وأخذ يشتكي إلى أمه منها: هيأت حينئذ ما سوف تقوله له وهي تدخل القاعة. أو أنها كانت تحلم بأنها يمكن أن تكون سعيدة، وبأن العذاب الحق هو أن تحبه وتكرهه في آن واحد كما هو شأنها الآن؛ وأرعبتها دقات قلبها.

دوّى قرع جرس؛ ومرّ أمام آنا شباب كريهو المنظر، وقحو الهيئة، مستعجلون ومعنيّون، في الوقت نفسه، بالأثر الذي يُحدثونه. عَبرَ «بيير» قاعة الانتظار، وهو غارق في بزته الرسمية ولفافتيه، ودنا منها بوجه كوجه الحيوان الغبي، لكي يقودها إلى حافلتها. سكت الشباب

Tele: @Arab_Books

الذين كانوا يتحدثون بصوت عال عندما مرت على الرصيف، بقربهم، وأبدى أحدهم ملاحظة بصددها تخلو من الحشمة. صعدت السلم الصغير وجلست في العربة الفارغة على أريكة لينة كانت بيضاء من قبل، وهي الآن مغطاة بالبقع. وثبتت حقيبتها الصغيرة على نوابض الأريكة، ثم تجمّدت. رفع «بيير» عمرته المزينة بشرائط، من خلف النافذة، مودّعاً لها، وعلى فمه ابتسامة بلهاء؛ صفق باب العربة مراقب فظ. مرت امرأة بشعة ترتدي خراطة (عرتها آنا في فكرها وهالتها بشاعتها) ومعها بنات صغيرات وهن يقهقهن ويركضن على الرصيف.

صاحت إحدى البنات:

– كاترين اندريفنا هي التي تملكها، يا عمتي!

فكّرت آنا: «هذه البنت متصنّعة ومنافقة». ولكي لا ترى أحداً نهضت بسرعة وجلست في الجهة الأخرى من العربة قرب النافذة مر أمام النافذة فلاح قصير، بشع وقذر، وعلى رأسه عمرة تفلّت منها شعره الأشعث، وانحنى نحو عجلات القطار. وحدثت آنا نفسها: «هذا الرجل القبيح يذكّرني بشيء ما». حينئذ عاد حلمها إلى ذاكرتها؛ فالتجأت بحذاء الباب وهي ترتجف من الرعب. فتح المراقب الباب ليُدخل سيداً وسيدة.

– أترغبين في النزول؟

لم تجب آنا. ولم يلاحظ المراقب والقادمان أمارات الرعب على وجهها الذي غشّته غلالة. وعادت لتجلس في ركنها، وأخذت

Tele: @Arab_Books

تفحص زينتها خفية، في حين جلس الزوجان في الطرف الآخر من المقصورة. وبدا لها الزوج والزوجة كريهين. استأذنها الزوج بالتدخين: كان من الواضح أن تلك ذريعة ليشرع في الحديث معها. وعندما نال موافقة آنا، خاطب زوجته بالفرنسية قائلاً لها: إنه لا يرغب في الكلام ولا في التدخين. كانا يقولان تفاهات، ويتصنعان الجِدّ، ليسترعيا انتباه آنا، لا غير. وكانت ترى أن كلاً من الزوجين قد سئم الآخر وكرهه. وعلى كل حال كيف لا تُكرَه أمثال هذه المسوخ التي تدعو إلى الرثاء؟

تلتْ قرعة الجرس الثانية جلبة امتزجت فيها ضجة الأمتعة التي كانت تُنقل بالصراخ والضحك. كانت آنا مقتنعة أشد اقتناعاً بأنه لا مجال للابتهاج فغاظها هذا الضحك حتى الألم؛ وتمنّت لو تسدّ أذنيها حتى لا تسمعه. وأخيراً رنّ الجرس للمرة الثالثة؛ سُمعَ صوت صافرة ثم صوت القاطرة الشاكي؛ تحرك القطار، ورسم الزوج علامة الصليب. قالت آنا في نفسها وهي ترميه بنظرة معادية: «من المثير أن نسأله عن المعنى الذي يَنسبه إلى هذه الحركة». نظرت من النافذة، من فوق رأس السيدة، إلى الناس الذين جاؤوا لمرافقة المسافرين وقد ظهروا الآن كمن يتراجعون، وهم ثابتون على الرصيف. اهتزت العربة التي استقرت فيها آنا اهتزازاً منتظماً عند نقاط تلاقي الخطوط، وخلّفت وراءها الرصيف، وجداراً من الآجر، وقرص المرور، وقاطرات أخرى؛ وأخذت العجلات تنزلق على الخطوط بسرعة متزايدة، في ضجيج معدني خفيف. استنارت النافذة بضياء المغرب الوهاج وهبّ النسيم الخفيف فرفع ستارها. نسيت آنا جاريْها، وهدهدها سير القطار هدهدة رفيقة فاستأنفت تفكيرها وهي تتنفس الهواء الندي.

Tele: @Arab_Books

نعم، أين توقفت في تفكيري؟ عند النقطة التالية: وهي أنني لا يمكنني أن أترقّب وضعاً لا تكون الحياة فيه عذاباً لي. نحن جميعاً خُلِقنا لنتألم، ونحن نعلم ذلك ونسعى إلى كتمانه عن أنفسنا. لكن متى رأينا الحقيقة، فماذا يجب أن نفعل؟

قالت السيدة بالفرنسية، وواضح أنها كانت راضية عن جملتها:

– لقد أعطيَ الإنسان عقلاً ليتخلّص مما يثير قلقه.

بدت هذه الكلمة كأنها رد على فكرة آنا. فكررت: «ليتخلص مما يثير قلقه». ورمت بنظرتها السيد ذا الوجه الأحمر ورفيقته المهزولة، وقدّرت أن هذه المخلوقة السقيمة تعدّ نفسها امرأة لم يفهمها زوجها، وتعتبر أن زوجها يخدعها، وتحافظ على رأيها بنفسها. وخُيل إلى آنا أنها ترى قصتهما وهي تُنقّل الضوء في أشد حنايا نفسيهما خفاء. لكنها لم تجد في ذلك ما يثير اهتمامها فعادت إلى تفكيرها.

«نعم، إنني أعاني قلقاً مبرّحاً، وقد أُعطيت العقل لأتخلّص منه؛ يجب إذن أن أتخلّص منه. لماذا لا نطفئ الضوء عندما لا يبقى شيء ننظر إليه، عندما يبدو لك كل شيء حقيراً؟ لكن كيف نفعل؟ لماذا يركض هذا المستخدم على السلم الحديدي؟ ولماذا يصرخ هؤلاء الشباب في العربة المجاورة؟ وما حاجتهم إلى الكلام والضحك؟ أينما تطلعتُ وجدتُ الزيف والكذب والمكر والشر!».

عندما توقف القطار في المحطة، نزلت آنا بين جمهور المسافرين، وتريّثت على الرصيف، متحاشية هؤلاء المسافرين كأن الوباء قد

Tele: @Arab_Books

حل بهم، ومحاولة أن تتذكّر لماذا جاءت إلى هنا وماذا كانت تنوي أن تفعل. كل ما كان يبدو لها من قبل ممكناً بدا لها الآن عسير المنال، ولا سيما وسط هذا الجمهور الصاخب من الناس البشعين الذين لا يَدعونها تستريح. كانوا حيناً من الحمّالين الذين يبادرون إلى عرض خدماتهم، وحيناً آخر كانوا شباباً يصعّدون فيها النظر ويتكلمون بصوت عال ويدقون أعقابهم على أرض الرصيف، وفي بعض الأحيان كان الذين يصادفونها يتنحّون إلى الجانب الضيق من الرصيف. وتذكّرت أنها كانت تنوي متابعة سفرها إن لم تجد الجواب، فاستوقفت حمالاً وسألته إن كان لم ير حوذياً يحمل رسالة إلى الكونت فرونسكي.

– الكونت فرونسكي؟ جاء الرسول من عنده قبل قليل ليأخذ الأميرة سوروكين وابنتها. صفي لي هذا الحوذي.

بينما كانت تتكلم مع الحمال، دنا منها الحوذي ميشيل محمراً فرحاً، بمعطفه الأزرق الداكن وسلسلة ساعته، وناولها رسالة. فضّت الرسالة وانقبض قلبها قبل أن تقرأها. كتبَ فرونسكي: «آسف كثيراً لأن رسالتك لم توافني في موسكو. سأعود في الساعة العاشرة». وكانت الكلمات مخطوطة بيد متهاونة.

قالت في نفسها وعلى وجهها ابتسامة مُستنكِرة:

«الأمر كما قدّرت! كنت أتوقع ذلك!». وقالت بصوت بهيم وهي تلتفت إلى ميشيل:

Tele: @Arab_Books

- حسناً، تستطيع أن تعود.

كانت تتكلم بصوت خافت لأن ضربات قلبها المتسارعة منعتها من التنفس. وفكرت: «لا، لن أسمح لك بأن تعذّبني إلى هذا الحد». هذا التهديد كان موجّهاً إلى من عذّبها. وتابعت تمشّيها على الرصيف.

أدارت خادمتان كانتا تذرعان الرصيف رأسيهما لتنظرا إليها وأبدتا بعض الملاحظات على زينتها بصوت عال. قالتا عن التخريمات التي تضعها: «إنها تخريمات حقيقية». ولم يدعها الشباب وشأنها. فمرّوا قربها مرة أخرى وهم يتفرّسون فيها ويصيحون بصوت متكلّف. وسألها ناظر المحطة إن كانت ستستقل القطار... وكان هناك صبي يبيع الشراب فلم يرفع بصره عنها. وفكرت وهي تبتعد: «إلى أين أذهب، يا إلهي؟». وتوقفت في نهاية الرصيف. رأت نساء وأطفالاً جاؤوا يبحثون عن سيد ذي نظارتين وهم يضحكون ويتكلمون بصخب، فلما شاهدوها بحذائهم لاذوا بالصمت. حثّت خطاها، وابتعدت عن الجماعة، ومضت لتقف على حافة الرصيف.

دنا قطار البضائع، وارتج الرصيف، وظنت نفسها مرة أخرى في القطار الطائر.

وفجأة تذكّرت الرجل المدهوس في اليوم الذي لقيت فيه فرونسكي لأول مرة، وأدركت بغتة ما الذي بقي عليها أن تفعله. فهبطت بخطوات سريعة وخفيفة درجات السلم الذي يقود من المضخة إلى الخط الحديدي، ووقفت قرب القطار الذي كان يدخل المحطة. لامسها القطار تقريباً. أخذت تفحص أسفل الحافلات

Tele: @Arab_Books

والحزقات والسلاسل والعجلات الحديدية العالية في العربة الأولى التي كانت تتقدم ببطء. وحاولت أن تقيس بعينيها المسافة التي تفصل العجلات الأمامية عن العجلات الخلفية، واللحظة التي تكون فيها وسط هذه المسافة.

قالت في نفسها وهي ترى، في ظل الحافلة، الرمل الممتزج بنثار الفحم والذي يغطّي العوارض: «هناك! هناك، في الوسط بالضبط؛ سأعاقبه وسأتخلص من الجميع ومن نفسي».

أرادت أن ترمي بنفسها تحت الحافلة الأولى، لكن حقيبتها الحمراء الصغيرة التي لم تستطع أن تنزعها في الحال فوّتت عليها الفرصة. كان لا بدَّ لها من انتظار الحافلة الثانية، تملّكها شعور شبيه بالشعور الذي كان ينتابها قبل أن تلقي بنفسها في الماء، ورسمت علامة الصليب. هذه الحركة المألوفة حملت إلى نفسها موجة من ذكريات الطفولة والشباب. وفجأة تبدّدت الظلمات التي كانت تغطّي، في نظرها، كل شيء، وبدت لها الحياة، في مدى لحظة، بكل أفراح ماضيها. لكنها لم ترفع عينيها عن عجلات الحافلة الثانية التي كانت مقبلة عليها. وفي اللحظة ذاتها التي وجدت نفسها فيها وسط الفراغ الذي يفصل بين العجلتين. تخلّصت من حقيبتها الحمراء الصغيرة، وأدخلت رأسها بين كتفيها، ورمت بنفسها تحت الحافلة، ويداها أمامها؛ ثم انقلبت على ركبتيها بحركة مرنة كأنها تريد أن تنهض. وفي هذه اللحظة، ارتعبت مما أقدمت عليه. «أين أنا؟ ماذا أفعل؟ لماذا؟». أرادت أن تنهض وأن ترتدّ إلى الوراء لكن كتلة هائلة وصلبة ضربتها في رأسها وجرّتها من كتفها. فهمست وقد أحست أن لا فائدة من المقاومة: «اغفر لي، يا

Tele: @Arab_Books

إلهي، كل شيء». وكان هناك فلاح قصير يشتغل في قطعة من الحديد وهو يدندن. والتمع النور الذي أضاء لها كتاب الحياة بحسراته وخياناته وهمومه، التمع ببريق وهّاج لم تعهده من قبل، وألقى الضوء على كل ما ظل في العتمة حتى الآن؛ ثم تذبذب ذلك النور وشحب وانطفأ إلى الأبد.

* * *

Tele: @Arab_Books

الجزء الثامن

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

-١-

مرّ ما يقرب من شهرين. كان الصيف في منتصفه، وكان الجو شديد الحرارة، بَيْدَ أن سيرج إيفانوفتش كان يستعد الآن فقط لمغادرة موسكو.

لقد حدثت، في الآونة الأخيرة، أحداث هامة في حياة سيرج إيفانوفتش. فقبل سنة تقريباً، فرغ من كتابه الذي عنوانه: «بحث في المبادئ والأشكال الحكومية في أوروبا وفي روسيا»، وهو ثمرة جهد دام ست سنوات. وكان قد نُشر مدخل الكتاب وبعض فصوله في المجلات، كما أنه قرأ بعضاً من فقراته على حلقته، ولذلك فإن الأفكار المعروضة فيه لم تكن جديدة على الجمهور؛ ومع ذلك فقد كان سيرج إيفانوفتش يرجو أن يترك ظهور كتابه أثراً عميقاً ويقدّر أن هذا الكتاب إذا لم يحدث ثورة في العلوم فسوف يُثير هزة قوية، على الأقل، في دنيا العلماء.

صدر الكتاب الذي طُبع بعناية في السنة السابقة، وأُرسل إلى المكتبات.

كان سيرج إيفانوفتش يَرْصد الأثر الذي ستُحدثه دراسته في

Tele: @Arab_Books

المجتمع وفي العالم الأدبي، دون أن يحث أحداً على ذلك، متكلّفاً اللامبالاة عندما يسأله أصدقاؤه إن كان الكتاب قد لاقى إقبالاً، ودون أن يسأل أصحاب المكتبات إن كان الكتاب رائجاً.

ويمر أسبوع، ثم اثنان، ثم ثلاثة دون أن تظهر تلك الهزة التي ستهزّ المجتمع؛ بعض الأصدقاء من الاختصاصيين ورجال العلم حدّثوه عن كتابه، بدافع المجاملة كما يبدو. أما الآخرون الذين لم يكونوا يهتمون بمؤلف تقني فلم يفوهوا عنه بكلمة. وأظهر المجتمع الذي كان، في هذه الفترة، مشغولاً بشيء آخر، لامبالاة تامة. وأما الصحافة فلم تشر إليه بتاتاً.

حسب سيرج إيفانوفتش الوقت الضروري لظهور تقارير تتحدث عن الكتاب، لكن الصمت ظل كما كان بعد شهرين.

مجلة «جُعل الشمال» وحدها قالت، في عرض مقالة ساخرة عن المغني «دارا بانتي» الذي فقد صوته، كلمات ازدراء عن كتاب كوزنيتشيف، كلمات أوحت بأن كل واحد قد كوّن رأياً حول هذا الكتاب الذي هو عرضة للسخرية العامة منذ زمن طويل.

وأخيراً، ظهرت في الشهر الثالث، مقالة ناقدة في مجلة رصينة. كان سيرج إيفانوفتش يعرف كاتبها، فقد لقيه مرة عند غولوبتسوف. وكان ناقداً فتياً، مريضاً، قوي الأسلوب، لكنه ضحل الثقافة ووجل في علاقاته بالناس.

أقبل سيرج إيفانوفتش على قراءة المقالة باحترام كبير، رغم احتقاره التام لمؤلفها. كانت المقالة فظيعة.

Tele: @Arab_Books

كان واضحاً أن كاتب المقالة قد فهم الكتاب فهماً مخالفاً للصواب، لكنه أحسن اختيار شواهده بحيث اتضح للذين لم يقرؤوه (ولم يقرأه أحد تقريباً) أن الكتاب لم يكن سوى لمامة من الجمل المتكلّفة التي استُخدمت، فوق ذلك، في غير موضعها (كما بيّن الناقد ذلك مع إشارات استفهام)، وأن مؤلفه كان جاهلاً كالحمار. وقد قيل ذلك بكثير من البراعة حتى أن سيرج إيفانوفتش نفسه ما كان ليستنكر هذه الدعاية؛ لكن هذا بالضبط هو ما كان فظيعاً.

دقق سيرج إيفانوفتش في صحة حجج الناقد، بأكبر قدر من النزاهة، لكنه لم يقف، ولو لحظة واحدة، عند العيوب والأخطاء التي هزئ منها: وما لبث أن تذكّر بالرغم منه، التقاءه كاتب المقالة وحديثه معه، في أدق التفاصيل.

تساءل سيرج إيفانوفتش: «ألم أهنه على نحو أو على آخر».

وحين تذكّر أنه أشار، أثناء حديثه معه، إلى كلمة تُبرز جهل زميله الشاب، وجد في ذلك تفسيراً للهجة المقالة.

بعد ذلك، كان الصمت المطلق، وتبيّن سيرج إيفانوفتش أن هذا الكتاب الذي قضى في إعداده ست سنوات بذل فيها الكثير من الجهد والحب قد مر دون أن يترك أثراً.

ازداد وضع سيرج إيفانوفتش عناء بسبب الفراغ: ذلك أن تأليف الكتاب كان يستغرق، من قبل، الشطر الأكبر من وقته.

كان سيرج إيفانوفتش ذكياً، مثقّفاً، صحيح الجسم، نشيطاً،

Tele: @Arab_Books

ولم يكن يعلم فيم يُنفق نشاطه. فالأحاديث في قاعات الاستقبال، والمؤتمرات والجمعيات، وجميع الأمكنة التي يمكن الكلام فيها، كانت تشغل شطراً من وقته؛ لكنه كان يحترس احتراساً شديداً، باعتباره أحد أبناء المدن القدامى، من أن يبوح بنفسه كاملة أثناء الحديث، كلما كان يفعل أخوه، ذلك الأخرق، أثناء إقامته في موسكو. ولذلك لقي له الكثير من الفراغ ومن القوى العقلية. ومن حسن حظه، أثناء هذه الفترة العصبية عليه، خصوصاً بسبب إخفاق كتابه، أن المسائل التي كانت موضعاً لاهتمام الناس وعنايتهم، من مثل الشيع المنشقّة، والصداقات الأمريكية، ومجاعة «سامارا»، والمعارض واستحضار الأرواح، قد أخْلت مكانها للمسألة السلافية التي كانت، حتى الآن، تكمن تحت الرماد، فأفرغ سيرج إيفانوفتش جهده فيها، وكان أحد باعثيها منذ أمد بعيد.

إبان هذه البرهة، لم يكن الناس يتحدّثون في الوسط، الذي ينتمي إليه سيرج إيفانوفتش إلا عن حرب الصرب[٥٢]. وكل ما كان يفعله عادة الجمهور العاطل لقتل الوقت صار يُفعل الآن لمصلحة «الأخوة السلاف». فالحفلات الراقصة والموسيقية، ومآدب العشاء، وخطب المناسبات، والزينات النسائية، والجعة، والنُزُل، كل ذلك كان يشهد بالعطف الذي يكنّه الناس للصرب.

كان سيرج إيفانوفتش لا يوافق على شطرٍ كبير مما يقال أو يكتب في هذه المناسبة. وكان يرى أن القضية السلافية انتقلت إلى مرتبة الولع

٥٢- حرب الصرب: أعلن الصرب الحرب على تركيا في حزيران ١٨٧٦، تطوع ألفا روسي، وقاد جيش الصرب الجنرال الروسي «تشيرنيايف».

Tele: @Arab_Books

الذي تتتالى أنواعه في المجتمع وتقوم مقام العمل الشاغل؛ وكان يرى أيضاً أن كثيراً من الناس لا يهتمون بالقضية إلا من أجل هدف تافه أو مريح. وكان يعترف بأن الجرائد تنشر الحماقات أو تبالغ، ولا غاية لها إلا اجتذاب الأنظار وسبق غيرها في الصراخ. وقد لاحظ أن الذين يتقدّمون غيرهم؛ في هذه الهجمة العامة، والذين يُغطّون بأصواتهم على الآخرين هم الفاشلون والمحرومون: الجنرالات بدون جيش، والوزراء بدون وزارة، والصحفيون بدون صحيفة، وزعماء الأحزاب بدون أنصار. كان يرى جميع المظاهر التافهة والمضحكة في اتجاه الرأي العام هذا؛ لكنه كان يرى أيضاً حماسة أكيدة توحّد جميع طبقات المجتمع، وتتعاظم من ساعة إلى ساعة، ولا يجوز لأحد أن يبخل عليها بتعاطفه. إن ذبح الإخوة في العرق والدين قد أيقظ العطف على المضطهدين، والسخط على الظالمين. لقد وَلّدت بطولة الصرب وأهالي الجبل الأسود الذين كانوا يناضلون من أجل قضية كبيرة، في الشعب بأسره، الرغبة في مساعدتهم لا بالأقوال بل بالأفعال.

وأخيراً، فإن حدثاً آخر غمر سيرج إيفانوفتش بالفرح، وهو ظهور الرأي العام. لقد أعرب المجتمع عن أمانيه بوضوح، ووجدت الروح الشعبية تعبيراً عنها، كما قال سيرج إيفانوفتش. وكان كلما أكبّ على هذا العمل اتضحت له الأبعاد الهائلة التي سيتّخذها والتي ستسمّ العصر بميسمها. فانصرف بكل كيانه إلى هذه القضية الكبيرة، وهكذا نسي أن يفكر في كتابه.

كان كل وقته مشغولاً الآن، ولم يبق لديه من الفراغ ما يكفي للرد على جميع الرسائل وجميع الطلبات الموجّهة إليه.

Tele: @Arab_Books

بعد أن اشتغل الربيع كلّه وشطراً من الصيف، استعد في شهر تموز للحاق بأخيه في الريف.

قصد الريف ليستريح قرابة خمسة عشر يوماً، وليستمتع، في قدس أقداس الشعب، وفي أعماق الريف، بمشهد يقظة الروح القومية التي كان يؤمن بها إيماناً راسخاً جميع سكان العاصمتين والمدن الكبرى. وكان يصحبه كاتافاسوف، وكان يتوق، منذ زمن طويل، إلى الوفاء بالوعد الذي قطعه لليفين بأن يذهب لزيارته.

Tele: @Arab_Books

-٢-

لم يكد سيرج إيفانوفتش وكاتافاسوف يصلان إلى محطة «كورسك» التي كانت مضطربة بالحركة على وجه الخصوص، في هذا اليوم بالذات، وينزلان من العربة ليتفقّدا متاعهما، حتى أقبلت أربع عربات تحمل المتطوعين. فاستقبلتهن سيدات تزوّدن بباقات الورد، ودخلوا المحطة يتبعهم جمهور انهال من خلفهم.

خرجت إحدى السيدات اللواتي جئن لاستقبال المتطوعين من قاعة الانتظار وتوجهت إلى سيرج إيفانوفتش فسألته بالفرنسية:

– وأنت أيضاً جئت مرافقاً لهم.

قال لها سيرج إيفانوفتش وهو يبتسم ابتسامة لا تكاد تُلحظ:

– لا، أنا ذاهب لأستريح عند أخي، يا أميرة. وأنتِ، أما تزالين ملتزمة بموقعك؟

أجابت الأميرة:

– لا بدَّ من ذلك. أصحيح أننا قد أرسلنا ثمانمائة؟ لم يشأ مالفنسكي أن يصدّق.

Tele: @Arab_Books

قال سيرج إيفانوفتش:

– أكثر من ثمانمائة. إذا حسبنا الذين لم يذهبوا رأساً من موسكو أصبح المجموع أكثر من ألف.

قالت المرأة وقد تهلّلت:

– هذا ما كنتُ أقوله بالذات. أو ليس صحيحاً كذلك أن ما قُدِّم من هبات بلغ الآن نحو مليون هبة.

– أكثر، يا أميرة!

– هل قرأت برقية اليوم؟ لقد دُحر الترك مرة أخرى.

أجاب سيرج إيفانوفتش:

– نعم، قرأتها.

لقد أكّدت الأنباء، في هذه البرقية، أن الترك الذين دُحروا على جميع نقاط الجبهة، طوال ثلاثة أيام، قد لاذوا بالفرار: والمنتظر أن تجري المعركة الحاسمة في اليوم التالي.

– آه! كنت أنوي أن أقول لك الشيء التالي: هناك شاب ممتاز طلب السفر مع المتطوعين. لكن لا أدري لماذا خلقوا في وجهه الصعوبات. كنت أريد أن أسألك أن تكتب له كلمة. أنا أعرفه، وقد أوصتني الكونتيسة ليديا إيفانوفنا به.

بعد أن استخبر سيرج إيفانوفتش الأميرة عن هذا الشاب، مضى

Tele: @Arab_Books

إلى غرفة انتظار الدرجة الأولى، وكتب بطاقة لمن يعنيه الأمر وسلّمها الأميرة.

قالت له الأميرة عندما لحقت به، وهي تبتسم ابتسامة منتصرة مثقلة بالمعاني.

– أتدري أن الكونت فرونسكي، الشهير... يسافر اليوم...

– سمعت أنه سيسافر، لكني لا أعلم متى. سيستقلّ هذا القطار؟

– نعم. لقد رأيته، إنه هنا. أمه وحدها ترافقه. هذا... خير ما يفعله.

– طبعاً.

بينما كانا يتكلمان هُرع الجمهور إلى المقصف، فساقهما معه وسمعا صوتاً قوياً لسيد يُلقي خطبة في المتطوعين، وكأسه بيده. كان يقول وهو يرفع صوته شيئاً فشيئاً: «خدمة العقيدة والإنسانية وإخوتنا! إن أمنا موسكو تبارككم من أجل هذا المشروع». وهتف والدموع في صوته: «مرحى!».

صاح الجميع: «مرحى!» وكادت الهجمة الجديدة على قاعة الانتظار تُلقي بالأميرة أرضاً.

قال ستيفان أركاديفتش الذي ظهر فجأة وسط الجمهور، وقد استنار وجهه بابتسامة مشرقة.

– حسناً! يا أميرة، ما قولكِ؟ لقد أجاد الكلام؛ كلامه ينبعث من

Tele: @Arab_Books

قلبه! مرحى! آه! سيرج إيفانوفتش، أنت هنا! يجب أن تقول لهم بضع كلمات للتشجيع.

وأضاف وهو يبتسم ابتسامة رقيقة، تنمّ على الاحترام والحذر في آن واحد:

– وأنتَ تُحسن ذلك.

وحاول أن يجرّ إيفانوفتش من ذراعه.

– لا، إني ذاهب في هذه اللحظة.

– إلى أين؟

أجاب سيرج إيفانوفتش:

– إلى بيت أخي.

– آه! سترى امرأتي. لقد كتبتُ إليها، لكنك ستراها قبل أن تصل رسالتي؛ أرجوك، قل لها إنك رأيتني وأن كل شيء على ما يُرام. وستفهم. آه! نعم، أرجو أن تكون لطيفاً لتقول لها: إنني عُيّنت في لجنة لوكالات المتّحدة... أخيراً. وستفهم.

وقال وهو يلتفت إلى الأميرة وكأنه يريد أن يعتذر:

– هذه هي مكدّرات الحياة البشرية. هل أخبرتكِ أن الأميرة مياغكوي، «ببيبش» لا «ليز»، أرسلت ألف بندقية واثنتي عشرة ممرضة.

Tele: @Arab_Books

أجاب كوزنيتشيف على مضض:

– نعم، سمعت بذلك.

قال ستيفان أركاديفتش:

– من المؤسف أنك ستذهب. فسوف نقيم غداً مأدبة عشاء على شرف متطوعين مسافرين هما: «ديمرباتنيانسكي» من بطرسبرج، وصديقنا فيسلوفسكي، غريشا»[٥٣]. كلاهما مسافر إلى هناك. فيسلوفسكي تزوج منذ وقت قريب. إنه لفتى كريم النفس، أليس كذلك، يا أميرة؟

قال ذلك وهو يلتفت إلى الأميرة، فنظرت الأميرة إلى كوزنيتشيف دون أن تجيب. لكن ما بدا على الأميرة وعلى سيرج إيفانوفتش من ضيق بسبب حضوره لم يحرك فيه ساكناً. وكان تارة يحدّق في ريشة قبعة الأميرة وهو يبتسم، وتارة أخرى يجيل نظراته حوله كأنه يسعى إلى تذكّر شيء ما. وعندما رأى امرأة تحمل صندوقاً للصدقة، ناداها ومنحها ورقة بخمسة روبلات.

قال:

– لا أستطيع أن أنظر إلى هذه الصناديق بهدوء ما دام معي مال. ماذا قلتَ عن برقية اليوم؟ ما أشد جسارة هؤلاء المحاربين من أهالي الجبل الأسود!

٥٣– فيسلوفسكي، غريشا: سهو من تولستوي، لأن الشخص نفسه سمي «فانيا» في مكان آخر.

Tele: @Arab_Books

وهتف عندما أخبرته الأميرة بأن فرونسكي سيسافر في القطار القادم:

– غير ممكن!

عبر وجه ستيفان أركاديفتش، في لحظة، عن الحزن لكنه عندما دخل، بعد لحظة، بخطوته القافزة، الغرفة التي كان فيها فرونسكي، وهو يملّس سالفيه، كان قد نسي كلياً دموع الأسى التي ذرفها على أخته و لم ير في فرونسكي سوى بطل وصديق قديم.

قالت الأميرة لسيرج إيفانوفتش بعد أن تركهما أوبلونسكي:

– بالرغم من عيوبه كلها، يجب أن نعترف بصفاته. فهو إنسان روسي حقاً، وهو سلافي على نحو نموذجي! أخشى فقط ألا يرغب فرونسكي في رؤيته. مهما تقل فإن مصير هذا الرجل يهزّني. حاول أن تتحدث معه أثناء الطريق.

– نعم، إذا سنحت الفرصة.

– إني لم أحبه قط. لكن بادرته الآن تكفّر عن كثير من أخطائه. فهو لم يقنع بسفره نفسه وإنما اصطحب معه كوكبة على نفقته.

– نعم، قيل لي ذلك.

رن الجرس، فاحتشد الجميع أمام الباب.

قالت الأميرة وهي تشير إلى فرونسكي:

Tele: @Arab_Books

– ها هو ذا!

كان يلبس بنطالاً طويلاً وقبعة سوداء عريضة الحافة ويتأبط يد أمه. وكان أوبلونسكي يسير بجنبه ويحدّثه بحيوية.

كان فرونسكي شاخصاً أمامه، مقطّب الحاجبين، كأنه لا يسمع ما يقوله له ستيفان أركاديفتش.

التفت نحو الأميرة وسيرج إيفانوفتش، بناء على تنبيه أوبلونسكي من غير شك، ورفع قبعته دون أن يفوه بكلمة. لقد بدا وجهه الشائخ الذي فتك به الألم كأنما تحجّر.

لما بلغ الرصيف صعد إلى القطار بعد أن تنحّى لأمه، وانزوى في مقصورته.

كان النشيد الوطني: «حفظ الله القيصر!» يدوّي على الأرصفة، ممتزجاً بهتافات التعييش الروسية والصربية. رد أحد المتطوعين، وهو شاب فتي مديد القامة، منحني الظهر، على التحيات بتباه، هازاً قبعته اللبدية وباقة زهر من فوق رأسه. وظهر خلفه ضابطان ورجل متقدّم في السن ذو لحية طويلة وعمرة وسخة، وهم يوزّعون التحيات من نافذتهم.

Tele: @Arab_Books

-٣-

بعد أن ودّع سيرج إيفانوفتش الأميرة، صعد إلى الحافلة المكتظة، بصحبة كاتافاسوف الذي لحق به، وتحرّك القطار.

في «تساريتسيتو»[٥٤] استقبلت الموكب جوقة أنيقة من الشباب كانت تنشد: «المجد لقيصرنا». انحنى المتطوعون من الباب مرة أخرى ليحيوا الجمهور؛ لكن سيرج إيفانوفتش لم يكن ينتبه إليهم: لقد كان على صلة مستمرة بالمتطوعين فأضحى يعرف النموذج الشائع الذي يمثّلهم، و لم يكن ذلك ليثير اهتمامه. أما «كاتافاسوف» الذي لم تكن أعماله العلمية تتيح له ملاحظة المتطوعين فقد فتنه منظرهم وأخذ يكثر من طرح الأسئلة على سيرج إيفانوفتش.

نصحه كوزنيتشيف أن ينتقل إلى الدرجة الثانية وأن يحادث بنفسه رفاق الطريق. في المحطة التالية، عمل كاتافاسوف بهذه النصيحة.

في أول توقف، قصد إلى عربات الدرجة الثانية، وشرع يحادث المتطوعين. كانوا جالسين في ركن من الحافلة، يتحدثون بصوت عال،

٥٤- تساريستينو: محطة تبعد ١٢كم جنوبي موسكو، على الخط الآتي من «كورسك» في القرم، وفيها قصر لم يتم لكاترين الثانية.

Tele: @Arab_Books

وقد رأوا بأم أعينهم أن انتباه المسافرين وكاتافاسوف الذي دخل لتوّه، منصبٌّ عليهم. وكان الشاب الطويل المقوّس الكتفين يزعق أكثر من غيره. كان يروي رواية وقد بان عليه السُّكر. وقبالتَه، جلس ضابط في سن النضج يرتدي سترة الحرس النمساوية وكان يُصغي إلى الراوي وهو يبتسم له ويقاطعه من وقت إلى آخر. وكان الثالث، بلباس جنود المدفعية، جالساً جنبهم على حقيبة السفر. أما الرابع فكان نائماً.

خاطب كاتافاسوف أصغرهم فعلم أنه تاجر ثري من موسكو. لقد بدد ثروة طائلة وهو لم يكد يبلغ الثانية والعشرين. لم يرتح كاتافاسوف لمظهره المتخنّث، الرخو، السقيم؛ كان هذا الشاب مقتنعاً، ولا سيما بعد أن أفرغ عدداً لابأس به من الكؤوس، أنه يقوم بعمل بطولي، وكان يتبجّح كأسوأ ما يكون التبجّح.

ووقع الثاني، وهو ضابط متقاعد، موقعاً سيئاً أيضاً عند كاتافاسوف. وظهر أنه اختبر جميع المهن. فاشتغل في السكك الحديدية، وكان وكيلاً ثم مديراً لمصنع. وكان يتحدث عن كل شيء دون أدنى ضرورة ويستخدم المصطلحات العلمية من غير داع.

أما الثالث، وهو المدفعي، فكان قريباً من نفس كاتافاسوف. كان رجلاً هادئاً، متكتّماً، متصاغراً أمام علم الضابط وتفاني التاجر البطولي، لا يتكلم على ذاته. وعندما سأله كاتافاسوف عما دفعه إلى التطوع أجاب بتواضع:

- إني أفعل ما يفعله الآخرون. ولا بدَّ من مد يد المعونة إلى الصرب. إن لم يخنّا التوفيق!

Tele: @Arab_Books

قال كاتافاسوف:

– إنهم بحاجة إلى المدفعيين، أمثالك، على الخصوص.

– أوه! إني لم أخدم طويلاً في المدفعية؛ وربما عُينت في المشاة أو الخيالة.

قال كاتافاسوف، وقد تصور أن الرجل لا بدَّ أن يكون ذا رتبة عالية، بالنظر إلى سنه:

– لماذا؟ ما داموا يحتاجون قبل كل شيء إلى المدفعيين.

– لأني لم أبق طويلاً في المدفعية. وما أنا إلا مرشح.

قال ذلك وأخذ يشرح له لماذا فشل في الامتحانات.

كل ذلك مجتمعاً ترك أثراً سيئاً في كاتافاسوف، وعندما نزل المتطوعون ليشربوا شيئاً في المحطة التالية، أحس بالحاجة إلى أن يُطلع غيره على انطباعه. وكان في العربة شيخ قصير بمعطف عسكري، سمع الحديث. فلما بقيا وحدهما، التفت إليه كاتافاسوف، وقال له، من غير أن يخرج عن الغموض في الإعراب عن رأيه، مع استدراجه له إلى التعبير عن رأيه أيضاً:

– ما أشد التنوع بين المسافرين إلى «هناك»!

كان الشيخ ضابطاً حضر حربين. كان يعرف ما الجندي؛ ولقد عد هؤلاء الرجال جنوداً تافهين من مظهرهم، ومن أحاديثهم، ومن

Tele: @Arab_Books

الطريقة التي يستقون بها بسالتهم من مطرة السفر. وأكثر من ذلك أنه كان من الريف؛ وأوشك أن يروي أن جندياً في مدينته الصغيرة، سكيراً ولصاً، أعطي إجازة غير محددة، ولم يشأ أحد أن يشغّله، قد سافر كمتطوع. ولكن لعلمه بالتجربة أن من الخطر الإفصاح عن رأي مخالف للرأي العام، وأن من الخطر، على الخصوص انتقاد المتطوعين، في وضع العقول الراهن، فقد انتظر أن يكشف كاتافاسوف عما يُبطن.

قال الشيخ وهو يضحك بعينيه:

– ماذا تنتظر، إنهم بحاجة إلى الرجال هناك.

طفقا يتحدثان عن البلاغ الأخير وأبدى كل منهما حيرته: إذا كان الترك، بحسب آخر الأخبار، قد دُحروا على طول الجبهة، فعلى من ستشن المعركة غداً؟ وافترقا دون أن يظهر كل منهما الآخر على أعماق فكرته.

عندما عاد كاتافاسوف إلى حافلته، خان فكرته بالرغم منه، وأطلع سيرج إيفانوفتش على نتيجة تحرّيه:

لقد كان المتطوعون، برأيه، فتياناً ممتازين.

في أول مدينة كبرى، قوبل المتطوعون بالأناشيد والهتافات: وظهرت السائلات بصناديق الصدقات، وحملت سيدات المدينة باقات إلى المتطوعين ولحقن بهم إلى المقصف؛ لكن الاستقبال كان أفتر منه في موسكو.

Tele: @Arab_Books

- ٤ -

أثناء التوقف في عاصمة الإقليم، لم يذهب سيرج إيفانوفتش إلى المقصف واكتفى بالتمشي على طول الرصيف وعرضه.

عندما مر لأول مرة أمام مقصورة فرونسكي، لاحظ أن الستائر كانت مسدلة. لكنه شاهد الكونتيسة العجوز على النافذة، في المرة الثانية. فأومأت إليه بالاقتراب. وقالت له:

- أرأيتَ، سأرافقه حتى «كورسك»

أجاب سيرج إيفانوفتش وهو يقف أمام النافذة ويلقي نظرة إلى داخل الحافلة:

- نعم، لقد قيل لي ذلك.

وأضاف وقد تبين أن فرونسكي ليس في المقصورة:

- ما أجمل هذه البادرة منه!

- ماذا بوسعه أن يفعل بعد مصيبته؟

Tele: @Arab_Books

قال سيرج إيفانوفتش:

– يا للحادث المروّع!

– آه! لكم قاسيتُ! لكن هلا صعدت...

ورددت عندما جلس سيرج إيفانوفتش على الأريكة بجنبها:

– آه! لكم قاسيتُ! لا يمكن أن نتصوّر ذلك! فهو لم يكلم أحداً، طوال ستة أسابيع، و لم يكن يأكل إلا إذا تضرّعت إليه. كان يجب ألا نتركه وحده دقيقة واحدة. وقد رفعنا من بين يديه كل ما قد يُعينه على الانتحار؛ كنا نسكن الطابق الأرضي، لكن كان لا بدَّ من الاحتياط لكل شيء. وأنت تعلم أنه كان قد أطلق على نفسه النار بسببها.

وقطّبت المرأة العجوز حاجبيها لهذه الذكرى، وقالت:

– نعم، لقد انتهت كما ينبغي أن تنتهي امرأة مثلها. بل لقد اختارت الموت الذليل. الحقير.

قال سيرج إيفانوفتش وهو يتنهد:

– ليس لنا أن نحكم، يا كونتيسة. لكنني أدرك كم كان ذلك مؤلماً لك.

– لا تسلْني عن ذلك! كنت في ممتلكاتي وجاء لزيارتي. حُملت إليه رسالة فرد عليها رأساً. لم يمر ببالنا في المحطة. في المساء، بينما كنتُ ماضية إلى حجرتي، أخبرتني خادمتي، ماري، أن سيدة ألقت

Tele: @Arab_Books

بنفسها تحت القطار. صدمني ذلك. لقد أدركت أنها هي. كانت كلماتي الأولى أنني أمرت ألا يذكر ذلك أحد لابني. لكنه كان قد علم بما جرى. ذلك أن حوذيه كان هناك ورأى كل شيء. وعندما أسرعتُ إليه، كان كالمجنون، كان يبعث على الخوف. وذهب بأقصى سرعته إلى هناك، دون أن يفوه بكلمة. لست أدري ما الذي حدث هناك، لكن حين جيء به بدا كأنه فقد الحياة. لم أعرفه. قال الطبيب: إنه مصاب «بالوهن التام». وبعد ذلك بدأ نوع من الهياج...

وقالت الكونتيسة مع حركة من يدها:

– لكن، ما جدوى الكلام على ذلك! يا لها من فترة رهيبة! لا قلْ ما شئتَ، لقد كانت امرأة سيئة. طفرات الهوى واليأس هذه، ما معناها؟ كل ذلك كان تصنعاً. وقد نجحت فيه! لقد أضاعت نفسها وأفسدت حياة رجلين مرموقين: زوجها وابني التعس.

سأل سيرج إيفانوفتش:

– ماذا فعل زوجها؟

– استرد ابنته. لقد وافق ألكسي على كل شيء، في أول الأمر. وهو الآن نادم كثيراً لأنه تخلّى عن ابنته لغريب. لكنه لا يستطيع أن يتراجع عن كلامه. حضر كارينينا الدفن. ورتّبنا الأمور بحيث لا يلتقي ألكسي. على كل حال، هذا أفضل بالنسبة إليه، إلى الزوج. كان موتها خلاصاً له. لكن ابني المسكين ضحّى لها بكل شيء. لقد ترك كل شيء، ترك وظيفته وتركني. وهي لم ترحمه؛ قضت عليه أو كادت!

Tele: @Arab_Books

لا، قل ما شئت، لقد ماتت ميتة المرأة الحقيرة التي لا دين لها. ليغفر لي الله، لكنني لا أستطيع أن أمتنع عن كره ذكرها، حين أرى الأذى الذي ألحقته بابني.

– وكيف حاله الآن؟

– الله هو الذي أنقذنا بحرب الصرب هذه. إنني عجوز، ولست أفهم شيئاً من ذلك كله، لكنني أرى في هذه الحرب تدخلاً من العناية الإلهية لمصلحته. لا شك أن هذا السفر مروّع، بالنسبة إلى الأم، ولا سيما بعدما قيل: إن ذلك لا يُنظر إليه بعين الرضا في بطرسبرج. لكن ما العمل؟ هذا هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يرد إليه قوته. إن إياشفين الذي خسر ماله كله في القمار، كان يستعد للسفر إلى بلاد الصرب، فجاء إليه وأقنعه بمرافقته. وهو الآن مشغول بذلك. حدّثه، أرجوك. أتمنى كثيراً أن يُسري الناس عنه. فهو شديد الحزن. سيغتبط برؤيتك. أرجوك، اذهب إليه، فهو يتنزه في هذه الجهة.

قال سيرج إيفانوفتش:

– إنه هو أيضاً سيكون سعيداً بذلك.

ومضى إلى الرصيف المقابل.

Tele: @Arab_Books

-٥-

بين الطرود المكدّسة على الرصيف والتي كانت تلقي بظلها المائل في هذه الساعة المتأخرة، كان فرونسكي يروح ويجيء كالوحش في قفصه، متلفتاً فجأة كل عشرين خطوة، وقد ارتدى معطفه الطويل، وخفض قبعته على عينيه، ووضع يديه في جيبه. خيِّل إلى سيرج إيفانوفتش أن فرونسكي رآه وتظاهر بأنه لم يعرفه. لم يأبه كوزنيتشيف لذلك. كان موقعه من فرونسكي فوق الاعتبارات الشخصية.

كان فرونسكي، بنظر سيرج إيفانوفتش، في هذه اللحظة، رجلاً فعالاً، عظيم الأهمية، مشاركاً في عمل كبير، وقد رأى كوزنيتشف أن من واجبه حثّه وتشجيعه، فدنا منه.

توقف فرونسكي، وتفرّس فيه، وبعد أن تعرّفه، تقدّم بضع خطوات وشد على يده بقوة.

قال سيرج إيفانوفتش:

– لعلك لا ترغب في رؤيتي. هل أستطيع أن أكون نافعاً لك؟.

قال فرونسكي:

Tele: @Arab_Books

- لا يمكن للقاء أن يكون أقل إزعاجاً لي من لقائك. اعذرني. لم يبق في الحياة ما يُبهجني.

قال سيرج إيفانوفتش الذي ظل شاخصاً إلى وجه فرونسكي المتألم:

- أفهم ذلك؛ كنت أريد أن أعرض عليك خدماتي. أتريد رسالة إلى «ريستيتش»[55]، إلى «ميلان»؟[56]

قال فرونسكي الذي بدا كمن يجد شيئاً من الجهد في فهمه:

- أوه! لا. لنمشِ قليلاً، إذا كان ذلك لا يزعجك. إن المرء ليختنق حقاً في هذه الحافلات! رسالة؟ لا، أشكرك؛ لا حاجة بنا إلى توصية إذا كنا نطلب الموت.

وأضاف وهو يتبسم بشفتيه فقط، في حين احتفظت عيناه بأمارات الألم والغضب:

- إلا إذا كانت التوصية موجهة إلى الترك.

- نعم، لكن ذلك يُسهّل عليك العلاقات، وهي علاقات لا بدَّ منها مهما يكن رأيك فيها، برجل أُعلم بوجودك. على كل حال، الأمر أمرك. اغتبطت كثيراً حين بلغني قرارك. هناك انتقادات كثيرة

٥٥- ريستيتش: وزير خارجية الصرب آنذاك. (١٨٣١-١٨٩٩)

٥٦- «ميلان»: ميلان أوبرينوفتش ١٨٥٤ -١٩٠١) أمير الصرب منذ ١٨٦٨. في سنة ١٨٧٦، أعلن ملكاً، بناء على مبادرة «تشيرنياييف»، لكنه اضطر إلى رفض هذا اللقب الذي عاد وتبناه في سنة ١٨٨٢.

Tele: @Arab_Books

للمتطوعين، ورجل مثلك يمكنه أن يرفع من شأنهم في نظر الرأي العام.

قال فرونسكي:

- ميزتي الوحيدة هي أنني لم أعد حريصاً على الحياة. وأنا أعلم أنه قد بقي لي من القوة الجسدية ما يكفي لخرق تشكيلة مربعة أو أموت في أرضي. وأنا سعيد لأنني وجدتُ سبباً للتخلص من هذه الحياة التي هي عبء علي، بدلاً من أن تكون ضرورية لي. وسوف يكون ذلك ذا نفع من غير شك.

أُصيبت وجنته بتشنج عصبي. وكان يتألم من وجع واخز في سنه حرمه الراحة ومنعه من الكلام بالتعبير الذي يرومه.

قال سيرج إيفانوفتش الذي أحس بالتأثر:

- سوف تتجدد، إني أتنبأ لك بذلك. فتخليص إخواننا من نيرهم هدف يستحق أن نموت وأن نعيش في سبيله.

وأضاف وهو يمد إليه يده:

- ليمنحك الله التوفيق في مشروعك، ولينزل عليك السكينة الداخلية.

شد فرونسكي بقوة على يد سيرج إيفانوفتش، وقال ببطء:

- ما زلت أستطيع أن أكون على شيء من النفع، من حيث أنا أداة، أما من حيث أنا إنسان فلست سوى أنقاضٍ خربة.

Tele: @Arab_Books

ملأ الألم الحاد فمه باللعاب ومنعه من الكلام. وصمت؛ لقد توقف نظره على عجلات مقطورة كانت تنزلق ببطء نحوهما.

وفجأة أنساه الغم المبهم والضاغط ألم أسنانه لحظة. فعند نظرته التي ألقاها على المقطورة فوق السكة الحديدية، وبتأثير هذا الحديث مع صديق لم يره منذ مصابه، تذكّرها فجأة، أو تذكّر ما بقي منها حين دخل كالمجنون تخشيبة المحطة؛ تذكّر جسدها المدمّى الذي فارقته الحياة قبل هنيهة، ممدداً بلا حياء أمام الغرباء، رأسها السليم، المردود إلى الخلف بضفائره الكثة وخصله على الصدغين؛ وعلى ذلك الوجه الفاتن تجمّد تعبير غريب، تعبير يستدر الرثاء على الشفتين النضرتين المفترتين، ورهيب في العينين المحملقتين كأنهما ترددان التهديد الذي واجهته به أثناء شجارهما: «سوف تندم على ذلك!»

حاول أن يستحضر ذكراها كما لقيها أول مرة في المحطة: غريبة، محفوفة بالأسرار، محبة، تنشد السعادة وتهبها، لا كما رآها في آخر لحظة: شرسة ومتعطشة إلى الانتقام. حاول جاهداً أن يتذكر أفضل لحظات حياتهما الماضية التي تسممت إلى الأبد. والتعبير الوحيد الذي كان يراه لها الآن هو التعبير عن الانتصار، بعد تنفيذ تهديدها: لقد أخذ الندم يعذّبه منذ الآن دون أن ينتفع أحد بذلك الندم. وانقطع إحساسه بوجع أسنانه، وتقلّص وجهه من النحيب.

خطا بضع خطوات بحذاء الأكياس المكدسة، فلما تمالك نفسه استدار بهدوء نحو سيرج إيفانوفتش:

- ألم تر البرقيات، بعد برقية أمس؟ لقد اندحروا مرة ثانية، ومن المنتظر أن يجري اللقاء الحاسم غداً.

Tele: @Arab_Books

وبعد أن تحدثا عن بيان «ميلان» الذي أعلن ملكاً وعن النتائج الهائلة التي قد يُسفر عنها ذلك البيان، افترقا وصعد كل منهما إلى حافلته بعد دقة الجرس الثانية.

Tele: @Arab_Books

-٦-

لم يبرق سيرج إيفانوفتش إلى أخيه حتى يرسل مَن يأخذه من المحطة، لجهله متى يمكنه أن يغادر موسكو. كان ليفين غائباً عندما نزل كاتافاسوف وسيرج إيفانوفتش أمام منزل «بوكروفسكوي»، حوالي الظهر، من مركبة رديئة، وقد اسودّ من الغبار. وقد تعرّفت كيتي التي كانت جالسة على الشرفة مع أبيها وأختها، أخا زوجها فنزلت بأقصى سرعتها لتستقبله.

قالت وهي تمد يدها إلى سيرج إيفانوفتش وتقدم له جبينها:

- كان ينبغي أن تستحي من أنك لم تعلمنا مسبقاً.

أجاب سيرج إيفانوفتش:

- وصلنا بسلامة دون إزعاجكم. أنا مغطى بالغبار إلى حدٍّ لا أجرؤ معه على ملامستك. كنت مشغولاً جداً حتى أني كنت أجهل متى أستطيع الانعتاق من الشغل.

وأضاف وهو يبتسم:

- وأنت، أما زلت تتمتعين بالسعادة الوادعة في ملجئك، بعيدة

Tele: @Arab_Books

عن التيار. هذا هو صديقنا فيدور فاسيلييفتش الذي قرر أخيراً أن يأتي.

قال كاتافاسوف بتهكمه المعهود، وهو يمد يده إلى كيتي ويبتسم فيُظهر سواد وجهه أسنانه الناصعة:

– لستُ زنجياً: وإذا ما اغتسلت فستعود إلي صورتي البشرية.

– سيغتبط كوستيا. إنه في المزرعة وسيعود في الحال.

– هو منكب على العمل دائماً! أنتم عنا في مأمن حقاً. لا حديث، في المدينة، إلا عن حرب الصرب. ما رأي صديقنا؟ من المؤكد أن رأيه يخالف رأي الناس.

أجابت كيتي وهي مرتبكة، وقد ألقت نظرة خاطفة على سيرج إيفانوفتش.

– لا أعتقد. سأرسل مَنْ يستدعيه. أبي عندنا الآن. لم يمض على عودته من الخارج وقت طويل.

بعد أن أمرت كيتي بإرسال من يُحضر ليفين، وبمرافقة الضيفين لكي يغتسلا، أحدهما في المكتب والآخر في حجرة دولي القديمة، طلبت غداء للقادمين. وعادت ركضاً إلى الشرفة، وهي سعيدة لانتفاعها بحرية الحركة التي حُرمتها أثناء فترة الحمل، وقالت:

– إنهما سيرج إيفانوفتش والأستاذ كاتافاسوف.

فأجاب الأمير العجوز:

Tele: @Arab_Books

– أوه! في مثل هذه الحرارة، تلك مصيبة!

قالت كيتي وهي تبتسم ابتسامة تنم عن التوسل لأنها رأت على وجه أبيها تعبيراً هازئاً.

– لا، يا أبي، إنه لطيف جداً. وكوستيا يحبه كثيراً.

– لكنني لم أقل شيئاً.

قالت كيتي وهي تلتفت إلى أختها:

– اذهبي إليهما، يا عزيزتي، وحدّثيهما. لقد لقيا ستيفا في المحطة: وهو في صحة جيدة. سأسرع لآخذ «ميتيا». كان شيئاً مؤسفاً أنني لم أرضعه منذ تناول الشاي. لقد استيقظ. ولا شك أنه يصرخ الآن. وأحست بحليبها يدرّ فمضت مسرعة إلى حجرة الطفل. لم يكن افتراضاً بل حقيقة (لم ينقطع بعد الرابط الذي يربطها بالطفل): فعندما تحس بحليبها يدرّ كانت تعلم أن الصبي جائع.

كانت تعلم أنه يصرخ قبل أن تدنو من غرفته. والواقع أنه كان يصرخ. وحين سمعت صوته، حثّت خطاها. وكان كلما أسرعت اشتد صراخه. كان صوته، جميلاً وقوياً، لكنه صوت جائع لا يطيق صبراً.

سألت المربية وهي تجلس على كرسي وتفتح صدرها:

– أهو يصرخ من وقت طويل؟ آه! كم أنت متعبة! فيما بعد، تعلّقين له طاقيته.

كان الصبي مبحوحاً من فرط الصراخ.

Tele: @Arab_Books

قالت آغات ميخايلوفنا التي قلما كانت تترك حجرة الطفل:

- لا تجزعي، يا عزيزتي. يجب أن يُلبَس لباساً لائقاً.

ورنّمت للصغير دون أن تنتبه إلى أمه:

- آغو، آغو!

حملت المربية الطفل إلى كيتي. تبعتها آغات ميخايلوفنا، ووجهها متهلل من الحنان، وقالت وقد علا صراخها صراخ الصبي:

- إنه يعرفني، إنه يعرفني، لقد تعرّف إلي حقاً كما أن وجود الله حق، يا كاترين ألكسندروفنا.

لكن كيتي لم تكن تصغي إليها. كان صبرها آخذاً في النفاد كصبر الطفل.

وقد حال نفاد الصبر هذا بينهما وبين بلوغ هدفهما برهة طويلة. فلم يفلح الطفل في الوصول إلى ثديها وأخذ يغضب.

وأخيراً، بلغا غايتيهما، بعد اختناقة أخيرة، يائسة، للطفل الذي كان يرضع في الفراغ. فصمت الطفل والأم بعد أن زال كربُهما في آن واحد.

قالت كيتي بصوت خافت وهي تجس الوليد:

- يا للصغير المسكين، إنه ينضح عرقاً. لماذا تظنين أنه تعرّفك؟ هذا مستحيل! لو تعرّف أحداً لكنت أنا.

Tele: @Arab_Books

قالت ذلك وهي تبتسم وتُلقي نظرتها على عيني الصبي اللتين كانتا ترميانها، في اعتقادها، بنظرة ماكرة من تحت طاقيته المخفوضة على جبهته، وعلى وجنتيه الصغيرتين اللتين كانتا تنتفخان بانتظام، وإلى يده ذات الراحة الحمراء التي كان يحركها حركة دائرية.

قالت ذلك وابتسمت، فمع أنها قالت: إنه لا يمكن أن يتعرف أحداً قبلها، إلا أنها كانت تعلم، في قرارة نفسها، أنه لم يكن يعرف آغات ميخايلوفنا فقط، بل إنه كان يعلم ويفهم كل شيء، حتى الأشياء التي لم يكن يعلمها أحد، وأنها هي، أمه، لم تعلم و لم تبدأ الفهم إلا بفضله. كان ميتيا، بالنسبة إلى آغات ميخايلوفنا، وإلى مربيته، وإلى جده، وإلى أبيه ذاته، كائناً حياً لا يتطلب سوى العناية المادية؛ أما بالنسبة إلى أمه، فقد كان، منذ زمن بعيد، شخصية معنوية تقيم معها علاقات روحية معقدة.

– سترين عندما يستيقظ. ما إن أفعل له هكذا حتى يستضيء وجه، هذا الصغير الظريف. كالشمس الحقيقية المشرقة!

همست كيتي:

– كفى، كفى، سنرى. أما الآن فاخرجا. إنه ينام.

Tele: @Arab_Books

-٧-

خرجت آغات ميخايلوفنا على أطراف أصابعها؛ أسدلت المربية الستارة، وطردت الذباب الذي انسل تحت غلالة السرير الموصلية وزنبوراً صدم الزجاج، ثم جلست وهي تهز فوق الأم والصبي غصن بتولة أخذ يذبل. وقالت:

– ما أشد هذه الحرارة! ليت الله يرسل إلينا شيئاً من المطر.

– نعم، نعم، صه...

قالت كيتي ذلك وهي تتمايل برفق وتضم إليها بحنان يد الوليد الدقيقة السمينة التي كانت تبدو مشدودة إلى المعصم بخيط والتي كان «ميتيا» يحركها تحريكاً خفيفاً، فاتحاً عينيه تارة، ومغمض العينين تارة أخرى. هذه اليد الصغيرة شغلت بال كيتي: تاقت نفسها إلى تقبيلها، لكنها خشيت أن توقظ الصبي. وأخيراً، كفّت اليد الصغيرة عن الحركة وأغمضت العينان. كان الطفل يرفع، بين الحين والحين، حاجبيه الطويلين المقوّسين ويلقي نظرته على أمه، وهو يتابع رضاعته. كانت عينا الطفل النديتان تبدوان سوداوين في النور الخفيف. كفت المربية عن تحريك غصن البتولة وأخذت تغفو. ومن الطابق الأعلى وافت صيحات الأمير العجوز وضحكات كاتافاسوف.

Tele: @Arab_Books

فكّرت كيتي: «لقد بدؤوا حديثهم بدوني، ومن المؤسف أن كوستيا لم يعد. فلعله تابع طريقه إلى المنحلة. فليذهب متى شاء، وإن كان ذلك يحزنني. إن خروجه يروّح عنه، وهو ما يسرّني. إنه يغدو أكثر مرحاً من يوم إلى يوم، وهو في حالة أفضل من حالته في الربيع. كان إذا ذاك ظاهر الاكتئاب والهم حتى خفت عليه.

وهمست وهي تبتسم:

– ما أغرب أطواره!

كانت تعلم ما يقضّ مضجع زوجها. كان كفره. ولو أنها سُئلت إن كان للكافر خلاص في العالم الآخر لأجابت بلا قطعاً، ومع ذلك فلم يكن كفر زوجها ليشقيها: فمع اعترافها بأن من لا يؤمن لن يخلّص، ومع أنها تحب روح زوجها على كل شيء في العالم، فقد كانت تفكر بكفره وهي تبتسم، وتقول: إنه غريب الأطوار.

وتابعت تفكيرها: لماذا يقرأ من أول السنة إلى آخرها مؤلّفات فلسفية؟ إذا كان ذلك كله مكتوباً في الكتب، فهو يستطيع أن يفهمها. أما إذا كانت تقول الأكاذيب، فما جدوى قراءتها؟ هو نفسه يقول: إنه يتوق إلى الإيمان. فلماذا لا يؤمن إذن؟ لأنه يسرف في التفكير، من دون شك. وإذا كان يُسرف في التفكير فذلك بسبب عزلته. إنه دائماً وحده. هناك أشياء لا يستطيع أن يحدّثنا عنها. أظن أن هذه الزيارات ستسرّه، ولا سيما زيارة كاتافاسوف: هل ينبغي أن ينام وحده أو في غرفة سيرج إيفانوفتش؟ وهنا أرعدتها فكرة حتى كادت تزعج «ميتيا» الذي رماها بنظرة صارمة. فالغسالة لم تحمل الغسيل بعد، كما يلوح

Tele: @Arab_Books

لي. وسنحتاج إلى الأغطية من أجل ضيوفنا. وإذا لم أتدخل فإن آغات ميخايلوفنا ستعطي سيرج إيفانوفتش أغطية مستعملة...».

ما إن مرّت ببالها هذه الفكرة حتى صعد الدم إلى وجهها. فقررت في نفسها قائلة: «سأتولى تدبير ذلك». وعادت إلى أفكارها الأولى، فتذكّرت أنها تركت في طريقها هماً روحياً بالغ الأهمية شغلها، فأخذت تبحث عنه، ثم تذكرته وابتسمت: «آه نعم، كوستيا كافر».

«فليكن! إني أوثر أن يكون دائماً هكذا على أن يكون مثل السيدة «ستاهل» أو مثلما أحببت أن أكون في الخارج. على الأقل، إنه لن يغدو منافقاً».

وعادت إلى ذاكرتها بوضوح سمة من سمات طيبته. فقبل خمسة عشر يوماً، كتب ستيفان أركاديفتش إلى زوجته رسالة مفعمة بالندم. كان يتوسل إليها فيها أن تنقذ شرفه وأن تبيع ملكيتها لتسديد ديونه. فبلغ بها الأسى غايته: لقد كرهتْ زوجها، واحتقرته، ثم أشفقت عليه؛ وبعد ذلك قررت أن تطلب الطلاق وترفض طلبه، لكنها عادت فوافقت، لكي تنتهي من المشكلة، على أن تبيع جزءاً من أرضها. وتذكّرت كيتي وعلى شفتيها ابتسامة لا إرادية من الحنان، هيئة زوجها المرتبكة وتمهيده الأخرق لكي يعرض عليها، في نهاية الأمر الوسيلة الوحيدة لمساعدة دولي من غير أن يجرحها (وسيلة لم تخطر ببال كيتي): أن تتنازل له عن حصتها من الأرض.

كافر؟ مع قلبه الكبير، وخوفه من أن يجرح أي إنسان، حتى الصبي؟ كل شيء للآخرين ولا شيء له. سيرج إيفانوفتش يعتبره وكيلاً

Tele: @Arab_Books

لأعماله. وأخته كذلك. والآن تتكلّ عليه دولي والأولاد. وهو يعد نفسه ملزماً بخدمة هؤلاء الفلاحين الذين يأتون ليروه كل يوم...

واختتمت تفكيرها وهي تسلم «ميتيا» إلى مربيته وتلامس وجنته بشفتيها: «... نعم، اكتفِ بمشابهة أبيك، هذا كل ما أطلبه منك».

Tele: @Arab_Books

-٨-

منذ اللحظة التي نظر فيها ليفين لأول مرة، وهو بجانب أخيه المحتضر، إلى مشكلات الحياة والموت من خلال قناعاته الجديدة (كان يسميها كذلك، على الأقل) التي حلّت، على نحو غير ملحوظ، من العشرين إلى الرابعة والثلاثين، محل عقائد طفولته وصباه، منذ تلك اللحظة أخذ يخاف الحياة أكثر مما يخاف الموت. من أين جاءت؟ ولماذا؟ ولأية غاية؟ وما هي؟ لم يكن يعلم من ذلك شيئاً. الجهاز العضوي وتلفه، وعدم قابلية المادة للتلف، وقانون حفظ الطاقة، والتطور: هذه هي الكلمات التي حلّت محل عقيدته القديمة. فهذه الكلمات والمفاهيم المرتبطة بها كانت ممتازة في المجال الفكري؛ أما في الحياة فلم تكن تصلح لشيء، وأحس ليفين أنه في وضع شبيه بوضع رجل استبدل بمعطفه الدافئ رداء من الحرير الموصلي؛ وفي الهواء الجليدي، اقتنع، لأول مرة، بكيانه كله لا بالمحاكمة العقلية، أنه شبه عار وأنه قد كُتبت عليه نهاية مؤلمة، لا رحمة فيها.

منذ هذه اللحظة، تسلّط على ليفين هذا الرعب من جهله، مع أنه لم يتبيّن ذلك وظل يعيش كما كان يعيش في الماضي.

وفوق ذلك، فقد أحس إحساساً غامضاً أن ما سماه «قناعاته» لم

Tele: @Arab_Books

يكن جهلاً فحسب وإنما كان شكلاً من أشكال التفكير يحرمه معرفة ما هو ضروري له.

في البداية، خَنقَ الزواج والأفراح والالتزامات الجديدة هذه الأفكار؛ لكنه عندما عاش في موسكو، في هذه الآونة الأخيرة، عاطلاً عن العمل، بعد ولادة الطفل، أحس بحاجة كانت أشدّ طروقاً وإلحاحاً، إلى حل هذه المشكلة.

كانت المسألة، بالنسبة إليه، هي التالية: إذا لم أرضَ بالأجوبة التي تقدمها المسيحية لمشكلات الحياة، فبأيها أرضى؟ ولم يكن يستطيع أن يعثر بين جملة قناعاته لا على الجواب ولا حتى على ما يشبه الجواب.

كان كمن يبحث عن الطعام لدى بائع اللعب أو بائع الأسلحة. لقد غدا يفتّش الآن، تلقائياً ولا شعورياً، في كل كتاب، وكل حديث، وكل رجل عما يتّصل بهذه المشكلات وبحلها.

إن ما كان يُذهله ويثبّط عزمه، قبل كل شيء، هو أن معظم أبناء وسطه وسنّه كانوا، إذا استبدلوا بمعتقداتهم القديمة قناعات جديدة لم يجدوا بأساً في ذلك، وشعوراً بتمام الطمأنينة والرضا. ولذلك فقد كان تُقضّ مضجع ليفين أسئلة أخرى، إلى جانب المشكلة المركزية: هل هؤلاء الناس صادقون؟ أهم يراؤون مراءاة أم أنهم يفهمون الأجوبة التي يقدّمها العلم للمشكلات التي تشغله فهماً مختلفاً، فهماً أوضح؟

منذ أن أخذ هذا البحث يستغرقه لم يقع إلا على اكتشاف واحد وهو: أنه أخطأ حين افترض هو ورفاقه في الجامعة أن الدين قد مضى

Tele: @Arab_Books

زمنه. فجميع الأقرباء الذين أُعجب بحياتهم كانوا مؤمنين. والأمير العجوز، ولفوف، وسيرج إيفانوفتش كلهم مؤمنون؛ وامرأته تؤمن كما كان يؤمن في صباه؛ تسع وتسعون بالمئة من الشعب الروسي، هذا الشعب بأسره الذي يبعث فيه الاحترام الحقيقي، مؤمنون.

بعد أن قرأ كثيراً من الكتب، أمكنه أن يقتنع بأن الناس الذين يشاطرونه أفكاره لا يعزون إلى هذه الأفكار أي معنى خاص: كانوا يكتفون بإنكار هذه المشكلات، في حين كان يشعر أنه لا يستطيع أن يحيا دون أن يجد لها جواباً، وكانوا يبذلون ما في وسعهم لحل مسائل أخرى، مسائل لم تكن تستطيع أن تثير اهتمامه، من مثل تطور الأجهزة العضوية، والتفسير الميكانيكي للروح الخ...

وفوق ذلك، حدثَ حدَثٌ مثير، أثناء نفاس امرأته. فلقد صلّى، وهو غير المؤمن، وفي اللحظة التي كان يصلي فيها، آمن. لكن هذه اللحظة قد انقضت، وليس بوسعه أن يمنح هذه الحالة النفسية العابرة مكانة في حياته الراهنة.

ليس بوسعه أن يعترف بأنه عرف الحقيقة في هذه الحقبة ثم عاد فوقع في الخطأ لأنه ما إن يبدأ بالتفكير الهادئ في ذلك حتى يتفتت كل شيء؛ وليس بوسعه أيضاً أن يقر بأنه كان مخطئاً آنذاك، لأنه كان يُعتبر هذه اللحظات من ماضيه: ولو اعتبرها ثمرة من ثمرات الضعف لدنّس تلك الدقائق. كان على خلاف مع ذاته، وكان ذلك يعذّبه، وكان يستنفر قوى نفسه جميعاً ليخرج من هذه الحالة.

Tele: @Arab_Books

-٩-

كانت هذه الأفكار تناوشه بلجاجة تقل وتكثر، لكنها لم تكن تتركه بتاتاً. كان يقرأ ويفكر، لكنه كان كلما قرأ وفكر ازداد إحساسه بالبعد عن الهدف الذي يُلاحقه.

في الآونة الأخيرة، في موسكو وفي الريف، وبعد أن اقتنع بأنه لن يجد الجواب لدى الماديين، أعاد قراءة أفلاطون وسبينوزا وكنت وشيلنغ وهيجل وشوبنهاور(٥٧)، وهم فلاسفة كانوا يبحثون عن تفسير للوجود في غير المادة.

كانت هذه الأفكار تبدو له خصبة ما دام موضوعها دَحْض المذاهب الأخرى، وبخاصة المذاهب المادية: «لكن ما إن تتصدى للبحث عن حل للمشكلات حتى يجد نفسه أبداً في النقطة نفسها. وبعد تعريف طويل لألفاظ غير محددة من مثل: روح، حرية، ماهية، وبعد أن يرتضي لنفسه السقوط في شرك الألفاظ الذي ينصبه له الفلاسفة أو ينصبه هو لنفسه، كان يُخيل إليه أنه بدأ يفهم شيئاً ما. لكن كان يكفيه أن ينسى ترقي فكرته المصطنع وأن يعود، بعد أن يمتزج بالحياة مرة أخرى، إلى

٥٧- «أفلاطون وسبينوزا وكنت وشيلنغ وهيجل وشوبنهاور»: فلاسفة أعاد تولستوي نفسه قراءاتهم في هذه الحقبة، ولاسيما شوبنهاور.

Tele: @Arab_Books

ما كان يرضيه حين كان يفكر متابعاً سلكاً معيناً، حتى ينهار فجأة هذا البناء الاصطناعي كأنه قصر من الورق، وحتى يغدو واضحاً أن هذا البناء لم يُصنع إلا من الألفاظ التي بدّلت مواضعها، من غير استعانة بذلك «الشيء» الذي هو، في الحياة، أهم من العقل.

بـدّل، ذات يـوم، وهو يقرأ شوبنهاور، كلمة محبة بما يدعوه شوبنهاور: «إرادة»، فوفّرت له هذه الفلسفة الجديدة بضعة أيام من الهدوء، قبل أن يُعرِضَ عنها. لكن هذه الفلسفة انهارت كما انهار غيرها عندما نقل نظراته فيها بعد أن اجتذبته الحياة إليها: بدت له كرداء الموصلي العاجز عن حمايته من البرد.

نصحه أخوه سيرج إيفانوفتش أن يقرأ كتابات «كومياكوف»[٥٨] اللاهوتية. فقرأ ليفين المجلد الثاني من أعمال هذا الكتاب، وبالرغم من لهجة الجدل وتكلّف الأسلوب اللذين نَفَر منهما في أول الأمر، إلا أن نظريته عن الكنيسة أثّرت فيه. لقد راعته، في البداية، هذه الفكرة التي مفادها أن فهم الحقائق الإلهية غير متاح للإنسان بل لطائفة من الناس متحدين بالحب، وهي الكنيسة. وخامره الفرح، بعد ذلك، بهذه الفكرة وهي أن المرء حين يؤمن بكنيسة حيّة هي مُلتقى عقائد المؤمنين، وعلى رأسها الله ومن ثم فهي مقدسة ومعصومة، ثم يقبل بتعاليمها المتعلقة بالله والخليقة والسقوط والفداء، فذلك أسهل عليه من أن يبدأ بالله، الإله المحفوف بالأسرار والبعيد، وبالخليقة الخ...

٥٨- كومياكوف: ألكسي ألكسندروفتش كومياكوف (١٨٠٤ - ١٨٦٠) فيلسوف روسي وأحد أعمدة مدرسة أنصار السلافية؛ مجد في كتاباته اللاهوتية الديانة الأورثوذكسية القائمة على روح المجتمع المقدس لا على سلطة الباب المستبدة.

Tele: @Arab_Books

لكنه حين قرأ فيما بعد تاريخاً للكنيسة كتبه كاتب كاثوليكي وكتاباً آخر للكنيسة كتبه كاتب أرثوذكسي، تبين أن الكنيستين المعصومتين في جوهرهما، تُنكر إحداهما الأخرى: حينئذ فقدت نظريات كوميالوف سحرها في عينيه وانهارت كما انهارت نظريات الفلاسفة.

طوال الربيع لم يبق هو هو، ومر بدقائق ممضّة. وكان يقول في نفسه: «إذا كنتُ لا أعلم ما أنا ولماذا أنا هنا، فلا يمكنني أن أحيا. ولا يمكنني أن أعلم، إذن لا يمكنني أن أحيا».

«في لا نهاية الزمان والمادة والمكان، تتشكل فقاعة —عضوية، وتستمر بعض الوقت، ثم تنفجر. وهذه الفقاعة... هي أنا». هذه السفسطة المؤلمة كانت النهاية الوحيدة والمؤلمة لأفكار الإنسان في هذا السبيل، أثناء قرون خلت.

كانت اليقين الأخير الذي يسند جميع أبحاث الفكر الإنساني، في جميع الفروع تقريباً.

كانت القناعة السائدة التي تشيّع بها ليفين، من بين جميع التفسيرات الأخرى، على نحو تلقائي دون أن يعرف هو نفسه متى وكيف، لأنها كانت الأوضح، بدون شك.

ولم تكن هذه سفسطة وحسب، وإنما كانت السخرية البغيضة لقوة خبيثة ومعادية ينبغي أن نرفض الخضوع لها.

ينبغي التخلص من هذه القوة. وهذا الخلاص في متناول كل

Tele: @Arab_Books

واحد. ينبغي أن يوضع حدّ لسلطان الشر. وليس هناك سوى وسيلة وحيدة هي: الموت.

إن رب الأسرة السعيد هذا، إن هذا الرجل الصحيح الجسم، أوشك على الانتحار عدة مرات إلى الحد الذي صار يخبئ فيه أصغر حبل خوفاً من أن يُغريه بشنق نفسه، وإلى الحد الذي كان يخشى فيه من إطلاق النار على نفسه إذا خرج ببندقيته. لكن ليفين لم ينتحر وظل يعيش.

Tele: @Arab_Books

-١٠-

عندما كان ليفين يتساءل: ما هو ولماذا يعيش، لم يكن يجد جواباً، فيغرق في اليأس. لكنه عندما كان يكفّ عن طرح هذه الأسئلة، كان يُخيل إليه أنه يعلم، على نحو مشوّش، ما هو ولماذا يعيش؟ لأنه كان يسلك سلوكاً ثابتاً ودقيقاً، سلوكاً أثبت وأدق في هذه الآونة الأخيرة بالذات.

لقد كانت عودته إلى أراضيه في مطلع حزيران عودة إلى مشاغله المعتادة. فاستغلال أملاكه، وعلاقاته بالفلاحين والجيران، وإدارة منزله، وأعمال أخيه وأخته التي اضطلع بها، وعلاقته بزوجته وأهلها، وولده، وشغفه الجديد بتربية النحل، كل ذلك كان يشغل وقته بكامله.

وإذا كانت هذه الاهتمامات تستغرقه فليس معنى ذلك أنه كان يسوّغها أمام عينيه بواسطة النظرات العامة، كما كان يفعل من قبل؛ على العكس فمن جهة خمدت همته بعد فشل مشاريعه السابقة التي استهدفت الخير العام، ومن جهة أخرى انشغل انشغالاً شديداً. بجملة الالتزامات التي كانت تُثقل كاهله من كل الجهات، فهجر كلياً تأملاته حول الخير العام، وأكبّ على هذا النشاط لما لاح له فقط من أنه ينبغي أن يتصرف على هذا النحو، وأنه لا يمكنه أن يتصرّف على نحو آخر.

Tele: @Arab_Books

عندما كان يحاول قديماً (بدأ ذلك منذ الطفولة تقريباً و لم ينقطع عن النمو حتى سن (الرشد) أن يتصرف تصرفاً ينفع به الناس جميعاً، والإنسانية، وروسيا، وقريته، لاحظ أن هذا النمط من التفكير سائغ جداً لكن النشاط الذي ينبع منه يظل غير مرض: كان ينقصه اليقين بأنه يقوم بعمل ضروري وكان نشاطه الذي بدًا له في البداية شديد الاتساع يضيق شيئاً فشيئاً ويتلاشى؛ وحين أخذ الآن، منذ زواجه، يقتصر على أن يعيش لنفسه، كان على يقين من أنه يقوم بعمل ضروري يعطي نتائج مرضية أكثر فأكثر، عمل يتّسع يوماً بعد يوم، هذا مع أنه لم يكن يشعر بأي حبور عند التفكير بنشاطه.

لقد كان يغوص الآن في أعماق الأرض، ممعناً في ذلك، بالرغم من إرادته، كالمحراث، وليس بوسعه أن ينتزع نفسه منها إلا بعد أن يفرغ من ثلمه.

أن يعيش كما عاش أبواه وأجداده، في مستوى معين من الثقافة، وأن يربّي أولاده تربية معينة، أمر ضروري بالطبع. ضروري كالعشاء بعد الجوع؛ وكما أنه من الضروري أن يُهيأ العشاء، فكذلك لا بدَّ من أن يتولى استغلال ممتلكات «بوكروفسكوي» بحيث تدر عليه دخلاً. وكما يجب عليه أن يدفع ديونه، فكذلك يجب عليه أن يصون أرض الأجداد لكي يشكره ابنه عندما يتلقى ميراثه كما شكر ليفين جده على كل ما بناه وغرسه. ومن أجل ذلك، يجب ألا يؤجر الأرض بل أن يستثمرها بنفسه، وأن يتعهد الماشية، وأن يسمّد الأرض، وأن يغرس الأشجار.

و لم يكن بوسعه أن يرفض الإشراف على أعمال سيرج إيفانوفتش

Tele: @Arab_Books

وأخته، والفلاحين الذين يأتون لاستشارته والذين تعوّدوا ذلك: لو رفض لكان كما يهجر ولداً يعيله. يجب عليه أن يهتم براحة أخت زوجته وأولاد أختها المقيمين عنده، وبراحة زوجته وابنه ويجب أن يظل بقربهم عدة ساعات في النهار على الأقل.

كل ذلك، إضافة إلى الصيد وشغفه الجديد بتربية النحل، كان يملأ هذه الحياة التي لا يجد لها معنى حين يفكر فيها.

وفضلاً عن أن ليفين كان يعلم علم اليقين ما ينبغي له أن يفعله. فقد كان يعلم علم اليقين أيضاً كيف ينبغي له أن يفعل ذلك كله، ويعلم علم اليقين تسلسل الأهمية في مشاغله.

كان يعلم أنه يجب أن يشغّل العمال بأرخص ما يمكن؛ بيد أنه لا ينبغي له أن يستعبدهم بأن يُسلّفهم سُلفاً أدنى من الأجر العادي، وإن كان ذلك مريحاً جداً. كان يستطيع أن يبيع الفلاحين العلف إذا أعوزهم العلف، مهما تكن رأفته بهم؛ لكن كان يجب عليه أن يُغلق النزل والخمّارة وإن كانا مصدراً للأرباح. كان يجب أن يُعاقب بقسوة ما بعدها قسوة قطع الأخشاب السرّي، وبالمقابل فمن المستحيل تغريم الفلاحين إذا ضلّت مواشيهم سبيلها في أراضيه؛ وبالرغم من الحنق الذي يخامر الحراس فلم يكن بوسعه أن يصادر الماشية التي ضُبطت متلبّسة بالجريمة.

يمكنه أن يقرض «بطرس» مالاً لينقذه من براثن مراب يطلب منه عشرة بالمئة في الشهر، على أنه لا ينبغي أن يمنح الفلاحين الذين لا يدفعون إتاواتهم مهلة أو تأجيلاً. لم يكن يغتفر لمدير أعماله إذا أهمل

Tele: @Arab_Books

حصاد ركن صغير من الحقل. وكان يمتنع عن أن يمس الثمانين هكتار التي غرس فيها غابة فتية. وإذا ما عاد إليه عامل بعد ترك العمل، في موسم الحصاد، لأن أباه قد مات، يخصم عليه ليفين، على مضض، أجرة العطل الأسبوعية؛ لكنه كان لا ينفك ينفق على الخدم المسنين الذين لم يعودوا صالحين لشيء.

كان ليفين يعلم أيضاً أن أول واجباته، حين يعود إلى بيته، أن يزور امرأته المتوعّكة، وأن الفلاحين الذين كانوا ينتظرونه منذ ثلاث ساعات يمكن أن ينتظروه قليلاً أيضاً، كان يعلم أنه مهما تكن اللذة التي يستشعرها أثناء ترتيب أماكن جماعات النحل، فقد كان ينبغي له أن يتخلّى عن تلك اللذة وأن يترك الرجل العجوز المكلّف بالمنحلة يتولّى هذه المهمة وحده، ليتناقش والفلاحين الذين جاؤوا يلاحقونه وهو في غمرة عمله.

لكنه كان يجهل إن كان يتصرّف تصرفاً حسناً أم سيئاً، ولم يكن يتحاشى الأحاديث والملاحظات التي تدور حول هذا الموضوع فحسب بل إنه لم يكن يبحث عن الحجج ليبرر نفسه.

كان التأمل يغرقه في الشك ويمنعه أن يرى ما يجب وما لا يجب فعله. وبالمقابل، فعندما كان يعيش دون تفكير، كان يحس إحساساً مستمراً بوجود قاضٍ في نفسه، لا يُخطئ في حكمه، قاضٍ يدله على الأفضل بين عملين ممكنين، فإذا لم يتصرف كما ينبغي أن يتصرّف شعر بذلك.

ولذلك كان يعيش دون أن يعلم أو يواجه إمكانية معرفة: ما هو

Tele: @Arab_Books

ولماذا يعيش على هذه الأرض. كان هذا الجهل يعذّبه عذاباً شديداً إلى الحد الذي خاف معه أن ينتحر، ومع ذلك فقد ظل يشق بثبات طريقه الشخصي في الحياة.

Tele: @Arab_Books

-١١-

في اليوم الذي وصل فيه سيرج إيفانوفتش إلى بوكروفسكوي، كان ليفين في يوم من أسوأ أيامه.

كان في تلك الفترة من السنة التي يبلغ فيها العمل أشده: الفترة التي تتجلى فيها، في الشعب بأسره، روح فريدة من التضحية لا تظهر في ظروف الحياة الأخرى، روح جديرة أن تُقدر تقديراً عالياً لو أن الناس الذين يُظهرون تلك الروح كانوا يقدّرون قيمتها، ولو لم يتكرر ذلك كل سنة، ولو لم تكن نتائج هذا الجهد طفيفة.

إن حش الشعير والشوفان وحصادهما، وإدخال الحشيش، ومباشرة الحراثة الثانية، ودرس الحبوب، وبذار حنطة الخريف، كل ذلك يبدو بسيطاً وعادياً؛ لكن من الضروري، لكي يتم ذلك كله في وقته، من أن يعمل جميع أهالي القرية دون انقطاع من أكبرهم إلى أصغرهم ثلاث مرات أكثر من المعتاد، أثناء هذه الأسابيع الثلاثة أو الأربعة، وهم يتغذون بخمر «الكفاس» وبالبصل وبالخبز الأسود، ويدرسون القمح وينقلون الأكداس ليلاً، ولا يخصصون للنوم سوى ساعتين أو ثلاث في اليوم. هذا ما يجري كل سنة في روسيا.

كان ليفين الذي عاش دائماً في الريف على صلة وثيقة بالشعب

Tele: @Arab_Books

يحس، في فترة أعمال الحقول، أن عدوى هذا التهيج العام تسري إليه.

في هذا الصباح، كان قد ذهب ليرى بذار الشيلم وتجميع الشوفان في أكداس؛ ورجع ليكون مع زوجته وأختها عند نهوضهما، وتناول القهوة معهما، وعاد مشياً إلى المزرعة حيث ستُجرَّب دراسة من نوع جديد.

ما انفك ليفين يفكر، طوال اليوم، وهو يثرثر مع مدير أعماله ومع الفلاحين، ومع زوجته ودولي والأولاد وحميه في البيت، فيما كان يشغله آنذاك بالرغم من همومه باعتباره المسؤول عن المنزل، وأرجع كل شيء إلى السؤال التالي: «ما أنا؟ أين أنا؟ ولماذا أنا هنا؟»

كان واقفاً في مستودع للحصيد بأوراقها العطرة مثبتة بأعمدة من الحور المقشور تسند سقف القش. كان ليفين ينظر حيناً، من البوابة المفتوحة حيث كان غبار الدَرْس الجاف والحرّيف يغيب وهو يتراقص، إلى عشب الأرض المسوّرة التي تضيئها الشمس المحرقة وإلى القش الغض الذي أخرج قبل قليل من المستودع، وحيناً آخر إلى السنونو ذات البطن الأبيض والرأس المبقّع التي كانت تأتي لتجثم تحت السقف وهي تصرخ صرخات قصيرة وحادة أو التي كانت تحط، وهي خفاقة الأجنحة، في فرجة البوابة المضيئة، وفي بعض الأحيان كان ينظر إلى الجمهور الذي يعجّ به المستودع المظلم والمغبرّ، فتراوده أفكار غريبة.

كان يفكر: «ما جدوى ذلك كله؟ لماذا أقف هنا فأجبرهم على العمل؟ لماذا ينشطون جميعاً ليبرهنوا لي على حميّتهم بحضوري؟»

Tele: @Arab_Books

وفكّر وهو ينظر إلى فلاحة مهزولة الجسم كانت تثبّت قدميها الملوّحين، وهي تدفع القمح بمشطها، على أرض البيدر الخشنة: «وهذه العجوز ما ترينا التي أعرفها جيداً (اعتنيت بها عندما وقع عليها جسر خشبي، أثناء الحريق) لماذا تكدّ نفسها إلى هذا الحد. لقد شفيت وسوف تُدفن اليوم أو غداً أو بعد عشر سنوات ولن يبقى منها شيء، ولا من تلك الفتاة الأنيقة في تنورتها الكتانية الحمراء، التي تفصل القش عن قشر الحب بحركة ماهرة جداً، رشيقة جداً. هي أيضاً ستُدفن، وهذا الحصان الأبقع سيهلك قبل الجميع...» قال ذلك وهو يتأمل حصاناً ينوء بحمله ويتنشّق الهواء بسرعة من منخريه المتسعين، ويتقدّم بخطوات بطيئة جاراً بحركته العجلة المائلة. «هو أيضاً سيُدفن، مثله مثل فيدور عامل الدراسة بلحيته الجعدة الملأى بالعصافة وقميصه الممزقة الذي يكشف عن كتفه البيضاء. لكنه يحل الحُزم، ويلقي الأوامر، ويصرخ على النساء ويصلح بحركة سريعة حزام الدولاب. وسوف أدفن أنا أيضاً، على الخصوص، ولن يبقى شيء. إذن، ما جدوى ذلك؟

كان يفكّر في هذا وينظر، مع ذلك، إلى ساعته ليحسب كمية القمح التي تُدرس في ساعة. كان بحاجة إلى أن يعرف ذلك لكي يحدد المهمة اليومية.

لاحظ ليفين: «لقد مرت ساعة و لم يكادوا يبدؤون بالعرمة الثالثة». ودنا من عامل الدراسة وغطى بصوته على ضوضاء الآلة وأمره أن يلقمها في كل مرة كمية أقل من القمح:

– إنك تضع في كل دفعة أكثر من اللازم، يا فيدور! أرأيت، هذا

Tele: @Arab_Books

يحشو الدرّاسة بالعُصافة ويمنعها من السير السريع. ساو بين الدفعات أكثر...

لكن «فيدور» الذي اسود من الغبار اللاصق بوجهه الناضح عرقاً، صرخ بشيء رداً عليه، ولم يعمل بملاحظاته. فدنا ليفين من إسطوانة الدراسة، ونحّى فيدور، وأخذ يصب الحب بنفسه.

بعد أن عمل ليفين حتى عشاء الفلاحين، خرج مع عامل الدراسة وبدأ الحديث معه. وقفا بجانب عرمة من الشيلم كُدّست بعناية للبذار.

جاء هذا العامل من قرية نائية هي القرية التي حاول ليفين أن يقيم فيها تجربة الاستغلال الجماعي. والأرض الآن مؤجرة لمفتش للأسواق يُدعى «كيريلوف».

ساق ليفين الحديث إلى هذا الموضوع وسأل فيدور إذا كان أفلاطون، وهو فلاح طيب وثري من القرية نفسها، لا يريد أن يأخذ الأرض على حسابه.

أجاب الفلاح وهو يسحب القشة التي انسلّت إلى ما بين صدره الناضح عرقاً وقميصه:

– الأجور مرتفعة، ولا يمكن لأفلاطون أن يوفّق في هذا العمل، يا قسطنطين دميتريفتش.

– وكيف يُوفّق كيريلوف إذن؟

– ميتيوك؟ (كان هذا الاسم هو تصغير التحقير الذي يطلقه الفلاح

Tele: @Arab_Books

على مفتش الأسواق). وكيف لا يوفّق، يا قسطنطين دميتريفتش؟ وهو الماهر في امتصاص الناس. إنه لا يرحم أحداً، أما العم فوكانيتش (هكذا كان يسمي أفلاطون العجوز) فليس بالرجل الذي يسلخ الفقراء. فهو هنا يؤجّر الأرض بالدين، وهناك يخفض الأسعار. إنه لا يكاد يرد ماله. لكنه رجل حقاً.

– ولم يفعل ذلك؟

– لأن الناس ليسوا سواء، يا قسطنطين دميتريفتش: فبعضهم لا يفكر إلا في حاجاته، مثل «ميتيوك» الذي لا يحلم إلا بملء بطنه؛ أما فوكانيتش فهو شيء آخر: إنه رجل عجوز حافل بالكرامة. إنه يعيش من أجل روحه ولا ينسى الله.

فهتف ليفين وهو يكاد يصرخ:

– لا ينسى الله! يعيش من أجل روحه! ماذا تعني؟

– أنت تعلم ذلك كما أعلمه: أي أنه يعيش بحسب الحقيقة، بمقتضى قانون الله. آه! لا، الناس ليس سواء. وأنت أيضاً، لا تسئ إلى قريبك...

قال ليفين وهو يختنق من التأثر:

– نعم، نعم، إلى اللقاء!

ورجع ليأخذ عصاه واتجه بخطوات سريعة إلى بيته. وعندما قال له الفلاح: إن فوكانيتش يعيش «من أجل روحه، بحسب الحقيقة

Tele: @Arab_Books

وبمقتضى قانون الله»، انطلقت من إحدى زوايا كيانه أفكار مشوشة وخصبة واندفعت كلها نحو الهدف نفسه، وأخذت تحوّم في رأسه وقد بهرته بضيائها.

Tele: @Arab_Books

-١٢-

كان ليفين يوسع الخطا على الطريق، ملتفتاً إلى حالته النفسية التي لم يعرفها من قبل، أكثر من التفاته إلى أفكاره (التي ما تزال جد مشوشة).

لقد فعلت فيه كلمات الفلاح فعل الشرارة الكهربائية: لقد حوّلت فجأة طائفة الأفكار المنعزلة، المتعددة، العاجزة التي ما انفكت تشغله وجمّعتها في كل واحد. وكانت هذه الأفكار ما تزال تسكنه بلا علم منه، عندما تحدّث عن تأجير الأرض.

أحسّ في نفسه بشيء جديد وأخذ يتقرّى بفرح هذا العنصر الجديد دون أن يعلم ما هو.

لا ينبغي أن نعيش من أجل شهواتنا، بل من أجل الله. من أجل أي إله؟ وهل بوسعنا أن نقول ما هو أبعد عن العقل مما قال؟ لا ينبغي أن نعيش من أجل شهواتنا: وبعبارة أخرى: لا ينبغي أن نعيش من أجل ما نفهمه، من أجل ما يجتذبنا، من أجل ما نتوق إليه، بل من أجل شيء لا تبلغه الأفهام، من أجل إله لا يمكن لأحد أن يدركه أو يعرّفه. ومع ذلك أأفهم هذه الكلمات المنافية للعقل التي قالها فيدور؟ وهل وجدتها حمقاء مشوشة، غير صحيحة؟

Tele: @Arab_Books

«لا، لقد فهمتها بدقة كما يفهمها، لقد فهمتها فماً أكمل وأوضح من فهم أي إنسان: لم أرتب فيها قط ولا يمكنني أن أرتاب فيها. ولست حالة مفردة: هذا هو الشيء الوحيد الذي يفهمه الجميع فهماً تاماً، الشيء الوحيد الذي لا يرتاب فيه أحد».

وكنت أنتظر المعجزات، كنت أشكو من أنني لا أرى المعجزات القادرة على إقناعي! المعجزة المادية كفيلة بأن تخلب لبي. وها هي ذي المعجزة الوحيدة الممكنة، الدائمة: إنها تكتنفني من كل الجهات ولم ألاحظها!

«يقول فيدور: إن كيريلوف يعيش من أجل بطنه. وهذا مفهوم ومعقول. فمن حيث نحن كائنات عاقلة لا يمكننا أن نعيش إلا من أجل بطننا. ثم ما لبث «فيدور» نفسه أن قال: إن من الشر أن يعيش المرء من أجل بطنه، وأنه يجب أن يعيش من أجل الحقيقة، من أجل الله، وأنا أفهمه بالإشارة! أنا وملايين البشر الذين عاشوا منذ قرون خلت والذين يعيشون الآن، والفلاحون، والسذج والحكماء الذين فكّروا وكتبوا مرددين الشيء نفسه بلغتهم الغامضة، جميعهم متفقون على هذه النقطة، على هذه النقطة لا غير: على هدف الوجود وعلى ما هو خير. ليس من جامع بيني وبين الآخرين إلا هذه المعرفة الواضحة، الثابتة، الأكيدة، وهي معرفة لا يمكن أن تحدد بالعقل: إنها خارجة عن العقل، لا تستند إلى أي مبدأ، ولا تستتبع أية نتيجة».

«لو كان للخير سبب لكف عن أن يكون الخير؛ ولو كان له نتيجة: الثواب، لكف عن أن يكون الخير أيضاً. فالخير إذن خارج عن كل علاقة من علاقات السبب بالنتيجة».

Tele: @Arab_Books

«هذا ما أعرفه، وما نعرفه جميعاً».

«وهل هناك معجزة أكبر؟».

«أأكون قد عثرت على الحل؟ وهل بلغت آلامي نهايتها؟»

كذلك كان يفكر ليفين وهو يمشي على الطريق المغبرة، غير آبه بالحرارة والتعب، وقد استولت عليه السكينة النفسية. لقد ملأه هذا الشعور بحبور بالغ حتى إنه لم يجرؤ أن يصدّقه. كاد يختنق من الانفعال؛ وعجز عن أن يمضي في طريقه، فدلف إلى الغابة وجلس في ظل أيكة من الحور فوق العشب النامي. نزع قبعته ليبرد جبينه العرقان وتمدد، وهو متكئ على مرفقه، فوق العشب الملتف والمتنفخ بالنسغ.

فكر، وعيناه شاخصتان إلى العشب الغض تُتابعان حركات جعل أخضر صغير كان يتسلّق ساق بخيل وقد أوقفته عن صعوده وريقة النجيل: «هيا، يجب أن أوضح أفكاري. أن أفهم».

وتساءل وهو ينحّي الوريقة لكي لا تُعيق الجعل، ويحْني عشبة أخرى لتمر الحشرة من فوقها: «ماذا اكتشفت؟ ما الذي يوفر لي هذا الفرح؟ ماذا اكتشفت؟»

«لا شيء. انكشف لي فقط ما كنت أعلمه. فهمت تلك القوة التي منحتني الحياة وما تزال تمنحني إياها. تخلصت من الخداع، وتعرّفت بسيدي».

«كنت أقول، فيما مضى: إن تبادلات مادية كانت تتم في جسدي، كما تتم في جسد هذه النبتة، وجسد هذا الجعل (الذي رفض العشبة

Tele: @Arab_Books

التي أحنيتها، وها هو يفتح جناحيه ويطير) بمقتضى قوانين فيزيائية وكيميائية وفيزيولوجية، وأن فينا جميعاً، بما في ذلك أشجار الحور والسحب والسدم، تطوراً يحدث. فمم ينطلق هذا التطور؟ وإلام يفضي؟ تطور مستمر وصراع... وكأن التطور والصراع يمكنهما أن يستمرا إلى ما لانهاية! وكنت أدهش، بالرغم من الجهد الشديد لفكري في هذا السبيل، ألا أكتشف معنى الحياة، معنى اندفاعاتي وأشواقي. وأنا أقول الآن: إني وجدت معنى الحياة وهو: أن أعيش من أجل الله، من أجل روحي. وبالرغم من وضوح هذا المعنى فإنه يظل غامضاً، عجيباً. وكذلك الأمر بالنسبة إلى كل ما هو موجود. نعم، كان ذلك من الكبرياء». قال ذلك وانقلب على بطنه محاولاً أن يعقد عقدة بقشتين من العشب دون أن يكسرهما.

وردد: «لم يكن ذلك كبرياء العقل فحسب، بل حماقة العقل. ولا سيما... مكر العقل، ليس هناك كلمة أخرى. غشّ العقل، لا أكثر».

واستعاد بإيجاز مسيرة أفكاره كلها منذ سنتين: منذ أن أذهلته فكرة الموت وهو بجنب أخيه المصاب بمرض عضال.

فبعد أن أدرك بوضوح لأول مرة أن ليس أمامه، شأنه شأن سائر البشر، سوى الألم والموت والنسيان الأبدي، قرر أنه لا يمكن أن يعيش هكذا، وأن عليه إما أن يفهم مشكلة الوجود على نحو لا يبدو معه هذا الوجود كأنه سخرية فظة تمارسها روح خبيثة، وإما أن ينتحر.

بَيْدَ أنه لم يفهم ولم ينتحر: لقد ظل يعيش ويفكّر ويحس؛ وأكثر

Tele: @Arab_Books

من ذلك أن تزوج وخَبِر الكثير من المباهج وكان سعيداً ما لم يفكر في معنى الوجود.

ما معنى ذلك؟ معنى ذلك أنه يعيش عيشة حسنة ويفكر تفكيراً رديئاً.

كان يعيش (دون أن يفطن لذلك) على تلك الحقائق الروحية التي رضعها مع حليب أمه. بينما كان لا يرفض هذه الحقائق فحسب، حين يفكر، بل إنه كان يتفاداها بعناية.

لقد رأى الآن بوضوح أنه إذا استطاع أن يحيا فذلك بفضل المعتقدات التي رُبي عليها لا غير.

«ماذا كنت سأكون، وكيف كنت سأعيش لو لم أكن مشبعاً بهذه المعتقدات، لو لم أكن عالماً بأنني يجب أن أعيش من أجل الله لا من أجل شهواتي؟ كنت سأسرق وأكذب وأقتل. وما كان سيوجد شيء، بالنسبة إلي، مما يخلق أفراح وجودي الأساسية». ومع أنه بذل جهداً جباراً، فإنه لم يستطع أن يتخيّل الكائن الحيواني الذي كان سيكونه لو لم يكن عالماً لماذا يعيش.

كنت أبحث عن جواب السؤال الذي يشغلني. ولم يكن التفكير قادراً على إعطائي الجواب، فليس بين التفكير وهذه المشكلة جامع مشترك. الحياة نفسها هي التي أعطتني الجواب، بفضل معرفتي بما هو خير وما هو شر. وهذه المعرفة لم أكتسبها اكتساباً، لكنني وهبتها هبة، لأنني لا أستطيع أن أحصل عليها أينما فتشت».

Tele: @Arab_Books

«ومن أين آتي بها؟ أهو العقل الذي برهن لي أنني يجب أن أحب قريبي لا أن اضطهده؟ لقد قالوا لي ذلك في طفولتي. واعتقدت ذلك بفرح لأنهم صاغوا لي ما كان في نفسي. لكن، مَن الذي كشف لنا عن ذلك؟ ليس العقل. العقل كشف لنا عن الصراع من أجل الوجود وعن القانون الذي يقضي بأن اضطهد الذين يقفون عثرة في سبيل إشباع رغباتي. هذا هو استنتاج العقل. العقل لا يمكن أن يعلّمنا حب قريبنا، لأن ذلك مجاف للعقل.

Tele: @Arab_Books

-١٣-

وتذكّر ليفين مشهداً حديث العهد بين دولي وأولادها. ذلك أن الأولاد الذين تُركوا وحدهم أخذوا يلهون، فطهوا توت العليق على لهب الشمعة، وتراشقوا ببق الحليب من أفواههم. وداهمتهم أمهم، وهم في لهوهم هذا، فوبختهم بحضور ليفين، وبينت لهم أن ما يخرّبونه كلّف الكبار كثيراً من الجهد، وأن هذا الجهد إنما تحمّلوه من أجلهم، وأنهم إذا كسروا الفناجين فلن يبقى لهم ما يتناولون به الشاي، وأنهم إذا ضيعوا الحليب فلن يجدوا ما يأكلونه وسوف يموتون جوعاً.

ذهل ليفين من الشك المقطّب والهادئ الذي استمع به الأولاد إلى أمهم. لم يؤمنوا بكلمة مما قالته لهم أمهم، وانزعجوا فقط لأنها وضعت حداً لهذا اللعب الذي أسر قلوبهم. لم يكن بوسعهم أن يفهموا أن ما يخرّبونه هو ما يعيشون به، وذلك لأنهم عاجزون عن تصور مجموع الخيرات التي يتمتعون بها.

كانوا يفكرون: «هذا شيء طبيعي، وليس في ذلك ما هو مثير أو مهم، لأن ذلك قد كان دائماً وسيكون أبداً. وهم يكررون دائماً الأغنية ذاتها. علينا أن نفعل شيئاً آخر غير التفكير بما هو مطهو: نريد أن نبتكر شيئاً جديداً خاصاً بنا. كأن نضع، مثلاً، توت العليق في

Tele: @Arab_Books

الفنجان ثم ندعه يغلي على لهب الشمعة، وكأن نتراشق ببق الحليب من أفواهنا. هذا مسل وجديد، وهو يعدل الشرب بالفناجين».

وتابع ليفين تفكيره: «ألسنا نفعل مثلهم، ألست أفعل مثلهم وأنا أبحث عن دلالة قوى الطبيعة وعن معنى حياة الإنسان؟».

«والنظريات الفلسفية ألا تفعل مثل ذلك حين تقود الإنسان، بطريق الفكر غريبة، طريق تكاد تكون غير طبيعية، إلى معرفة ما يعرفه منذ زمن بعيد بكثير من اليقين حتى إنه لا يستطيع أن يعيش بدون هذه المعرفة.

أليس واضحاً، في شرح كل فيلسوف لنظريته، أنه يعلم سلفاً معرفة لا ريب فيها كمعرفة الفلاح «فيدور» –وليست خيراً منها– الهدف الأساسي للحياة، وأنه يريد فقط أن يعود إلى ما يعرفه الناس جميعاً، بطرق العقل الملتبسة؟».

«فَلنترك الأولاد يقومون بأود أنفسهم، ويصنعون الآنية، ويحلبون البقر... الخ... هل سيستمرون في شيطناتهم؟ لا، سيموتون جوعاً. ولنترك الآن مع أهوائنا وأفكارنا، بدون مفهوم الله الواحد والخالق أو بدون معرفة الخيرة والشر الأخلاقي...».

«حاولوا أن تبنوا شيئاً دون هذه المفاهيم!».

«لن نفعل سوى الهدم، لأننا مشبعون روحياً. ولا سيما الأولاد!» من أين جاءتني تلك المعرفة المُسعدة التي أشاطرها ذلك الفلاح والتي تحمل وحدها السكينة إلى نفسي؟ من أين أخذتها؟

Tele: @Arab_Books

وإذا كنت قد تربيت على فكرة الله، مسيحياً مغموراً طوال حياتي بالخيرات الروحية التي تسخو بها المسيحية، مشبعاً وعائشاً بهذه الخيرات، فأنا أهدم، كالطفل غير الواعي، أو أحاول أن أهدم ما به أعيش. وإنما أتوجه «إليه»، في الدقائق العصبية وحدها، كالأطفال عندما يلم بهم البرد أو الجوع، ولا أتبين، شأن الأطفال الذين توبخهم أمهم على حماقاتهم، سوى أن محاولاتي، محاولات الطفل المدلل، لم يُحسب حسابها.

إن ما أعرفه، لم أعرفه بطريق العقل. لقد وهبته، لقد انكشف لي. إني أعرفه عن ظهر قلب، بطريق الإيمان بتعاليم الكنيسة الأساسية.

وكرر ليفين: «الكنيسة؟ الكنيسة!» وهو ينقلب على جهته الأخرى، ويتكئ على مرفقه، ويحدق في قطيع يهبط إلى الساقية في الأفق البعيد.

«أيمكنني أن أؤمن بما تعلّمه الكنيسة؟» فكر في ذلك ليمتحن نفسه وليستعرض كل ما يمكن أن يدمر سكينته الراهنة. وتوقف عن عمد عند المذاهب التي حيرته وأثارت حفيظته أكثر من غيرها. «الخليقة؟ لكن كيف أفسر الوجود؟ بالوجود ذاته؟ بلا شيء... الشيطان والخطيئة؟ وكيف أفسر الشر إذن؟... والفداء؟...»

لست أدري شيئاً، ولا يمكنني أن أعلم ما قيل لي وللناس جميعاً في آن واحد.

خُيل إليه الآن أن ليس بين عقائد الكنيسة ما يمكنه أن ينال من الجوهري: الإيمان بالله في الخير باعتباره غاية الإنسان الوحيدة.

Tele: @Arab_Books

كل عقيدة من عقائد الكنيسة تتضمن أنه ينبغي أن نخدم الحقيقة لا شهواتنا. وكل منها لا يسيء إلى هذه القاعدة، لكنه يُسهم في تحقيق أعظم المعجزات التي تتم دوماً على هذه الأرض: وهي التي تتيح لملايين الكائنات البشرية من كل جنس: الحكماء والسذج، الأطفال والشيوخ، لجميع الناس مروراً بهذا الفلاح، و«لفوف» وكيتي، والمتسولين والقياصرة، تتيح لهم أن يفهموا الحقائق نفسها وأن يؤلّفوا حياة الروح هذه التي تستحق وحدها أن يحياها الإنسان والتي نُكبر قيمتها وحدها.

أخذ ينظر الآن إلى السماء العميقة، الصافية، وهو مستلق على ظهره. «أنا أعلم جيداً أن هذه السماء فضاء لا متناه وليست قبة مستديرة. ومحدودة، ومع يقيني بضخامة هذا الفضاء، فلا ريب أني أقرب إلى الصواب عندما أرى هذه القبة الزرقاء والصلبة، مني عندما أحاول جاهداً أن أرى أبعد منها.

Tele: @Arab_Books

-١٤-

كان ليفين ينظر أمامه ويرى القطيع في الأفق البعيد؛ ثم شاهد عربته يجرها جواده «الأدهم». وعندما وصل الحوذي إلى قرب القطيع قال شيئاً للراعي؛ وبعد لحظة سمع غير بعيد عنه صوت العجلات وصهيل الجواد؛ لكنه كان مستغرقاً في أفكاره إلى الحد الذي لم يتساءل معه لماذا جاء الحوذي يطلبه.

لم يثب إلى ذاته إلا عندما ناداه الحوذي على خطوات منه.

– أرسلتني السيدة. لقد وصل أخوك قبل هنيهة مع سيد آخر.

صعد ليفين العربة وتناول العنان.

ظل طويلاً قبل أن يتمالك نفسه: لاح له أنه يخرج من حلم. كان ينظر إلى جواده المطهّم الذي تغطى عنقه وصدره بالزبد في المواضع التي كان العنان يحفّها، وينظر إلى الحوذي إيفان الجالس قربه، وقد عادت إليه ذاكرته: كان ينتظر أخاه، ولا بدَّ أن امرأته قلقة الآن من جراء غيابه الطويل. حاول أن يحزر من يكون الزائر الذي يرافق أخاه. لم تعُد الصورة التي يكونها عن أخيه وامرأته وضيفه المجهول هي الصورة التي كوّنها سابقاً. وخُيّل إليه أن علاقاته بالآخرين ستكون جداً مختلفة منذ الآن.

Tele: @Arab_Books

«المسافة التي فصلت دائماً بين أخي وبيني ستختفي الآن. لن نتخاصم بعد الآن، لن أتشاجر مع كيتي ولا مع هذا الضيف، أياً كان؛ سأكون باشاً وطيباً مع الخدم، بدءاً من إيفان... كل شيء سيتبدل».

كان ليفين يلتفت لينظر إلى إيفان الجالس بقربه، وهو يكبح جواده النشيط الذي كان يتحفّز لبحث سيره؛ و لم يكن الرجل يعرف ماذا يفعل بيديه العاطلتين، فأخذ يشد على صدره قميصه الذي نفخه الهواء. وكان ليفين يفتش عن ذريعة ليبدأ الحديث معه. أراد أن يقول له: إنه قد أسرف في شد السير الذي يسند عريش العربة، لكن ذلك كان أشبه باللوم، ففتش عن حديث ودّي. و لم يخطر بباله شيء.

قال الحوذي وهو يسحب أحد طرفي العنان ليصحح وجهة السير:

– الأفضل أن تنحرف إلى اليمين قليلاً، فهذه أرومة شجرة.

قال ليفين الذي تألم من تدخّل الحوذي:

– أرجوك أن تتركني وشأني وألا تعطيني نصائحك.

لقد خامره بدقة الحنق القديم نفسه عندما كان الناس يتدخّلون في شؤونه. وما لبث أن شعر شعوراً حزيناً على أي حدٍّ أخطأ حين تصوّر أن حالته النفسية ستُبدل مباشرة ردود أفعاله تجاه الواقع.

شاهد ليفين، على ربع فرسخ من المنزل، غريشا وتانيا يهرعان إلى لقائه. فقالا وهما يتسلقان العربة:

– عم كوستيا! وصلت ماما وجدي وسيرج إيفانوفتش وسيد آخر.

Tele: @Arab_Books

– مَنْ ذلك السيد؟

قالت تانيا وهي تصعد إلى العربة وتقلد كاتافاسوف:

– إنه بشع! وهو يعمل بيديه هكذا؟...

سأل ليفين وهو يضحك وقد ذكّره تقليد تانيا الإيمائي بشخص ما:

– أهو شاب أم كبير!؟

وفكر في نفسه: «على ألا يكون ضيفاً ثقيلاً!».

وما إن مالوا إلى المنعطف وشاهد ليفين الذين أقبلوا عليه، تعرف إلى كاتافاسوف بقبعة القش. كان يمشي وهو يخطر بيديه كما قلّدته تانيا تماماً.

كان كاتافاسوف يحب كثيراً الكلام على الفلسفة. كان ينظر فيها باعتباره عالماً طبيعياً، أي باعتباره رجلاً لم يهتم قط بالفلسفة، وقد ناقشه ليفين كثيراً، في هذه الآونة الأخيرة.

كانت الذكرى الأولى التي تبادرت إليه عندما تعرّف بصديقه ذكرى حديث تصور كاتافاسوف، على ما يبدو، أنه انتصر فيه.

قال ليفين في نفسه: «حسناً، لن أجازف بعد الآن بآرائي دون ترو».

بعد أن نزل من العربة ليرحب بالقادمين استخبر عن زوجته.

قالت دولي:

Tele: @Arab_Books

- ذهبت إلى الغابة مع متيا. أرادت أن تجلس به هناك. فالجو شديد الحرارة في المنزل.

وكان ليفين قد حذّر امرأته من أن تحمل الصبي إلى الغابة مقدراً أن ذلك خطر، فأزعجه هذا النبأ.

قال الأمير وهو يبتسم:

- لم تعرف هي وابنها أين يختبئان من الحرارة. نصحتها أن تحاول وضع الصبي في قبو الجليد.

سنذهب إلى هناك فوراً.

قال سيرج إيفانوفتش الذي تخلّف ليظل مع أخيه:

- وماذا تفعل الآن؟

أجاب ليفين:

- ما من شيء خاص. إني أهتم بممتلكاتي، كالعادة. هل ستبقى مدة طويلة؟ إننا ننتظرك منذ زمن بعيد.

- نحو خمسة عشر يوماً، فعندي شغل كثير في موسكو.

تلاقت نظرتا الأخوين، عند هذه الكلمات، وبالرغم من تشوّق ليفين الشديد، في هذه اللحظة، إلى إقامة علاقات ودية وبسيطة بخاصة مع أخيه، إلا أنه أحس بالضيق. فخفض عينيه ولم يدر ما يجيب.

Tele: @Arab_Books

استعرض جميع الموضوعات التي يمكن أن يستسيغها سيرج إيفانوفتش وأن تُلهيه عن حرب الصرب والمسألة السلافية التي لمح إليها حين تحدّث عن مشاغله، وساق الحديث إلى الكلام على كتاب أخيه، فسأله:

– حسناً! وهل كُتب نقد كثير حول كتابك؟

تبسم سيرج إيفانوفتش من تعمد هذا السؤال، وقال:

– ما من أحد يهتم به، وأنا قبل غيري.

وأضاف وهو يشير بمظلته إلى الغيوم البيضاء التي ظهرت فوق رؤوس أشجار الحور:

– انظري، داريا ألكسندروفنا، سينزل المطر.

هذه الكلمات كانت كافية لتقوم بين الأخوين تلك العلاقات الفاترة –لا العدائية– التي كان ليفين يحب أن يتفاداها.

لحق ليفين بكاتافاسوف، وقال له:

– ما أحسن فكرتك بالمجيء!

– كنت أنوي ذلك منذ زمن بعيد، سنتمكن من الحديث بهدوء. هل قرأت سبنسر؟

– لم أفرغ منه. على كل حال، لم أعد بحاجة إليه الآن.

Tele: @Arab_Books

– كيف ذلك؟ إنه شائق. لماذا؟

– عنيت أنني مقتنع اقتناعاً راسخاً بأنني لن أجد عنده ولا عند أمثاله حل المشكلات التي تشغل بالي. الآن...

لكن تعبير كاتافاسوف المرح والهادئ أذهله فجأة: لم يشأ أن يكدّر حالته النفسية وتذكر ما وطّد العزم عليه، فتوقف.

وأضاف:

– سوف نستأنف الحديث عن ذلك.

وقال وهو يخاطب الجماعة:

– إذا كنا سنذهب إلى المنحلة، فهذا هو الدرب الذي يجب أن نسلكه.

وصلوا بالدرب الضيق إلى فرجة في الغابة كثيفة العشب، مسدودة من أحد جوانبها بسياج من القرطب ذي الألوان الفاقعة الذي تشابكت فيه الأغصان الخضراء الداكنة لأجمة صغيرة من الخربق. أجلس ليفين ضيوفه في ظل أيكة من شجر الحور الفتي على مقعد وكراس خشنة معدة للزائرين الذين يخشون النحل. واتجه هو نفسه إلى داخل الأرض المسوّرة لكي يأتي منها بالخبز والعسل الطازج والخيار لرفاقه.

بلغ الكوخ الخشبي وهو حريص على أن يحدث أدنى قدر ممكن من الحركة، مصيخاً السمع إلى دوي النحل الذي أخذ مروره يزداد

Tele: @Arab_Books

بجنبه. وبينما هو عند عتبة الباب جاءت نحلة وعلقت بلحيته فنزعها بحذر. وفي الممر المعتم تناول قناعه ذا الخيوط الحديدية والمعلق بالجدار ووضعه على وجهه، وخبأ يديه في جيبه وقصد إلى داخل السور حيث كانت توجد خلايا النحل وسط فراغ محصور. كانت أقدم الخلايا (كان يعرف تاريخ كل خلية من الخلايا) مصفوفة في صفوف منتظمة، مثبتة على الأوتاد بشرائح من اللحاء، وأفتاها، خلايا هذه السنة، مصفوفة على طول الحظيرة. وعند مدخل الخلايا، كان هناك تدويم مستمر يتعب النظر: كانت النحل واليعاسيب تحوّم في مكانها بينما كانت العاملات في حركة ذاهبة آتية تطير إلى زيزفونة مزهرة وتعود محمّلة بالغنيمة.

وافت أذنه شتى الأصوات: فحيناً صوت عاملة تمر، مستغرقة في عملها، وحيناً آخر صوت ذكر عاطل مُدوٍ، وفي بعض الأحيان صوت الحارسات المستعدات لإنفاذ حماتهن في العدو الذي يهددهن في ملكهن. وفي الجانب الآخر من الحظيرة، كان الحارس يبرد المنحلة. كان سعيداً بهذه المناسبة التي أتاحت له أن يبقى وحده قليلاً وأن يراجع ذاته: لقد أزرى الواقع على أفكاره.

ففي برهة وجيزة من الوقت، وجد الذريعة ليغضب على إيفان، وليُظهر لأخيه شيئاً من الفتور، وأن يشرع في الحديث مع كاتافاسوف، بدون ترو.

وفكر: «أمن الممكن أن يكون ذلك حالة عارضة تتلاشى دون أن تخلّف أثراً؟».

Tele: @Arab_Books

لكن حالته النفسية السابقة عادت إليه في اللحظة ذاتها، وأحس بفرح أن شيئاً جديداً ومهماً قد حدث فيه. لقد حجب الواقع وقتياً السكينة التي بلغها قبل قليل بغشاء رقيق، وظلت تلك السكينة سليمة في أعماقه.

وكما أن النحل الذي أخذ يحوّم حوله مهدداً ومستأثراً بانتباهه، قد سلبه هدوءه واضطر إلى أن يدافع عن نفسه، فكذلك سلبته الهموم التي انهالت عليه منذ أن صعد إلى العربة حرّيته الداخلية؛ لكن ذلك لم يدم إلا مدة وجوده وسط تلك الهموم. وكما أن قوته الجسدية ظلت سليمة بالرغم من النحل، فكذلك ظلت سليمة تلك القوة الروحية التي شعر بها قبل حين.

Tele: @Arab_Books

-١٥-

قالت دولي بعد أن وزّعت على أولادها الخيار والعسل:

– أتعلم مع من سافر سيرج إيفانوفتش، يا كوستيا؟ مع فرونسكي إنه مسافر إلى بلاد الصرب.

قال كاتافاسوف:

– وهو ليس وحده! إنه يقود كوكبة على نفقته!

قال ليفين:

– هذا شأنه.

وأضاف وهو يرمي سيرج إيفانوفتش بنظرة سريعة:

– أما يزال هناك متطوعون للسفر إلى هناك؟

كان سيرج إيفانوفتش يحاول جاهداً أن ينتزع برفق من قاع قدحه، بسكين مثلّم، نحلة ما تزال حية عالقة في الشراب السكري لقرص من الشهد الأبيض، دون أن يجيب.

Tele: @Arab_Books

قال كاتافاسوف وهو يقرش خيارة بصوت مسموع:

- وكيف لا! ليتك رأيت ما جرى أمس في المحطة!

سأل الأمير العجوز مُستأنفاً، كما يبدو، حديثاً بدأاه قبل وصول ليفين:

- اشرح لي، بالله عليك، يا سيرج إيفانوفتش، إلى أين يذهب كل هؤلاء المتطوعين، وضد من يقاتلون. إن الفهم ليحار في ذلك!

قال سيرج إيفانوفتش وهو يبتسم بهدوء:

- ضد الترك.

لقد خلّص النحلة السوداء من العسل، وكانت تحرك قوائمها بيأس، ووضعها بواسطة سكينه على ورقة سميكة من الحور.

- لكن من الذي أعلن الحرب على الترك؟ إيفان إيفانوفتش راغوزوف، والكونتيسة ليديا إيفانوفنا والسيدة ستاهل؟

- لم يعلن أحد الحرب عليهم، لكن الناس يواسون إخوتهم في آلامهم ويتوقون إلى مساعدتهم.

قال ليفين متحزّباً لحميه:

- الأمير لا يتحدث عن ذلك، وإنما يتحدث عن الحرب. فهو يقول: إن الأفراد لا يمكنهم أن يشاركوا في الحرب بدون إذن الدولة.

قالت دولي وهي تطرد زنبوراً:

Tele: @Arab_Books

– انظر، كوستيا، إلى هذه النحلة! ستؤذينا بلدغها.

– هذا زنبور وليس نحلة.

قال كاتافاسوف وهو يبتسم، وقد بدا واضحاً حرصه على أن يجر ليفين إلى النقاش.

– ما هي نظريتك إذن؟ لماذا لا يملك الأفراد مثل هذا الحق؟

– نظريتي هي التالية: الحرب، من جهة، شيء فظيع، حيواني، ووحشي إلى الحد الذي لا يجوز معه لأي إنسان أن يأخذ على عاتقه الشخصي مسؤولية شنّها، بغض النظر عن المسيحيين: الحكومة وحدها يجوز لها ذلك، هذه هي مهمتها، وهي مسوقة حتماً إلى الحرب. ومن جهة أخرى، إن العلم والحسّ السليم هما هنا ليشهدا بذلك. ففي شؤون الدولة، وعلى الأخص في أثناء الحرب، يتنازل المواطنون عن كل إرادة شخصية.

أخذ سيرج إيفانوفتش وكاتافاسوف يتكلّمان في الوقت نفسه: كانت لهما أجوبتهما الجاهزة.

قال كاتافاسوف:

– يا عزيزي، قد تكون هناك، بالضبط، حالات لا تلتزم فيه الحكومة برغبات المواطنين: وعلى المجتمع إذ ذاك أن يفرض إرادته.

لكن سيرج إيفانوفتش استنكر بجلاء هذا الرد السريع. قطّب بين حاجبيه لكلمات كاتافاسوف وعبر عن فكرته بطريقة أخرى.

Tele: @Arab_Books

– إنك لا تطرح المسألة كما ينبغي. ليس هنا إعلان حرب، وإنما التعبير عن شعور مسيحي، إنساني. إن إخواننا في العرق والدين يقتلون. ولنسلّم بأن الذين يقتلون ليسوا إخوتنا في العرق أو في الدين، لكنهم مجرد نساء وأطفال وشيوخ: إن الشعور ليثور وإن الروس ليبادرون لكي يسهموا في وضع حدٍّ لهذه الفظائع. تصور أنك تسير في الشارع وأنك ترى سكيرين يضربون امرأة أو ولداً؛ أعتقد أنك لن تتساءل إن كانت الحرب قد أعلنت على المعتدي أم لم تُعلن، وأنك ستنقض عليه لحماية الذي هوجم.

قال ليفين:

– لكني لن أقتله.

– بلى، ستقتله.

– لا أدري لو رأيت هذا لاستسلمت لشعور عفوي، ولا أستطيع أن أقول شيئاً سلفاً. بيد أني لا أحمل ولا يمكن أن أحمل مثل هذا الشعور العفوي فيما يتصل باضطهاد السلاف.

قال سيرج إيفانوفتش هو يقطب بين حاجبيه بحركة لا إرادية:

– أنت، ربما لم يكن لديك هذا الشعور، لكنه موجود، بلا ريب، عند غيرك. وما تزال تنتشر بين الشعب حكايات عن الأرثوذكسيين الذين يتألمون تحت نير الترك. لقد سمع الشعب بعذاب إخوانه وهو يسمع صوته.

قال ليفين مداوراً:

Tele: @Arab_Books

– ربما، لكني لا أشاهد ذلك؛ أنا نفسي من الشعب ولست أشعر بهذا الشعور.

قال الأمير:

– مثلي أنا. لقد أقمت في الخارج، وقرأت الجرائد هناك، وأنا أعترف أنني لم أفهم، حتى قبل الفظاعات التي جرت في بلغاريا، سبباً لهذا الحب المفاجئ الذي يُبديه الروس لإخوانهم السلاف. أنا نفسي لا يخامرني حب لهم. وآلمني ذلك كثيراً إذ ظننت أنني وحش وأنني أخضع لتأثير مياه كارلسباد. ثم لما رجعت إلى روسيا اطمأنت نفسي: ذلك أني تبينت أن هناك غيري من يهتم بروسيا أكثر مما يهتم بإخواننا السلاف. قسطنطين مثلاً.

قال سيرج إيفانوفتش:

– الآراء الشخصية لا دخل لها هنا. الآراء الشخصية لا شأن لها عندما تُعلن روسيا بأسرها إرادتها ويعلن الشعب بأسره إرادته.

قال الأمير:

– معذرة، لكني لا أرى شيئاً من ذلك. أما الشعب فهو يجهل كل شيء عن المسألة.

قالت دولي التي كانت تصغي إلى الحديث:

– كلا، يا أبي، ماذا تقول؟ ونهار الأحد، في الكنيسة؟ وقالت للفلاح العجوز الذي كان ينظر إلى الأولاد مبتسماً:

Tele: @Arab_Books

– أيمكنك أن تأتيني بمنشفة... من المستحيل أن يكون هؤلاء الناس...

واستأنف الأمير كلامه:

– حسناً! ماذا جرى نهار الأحد؟ أُمر الكاهن أن يقرأ رسالة، فقرأها ولم يفهموا شيئاً منها؛ تأوهوا كما يتأوهون كلما سمعوا الموعظة، ثم قيل لهم: إن التبرعات ستُجمع من أجل الحسنة، فأخرجوا كوبيكاتهم، لكنهم لا يعرفون لماذا أعطوها.

قال سيرج إيفانوفتش بلهجة قاطعة وهو ينظر إلى حارس المنحلة العجوز:

– لا يمكن للشعب أن يجهل ذلك. وإنه يحتفظ بوعيه لمصيره، وهو وعي يبرز في لحظات مثل هذه.

أما الشيخ الوسيم ذو اللحية السوداء التي دب فيها الشيب، وذو الشعر الكث الفضي فقد ظل جامداً أمامهم، وقدح العسل بيده. كان ينظر إلى سادته من أعلى قامته نظرة متوددة وهادئة، وهو لا يفهم شيئاً مما يقال، كما يبدو، ولا يريد أن يفهم شيئاً منه.

قال الشيخ وهو يهز رأسه موافقاً، بعد أن فرغ سيرج إيفانوفتش من كلامه:

– هذا صحيح.

قال ليفين:

Tele: @Arab_Books

– هيا، اسأله. إنه لا يعرف شيئاً ولا يفكر في شيء.

وقال وهو يلتفت إلى الفلاح:

– هل سمعت عن الحرب، يا مكيايليتش؟ هل تذكر ماذا قُرئ في الكنيسة؟ ما رأيك في ذلك؟ هل ينبغي أن نذهب ونقاتل من أجل المسيحيين؟

– ما حاجتنا إلى التفكير؟ إن إمبراطورنا ألكسندر نيكولايفتش يفكّر عنا في كل مناسبة. وهو يرى بوضوح أكثر مما نرى نحن...

وقال لداريا ألكسندروفنا وهو يُريها غريشا التي كانت تلتهم كسرة من خبز:

– هل ينبغي أن آتي أيضاً بشيء من الخبز للصبي؟

قال سيرج إيفانوفتش:

– لا جدوى من سؤاله. لقد رأينا من قبل ونحن نرى الآن مئات ومئات الناس يهجرون كل شيء ليخدموا قضية عادلة، يأتون من كل أنحاء روسيا ويعربون بوضوح عن فكرتهم وهدفهم. إنهم يحملون فلوسهم أو أشخاصهم ويقولون صراحة لماذا. فما معنى هذا إذن؟

قال ليفين الذي بدأ يحتدّ:

– معنى ذلك، برأيي، أننا نجد في شعب بلغ ثمانين مليوناً عشرات الآلاف، لا المئات فقط، من الساقطين والخارجين على القانون

Tele: @Arab_Books

المستعدين دائماً... للالتحاق بزمرة «بوغاتشوف»[٥٩]، وللذهاب إلى «كيفا»[٦٠] أو إلى بلاد الصرب...

قال سيرج إيفانوفتش بغيظ وكأنه يدافع عن آخر أرزاقه:

– قلتُ لك إنهم أكثر من مئات، وأنهم ليسوا أفّاقين، لكنهم خير ممثلي الأمة، والتبرعات؟ الشعب يعبّر هنا عن إرادته، دون مواربة!

قال ليفين:

– إن كلمة «شعب» شديدة الغموض. فأمناء السر المنطقيون، والمعلمون ورب فلاح من ألف فلاح، هم الذين يعرفون علام تدور هذه الكلمة. والثمانون مليوناً من الباقين، مثل ميكايلوفتش، لا يعبرون عن إرادتهم، بل ليس لديهم أدنى فكرة عن الضرورة التي تقتضيهم إظهارها. فكيف يكون من حقنا إذن أن نقول: إن هذه هي إرادة الشعب.

٥٩– بوغاتشوف: المتمرد في عام ١٧٧٣.

٦٠– كيفا: في سنة ١٨٧٤ شن الروس الحرب على أمير كيفا في آسيا الوسطى. فاضطر إلى الاعتراف بتبعيته للإمبراطورية.

Tele: @Arab_Books

-١٦-

كان سيرج إيفانوفتش متمرساً بالجدل، فنقل الحديث إلى ميدان آخر، دون أن يرد على ليفين وقال:

- إذا أردتَ أن تقيس روح الشعب بطريق الحساب فذلك، بالطبع. عسير جداً، والانتخابات العامة ذاتها، وهي لا يمكن أن تُستخدم عندنا، لا تعبّر عن إرادة الشعب؛ لكن هناك وسائل أخرى للتقييم. إن المرء ليستشعر ذلك في الهواء، وبقلبه. ولست أتكلم على تلك التيارات العميقة التي تهز المياه الراكدة في الشعب والتي تظهر جلية لعيني أقل الناس اطلاعاً. انظر إلى «المجتمع» بأضيق معانيه. إن أشد الأحزاب اختلافاً في الأوساط الفكرية قد اختلطت بعضها ببعض. واختفى كل تباين في الآراء. جميع الصحف تقول الشيء نفسه، جميعها شعرت بتلك القوة البدائية التي استولت عليهم وجرّتهم في اتجاه واحد.

قال الأمير:

- هذا صحيح، فالصحف تقول الشيء نفسه. هذا صحيح حقاً. تماماً، كالضفادع قبل العاصفة. إنها تمنعك من أن تسمع شيئاً.

Tele: @Arab_Books

قال سيرج إيفانوفتش وهو يلتفت إلى أخيه:

– ضفادع أم لا، لست مدير صحيفة، وليس في نيتي أن أدافع عنها. وأنا أتحدث عن الإجماع بين المثقفين.

أراد ليفين أن يجيب لكن الأمير قاطعه، وقال:

– هناك الكثير من الخلاف بصدد الإجماع. أتعرف صهري ستيفان أركاديفتش. لقد حصل قبل قليل على منصب عضو في لجنة لا أدري ما هي. ليس لديه على الإطلاق ما يعمله (وهذا ليس سراً، يا دولي!) وهو يقبض مرتباً قدره ثمانية آلاف روبل. جرّب واسأله إن كان عمله نافعاً، سيبرهن لك أن عمله نافع إلى أعلى الحدود. وهذا رجل شريف، لكن كيف يجوز ألا نؤمن بنفع ثمانية آلاف روبل!

قال سيرج إيفانوفتش بلهجة مستاءة، وقد رأى أن هذا الاستطراد ناب:

– لقد طلب إلي أن أخبر داريا ألكسندروفنا بأنه نال هذه الوظيفة.

– وكذلك الأمر بالنسبة إلى إجماع الصحف. لقد شرح لي بعضهم ذلك: فما أن تقع الحرب حتى تتضاعف عائداتها. فكيف لا تُنادي بقدر الشعب، وبالإخاء السلافي... و... بكل ذلك السقط من المتاع...

قال سيرج إيفانوفتش:

– هناك كثير من الجرائد لا أحبها، لكن هذا الكلام ظالم.

Tele: @Arab_Books

وتابع الأمير:

- يكفي أن نشترط شرطاً واحداً، لقد أجاد «ألفونس كار»[٦١] حين أوضحه أثناء الحرب مع بروسيا: «أتقدّر أن الحرب لا مفر منها؟ رائع. فليشكل جميع أنصار الحرب كتيبة خاصة بالمراكز الأمامية وليمضوا قبل غيرهم إلى القتال».

قال كاتافاسوف وهو يُغرق في ضحك صاخب:

- ما أغرب هيئات الصحفيين، إذ ذاك!

لقد تصور عدداً من المحررين، من معارفه، في هذه الفرقة المختارة.

قالت دولي:

- لكنهم سينهزمون وسيعرقلون الآخرين.

قال الأمير:

- لو انهزموا لوجدوا خلفهم رصاص القوزاق أو سوطهم ليعيدوهم إلى موضعهم.

قال سيرج إيفانوفتش:

- معذرة، يا أمير. لكن هذه الدعابة لا ترفع رأسك.

فبدأ ليفين يقول:

٦١- ألفونس كار: (١٨٠٨ - ١٨٩٠) هجاء فرنسي.

Tele: @Arab_Books

– لكنها ليست دعابة...

بَيْدَ أن أخاه قاطعه قائلاً:

– على كل عضو من أعضاء المجتمع واجب خاص يقوم به. ورجال الفكر يؤدون مهمتهم حين يُعبّرون عن الرأي العام. إن التعبير الكلي يؤدون مهمتهم حين يُعبّرون عن الرأي العام. إن التعبير الكلي والإجماعي عن الرأي العام ظاهرة مشجعة يعود الفضل فيها إلى الصحافة. منذ عشرين سنة كنا سنسكت بينما نحن نسمع الآن صوت الشعب الروسي المستعد لأن يهبّ هبّة رجل واحد ولأن يضحّي في سبيل إخوته المضطهدين؛ إنها خطوة كبيرة إلى الأمام ودليل على القوة.

قال ليفين بوجل:

– عفواً، ليست المسألة مسألة تضحية بالذات، لكن مسألة قتل الترك.

وأضاف وهو يربط الحديث بالأفكار التي تشغله ربطاً غير إرادي.

– الشعب ينسى نفسه ويرضى بكثير من التضحيات عندما تُستهدف روحه، لكن إذا كان المقصود هو القتل..

فقال كاتافاسوف مبتسماً:

– عندما تُستهدف روحه؟ هذا تعبير مُربك للعالم الطبيعي، وأنت تفهم ذلك. فما الروح إذن؟

Tele: @Arab_Books

- كأنك لا تعرف ذلك!

قال كاتافاسوف مقهقهاً:

- أقسم لك أن ليس لدي عنها أدنى فكرة!

فرد سيرج إيفانوفتش بدوره، مستشهداً بآية من الإنجيل قد هزّت ليفين دائماً أكثر من غيرها، مستشهداً بها باعتبارها أوضح ما يمكن أن يستشهد به:

- «ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً»[٦٢].

فردد الحارس الشيخ الذي بقي بجنبهم، رداً على النظرة التي ألقاها عليه عرضاً سيرج إيفانوفتش:

- هذا صحيح حقاً.

فهتف كاتافاسوف بفرح:

- ها أنت قد هُزمت، يا عزيزي، هُزمت شرَّ هزيمة.

احمر ليفين من الحنق، لا لأنه هُزم بل لأنه انجرّ إلى النقاش. وفكر: «إني أضيع وقتي في النقاش معهم، إن لهم درعاً لا يُخرق، وأنا عار».

كان يرى أن من المستحيل أن يُقنع أخاه وكاتافاسوف، ولا سيما أن يأخذ برأيهم. إن ما يجهرون به هو هذه الكبرياء الفكرية التي أوشكت

٦٢- ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً: من كلام المسيح. انجيل متى (١٠ -٣٤).

Tele: @Arab_Books

أن تهلكه. ما كان بوسعه أن يقبل ادعاء حفنة من الرجال، في عدادهم أخوه، ادعاء يستند إلى زعم مئات المتطوعين الثرثارين الأفاقين، بأنهم يمثلون مع الصحف إرادة الشعب وفكره الذي يتجلى، كما أكدوا، في الثأر والقتل. ما كان بوسعه أن يسلّم بذلك لأنه لم ير قط هذه الأفكار مُعبراً عنها في الشعب الذي يعيش بين أحضانه، ولأنه لم يجدها في نفسه، (وهو لا يستطيع أن يعتبر نفسه سوى جزء متمم للشعب الروسي). ولا سيما لأنه لم يكن يعلم أو يستطيع أن يعلم، لا هو ولا الشعب الروسي ما الخير العام؛ وكان مقتنعاً، بالمقابل، أنه لا يمكن بلوغ هذا الخير العام إلا بمراعاة قانون الخير الذي انكشف لكل إنسان؛ فلا يمكنه إذن أن يرغب في الحرب أو يدعو إليها مهما تمكن الأهداف التي يهدف إليها شاملة. كان يقول مع ميكايلوفتش ومع الشعب الذي تعبّر عن فكرته التقاليد المأثورة المتعلقة بدعوة «الفاريغ»[٦٣]، من قبل القبائل السلافية: «كونوا أمراءنا واحكمونا. ونحن نعاهدكم بفرح على الطاعة الكاملة. ونأخذ على عاتقنا جميع الأعمال والمذلات والتضحيات؛ لكن لن نكون نحن الذين يحكمون ويقررون». فهل يرى سيرج إيفانوفتش، أن الشعب قد تخلى الآن عن حقه الذي كلّفه غالياً؟

كان يشتهي أن يقول أيضاً: إنه إذا كان الرأي العام حكماً لا يُخطئ فإن الثورة الفرنسية والكومونة شرعيتان مثل الحركة لمصلحة

٦٣- «الفاريغ»: أسطورة شهيرة رويت في بداية أخبار «نستور» ومفادها أن القبائل السلافية بعد أن طرد «الفاريغ» السويديين، عادت واستدعتهم قائلة لهم: «إن أرضنا كبيرة خصبة، لكن ينقصنا النظام، فتعالوا املكوا واحكموا بمقتضى العدل».

Tele: @Arab_Books

السلاف. لكن هذه الأفكار كلها لم تكن سوى أفكار لا تحلّ شيئاً. النقطة الوحيدة التي كان متأكداً منها أن النقاش في هذه اللحظة أخذ يغيظ سيرج إيفانوفتش: فالأولى به إذن ألا يناقش. ولذلك آثر ليفين أن يلزم الصمت: استرعى انتباه ضيوفه إلى السحب التي تجمّعت ونصحهم بالعودة قبل هطول المطر.

Tele: @Arab_Books

-١٧-

صعد الأمير وسيرج إيفانوفتش إلى العربة وسبقا غيرهما؛ أما الآخرون فحثّوا خطاهم وعادوا سيراً على الأقدام.

لكن السحابة تحوّلت من البياض إلى السواد، وأخذت تزحف بسرعة شديدة اضطرتهم إلى أن يغذّوا السير لكي يبلغوا البيت قبل العاصفة. وتراكضت في السماء سحب منخفضة وسوداء مثل السناج، بسرعة خارقة. كان البيت على مائتي قدم فقط، لكن الريح هبّت وكان المطر على وشك أن يهطل بين لحظة وأخرى.

ركض الأولاد في المقدمة وهم يطلقون صرخات الفرح والرعب، وكانت داريا تُعالج بمشقة تنانيرها التي أخذت تلتصق بساقيها، وصار مشيها أشبه بالجري منه بالمشي، دون أن ترفع بصرها عن الأولاد.

سأل ليفين، في البهو، آغات ميخايلوفنا التي أقبلت عليهم ومعها أخمرة وأغطية:

– أين كاترين ألكسندروفنا؟

قالت:

Tele: @Arab_Books

- ظننا أنها معك.

- وميتيا؟

- من المحتمل أن يكونا في الغابة. المربية معهما.

تناول ليفين الأغطية ومضى راكضاً باتجاه الغابة.

أثناء هذا الفاصل الزمني القصير، توارت الشمس خلف الغيوم، واكفهرت السماء كأن هناك كسوفاً. وكانت الريح تعصف بلجاجة وكأنها تريد أن تكون كلمتها هي العليا: لقد عرقلت سير ليفين، وانتزعت أوراق الزيزفون وأزهاره، وعرّت تعرية غريبة أفنان البتولة الفضية، ولوت أشجار السنط، والأزهار، والأدغال، وسوق العشب، ورؤوس الأشجار العالية، لوّتها جميعها في جهة واحدة. وركضت البنات اللواتي يعملن في الحديقة ليلتجئن تحت السقف وهن يصرخن صراخاً حاداً. وكان ستار الزخ الأبيض قد غطى الأحراج البعيدة ونصف الحقول وأخذ يتقدّم مسرعاً نحو الغابة. وأشبع الرذاذ الهواء بالرطوبة.

بلغ ليفين أطراف الغابة، وهو حاني الرأس إلى الأمام، يصارع العاصفة التي تريد أن تنتزع منه أغطيته، وشاهد بقعة بيضاء خلف سنديانة، وإذا بضياء باهر يُلهب الأرض كلها؛ وفي الوقت نفسه خامره إحساس بأن قبة السموات أخذت تنهار فوق رأسه. أعماه البرق و لم يفتح سنديانة، وإذا بضياء باهر يُلهب الأرض كلها، وفي الوقت نفسه خامره إحساس بأن قبة السماوات أخذت تنهار فوق رأسه.أعماه البرق و لم يفتح عينيه إلا بعد لحظة، فاكتشف برعب،

Tele: @Arab_Books

غشاء المطر الكثيف الذي غدا يفضله عن الغابة، وأن القمة الخضراء لشجرة السنديان قد ضربتها»؛ وفي اللحظة نفسها، اختفى رأس الشجرة بين الأغصان وارتطم بالأرض.

إن وميض البرق، وقصف الرعد، وإحساسه بجسده المتجمد، قد انصهرت جميعها في شعور واحد من الرعب. فهمس:

– يا إلهي! يا إلهي! على ألا يكون ذلك قد أصابهم!

ومع أنه قد فكّر على إثر ذلك أن هذه الصلاة غير معقولة لأن الشجرة سقطت، إلا أنه كررها، شاعراً أنه لن يجد خيراً من الصلاة.

جرى إلى الموضع الذي كانت تجلس فيه كيتي عادة فلم يجدها. كانت في الطرف الآخر من الغابة، تحت زيزفونة، تناديه. وإذا شبحان بثياب قاتمة (كانتا تلبسان ثياباً فاتحة قبل ذهابهما)، منحنيان في وضع حماية. كان الشبحان كيتي والمربية. كانت حافة تنورة المربية ما تزال جافة، أما ثوب كيتي فكان مبللاً بكامله، ملتصقاً بجسمها. ومع أن المطر توقّف، فإنهما بقيتا في الوضع الذي اتخذتاه عندما انفجرت العاصفة: كانتا كلتاهما منحنيتين على عربة تعلوها مظلة خضراء.

قال ليفين وهو يخبّط في الماء الذي سال أخيراً وملأ حذاءه:

– أحياء؟ وبسلامة؟ الحمد لله!

التفت إليه وجه كيتي المتضرّج والناضح ماء وابتسم باستحياء تحت قبعتها التي تشوّه شكلها.

Tele: @Arab_Books

فبدأ كلامه هائجاً:

– ألا تستحين! كيف يجوز لك أن تكوني طائشة إلى هذا الحد!

فأخذت كيتي تقول معتذرة:

– أؤكد لك أن الغلطة ليست غلطتي. ففي اللحظة ذاتها التي كنت أريد الرجوع فيها، بدأ الجو يضطرب. كان لا بدَّ من تغيير ثياب الصبي، وكنا على وشك...

كان ميتيا نائماً، و لم تصبه قطرة ماء.

– هيا، كل شيء بخير! لم أكن أدري ما أقول.

لُفّت ثياب الصبي في رزمة، وأخذت المربية الطفل وحملته. كان ليفين يسير بجنب امرأته؛ وقد أحس بالخجل من فَوْرته، فشد على يدها سراً عن المربية.

Tele: @Arab_Books

-١٨-

برغم يأس ليفين من التجدد داخلياً، إلا أنه ما انفك يحس بفيض قلبي غمره بالفرح طوال اليوم، أثناء الأحاديث المتنوعة التي لم يكن يستجيب لها إلا بالجانب الخارجي من فكره، إن صح القول.

بعد المطر، أصبحت الرطوبة أشد من أن تسمح بالتنزه؛ وفضلاً عن ذلك، فإن السحب العاصفة لم تختفِ من الأفق؛ كانت تمر من هنا تارة، ومن هناك تارة أخرى، وهي ترعد وتُعتّم ناحية من السماء. فبقي الجميع في البيت سائر اليوم.

لم يُثر أحد النقاش؛ وبعد العشاء، كان الجميع مبتهجين.

أتحف كاتافاسوف السيدات بطُرفه الفريدة التي كانت تفتن من يَلْقاه لأول مرة؛ وحفز سيرج إيفانوفتش قريحته فأطلع مستمعيه على الملاحظات الممتعة التي لاحظها حول فروق الطباع والهيئة بين ذكر الذباب وأنثاه. سُر سيرج إيفانوفتش أيما سرور، وأثناء تناول الشاي، وبناء على إلحاح أخيه، عرض وجهة نظره عن مستقبل المسألة الشرقية بكثير من المهارة والبساطة فأصغى إليه الجميع بانتباه، ما عدا كيتي التي لم يُتحْ لها أن تستمع إليه حتى النهاية: لقد استُدعيت من أجل حمام ميتيا.

Tele: @Arab_Books

بعد دقائق من ذهاب كيتي، جاءت الخادمة تطلب إلى ليفن أن يذهب إلى غرفة الأطفال. فترك الشاي مغتاظاً لمقاطعته وسط حديث ممتع، وقلقاً في الوقت نفسه، لأنه لا يُدعى إلا في ظروف خطيرة.

لكن، مع أن خطة سيرج إيفانوفتش التي بمقتضاها سيفتح تحرر أربعين مليوناً من السلاف عهداً تاريخياً جديداً بالنسبة إلى روسيا، قد أثارت اهتمامه إلى أعلى حدٍّ باعتبارها شيئاً جديداً كل الجدة عليه، ومع أنه تساءل بفضول وقلق لماذا استدعوه، إلا أنه ما لبث أن تذكّر، عندما ألقى نفسه وحيداً، بعد أن ترك قاعة الاستقبال، تذكر أفكاره في الصباح، فبدت له هذه الاعتبارات عن أهمية العنصر السلافي في التاريخ العام جد تافهة، إذا ما قورنت بما يجري في نفسه، بحيث نسي في الحال كل ذلك وغرق من جديد في حالته النفسية السابقة.

لم يعد يسعى، كما كان يسعى من قبل، إلى أن يعيد تكوين مسيرة فكره (لم يكن ذلك ضرورياً). لقد انتقل دفعة واحدة إلى أحضان الشعور الذي كان يقوده والذي كان مرتبطاً بأفكاره، فوجده في أعماق نفسه أقوى وأدق من قبل. كان، فيما مضى، إذا آنس سكينة لزمه أن يصعد من جديد مجرى أفكاره ليبلغ الشعور. أما الآن فالأمر غدا مختلفاً. على العكس، كان الشعور بالفرح والسكينة هو الأقوى؛ أما الفكر فيأتي بعد ذلك.

لمح، وهو يجتاز الشرفة، نجمتين ظهرتا في السماء التي غدت أقل ظلمة، فعادت إليه ذكرى قديمة، وفكر: «نعم، لقد قلت في نفسي،

Tele: @Arab_Books

وأنا أنظر إلى السماء، إنني على حق في أن أراها قبة؛ لكنني لم أذهب بعيداً في هذا الاتجاه، لقد تملّصت. سيان، لا يمكن أن يكون هناك اعتراض مقبول. بالتفكير وحده يتّضح كل شيء.

وإنما تذكر ما أخفاه عن نفسه عندما دخل غرفة الأطفال. وهو يتلخّص فيما يلي: إذا كان الدليل الرئيسي على وجود الله هو الكشف عن وجود الخير، وهو كشف خص به كل إنسان، فلماذا يقتصر هذا الكشف عن الكنيسة المسيحية؟ وما العلاقة بين هذا الكشف وعقائد البوذيين والمسلمين الذين يدعون هم أيضاً إلى الخير ويفعلونه.

وبدا له أنه يملك جواباً عن هذا السؤال؛ لكنه دخل إلى غرفة الأطفال قبل أن تتسنى له صياغته. كانت واقفة، مشمّرة عن كميها بجانب المغطس، منحنية على الطفل الذي كان يتخبّط في الماء. وكانت تسند بيد رأس الصبي الممتلئ الطافي على الماء وهو منفرج الساقين، وباليد الأخرى كانت تضغط اسفنجة ضخمة فوق الصبي بحركة منتظمة.

قالت لزوجها عندما دخل عليها:

– انظر، انظر. آغات ميخايلوفنا على حق: لقد عرفنا.

كان هذا هو الحدث: بدأ ميتيا يعرف مَن حوله، ولم يبق من ميلٍ إلى الشك في ذلك. وما أن اقترب ليفين من المغطس حتى أخضع الصّبي للاختبار، وكان الاختبار قاطعاً. ذلك أن الخادمة التي دُعيت خصيصاً انحنت فوق الصبي، فقطّب بين حاجبيه وهز رأسه بالنفي. لكن عندما قرّبت كيتي وجهها من وجهه ابتسم، وتشبثت يداه الصغيرتان

Tele: @Arab_Books

بالإسفنجة، وزم شفتيه فأسمع صوتاً غريباً جداً ومفرحاً جداً بحيث أن ليفين، لا كيتي والمربية وحدهما، غمرته نشوة الفرح.

رُفعَ الصبي على يد واحدة، ورُشّ بالماء. ولفّ في غطاء، ونشّف وبما أنه أخذ يصرخ صراخاً ثاقباً فقد قُدّم إلى أمه.

قالت كيتي لزوجها عندما استقرت بهدوء في مكانها المعهود وابنها على ثديها:

– أنا مسرورة لأنك بدأت تحبه. أنا جد مسرورة. لقد أخذ الأمر يؤلمني؛ كنت تقول إنك لا تشعر نحوه بأية عاطفة.

– لا، متى قلت هذا؟ قلت فقط: إن ظني خاب.

– كيف، هو خيّب ظنك.

– ليس هو الذي خيّب ظني، لكني كنت انتظر أكثر من ذلك. كنت أعتقد أن شعوراً جديداً ومعزيّاً سينمو فيّ. وبدلاً من ذلك لم أشعر بغير الشفقة والاشمئزاز.

كانت تصغي إليه بانتباه، ناظرة من فوق الصبي، وتضع خواتمها التي نزعتها لغسل «ميتيا».

– وشعرتُ على الخصوص بالرعب والشفقة أكثر مما شعرت بالسرور. لكني أدركت اليوم، بعد هذا الخوف الذي انتابني أثناء العاصفة، كم كنت أحبه.

ابتسمت كيتي ابتسامة مشرقة. وقالت له.

Tele: @Arab_Books

- خفت كثيراً؟ وأنا أيضاً، لكنني أشد خوفاً الآن بعد مرور الأشياء. سأذهب لأرى السنديانة مرة أخرى. ما ألطف كاتافاسوف! على الإجمال، كان النهار ممتعاً. أنت لطيف مع سيرج إيفانوفتش عندما تريد... امضِ إليهم. الجو خانق هنا، بعد الحمّام....

Tele: @Arab_Books

-١٩-

ما إن ترك ليفين الغرفة، حتى عاد إلى تلك الفكرة التي لم يتعمقها جيداً.

وبدلاً من أن يمضي إلى قاعة الاستقبال التي وافت منها الأصوات، وقف على الشرفة وأخذ يتأمل السماء وهو متكئ بمرفقه على حافتها.

كان الجو مظلماً، والسماء صافية في الجنوب، بينما تكدّست الغيوم في الجهة المقابلة. وكان وميض البروق يصل من هناك ممتزجاً بقصف الرعد. كان ليفين يصغي إلى القطرات تسقط في فُسح منتظمة من أغصان الزيزفون، وينظر إلى مثلث معهود من النجوم وإلى المجرة التي تخترقه في وسطه. وكانت المجرة والنجوم التي تفوق غيرها لمعاناً تتوارى، عند كل ومضة برق، لكن ما إن ينطفئ ذلك الوميض حتى تعود إلى الظهور في مكانها نفسه، وكأن يداً ماهرة قد قذفتها.

قال ليفين في نفسه وهو يحس مسبقاً أن الجواب عن شكوكه غدا جاهزاً في نفسه، وإن لم يعرفه بعد: «ما الذي يثير اضطرابي، يا ترى؟»

«نعم، إن التجلّي الوحيد والبديهي والأكيد للألوهية هو قانون الخير الذي أُعلن للناس جميعاً والذي أحسه في. وشئت أم أبيت،

Tele: @Arab_Books

أنا متحد بجميع الذين يُقرون بهذا القانون ونحن نكوّن جماعة من المؤمنين».

وتساءل، وهو يعود إلى المشكلة التي بدت له عويصة: «وأصحاب الديانات الأخرى، مَن هم؟ أمن الممكن أن يحرم مئات الملايين الخير الأسمى الذي تفقد الحياة معناها بدونه؟ واستغرق في أحلامه، لكنه ما لبث أن تمالك نفسه وقال: «ما السؤال الذي سأطرحه على نفسي؟ أنا مشغول البال بالعلاقات بين جميع عقائد البشرية وبين الألوهية! أريد أن أنفذ إلى انكشاف الله للكون بكل سُدمه! وماذا أنا فاعل! لقد انكشف لي شخصياً، بواسطة القلب، معرفة لا يبلغها العقل، وأنا أصر على التعبير عنها بكلمات وبواسطة العقل.

وتابع وهو ينظر إلى كوكب سيار، براق، غير موضعه فوق أعلى أغصان البتولة أنا أعلم جيداً أن النجوم لا تسير. بَيْدَ أني حين أنظر إلى حركة النجوم، لا أستطيع أن أتخيّل دوران الأرض، وأرى من حقي أن أقول: إن النجوم تسير».

«أكان بإمكان الفلكيين أن يفهموا أو يحسبوا شيئاً، أيّاً كان ذلك الشيء، لو أخذوا بالحسبان حركات الأرض المتنوعة والمعقدة؟ إن كل نتائجهم المذهلة عن المسافات والأوزان، وعن حركات الأجرام السماوية ودورانها، لا تستند إلا إلى حركة ظاهرة للكواكب حول أرض ساكنة، وهذه الحركة نفسها ظهرت وستظهر لملايين البشر خلال العصور، ويمكن التحقق منها دائماً. وبمقدار ما تكون نتائج الفلكيين باطلة ومتهافتة إذا لم ترتكز على ملاحظة السماء المرئية

Tele: @Arab_Books

بالنسبة إلى خط زوال واحد وإلى أفق واحد، فكذلك تكون نتائجي باطلة ومتهافتة إذا لم ترتكز على هذا الفهم للخير، الفهم الذي كان والذي سيظل هو نفسه بالنسبة إلى الجميع، والذي أستطيع أن أتحقق منه في نفسي. أما مشكلة العقائد الأخرى وعلاقتها بالألوهية فليس لي الحق في حلها ولا القدرة على هذا الحل.

قال فجأة صوت كيتي التي دخلت القاعة، وهي تتفرّس في وجهه على ضوء النجوم:

– أما زلت هنا؟ هل ضايقك شيء؟

لكنها ما كانت تستطيع أن ترى تعبير وجهه لو لم يقذف البرق بضياء أشد توهجاً. حينذاك شاهدت وجهه كله، وإذ رأته مطمئناً وسعيداً ابتسمت.

وفكر: «إنها تفهم وتعلم ما أفكر فيه. هل أكلمها أم لا؟ نعم سأقول لها ما دار بخلدي». لكنها شرعت في الكلام عندما تهيأ هو لها. وقالت:

– اسمع، كوستيا! أدِّ لي هذه الخدمة. اذهب إلى غرفة الزاوية وانظر كيف رُتبت غرفة سيرج إيفانوفتش. إن ذلك ليضايقني. هل وضعت المغسلة الجديدة في غرفته؟

قال ليفين وهو ينهض ويقبّلها.

– حسناً، سأذهب إلى الغرفة.

Tele: @Arab_Books

وفكّر عندما انصرف: لا، الأولى ألا أقول شيئاً، هذا سر لا يهم غيري ولا نستطيع التعبير عنه بالكلمات.

«هذا الشعور الجديد لم يغيرني، و لم يجعلني أسعد، و لم يملأني فجأة بالضياء كما كنت أرجو. وكذلك الأمر بالنسبة إلى شعوري نحو ابني. فلم تكن فيه أيضاً أية مفاجأة. أهذا هو الإيمان أم لا، لا أدري شيئاً من ذلك، ولا أعلم ما هو، لكن هذا الشعور انسل إلى نفسي بواسطة الألم، على نحو غير ملحوظ، واستقر فيه استقراراً متيناً».

«سأظل أغضب على الحوذي إيفان، وأناقش، وأعرب عن أفكاري في غير أوانها؛ سيظل هناك جدار بين أقدس أقداس نفسي ونفوس الآخرين، حتى نفس امرأتي؛ سأظل أجعلها مسؤولة عن مخاوفي وأندم عن ذلك، وأصلي وأنا لا أفهم بعقلي لماذا أصلي. لكن حياتي بأسرها منذ الآن، كل لحظة من حياتي، بغض النظر عما سيقع لي، سيكون لها معنى، سيكون لها طابع بوسعي أن أسبغه عليها: ألا وهو طابع الخير.

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

خلاصة الفصول

الجزء الرابع

الفصل الأول: حياة آل كارينينا في بطرسبرج ضمن الشروط التي وضعها ألكسي ألكسندروفتش. فرونسكي يرافق أميراً أجنبياً جاء ليرى طرائف بطرسبرج...

الفصل الثاني: بطاقة آنا لفرونسكي ترجوه فيها المجيء لرؤيتها. تلاقي فرونسكي وكارينينا على عتبة بيت كارينينا...

الفصل الثالث: فوران غيرة آنا. تظن أنها ستموت في الولادة. تحلم حلماً قريباً من حلم فرونسكي.

الفصل الرابع: الأثر الذي خلّفه في كارينينا وصول فرونسكي إلى بيته. كارينينا ينتزع من آنا مغلّفاً يحتوي على رسائل فرونسكي. استفسار بين الزوجين. يصمم على أن يبدأ مساعيه للطلاق.

الفصل الخامس: كارينينا يستشير محامياً شهيراً في بطرسبرج من أجل الطلاق...

Tele: @Arab_Books

الفصل السادس: فشل بيان اللجنة التي ألفها كارينينا. يقرر أن يذهب إلى المكان نفسه ليدرس المسألة. كارينينا في طريقه يمر بموسكو. يلتقي آنا أوبولونسكي...

الفصل السابع: أوبلونسكي في فندق ليفين. يدعوه للعشاء...

الفصل الثامن: أوبلونسكي عند كارينينا....

الفصل التاسع: عشاء في منزل أوبلونسكي. لقاء ليفين وكيتي...

الفصل العاشر: حديث عن محاسن الدراسات الكلاسيكية والتقنية وعن تحرير النساء.

الفصل الحادي عشر: اتحاد سري بين ليفين وكيتي.

الفصل الثاني عشر: محاولة دولي لتحصل من كارينينا على الصفح عن آنا...

الفصل الثالث عشر: العتاب بين ليفين وكيتي في منزل أوبلونسكي.

الفصل الرابع عشر: حماسة ليفين بعد العتاب.

الفصل الخامس عشر: ليفين يخطب كيتي.

الفصل السادس عشر: مشاورة في منزل تشرباتزكي بصدد الزواج. حزن كيتي بعد قراءة مذكّرات ليفين...

Tele: @Arab_Books

الفصل السابع عشر: عودة كارينينا إلى بطرسبرج بعد برقية آنا. آنا بين الموت والحياة بعد ولادة ابنتها. المصالحة بين كارينينا وفرونسكي قرب سرير آنا....

الفصل الثامن عشر: هموم فرونسكي بعد الحادث الأخير. يحاول الانتحار.

الفصل التاسع عشر: حالة كارينينا النفسية بعد صفحه عن آنا. عواطفه إزاء الطفلة. زيارة بيتسي لآنا لتسألها استقبال فرونسكي قبل سفره إلى طاشقند. رفض آنا...

الفصل العشرون: استفسار كارينينا لامرأته بعد زيارة بيتسي. عصبية آنا. كارينينا مهيّأ لأن يسمح لزوجته باستقبال فرونسكي...

الفصل الواحد والعشرون: أوبلونسكي عند آل كارينينا. ينصح أخته بالطلاق...

الفصل الثاني والعشرون: أوبلونسكي يتوسط بين آنا وكارينينا. كرم كارينينا الذي يقبل الطلاق....

الفصل الثالث والعشرون: فرونسكي بعد محاولة الانتحار. شفاؤه. استعدادات السفر إلى طاشقند. يرى آنا. يرفض المهمة إلى طاشقند. ويسافر مع آنا إلى الخارج.

Tele: @Arab_Books

الجزء الخامس

الفصل الأول: ليفين يؤدي الفراض الدينية قبل الزواج...

الفصل الثاني: عشاء العُزّاب عند ليفين في يوم الزواج. ليفين يشك فجأة في حب كيتي. مشهد النقاش في منزل آل تشرباتزكي...

الفصل الثالث: في الكنيسة، في انتظار ليفين. سبب تأخره..

الفصل الرابع:تبادل خاتمي الزواج.

الفصل الخامس: تعليقات الحاضرين أثناء الاحتفال.

الفصل السادس: مباركة الزواج. سفر العروسين إلى الريف...

الفصل السابع: فرونسكي وآنا في الخارج. وصولهما إلى مدينة إيطالية صغيرة. فرونسكي يلاقي صديقه غولينيتشيف. يقدمه لآنا. زيارة البيت الذي استأجره فرونسكي...

الفصل الثامن: حالتهما النفسية أثناء إقامتهما في الخارج. فرونسكي يتعاطف التصوير.

الفص التاسع: حديث فرونسكي وغولينتيشيف بصدد الرسام ميخايلوف. آنا تقترح عليهم زيارة مشغل الرسام...

الفصل العاشر: الرسام ميخايلوف في العمل. وصول الزائرين...

Tele: @Arab_Books

الفصل الحادي عشر: انطباعات ميخايلوف. فحص اللوحة التي تمثل المسيح أمام بيلاطس. رأي الزائرين...

الفصل الثاني عشر: آنا وفرونسكي يُشدهان أمام لوحة أخرى. فرونسكي يريد شراءها...

الفصل الثالث عشر: ميخايلوف يرسم آنا. فرونسكي يُقلع عن الرسم ويقرر العودة إلى روسيا...

الفصل الرابع عشر: حياة ليفين الزوجية. بعض المتاعب المنزلية. يخاصم امرأته. خيبة الآمال بعد شهر العسل...

الفصل الخامس عشر: ليفين يعلم أن أخاه نيقولا مُدنف. فتوجه إليه مع كيتي...

الفصل السابع عشر: ليفين وكيتي عند سرير المريض في الفندق...

الفصل الثامن عشر: موقف كيتي وليفين أمام الموت...

الفصل التاسع عشر: أوجاع نيقولا ليفين. كيتي تعتني به...

الفصل العشرون: نيقولا ليفين يتلقى الأسرار الأخيرة قبل الموت. موته.

الفصل الواحد والعشرون: كارينينا بعد ذهاب امرأته. اضطرابه وعزلته. حياته الماضية...

Tele: @Arab_Books

الفصل الثاني والعشرون:عناية الكونتيسة ليديا إيفانوفنا بكارينينا....

الفصل الثالث والعشرون: ماضي الكونتيسة ليديا إيفانوفنا. وصول آنا إلى بطرسبرج؛ رسالة إلى الكونتيسة ليديا إيفانوفنا تطلب فيها أن ترى ابنها...

الفصل الرابع والعشرون: كارينينا في استقبال البلاط. الناس يغتابونه. توقف المسيرة الصاعدة في مهنته...

الفصل الخامس والعشرون: كارينينا في منزل الكونتيسة ليديا إيفانوفنا. يقرر أن يمنع آنا من رؤية ابنها...

الفصلان السادس والعشرون والسابع والعشرون:سيريوجا عشية عيد ميلاده. دروسه مع أستاذه وأبيه...

الفصل الثامن والعشرون: فرونسكي بعد عودته من الخارج. وضعه ووضع آنا في «المجتمع الراقي».

الفصلان التاسع والعشرون والثلاثون: اللقاء بين آنا وابنها..

الفصل الواحد والثلاثون: بعد اللقاء، آنا تشعر بالوحدة وتشك في حب فرونسكي...

الفصل الثاني والثلاثون: عشاء في الفندق عند آنا. توشكيفتش يعرض عليها مقصورة في عرض للمغنية «لاباتي».

Tele: @Arab_Books

الفصل الثالث والثلاثون: العرض. آنا تهينها السيدة كارتاسوف. سفر فرونسكي وآنا إلى الريف.

الجزء السادس

الفصل الأول: دولي والأولاد، فارنكا وسيرج إيفانوفتش في منزل ليفين في بوكروفسكوي. جني الفطور...

الفصل الثاني: النساء يثرثرن على الشرفة. كيتي تتوقع أن يطلب سيرج إيفانوفتش يد فارنكا.

الفصل الثالث: حديث كيتي وليفين بشأن فارنكا وسيرج إيفانوفتش...

الفصل الرابع: خواطر سيرج إيفانوفتش عندما تراءى له إمكان الزواج من فارنكا...

الفصل الخامس: فشل محاولة المكاشفة بين سيرج إيفانوفتش وفارنكا...

الفصل السادس: في انتظار وصول الأمير العجوز. وصول ستيفان وفاسيا فيسلوفسكي.

الفصل السابع: سلوك فيسلوفسكي تجاه كيتي يثير غيرة ليفين...

الفصل الثامن: الاستعدادات للصيد. الذهاب حالات الصيادين...

Tele: @Arab_Books

الفصل التاسع: أول يوم في الصيد. في الطريق إلى مستنقعات غفوززديبق. الغداء...

الفصل العاشر: الصيد. نجاح أوبلونسكي وسوء حظ ليفين...

الفصل الحادي عشر: الصيادون في كوخ أحد الفلاحين. النقاش بين ليفين وأوبلونسكي. مغامرات أوبلونسكي وفيسلوفسكي الليلية...

الفصل الثاني عشر: ثاني يوم في الصيد، يُوفق فيه ليفين...

الفصل الثالث عشر: الحظ يلاحظ ليفين. بطاقة كيتي. العودة إلى البيت...

الفصل الرابع عشر: اشتعال الغيرة من جديد لدى ليفين...

الفصل الخامس عشر: طرد فيسلوفسكي...

الفصل السادس عشر: زيارة دولي لآنا في ممتلكات فرونسكي في فوزدفجنسكوي.

الفصل السابع عشر: دولي تصادف في الطريق آنا وفرونسكي وضيوفهما: الأميرة بربارة، سفياجسكي، فيسلوفسكي...

الفصل الثامن عشر: الحديث بين آنا ودولي في العربة وفي البيت...

Tele: @Arab_Books

الفصل التاسع عشر: الإطار العام لحياة آنا. دولي في بيت الحضانة.

الفصل العشرون: زيارة المنزل والحديقة والمستشفى...

الفصل الحادي والعشرون: الحديث بين فرونسكي ودولي حول ضرورة الطلاق؛ فرونسكي يرجو دولي أن تؤثّر في آنا بهذا الاتجاه...

الفصل الثاني والعشرون: العشاء عند فرونسكي...

الفصل الثالث والعشرون: حديث قلبي بين آنا ودولي عن الطلاق وولادة الأطفال...

الفصل الرابع والعشرون: آخر حديث بين آنا ودولي بسفر دولي...

الفصل الخامس والعشرون: حياة آنا أثناء الخريف. مشاغلها. فرونسكي يدير أملاكه. يقصد إلى الانتخابات...

الفصل السادس والعشرون: ليفين وكوزينتشيف في انتخابات كاشين...

الفصل السابع والعشرون: الانتخابات الإقليمية في كاشين. وفد النبلاء. الأحزاب، والجماعات وخططها...

الفصل الثامن والعشرون: نقاش حول حالة فليروف. التصويت...

Tele: @Arab_Books

الفصل التاسع والعشرون: اضطراب الحاضرين وقلقهم. التفسيرات والمجادلات. حديث ليفين مع ملاك محافظ.

الفصل الثلاثون: ليفين يلتقي فرونسكي. سلوك ليفين أثناء المشاورات. انتخاب نقيب جديد للأشراف...

الفصل الواحد والثلاثون: العشاء عند فرونسكي بعد الانتخابات بحضور الحاكم ونقيب الأشراف الجديد.

الفصل الثاني والثلاثون: عودة فرونسكي إلى الريف بعد رسالة من آنا. آنا تقرر أن تطلب الطلاق من زوجها. فرونسكي وآنا يذهبان إلى موسكو ليقيما فيها انتظاراً لجواب كارينينا.

الجزء السابع

الفصل الأول: حياة آل ليفين في موسكو. التقاء كيتي وفرونسكي عند الأميرة ماري بوريسوفنا...

الفصل الثاني: ضائقة ليفين المالية. النفقات التي تفرضها عليه إقامته في موسكو...

الفصل الثالث: ليفين عند كاتافاسوف. يلتقي عالِماً من بطرسبرج هو ميتروف. جلسة العيد الخمسيني في الجامعة.

الفصل الرابع: ليفين عند الأميرة لفوف. حديث عن تربية الأطفال...

Tele: @Arab_Books

الفصل الخامس: ليفين في حفلة موسيقية صباحية. نقاش مع بيستسوف حول الاتجاه الموسيقي الفاغنيري...

الفصل السادس: ليفين يزور الكونتيسة بوهل...

الفصل السابع: ليفين في النادي الإنكليزي. يلقتي فيه «تورفتسين»، وأوبلونسكي، وحماه وفرونسكي...

الفصل الثامن: قصة الأمير العجوز عن الأمير تشيتشنسكي. أوبلونسكي يقترح على ليفين زيارة آنا...

الفصل التاسع: ليفين وأوبلونسكي في منزل آنا...

الفصل العاشر: الأثر الذي تركته آنا في ليفين...

الفصل الحادي عشر: عودة ليفين إلى البيت. استفسار زوجته...

الفصل الثاني عشر: استفسار آنا لفرونسكي بصدد سهرته في النادي....

الفصل الثالث عشر: كيتي على وشك الوضع.

الفصل الرابع عشر: ليفين عند الطبيب. قلقه أثناء وضع كيتي.

الفصل الخامس عشر: حسن عاقبة الوضع...

الفصل السادس عشر: مشاعر ليفين تجاه الوليد...

Tele: @Arab_Books

الفصل السابع عشر: صعوبات ستيفان أركاديفتش المالية. مسعاه في بطرسبرج عند كارينينا. إنه يلتمس مركزاً جديداً، مربحاً.

الفصل الثامن عشر: حديث كارينينا وأوبلونسكي الزواج.

الفصل التاسع عشر: ستيفان أركاديفتش يستقبل سيريوجا في مكتب أبيه. حديث الخال وابن الأخت على الدرج...

الفصل العشرون: أوبلونسكي في مجتمع بطرسبرج: عند بارتنيانسكي وعند بيتسي تفيرسكوي...

الفصل الواحد والعشرون: كارينينا وستيفان أركاديفتش عند الكونتيسة ليديا إيفانوفنا. لاندو، آلياس كونت بيزوبوف. حديث ليديا إيفانوفنا أركاديفتش عن الدين...

الفصل الثاني والعشرون: ستيفان أركاديفتش بعد جلسة التنويم عند الكونتيسة ليديا إيفانوفنا. كارينينا يرفض الطلاق.

الفصل الثالث والعشرون: آنا وفرونسكي يصطدمان بصعوبات. غيرة آنا. النزاع بشأن فتاة إنكليزية تحميها آنا.

الفصل الرابع والعشرون: آنا تريد أن تعود رأساً إلى الريف. خصام جديد. المصالحة.

الفصل الخامس والعشرون: سوء التفاهم بمناسبة برقية أوبلونسكي آنا تخوض في أحاديث سيئة عن أم فرونسكي. حديث آنا مع إياشفين الذي جاء زائراً.

Tele: @Arab_Books

الفصل السادس والعشرون: نمو الغيرة واليأس في نفس آنا. الموت يبدو لها المخرج الوحيد...

الفصل السابع والعشرون: اضطراب آنا...

الفصل الثامن والعشرون: زيارة آنا لدولي التي تجد عندها كيتي...

الفصل التاسع والعشرون: العودة إلى البيت. آنا تقرر أن تلتقي فرونسكي وتقنعه بالخيانة.

الفصل الثلاثون: خواطر آنا الهذيانية وهي تتوجه إلى محطة نيجني– نوفغورود. تتردد بين الرجاء واليأس.

الفصل الواحد والثلاثون: مشاهد عند انطلاق القطار. الأسى يحل في نفس آنا. إنها تنتحر...

الجزء الثامن

الفصل الأول: بعد حوالي شهرين. طبع كتاب سيرج إيفانوفتش كوزنيتشيف. لا يلقى النجاح. اهتمام المجتمع بحرب الصرب.

الفصل الثاني: سفر المتطوعين إلى محطة كورسك، فرونسكي يتطوّع...

الفصل الثالث: استقبال المتطوعين في محطة تسارنيسينو. ملاحظات كاتافاسوف بصددهم...

Tele: @Arab_Books

الفصل الرابع: في أثناء التوقف، كوزنيتشيف يحدّث الكونتيسة فرونسكي عن ابنها.

الفصل الخامس: كوزينيتشيف وفرونسكي.ذكريات فرونسكي المُمضة...

الفصل السادس: كوزنيتشيف وكاتافاسوف في الريف عند ليفين...

الفصل السابع: خواطر كيتي حول شك زوجها الديني...

الفصل الثامن: بحث ليفين وشكوكه...

الفصل التاسع:قراءة المؤلفات الفلسفية والدينية. جميع المذاهب تخيّب أمل ليفين. يخاف الانتحار...

الفصل العاشر: عقم أفكار ليفين حول المصلحة العام. ضرورة العيش من أجل نفسه ومن أجل أقربائه. معرفة ما هو ضروري وما ليس ضرورياً. الوجدان، الحكم الذي لا يخطئ...

الفصل الحادي عشر: ليفين في دور الملاّك. خواطره حول معنى الحياة كلمات فلاح تنيره: العيش بحسب الحقيقة، بحسب قانون الله...

الفصل الثاني عشر: الأثر الذي تركته كلمات الفلاح. معنى الحياة يكمن في الخير وفي محبة القريب...

Tele: @Arab_Books

الفصل الثالث عشر: الاستنتاج الذي يتوصل إليه ليفين: الإيمان بالله، بالخير باعتباره وجهة الإنسان الوحيدة.

الفصل الرابع عشر: ليفين يلحق به ضيفاه: سيرج إيفانوفتش وكاتافاسوف، على طريق منحلة...

الفصلان الخامس عشر والسادس عشر: حديث عن الأهمية القومية لحرب الصرب وعن الإجماع الشعبي...

الفصل السابع عشر: كيتي مع الولد وليفين تحت العاصفة.

الفصل الثامن عشر: بعد المطر. دعابات كاتافاسوف. رأى كوزنيتشيف في مستقبل المسألة الشرقية. ليفين في غرفة الأطفال...

الفصل التاسع عشر: الإيمان يوفر السكينة في نفس ليفين.

Tele: @Arab_Books

تمت

26/9/2017

Telegram: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

Arab_Books

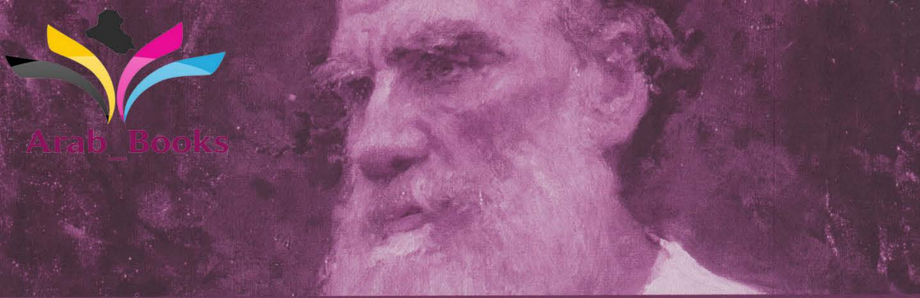

طرأ شيء من التوقف على أعمال تولستوي الأدبية المُبدعة، بعد «الحرب والسلم». وذلك لا يعني أن الكاتب يظل خالياً من العمل، على العكس: إنه يقرأ بكَثرة، ويعمل على تأليف، «كتب القراءة الأربعة» التي يَعُدّها أعظم الأعمال الأدبية شأناً في حياته. وتتفتّق في ذهنه مشروعات روايات جديدة. لكن صوفيا تولستوي تُدوِّن في ٢٤ شباط ١٨٧٠ مايلي: «قال لي البارحة مساء أن قد ظهر له نموذج امرأة متزوجة، من الطبقة الارستقراطية. ضلّت سبيلها. وقال لي: إن مهمته تنحصر في عَرض هذه المرأة على أنها جديرة بالعطف وليست مذنبة، وما إن مَثُل هذا النموذج بين يديه حتى وَجدت جميع الشخصيات والطباع المذّكرة التي ظهرت له من قبل مكانها وانتظمت من حول هذه المرأة.» لكن ذلك لم يكن سوى فكرة عارضة؛ وبدا المشروع كأنه لا مستقبل له. وبالفعل، فإن تولستوي، في السنوات الثلاث التي تلت، يُنجز كتب القراءة الأربعة، ويدفعها إلى الطباعة في ١٨٧٢، وتشغل بالَه، قبل كل شيء، فكرة كتابة رواية تجري في عهد بطرس الأكبر، رواية يُحرّك فيها جدّه بطرس تولستوي، تلك الشخصية الملتبسة التي تنتهي حياتها نهاية جدّ مثيرة. وهو يحيط نفسه بمجموعة من الوثائق ويقرأ كتب التاريخ، ويُعيد كتابة البداية نحو عشر مرات، ثم يَعجز، في نهاية الأمر، عن الانتقال بالخيال إلى عصر العاهل العظيم، السحيق البعد، فيَهجُر مشروعَه ليعود إلى المخلوقات التي تُحيط به. إلى الوسط الاجتماعي الذي يعرُفه حق المعرفة والذي يستطيع أن يصفه بوضوح أعظم.

■ الكسندر سولوفييف

ISBN 978-2-843090-56-1